

مكتبة | 1616

يان ليانگه

قُبَلات لينين

ترجمة: محمد آيت حنا



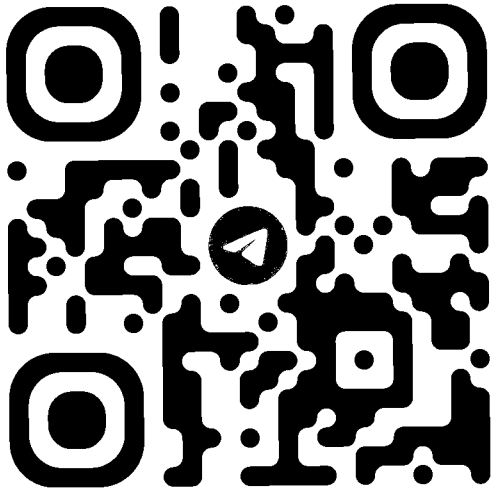
منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING



قُبَلَات لِينِين

انضم لـ مكتبة .. اصصح الكود

telegram @soramnqraa



يان ليانكه

مكتبة | 1616

قُبلات لينين

رواية

ترجمة

محمد آيت حنا

مرايا

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



29 12 23

مكتبة

t.me/soramnqraa

الكاتب: يان ليانكه

عنوان الكتاب: قُبَلَات لينين

ترجمة: محمد آيت حنا

العنوان باللغة الأصلية: (Bons baisers de Lénine (shou huo)

الكاتب: Yan Lianke

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-55-7

الطبعة الأولى - أغسطس/ آب - 2021

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناسر ©

© Yan Lianke 2004

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: + 965 98 81 04 40

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: + 964 78 11 00 58 60



takween.publishing@gmail.com



takweenkw



takween_publishing



TakweenPH



www.takweenkw.com

الكتاب الأول

جذورُ فرعية

الفصل الأول

البؤ حار؁ الثلج يسقط؁ الطقس مريض

أنظر: كانت موجة الصّهد؁ كنّا في حالٍ غير طيّبة (١)؁ وسقط
الثلج! سقط ثلجٌ حارٌّ (٣).

ما بين عشيةٍ وضحاها عاد الشتاء. أو بالأحرى: في غمضةٍ
عينٍ رحل الصيفُ؁ فعجّل الشتاءُ بأخذ مكانه من دون أن يترك
للخريف فرصة أن يحلّ. كان الصيفُ حارقاً؛ وتضعف الطّقسُ
متجاهلاً كلّ قانونٍ؛ أصابته نوبةٌ صرع. بين عشيةٍ وضحاها انقضّ
الثلجُ؁ مستخفاً بأشدّ القوانينِ كونيّةً؁ وكاسراً القواعدَ المقرّرة.
الطقسُ مريضٌ؁ حقاً لقد فقدَ صوابه.

كان القمح قد نضج. وبما أنّ القمح قد نضج فقد كان أريجه
يضوعُ من تحت الطّبقة البيضاء التي غطّته. وكان سكّان طيّبة (٥)
في اللّيلة السّابقة قد خلدوا إلى الفراش وهم يروّحون عن أنفسهم
بأوراق من نبات البوط؁ ويدفعون عن أنفسهم الملاءة. فالتمسوها
ليغطّوا بها أنفسهم حين أيقظهم فجأةً؁ وسط اللّيل؁ دويٌّ عاصفةٍ.
ثمّ لما واصل البردُ التسلّل من كلّ الفجوات؁ مخترقاً العظامَ؁ عاصراً

الأحشاء، اضطروا إلى أن ينهضوا من مضاجعهم ويُخرجوا البطّانية من الصّندوق أو الدّولاب حيث كانت مخزّنة.

ولما طلع النّهار، دفعت النّساء الباب، وبصوتٍ واحدٍ صحن: «أوه! لقد سقط الثلج! ثلجٌ غليظٌ حارٌّ في عزّ الشهر السّابع!».

وبعد أن ظلّ الرّجالُ للحظةٍ صامتين، تنهّدوا: «وأسفًا! الثلج الحارّ. هي سنةٌ أخرى من سنواتِ البقرات العجاف».

أمّا الأطفال، فمتحمّسين حماسةً رأسِ السّنة، أخذوا يصيحون: «أوه! سقط الثلج! سقط الثلج!».

أشجارُ الدردار والصفيراء والخبازية والخور كان يكسوها بياضٌ مطلق. في الشّتاء وحدها الغصونُ والفروع تتغطّى بالثلج، لكن صيفاً تصيرُ مثقلةً وأوراقها سميكة، إذ يتراكم الثلج فوقها متجمّداً فتتشكّل فوقها تلالٌ منه. يبدو الأمر أشبه بمظلات عملاقة سميكة ومفتوحة. وخلّل الأوراق التي ترزح تحت ثقلها تنزلق تلك التلال، فتتحطّم على الأرض كأنّها كُراتٌ من طحين، محدثةً صوتَ بلوك، بلوك، وراسمةً دوائرٍ من نورٍ.

ذاك الثلجُ الغليظ الحارُّ كان قد سقط على القمح وهو في أوجِ نضوجه، وتحولَ غيرُ ما محلٌّ (٧) بين الجبال إلى أرضٍ شتوية. في القطع الأرضية التي التحمت بعضها ببعضٍ انحنت السّنابل، مدفونةً بلا حولٍ ولا قوّة تحت طبقةٍ تنبثق منها، هنا وهناك، بعضُ السّيقان المكسورة الرّؤوس، وقد غطاها هي أيضاً الثلج وتبعثرت كحالٍ مرعىٍ أو سهلٍ غبّ العاصفة. وإذا ما كان أريجُ القمح ما

يزال يضوع في الجبل وعند حواف الحقول، فإنّما ذلك أشبه بروائح
البخور التي تبقى في غرفة الميت بعد أن يُحمَلَ التابوتُ.

أجل، كما ترى: في عزّ موجة الصّهد سقط الثلج، لم يعد ثمة
غير البياض.

صار العالمُ أبيضَ.

وهل نحتاج إلى أن نقول: في عزّ الشّهر السّابع من سنة التّنين
هذه، كان الأمر بالنّسبة إلى سكّان الجبل وواديه، طيّبة، كارثةٌ عظيمةٌ؟

تعليقات

(١) أن تكون في حال طيّبة - لهجة محليّة. (شمال-غربيّ خنان ومنطقة
جبال بالو). «تذوّق ملذّات الحياة»، «الاستمتاع بشيءٍ ما»، «أن تكون سعيداً»،
«أن تُقبل على الشيء بقلبٍ منشرح». وفي منطقة بالو قد تحوز العبارة معنى
الفرح وسط الشّقاء، أو التلذّد بالشّقاء.

(٣) الثلج الحارّ - لهجة محليّة. ثلج الصّيف. سكّان المنطقة يقولون غالباً
«الأيام الحارة» إشارةً إلى الصّيف، ومنه: ثلج حارّ، ثلج رقيق حارّ، ثلج غليظ
حارّ. ليست الظّاهرة بالشّائعة، لكن بالرجوع إلى الحوليات والتّواريخ المحليّة،
لاحظتُ أنّها تحدثُ بشكلٍ دوريّ، حوالي عشر سنوات أو بضع عشرات من
السّنين بين حدثٍ وآخر. لا بل قد حدث، في أزمنة ما، أن وقعت تلك التّساقطات
في فصول صيفٍ متتالية.

(٥) طيّبة: قرية ترجع، بحسب ما يقال، إلى عمليّة التّهجير الكبرى التي
خضعت لها ساكنة شانشي تحت حُكمي هونغشي ويونغلي من سلالة مينغ.
بمرسوم تقررَ ألا يبقى من الأسر التي تضمّ أربعة أفرادٍ إلا فردٌ واحدٌ؛ وفردانٍ

إذا ما كانت الأسرة مكوّنة من ستّة أفراد؛ وثلاثة في حال كان عدد الأفراد تسعةً. عموماً كان يُترك في القرية المعاقون والعجائز، ذاك أنّ الشّباب هم من كانوا يلتحقون بركب المهاجرين. كان عدد المرحّلين كثيراً - عدد الانطلاقات كان يبلغ عشرات الآلاف يومياً - لدرجة أنّ النّحيب كان لا ينتهي. وبعد مدّة أبدت السّاكنة مقاومةً، فأصدرت الحكومة مرسوماً: من لا يرغبون في الرّحيل عليهم أن يتجمّعوا، في غضون ثلاثة أيّام، تحت شجرة صفيراء ضخمة بإقليم هونغدونغ، أمّا الآخرون، أي المتطوّعون، فبوسعهم الانتظار في بيوتهم. انتشر الخبر كالنّار في الهشيم، ومن كلّ مكان هرع النّاس إلى جذع الشّجرة. يقال إنّ أسرة كان الأب فيها أعمى، والابن البكر لم يقف يوماً على قدميه، فحملهما الابن الأصغر، مدفوعاً بمقاطعة القرابة، في عربة يدوية، وأخذهما حتّى هونغدونغ، ثمّ عاد إلى بيته ومكث منتظراً الترحيل الذي لا مفرّ منه. لكن عند نهاية الأيام الثلاثة، وبينما الحشد يتكدّس، مُذهلاً، جاء جيش مينغ وبالقوّة فرض على تلك الآلاف المحتشدة من النّاس أن تسلك طريق المنفى. وحدهم من بقوا في منازلهم صار بوسعهم مواصلة زراعة حقولهم.

كان المهجّرون يُحصّون بالرّأس، وسواء كنت أعمى أو أعرج أو أشلّ، أو كنت امرأة أو طفلاً، أنت تَمُتَلُّ: زائد واحد. وعلى الرّغم من أنّ الشّيخ الأعمى لم يكن يستطيع حمل ابنه المعاق، إلّا أنّه كابر وحمله على ظهره وسار به في الرّكب مترنحاً. الابن كان العينين: كان يبيّن الطّريق. والأب كان القدمين، قدمين أبلتُهُما السّنون: أيّ مشهد مؤلم هو، أيّ مشهد مثير للشفقة! كان ينبغي السّير قدّما بلا توقّف. المشي طيلة النّهار، وانتظار اللّيل للرّاحة. من هونغدونغ بشانشي، كان عليهم أن يسيروا باتّجاه سلسلة جبال بالو، غربيّ خان. ربلتا ساقّي الشّيخ صارتا محمّرتين ومتورّمتين، وصفحة قدمه دامية. وابنه الدّامع العينين، كثيراً ما راودته فكرة الانتحار. ولفرط ما بكى مع الرّجلين رفاق رحلتها، وتألّموا لآلامهما، قرّروا أن يلتمسوا لهما العفو من عند موظّفي الإمبراطورية الذين كانوا يقودون الموكب: أليس من الممكن إطلاق سراحهما وتركهما يستقران هنا حيث وصل الرّكب؟ درجة درجة، سار الملتمس مرتقياً سلّم التراتبية حتّى بلغ

الوزير، خو داهاي، الذي رفضه بقسوة: إن أُعتقت ولو نفس واحدة، فسيُعتبر ذلك جريمة يُعاقب مُرتكبها بالموت، وتُرحَلُ عائلته بأكملها مقيّدة في حبل.

ولم يكن المدعو خو داهاي ذاك مجهولاً عند سَكّان شانغدونغ، وخنان، وشانشي. يقال إنّه ينحدر من أولى المقاطعات الثلاث السابق ذكرها، وإنّه قد قرأها نهاية حكم سلالة يوان ليتعاطى التسوّل في مكان أبعد. كان رجلاً ذميم الوجه، لكن فأرع الطول، دائماً عاري الصدر لكن بهيئة خطيرة، شعره غير مسرّح لكن سمته عسكري. كان شخصاً جذاباً رغم ضيق أفقه، طافحاً بالحيوية وإن كان خاملاً، كائنًا يزدرية الجميع بلا مواردٍ بسبب خلقته وخلقه على حدّ سواء. كانوا يفرّون منه كما يفرّ المرء من الوباء. وطيلة الوقت الذي قضاه مشرّداً، نادراً ما كانت تُمدُّ إليه يد الصدقة. كان يكفي أن يُطلّ شخصه أوقات الطعام لكي تغلق في وجهه الأبواب. وذات يوم، وهو على شفا الهلاك جوعاً وعطشاً، لمح في هونغدونغ منزلاً فخماً عالي الباب أخضر البلاط، فأمل أن يجد عنده ما يسدُّ به رمقه. يا لحسرتة! حين مدّ يده إلى سيّد المنزل رفض هذا أن يعطيه أدنى فتات. وإمعاناً في إذلاله رمى الرّجل إلى الكلاب بحلوى غاليت خرجت لتوها من الفرن، بعدما طلب من حفيده أن يمسح بها استه. ثم أطلق في إثره كلابه الضخمة. مُذاك اليوم كره سَكّان المنطقة. فهاجر المقاطعة، ليتسوّل بعيداً، في جبال بالو غربيّ خنان. معذباً دائماً بالعوز إلى الطعام - في كلّ خطوة يخطوها كان يبدو أنّه سيهوي -، لمح كوخاً في قعر واد، حيث عجوزٌ وحيدة تطهو خبزاً من النّخالة والأعشاب البرية لتتغذى به. تردّد، تلكاً، ثم قرّر ألا يطلب شيئاً. كيف له أن يعرف ما إذا كان في قلوب هؤلاء النّاس رحمة؟ لكن هي رآته. لحقته، فأجلسته، ثم حملت إليه طشت ماء ليغتسل، ولم تكتفِ بأن أطعمته، وإنّما فعلت كلّ ما في وسع المرء أن يفعل. غير أنّها لم تُجبه ولا بكلمة حين أغرقها شكراً بعدما طعم من طعامها: إنّ هذه المرأة اليابسة كمود خشب، كانت علاوة على إعاقتها خرساء صماء. أمّا هو، وقد وقف على كرم سَكّان بالو وقارنّه بقسوة سَكّان هونغدونغ، فقد قطع على نفسه العهد بأن ينتقم ذات يوم من هؤلاء ويردّ الجميل إلى أولئك. ولاحقاً،

بعدما تجنّد في فيالق تشويوانتشانغ الذي سيصير مؤسس سلالة مينغ، انطلق في ساحات المعركة صائحاً باسم بوذا ولاعناً أسلاف العدو، ومات ألف مرّة وفي كلّ مرّة يولد من جديد، فلنّت إقدامه الأنظار. لقد كان هذا الصّعلوك الشّحاذ من الرّجال الذين سوف تدين لهم السلالة بصعودها. ومنذ السّنة الأولى من اعتلاء الإمبراطور الحكّم، وقد وقف على حال الضّيع الذي خلّفت الحرب فيها البلاد، صاح بصوت أسف: «إنّ السّهل الأوسط لم يعد إلا قفراً مهجوراً ليس ثمة من موضع في الأرض لم تطله الحرب، الشّقاء أصاب كلّ ركن، أكوام العظام تتكدّس كالتلال، السّاكنة هلكت. مهمّاتنا المستعجلة إذن هي أن نستصلح الأراضي، ونعمرها» تقرّر إذن القيام بهجرات مكثّفة وعيّن خو داهاي وزيراً للهجرات. فبدأ إذّاك بالنّسبة إلى سكان شانشي -تحديداً الجهة الأشدّ كثافةً سكانية في منطقة هوندونغ- ما يشبه الخروج الكبير نحو شانغدونغ. ومن البين بنفسه أنّ عائلة الشّيخ الفنيّ، التي كانت فيما مضى تمسح بالحلوى الطّازجة المؤخّرات وتلقي بها إلى الكلاب قد كانت من أوائل المرحّلين، هي ومن جاورها وما أحاط بها من قرى. لم يحظوا بحقّ أن يتركوا خلفهم أحداً، ولا أن يودّعوا بلدهم الأمّ، فما أفلت أحدٌ منهم من التّهجير: لا طفلاً ولا شيخاً ولا أعمى أو أعرج.

ذلكم كان السّبب في أنّ خو داهاي لم يشعر بأيّ تعاطف تجاه الشّيخ الضّريع المنحدر من هونغدونغ الذي كان يسير في الرّكب حاملاً على ظهره ولده المشلول. كان يتلذّد بانتقامه: لا سبيل إلى إعفائهما وتركهما حيث هما. يجب أن يُجبر الأب والابن على السّير، محكومين بأن يقطعوا تلك المسافة الهائلة على الرّغم من ألامهما الرّهيبية. وبعد بضعة شهور، حين أغمي عليهما أثناء عبورهم جبال بالو، فالتّمسّ لهما العفو مرّة أخرى، كان الوزير يتهيأ لأن يقتل بضربة من سيفه كلّ من جرؤ على أن يطلب منه إبداء مشاعر العطف تلك. غير أنّ بين المهجّرين الذين التمسوا عفوّه كانت امرأة عجوز: الخرساء-الصّماء التي أطعمته فيما مضى. على الفور ألقي بسلاحه وارتعى عند قدميها.

غنيّ عن القول إنّّه قد أطلع نظرتها المتوسّلة، وأعتقهم. لا بل أكثر: أمر لهم

بعطيّة سخيّة، ووجه سرّيّة من جيشه أن تبنيَ لهما منزلاً، وأخرى أن تستصلح لهم قطعة من أرض جيّدة، وتحوّل جهتها مجرى النهر. ثمّ إذ تهياً للرحيل، توجه إلى الأعمى والخرساء-الصّماء والأشّل، قائلاً:

«في هذا الوادي، الماء غزيرٌ والبادية خصبة. لديكم المال والمؤن، فاستقروا هنا، وازرعوا الأرض وعيشوا في حال طيبة».

ذلّكم كان أصلُ تسمية الوادي. وفيما بعد انتشر خبرُ ثلاثة معاقين يعيشون فيه، يقضون أيامهم كمائلة تعيش في الجنّة، فقصدهم المعاقون من كلّ حدب وصوب، من القرى المجاورة، لابل من المقاطعات والأعمال المحيطة. وسواء كان القادمُ أعمى أو أعرج، أو أكتع، أو كانت إحدى ساقيه أقصر من الأخرى، أو كان قد كسرهما بنفسه، فلا بد أن تخصّصَ العجوزُ بعطيّة وأرض. راضين بمصيرهم، تزوّج القادمون بعضهم بعضاً، وأنجبوا، فتكثّروا، ووُلدت القرية. أغلب نسلهم كان يعاني عيوباً وراثية، لكن ذلك كان بلا أهميّة تذكر، إذ بفضل التدابير التي اتخذتها الخرساء كانوا يعيشون جميعاً في تناغم. سُميت القرية طيبة، وصارت بمثابة الرّوح الحارس.

تلكم هي الأسطورة. مجرد حكاية، لكن الجميع يعرفها.

أمّا التّاريخ، كما هو مذكورٌ في حويلات إقليم شوانهواي، فيخبرنا أنّ القرية ضاربةٌ في القدم، حتّى وإن لم ترد لها إشارة مكتوبةٌ إلا في القرن الماضي. كما يخبرنا ذاك التّاريخ أنّ طيبة فضلاً عن ميزة كونها مستوطنة للمعاقين، فإنّها يمكن أن تُعتبر مكاناً ربيعاً للثورة، إذ إنّها كانت محلّ إقامة ماو تشي، إحدى مقاتلات الجيش الأحمر. ولنذكّر بأنّه في خريف ١٩٣٦، سنة الفأر بحسب التقويم القمريّ، انفصل الجيش الرّابع الشيوعي بقيادة تشانغ غوتيو، ولما بلغوا شانشي قرّروا مواصلة طريقهم أبعدَ باتجاه الغرب. لكنّ تشانغ كان يخشى أن يُبطئ المعطوبون تقدّم الجيش - وكلّما زاد تقدّمهم صوب يانان كانت الحقيقةُ تزداد انكشافاً، ويتعمّق الانقسام. لذا أرسل القائدُ إلى ديارهم كلّ من كانت إصاباتهم غير بليغة. وللأسف، ما إن ترك أولئك الأشقياء، العرجان والبتر، دامعي العيون، الرّفاق الذين عاشوا معهم وحاربوا إلى جانبهم ليلاً ونهاراً،

حَتَّى لَقِيَتَهُمْ فَيَالِقُ غُومِيْنَدَانِغ. أَكْثَرُ مِنْ نَصْفِهِمْ قُتِلَ. أَمَّا النَّاجُونَ، وَقَدْ تَفَاقَمَتْ حَالُهُمْ، فَقَدْ اضْطَرُّوا إِلَى أَنْ يَتَخَلَّوْا عَنْ زِيَّهِمُ الْعَسْكَرِيِّ وَيَتَخَفُّوْا فِي مَلَابِسٍ فَلَا حِيْنَ لِيَتِمَكَّنُوا مِنْ أَنْ يَسْلُكُوا طَرِيقَ الْعُودَةِ إِلَى مَسْقَطِ رَأْسِهِمْ.

تُقَدِّمُ الْحَوْلِيَّاتُ مَاوَتَشِي بِاعْتِبَارِهَا أَصْغَرَ الْجُنُودِ فِي الْجَيْشِ الْأَحْمَرِ، حَيْثُ التَّحَقَّتْ بِصَفْوَفِهِ فِي الْحَادِيَةِ عَشْرَةِ مِنْ عُمْرِهَا، قَبْلَ أَنْ تُسَرَّحَ مِنْهَا فِي الْخَامِسَةِ عَشْرَةِ. كَانَتْ يَتِيْمَةً تَكْفُلُهَا الْقَوَاتُ الثَّوْرِيَّةُ مِنْذُ النِّهَايَةِ الْبَطُولِيَّةِ الَّتِي عَرَفَتْهَا أُمُّهَا أَثْنَاءَ الْمَحَاوَلَةِ الْخَامِسَةِ لِكَسْرِ حَصَارِ الْعَدُوِّ، وَكَانَتْ تَعْرِفُ أَنَّ أَصُولَهَا تَنْحَدِرُ مِنْ خَنْانٍ، لَكِنَّهَا كَانَتْ تَجْهَلُ مِنْ أَيِّ قَرْيَةٍ وَمَقَاطِعَةٍ تَحْدِيدًا. لَمَّا تَوَفَّيَ وَالِدُهَا، فِي السَّجْنِ بَعْدَ الْإِضْرَابِ الْكَبِيرِ الَّذِي خَاضَهُ عَمَّالُ السَّكَّةِ الْحَدِيدِ بِتَشْنُغْتَشُو -أَيَّ إِبَّانَ سَنَةِ الْفَارِ، الْمَوَافِقَةِ ١٩٢٢- قَرَّرَتْ وَالِدَتُهَا الْإِلْتِحَاقَ بِصَفُوفِ الثَّوْرَةِ مَعَ طِفْلَتِهَا الَّتِي لَمْ يَكُنْ عُمْرُهَا يَتَجَاوِزُ آنَذَاقَ عَامًا وَاحِدًا. لَكِنَّ أُمُّهَا أَيْضًا تُوَفِّيَتْ، كَمَا أَسْلَفْنَا، أَثْنَاءَ شَهْرِ الْكَلْبِ الْمَائِيِّ، فَكَانَ رِفَاقُ السَّلَاحِ هُمْ مِنْ شَارِكْتِهِمُ الطِّفْلَةَ الْمَسِيرَةَ الطَّوِيلَةَ. وَحِينَ أَلْحَقَتْ، بَعْدَ مَنَعُطَاتٍ وَتَحَوُّلَاتٍ، بِالْجَيْشِ الرَّابِعِ صَارَتْ عَضْوًا فِيْ أَعْقَابِ ذَلِكَ. وَبَعْدَمَا تَجَمَّدَتْ أَصَابِعُ قَدَمَيْهَا وَفَقَدَتْ ثَلَاثَةَ أَزْوَاجٍ مِنْهَا، مِنْ أَصْلِ خَمْسَةٍ، أَثْنَاءَ تَسَلُّقِهَا الْجِبَالِ الْمُتَلَجَّةِ، أَلْفَتْ نَفْسَهَا قَدْ صَارَتْ غَيْرَ لَائِقَةٍ إِلَى الْأَبَدِ، وَمُذْ هَوَتْ فِي وَادٍ وَكَسَرَتْ سَاقِهَا الْيَمْنَى صَارَتْ لَا تَسْتَطِيعُ السَّيْرَ بِغَيْرِ عَكَازٍ. وَحِينَ قُتِلَ أَغْلَبُ الْمَصَابِينِ الَّذِي أَمَرُوا فِي شَانْتَشِي بِأَنْ يَعُودُوا إِلَى دِيَارِهِمْ، أَوْ تَفَرَّقُوا فِي الْأَرْضِ -وَقَدْ نَجَتْ هِيَ بِأَنْ اخْتَبَأَتْ فِي قَبْرِ-، فَقَدَتْ كُلَّ اتِّصَالٍ بِالنَّظِيمِ. مَتَسَوِّلَةً لِقَمَةٍ عَيْشِهَا، سَلَكَتْ الطَّرِيقَ إِلَى خَنْانٍ، فَعَبِرَتْ بِطَبِيبَةٍ فِي جِبَالِ الْبَالُو، وَلَا حَظَّ أَنْ ثَمَّةَ جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِ الْأَجْسَادِ الشَّائِئَةِ قَدْ قَرَّرُوا الْإِسْتِقْرَارَ هُنَاكَ. وَبِحَسَبِ الْحَوْلِيَّاتِ دَائِمًا، لَمْ تَكُنْ تَمْلِكُ أَيَّ حِجَّةٍ عَلَى مِشَارِكَتِهَا فِي الْجَيْشِ الْأَحْمَرِ، لَكِنَّ الْجَبَلَ بِأَكْمَلِهِ، وَسَاكِنَةُ الْمَقَاطِعَةِ جَمِيعًا، كَانُوا يَعْتَبِرُونَهَا مُحَارِبَةً أَصِيلَةً، مُقَاتِلَةً مِنْ مُقَاتِلِي الثَّوْرَةِ الْمُخْضَرِّمِينَ. أَشْرَقَتْ بِمَجْدِهَا الْمُنْطَقَةَ، وَأَضْفَى حُضُورُهَا مَعْنًى عَلَى حَيَاةِ الْقَرْيَةِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سَكَّانَ الْقَرْيَةِ كَانُوا فِي أَغْلِبِهِمْ -إِنْ لَمْ نَقُلْ فِي كَلِيَّتِهِمْ- غَيْرَ لَائِقِينَ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْضُونَ أَيَّامًا مُمْتَعَةً، وَمَرَحَةً، وَسَعِيدَةً، وَهَانَتْ.

في المقال المخصّص لماو تشي، بعد الصيفة المراجعة من الحوليات إبان سنة القرد، الموافقة لسنة ١٩٨٠، تُوصف بأنّها كانت سعيدة في طيّبة، حيث كان السّكان جميعاً سعداء. اسم القرية هو إذن بالفعل اسمٌ على مسمّى.

(٧) محلّ: لهجة محلّيّة: موضعٌ، مكانٌ. في هذا المحلّ: في هذا الموضع، في هذا المكان.

الفصل الثالث

مجدّداً، تنتظر سگان طيبة مشاغل

يا ربّ السماء! سقطت الثلوج سبعة أيّامٍ. سبعة أيّام وهي تخنق السماء.

طيلة أسبوع، صيرّ الثلج الحارّ الصيف شتاءً. ثم هدأت العاصفة. واستغلّ بعضهم هدوءها، لكي يخرجوا إلى أراضيهم فيحصدوا القمح. لا حاجة إلى مناجل: الأيدي عارية كافية لإمساك رؤوس السنابل، ثم ضربة من مقصّ، ويُلقى بها في السلال أو الأكياس التي تُصفّ بعد ذلك، بعضها لصق بعض، عند طرف الحقل.

كانت جوميّ البادئة إلى العمل. الأم وتوأمتها الثلاث (١)، قزّمات (٣) في عمر الزهور، اصطففن مثل نباتات زينة، وقد علّقن عند جوانبهنّ أقفاصهنّ، أو حقائبهنّ أو سلاهنّ المصنوعة من قصب البامبو. كنّ يغرسن أيديهنّ اليسرى في الثلج البالغ سمكه نصف قدم، ويلتقطن رأس السنبل، فيسحبنها، ثم يقطعنها بضربة من المقصّ في أيديهنّ اليمنى.

مكتبة

t.me/soramnqraa

وفي إثرهنّ ما لبثت أن انطلقت إلى الحصادِ كُلِّ القرية، من
أفتاها إلى أسنّها، عُمياناً وعرجاناً.

كان يوم عملٍ شاقٍ، في طقسٍ سيّءٍ.

على المنحدرات التي يغطيها بياضٌ لا يُحَدُّ، تناثر السّكانُ،
يتحرّكون مثل قطع خراف. وأصواتُ مقاصّهم تطلقُ رنيناً أجشّ
بارداً، يُرجّفُ صداهُ الأرجاء.

قطعةُ أرضٍ جومي الصّغيرةُ، تحفّها قطعتان أخريان، وحافّتها
تتجّه صوب جبل الأرواح الميّتة، الواقع أقصى سلسلة جبال بالو.
ولم تكن القطع الأرضية إلا نتوءاً في الأرض حسنة الاستواء،
وبغضّ النظر عن زواياها أو استداراتها، تنتهي عموماً إلى اتّخاذ
شكلٍ مربّع. تونغهوا، البنتُ البكرُ، لم تكن تذهب إلى الحقل،
لأنّها كانت عمياء. تقضي سحابةً يومها في المنزل، حيث تتناول
طعامها، وتتمشّى حتّى الباب... وطيلة حياتها لم تتجاوز مدخل
القرية، هناك حيث قمة التلّ. وحيثما كانت، يكون العالمُ أصفراً
فاتراً.

حين تستعرُ الشّمسُ يحدثُ أن تميّزَ البنتُ فيها كرةً ورديةً
شاحبة. لكنّها تجهلُ أنّ اللّونَ ورديّ شاحب. لذا تقول إنّ الأمرَ
أشبه بأن يتلمس المرء بيده ماءً عكراً: وبالفعل كان في الأمر شيءٌ
من ذاك الإحساس.

هي لا تعرفُ أنّ الثلج أبيض، والماء صافٍ، وأنّ أوراق
الأشجار تخضّرُ في الرّبيع، وتصفّرُ في الخريف، ثمّ تسقطُ يابسةً

باهتة. ولحسن الحظّ، كان باقي أفراد الأسرة يعرفون كلّ ذلك! ولكلّ ما سبق ذكره، لم تكن البنتُ تدري ما تصنع بأيّامها، اللّهم إلا الأكل واللّبس؛ فليسقط الثلجُ صيفاً إن شاء، ما همّها هي؟ إنّ تساقطات الثلج الكبيرة في فترة الحرّ، لا تعنيها. لذا ظلت هي بالبيت، حين سارت أخواتها الثلاث، هوايها ويوها وفلين، مثل كتاكيت صغيرة، في إثر أمهنّ للقيام بأشغال الحقل.

تبدّل العالم. لم تعد تظهر لا وديان ولا قمم، اختفى كلّ شيءٍ تحت طبقةٍ من بياضٍ برّاقٍ، والنّهرُ وحده ظلّ يسيلُ في قعر الوادي، صافياً، وإن علاه عند قمة التلّ، سوادٌ برّاقٌ كسواد الورنيش. كانت حرمي وتوأمتها، يحصّدن القمح، وعلى الرّغم من أنّ أيديهنّ قد احترت من البرد، إلا أنّ العرق كان يتلألأ على جباههنّ.

الفصلُ صيفٌ، على أيّ حالٍ.

الأمّ تقود بناتها، وكلّ واحدةٍ منهنّ مسؤولةٌ عن ثلاثة أخابيد، يسحبن ويقطعن، كأثهن آلاتٌ قلبت الأرض النقيّة. قدّامهنّ طبقةُ الثلج ممتدةٌ مستوية، لكن خلفهنّ، على طريق سيرهنّ، تسود الفوضى، وكأنّما تعارك عليها سربٌ دجاج أو قطيع كلاب. وكان المارة يبتهجون لكومة السّنابل في طريقهم، وينظرون بعيون دهشة في اتجاه الحقل، قائلين: «أي جومي! أعرف من عند من سأطلب الحبوب إن احتجتها!».

فتلفت هي إلى القائل، وتجيّه: «سأعطيك ما شئت، إن بقيَ عندي!».

وآخرون يقترحون عليها: «يوم لا يبقى عندك قمح، زوّجي بناتك!». .

مبتهجةً، تضحكُ من غير أن تجيبهم.

ثمّ ينصرفون، إذ ينتظرهم، هم أيضاً، حقل.

في كلّ قطعة أرضية^[١] تمضي الأشغال. حتّى العميان يساعدون ما استطاعوا - خاصّة إذا ما كانت العائلة تنقصُها السّواعد. يقودهم المبصرون حتّى مدخل القطعة الأرضية، وينتزعون بعض السّنابل، فيدّسونها لهم في أيديهم، ثمّ يأمرّونهم بأن يتقدّموا في خطّ مستقيم حاصدين، متلمّسين طريقهم. وحين لا يجدون شيئاً، ما عليهم أننّذ إلا أن يدوروا على أعقابهم ويتحرّكوا في المنحى المعاكس. أمّا البقية الباقية من غير العُمي، أي العُرج، أو الشلّ، أو النّاس - تأمّون (٥)، فكانوا يعملون بطريقة واحدة: يجلسُ الواحدُ منهم على لوح مستوي وزلق، فيحصّد قبضةً من سنابل، ثمّ يُميل جسده إلى الأمام لكي يتحرّك متزحلقاً باللّوح. كذلك كانوا يتحرّكون أسرع حتّى ممّا يتحرّك السّليم على قدميه! ومن لم يعثر منهم على لوح يتزحلق به، استعان بغصن صفصافٍ، يتّخذهُ عكازاً يتحرّك به.

وكان البُكم، والصّم، يعملون من دون أن يزعجوا أحداً: لا يتكلّمون، ولا يسمعون، وأياً يَكُن ما يجري في أذهانهم، فإنّهم ما أن ينكبّوا على العمل حتّى يفوقوا الجميع كدّاً. كانوا أسرع عملاً.

[١] المقصود «مو»، وهي وحدة قياس صينية تساوي تقريباً ٦٧، ٦٦٦ متراً مربّعاً. (الحواشي من وضع المترجم، ما لم تتم الإشارة إلى خلاف ذلك).

ونحو الظَّهيرة، صار طريق التَّل يَضوع برائحة القمح المبتَل.
كان الثلج يتناقص بهدوء.

وحين بلغت جومي وبناتها طرف قطعتهن، ظهر على طريق
التَّل ثلاثة أشباح. ثلاثة ناس-تأمين، ثلاثة رجالٍ من المدينة.
وبعدما جاسَ الثلاثة المكانَ بأعينهم ووقفوا على الوضع، جعلوا
أكفهم مكبرات صوتٍ، وصاحوا قائلين شيئاً. لكنَّ الطَّبيعة القفر
والثلج ابتلعا أصواتهم، كما تبتلع البئرُ النَّدف المتساقطة فيها.
وانتهى المطاف بالأُم أن انتصبت واقفةً، وقالت: «اذهبن، فانظرنَ
ماذا يريدون».

وما كادت الكلمات تجتاز شفيتها -وكانت هوائها تتأهب
للتحرّك- حتّى انطلقت فلين كفراشة.

قالت أختها محتجّة: «أيتها الإبلية الصّغيرة!

فأجابتها: - انتبهي إلى ما تقولين! ماذا لو سمعت السَّماء كلامك
حرفياً؟».

ثمَّ انطلقت تشب في الثلج الذي كان يصرُّ تحت أقدامها، وبخفّةٍ
بلغت التَّل، مثل الحشرة أو عصفور الدوريّ حين يمرح في الحقل.
وكانت ضئيلةً جداً، لدرجة أن الرّجال دهشوا من منظرها.

جثا أحدهم أمامها وسألها: «- كم عمرك؟

- سبع عشرة سنةً.

- وكم طولك؟

أجابته غاضبةً حائرة: - ليس شأنك!«.

ابتسم: «ثلاثة أقدام، من النظرة الأولى!».

اغتاظت: - وأنت؟

داعب الرجل رأسها، وهو ما يزال يبتسم، وشرح لها أنه رئيس المقاطعة. أحد الرجلين المتلفعين في معطفيهما، كان رئيس الإقليم، والثاني السكرتير. قال لها: «اذهبي إلى مسؤولية القرية، ماو تشي، وقولي لها إن رئيس الإقليم قد أتى بنفسه يعاين الأضرار».

قالت بضحكةٍ مرحة: «- إنها جدتي! أمي هناك، في القطعة الأرضية، تحصد القمح.

- حقاً؟».

لكنّ الابتسامة المزمومة التي صاحبها سؤاله كانت غريبة.

«حقاً!».

التفت رئيس المقاطعة إلى رئيس الإقليم الذي صار وجهه، الخلي من كلّ تعبير، شاحباً كالشَّمع. وكانت أطراف شفّتيه ترتجفان ارتجافاً لا يُلاحظ، كأنّها أهانه شيءٌ فيما قيل، أو لطمه أحدهم لطمَةً. وعلى الفور سرح ببصره، من فوق رأس فلين، في الجبل الأبيض البعيد، ومن دون سببٍ ظاهرٍ استعاد وجهه لونه الطّبيعي. صار لا يعكس غير الصّفاء.

أمّا السكرتير، وهو شابٌّ طويلٌ، نحيلٌ، مشرق الوجه، فلم يكفّ عن تأمل هوايها ويوها، في الطّرف الآخر من الحقل. كانت

الأولى رقيقةً وضئيلةً، مليحةً ورهيفةً، رشيقةً وعذبةً كالماء، وكانت ترتدي كنزةً من صوفٍ قرمزيةً، تجعلها تبدو وسط الثلج، مثل كُرّةٍ ملتهبة. ولم يهتم، ولا لوهلةٍ، بأمر فلين التي كانت تكفيها نظرةً واحدةً لكي تقرأ ما في قلبه. فلما أدركت إعجابه المستغرب بأختها، نظرت إليه شزراً، ثم أشاحت عنه صائحةً بأمها:

«إنهم أتوا إليك يا أمي! وإلى جدتي!».

شعبت جومي، ثم ما لبث شحوبها أن تطبّع فجأةً بحمرةٍ قرمزيةٍ لطيفة. وعلى الرغم من أن الجو لم يكن حاراً، إلا أن العرق ظلّ يتلألأ على جبينها: كان يرشح مثل قِدرٍ بخاريةٍ أُخرجت إلى البرد. تحجّرت لحظةً في مكانها، واضعةً يدها على كيس القمح المتدلي من صدرها، ومسحت بنظرةٍ وجوه بناتها، ثم استعادت هدوءها: «لا بدّ أنهم من المسؤولين، وقد أتوا إلى جدّتك».

تضّرج خذاً هوايها حين أتى ذكرُ رئيسٍ مقاطعةٍ أو رئيسٍ إقليم. اضطربت. بالطبع كانت القرزماتُ الثلاث يتشابهن كثيراً، لكنّ من يدقق النظر لا بدّ أن يلاحظ أن ملامحها هي، كانت أكثر تناسقاً وبشرتها أشدّ بياضاً ونعومة. وكانت هي واعيةً بذلك، تراهنُ على تفوّقها، وتصبو إلى مكانةٍ أرفع، وتحلم بأن تضطلع بدورٍ مهمّ. تأملت مطوّلاً الأشباح الثلاثة على التلّ، ثم استدارت شطر أمها:

«إنّ جدّتي مجنونةٌ يا أمي، فإن كان الزائرُ حقاً رئيس الإقليم، فيستحسن أن تستقبله بنفسك، وسوف أرافقك».

لكنّ فلين قاطعتها حتّى قبل أن تكمل:

«يقولون إنّها ليست مجنونة، ويريدون مقابلتها».

أرسلت جومي، إلى القرية، في طلب أمّها.

محبطة، ألقت هوايها بنظرة إلى التلّ، ثمّ ضربت بقدمها الأرض غاضبة. وبتأثير الحنق اصطبغ وجهها بلونٍ ورديٍّ جعلها تبدو مثل زهرة خوخٍ بديعة.

ومن البين بنفسه أنّ الجدة، موضوع الحديث، لم تكن سوى طبيّة الذكر ماو تشي، التي تفخر بها الحوليات. وقد سلخت من السنين تسعاً وستين، فشهدت الكثير، حتّى إنّ عكاذاها ما عاد يشبه عكاكيز أهل القرية. يبدو كأنّها قد جيء به من إحدى مستشفيات المدينة: من ألنيوم أبيض رصاصيٍّ، مشكّل من ساقين دقيقتين، تسندان ساقاً ثالثة أعرّض سمكاً، مثبتةً ببراعيٍّ. طيّب، ربّما ليست السّاقان الدّقيقتان دقيقتان فعلاً، ولا السّاق الغليظة غليظة بحقّ، لكن المؤكّد أنّ أسفل العكاذا كان مغلفاً بالمطاطٍ وأسلاك الحديد تجنباً للانزلاق. وقبضته مغطاة بدستة من طبقات النسيج، ممّا يجعلها مريحة وملائمة للإبط. لا أحد من العرج أو الشلّ، بقرية طبيّة رأى عكاذاً في جمال عكاذاها. ففي أفضل الأحوال كانوا هم يمشون متوكئين على قطع من خشب الصّفصاف أو الصّفيراء، نحتوها في شكل قبضة مجرّفة، وترجّوا النّجار أن يحدث فيها فتحاتٍ وعيوناً. ثمّ يدبّرون لها مقبضاً، وبعض العمدان أو المسامير ليشدّ الكلّ، بعضه إلى بعضٍ، وها قد حازوا قدّمهم.

لا شيء إذن يمكن أن يُقارن بعكاز ماو تشي: عكازٌ أجمل وأفيد، يجعل الناظر إليه يدرك من فوره أن لحاملته مكانة وسلطة فعليتين. كان يكفي أن تظهر، وتضرب بعكازها الأرض، ليسوى أيّ مشكل في القرية، متوقع كان أم غير متوقع، ويُردم الخطر المتوعد كحفرة في السماء. ولنذكر ما حدث منذ شهر، حين طالبت الحكومة السكان بمائة يوان تكاليف صيانة الطريق؛ ألم تطرد، بضربات عصاً، رُسل الحكومة، أولئك الناس - تاقون المهابون المهيبون. وفي الشتاء الماضي، حين طُلب الجميع بتقديم مائة رطلٍ من القطن، ألم تنزع سترتها المصنوعة من القطن الصناعي، وبنهدين يتأرجحان على رؤوس الأشهاد، صاحت: «يكفيكم هذا؟ وإلا أستطيع أن أعطيكم السراويل؟» وحتى قبل أن يستوعبوا المشهد، كانت قد نزعت سراويلها!

صاحوا بها: «- ماذا تصنعين يا ماو تشي؟

أجابتهم مصوبةً إليهم عصاها: - تريدون قطناً، هاكم قطناً!«.

فلاذوا بالفرار متحاشين الضربات.

عكازها كان حربتها. وها هي ذي قادمةً تتوَكَّأ عليه، بخطى متثاقلة على الثلج السميك. أمامها تسير فلين، وتتقدم هي بخطى عرجاء، وفي أعقابها كلبان لقيطان مشلولان كانت قد كفلتهما.

وكانت القرية قد علمت بزيارة رئيس المقاطعة، مصحوباً برئيس الإقليم، ليعاينا الأضرار. طيلة سبعة أيام والثلج الحار يتساقط على سكان بالو، طبعي إذن أن تهرع الحكومة إلى نجدتهم،

وُخَصَّصَ لَهُمِ إِعَانَاتٍ، وَتَوَزَّعَ عَلَيْهِمُ الْمَالُ وَالْبَيْضُ وَالْحُبُوبُ
وَالسَّكَّرُ وَالنَّسِيجُ.

إِنَّ طَيِّبَةَ تَابِعَةً إِدَارِيًّا إِلَى مِقَاعِطَةِ السَّرُ وَضَمَنَ إِقْلِيمَ شَوَانِهَوَايَ.
وَالْآنَ، وَقَدْ رَأَى الْقُرُوءُونَ مُمَثِّلِي السَّلْطَةِ، فَقَدْ صَارُوا يَنْتَظِرُونَ
نَافِذِي الصَّبْرِ. يَتَابِعُونَ مَاو تَشِي، وَهِيَ تَتَقَدَّمُ نَحْوَهُمْ سَائِرَةً بِإِقَاعِهَا
الْمُعْتَادِ.

صَاحَ أَعْمِيَانِ اثْنَانِ كَانَا نَازِلِينَ مِنَ الْجَبَلِ، وَعَلَى ظَهْرِ كُلِّ
مِنْهُمَا كَيْسٌ قَمَحِهِ: «هِيَه! مَاو تَشِي! نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَعَرَّفَ عَلَيْكَ فَقَطْ
بِالسَّمْعِ! عَصِيَّ الْآخَرِينَ تَغُوصُ فِي الثَّلْجِ بِصَوْتٍ حَادٍّ، أَمَا عَكَازُكَ
أَنْتَ فَيَطْلُقُ صَوْتٌ «بَلُوف»!

- هَلْ حَصَدْتُمَا الْقَمَحَ؟

- لَا تَتَرَدَّدِي فِي الْمَطَالَبَةِ بِالنَّقُودِ، نَحْتَاجُ عَلَى الْأَقْلَ عَشْرَةَ آلَافٍ
لِكُلِّ بَيْتٍ!

- وَكَيْفَ لَكَ أَنْ تَصْرِفَ عَشْرَةَ آلَافٍ؟

- أَوْه! إِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ، سَوْفَ أَخْبَيْتُ الْمَالَ تَحْتِي السَّرِيرِ. إِنْ لِي
أَحْفَادٌ عَلَى أَيِّ حَالٍ.

دَنَا مِنْهَا أَصَمُّ، وَجَارٌ بِمَرْحٍ: «قُولِي لَهُمْ يَا مَاو تَشِي، إِنَّنَا لَسْنَا
بِحَاجَةٍ إِلَيْهِمْ. إِلَّا إِنْ كَانَ بَوْسَعُهُمْ إِعْطَاءَنَا آلَاتِ سَمْعٍ، نَظِيرَ تِلْكَ
الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا أَهْلُ الْمَدِينَةِ».

التَّحَقَّقْ بِهِمْ أَبْكُمْ، وَبِذَلْ جَهْدًا كَبِيرًا لِيُشْرَحَ بِالْحَرَكَاتِ: لَقَدْ

أصابت أسرته أضراراً بالغة، والقمح دُفن عميقاً في الثلج، حتّى
ليستحيل استخراجُه، ويخشى أنّه هذه السّنة أيضاً لن يستطيع اتّخاذ
زوجةٍ. فهل تتلطفُ ماو تشي فتسأل رئيس الإقليم ما إذا كان يقبل
أن يتوسّط له في الزّواج؟

«وكيف تريدُ زوجتك؟».

بيديه أشار إلى أنّه يريدُها طويلة، ثمّ قصيرة، ثمّ سمينّة، ثمّ
نحيفة... أصابعه تتحرّك في كلّ اتّجاه في الهواء.

ثمّ أتى نجارٌ أكتع، أعور، واضطلع بمهمّة الترجمة: «يقول إنّ
لا فرق لديه. أيّ أنثى ستفي بالغرض.

- حقاً؟».

هزّ الأبكم رأسه موافقاً.

فلما بلغت العجوز التلّ، كانت تحمل آمال الجميع. وفي الأثناء،
وجد رئيس الإقليم، ورئيس المقاطعة ما يكفي من الوقت ليضجرا،
كان نفاذ الصبر واضحاً على وجهيهما، ولم يستطع الثاني أن يمنع
نفسه من التقدّم صوبها بخطواتٍ، حين لمحها قادمةً تعكز. أمسك
بها من ذراعها. أكان يتصوّر بأنّها، ما إنّ تصير وجهاً لوجهٍ مع رئيس
الإقليم، حتّى تنتصب فجأةً وتضعه بنظرةٍ مرعبة، حتّى تضطرّه إلى
أن يشيح بنظره، فيستغرق في تأمل السّنابل على الضّفة الأخرى؟
حدث الأمر بسرعة. فما كاد الرّجل يفتح فمه ليقدم نفسه، حتّى
انقلب وجه ماو تشي إلى أخضر كامد. وفي لمح البصر انتقل العكاز
خلف قدميها: في وضعية هجوم.

قال: «أقدم لك السيد لو، وقد عُيِّنَ مؤخراً على رأس الإقليم...». أَلَقْتُ على المعنِيّ نظرةً قائمةً، ثُمَّ أَشَاحَتْ عَنْهُ وَعَيْنُهَا تَبْرُقُ، وَصَاحَتْ: «هُوَ؟ رَئِيساً عَلَى الْإِقْلِيمِ؟ يَا رَبَّ السَّمَاءِ! مُسْتَحِيلٌ! كَيْفَ لَهُ أَنْ يَكُونَ رَئِيسَ إِقْلِيمٍ؟ إِنَّهُ حَلُوفٌ، مِعْزَى، كَلْبٌ نَافِقٌ-قَرَّ (٧). دَوْدَةٌ فِي لَحْمٍ خَنَوصٍ^[١] عَفِنَ!» ثُمَّ سَحَبَتْ شَفَتَيْهَا إِلَى دَاخِلِ فَمِهَا الْأَدْرَدَ، لَكِي تَبْصُقَ عَلَى وَجْهِهِ بِشِرَاسَةٍ رِيْقَهَا الْعَتِيقُ. وَصَاحَتْ بِصَقِّهَا صَبِيحَةً مُحْتَقِرَةً، فِيهَا مِنَ الْقُوَّةِ مَا تَهْتَزُّ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، حَتَّى إِنَّ الْهَوَاءَ الثَّقِيلَ الْكَثِيفَ فَوْقَ الْجِبَالِ ارْتَجَّ لَصِيَاحِهَا، كَأَنَّمَا أَلَقْتُ فِي الْجَوِّ قَنْبَلَةً بَارُودٍ أَبْيَضَ، مِنَ الْقُوَّةِ بَحِثٌ تَضْطَرِبُ لَهَا السَّمَاءُ.

وَمَا إِنْ انْتَهَى زَلْزَالُهَا، حَتَّى تَلْفَعَتْ مَا وَتَشِي بِغَطْرَسَتِهَا الْقَاتِلَةَ، وَدَارَتْ عَلَى عَقْبِهَا سَاخِطَةً، ثُمَّ عَادَتْ إِلَى قَرِيَّتِهَا تَعْرِجُ. مَخْلَفَةٌ وَرَاءَهَا رَئِيسَ الْإِقْلِيمِ، وَرَئِيسَ الْمَقَاطَعَةِ، وَابْنَتَهَا، وَحَفِيدَاتِهَا، مُتَحَجِّرِينَ جَمِيعاً فِي أَمَاكِنِهِمْ.

ظَلَّ الْجَمِيعُ سَاكِنِينَ مَدَّةً غَيْرَ يَسِيرَةٍ. ثُمَّ أَخِيراً تَحَرَّكَ رَئِيسُ الْإِقْلِيمِ، ضَارِباً بِقَدَمِهِ حِصَاةً، وَبْصُقَ، وَقَرَّرَ أَنْ يَشْتُمَ: «نِيكَ أُمُّ أَمْلَكْ! أَنَا ثُورِي قَدِيمٌ، ثُورِي أَصِيلٌ!».

[١] صغير الخنزير.

الفصل الخامس

تعليقات: كلبٌ نافق-قرّ

(١)- توأم، توأمة، اسمٌ ونعت - تُطلق الكلمة في بالو على كلّ الولادات التي تأتي بأكثر من مولود في بطنٍ واحدة. في سنة ١٩٧٨، عام الحصان، لم يحدث في المنطقة أيّ حدث غير طبيعيّ، ظلّ العالم على حاله، على الرّغم من المؤتمر العام الذي عقده الحزبُ في بكين نهاية شهر الثور، والذي وصفته كلّ محطات الرّاديو والجرائد لاحقاً، بأنّه مؤتمرٌ مذهلٌ، يضاهي مؤتمر ١٩٤٩، المؤتمر الذي حدث قبل ذلك بتسع وعشرين سنةً، وأعلن فيه ماو تسي تونغ عن قيام الجمهورية الشّعبية. وأثناء المؤتمر المذكور، تحديداً، -دام خمسة أيّام، من نمر الخشب إلى حصان التّراب- أنجبت جُومي بطيية. كان بطنها منفوخاً كطبل. طال صراخها، ظلّت تطلق صيحات مؤلة، ثمّ وضعت على التّوالي ثلاث بنات: ثلاثة طيور فينيق^(١)! أمرٌ كهذا، ممكّنُ الحدوث بالطّبع، لكنّ المنطقة لم يسبق لها أن شهدت له مثيلاً. وعلى الرّغم من ضآلة أحجام الرّضيعات، إلا أنّهنّ كنّ يفضن بالحياة. كنّ يبيكين، ويزعقن، ويرضعن، بينما أمّهنّ، ممدةٌ على فراش الولادة، تتضح بعرق يلمع كلالئ كبيرة على جبينها، ودمها يسيل على امتداد قوائم السّرير. أمّا أمّها، ماو تشي، فمذهولةٌ بالولادة الثلاثية، كانت تتحرّك في كلّ اتجاه. طلبت المولدة الماء ساخناً، إناءً تلو إناء! وفي نهاية

[١] الفينيق الصّيني (الفانهاونج)، يتّخذ أحياناً موقع الديك في التقويم الصّيني، ولا علاقة له بالميثولوجيا الغريبة.

المطاف، مسحت جبين جومي بمنديلٍ ساخنٍ، وسألتها عمّا إذا كان بطنها في «حالٍ طيبةٍ». فأجابتها أنّ لا، ما زال يتحرّك، ما زال يفرغر، ويخز: ما تزال تشعر بالألم. قالت المولّدة دهشةً وهي تزدد وعاء الشعيرة بالفول الذي أعدته لها الجدّة: «- ما يزال يتحرّك؟ أصفي إليّ، مُنذ أن احترقت هذه الحرفة، أنت أول امرأة أراها تضع ثلاثة دفعةً واحدة، فرجاء لا تقولي إن ثمة أربعة أو خمسة! مستحيل!» فلمّا أنهت وجبتها الخفيفة، جسّت بطنها قبل أن تنصرف: «إلهي! بلى! ما يزال ثمة آخر!».

وللمرة الرابعة وضعت جومي مولودةً.

وصارت الصّغيرات أشهر «توأّمات» في بالو. سُميت الكبرى تونغهوا، زهرة الخبازية، والثانية هوايهوا، زهرة الصّفيراء، والثالثة يوهوا، زهرة الدرداء، والصّغرى قلين، لأنّ في لحظة ولادتها رفرت في الحجرة فراشة ليل (عثة).

(٣)- قزّم، قزّمة، اسمٌ ونعت - يشير إلى الأطفال الذين يعانون من مشاكل في النّمو. توأمات جومي الأربع ولدن قزّمات، فالنّاس في طيبة ينادوهنّ الـ«قزّمات».

(٥)- النّاس-تامون، النّاس-تامات، اسمٌ ونعت - يستعمله أهل طيبة في المناداة علينا نحن، على سبيل الاحترام. ونقصد بـ«نحن»، من لا ينقصنا قدم ولا ذراع؛ ولا نحن بعُمي ولا صمٌّ وبُكم، ولنقل بالجملة إنّنا «طبيعيون».

(٧)- نافق-قر، نعت. مقررّ، متجمّد. يمكن بالطّبع أن يُستعمل لوصف درجة كبيرة من البرودة، لكنّه يطلق هنا على قلب الإنسان: قلبه باردٌ مقررّ، مثل قلب ميّت.

لم تنهل ماو تشي على رئيس الإقليم بالشّتائم مجّاناً. إنّ ليو، واسمّه الشّخصيّ ينغك، لم يشغل دائماً هذا المنصب! كان في البداية إنساناً بسيطاً، غير ذي شأنٍ، مثلي ومثلك. وحتّى سنة ١٩٧٧، سنة الثّعبان النّاري، لم يكن سوى «صبيّ في مدرسة الاشتراكية» (١) - وهذا ما مكّنه من أن يحصل على وظيفة عاملٍ مؤقتٍ في مقاطعة السّرو. مقابل أربعة وعشرين يوان ونصف

يوان، كان يكتسب المؤسسات العامة. ويملاً بالماء غلايات المقصف ويفليه. ولندكر بأن البلاد بأكملها في ذلك العهد، كانت ترقص على إيقاع التجديد والتحرير. باستثناء بالو، حيث لاحظ السكان فقط أن جوعهم قل. إن الوعي السياسي لدى هؤلاء الناس، كان متدنياً جداً فكان لزاماً تعليمهم وتكوينهم، أي إطلاق حملة تربوية. والهدف من هذه «التربية الاشتراكية» (٣) هو الإعلاء من صوت العقل ونشر الوعي، وهما عمادان أساسيان لبناء الوطن. المشكل: لتحقيق ذلك يلزم أناس أكفاء، والدولة تعاني نقصاً في الكفاءات. حتى إنهم قد وظفوا ليويونغك. كان شاباً، ومعاي، و«صبيّاً في مدرسة الاشتراكية»، فأرسل لتعليم الناس في قرية طيبة البعيدة، على بعد مائة لي^[١] من العاصمة^[٢].

وقبل حتى أن يسلم على الفلاحين، سألهم مباشرة: هل يعرفون وانغ، وتشانغ، وجيانغ، وياو؟

فتح الفلاحون عيونهم دهشة.

«إنهم عصابة الأربعة! كيف لكم أن تجهلوا أمراً مماثلاً؟».

فتحوا أعينهم أوسع.

طيب! دق الجرس، وجمعهم ليتلو عليهم المقررات الرسمية.

لم يعد أحدٌ يجهل من يكون وانغ هونغوين، نائب- رئيس الحزب السابق؛ وتشانغ تشون تشياو، المتأمر؛ وجيانغ كينغ، أرملة الرئيس ماو؛ وياو وينيون، المثقف البلطجي. هز سكان طيبة رؤوسهم.

فلما أتم مهمته، وهم بالانصراف، انبرت له شابة ناس-تامة، سنّها بين السادسة عشرة والسابعة عشرة، وظيفتها تتأرجحان مع إيقاع خطوها، كأنهما غرابين أسودين جاثمين على كتفيها. وهذا ما يصعب تخيله في طيبة:

[١] لي، وحدة قياس صينية (حوالي ٥٧٦ م). والراجع أن استعمال مائة هنا للدلالة على الكثرة، لا للقياس التقريبي.

[٢] العاصمة هنا عاصمة الإقليم لا الدولة.

طيلة الاجتماع، لم يكن يجلس عند قدميه إلا عُمَيَّ وَبُتْرُ. أو صَمٌّ وَبُكَم. قلنا، وسط كل ذلك العمى المحيط به، بدت له العينان اللتان انبرتَا له، بمثابة مصباحين؛ ووسط العرج، بدت القدمان كأنهما عمودا عَلمين. فلَمَّا كان محاطاً بالصَمِّ كان يهَيَّأ إليه أنه قد حُبِّي سمعاً معجزاً، سمعاً يمكنه من التقاط أدنى صوتٍ داخل دائرة قطرها ألفُ لي. لقد كان النَّاسُ-تَأمُونُ هنا، بمثابة زعماء عظماء، أباطرة! على أنَّ هذا الإحساس بالتفوق لم يمكن سبباً كافياً لطيل المكوث في القرية، إذ كان يخشى، بتدبير عجيب، أن يتضبَّب بصره، ويصير خطوه أخرق، وتُسَدَّ أذناه. وكان الفصلُ آنذاك ربيعاً، في عزِّ الشهر الثالث. ثمار الخوخ حمراء، وثمار البرقوق بيضاء، وفي الأرجاء ألفُ نباتٍ يتنافس في الخضرة، والجو يعبقُ بعطر منعش يدفع المرء إلى التجشُّو. وكانت بطيئة شجرتان معمرتان، حين تورق قمتاهما بشدة، تشكَّلان غطاءً يُجلُّ نصف القرية. أمَّا المنازل فكانت متناثرة، منزلان هنا، وثلاثة هناك، ثم ثلاثة أبعد، والأسقف تنظم في صفٍّ، مشكِّلة زقاقاً يلوذ به النَّاسُ. ولم تكن الأرضُ مستوية، الاستواء الذي يدلُّ على كثرة السَّكان نسبياً، إلا في الجانب الغربي، أسفل الطريق إلى التلِّ. هناك يعيش العُمَيُّ: مخاطرُ الحَلريق هناك أقل، والمسافة إلى الحقول أقصر. أمَّا وسطُ القرية، وهو أشدُّ انحداراً، فقد كان عدد السَّكان به أقل. ويقم فيه أساساً العُرجُ: بالطبع كان الطريق فيه يتطلب الارتقاء، لكن على الرِّغم من عُرجهم، كانوا يملكون عيوناً قويّة، ويستعينون بعصيتهم، ومن حين إلى آخر يستندون إلى الجدار، فيتدبِّرون أمرهم دائماً في نهاية المطاف. أمَّا الجانب الأقصى شرقاً -وهو أيضاً الجانب الأبعد- حيث الدَّربُ الذي يمضي صاعداً وعراً، وكلُّه حُفر ومطبات؛ فكان أرضُ الصَّمِّ البُكم. بالطبع ما كانوا يسمعون ولا يتكلَّمون، ولكنَّ أبصارهم كانت سليمة، وأقدامهم معافاة، وبالتالي لا تهمُّهم حالة الطريق.

وعلى ذلك النحو يمتدُّ الشَّارع متقطّعا، بطول ليّين اثنتين. في الأمام النَّهر، وفي الخلف الجبل، وغرباً حيُّ العُمَي - الحي الذي يشكِّلون فيه أغلبيةً، وشرقاً حيُّ الصَّم - البُكم، وفي الوسط حيُّ العُرج.

ومن هناك أنت تلك الشَّابةُ التي لم تكن، مع ذلك، تعرجُ ولا تعكزُ. أنت كأنما تحملها أجنحةٌ. مثل الورقة التي تسقط مرفرفةً. ولكي يبلغ ليو ينگك القريةَ أوَّلَ الزَّوال، كان عليه أن يستيقظ فجرًا، ويتوقَّف في منتصف الطريق مع حلول الليل. وكان بعدما تبادل مع الأهالي كلمات، وقرع الجرس، وقرأ المقرَّرات الرِّسمية تحت الشَّجرتين المعمَّرتين، قد قدَّر أنَّ واجبه قد تمَّ. غيرُ وَّارد إذن أن يطيل المكوث هنا، في وكر العميان والعرجان! مجدِّداً سوف ينام في مكانٍ ما بالطريق، وفي الغد يعود إلى الكومونة. لكن لما رآها قال لنفسه إنَّ لديه ما يكفي من الوقت، فلم لا يمكث قليلاً في طيبة؟ كان يتأملها مقبلةً عليه، وهو واقفٌ وسط الطريق، وقميصه الأبيض محشورٌ في حزامه الجلد. وانتظر أن تصبح قريبةً ليتأمَّل على نحو أفضل قدَّها ووجهها المتورد. كانت ترتدي سترَةً من نسيج منمَّق، وتنتعل -وهذا أمرٌ نادرٌ في هذا الرِّيف- نعلًا مطرَّزًا. فبينما تكون تلك النِّعالُ، في أسواق البلدات كثيرةً، كثرةٌ أغلفة كعك الأرز في الطَّرقات أيام مهرجان قوارب-التَّنين، فإنَّها هي وحدها من ينتعل نعلًا ممثالًا في هذا المكان، حتَّى إنَّها بدت له مثل زهور أزهرت فجأةً على غصن شجرة ماندرين في عزِّ الشَّتاء. وتقريباً اعترض طريقها صائحاً: «هه! ما اسمك؟ ولم لم تحضري الاجتماع؟».

تضرَّج وجهها بالحمرة، وأخبرته، كأنما تترجَّاه، أنَّ أمَّها مريضةٌ، وأنَّها خرجت تقطف لها أعشاباً تتداوى بها.

قدَّم نفسه: «اسمي ليو، أنا إطارٌ في الكومونة. أتعرفين من يكون وانغ، وتشانغ، وجيانغ، وباو؟ لا؟» عرَّفها من يكون الأربعة المذكورون، ولخَّص الأحداث الكبرى التي وقعت مؤخَّراً وابتهج لها العالم. في كلِّ مكانٍ يُحتفل بالتَّجديد الذي هو بمثابة تحرِّر ثانٍ! كيف لم تسمع هي بوانغ هونغوين، وتشانغ تشون تشياو، وجيانغ كينغ، زوجة الرِّئيس ماو؟ تقرَّر الأمرُ إذن، لن يذهب الآن، سوف يمكث ليعلم الصبيَّة. سوف يعلم سكَّان هذه الحضرة المنسيَّة بعض المعارف الأولى، أبجديات الكومونة، والإقليم والدولة.

ولاحقاً، بعد ثلاثة أصباح ويومين توطَّدت العلاقة حتَّى وقعا في الحميمة، واضطرَّ هو إلى ترك طيبة ليعود إلى العاصمة، على بعد حوالي مائة لي.

وفي السّنة التّالية أنجبت هي أربع توأّمات.

وما إن وُلدت التّوأماتُ الأربع، حتّى انطلقت ماو تشي. كانت متطوّعةً تتوغّل في الأرياف، لتبشّر بكلمة الاشتراكية في أغوار الجبال وسط القرى التي لم يبلغها التمدّن، تماماً مثل قرية طيّبة. وأثناء ذلك كان ليو ينفك قد صار إطاراً بارزاً في التّربية. لم يعد يكتسُ ولا يسقي الزّرع، وحاز وضعيّة موظّف دولة بالاسم والصّفة. استقبلها في مكتبه، بمقرّ الكومونة التي تحوّل اسمها الآن إلى «مقاطعة»^[١]، ثمّ عادت إلى قريتها. تطلّب منها السّفر يومين. ولما عادت، وقفت عند سرير ابنتها وقالت ببساطة: «ليو مات، لقد هوى في قعر واد أثناء جولة من الجولات التي كان يعلم فيها مبادئ الشيوعية، وانسحق مثل كعكة كاكّي».

تعليقات على التّعليقات

(١) - صبيّ في مدرسة الاشتراكيّة - إنّ التّسمية تحيلُ في آنٍ على الطّروف الخاصّة التي جرت فيها أطوار طفولة ليو، وعلى صفحات مهمّة من تاريخ شعبنا. فما إن وُضعت أسُس الصّين الحديثة حتّى ازدهرت معاهد التّعليم الاشتراكي، المتخصّصة في تقديم دورات دراسة وتكوين لفائدة الأطر. وشيئاً فشيئاً صارت تلك المدارس «قواعد للتمرّس على الفكر الماركسي-اللينيني»، أو «معاهد أسّسها الحزب»، أو «معاهد للتّربية الاشتراكية»، وتسميتها الدّارجة: «مدارس الحزب»، وما كادت تمضي تقريباً عشر سنوات حتّى صارت منتشرة في كلّ المدن والأقاليم. وفي بعض الأقاليم، والمناطق، قد تضمّ العاصمة حتّى ثلاثة أو خمسة منها، لا بل قد يحدث أن يكون لكلّ مقاطعة، وكلّ بلدة معهدّها. وما يزال بعض النّاس يسمّونها «مدارس التربية على الاشتراكية»، لكنّ الغالب اختصارها إلى «مدارس الحزب».

[١] كانتون.

على أن معهد شوانهواي ظلّ دائماً «مدرسة اشتراكية». بُنيت في الرّيف، شمال المدينة، بواسطة أجرّ أحمر هي وسورها المحيط، ممّا منحها بريقاً قرمزيّاً، يجعلها تلمح من بعيد. يُقال إنّ أهميّة تلك المدارس، أثناء فترات زمنيّة ما، في إرساء الاشتراكية بالصّين، تفوق ثقل جبل تاي. سكرتير الحزب هو مدير المدرسة، ورئيس الإقليم هو المدير المساعد؛ ولا بدّ لأطر الحزب من الإقامة بالمدرسة مدّة، ولا تحلّم بأن تترقّى في مراتب الحزب من غير أن تقضي هناك من ثلاثة أشهر إلى ستّة. لكنّها في فترات أخرى، تهون حتّى تصير أخفّ من الأوراق الميّتة المتساقطة. وفي فترة من هذه الفترات الأخيرة، لم يبقَ في مدرستنا المعلومة إلا بعض الأتباع، ومدرّس واحد، شخص يدعى ليو، عُهد إليه أثناء فترات التدريب بأن يقرأ نصوص القادة (الدّروس الأخرى كان يتكلّف بها سكرتير اللّجنة شخصياً، ورئيس الإقليم، ونخبة من المتخصّصين انتدبوا خصيصاً لهذه المهمّة) وما إن تحين مواسم الحقول - اللهمّ إلا إن أطلق الحزب حملة أو قرّر اعتماد تدابير خاصّة - حتّى تصير المدرسة فارغة. يأخذ الموظّفون عطلتهم ويعودون إلى ديارهم لكي يساعدوا أهاليهم في الحرث ربيعاً، والحصاد خريفاً.

وهناك، ترعرع رئيس الإقليم. وكان الابن المتبنّى للمعلّم المذكور ليو.

وتحريراً للدقّة، لنقل إنّ الأمور قد جرت سنة ١٩٥٩، خلال سنة الجُرذ، السنة التي سيسمّها النّاس لاحقاً أولى «السنوات الثلاث للكوارث الطّبيعية». كانت سنة المجاعة. في كلّ مكان يصرخ النّاس من الجوع. ولم تكن مدرسة شوانهواي قد أسّست إلا منذ سنوات ثلاث، ولا أحد من أعضاء الحزب، أو أطره، أتى يتعلّم فيها. كانت فارغة إلا من المعلّم ليو، وزوجته، وحرّاس المكان. وذات صباح شتويّ، أثناء عودتهما من البرّ حيثُ اجتنيا بعض الخضر البريّة، وجد الزّوجان أمام الباب رزمة مغلّفة في ثوب. وفي الرّزمة رضيع، ولدٌ يبلغ من العمر تقريباً ستّة أشهر، نحيلاً بارز العظام، بالكاد يفوق فخذه ذراعيه. استدارت المرأة شطر الرّيف وصاحت:

«هل تنوون ترك طفلكم يهلك من الجوع أمام باب مدرستنا، يا أبناء الكلب!».

ثم أضافت: «أعطيكُم نصف بوشل^[١] من الذرة البيضاء، إن كان ما يزال في قلوبكم رحمة، فأنتيم لاستعادته».

ثم: «هل مُتُم أم ماذا؟ اهلكوا إن شئتم، لكنكم لن تفلتوا بفعلتكم. فلتمزق الكلاب الضالة والذئاب جثثكم!».

ظلت تصرخ وتشتتم، وغربت الشمس على الجبل من غير أن تظهر نفس حيّة في الحقول. وكانت مستعدة للتخلص من الرضيع. لكن المعلم كان رجلاً متعلماً، كان فيما مضى كاتباً بالجيش الثامن وسكرتيراً لأول رئيس لإقليم شوانهواي، عقب التحرير مباشرة. كان بالجملة عضواً بالحزب، وإطاراً، ومتقفاً. ولما وصل الجيش الأحمر إلى المنطقة، أيام الحكومة القومية، نظم دورة تكوين سريعة لفائدة أطر الحزب، وبما أنّ خطّه كان جميلاً، فقد ضربوا صفحاً عن أصوله العائلية -والداه كانا مزارعين ثريين- ونصبوه نساخاً للطبقة. ثم أتت سنة الثور، ١٩٤٩، وقد تأسست الصين الحديثة، وتغيّر النظام، وفي خضمّ التحوّلات عيّن في منصب سكرتير رئيس الإقليم، وبدا طبيعياً أن يعيّن بعدها بفترة يسيرة معلماً بالمدرسة الاشتراكية التي أحدثت لتوها. فهل يستطيع، وهو عضو الحزب والإطار والمتقّف، أن يسمح بالتخلّي عن رضيع ما يزال حياً؟ انتزعه من بين يدي زوجته، واعتنى به يوماً بعد يوم.

وكان أن نجا الطفل. ومنحه المعلم لقبه، مضافاً إليه اسمُ ينفك «صقر»، ذكرى للجراح الذي كان يحوم حول الرزمة المغلفة بالشوب حين عُثر عليه.

بطيئةً مرّت سنوات الكوارث، وعادت المدرسة الاشتراكية إلى التوهّج، وعاد يطرقها أعضاء الحزب وأطر الإقليم زمراً ليتعلّموا ويتمكّنوا. لا بل حتّى إنهم صاروا يأتون إليها ليروّجوا أنفسهم في الدوائر الانتخابية المحيطة! وصار يرتفع يومياً من مدخنة المطبخ، دخانٌ كثيف، لا بل يحدث أن تكون نار المطبخ قويّة لدرجة أنّ شرارها يفلت من قناة المدخنة المصنوعة من الطوب. والحال أنّ وجود نارٍ في المدخنة، إنّما يدلّ على أنّ ثمة طعاماً في المقصف للصّغير

[١] وحدة قديمة لكيل الحبوب والمواد الصلبة.

يانفك. وكان الطلبة على علم بأنه طفلٌ لقيطٌ، عُثر عليه بباب الرجل الذي صار الآن مدير المدرسة، وقد صاروا هم اليوم جميعاً أطراً أو أعضاءً بالحزب -بتعبير آخر صاروا أفراداً ذوي وعي عالٍ، مستعدين للتضحية في سبيل تحقيق الشيوعية- فكان الجميع موافقاً على السّماح له بأن يتغذى.

والنتيجة: لم ينجُ ويعش فحسب، وإنما نما وترعرع.

فكنتَ تراه ساعةَ الأكل، بالمطعم، حاملاً إناءه، وساعة الدّرس، بقاعة الدّرس حاملاً مقعده. كان يسبح مع التّيار. وليلاً يقصد المخزن حيث ينام.

ومرّ الزّمن، يوماً بعد يوم. ولما بلغ ستّ سنين، حملت السيّدة ليو، ثم وضعت طفلةً. إنّ الرجل الذي يكبرها بعشر سنوات، والذي تزوّجته لأنها ظنّت نفسها عاقراً، قد أفلح في جعلها حاملاً بعد أن عُيّن مديراً فتغيّرت علاقتها بالصبي. صارت باردةً تجاهه، وجعلت تبعدّه كلّ يوم إلى المقصف. لحسن الحظّ كان الطّلبة يعتبرونه طفلاً في المدرسة، وصار ينادى أقلّ فأقلّ باسم «ليو يانفك»، وأكثر فأكثر بلقب «صبيّ المدرسة الاشتراكية»، بل وحتى «يتيم مدرسة الأطر». وفي السّنة التي أتمّ فيها عشر سنين، وكانت زوجة ليو قد هجرت البنت والبعْل لتتزوّج إطاراً في إقليم مجاور، أعاده المعلّم إلى جواره. ومُذاك صار ابنه، والأخ الأكبر للصّغيرة ساو.

(٢)- تربية اشتراكية- تيار تربية اشتراكية، يشير إلى مصطلح تاريخيٍّ محدّد. وأطر التربية الاشتراكية هم أولئك الذين كرّسوا أنفسهم لهذا التّيار. في حقبةٍ معيّنة.

الكتاب الثالث

جذور

الفصل الأول

انظروا إلى هذا الرجل، هذا الموظف، رئيس الإقليم

كفّ الثلج. مثل مسافر توقّف بالو سبعة أيّام، أراح فيها قدميه،
ثم استأنف المسير.

إلى أين رحل؟ لا أحد يدري.

لكنّه زار الجبال والقرى صيفاً.

صيفٌ ذليلٌ، عادَ بوجهٍ عابسٍ من مداه إلى مداه (١). في البداية
امتنعت الشمس بعنادٍ عن الظهور. وكان الضباب رابضاً على
الأسقف، قريباً جداً، بحيث يكفي أن يمدّ الواحدُ ذراعه، ليحسّ
به ينساب من بين أصابعه. تعرفُ إحساسَ أن تكون يدك مبلولةً!
فإن استيقظت صباحاً، وقمتَ من فراشك، فرفعتَ يدك في فناء
بيتك، أو عند مدخل القرية، لتحفن بها حفنةً من ضباب، فيكفي
إذّاك أن تفرك براحتك وجهك لتغسله. بعدها، لا رمصَ في العين،
ولا ترنّح من أثر النوم.

لكنّ راحتك تتعكران.

ذاب الثلج.

وأثناء أيام الضباب، تَلَفَ القمحُ الذي لم يسمح الوقتُ بحصده. لا أثر للشمس، وكان الجوَّ خانقاً، واسودَّ القمحُ النَّاضج. حتَّى الحبوب. وحتَّى النَّشا بداخلها. فإن أكلت منها، تسممت، وأصابك الإسهال.

في الحقول لم تعد رؤوس السنابل إلا عشباً أسود، ها قد حلَّ الشَّتاءُ، ولا علف للبهائم.

تراجع الطَّقسُ إلى الخلف: وحين يحلَّ الخريف لن يكون ثمة بذورٌ تبذر.

إنَّ رئيس الإقليم، وسكرتيه، ورئيس المقاطعة، الذين أتوا معاً لمعاينة الأضرار، قد أقاموا في عُرْض (٣) القرية تماماً، في نُزل كان فيما مضى، أي قبل التَّحرير، معبداً يُصلَّى فيه لبوذا، وغوان غونغ، إله الحرب، والأُم طيبة، جدَّة القرية، تلك التي يدينون لها بوجودهم. وكانت الخرساء-البكماء قد أطعمت خو داهاي حين فرَّ من هونغدونغ إلى شانشي متسوِّلاً، وعبرَ جبال بالو؛ وبفضلها مُنَحَ الحرِّيَّةُ الأعمى والأشلُّ اللذان كانا من ضمن الموكب الذي هُجِّرَ، ووُهبَا الأرض والمال والماء الذي مكَّنها من أن يعيشا أيَّاماً فردوسيَّة. ثمَّ أتاها العجزةُ من كلِّ صوبٍ، فولدت طيِّبة.

لذا تدينُ القرية لمؤسَّستها بالتَّبجيل.

لكن، مع مرور الأيام، اختفى تمثالُ بوذا، واختفى تمثالُ غوان

غونغ، وكذلك تماثلها. كُنست الأرضية، ووُضعت أَسْرَةً، فحوَلت الحِجراتُ الثلاثُ إلى نُزلٍ لاستقبال ضيوف القرية. هناك نام، منذ سبعة عشر عاماً أو ثمانية عشر، الموظف الشاب بالتربية الاشتراكية، وهناك أيضاً سينام هذه المَرَّة. لم يتغيَّر شيءٌ، وحدهم النَّاسُ تغيروا. وهو نفسه قد صار الآن رجلاً ناضجاً، رجلاً بلغ الأربعين. من عامل مؤقتٍ مكلف بالسَّقاية وكنس البلاط بمقاطعة السَّرو، صار مكلفاً بالتربية الاشتراكية في طَيِّبة، فإطاراً بالمقاطعة، ثم نائب رئيس مقاطعة، ثم نائباً لرئيس الإقليم، وأخيراً منصبه الحالي. وحين يخطر بباله كل ذلك لا يبدو له بالشَّيء الهين.

كان شوانهواي إقليماً فقيراً. معدماً. وفي الوقت الذي كان العالم كله ينعم في ازدهارٍ مبهرٍ، كانت الطَّرِيق التي تمرّ من أمام مقرّ الحكومة ولجنة الحزب مجرد دربٍ مترب. محفراً لدرجة أن ثوراً لم يتعلَّم السَّباحة، لا بدّ أن يغرق في البرك التي تتشكّل فيه حين يهطل المطر! حتّى إنّ ذاك ما قد وقع لطفلٍ في إحدى السَّنوات. سقط في حفرة مائية فغرق. لا توجد في المنطقة إلاّ الجبال والوديان، لا مصنع، ولا منجم. ومنذ مدّة ليست بالبعيدة، لم يكن يستطيع أيّ مكتب دفع فواتير الكهرباء والهاتف، وتجادلت لجنة الحزب والحكومة في من سيدفع كلفة إصلاح عجلة ثُقبت. كسر الرّئيس السَّابق برطمان الخضر المملّحة الذي كان يحمله في يده، وحطّم السكرتيرُ ممسحة الرّيش التي كانت تنظّفُ بها التّوافذ! وتوجّب على نيو، سكرتير الحزب الإقليمي، أن يتنقّل بشخصه كي يحلّ المشكل، ويتحدّث إلى كلّ منهما، فيحدّد له دوره.

لرئيس الإقليم قال:

«- كيف العمل لرفع موارد الإقليم؟»

فأجابه: - بسيطة، اقطع رأسي!».

ولسكرتير اللّجنة، قال:

«إن لم تكن تستطيع إخراج الإقليم من حالِ البؤس، فأولى لك أن تبحث عن عملٍ آخر!».

انحنى الرّجل انحناءً بالغاً، ثمّ أجاب: «انقلني إلى مكانٍ آخر، وسوف أكون خدّاماً عند قدميك.

- أنت مفصول!

- لا بأس، المهمّ أن أترك هذا المكان!

مغتاضاً، قذف نيو بفنجانهِ إلى أسفلٍ سافلين (٥)!».

ثمّ تباحث مع أطر اللّجنة والحزب.

أشار أولاً إلى ليو، الذي لم يكن بعد سوى نائب: «لقد أحسنت تدبير ملفّ تهيئة الأراضي الصّالحة للزّراعة.

- نستطيع أن نزرع ما طاب لنا أن نزرع، لكن ليست الزّراعة ما سيخرجنا من البؤس.

- فهل من فكرةٍ لديك لإثراء موارد شوانهواي؟

- ليس ذلك بالأمر المعقّد».

تفحصه السّكرتير: «- أفصح!

- ليس لدينا معامل ولا مناجم، ولكن لدينا مناظر. فلنطوّر
السّياحة».

ابتسم. «من ذا الذي سيخطر بباله أن يزور بلدًا قوامه الوحلُ
وتربةُ اللّوس؟

- سيّدي السّكرتير، أين نرى أكثر السّياح، أليس في بكين؟

- إنّها العاصمة! منذ سلاّاتٍ عديدة!

- أليس العدد الأكبر يزورُ ضريح الزّعيم ماو؟

- نعم. وبعد؟

- لنُعطِ الرّوسَ ما شاءوا من أموال، ونشتريّ منهم رفات

لينين، ونقيم له ضريحاً في جبل الأرواح الميّتة». ثمّ واصل:

«ألم يسبق لك أن ذهبت إلى هناك يا سيّدي السّكرتير؟

ثمّة بساتين سرو، ممّاشي صنوبر، أيائل، وقرود، وخنازير،

بل وحتىّ أشجار كيوي! حديقة غابويّة فعلية! ضَع فيها

مومياء لينين وسوف تصير موقعاً رئيسياً! سيأتيه الزوّار من

كُلّ البلاد، من العالم بأسره! بخمسة يوان فقط للتّذكرة، إن

زارنا عشرة آلاف زائر، سيكون الحاصلُ خمسين ألف يوان.

مائة ألف إن حدّدنا سعر التّذكرة في عشرة يوان، وأكثر من

خمسائة ألف إن جعلناها خمسين! لكنّ زيارةً، دَخَلَةً، هل

هي مجرّد دَخَلَة؟ أيّ مبلغ يستطيع السّياح أن ينفقوه؟ هل

تستطيع ساكنة الإقليم أن تنتج بالزّراعة قيمةً ماليةً مماثلةً؟

كلامٌ فارغٌ! هراء! هذيان، أضغاثٌ أمانى. ثمّ من يقول لنا إنّ عدد الزوّار لن يتجاوز عشرة آلاف في اليوم الواحد حين يبدأ الحشد في التّقاطر على المكان؟ ربّما يأتينا ثلاثون ألفاً، أو خمسون، أو سبعون أو حتّى تسعون ألفاً، ينزلون علينا كلّ يومٍ من تشيوندو، من خنان، من هوي، من شانغونغ، ومن خونان، ومن كانتون وشانغهاي... الكثير من الصّينيين، ولكن ليس الصّينيين فحسب. سنقدّر عدد الأجنبيّ، بعُشر عدد المجموع. وهؤلاء لا مجال لأنّ نسمح لهم بالدّفع بالعملة المحليّة. فقط بالدّولار. كم دولاراً؟ خمسة، أو خمسة عشر، أو خمسة وعشرون؟ شخصياً، لا تبدولي خمسةً وعشرون دولاراً مبلغاً مبالغاً فيه. خمسة عشر دولاراً لأجل لينين، مبلغ تافه! والحصيلة مائتان وخمسة وسبعون دولاراً لأحد عشر زائراً، ومائتان وخمسون ألفاً لعشرة آلاف!« كان الرّجل قد انطلق، ولا شيء يكبحه: «أضف إلى ذلك أنّ لا بدّ لهؤلاء الزوّار من مكانٍ يأوون إليه، ومطعمٍ يأكلون فيه، وكذلك لا بدّ أن يقتنوا تذكاراتٍ وأشياءٍ محليّة!« ثمّ: «سيّدي السّكرتير، أخشى أنّ طرّقنا ضيقاً جدّاً، فلن نتحمّل الازدحام! وإن لم نبنِ ما يكفي من الفنادق، فلن يجد السيّاح سريراً ينامون عليه! وقد تفيض موارد الإقليم حتّى يعجز عن صرفها!«.

جرت هذه المحادثة في مركز الإيواء بالإقليم. كان نيو جالساً على مقعدٍ مسنّده الأيمنُ مثقوبٌ، وبه أثرٌ من حرقٍ، ظلّ السّكرتير

يداعبه بينما ينصت إلى خطاب ليو. كان التّخريقُ في المقعد بحجم حبة بازلاء، ثم يمضي رويداً رويداً حتّى يبلغ حجم حبة عنب، فجوزة، ثم ينتهي إلى ثمرة كاكى. ولنذكر ما يلي: لم يكن السكرتير في ريعان الشّباب، لا بل كان قد جاوز الخمسين، وربّما يغازلُ السّتين من عمره. إنّهُ رجلٌ طويلٌ ونحيلٌ، يلبس زياً مدنياً، جمجمته حمراء لامعة، ترسّم عليها شعرائه الأخيرةُ البيضاءُ تاجاً. حين يكرّس المرء وجوده للعمل الثوريّ، فإنّه يصادفُ أطراً! وإطارنا هذا هو من رفع ليو من مرتبة الموظّف التّابع. وسنواتٍ قبل ذلك، حين كان يقوم بجولةٍ على الإقليم، سمع بمقاطعةٍ جميع منازلها تتوفّر على الكهرباء والماء. مطابخها كلّها مزوّدةٌ بصنوبرٍ يكفي أن تديره ليسيل ماؤه في بمفرده في الرجل! من أين يأتيهم المال؟ ثمّة من دفع التّكلفة! لكن من؟ شخصٌ هاجر إلى جنوب-شرقيّ آسيا، أثناء فترة التّحرّر، وهناك أسّس مصرفاً، ثمّ عاد يلقي نظرةً على بلاده. وعلى الرّغم من أنّه أتى في عز موسم الحصاد، إلا أنّ رئيس المقاطعة كان قد منع الذّهاب إلى الحقول، ومُنح الأطفال عطلةً مدرسيّة، حتّى يستطيع الجميع، شيئاً وُصيّاناً، الوقوفَ على امتداد الطّرقات وتحيّته. رصّهم على امتداد السّبعة وخمسين لي بين عاصمة الإقليم والقرية: مسافةٌ سبعة وخمسون لي، درب جبليّ متربّ لا يمكن القيادة فيه، ويمضي ملتويّاً متعرّجاً مثل أمعاء دجاجة. وقد مُدّت البُسْط الحمراء على كلّ شبر منه! كلاً، لم تكن بسطاً. إنّها غطيّ بالقماش، والورق، أو ذاك الدّياج الذي لا يظهر في القرى إلّا لمناسبة الأعراس. كلّ قريةٍ صغيرة تكلّفت بتغطية قطعة من الطّريق، وأولئك الذين لم

يكونوا يملكون قماشاً ولا حريراً، فقط تدبروا أمرهم بسترات زوجاتهم وأقمصتهنّ. جيء بكلّ لباسٍ فيه شبهة من حمرة. وبالطّبع استُدعيت الطبول والمزامير الصّينيّة. فكانت الطّريق تمضي ملتويةً إلى ما لانهاية، مبلّطةً بالأقمشة القرمزية، حتّى القرية، حتّى عتبة المنزل الذي كان يسكنه قديماً الرّجلُ المهاجر إلى بحار الجنوب. يومها أمطرت السّماء، وكانت في انتظاره بالعاصمة عربيّةً محمولةً، ما إن نزل من سيارته. فلمّا تأمّل الطّريق الممتدّة أمامه، رفض بدايةً أن يصعدّها، لكنّ حملة العربة جثوا على ركبهم، ولم يقوموا إلى حين تنازل فصعد.

بجثوهم على ركبهم كانوا قد فعلوا الكثير، وأحسنوا فعله، فلم يتركوا له خياراً.

فكان أن قطع، محمولاً على كرسيّ، سبعةً وخمسين لي مبلّطةً بالقماش الأحمر.

خفقت الطّبول خفقاً شديداً.

ونفخ العازفون في مزاميرهم، وأحسنوا العزف.

وصفّق الشعبُ على إيقاع العزف.

وكلّما بدا على صاحبنا التّهيؤ للنّزول والمشي، يجثو الحمّلة على ركبهم.

كيف للمرء أن يُصرّ على الدّهابِ قدماً (٧) إزاء أناسٍ تذللوا له؟ ثمّ، كيف له أن يجروء على أن يطأ تلك الملابس، وتلك الأقمشة، وذاك

الدّياج الأحمر؟ كان النّاس قد كفّوا عن التّصفيق، والموسيقيّون عن العزف. الجميع، أطفالاً وشيوخاً، جُثُّوا على ركبهم! يقولون إنّهُ نورُ البلدِ القديم، وإنّهُ أضواء البلد بمجده، فإنّ أصرَّ على البقاء في العربة المحمّولة، ورفض السّير على البساط الذي أعدّوه له، فمعنى ذلك أنّ الاستقبال الذي خصّوه به لم يعجبه. ما العمل؟ هل يستطيع إلا أن ينزل إلى المسار القرمزيّ، ثمّ يعود إلى هودجه؟ ولما بلغ غاية الطّريق انحنى، بعينين دامتّتين، أمام أسلافه، قاطعاً على نفسه العهد بأن يعبّد لهم الطّريق، مهما كلّفه الأمر، ويوصل الكهرباء والماء إلى كلّ بيت في المقاطعة.

لاحقاً، قام السكرتير نيو بجولةٍ في المقاطعة.

وتعرّف على رئيسها.

سأله: «- هل تستطيع أن تزوّد الإقليم كلّهُ بالماء والكهرباء؟

- أنا رئيس مقاطعةٍ، ولا أهتمُّ إلا بحدود مجالي، كيف لي أن أتجاوز حدود اختصاصي؟».

أيّاماً بعد ذلك، عُيِّنَ مساعدَ رئيسِ إقليمٍ، مكلفاً بالأراضي الصّالحة للزّراعة. وكان ليو لينغك يعلم بأنّه أفلت: الحقولُ سوّيت، والمركبات ذات المحرّكات تجوب الطّرق المحاذية للحقول، كأنّها مراكبٌ تعبر بحراً هادئاً. هذا الرّجل، هذا الموظّف، هذا المساعدُ لرئيس الإقليم، يكفي أن تنظرَ إليه لتدرك سعة معارفه. ومع ذلك، حين اقترح إمكان شراء رفات لينين وتوطينه في جبل الأرواح الميّتة، انقبض قلبُ السكرتير. لقد ذكره الأمرُ بقصّة الرّجل القادر

على السير على صخر الأردنواز: فهما، حركاً، كان يتقدم، وفي كل خطوة بخطوها، تخلف قدمه حفرة في الصفيحة الصخرية، لكنه كان يمضي قدماً؛ ثم فجأة عن له، لسوء حظّه، أن يفتح فمه، وعلى الفور «طالخال» تشققت الصفيحة، وتداعت، فتفتتت، ثم انسحقت. لذا، على الرغم من عظمة ليو وصلابته، إلا أن السكرتير يتساءل عما إذا كان في حقيقة الأمر جالساً في حضرة راشد يلهو بتشكيل تمثال من تربة وبول! ولذلك لم يُبدِ السكرتير، نيو، في البداية إلا سخرية وازدراء. لكن لما جعل ليو يعدّ ويحصى تذاكر الدخول، انقلبت السخرية إلى ابتسامة شاحبة. وحين صمت ليو كان هو ما يزال يُعمل إصبعه، مُنقباً، في ثقب مسند المقعد، لكن وجهه قد صار يتخذ سحنة صارمة متوترة. إن نظرتّه الآن إلى ينغك، أشبه شيء بنظرة الأب المتأمل في ابنه المحبوب وهو يلعب بالطين: يداه متسختان، ووجهه قدر، وقد لطخ نفسه بالماء والوحل، ومزق ملابسه الجديدة التي ألبسوه إياها بعد لأي ومعاناة، وقد صيرها الآن أسماً لمهلهلة، لكن ما العمل؟ ما القول؟ بماذا تكافئه، بالحب أم بالصفع؟

وبعد ما روى برهة، قال مستعلماً بصوت مكتوم: «قل لي، هل تعرف ما اسم لينين الحقيقي؟».

بعينين مسمرتين في الأرض، ترك مساعد رئيس الإقليم قليلاً من الزمن يمرُّ قبل أن يجيب باسمًا: «طبعاً! كيف لي أن أجهل معلومة كهذه؟ لقد بحثت ودققت وحفظت عن ظهر قلب. ليس الاسم المطلوب بالاسم الهين، ثلاثة عشر حرفاً صينياً! إن اسمه

فلاديمير ألييتش أوليانوف». ثم: «وُلد لينين في الشهر الرَّابِع من سنة الحصان، قبل دورتين من الآن؛ وتوفي في الشهر الأوَّل من سنة الجمهورية الصَّينية». ثم، بعدُ: «كان يلزمه ثلاثة شهورٍ تقريباً ليُكمل أربعة وخمسين عاماً، أي أقلَّ بعشر سنواتٍ من معدَّل الأعمار بإقليمنا».

سؤال: «ماذا كتب؟».

جواب: «أعماله الأشهر: ما العمل؟؛ المادية والمذهب النقديّ التجريبي؛ الإمبريالية، بوصفها أعلى درجات الرأسمالية؛ الدولة والثورة». ثم «سيّدي السكرتير، إنّ لينين هو سلفُ الاشتراكية، أبو دولتنا، كيف للأبناء أن يجهلوا ما يتعلّق بوالدهم؟».

سؤال: «لم قد يوافقون على بيع رفاته لنا؟».

أخرج ليو من حقيبته ملفاً مُعدّاً بعناية، فاستلَّ منه عدداً من جريدة أخبار مرجعية، ووثيقتين داخليّتين كان الاطلاع عليهما آنذاك حصراً على الأطر، بحسب مكانتهم في الإقليم. وفي الجريدة -وهي عددٌ قديمٌ يعود إلى خريف سنة الحصان- أسفل الصّفحة الأولى من جهة اليمين، مقالٌ لا يتعدّى حجمه بالجُملة ثلاثمائة حرفٍ وحرفاً واحداً، وعنوانه: «الرّوس يريدون حرق لينين». وفيه إنّ حرق المومياء -التي بقيت في السّاحة الحمراء بعد انهيار الاتحاد السوفييتي- هو محلّ جدالٍ ملتهبٍ بين مختلف الأطراف السّياسية. وإنّ أنصار الحرق، على ما يبدو، يحظون بدعمٍ قويٍّ من الحزب الحاكم. أمّا الوثائق الدّاخلية -وهي أحد المصادر الأثيرة

عند السكرتير - فإنّ إحداها مؤرّخة بالشّهر الخامس من سنة القرد، أي ثلاث سنواتٍ بعد المقال المذكور، والثانية تعود إلى الثّالث الماضي من هذه السّنة، أي أنّها صدرت سبع سنواتٍ ونصف، لاحقاً. وفي الوثيقتين وُطّنت وأحصيت حالات انتحار المزارعين الذين قتلوا أنفسهم لعجزهم عن دفع الضّرائب؛ وحالات الهجوم التي شنها على لجان الإقليم المزارعون الذين قدّروا أنّهم قد تعرّضوا لظلم، فاجتمعوا وانطلقوا يكسرون الأبواب والطاويلات والعربات في مقرّ الحكومة المحليّة. تذكّر الوثيقتان [من بين ما تذكرانه] قصّة امرأة، عجزت عن سداد ما عليها، فأعفيت بأن ضاجعت جابيّ المكوس، والنّتيجة أنّ وثبَ على أسرة ممثلي السّلطة العمومية، كلّ متعسّر من القرويين، حتّى عجز رجال السّلطة عن مسابقة الإيقاع، وصارت المضاجعة ثقلاً بالنسبة إليهم. إنّ أمثال تلك الوثائق الدّاخلية، كانت هي ما يقرؤه السكرتير في سريره ليلاً، كانت له بمثابة الرّضاعة للطفّل. لكنّه لم ينتبه، في المذكّرتين السّابقتين، إلى مقالتين صغيرتين، لا يقلّ حجمهما عن مائة حرف، ضائعتين وسط الأخبار الموجزة التي تنقل الوضع بالخارج، وبين المقالات التي قد تطيّر قراءتها النّوم عن الجفون؛ قلنا لم ينتبه وسط ذلك كلّهُ إلى المقاليتين الصّغيرتين اللّتين تتناولان الموضوع عينه: بسبب صعوبات مالية، صار الاعتناء ببلنين مكلفاً، والوضع كارثياً. وتضيف أحدث المقاليتين أنّ المومياء قد بدأت في التّحلل، وصارت رُكب المسؤولين تتعب من الرّكض، في سعيهم بين المنظّمات الرّسمية للحصول على تكاليف الصّيانة. اقترح عضو بارز في الحكومة أن يُعهد بالرفّات إلى حزبٍ سياسيٍّ أو

شركة، لكنّ الأحزاب المعنيّة بالأمر لم تكن تملك الإمكانيات المادية، ولا شركة كبرى أو رأسماليّ غنياً يريد أن يخوض المغامرة. لذا فإنّ الفكرة لم تفض، في الختام، إلى نتيجة. فتركت كما تُترك على قارعة الطريق سيّارة أسلمت الرّوح في طريق العودة.

فحص السكرتيرُ بعنايةٍ بالغةٍ المقالين الموجزين، ثمّ عاد إلى المقال، فقرأه وأعاد قراءته، ثمّ قرأ مرّة أخرى الموجزين وأعاد قراءتهما. وفي النهاية، وضع على الطاولة الوثائق المصفّرة، وحدّق في ليو مطوّلاً، ثمّ نطق: «أعطني ماءً!».

قدّم له ليو يانغك كأس ماء.

ثمّ سأله: «هل تظنّ أنّ علينا الاكتفاء بموارد الإقليم؟ إنّ العالم مليءٌ بالكنوز، فلنسع إليها!

- كم عمرك؟

- لقد ولدتُ سنة الكارثة الكبرى.

- هذا الماء برّد. اذهب، فأحضر كظيمةً أخرى».

وبينما ينفذُ ليو الأمر، استغلّ السكرتير نيو بقاءه وحده ليلقي مجدّداً نظرةً على الوثائق. تناولها بيديه، لكن قبل أن يشرع في القراءة، ألقي بها على الطاولة بحدّة.

شهوراً بعد ذلك مُدّ جبل جينغوانغ بالمياه الجارية، ونُقل رئيسُ الإقليم السّابق إلى مكتبٍ ما من مكاتب تجيودو، وطُرد رئيس اللّجنة ليعيد تعليمه من جديد، وعيّن ليو يانغك في منصبه الحاليّ.

هو الآن على رأس الدائرة الانتخابية. وفي اليوم الذي آيدت فيه اللجنة الدائمة، دونها اعتراض، قرار العمل على استقدام الرّفات، ذهب هو يقضي الليل وحيداً في الضّاحية. في هذه القصّة شيءٌ مقلّق ومفزع. هل اسمُ لينين هو ما يثير في نفسه كلّ هذا الضّيق، أم منصبه على رأس الإقليم؟ كان الخريف مشرفاً على نهايته، وقمرٌ ضئيلٌ شحيحٌ قد ارتفع عند حروف (٩) الحقول المحصورة التي ينبعث منها أريجٌ يحتاج العالم، خليطٌ من عطر الحبوب الدافئ، ورائحة التراب النفاذة. هناك مكث جالساً مبهوراً، حتّى وقت متأخر من الليل. وفي الأخير، كأنها حرص على الاعتذار، اعتذارات عميقة كبئر، قرص ولطم فخذة بوحشيّة عدّة مرّات، قبل أن يجثو على ركبتيه، ويقوم بثلاث كاوتاوا^[١] شطر ما يُفترض أنّه اتّجاه روسيا، مسقط رأس الرّجل العظيم، مردّداً في قرارة نفسه شدّة أسفه: ساحني، غداً تصدر «المذكّرة في شأن الجهود التي ينبغي بذلها في إقليم شوانهواي لجمع الموارد اللازمة للحصول على رفات لينين» ومن ثمّ تُعمّم على كلّ لجنة، وكلّ مكتب وكلّ مقاطعة.

مرّت، مذكّ، سنّة خاطفة. وُضعت أساسات الصّناعة السّياحية. سوّيت الطّريق بين عاصمة الإقليم والحديقة الغابوية في جبل الأرواح الميّتة؛ وإن كانت ما تزال مجرد ترابٍ وحصى، فإنّ الرّجل الذي ذكرناه، مهاجر جنوب-شرق آسيا، الذي عبّد الدّرب إلى مقاطعة الصّفصاف ومدّها بالكهرباء والماء الصّالح للشرب، قد قبل

[١] حركات تذلل صينية تفيد الاحترام البالغ والتّقدير: يجثو المرء على ركبتيه، ويحي رأسه حتّى يلامس جبينه الأرض.

التبرّع بالمبلغ اللازم لطلائها بالأسود (١١). وعلى الجبل المذكور، جُمعت القنوات لتشكّل تيارَ سونغباي، وأُطلقت على المعالم في ضفتي الطريق أسماءٌ مميزة. فالصخرة ذات الهيئة الخيلية سُميت «صخرة الحصان الصّاهل»، وتلك التي تشبه في الهيئة أَيْلاً، سُميت «الظبية المشيخة برأسها»؛ أمّا الثاني المشكّل من السّروة العتيقة، وشجيرة المليا التي نبتت عند جذعها، فقد أطلق عليه اسم «عناق الزوجين». وثمة أيضاً «جُرف الرأس المكسور»؛ و«بركة التّنين الأسود»؛ و«مغارة الثعبان الأزرق» ومغارة ثانية باسم «الثعبان الأبيض». ثمّ بعد إطلاق الأسماء، لزم اختراع أساطير مناسبة لها. بالنسبة للـ«الحصان الصّاهل»، مثلاً، تقرّر أنّ الإمبراطور لي تزايشانغ، أثناء حملته، قد مرّ منها في جملة من أتباعه، بعد هزيمته أمام جبل فونيو. ولما كان البلاط الإمبراطوريّ عازماً على أن يضرب ضربة حاسمة، أن يقتلع العشبة [الخبيثة] من جذورها، فقد وضع عند سفح الجبل أكثر من عشرة آلاف جنديّ، نصّبهم كميناً. لكنّ لما بلغ الإمبراطور وحرّسه الصّخرة المذكورة، بدأ حصانه يصهل. حرن، وصار يضربُ الهواء بقائمتيه، رافضاً التقدّم أبعد. فنكص الإمبراطور على عقبيه، وانطلق شطر الغرب، فذهب كمين آل تشينغ هباءً، ونجا هو منهم. ومن هنا أتت تسمية الصّخرة! مثلٌ آخر: «الظبية المشيخة برأسها». يُحكى أنّه في غابر الأزمان، لاحقَ صيادٌ ظبيةً، بلا كلل، ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ. وأفضت بهما المطاردة إلى سفح جرفٍ، فلما أُحيط بالبهيمة، استدارت برأسها وتحوّلت إلى صبيّة حسناء. تزوّج المطاردُ المطاردة، ولم يعد بعدها إلى الصّيد؛ انصرف إلى الزّرع

والغرس؛ وعاش الحبيبان حتى ابيضّ منهما الشعرُ. وهكذا: لكل اسم أسطوره. صارت الحكايا والأساطير كالنمل يعجُّ بها جبل الأرواح الميتة. قصة «عناق الزوجين» مؤثرة لغاية، وقصة «جرف الرأس المكسور» موجهة. «بركة التّنين الأسود» كانت مسكناً لروح شرّير، وفي مغارقي الثعبانين عاش سوجين وتشاوشين، شخصيتا الأوبرا المعروفة^[١]. وطورَ الإنجازِ شلالٌ سيّسمّى «شلال التناين التسعة»، وكذلك ستقامُ فنادق وأنزَالٌ، تبنيتها مختلفُ اللّجان والمكاتب الحكومية المطالبة بشدّ الحزام وتدبير التكاليف اللازمة بطريقةٍ أو بأخرى. مبانٍ تقامُ حصراً على طراز مينغ أو تشينغ، ممّا يجعلها نابضةً بعبق الأزمنة القديمة وجاذبةً للسياح. وقد قدّمت الملفاتُ إلى البنك؛ وبعض المكاتب - على سبيل المثال مكتب البريد والاتّصالات - قد حصّلت المبلغ المطلوب. وانطلقت أشغال ورش ما يفترض أن يصير ضريح لينين. من الخارج سوف يكون مربّعاً، تماماً على شاكلة ضريح ماو. أمّا من الدّاخل، فسوف يتوفّر على قاعة رئيسية، يوضع فيها تابوت الكريستال؛ وبهو مدخل توضع فيه آثار الرّجل العظيم: صور، وحقيبةٌ تحوي كتاباته الأساسية...؛ وأقصى الضّريح صالة سينما صغيرة تعرض أفلاماً تصوّر إنجازاته العظيمة؛ وعن يمينٍ وشمالٍ أجهزةٌ تحفظ حرارة المكان ثابتةً، وأخرى لإزالة الرّطوبة، حفاظاً على المومياء. سيكون ثمة أيضاً قاعةٌ استراحة للموظّفين، وصالون يقَدّم فيه الشّاي للشّخصيات العظيمة، وقاعة

[١] المقصود حكاية الثعبان الأبيض الصينية الشهيرة التي حوّلت إلى أوبرات وأفلام ونصوص أدبية كثيرة.

اجتماعات. بالطبع ستكون أمام المدخل ساحةً وأرضيةً-عشبٌ يحيط بها موقف السيارات، وكشك التذاكر، ومتجر. وبالطبع، ونشدّد هنا على بالطبع، يلزم مطعم ومراحيض. لا يفترض بالمطعم أن يعتمد أسعاراً مبالغاً فيها، أمّا المراحيض فما يزال الجدال دائراً حول ما إذا ينبغي فتحها بالمجان أو بمقابل ماديّ. وإذا ما كانت هذه المسألة محلّ خلافٍ آراءٍ على مستوى اللّجنة الدائمة، فإنّ ثمة نقطة يتفق فيها الجميع: ينبغي ألا تشوب المراحيض شائبة. محلّ نقاشٍ كذلك عددُ المنعرجات التي سوف يتألّف منها الدّرب الحجريّ في الجبل؛ وعلى الشّواهد، هل ينبغي أن نحدّد أعمار الأشجار المعمّرة في ثلاثة قرونٍ أم خمسة؟ وهل ينبغي وضعُ حواجز حول أشجار الجنكو-وهذه بالفعل تبلغ خمسمائة سنة-، وتحديدُ أعمارها في ألف أو ألفٍ وتسعمائة سنة؟ ولم لا نختار تواريخ أكثر جاذبية: ألفي سنة وسنة على سبيل المثال؟ حول تلك التّفاصيل يحتدم الجدال، لكنّ العمل يمضي بانتظام.

على أنّ الأهم، في هذه السّاعة، هو جمع رأس المال المهول اللازم لاقتناء الرّفات. لقد تعهدت عاصمة الإقليم بأن تدفع نصف المبلغ المطلوب، مهما كلفها الأمر. أمّا ما تبقى، فعلى ليو أن يتدبّر أمره. وبعد سنةٍ، هزّ فيها السّماء والأرض، استطاع أن يجمع مبلغاً جيّداً. لكنّه قياساً إلى سعر الرّفات، يظلّ قطرةً في بحرٍ. يقضمه التّفكير، ويقضمه... أين يجد الموارد اللازمة لكي يرأس، في القريب العاجل، الوفد الذي سوف يُكلّف بالتّفاوض وتوقيع العقد في موسكو؟

تعليقاتُ

- (١) - من المدى إلى المدى - لهجة محلية. بالكامل، بالجملة.
- (٣) - عُرِضَ - لهجة محلية. الوسط، المركز. الكلمة مستعملة في طيبة وفي سلسلة جبال بالو بأكملها.
- (٥) - أسفل سافلين - لهجة محلية. أرضاً، على الأرض.
- (٧) - الذَّهَابُ قَدَمًا - لهجة محلية. الذهاب سيراً على الأقدام، المشي.
- (٩) - الحرف / الحروف - الحاشية، الحواشي، طرفُ الحقل.
- (١١) - الطَّلَاءُ الأسود - الإسفلت، القار. بسبب لونه، يسمّى أيضاً «الزَّيت الأسود».

الفصل الثالث

البُنْدَقِيَّةُ دَوَّتْ، الْغَيُومُ تَبَدَّدَتْ، الشَّمْسُ أَشْرَقَتْ

في البداية كان رئيس الإقليم، وسكرتيه ورئيس المقاطعة، في الطريق إلى جبل الأرواح الميتة.

وكانت انطلاقَةُ الأشغال قد أُطلقت ثلاثة أشهر قبل ذلك، وبرزت من الأرض السَّاحَةُ الأمامية، وصار بالإمكان الآن وضع الأحجار الأساس اللازمة للبناء. للأسف، كدَّس العمَّال الرِّخام الأبيضَ المفترض أن تبني به الأعمدة، لصقَّ جدار مراحيضهم، فغطَّته بُقع البول والبراز. وكان الجبل يقع ضمن حدود مقاطعة السَّرو، فتولَّى رئيسُها الإشرافَ على الأشغال.

قال: «- ابعدوا هذه الكتل الحجرية عن المَخَارِي.

أجابه مراقب العمَّال: - نضعها هنا مؤقتاً. لم الغضب؟ بعد ذلك سننقلها، وننظفها، ونمسحها، فتصيرُ أنقى من عملةٍ بَرَّاقَةٍ.

- إنَّها لأجل لينين يا منيوك!

- وإن! هذا لا يعطيك الحقَّ في أن تشتمني! وأين هذا من

مصرف تجيودو الذي كدنا ندعمُ مباوِلُهُ بسبائك الذهب!

- هل ستحوّل الكتل أم لا، يا ابن القحبة؟

- لا داعي لشتّم أمّي. إنّنا نقدّم تقريراً وافياً إلى رئيس الإقليم،
ولا نقوم بأدنى تغيير بدون إذنٍ منه».

صعد رئيس المقاطعة إلى سيّارته، وقضى يومه يقودها، ليشتكى
عند رئيس الإقليم؛ فوجدَه عاريَ الصدر، منهمكاً بدوره في
شتّم أمّ رجلٍ من سنغافورة؛ أمّه الميتة. وكانت هذه من سكّان
قرية الرّمان في الضاحية الغربية من عاصمة الإقليم، وابْنُها
[السّنغافوريّ] -الذي، باعتباره جندياً، كان قد انتهى به المطافُ
إلى الاستقرار في تايوان- كانت أخبارُه قد انقطعت منذ سنواتٍ.
ثمّ علّمت أمّه بأنّه لم يمت، وإنّما هو حيٌّ يرزقُ، وقد هاجر إلى
سنغافورة حيثُ انطلق في مجال الأعمال. كان يُقالُ إنّهُ يكسب
من المال ما يكفيه لبني منزلاً يستبدل فيه الآجرّ بالنّقود. لكنّه،
على غناه، لم ينجح في أن يترك قريّته ويعبر المحيطَ إلى أمّه. وافتُهُ
أختُه الكبرى؛ ثمّ وافاهُ أخوه، ووافاه كلّ من يمكنه أن يدّعيَ
به صلةً: أمّا هيَ ففضّلت الموت في بلادها. وكان لها ما أرادت؛
ماتت منذ شهرين، وأبلغت سُلطةَ الإقليم ابنَها. والابنُ، وإن
سلخَ من السّنين واحدةً وستين، إلّا أنّه كان يلبس كالنّساء:
يرتدي ملابس مزهرةً، تضيفي عليه مظهر عَنابٍ شماليٍّ نمت عليه
ثمار مانغا وموزٍ جنوبيّة. وقد ذهب رئيس الإقليم بنفسه إلى محطة
تجويدو لاستقباله بالتّشريف اللاّئق. ثمّ في طريقهما، حدّثه في

شأن مشاريع طويلة الأمد، ثم جسّه: «- نريد أن نشترى رُفات لينين من عند الروس.

ذهل السنغافوريّ: - وهل هذا ممكن؟

- لا مستحيل مع النقود».

وبعد برهة تفكير انطلق الرجل إلى النّواح: إنّ أمّه المسكينة قد غادرت هذا العالم، من دون أن تنعم بقربه حتّى بسويغاتٍ من السّعادة. سوف يُكرمها بجنّازة فخمة! لا مشكلة في القبر، فلن يكلفه شيئاً نقل بعض الآجر أو الحجر حتّى موضع الدّفن. لكن المصيبة أنّ أفراد العائلة الذين بقوا في القرية، كلّهم عزّابٌ ولا ذريّة لهم. لا نسل يشيّع الجنّازة! ما أحزنه من أمر! «جد لي ابناً تقيّاً، يا سيّدي ليو، وسوف أتبرّع للقرية بمائة ألف يوان؛ جد لي أحد عشر ابناً، وسوف أتبرّع بمائة وعشرة آلاف! هذا مبلغٌ قد ينفعك في جمع المبلغ الذي تحتاجه.

سأله رئيس الإقليم: - فإن وجدتُ لك مائة ابنٍ وابناً واحداً؟

- مليون وعشرة آلاف، طبعاً!

- فألفاً، وواحداً؟

- عشرة ملايين وعشرة آلاف!«.

لكن مع التّشديد، على أنّ مبلغ التّبرع الإجمالي لن يتجاوز بأيّ حالٍ من الأحوال خمسين مليون يوان، ففوق هذا الحدّ ستتضرّر أعماله. غير أنّ المثير للاهتمام هو أنّ تلك الخمسين مليوناً ترفع

المبلغ الذي يحوزه رئيس الإقليم إلى نحو مليار. والحال أنه، إن امتلك ملياراً، سوف تعطيه الحكومة ملياراً آخر، فيصير بإمكانه بدء المفاوضات مع موسكو. فكان أن كرّس نفسه بالكامل لمشاكل السنغافوري. ويوم الدفن حشد سكّان القرية، وعددهم سبعمئة وبضعة أفراد، من كلّ الأعمار والجنسين، وقد ارتدوا ثياب الحداد على المرحومة؛ بالإضافة إلى الألف امرأة وصبيّة، من نساء الصّواحي الخبيرات في النّواح وسكب الدّموع. أيّ أن المجموع قارب ألفي شخص! والإقليم هو من تكلف بتوفير الملابس؛ وقد لزم اقتناء كلّ القطن الأبيض المتوفّر في المتاجر المجاورة، كما اشتغل مصنع النّسيج سبعة أيّام، ولم يستطع تلبية حاجات الجميع. والملابس، التي أشيع أنّ ملكيّتها ستؤول إلى لابسيتها، غُسلت ونُشرت، حتّى إنّ، لمدّة من الزّمن، ما عاد يُرى على مدّ البصر إلا قطنٌ خامٌ يجفّ. كان الأمر يتجاوز مجرد موكب جنائزيّ. إنّ الألفي شخصٍ اللابسين والمعتمرين البياض، كانوا يشكّلون كتلةً مترّصةً، حتّى ليخال الناظر إليهم أنّ غيوم السّماء هبطت إلى الجبل. وفي سيره سحق الموكب سنابل القمح التي كادت تنضج على جانبيّ الطّريق، ولفرط ما داست الأقدام تلاً صغيراً بالمقبرة، سوّته بالأرض. وأجفلت أصوات البكاء الغربان وغيرها من الطّيور، حتّى إنّها اختفت ولم يظهر لها أثر. لكن، بعد الدفن عاد السنغافوري إلى بيته، ولم يرَ ليو للتقود لونا. لا حسّ ولا خبر! تبخّر الرّجل مثل خيط ضبابٍ ذاب بعيداً في السّماء. أمّا المتاجر والمصنع، فقد أتت تطالب بأجرها.

لقد نُصِبَ على رئيس الإقليم. وكان في حالٍ من السَّعارِ، حتّى إنّه احتاج قليلاً من الخيار البريّ ليتخلَّص من الدَّمَل الذي انبثق في شفته. بالطَّبع بالإمكان ألا تُدفع مستحقّات القطن للمتاجر واعتبارها بمثابة إسهام مؤقتٍ منهم في الجهود المبذولة في شِرى لينين (١). وكذلك الشَّأن بالنَّسبة إلى المصنَّع، إن أتى المدير مجدداً يطالبُ بمستحقّاته، فسوف يهدّد بالفصل، ولن يلحَّ خوفاً. أمّا المشاركون في الموكب، فلا مشكلة معهم، لقد غنموا الفائدة: القطنُ الأبيض، وموضوعٌ للأحاديث الطويلة في أيام الضَّجر. كلاً، لا مشكلة في كلّ ما سبق، إنّما المشكلُ عدم اكتمال المبلغ اللازم للحصول على رفات لينين.

ولو أنّ الأمر توقّف عند هذا الحدّ، لكان لا بأس. لكنّ شيئاً آخر، هو ما جعل ليو يغلي ويفقد النّطق. لقد أخضعت زوجته لنوبةٍ عنيفةٍ ومرعبةٍ، قدّر عنف ورعبِ الثَّلج الذي سقط في عزّ الحرّ على طيّبةٍ وبالو. مع أنّ اليوم كان قد بدأ على نحوٍ طيّب، لكن، لا حظّاً، لا مناص من أن تمضي الأمور في طريقها حتّى تنتهي إلى نوبةٍ نشازٍ مرعبة. وكان قد ترك امرأته، أوّل المساء، تشاهد التّلفاز، وانصرف هو يكافح طارقاً السُّبل لجمع الأموال. ثمّ عاد ليخلد إلى فراشه، وبما أنّها نهاية الأسبوع، فالمفترض أن ينخرط في حالٍ طيّبة، كما تنصّ على ذلك وثيقةٌ وقّعاها معاً وبصمها عليها، كأنّها مذكّرةٌ إداريةٌ رسمية: فحتّى لا يُهمَل رئيسُ الإقليم، بعدما صار موظّفاً ربيعاً، امرأته الشرعيّة، فلا بدّ إجبارياً من أن يفعلوا الفعل المعلوم مرّةً في الأسبوع. كانت امرأته تصغُرُه بسبع سنواتٍ، وقد جعلته

يوقّع الوثيقة، بتأثيرٍ من مشاعر اللّحظة، في اللّيلة التي عُيّنَ فيها رئيس مقاطعة. لذا كان يعلمُ أنّ عليه أن يُشبعها كلّ ليلة سبت. لكن للأسف، خلال تلك السّنة، ومنذ أن تقرّر الحصولُ على رُفات لينين، لم يحترم معظم الوقت بنودَ عقده. إنّ بناء الضّريح يستحوذ على مُخيّخه (٣) والآن قد بدأت الأشغال رسمياً، واتّخذت طريقها، لكنّ السنغافوريّ تبدّد في الهواء، وما يزال ينقصه القسم الأكبر من رأس المال اللازم. كان متعباً، مستاءً، وعلى الرّغم من أنّها نهاية الأسبوع، إلا أنّه تهاوى على المخذة ما إن فرغ من اجتماعه اللّيليّ، وشخرَ بقوةٍ حتّى أتت توقظه بعد منتصف اللّيل. أيقظته لتبلّغه قراراً صادماً:

«سوف نتطلّق يا ليو ينغك».

فرك عينيه، وحدّق فيها مليّاً:

- ماذا تقولين؟

- لقد فكّرت في الأمر طيلة اللّيل، الأفضل لنا الطّلاق.

وهذه المرّة سمع حقاً ما قالته. بينما يستقيم في جلسته، مسّت كتفيه ريحٌ باردةٌ كهاء بئر، سحب إلى نفسه في حركة غريزيّة، غشاء وسادةٍ ليتغطّى به، فكان يبدو كأنّها يتلفّع بعلمٍ يرفرِف في الرّيح! وكانت هي ترتدي السراويل القمرية اللّون التي كانت قد لبستها ساعة خلودها للنّوم، وواحدةً من تلك السّترات القصيرة المصنوعة من نسيج الكريب الورديّ الباهت، السّترات التي كانت شغفَ نساء شوانهواي. بشرتها الناعمة البرّاقة كان لها بياضٌ حجرٍ اليشم

السَّاطِعُ. شعرُها أسودُّ سوادَ القار. ولا يفصل بين عمرها وعمر زوجها إلا سبع سنواتٍ، لكنّها تبدو كأنّها لم تبلغ بعدُ الثلاثين. كانت جميلةً جداً، ورقيقةً جداً. تجلس أمامه، مثل أختٍ صغرى تتدلّع (٥) أمام أخيها الأكبر.

- خرا! كلّ هذا لأنني مؤخّراً لم أجعلك بما يكفي في حالٍ طيبة؟

- ليست هذه المشكلة. ثمّ إنّ الحال الطيبة لا تعينني وحدي!
- فتّشي في الكون كلّهُ، لن تجدي البتّة مُدرّسةً في مدرسةٍ ابتدائيةٍ مستعدةً للطلاق من رئيس إقليم!
- بلى، هناك أنا. وأنا مصمّمةٌ على الطلاق.

قال رئيس الإقليم مفسّراً: «لا بدّ أن تعتبر نفسها زوجة الرجل الذي يحكم الإقليم بأكمله! ثمّ لاحقاً، حين يُرقّى الزوجُ عمدةً أو سكرتير محافظةٍ، سوف تأتمر بأوامره محافظةً بأكملها. هذا من دون أن نتحدّث عن اليوم الذي سيصير فيه محافظاً أو سكرتير عمَل^[١]!». قال: «أصغي إليّ جيّداً: بزواجك مني، قد ربحتِ الجائزة الكبرى. حتّى إنّ المرء قد يظنُّ أنّ عائلتك قد أحرقت البخور لثلاثة أجيال».

[١] في التّقسيم الإداري: ما يكون له حاكمٌ ويكون تابعاً في الآن نفسه لسلطة المركز، وما تزال التّسمية أو مشتقاتها مستعملة في بعض البلدان، تستخدم في المغرب مثلاً كلمة «عالة» ورئيّسها «العامل».

لكنّها أجابته: «لا أريد هذه السّعادة، لا أريد أن أكون امرأتك ولا زوجتك».

فردّ عليها: «لكنّك تعلمين! حين سأصير في أهميّة لينين، سوف يُبنى لك ضريحٌ وتُنصبُ لك مسلّة!».

فصاحت في وجهه: «- لا يهمني ما سيحدث بعد موتي. ما يهمني هو حياتي!».

حتّى إنّهُ غمغم بعد برهة صمت: «أتساءل كيف أنجب والداك ابنةً مثلك...».

ثمّ أضاف رئيسُ المقاطعة: «لا تغضب يا سيّدي رئيس الإقليم. لا ينبغي أن نتشاجر مع نصفنا الآخر، خاصّة إذا ما كان هذا النّصف الآخر امرأةً. بالمقابل، ينبغي أن تقصد جبل الأرواح الميّتة في جولة تفقّدية، لقد جرّؤ العّمّال على وضع رخام أعمدةٍ ضريح لينين، لصقّ جدار المراحيض.

- نيك أم أمّك، ألم تقل لهم أن ينقلوه من هناك؟

- نكّت أمّهاتهم شتماً، حتّى الجدّة الثامنة، لكنّهم قالوا إنّهم لا يأتمرون إلا بأمرك.

- هيّا بنا! يا سكرتير! قلّ للسائق أن يقرب السيّارة.

وكانت قد قالت له: - صه! اغرب عن وجهي. ولنر هل تقدّر أن تصبر على المجيء عشرة أيّام أو خمسة عشر...».

هزء: «لن ترينني هنا قبل شهر».

صياحُ: «شهران!

- ثلاثة!

- فإن لمحتك في الأجواء قبلها، فأنت جبان، «منشفة»!

- بل قولي إنني مَلِك الكلاب الضّالة! إن خطوتُ هنا، نصفَ خطوة، قبل الموعد المعلوم، فلَك أن تهدمي الضّريح يوم اكتمالِ بنائه! لا بل، حتّى إن أتيتُ برفات لينين، لن أبيع ولا تذكره. وتستطيعين آنذاك أن تلقي بي إلى الشارع، لأشوى في شمس الشتاء، أو لأتجمّد في ثلج الصّيف!».

وقال سائقُ السيّارة: «اللّعنةُ عليها من فوضى! الجوّ يزداد برودة. ويبدو كأنّ ندف الثلج تسقط على الرّجاج!».

رئيس المقاطعة: «هكذا طقسُ المنطقة. في شهر مارس من كلّ سنة يندف الثلج على أشجار الخوخ المزهرة، وأحياناً نشهد في عزّ الصّيف تساقطاتٍ ثلجيّة حارّة».

السكرتير: «هراء! لن أصدّق!».

ألم تقل هي: «أعدك بأن أكون لطيفةً معك؟

- بلى، يا حضرة السكرتير شي! الحقُّ أقول! وإن كذبت فليسقط عليّ ثلجُ الصّيف هذا حتّى أتجمّد، ولتحرقني شمس الشتاء حياً!

- حقاً؟».

رئيس المقاطعة: «- ألا تصدّق أنّ شجرة الخوخ قد يغطّيها

التَّمَرُ الصَّيْنِيّ؟ وأن يسبق رجلٌ أبتَرُ السَّاقِ رجلاً بقدميها؟ وأن يستطيع أعمى تحديد اتجاه الجنوب بأذنيه فقط؟ وصُماً يكفيهم أن يداعبوا طرف أذنك بأصابعهم لكي يسمعوا ما تهمسُ به. ألم تقرأ عن قصّة الجثمان الذي انبعث من رقدته، بعد أن مرّ على موته سبعة أيّامٍ وعلى دفنه أربعة؟ بالإمكان أن تُربّي الغربان كما يُربّي الحمامُ، ومع ذلك يرفض السيّد أن يصدّقني! حين نصل إلى طيّبة، سوف أريك، فتوسّع حقلّ معارفك».

رئيس المقاطعة: «سكرتير تشي، قد تكون ذهبت إلى الجامعة، لكن ما قلته لك أنا يعرفه الجميع في بالو. ولو وقفت عليه بنفسك لبُلتَ على دفاترك وخرأت على ألواحك. بفضل سنوات دراستك العشر، تكسب نقوداً أكثر ممّا أكسبُ أنا، وركبت نساءً أكثر ممّا ركبتُ أنا، لكنك لا تعرف أنّ الحرارة في المنطقة قد تنزل صيفاً إلى أربع درجاتٍ أو خمسٍ تحت الصّفر، كما قد ترتفع شتاءً أربعاً وثلاثين وخمساً وثلاثين. أليس هذا كفيلاً بأن تخراً على كتبك وتبول على ألواحك!».

السكرتير: «سيّدي رئيس المقاطعة، إنّ فمك بيتُ راحة!».

رئيس المقاطعة: «سَل رئيس الإقليم إن لم تصدّق كلامي!».

ولمّا استدارا معاً إلى ليو، الجالس في المقعد الأمامي، ألفياه مُزرقاً يرتجف من البرد. فلمّا كان قد ترك العاصمة مرتدياً تي-شرت فقط، فقد اقشعرّ جلده برداً، وحتّى وهو يضمّ يديه على صدره ظلّ يرتجف وأسنانه تصطكُ. أمامهم، تسقط ندف ثلج كبيرة على زجاج العربة

الأمامي، حيث تتحرك المساحات، جيئةً وزهاباً في صرير. جوانب
الجلبل كانت بيضاء ناصحة.

قال رئيس المقاطعة قلقاً: «هل تشعر بالبرد يا سيدي رئيس
الإقليم؟».

رجفةً، ولا جواب.

للصعود إلى جبل الأرواح الميَّنة، يلزم المرور عبر بالو، وطريق
قمة طيبة التي ما تزال تفصلهم عنها مسافة أحد عشر لي. نحنُ
في عزِّ الصيف، وعلى الرغم من أنَّ كلَّ النوافذ مفتوحة إلا أنَّهم
كانوا يرشحون بقطرات عرق كبيرة، شلالات فعلية من العرق
داخل سيارتهم الخردة التي أرهقتها السنين. أمواج القمح، على
امتداد الطريق، تهبُّ عليهم بنفحات من الهواء الساخن المغلي؛
ومن مواقعهم كان الفلاحون المنحنون على الأرض يحصدون
الزَّرع، يبدون مثل أشياء مبهمة وُضعت في عرض الحقول
التي ما انفكت تبدُّد، حقلاً حقلاً. كانت تلزمهم مدَّة ليقطعوا
المائة لي التي تفصلهم عن سفح الجبل، إذ كان السائق يخشى أن
تنفجر منه إطاراتُ السيارة إنَّ أسرع في القيادة. على أنَّهم لما بلغوا
سلسلة جبال بالو، عند مخرج غابة صفيراء، هبَّ نسيمٌ عليل.
انخفضت الحرارة، وفترت رائحةُ القمح. وشيئاً فشيئاً اتخذت
موجة الحرارة نكهةً خريفية. ثمَّ لاحقاً، بينما يتقدَّمون بإيقاع
حثيث وسط الجبال، اشتدَّت طراوة الهواء، وانقلب الجوُّ إلى
برودة صريحة؛ ولو أنَّهم لم يسارعوا إلى غلق كلِّ المنافذ، لكانوا

تجمّدوا من البرد، مثلما يحدث للقري التي تحاصرها الثلوج في عزّ الشتاء.

قال السائق: «ما الخطبُ؟ الطقسُ يتعرّى أكثر فأكثر».

قال رئيس الإقليم: «خرا عليك وعلى الطقس! هنا يسقط الثلج أحياناً على زهور الخوخ، وتصبّ الشمسُ غضبها في عزّ الشتاء».

السائق: «اللّعة! إنّ الثلج بالفعل يسقط! ينبغي أن اشغل المساحات!».

السكرتير: «هل تشعر بالبرد يا سيّدي رئيس الإقليم؟».

هي: «وما شأنك أنت؟ فليهلك برداً أو حرّاً، فليهلك!».

رئيس الإقليم: «هل سأعثر في هذا الطقس على كنزة في مكانٍ ما بشوايهواي؟».

هي: «تغطّي ومُت مختنقاً، أو تعرّى ومُت نافق-قرّ».

رئيس المقاطعة: «أيّ عاصفة هي! لنواصل، ينبغي أن نجد معطفاً للرئيس».

السكرتير: «هناك عند المنعطف، توجد قرية».

رئيس الإقليم: «اللّعة! لو قيل لي إنّني سأتجمّد اليوم إلى هذا الحد!».

وبينما يتحدثون، كانت السيّارة قد انعطفت، فبلغت قرية صغيرة عند سفح الجبل. توقّفوا في البيدر، فاستعاروا سترةً، ومعطفاً

عسكرياً، وأمروا السائق، متوَعدين، بأن ينتظرهم في مكانه، ثم
صعدوا جبال بالو.

ومن فورهم لاذوا بمركز الإيواء في طيبة.

ثم أخيراً توقّف الثلجُ. ومع ذلك لم يزل الجوّ بارداً. حين
استيقظوا صباحاً كانت السماء ما تزال ملبّدة، والجوّ صقيعٌ ما
تزال تلتطّخه فكرةُ الثلج. والرئيس ليو لم يغمض له جفنٌ طيلة
الليل. وكان قد نامَ في الجناح الرفيع من المعبّد القديم، أي الموضع
الذي كان يأتيه، فيما مضى، الرّجال والنساء للتّنسّك. كان بوذا قد
أخلّى المكان، وكذلك أخلاه غوان غونغ، وأخلته العجوز البكماء،
وَضربت حواجزُ قسمت الصّالة إلى ثلاث غرفٍ، أقصى شَهاها
الغرفةُ التي قضى فيها ليلته. كان له سريرٌ بمفرده، مزوّد بمرتبتين
من قطنٍ، وغطاءين. والحقُّ يقالُ كان السرير مريحاً! ومع ذلك لم
يهنأ فيه بالنّوم. استعادت ذاكرته أحداثاً وقعت منذ ثماني عشرة
سنة، أيّام كان ما يزال مندوباً للتربية الاشتراكية: تذكّر كيف أنّ
امراًةً حملت بتوأماً. ثم صار إلى تخيل الانبعاث الذي ستعرفه
السيّاحة بالمنطقة إن تمكّن من شراء رفات لينين وجلبه إلى جبل
الأرواح الميّتة. ستغرق الدّائرة في الثّراء. ولن يظلّ هو مجرّد رئيس
إقليم، ولا حتّى نائباً لمستشارٍ أو لسكرتيرِ الحزب، وإنّما سيصير
أحد عظماء هذا العالم، وجهاً بارزاً في هذا الكون، شخصيّةٌ يأتمرُّ
بأمرها سكرتيرُ الحزب نفسه. لقد فكّر مليّاً: إنّ عشرات الأقاليم
التي تضمّها المحافظة هي في مجملها تقريباً فقيرةٌ معدمة. حين

يصير مستشاراً أو سكرتيراً، سوف يطلب من كل إقليم منها أن ينيّ ضريحاً، ويحبل رفات لينين عليها جميعاً، إقليماً إقليماً، ليجذب إليها السيّاح، فيصيب الجميع من الثراء نصيباً. أمّا تجودو، عاصمة الإقليم، فسوف تحتفي بيوم دوليّ للنين، يوضع فيه الرّفات في قلب السّاحة، ويأتي ليحيط به، كلّ من يقدّرون الزّعيم ويفهمونه، بعد أن قرؤوا كتبه، - كما قرؤوا كتب ماركس وإنجلز، وبالطّبع كتب الزعيم ماو-. أمّا أولئك الذين يقرؤون ستالين ويقدّسونه، فلم يستطع بعد أن يقطع في أمرهم، إذ سمع أن الآراء فيه تختلف، سواءً في الصّين أو في باقي مناطق العالم.

أنعم رئيس الإقليم التفكير طيلة اللّيل. شخيرُ سكرتيّره ورئيس المقاطعة كان يقع في أذنه كعزف كمانٍ بوترين: زون، زون، زون. لشدّ ما ودّد لو يقفل مناخيرهما بالقطن، أو بخرقّة بالية، وأن يحشر في حلقيهما جورباً ننتاً! لكنّه كان رئيس إقليمٍ، فتحمل ببسالة. ومع الصّباح الباكر، قام من فراشه، ورأسه دائخٌ بعض الشّيء.

كانت الغرف مشرفة على باحةٍ مزروعةٍ بسروتين عتيقتين، وشجرة دردار فتية، وخبّازى في منتصف العمر. وقد أسقط ثقلُ الثلج أوراق الخبّازى، وأعشاش الغربان المسنّة من فوق شجرتيّ السّرو. وكانت الأرض مملوءةً بالأغصان الميتة وجثث الفراخ التي فقسّت إبان الصّيف، فلمّا انسحقت بالأرض تحوّلت إلى بيوض من جليد. وتلك الكريّات المتناثرة التي لا تبرز منها إلّا مناقيرُ حادة، كانت تبدو مثل فراخ تخرج رؤوسها من قشرة بيضتها. قمّة

الجدارِ المبنيةً من تربةٍ مدكوكَةٍ، غطَّتْها طبقةٌ من الذرة المجفَّفة بدأت تتفتَّت. وعلى هذا الجدار توالى هبوب الريح وتعاقت الأمطارُ، فتصدَّع رغماً عنه، بمرور الزمن.

ألقي الرئيس على كتفيه معطفاً، وخرج إلى الباحة، فوقف في مركزها، وأخذ يتفحَّصها حتَّى أركانها القصية.

في الشارع مرَّ أعرج متوكئاً على عصاه؛ لقد أبكر في الاستيقاظ ليسحب الماء من البئر. لم تكن عصاه تُصدر، على عادة العصي في الأيام العادية، صوتَ توك، توك، توك.. وإنَّما كان وقعُها في الثلج: فليب فلوب، فليب فلوب... كان يتناهى أولاً صوت قدمه العليلة توضع على الأرض، ثمَّ القربة التي تُرفع بصعوبة ثمَّ تهوي ثقيلة. لم يكن الصَّوت منتظماً، لكنَّ من يرخي السَّمع ينتهي إلى إدراك إيقاع. وبالنسبة إلى رئيس الإقليم كان الأمر أشبه شيء بهراوتين من خشب، هراوة صغيرة وهراوة كبيرة، تضربان في الثلج في مكان بعيد. ابتعد الرَّجل، وما عاد يُسمع شيء، لم يعد يتناهى أيَّ صوت. رفع الرئيسُ رأسه، تأمل الأفقَ شرق الجبل، هناك خلف الغيوم حيثُ قطعةٌ من بياضٍ متخمةً بالماءٍ لدرجة أنَّه كان ليسيل منها لولا أنَّها تقفُ في طريقه سداً؛ فلا تتسرَّبُ إلَّا بضع قطراتٍ فضية، عبر الفروج النادرة خلال الركام.

عصارةٌ صافيةٌ تأملُها ملياً.

ثمَّ أشاح عنها ببصره، فرأى مجرفةً من حديدٍ صديٍّ موضوعةً لصق الجدار. انتزعها من الثلج، وضرب بها الأرض لينظفها، ثبتَّ

المقبض في شقّ بالجدار - جاعلاً رأسها المعدن المتآكل لصق ياقة معطفه-، ثمّ وجهها إلى السّحب الثّقال التي كانت تحجب قطعة البياض الفضيّة، هناك، باتجاه الشّرق. ولم يكتفِ بالتّسديد، وإنّما صار يقلّد بإصبعه عمليّة الضّغط على الزّناد، رميّة تلو رميّة، كان يثني إصبعه ثمّ يفرّدها، مقلّداً بفمه صوت البندقيّة: «بان».

يصوّب، يسدّد: «بان!».

مكتبة

t.me/soramnqraa

يصوّب، يسدّد: «بان!».

يصوّب، يسدّد: «بان!».

يصوّب، يسدّد: «بان!».

وكلّما رمى بسلاحه، تفرقت السّحب القائمة التي كانت تحجب العصاراة البيضاء بياضاً يغشى البصر، فيسيل لتفرّقها عصير فضيّ.

وحين يسمع صدى الدّفق بين السّحب، يصطبغ وجهه بحمرة ملتهبة. إيقاع الرّمي يشتدّ، وأصوات الـ«بان» من شفّتيه تتوالى بلا انكفاف (٧). انقلبت الفضة صفرةً، وبدأ أنّ الشّمس على وشك أن تُطلّ. الكون يتلوّن بالذهب.

«السّماء تصفو يا سيّدي رئيس الإقليم».

خلفه كان السكرتير يفرك عينيه: «كان يكفي أن ترمي السّماء لتزرع في الشّمس الرّغبة في أن تشرق!».

استدار رئيس الإقليم وعلى شفّتيه ابتسامة الجنرال المنتصر: «يجدر بها أن تفعل! هيّا تعال يا شي، جرّب الأمر!».

تناول السكرتير المجرفة، ووضعها، كما وضعها رئيسه من قبل، حاشراً عصاها في شقّ الجدار، ثم صوّب جهة الشرق. ومثل رئيس الإقليم، جعل يحرك إصبعه، متمثلاً الضغط على الزناد، صائحاً: «بان! بان! بان!». لكن كلّما صاح، تراكمت السحب، بعد انقشاعها، وعادت لتحجب جدارَ العصاراة الفضيّة والمذهّبة.

قال: «- الأمر لا ينجح معي.

أجاب رئيس الإقليم - لنرَ حظَّ رئيس المقاطعة!».

وكان رئيس المقاطعة قد خرج للتوّ من المرحاض، فسارع إلى إقفال سحاب سرواله. تناول بدوره المجرفة مثلما يتناول المرء بندقيّة، ثم صوّب على قمّة الجبل، شرقاً، هناك حيث تشرق الشمس. وسدّى ظلّ يرمي الطلقات، ما انفكت الشقوق بين السحب تنغلق، اختفى تماماً جدارُ العصاراة الفضيّة. لم تعد السماء إلا كتلةً سديمية. وبسط الضباب والرطوبة يديهما على الأرجاء، حتّى احتلا باحة المعبد.

ربّت رئيس الإقليم على كتفه: «باعتبار براعتك، أظنّ أنّ عليّ انتظار وصول رفات لينين، لكي أعينك رئيساً لمكتب السيّاحة».

ثم تناول المجرفة من جديد، وغير موقعه ليحسن التصويب، وأطلق سيلاً من عشرين إلى ثلاثين طلقة، فتمزّق الرّكام.

دوّت البندقيّة، تفرّقت السحب، أشرقت الشمس.

أطلق حوالي عشر طلقاتٍ أُخر: عند قمّة الجبل، شرقاً، برزت قطعةً من السماء فضيّة.

ثم عشر طلقاتٍ أخر، فأطلت صُفرةٌ ذهبيةٌ.

ثم عشرٌ، فبرز جدارُ الذهب والفضة، في حجمٍ حقل قمح.

ثم صفت السماء، وتبددت السحب، وأشرقت الشمس. في رمشة عينٍ انقشع الأفق جهة الشرق، وأعلى القمم. تحوّل إلى صفرةٍ شفافة. والضباب الأسود الذي رفض أن يتبدّد، تكاثف، في البعيد متّخذاً لوناً معدنياً. وفي ضوء الشمس ظهر الثلج ببياضٍ برّاقٍ وانعكاساتٍ مبهرة. أغصان الأشجار تتشابك كقضبان من فضة. وفي الحقول، وسط الطبقة النقيّة، تشرّبُ سوقُ السّنابل، هنا وهناك، كأنّها أغصانٌ عليقٌ تحترق قشرة الأرض. وكان الهواء بنداوةٍ عزّ مثلها، حتّى إنّ المرء يعبُّ منه جرعتين أو ثلاثاً، ويمضغ، ويتذوّق طعمه، فيشعر كأنّها اتّسخ حلقه الذي لم يكن يشعر فيه من قبل بأيّ إحساسٍ؛ فتتملكه الرّغبةُ في أن يكشط حنجرته، ويبصق ليتخلّص من العوالق.

في كلّ مكانٍ من القرية كان النّاس يسعلون.

وبعدما بصق الفلاحون ما طاب لهم البصق، وضعوا أكفّهم على جباههم وتطلّعوا إلى الأفق، وانطلقوا يعلّقون:

الرّجال: «هه! الطّقس يصفو! سيكون بمقدورنا أن نحصد ما تبقى. على الرّغم من الكارثة إلّا أنّنا نستطيع أن ننقذ شيئاً».

النّساء: «آه! الطّقس يصفو! سيكون بمقدورنا أن نخرج للشمس الأغطية التي بدأت تتعفن. حتّى ونحن في المصائب لا ينبغي أن نترك الفراش يفسد».

الأطفال: «أوه! يا للأسف! الطقس يصفو! ألم يكن من الممكن أن تثلج السماء بضعة أيام أخرى؟ كنا سنظل تحت الأغطية. أفضل الموت جوعاً على أن أذهب إلى المدرسة».

آخرون نظروا باتجاه المعبد القديم: «انظروا، إنَّ رئيس الإقليم أتى، والسماء انقشعت. واضحٌ أنَّه لا يشبهنا، نحن عامة الناس. إنَّه يتحكَّم حتَّى في الطقس».

ومن الجانب الآخر للسور كان رئيس الإقليم المعلوم يسمع تعليقاتهم، فوضع المجرفة. أخذ حفنة من الثلج ليرطب حلقه الذي جفَّ لفرط «بان! بان! بان!». فكَّر برهةً، ثمَّ استدار شطر رئيس المقاطعة: «هل تساقط الثلج صيفاً في هذه المنطقة أمراً مألوفاً؟

- حدث ذلك مرّةً، قبل سنوات الكوارث الطَّبيعية، بين سنة الفأر وسنة الأرنب؛ ومرّةً أخرى قبل سنوات البؤس العشر الكبرى، قبل سنة الحصان وسنة التَّنين. لكن لم تكن تساقطات ثلجيّة كبيرة، فقط ندف صغيرة يشهدها الشَّهر الخامس، وتذوب خلال النّهار ما إنَّ تعود الشمس.

علّق السكرتير: - بعبارة أخرى، يمكن اعتبار هذه التَّساقطات في هذه الأيّام الحارّة حدثاً مهمّاً، ما دمنّا لم نشهد لها مثيلاً منذ قرن من الزَّمان.

استأنف رئيس الإقليم الكلام: - اللَّعنة! لقد أصبَتْ القول! إنَّ لم نعتبر ظاهرة بهذه الأهميّة حدثاً بارزاً، فما الذي سنعتبره كذلك؟ ثمَّ أضاف مخاطباً رئيس المقاطعة: «ينبغي أن نسعف المنكوبين. أنت،

سوف تهرع إلى جبل الأرواح الميّتة، فتأمرهم بأن يبعدوا الرّخام عن المخارئ. ثمّ يغسلونه بعد أن يبعده؛ وبعد أن يفرغوا من الغسل أجبرهم على أن يشربوا المياه التي استعملوها في الغسل». ثمّ إلى السكرتير: «عُد إلى عاصمة الإقليم. أريد أن يتبرّع كلّ فرد، في كلّ الدّوائر، بعشرة يوان، لإسعاف طيّبة، حتّى إن كان في تبرّعه هلاكه. حرّر مذكرة في شأن ضرورة بذل كلّ الجهود لإسعاف المنكوبين، ثمّ أرسلها إلى المحافظة والبلدية. وحين تصل المساعدات، سيقم القرويون طيباء (٩) شكراً للحكومة».

بعد أن أفطر، سلك رئيس المقاطعة طريق جبل الأرواح الميّتة، سائراً على قدميه في الثلج.

وعاد السكرتير إلى العاصمة.

وبقي رئيس الإقليم في طيّبة.

تعليقات

(١) - شرى لينين: كذا صار يقول عامّة الشعب في المنطقة، للتعبير عن عمليّة الحصول على رفات لينين.

(٣) - مُخيخه، مخيخ، اسم مذكّر، الرأس، الدّماغ.

(٥) - تدلّع: اسم مذكّر، نزوة، هوى.

(٧) - انكفاف، اسم مذكّر، بلا انكفاف، بلا هوادة، دونما توقّف.

(٩) - طيباء: اسم مؤنث. - الاحتفال الكبير الذي يعقب نهاية موسم الحصاد

بطيّبة.

الفصل الخامس

طيباء الشهر الخامس من سنة النمر

كان موسم الحصاد قد انقضى.

انتهى في كدّ، لكن من غير استعجال.

وما يزال الفصلُ صيفاً. وسارع الثلج إلى الدّوبان ما إن أطلّت الشمس. لكنّ الأرض ظلت رطبةً، وما إن تحفّن من تراها حفنةً، فتعصرها بقبضتك، حتّى تسيل منها عشر قطرات؛ وفي عزّ الحاجة إلى حرارة الشمس كي تجفّ الأرض، حلّ ضبابٌ سميكٌ، واستقرّ. لم يكن النهار بأوضح من الليل، وسُدّي ظلّ رئيس الإقليم يسدّد بمجرفته على السّحب المتراكمة التي تغطّي السّماء والأرض. رمى في اليوم الأوّل، ثمّ رمى في اليوم الثّاني... ما إن يجد نفسه بمفرده حتّى ينقّض على المجرفة أو مقبض المعزقة، فيصوّب شطر الرّكام. مقرّصاً فوق حفرة المراحيض، كان يحاكي بيده اليمنى مسدساً، فيوجّه فوهته صوب نقطة من السّحب، ثمّ يُطلق طلقات صامتة. واصل الضّباب اندفاعه في دفقٍ لا ينقطع. في اليوم الخامس، اشتدّت عصبِيّته حتّى انفجر في شفته دمل، فاستعار من القرية

بندقيّة حقيقيّة، ورمى ثلاث مرّات متتالية صوب السّحب، وقد أصابت الطّلقات جميعاً هدفها، لم تضع منها شطيّة حديد.

أخيراً انقشعت الغيوم، وظهرت الشّمس.

الأرض التي كان يمكن، من قبل، حلبها، صارت الآن جافّة حتّى إنّ أثر القدم ينطبع عليها.

حبّات القمح اسودّت في السّنابل المتعفّنة، واغمق لونُ الغلوتين حتّى صار يُخشى أن يتسبّب تناوله في التسمّم؛ أن يؤدي إلى المغص والغثيان. سوقُ السّنابل أيضاً فسدت، صارت صفراء وسوداء منتنة. حتّى ثورٌ يموت جوعاً، ما كان ليتناولها. هذه السّنة لن يكون ثمة علفٌ للبهائم؛ ولا دقيق في أيّ منزل؛ لن يغنم أحدٌ المتعة العرضيّة، متعة تناول طبق معكرونة؛ لن يكون ثمة عجينة - مسطحٌ (١) للاحتفال برأس السّنة؛ ولا بذور تُبذر في الخريف.

من أيّما طرفٍ باشرت هذه السّنة، ستجدها سنةً كارثيّة. لم تكن تبدو على الفلاحين ملامح الفرح التي تعقب عادةً نهاية الحصاد. وحتّى اللّحظة كانت ماو تشي قد حدّدت ثلاثة أيّام للاحتفال بعد الفراغ من كلّ موسم حصاد. تُطفأ المواقد في المطابخ، ويضرب الجميعُ موعداً في ساحة البيدر الكبيرة. ثلاثة أيّام يقضيها المرء في حشو نفسه بالطّعام والشراب حتّى يخمد في نفسه كلّ عطش. ثلاثة أيّام يسابق فيها أصحابُ السّاق الواحدة، شباباً صناديد ذوي أقدامٍ راسخة؛ وصمٌّ يُظهرون أتهم يكفيهم أن يداعبوا أذنّاً ليعرفوا ما يهمس به صاحبها: يلمسون ما يقوله النّاس، يلمسون أصواتهم؛

ويخوض العُميانُ مسابقةً من يملك أرهف سمع: تُسقطُ إبرةٌ على حجرٍ، أو على خشبةٍ، أو على الأرض، لا يراها أحدٌ، ثمَّ يُطلب من العميان أن يَحْمِنُوا ما إذا كانت الإبرة خلفهم أم أمامهم. كذلك الأكتع والأعرج لهما ما يتنافسان فيه... ثلاثة أيام من البهجة تذكّر برأس السنّة. من مداشر مجاورة، ضمن نطاق لَيّاتٍ كثيرة، يتوافد القرويون، ومن ضمنهم العديد من الشّباب والصّبايا. والحال أنّ إدامة النّظرِ تُورّثُ التعارفَ، فينتهي المطافُ بشبّان القرى المجاورة إلى الزّواج من بنات طيّبة المعاقات؛ ويتزوّج أبناء القرية المعطوبون من صبايا مشرقات بالصّحة والعافية. وكثيراً ما تنتهي الزّيجات إلى كوارث. تخيلوا فتىً من أبناء القرى، ابناً وحيداً لأسرته، كاملَ البدن، يأتي ليستمتع بالعروض، فيقع في فتنة صبيّة عرجاء. الصبيّةُ تعرج، وليست بالضرورة جميلةً، لكنّها تعرف كيف ترمي، بضربةٍ من رموشها، سبعين سهماً، إلى ثمانين، وتُطرّزُ أمام الحشدِ صورتها بارزةً على قماش اللّوحة البيضاء. يدرك الفتى أنّ سعادته بدونها مستحيلةٌ، لكنّ والديه غير موافقين. يحاول الانتحار، أو يغادري بيت أهله ليستقرّ مع أسرة الصبيّة. تحبل البنت، فتلد طفلاً أو طفلةً، ولا يجد أبوا الشّابّ بداً من الاعتراف بقرباتهما للطفّل.

أو لتخيّل آنسةً جميلةً، تجذبها الاحتفالات، فتقع في حبائل أصمّ أو أعمى. أُذن الأصمّ بالطّبع متصلّبةٌ، لكن يكفيه أن يتأمّل شفيتها ليدرك من حركتهما ومن ملامح وجهها، ما تقوله. ثمّ، إن كانت أذناه مُلجّمتان، فهذا لا يعني أنّ لسانه غير طليق.

الصبيّة: «- من تتزوّج بك، سوف تشقى».

الأصم: «صحيح ومؤكّد! سوف أغسل قدميها، وأسقيها الماء، وأعدّ لها الطّعام؛ وسواء كان الموسم سميئاً أو أعجف، لن تذهب قطّ إلى الحقل؛ ينبغي أن تظلّ في البيت خاملة متبطّلة. أليس هذا الشّقاء عينه؟».

تضحك الصبيّة: «إنّ كلامك أشدّ فتنةً وعذوبةً من أغنية».

الأصم: «وإني في الغناء أفضل! أنصتي!».

وبصوتٍ خفيض يترنّم بلحنٍ من مادريغال^[١] جبال بالو (٣):

في الشتاء تدفئ الشمس الأرض
ونبتهج، وإن لم نملك إلا بلاط الأرض

الرّجل يعلّم أظافر الحبيبة الغالية
وهي تُنظّف أذنه مرّةً وثانيّةً

شرق القرية يعيش مليونيرٌ مُسنّ
الذهبُ والمالُ والأملاكُ عنده كالتبّ

لكنّه يضرب زوجته في اليوم ثماني مرّاتٍ
أخبروني إذن: لمن الشقاء والبؤس؟ ولمن الفرحُ والمسراتُ؟

[١] فنٌّ غنائيّ جماعيّ، تتخلّله فواصل رقص.

لم تعد الصبيّة تضحك، تفكر ثمّ تضع راحتها على ذراع الأصمّ وتسأله: «فإن تكلمتُ هكذا، هل تسمعي؟» يمسك يدها: «بقربك لا أكون أبداً أصمّ، أصابعي تسمع كلّ ما تقولينه». تسحب يدها، ينبغي أن تعود إلى المنزل لتحدّث مع أمّها. ترفع عن قضيتها. لكن لا أحد من أهلها يوافق. ومع ذلك تتزوّج به في طيبة.

ثمّ تحيّلوا الأعمى، وانسوا أنّ عينيه لا تريان إلّا غشاوة سوداء. إنّّه شديد التيقّظ والفتنة، تكفيه بضعةُ جمل ليفتن. في طريقه إلى الحفل اصطدم بحجر، تعرّ وكاد يسقط لولا أن أمسكته هي.

هو: «ما الجدوى؟ كان أولى لك أن تتركيني أسقط، أنكسر، أنتهي مرةً واحدةً وإلى الأبد».

هي: «لا ينبغي أن تقول مثل هذه الأشياء. الحياة دائماً أفضل من الموت».

هو: «أنت محظوظة، أنت ترين، وأنت جميلة، بالطبع لا بدّ أن تعجبك الحياة».

هي، مضطربة: «كيف تستطيع أن تعرف أنني جميلة؟».

هو: «لأنني أراك. أرى جمال العالم، أرى أنك فاتنة».

هي: «أنا قصيرةٌ وسمينة».

هو: «قدّك عود صفصاف».

هي: «أنت لا ترى شيئاً؛ إنّ بشرتي داكنة».

هو: «لأنني لا أرى شيئاً، أعلم أن بشرتك بيضاء ناعمة، مثل بشرة الأميرات في الحكايات، فكَذلك يراها قلبي».

هي: «أنت لا ترى شيئاً! لو كنت تملك عينين لما تحمّست هكذا!».

هو: «أنت تبصرين؛ وبالتالي ترين كلّ قذارة العالم! أمّا أنا فلا أرى إلّا النّقاء والصّفاء». ثم: «أنا لا أبصر. وكلّ يوم أطلب أن أترك لأسقط فأتحطّم، لكنني في قرارة نفسي لم أفكر قطّ في الموت. أمّا أنت، فلا شكّ عندي في أنّك تفكرين فيه مرّاتٍ في اليوم».

من يستطيع أن يجزم في صدق ما يقوله؟ لكنّها إذ تسمعه، يحمرُّ جفناها وتجهش.

تقول: «سوف أقودك حتّى السّاحة». يمدّ إليها العصا التي كان اتخذها لاستكشاف طريقه، وخشيّةً من أن تتوسّخ يدها، يمسك هو بالطّرف الذي كان يمسّ الأرض، ويمدّها الطّرف الآخر. كأنّها تحسّ في العصا بحرارة جسمه، ينتابها الانطباع بأنّه لفرط ما عالج بيده العصا صيرّها ملساء برّاقة.

يحضران معاً الطّيباء.

يقضيان معاً ما تبقى من حياتهما. ينجان صبياناً وصبايا يحفظون السّلالة.

لكن هذه السّنة، لم تشرف ماو تشي على تنظيم الطّيباء، ولا أيّ احتفال، بعد الحصاد. رئيس الإقليم هو من تكلف بالأمر. مع أنّه

ذهب لرؤيتها. وجدها في باحة منزلها، تُطعم الكلاب كمن تطعم
 أبناءها. الكلاب أيضاً كانت معاقةً، أو عمياء أو عرجاء. بعضها
 كان مسلوخاً - عاري الظهر تملؤه بُقع داء القوباء التي تذكر بصورة
 لطخاتٍ على جدارٍ لم يُحسَن صقله-. وبعضها الآخر كان ينقصه
 -وليعرف السبب من بوسعه أن يعرف- الذيل أو إحدى الأذنين.
 الباحة المربعة تشرف على جرف ترابيٍّ، ويحدُ جانبيها المرفقان
 الرئيسيان: عن جنوب الكوخ الذي يستخدم مطبخاً، وعن شمال
 بناية مسقفة بالقرميد، هي مكانُ إقامتها بالمعنى الحرفي لكلمة
 إقامة. وتتخذ الكلاب من حفرتين في الحاجز الصخري وجاراً لها؛
 وعند سفح الحاجز وُضع حوضُ خنازير، وحايوة قديمة، وقدرٌ
 من غير مقابض، ووعاءٌ جديد: أواني طعام الكلاب. ولم تكن تلك
 الحيوانات تتصارع على الطعام تصارع الخنازير، وإنما ينكبُّ كلٌّ
 منها على قدره أو وعائه أو حوضه يأكل نصيبه من عصيدة الدرة،
 لا ينصرف عنه إلى نصيب غيره. تمتلئ الباحة بأصواتها وهي تلوك
 الطعام؛ وتضوعُ بأريج القمح الأصفر الناضج الداكن. أحد تلك
 الحيوانات، وهو كلبٌ مسنُّ أرقط الجلد -سلخ من السنين ما
 يفوق عشرين سنةً، أي ما يكافئ عند الإنسان واحداً وتسعين عاماً
 كاملةً- لم يعد يقدر على الحركة، فصارت تضع أمامه نصف وعاءٍ
 من الهريس، بحيث يستطيع أن يلعبه بلسانه المرتخي، من دون أن
 يغيّر وضعيته ممدداً. وحين فرغ من لعق الهريس، صبت له ماو تشي
 بعضاً من حساء الأرز فواصل تناول طعامه بنفس البطء. كانت
 الشمس قد ارتفعت، والقرية غارقة في صمتٍ عميق. الفلاحون

في الجبل منكبّون على شغل أرضهم، يحرثون، أو يبذرون إن كانوا ممن يريدون أن يغنموا نداوة التراب. وتحمل موجات من الريح إلى القرية أصداً صيحاتهم وهم يستحثّون الثور للمسير، أو وقع المعزقة وهي تضرب الأرض استعداداً لموسم الخريف؛ أصوات مختلفة الإيقاع، تصعد وتنزل مثل لحن تخليق الطائر بعزف الكمان في مادريغال من جبال بالو. كانت ماو تشي إذن مستغرقة في إطعام لقطائها، حين سمعت أحداً يدفع الباب. التفتت فرأت رئيس الإقليم في العتبة.

رمقته بنظرة ازدراء، ثمّ عادت تنحني على حيواناتها. وظلّ هو واقفاً في إطار الباب، كأنها كان على علم مسبق بردة فعلها، وما كانت لتزعجه البتّة. وبعدها مسح المكان بطرف خفيّ، توقف عند كلاب الماستيف المنكبة على أوانيها، فرفعت الحيوانات رؤوسها بغتة وحدّقت فيه. فجأة أدرك أنّ إشارة بسيطة من سيّدها تكفي لتتقّص عليه، فقرّر أن يلزم حدوده بعدما كان ينوي الاقتراب.

أدارت له ظهرها.

«ماذا تريد؟».

حاول رئيس الإقليم الاقتراب خطوةً.

«هل تُطعمين كلّ هذه الكلاب؟».

هي: «هل لأجل رؤيتها أتيت؟».

هو: «أتيت لمساعدتكم».

هي: «ساعدنا إذن».

هو: «قريباً تصل المؤن والمساعدات. لم أذهب إلى مقاطعة الأزدرخت، حين سقط البردُ على حقولهم منذ عامين؛ لم أعطهم شيئاً، لا مؤونة ولا مال؛ وحين عانت مقاطعة العنّاب من الجفاف، العامَ الماضي، وفسد الزرع، أعطيناهم مائة رطلٍ من الحبوب لكلِّ حقل، لكنني لم أنتقل بنفسي إلى عين المكان؛ وهذه السنة، وإن سقط الثلجُ على طيبة في عزّ الشهر السادس، إلّا أنّ الناس استطاعوا أن ينتشلوا قدرأً لا بأس به من القمح. ومع ذلك ها أنا قد أتيت بشخصي، ومع ما ستحصلون عليه من مؤن ومالٍ يمكن أن نقول إنّكم ستريحون مقارنةً بالمواسم الماضية».

صبّت ماو تشي آخر ملعقة أرزٍ في وعاء الكلب: «بعبارة أخرى، ينبغي أن أشكرك باسم سكّان القرية».

نظر رئيس الإقليم نظرةً شاردةً في قمم أشجار العنّاب البريّ التي تنمو في الجهة المقابلة، فوق المغارات. أثناء العاصفة فقدت أوراقها، لكن ما إن أطلّت الشمس حتّى أخذت تتبرعم كأنّها عاد الربيعُ البهيج.

«ليس أنا من ينبغي أن تشكروه، وإنّما الحكومة. ينبغي أن تقام الطيّاء على دأبٍ كلّ سنة».

- لقد صرت عجوزاً طاعنةً في السنّ، وما عاد بإمكانني الإشراف على هذه الأمور.

- أنا من سيتكفّل بالأمر إذن.

- إن كنت تستطيع».

ابتسم في ظهرها: «تناسين أنني رئيس إقليم».

ابتسمت ماو تشي بدورها، لكن من غير أن تلتفت إليه: «كيف لي أن أنسى؟ أذكر أنني حين عرضت عليّ السُدّة (٥) أن أكون رئيسة إقليم رفضتُ، وأنداك لم تكن أنت بعد قد وُلدت، ولا صرت مكلفاً بالتربية الاشتراكية في مقاطعة السّرو».

لم يردّ عليها حتّى. ظلّ مسمّراً في مكانه برهةً، ثمّ زفر زفرةً كبيرةً وانصرف.

في الأصل لم يكن يدير طيّبة أيّ تنظيمٍ. منذ التحرير لم يشكّل القرويون أيّ إطارٍ تنظيميّ، وإنّما كانت القرية تشتغل كعائلة كبيرة، وكلّ فردٍ منها ينشغل بإنجاز أعماله. وقبلها بعشر سنين أو عشرين، حين أرادت الكومونة الشعبيّة أن تضمّ القرية إلى هذه الجهة أو تلك، لم يرد أحدٌ أن يتكلّف بأمر أولئك المعاقين المائتين ونيف. ليتدبّروا أمورهم بأنفسهم! ولا بأس إن لم يكن عددهم كافياً لتشكيل وحدة إنتاج. وفي نهاية المطاف لم يتمّ إدماجهم في أيّ جهة؛ على أيّ حال القرية تنتمي طبيعياً إلى مقاطعة السّرو، وكيفما كان الحال فإنّ ماو تشي تهتم بشؤون رعيّتها كلّها. إنّها هي من ضمّ هذه الطيّبة المنسية إلى النطاق الجغرافيّ للمقاطعة والإقليم، فكان من الطّبيعيّ أن تهتمّ بشؤون القرية، من قبيل: تنظيم الاجتماعات، وتحصيل المكوس في شكل حبوبٍ، وبيع القطن. وعلى عاتقها تقع مسؤولية إخبار السّاكنة بالأحداث السياسية الكبرى، وفصّ النزاعات بين الجيران،

والخصومات بين الزوجة وحماها: وفي جميع الحالات كانت تحسن صنعاً، وتجِدُ حلاً. ولولا أنَّها استقرّت من تلقاء نفسها في طيّبة، ولم ترد أن تبارحها، لكانت قد صارت رئيسة على المقاطعة، وربّما على الإقليم. لكن بما أنَّها قرّرت الاستقرار في القرية، فقد كان منطقياً أن تصير سيادية (٧).

فإن كانت ستنظّم طبياً، فإنّها هي من ينبغي أن يشرف على تنظيمها في ساحة البيدر. إن استثنينا سنوات المجاعة، كانت هي من يتخذ مثل هذه التدابير كلّ عشر سنوات تقريباً. منذ عقود عديدة، وهي الشخص الذي ينبغي أن يُقصد في كلّ شاردة أو واردة. صحيح أنَّها لم تكن إطاراً بالمعنى المتعارف عليه، فهي ليست رئيس قرية، ولا سكرتيراً، ولا رئيس وحدة إنتاج، ولا تدير أيّ تنظيم شعبيّ. لم تجرِ طيّبة انتخابات، ولا تنقل مسؤول سابقاً من الحزب أو الكومونة، ولا اليوم من المقاطعة ليسلمها مقاليد السّلطة. لكن إن ارتأت السُدّة أن أمراً ما ينبغي أن ينفذ، فإنّ ماو تشي هي من ينبغي الاتصال به. كانت تفكّر في المشكل، أحياناً تحلّه، وأحياناً أخرى تعارضه، وترسل ممثلي السّلطة خاليي الوفاض. كان من البين بنفسه أنَّها هي من يحكم في طيّبة. من دونها لن تكون ثمة زعامة. هبّ مثلاً أنّه قد تقرّر إنشاء طريق، أو إقامة جسر فوق النهر في قعر الوادي، أو أنّ بئراً رُدّمت بسبب الأمطار - أو أن الأعواد والأشجار الميّتة تراكمت فيها على طول السّنة، أو أن طفل فلانٍ أو علان أسقط فيها حذاءه أو قبعته، أو أن أحدهم فقد الرّغبة في الحياة، فألقى بنفسه فيها: فتغيّر مذاق مائها، ولم يعد عذباً، وصار لزماً إزالة ما علق

بالبئر وتنظيف جدرانها. إن حدث شيءٌ من ذلك، ولم تتدخلَ ماو تشي، فإنَّ المعاقين يظلُّون عاجزين. هي وحدها كانت تستطيع أن تدير الشؤون العامة.

فمن باب أولى أن تنظِّمَ الطَّيِّبَاءَ.

غير أنَّه في هذه السَّنة، وبعد الكارثة التي حلَّت، سوف يتكلَّف رئيس الإقليم بالتنظيم. سينجح الحفل بها أو بدونها. وحين خرج من عندها، كانت قد مضت على مقامه بطيبة تسعة أيَّام. وأربعة أيَّام منذ أن صفا الجوَّ وأشرقت الشَّمْس. في الحقول، عند جانب الجبل، كان عددٌ من الفلاحين قد نشروا الدَّرة. أمَّا في الوادي حيث ما يزال الماء راكداً في الأرض المستوية، فلا بدَّ من انتظار بضعة أيَّامٍ أخرى. يفترض أن تصل مساعدات الإقليم قبل أن يحلَّ اللَّيل، سيأتي بها السكرتير الذي يفترض أنَّه قد نفَّذ كلَّ الأوامر، وجمعَ بعض النقود. ينبغي أن يُقام الاحتفالُ في موعدٍ قريبٍ، حتَّى يتسنى توزيع المعونات.

لا ينبغي أن ينسى الشَّعبُ خيرَ الحكومة: هذا ناموس الأشياء منذ غابر الأزمان. لكنَّ ماو تشي لن تنظِّم هذه الطَّيِّبَاءَ. بصراحة، هي لم تكن ترغب في أن تتدخلَ فيها. إن أخذت في يدها زمام الأمور، فقد تفعل أو تقول ما يضرُّ بسير الاحتفال. ثمَّ إنَّها الآن في الحادية والسَّبعين من عمرها، إنَّها تنتمي إلى جيل الثلاثينيات، وهي الشَّخص الوحيد في الإقليم الذي شارك في يانان. إنَّها من جملة القادة الذين أطلقوا شرارة الثورة، والذين تقدَّر السدَّةُ أنَّ الاحترام

واجبٌ لهم. فلم يكن ليو يستطيع أن يتنصّل من زيارتها والحديث معها بوضع كلمات. لكن كيف تستطيع أن تتخيّل أن هذا الاحتفال التّافه سيّقام من دونها.

أيّ مزحةٍ هي!

حين خرجت من بيتها، أرادت أن تذهب رأساً لتقرع الجرس تحت شجرة الصفيراء العتيقة، عند عرض القرية. كانت الشمس في عزّ الظّهيرة، واجتمع بعض العُرج في السّاحة المستوية ليتناولوا غدائهم. بينهم نجّارٌ مسنٌّ، وشبّانٌ يتدّبرون أمورهم جيّداً من غير عكّاز، إلّا واحداً منهم وكانت ساقه مبتورةً. وحين طلع عليهم ليو ينغك تسمرت أوانيهم في أيديهم.

سألوه في قلق: «هل تغذّيت يا سيّدي رئيس الإقليم؟

- نعم. هل ستبدؤون الأكل لتوكم؟

- بل كدنا ننتهي. تعال تناول معنا قليلاً.

- كلاً، شكراً. هل تودّون المشاركة في الطّيباء؟».

أشرقت وجوه الشّبّان: «طبعاً! الجميع يرغب في ذلك! فقط ننتظر أن تنظّمها ماو تشي».

انحنى رئيس الإقليم ليدقق فيهم النّظر.

«فإن لم تكن هي من ينظّم الاحتفال، ألن تشاركوا فيه؟

سأله أكبرهم سنّاً: - ومن غيرها يتكلّف بالتنظيم؟

- أنا.

- تحبُّ المزاح!

- أنا جادٌ.

نظروا إليه بعيونٍ مذهولة، ما لبثوا أن أشاحوا بها عنه، بعدما أطالوا التفرّس فيه، فلم يتبيّنوا ذرّةً من مزاح.

قال الشيخُ وهو يأكلُ شارِدَ النَّظر:

«نحن مائة وسبعة وتسعون فرداً في طيّبة، يا سيّدي رئيس الإقليم. منّا خمسة وثلاثون أعمى من كلّ الأعمار، وسبعة وأربعون أصمّ أو أبكم، وثلاثة وثلاثون أعرج. بعضنا تنقصه ذراعٌ أو يد، أو له إصبعٌ زائدة. سبعةٌ أو ثمانيةٌ ليس لهم أصلاً وجهٌ بشريٌّ؛ ثمّ بضع عشراتٍ ممّن إن لم ينقصهم شيءٌ هنا، نقصهم هنا. هل تريد حقاً أن تتأمّل أبداننا الشّائهة؟».

اتّخذ لون رئيس الإقليم صبغةً شمعيةً خفيفة. نظر إلى الشيخ الأعرج، وأجابه: «أنا أعرفك؛ أنت نجّارٌ وتعرف نقش الخشب. أنصت إذن: إنّ أشكالكم لا تهمني، لأنّ وظيفتي تحتم عليّ أن أعاملكم كما يعاملكم آباؤكم وأمّهاتكم. إنّ سكّان هذا الإقليم الثمانمائة ألف، هم أبنائي. ينبغي أن أطعمهم وألبسهم. هذه السّنة تساقط الثلج في الشّهر السّادس، ولكي أنقذكم جهّزت على الفور مؤناً ونقوداً سوف أوزّعها عليكم؛ أريد أن تُقام الطّيباء غداً، وسوف أوزّع المعونات أثناء الاحتفالات. تعالوا، وسوف

تحصلون على حبوب ونقود، ربّما أكثر حتّى ممّا تحصلون عليه في
المواسم العادية. وإلا، لن تحصلوا على شيء».

حدّقوا فيه مرّة أخرى. لكنّه انصرف. تبخر قبل أن يتمكّنوا
من قراءة أيّ شيء في وجهه. طريق القرية، الطويلة المتعرّجة
الضيقة، كانت هي السبيل الوحيدة. وكانت في الآن نفسه زقاقاً.
وكانت الشّمس حارّةً عنيفة حتّى إنّ الدّجاج والخنازير نفسها
كانت تلوذ بظلال الجدران. وكان رئيس الإقليم متينَ البدن،
لكن قصير السّاقين وممتلئ الجسم؛ فلم يكن ظلّه يتجاوز نصف
قامته، ويبدو كأنّه كرة سوداء يسحبها خلفه في صمت. عقبا نعله
الجلديّ كانا يضربان الأرض ضرباً متيناً. وكان قد انصرف بخطى
حثيثة، وهيئة غاضبة، من غير أن يزيدهم نظرة. كانت العربّة
التي تحمل الجرس مربوطة إلى شجرة صفراء، جذعها سميكٌ
كطبل، وينبت فيه، عند مستوى قامّة رجل، غصنٌ غليظ. ومن
هذا الغصن -المغلّف بباطن نعلٍ حتّى لا تحزّه السلسلة الحديد-
كان يتدلّى الجرس. وقد رأى رئيس الإقليم في آنٍ واحد: الجرس
وباطن النعل المطّاط. من شجرة الصّفيراء العتيقة تنبعث رائحة
براعم فتية. ومن العجلة وسلسلة الحديد السميكة تنبعث رائحة
الصدأ والتعفن. ولا نحتاج أن نقول إنّ الجرس المذكور كان يتدلّى
هناك، هادئاً منذ عشرات السنين، وربّما لم يشغل منذ سنة الحصان،
١٩٧٨، حين وُزعت الأراضي بين العائلات. نادرة هي اللحظات
التي كان يُقرع فيها. وفي الوقت الذي كان فيه النّاس، في القرى
المجاورة، يستعينون بأمثال ذلك الجرس للدّعوة إلى الاجتماعات،

إن لم يستعينوا بمكبّر صوت. فإنّ النَّاسَ في طيّبة، وإن لم ينسوا وجود الجرس، إلا أنّهم نادراً ما كانوا يقصدونه، حتّى إنّ المرء ليخشى أن تنقضي حياته بأكملها من دون أن يشهد قرعَ الجرس! كان يفوح برائحة الصّدأ، وإذ تختلط بها رائحة البراعم، فإنّها تصير بنداوة الماء الصّافي حين يسيل في نهرٍ رقراق. وكان رئيس الإقليم يتأهّب لأن يدقّ الجرس، لأن يعيد إليه وظيفته، لأن ينادي القرية. وقد شرع بالفعل في التّقيب عن حجرٍ في الأرض، وإذا بـ«القرد»، الرّجلِ المبتور السّاقِ الذي ظلّ صامتاً حين كانوا قبل قليلٍ في السّاحة، يبرز متكئاً على عكازه.

صاح متورّد الوجه: «سيّدي الرّئيس!».

التفت رئيس الإقليم.

«لا داعي إلى قرع الجرس. سأطوف على المنازل، أعلم النَّاسَ. إنّ ماو تشي دائماً ما تكلّفني بمهمّة الإعلام حين يحدث شيء».

وما إن نطق الأعرج كلماته حتّى انتقل إلى التّنفيد، فانطلق يعكز بعصاه صوب حيّ العميان عند مدخل القرية. وكان يسير بسرعة كبيرة ومهارة بالغة: يغرس عصاه في الأرض عن يمينه، ثم يرفع ساقه اليسرى، وما إن تكاد السّاق تلامس الأرض حتّى ترتفع العصا والجسد ويتحرّكان إلى اليمين. لم يكن يتمشّى، وإنّما كان يقفز، يمشي حثيثاً كما قد يركّض أحدُ النَّاسِ -تامين. وفي غمضة عينٍ صار أمام منزل أحد العميان، فدخله من الباب الكبير.

تابع رئيس الإقليم سيرَ الأعرج بعينٍ دهشة. كان يخيّل إليه أنّه

يرى أَيْلاً أو حصاناً صغيراً يخبُّ، سريعاً كالبرق، على طريق الجبل
الوعدة.

أَعْلَمَ القَرْدُ كُلَّ مساكن القرية.

كان يصيح: «هه! أيها الأعمى! غداً تقام الطَّيِّاء، سيوزَّع علينا
رئيس الإقليم مالاً وحبوباً. من لم يأتِ سوف يموت جوعاً في
الرَّبيع».

يصيحُ: «هه! أيها الأعمى الرَّابِع! غداً صباحاً تُقام الطَّيِّاء، لكن
لا داعيَ لأن تأتيَ إن كنت تفضِّل الموت جوعاً في فصل الرَّبيع!».

يصيحُ: «هه! أيها النَّمام، ذو العصا! ألا ترغب في لقاء رئيس
الإقليم؟ قدَّم عرضك إذن يوم غدٍ أثناء الطَّيِّاء!».

يقول: «أيها الصَّغير تزو، أركض إلى أبويك، فأخبرهما أنَّ الطَّيِّاء
تنطلق فجر الغد!».

وصل الخبر إلى الجميع.

وما إن أطلَّ الصُّباح، واصطبغ الشَّرْقُ بالحمرة، حتَّى ابتلع
سكَّانُ طَيِّبَةِ فطورَهم، وانطلقوا حشوداً صوب مدخل القرية. كانت
الشَّمْسُ لطيفةً ودافئةً، وريحٌ عذبةٌ تهبُّ، فيشعر القرويون بحالٍ
جيدٍ وإن لم يرتدوا سوى قمصان. وكذلك النِّساء في أقمشتهنَّ
القطنية الملوَّنة. وكانت السَّاحة مستويةً كسطح الماء. وكانت في
ابتداء الأمر مخصَّصةً لدرس الحبوب جماعةً، ثمَّ صارت حينَ توزيع
الأراضي، ملكاً للعميان. ففي جميع الأحوال كانوا هم من تُعطى لهم

الأولوية في كل شيء، شأن أولئك الأطفال الرضع الذين تختصهم الأم دائماً بجرعاتٍ إضافية من الحليب، كانوا يحظون بعناية خاصة. وكانت الساحة رحبة، وقرية من القرية، فأعطيت لهم. وحين يتعلق الأمر بشأن عام، أو باجتماع أو مناسبة كهذه التي نتحدث عنها، فإن الساحة هي الملجأ. كانت مكاناً للاجتماع، وساحة للعرض المسرحي. شكلها مربع، يلاصق أحد أضلاعه الطريق، وضلعان آخران الحقول، والضلع الأخير جداراً من رمل ارتفاعه ثلاثة أقدام، يُشرف على حقل واسع شديد الانحدار، يملكه رجل صنيدي، يبلغ من العمر ثلاثة وخمسين سنة، وليس له إلا ذراعٌ واحدة؛ ذراعه الثانية تعوزه منذ أن خرج من بطن أمه، وليس في مكانها إلا جدعة^[١]. لكن امتلاكه ذراعاً واحدة لم يمنعه من أن يحرث الأرض، ويرفع المعول ويحفر به. وفي كل سنة، أثناء الطيِّاء، حين لا يجد الوافدون إلى القرية مكاناً في الساحة، فإنهم يستقرون في أرضه. تكون الأرض ناعمة، فقد قلبها، لكن لفرط ما تدوسها الأقدام ثلاثة أيام متتالية، تعود صلبة كقارعة الطريق، وما إن ينتهي الاحتفال حتى يكون مضطراً إلى إعادة العمل. فيقود ثورَه، ويحرث الأرض مرة ثانية متدماً من أنهم قد سحقوا حقله وأفسدوا عمله. وعلى الرغم من الشكوى، إلا أن وجهه كان يرسم ابتسامة سعيدة. فإن انتبه أحدٌ إلى أن الرجل يبدأ دائماً بحرث تلك الأرض، فقصدَه قائلاً: «أيها العم، إنك تقلب الأرض، لكن قريباً موعدُ الطيِّاء،

[١] الجدعة ما يبقى من أثر العضو المبتور.

وسوف يدوسها النَّاسُ!»، ينظر يميناً، ينظر شمالاً، ليتأكّد من أن لا أحد ثالثهما، ثم يقول ضاحكاً بصوتٍ خفيضٍ: «أنت لا تعرف شيئاً يا صغيري. حين يدوس النَّاسُ حقلاً قُلُبَ لتوّه، يتركون فيه غبار أحذيتهم، وكذلك تعلق به روائح ضراطهم، وهذا يعني عاماً من الخصب، عاماً بلا حاجةٍ إلى سهاد!».

وهذه السّنة أيضاً، كان الرَّجُلُ الأكتع قد حرث الأرض. وبعدها كان يقول لنفسه إنّ الكارثة ستسبّب في إلغاء الطّيباء، هو ذا يشهدُ إقامتها! لا بل إنّ رئيس الإقليم نفسه هو من يشرف على إقامتها! فكان أوّل الواصلين إلى السّاحة. يتبعه، عن قرب، سكّان القرية، هذا حاملاً كرسيّاً، وذاك مفرشاً، وثالثٌ مقعداً... ومن ينتظرون قدوم أقارب لهم من القرى المجاورة، حجزوا لهم أماكن جيّدة. وحين ارتفعت الشّمسُ، بقامة ثلاث إلى خمس قصباتٍ بامبو، أي السّاعة التي بالعادة يقصد فيها القرويون الحقولَ، كانت السّاحة قد امتلأت بالمقاعد. شُدّت ألواحُ بسلكٍ من حديدٍ إلى عمدان دُقّت في الأرض، ووضعت عليها مصاريعُ فُرشت فوقها فُرش من عشب، فصارت بمثابة خشبةٍ للعرض. وكان النّجارُ ذو السّاق المبتورة هو من أشرف على العملية. لقد استعان ببعض الفتيان، وحمل منشاراً، ومطرقةً، وفأساً، إلخ... وفي وقت وجيز نُصِبَت الخشبة.

أسفلها رُصّت المقاعد في صفوف.

ومن قريةٍ مجاورة استُقدّم مغنيان من مغنيي مادريغال جبال بالو، رجلٌ وامرأة. أمّا الأركسترا فيصعبُ جمعها. إذ ينبغي اتّخاذ

التدابير عدّة أيام قبل موعد الاحتفال، أي الاتفاق مع الموسيقيين على أجرتهم، وما إلى ذلك. على أن الموسيقيين والإيقاعيين قد ظهوروا هذه السنة، -ويا للصدفة-، من غير حاجة إلى الاتفاق حول أجرتهم. إن رئيس الإقليم هو من يشرف على التنظيم، وقد سرى الخبر كالدخان من المداخل ساعة العشاء، فما كادت تشرق الشمس حتى كانت طريق الجبل تغلي بالمتفرجين الذين أتوا يغتنموا الفرجة. ولما استوت الشمس فوق القرية، كان حشدٌ متراصٌّ يتزاحم، والرؤوس تتحرك معاً، الساحة غدت سوداء كغراب، والحقل أسفل الجدار أيضاً امتلأ بالمتفرجين جلوساً، وصاحبنا الأكتع يجول بينهم نائحاً: «إنكم تسحقون أرضي! إنكم تسحقون أرضي! للتو حرثت! لو علمت!» كان يئنُّ، يشكو، لكنّ الابتسامة لا تفارق وجهه، وحين يصل بعض الأصدقاء أو الأقرباء متأخراً، فلا يدري أين يجلس، كان ينصحه قائلاً: «اذهب إلى الحقل، واجلس هناك، فعندما ينتهي العرض سأعيد حرث الأرض التي سوتها مؤخراًتكم».

وما انفكّ عدد الوافدين يتزايد.

زوجة الأعرج المسؤول عن الصيدلية، حملت معها فرن فحم لكي تطهو بيضاً بالشاي. كانت قدرها مليئةً بالبيض، بيض أسود منكه بنكهة تنتشر في الأرجاء.

وعلى جانب الساحة كانت أسرة من الصمّ ثقلي الفول السوداني. وأبعد قليلاً، نُصبت منضدة نُشرت عليها حبوب عباد الشمس.

نساء القرى المجاورة كنَّ يصلن فارغات الأيادي، ثم، في رمشة عين، تراهن عاكفاتٍ على طبخ شرائح جبن الصويا. يدهنَّ الشريحة منها بالدهن، ثم يضعنها في عمود بامبو ثم يغمرنه في قدرٍ تغلي. قدرٍ تغلي بالماء، وليس بالزيت، وقد أضفن إلى الماء بعضاً من فلفل سيتشوان، والينسون النّجمي، والملح، وغلوتامات الصوديوم، وغيرها من المنكهات الرّخيصة. فتنشر في الجوّ رائحة جبن التوفو! وحين يغلي يرتفع أريجُه أصفر وأبيض. ثم وصل بائع بالونات. ثم بائع صفاراتٍ حجريّة. ثم بائع الزّعور المكرمل والكمثرى بالعصير المركز. ثم بائع تماثيل بوذا الفخارية ودمى أطفال الصّلصال؛ نصب حوضاً فوق منضدة، ليعطس في مائه تماثيله التي كانت تشعّ بحمرة جميلة. ولما كان الماء ساخناً، فإنّه حين يُخرج منه رضيعاً ممتلئاً، ينتصبُ قضيبه الصّغير ويسيل منه خيط سائلٍ دقيق كرأس إبره، فيُخيل لمن ينظر إليه أنّه يرى طفلاً حقيقياً يرفع حمامته ليبول باتجاه السّماء. الطّفل يبول، والنّاس يضحكون، ويضع أحدهم يده في جيبه ليشتري أحدَ أطفال الصّلصال، أو تماثيل بوذا العائمة في الحوض.

وفي السّاحة، بلغت الجلبة أقصى حدّتها، وما انفكّ الوافدون يتقاطرون. كان الأمر أشبه بمعرضٍ في معبدٍ جبليّ. كان ثمة حتّى بائعُ بخورٍ وأوراق نقدية للموتى^[١]. وكانت ماو تشي قد فكّرت، أوّل ما فكّرت، في هذه الطّيباء، احتفاءً بنجاح موسم الحصاد. لقد

[١] أوراق نقدية مزيفة، تحرق مع الموتى في بعض البلدان الآسيوية، حتّى يستعملها الميت في العالم الآخر.

كَدَّ القرويون طيلةَ السَّنةِ، فلا بأس في قسْطٍ من الرَّاحةِ! ثلاثةُ أيَّامٍ متواصلةٍ، لا يفعل فيها المرءُ شيئاً، إلَّا الأكل والشَّرب. لكنَّ المنظَّم هذه المرَّة هو رئيس الإقليم، ولسبب يجهله، أتت النَّاسُ حشوداً، اسودَّ الأفق برؤوس الخلق، ولم يعد هناك مكانٌ فارغ في حقل الأكتع؛ الحشد يترامى حتَّى يفيض على جنبات الطَّريق، هناك حيث كان يُفترض أن يُنصبَّ الفرنُّ لطهي الأرزِّ والخبز بالبخار. فصار لزماً نقله إلى باحة غداء الصمِّ-البكم، في عُرْض القرية.

زادت الشَّمْسُ ارتفاعاً بمقدارِ قصبة بامبو.

جنب المنصَّة كان الموسيقيُّون جاهزين.

لم تحضر جومي ولا ماو تشي الاحتفال هذه السَّنة، لكنَّ القُرَّامات حضرن، وتفرَّقن في السَّاحة. صارت الشَّمْسُ أحدَّ وأقوى ممَّا كانت عليه في بداية الصَّباح. تحت أشعَّتِها كان الرِّجالُ يُلْقون عن ظهورهم السَّترَ أو القميص، جماهم تسيل عرقاً، والظَّهور تقطر، كلُّ أبدانهم تبرق. واشتدَّ الحرُّ حتَّى إنَّ أحدهم صاح: «ألن نبدأ؟»، فيجيبه صوتٌ، لا ندري من أين: «ماذا تريد؟ إنَّ رئيس الإقليم، وسكرتيه لم يحضرا بعد!» فانطلق أسفل المنصَّة هرجٌ ومرجٌ عظيمٌ، حتَّى إنَّ الخراف التي كانت ترعى في عمق الجبل، توقَّفت لبرهه، وأدارت رؤوسها مصعوقةً نحو مصدر الضَّجيج. أطلق ثورٌ مقيَّدٌ إلى شجرةٍ في زقاقٍ خواراً ثقيلاً كهدير ماء. وفي السَّماء الزرقاء زرقه حجر الأردواز، كانت السَّحب شاحبةً: البياض قطنٌ، والزرقه ماءٌ بحيرة عميقة. الكون ينضح بالهدوء، وحدها السَّاحة عند طرق

القرية تغلي. فورانٌ هائلٌ وعزلةٌ عظيمة. قَدْرُ ماءٍ تغلي في كنف
الطَّمَانِينَةِ. تسَلِّقُ الأَطْفَالُ الأشْجَارَ التي تحفُّ الطَّرِيقَ، بعدما أعياهم
الانتظار وأخذوا يتأرجحون على الأغصان، فتساقط الأوراق التي
جمدها الصَّقِيعُ، وتتناثرُ في كلِّ مكانٍ. وإذاك صاح أحدهم بصوتٍ
عالٍ لكن بهدوء:

«لقد وصل رئيس الإقليم وسكرتيه!»

لقد وصل رئيس الإقليم وسكرتيه!!».

عفوياً أفسح الحشدُ الطَّرِيقَ. تقدَّم إلى صدر المنصَّة العرجُ
والكُتْعُ، أي أولئك الذين وإنْ عدموا طَرَفًا، يستطيعون أن يروا وأن
يسمعوا. أمَّا البُكْمُ والصُّمُّ، أي أولئك الذين ينظرون ولا يسمعون،
فقد ذهبوا من تلقاء أنفسهم إلى الخلف؛ أمَّا العميان الذين عدموا
البصر، وكسبوا رهافة السَّمْعِ، فلم يكونوا ينازعون أحداً مكاناً،
وإنما يرضون كلَّ الرِّضا إن وجدوا موضعاً هادئاً يستطيعون منه
أن يتذوَّقوا ألحان المادريغال. وبالطَّبْعِ في مقدِّمة المقدِّمة، أي لصق
المنصَّة، كنتَ تجدُ بعض الشيوخ من ذوي الأسماع الثَّقِيلَةِ جداً. فهم
ليسوا بالصُّمِّ تماماً، إذ يسمعون جيداً حين يصيح المرءُ فيهم ملء
رئتيه، لذا تركوا يجلسون في الصفِّ الأوَّل. تلکم هي الطَّرِيقَةُ التي
توزَّع بها المقاعدُ، بغضِّ النظر عن المناسبة: اجتماع، أو أوبرا، أو طيِّباء.
يتسلَّلُ أعمى إلى الصَّفوف الأمامية، فيَسْمَعُ: «ما الذي تفعله
هنا، ما دمت لا ترى؟»، فيبتسمُ، ويدور على عقبه ملتمساً مكاناً
أبعد.

وكذلك الشأن بالنسبة إلى البُكم: غالباً ما يكون الأُبكمُ أصمَّ. فإن تسَلَّل الواحدُ منهم إلى الصفِّ الأماميِّ، يجابه بالاستنكار: لم تتسابقْ على الأماكن القريبة ما دمتَ لا تسمعُ شيئاً؟ وكما فعل الأعمى من قبلُ، يترك صاحبُنا المقعد القريب من المنصَّة.

أما إن كان الأُبكم يقدر أن يدرك نصفَ ما يُقالُ، فإنَّه يجد من يصح به:

«اجلس هنا، وسوف تسمع جيِّداً!

- تعالِ يا خالة، اجلسي هنا بجانب الموسيقى!». .

تلكم هي الخطوط العريضة التي يجلس وفقها المتفرِّجون. وبالطَّبع كان النَّاس -تأمون من جُملة من يجلسون في المقدَّمة، وبالعادة يصلون مبكِّراً، فيختارون من المقاعد أفضلها، وأحياناً لا يحتاجون إلى ذلك، إذ يرسلون الأطفال ليحجزوا لهم مقاعد جيِّدة، ولا أحد يجرؤ على منازعتهم أماكنهم. لا مجال للشكوى، ففي القرية الجميع هم، شيئاً ما، آباء الجميع. أمَّا الوافدون من خارج القرية، فيُفرض عليهم الالتزام ببعض القواعد الأساسية: هذه طيباؤنا، وليست طيباءكم، فانتحوا جانباً، أو قفوا حول السَّاحة.

والحقُّ أنَّ المتفرِّج يسمع ويرى من خارج السَّاحة، كما يرى ويسمع غيره من داخلها. السلبية الوحيدة هي القربُ من هذا البائع أو ذاك، وبالتالي التَّعرُّض للدَّخان، كما أنَّ الأطفال يترაკضون بين المناضد أو يتسلَّلون بين سيقانك، فيمنعونك من التَّركيز، ويصعب عليك مسامرةً مظاهر صنعة (٩) أهل طيبة. ثمَّ إنَّ المرء، حين يفكّر

ملياً، فإنه يرى أنه إنما أتى هنا ليرقه عن نفسه، فما ضره إذن أن ينحاز إلى الحاشية هانئ القلب؟

على أي حال، حيثما توجه البصر، لن يرى الناس إلا على شاكلة حبوب صويا سوداء منشورة في الخريف؛ وأصوات الأحاديث والصياح كانت من القوة حتى ليهتز لها غبار الأرض الأصفر، فيرتفع في شكل سحب سميك.

وصل رئيس الإقليم وسكرتيه. حين لم يعد بالإمكان قياس ارتفاع الشمس بطول قصب البامبو، ظهر الرجلان مبتسمين، يصحبهما «القرد» ذو الساق المبتورة. وأفسح الناس الطريق من تلقاء أنفسهم. ومن تلقاء أنفسهم كذلك، أسكت العازفون كمنجاتهم وناياتهم وآلاتهم الإيقاعية، بعدما كانوا منهمكين في دوزنة أوتارها وتجريبها. وكان في انتظار الرجلين أفضل موقعين من خشبة العرض: مقعدان طولهما بضع بوصات، مطلّين بطلاء قرمزي، وما يزال بالإمكان أن تقرأ فيهما بالأصفر عبارة سعادة ثنائية. لا شك في أنهما من أثاث زواج صبيّة، وقد تشرفا بأن يصيرا مقعداً للشخصيتين المهمتين.

منذ أيام لم يعد ليو يحتاج معطفه العسكري. يرتدي الآن تي-شرت أبيض مستدير الياقة، أدخله في شورت فضفاض من قماش رمادي. وبرأسه الحليق من الجانبين، وقد خلّلته الشعيرات البيضاء، ووجهه المحمرّ، وبطنه المنتفخة انتفاخاً خفيفاً، اتخذ حقاً هيئة رئيس إقليم، هيئة لا تشبه في شيء هيئة فلاحي بالو أو أولئك الرجال

ذوي المناصب الرفيعة الذين يأتون من العاصمة، ويقضون وقتهم في التجول بين المطاعم. قياساً إلى أهل طيبة كان الرئيس أنيقاً، لكن بالمقارنة مع رجال المناطق الأخرى كان لا شيء. لكن ما همّ أن يكون أنيقاً أم لا؟ إنّ المهمّ هو السكرتير الجالس بجانبه؛ السكرتير الطويل النحيل، بملابسه البيضاء؛ سرواله من نسيج لا تشوبه ثنية، وقميصه النظيف تماماً، المحشور في حزامه، وشعره الأسود اللامع المفروق: في المحصلة، شخص آتٍ من العالم الرفيع. شخص هذه الهيئة، وهو في الواقع ليس إلا سكرتيراً! إنّ في ذلك حقاً ما يرفع من قدر رئيسه. ثم إنّ رئيس الإقليم يسير في المقدمة بيدين فارغتين، وفي إثره السكرتير حاملاً كأس ماء. يتقدّم الرئيس برأسٍ مرفوع، بينما لا ينظر السكرتير أعلى من مستوى عينيه - أمّا أهل طيبة، وباقي المتفرّجين فكانوا مضطّرين إلى أن يرفعوا أنظارهم ليتأملوا الرّجلين. كانا مركزَ تعلّق أنظار الجميع؛ صمتٌ بائعو البيض، وجبن الصويا، والزعرور المكرمل، وكفّ الأطفال عن التقافز في كلّ جانب وسط الحشد. ساد الصّمتُ الساحة لدرجة أنّه صار بالإمكان سماع ريشة كمنجّة أسقطتها سهواً يدُ عازف.

الطيّاء على وشك أن تبدأ.

لكن قبل أن تبدأ ينبغي أن يُتلى خطابٌ. بالعادة، تتقدّم ماو تشي فتتلق بوضع جُملي. تقريباً تقول دائماً الكلام نفسه: «أمس اقتحم منزلي كلبٌ أعمى. لا أدري من أين أتى، لكنّ أحداً اقتلع عينيّ المسكين معاً! الدّماء تقطر من محجريهما. ينبغي أن أعود إلى

المنزل للاعتناء به. غنّوا وأنصتوا إلى الأوبرا طيلة ثلاثة أيام، لا يحقُّ لأحدٍ منكم أن يعمل، ومحرمٌ عليكم الطبخُ! وإن زاركُم بعضُ من عائلتكم، فلهم الحقُّ في أن يطعموا من طعامنا بالسّاحة».

أو تقول: «لن أقول شيئاً! لكم أن تقرّروا ما شئتم: المادريغال الأوّل، كيف تفضّلونه؟ من بالو أم من يانغفو (١١)؟».

يصيح صوتٌ: «من بالو!»، فينطلقُ نشيد مادريغال من بالو. أمّا إن وقف أحدهم، فصاح بملءٍ رثيته مطالباً بهادريغال من يانغفو، فيُغنى مادريغال من يانغفو.

ويحدث ألاّ تصعد أصلاً إلى الخشبة، إنّما تكتفي بالوقوف عند عتبتها، معلنة: «حسناً، بدأ الحفل!»، فيعتبر الحضورُ أنّ الخطاب قد انتهى، وتنطلق الكمنجات إلى العزف، وترتفع الحناجرُ بالغناء. ومن البيّن بنفسه أنّ عروض أهل طيبة تأتي بعد العرض الغنائيّ.

لكنّ ماو تشي ليست هنا اليوم. بدلاً منها ترى القرد يتقدّم فاسحاً لرئيس الإقليم طريقاً مفتوحةً أصلاً؛ ثمّ لما صار في مقدّمة الصّفوف، لصق المنصّة، ضرب الأرض بعصاه وقفز على الخشبة، المرتفعة بمترٍ عن الأرض، وصاح: «نلتمس من السيّد رئيس الإقليم أن يلقي خطاباً!» ثمّ نزل.

فلم لامس الأرض، ضرب على كتفٍ أصمّ، وسحب من تحت مؤخرته مقعداً، فنصبه كمرقاة (١٣).

ارتقى ليو يانغك المرقاة، ووقف في مقدّمة المنصّة، في الوسط

تماماً، وجعل يتأمل سواد الرؤوس التي تغطي السّاحة، قادمةً من كلّ أنحاء بالو لحضور الطّيباء. كانت الشمس صفراء متوهّجة، تضطرم كالنّار فوق الرؤوس اللامعة البرّاقة. وعلى المنحدر، أسفل الجدار الرّمليّ، كانت الأعناق تشرّبُ لترى بوضوح أكبر. كاد رئيس الإقليم يبدأ الحديث، فتح شفّيته، ثمّ زمّهما. لقد تذكّر تفصيلاً: لم يصفّق له بعدُ أيّ فردٍ من هذا الجمهور المؤلّف من مئات الأفراد. انتظر هادئاً.

لكن، هل لأنّ أهل طيّبة، ندر أن يحضروا اجتماعاتٍ، أم لأنّها المرّة الأولى التي يشهدون فيها رئيس الإقليم ينظّم طيّباء؟ على أيّ حالٍ، كانوا يجهلون أنّ أيّ خطابٍ لا بدّ أن تسبقه عاصفةٌ من تصفيق، مثلما يُفترض أن توضع الأطباق على المائدة قبل وضع الطّعام. ثمّ إنهم كانوا يتساءلون لم لم تحضر ماو تشي، لم لم ترافق رئيس الإقليم وسكرتيه. إنّها هي من يتكلّف بهذه الأمور. لم سلّمت الرّجلين إلى هذا القرد ذي السّاق الوحيدة، الذي لا شأن له في القرية؟ كان الجوّ متوتّراً. رئيس الإقليم ينتظر التّصفيق، والقرويون ينتظرون الخطاب. أمّا السكرتير فلم يكن يفهم ما يجري، فظلّ عند عتبة المنصّة يتأمل رئيسه والمتفرّجين.

عبر طائر دوريّ فوق الباحة، وسقط على رؤوس الحشد خفقانٌ أجنحته.

توتّرت أعصابُ ليو يانغك، سعل سعلَةً يرمي بها إلى إيقاظ الحضور.

فلما سمعه القومُ بالأسفلِ ينحنح بحنجرتِه، ظنّوها مقدّمةً
لخطابه، فزادوا صمتاً على صمت. صارت تتناهى بقبقة الشاي
الذي يغلي فيه البيضُ عند أطراف السّاحة. كأنّ ماءً جارياً تجمّد
فجأةً بين رئيس الإقليم، المتصلّب فوق الحشبة، والنّاس الجلوس
بالأسفل. قلقاً، عاجزاً عن التّفكير، دنا السكرتيرُ من المنصّة، ورفع
كأس الماء قائلاً: «هل تشعر بالعطش؟»، لا جواب، وجهٌ جامدٌ.
وتلك هي اللّحظة التي استغلّها القردُ، ليقفز على ساقه الواحدة،
إلى ركنٍ من السّاحة، وينخرط في التّصفيق، فوراً، وبلا مقدّمات.
استعاد السكرتير وعيه. فأخذ هو أيضاً يصفّق كالمدّجن، صائحاً في
الحشد: «لنصفّق لرئيس الإقليم الذي سيتلو علينا خطاباً!».

وكانت دعوته فتيلاً أطلق شرارة عاصفةٍ، خرج المتفرّجون
من تبلّدهم، وانطلق التّصفيق؛ تصفيقات تتراوح من حيث قوّتها،
وتحفّظها، لكنّها تختلط جميعاً في نهاية المطاف. وطالما ما تزال يدا
السكرتير تتحرّكان، لم يجرؤ أحدٌ على أن يوقف التّصفيق. ولفرط
ما طال بهم التّصفيق، احمرّت كفوف السكرتير والقرد، ودبّ الألم
في كفوف الآخرين. ومن مجاثمها فوق الأشجار، جفلت طيور
الدّوري، وفرت المكان. وهرع الدّجاجُ والخنازير، مرعوبةً، تحتمي
بمآويها. وبدأت الكّابة الرّمادية تنقشع من وجه رئيس الإقليم،
فاستعاد لونه بين الحمرة والصّفرة. مدّ يديه وأشار إلى الجمهور
بحركةٍ يدعوهم بها إلى التوقّف. توقّف السكرتير.

انطفأ التّصفيق.

عاد إلى الوقوف في صدر الخشبة. وبغض النظر عن قلقٍ خفيفٍ لا يخفي طربَ الرئيس، فيمكن القولُ إنّ وجنتيه قد بدءتا تستعيدان حمتهما المعتادة. مجدداً سعل بعدما كشط حنجرتة، وانطلق إلى الحديث على مهلٍ، بصوتٍ قويٍّ:

«مزارعينا الأعزّاء، أجدادنا الأحباء، أنا ليو، رئيس إقليمكم. لم يسبق لكم أن قابلتموني، وليس في ذلك ما ألوكم عليه». ثم رفع من نبرة صوته: «إنّ الثلج الحارّ الغليظ الذي سقط هنا، بطيئة، كارثةٌ طبيعية. وعلى الرّغم من خطورة الكارثة إلّا أنّ كلّ واحدٍ منكم استطاع أن يحصد القليل. لكن من بين المائة والسبعة وتسعين فرداً الذين يعيشون بالقرية، خمسةٌ وثلاثون عميٍّ، من كلّ الأعمار، وخمسةٌ وأربعون صمٌّ بكم، وأكثرُ من خمسين تنقصهم ذراعٌ أو يد، ونحو عشرة مجانين، أو حُقّ، أو بلداء، أو سُلّ. ولا يمثل الناس - تامون إلّا أقلّ من سُبُع السّاكنة، لذا فإنّها فاجعةٌ بالنسبة إليكم».

توقّف الرئيس عند هذه النّقطة وتفحص الجمهور بنظره.

«قرويينا الأعزّاء، أجدادنا الأحباء، إنّ إقليمنا يضمّ ثمانمائة وعشرة ألف ساكنٍ؛ وسواءً كان اسمهم شاو، أو لي، أو سان، أو وانغ، فإنّ هؤلاء الرّجال والنّساء، كبيرهم وصغيرهم، ما داموا يعيشون داخل إقليمي، فإنّهم يعتبرون أبنائي. أنا، ليو، أبٌ وأمٌّ هؤلاء الثمانمائة وعشرة ألف فرد! فلا أقبلُ أن تجوع بطن أيّ فردٍ بالقرى والمدائر والوديان، بسبب كارثةٍ طبيعية. لا أقبل أن تعاني أسرةٌ واحدةٌ الجوع، بله أن يموتَ طفلٌ جوعاً».

مجدّداً تفحص الحشد. وكذلك السكرتير. وفي تلك اللحظة رفع هو والقرّد يديهما معاً ليصفقا. ومجدّداً هذا حدوهما الحشد بحماسة. ومجدّداً أشار رئيس الإقليم إشارته الدّاعية إلى التوقف.

«لقد صنّفتُ هذا الثلج الغليظ الحارّ في خانة الكوارث العظمى. سوف أعوّض كلّ عائلةٍ فرق الخسارة التي تكبّدها».

نظرةً أخرى على الحشد في السّاحة، على العمي والعرج، والطّرشِ والشّلّ. وهذه المرّة لم يكن ضرورياً أن يستحثّ الجمع السكرتير أو القرّد، إذ انطلقت حفلة تصفيقٍ لا حدّ لها، كان الصّخبُ أشبه شيءٍ بوابلٍ عنيفٍ يساقطُ على سقف منزلٍ، صخبٌ اضطربت له القرية؛ ضجيجٌ غطّى كلّ شيءٍ؛ حفاوة مطوّلة، لا تنقطع، ارتجفت لها وتساقطت حتّى أوراقُ الأشجارِ اليانعة. تأمل ليو يانغك الوجوه المتورّدة، فانقشع الحزنُ الذي كان، منذ لحظةٍ فقط، يلبّد وجهه، لم تعد ملامحه تعكس غير الرّضا، وأجاب عاصفة التّصفيق بابتسامةٍ مشعّة. قال: «توقّفوا! توقّفوا! إنّ طول التّصفيق يؤلم اليدين. الحال أنّ في هذا العالم، لا يمكن للأبوين أن يتركا أبناءهما يموتون جوعاً. ما دمت أبا هذا الإقليم، وفي يدي كسرةٌ من خبز ذرة فلا بدّ أن ينال منها كلّ أطفال طيّبة لقمة؛ أو عندي نصف إناءٍ حساءٍ، فلا بدّ أن يأخذ منه كلّ طفل رشفة. فضلاً عن الحبوب، طلبت من كلّ ذي مُرتبٍ في إقليمنا أن يمدّ يده إلى محفظته، ويساهم. سوف تصلّ المؤن خلال أيّام، وتوزّع على جميع البيوت؛ أمّا النقود، فقد أتى بها سكرتيري. وما إن تنتهي الطيّباء،

حتى نوزّعها على الجميع توزيعاً عادلاً. سوف يحصل كل فردٍ على ما يفوق خمسة وخمسين يوان، أي أنكم إن كنتم أسرةً من فردين، فسوف تحصلان على نحو مائة وعشرة يوان؛ وإن كنتم ثلاثة، تحصلون على مائة وخمسة وستين؛ ومائة وعشرين إن كنتم أربعة؛ وبالنسبة للستّة، والسبعة...».

وكان رئيس الإقليم ليكمل العدّ عن طيب خاطر، لولا أن عاصفة التّصفيق قد انطلقت مجدّداً أسفل المنصّة، مثل وابلٍ يهطل بعد أيّام من الصّحو. لم تكن إذن المناسبة هذه المرّة مجرد حفلٍ طيباء! وإنّما ستوزّع أيضاً نقودٌ وموّن. في ركنه من المنصّة كان القرْدُ قد انتصب على ساقه الوحيدة، رافعاً يديه فوق رأسه - كان يبدو كأنّما سيمسك بشيء - ثمّ صفّق بهما بعنفٍ حتى كادَ يقلّبُ الصّحونَ ويُسقط الأواني. لم يكن طويلاً، وفي الظّروف العادية، لكي يقومَ واقفاً، كان يضع عكازه تحتَ مرفقه ويستند على ثقل جسمه بأكمله منحنيّاً انحناءً خفيفاً. لكن اليوم، بينما يتمطّى، ترك عكّازَه على المنصّة، ووقف على رجله الوحيدة لا غير. ومع ذلك ظلّ قائماً، قائماً وإن لم يتخيّل أحدٌ أنّه قد يستطيع الوقوف على ذلك النّحو، في لحظةٍ زمنيةٍ أشبه ما تكون بحبلٍ لا أوّل له ولا آخر، كأنّما يكفيه أن يصفّق ليظلّ واقفاً. وطالما لم يسقط فقد استمرّ التّصفيق في السّاحة - بنفس صورة الحبل الذي لا أوّل له ولا آخر - بالقدر نفسه من الحماس. كانت الشّمس تكاد تبلغ أوجها. الوجوه حمراء، والرؤوس والأجساد تنضح بالعرق، والأيدي المصفّقة توشك أن تتورّم. متأثراً، أشار لهم رئيس الإقليم بأن

يكفّوا، لكن بقدر ما كان يحثّهم على التوقّف، كان يستحثّ فيهم
التّصفيق أشدّ فأشدّ.

الكونُ يردّدُ صدى التّصفيق الذي ينوس بين الفوضى الكبرى
والانتظام التّام: كُلّ! كُلّ! كُلّ! ثمّ يتبدّد في البعيد الصدى
الذي تردّده جدران الوادي. كان يبدو... آه! كان يبدو أنّ لا
المسرحية ولا العرض يهّم المتفرّجين، وأنّ لا شيء يهّم في الطّيباء ما
عدا التّصفيقات. وبلغ ليو ذروة السّعادة. كان يشعر شعور الحقل
الذي يرويه ماء عذبٌ بعد طول جفاف. استدار، وسحب كرسيّاً
من تحت مؤخّرة موسيقيّ، ووضعه في منتصف المنصّة وصعد فوقه،
ثمّ صاح بصوتٍ أجشّ ليغطّي على الجلبة:

«إنّي أرى أولئك الذين لا يصفّقون! هؤلاء ليسوا من طيّبة!».

لكلامه توقّف التّصفيق، واستدارت الرّؤوس لتتأمّل خلفها
أناس المناطق الخارجيّة. عاد الهدوء. تكاثفت في الهواء قطراتُ بردٍ.
في الأقصى، حاول بعض الحضور أن يختبئوا وسط الحشد أو خلف
الأشجار. وكان رئيس الإقليم ما يزال مبتسماً مُشرقاً.

واقفاً على كرسيّه وسط المنصّة، تناول الكأس التي يمدّها إليه
السّكرتير، فشرب منها قطراتٍ، ثمّ عاد إلى الصّياح على الرّغم من
حنجرته التي، لفرط ما أجهدّها، يكادُ يصيبها التهابٌ:

«أعزائي سكّان القرى المجاورة، لا تحسبوا أنّنا بدافع المحسوبيّة
فضّلنا عليكم سكّان طيّبة، وخصصناهم بالمساعدات. أعرف أنّكم
جميعاً عانيتم، بدرجة أو بأخرى، من الثلج الحار. أعرف أنّه حتّى

المواضع التي لم يطلها سقوط الثلج، قد بلغت لفحة عاصفته. وعندي لكم بشرى سعيدة: هل قيل لكم إنني عازم على شراء رفات لينين؟ هل علمتم أن جبال الأرواح الميتة قد صُنفت حديقة غابوية، وأن ورش بناء الضريح قد انطلق؟ حسناً: لقد جمعت الجزء الأول من رأس المال الضروري للحصول على الرفات، ووافقت الحكومة على إعطائي قرضاً بقيمة ما أستطيع جمعه. فإن جمعنا عشرة ملايين يوان، تُقرضنا الحكومة عشرة أخرى، ممّا يجعل المبلغ عشرين مليوناً؛ وإن جمعنا خمسين مليون يوان، تُقرضنا الحكومة خمسين أخرى، ممّا يجعل المبلغ مائة مليون. ولأن لينين زعيم عالمي، فإن شراء رفاتة ليس سهلاً، إنه يساوي على الأقل مائة مليون. لذا طلبت هذه السنة من كلّ مناطق الإقليم أن تضاعف جهودها. يشاع أن بعضكم اضطرّ إلى أن يبيع خنزيراً أو دجاجاته، ليدفع مساهمته، حتّى إن ثمة من حمل إلى السوق تابوت أحد المسنين من عائلته، وأن هناك من بلغ به الأمر حدّ التضحية ببذور الموسم المقبل، أو التعجيل بتزويج بناته ممّن بلغن سنّ الزواج - وأستغلّ هذه الفرصة لأقدم اعتذاري لكلّ الأحبة الصغار في بالو، وكلّ سكّان الإقليم. باعتباري رئيساً للإقليم، أنا آسف. أطلب العفو من الثمانمائة ألف مواطنٍ في إقليمي...».

وقد انحنى الرئيس في عزّ خطابه، وعند قدميه ما يزال يسود الصمتُ الأعْمَقُ.

استأنف الكلام: «ما البشرى السارة التي سوف أطلعكم عليها الآن؟ سأقول: لقد جمعنا الأموال اللازمة، ولم يعد ينقصنا إلا

الخمسون مليوناً الثانية لنكمل المائة مليون! إنّ مائة مليون ليست بالمبلغ الذي ينقل على محمل الكتفين، ولا بواسطة عربة تجرّها الثيران أو الأحصنة، إنّما تلزم شاحنة كبيرة لكي تحمل كلّ تلك الأموال. وما إن حصل على الشاحنة، حتّى أنطلق إلى هذا البلد المسمّى روسيا، فأفاوضهم على عقد شراء رفات لينين. فإن لم يكن المبلغ كافياً، فسأدفعه كجزء من الصفقة، وأوقع عقد اعترافٍ بدين، وأعود حاملاً معي لينين. ثمّ حين يستقرّ الرّفات بجبال الأرواح الميّتة... يا مزارعينا الأعزّاء، ويا أجدادنا الأحباء، آنذاك سيأتي إلينا السيّاح أغزَرَ من النمل. ومن سيبيع منكم البيض بالشّاي على جانب الطّريق، يستطيع أن يطلب عشرين في مقابل البيضة الواحدة، وقد يرفع السّعر إلى ثلاثين أو خمسين في أو حتى مقابل يوان واحد. ومن سيفتح مطعماً، لن يتوقّف الشّغل عنده طيلة النّهار، إذ سيصطفّ الرّبائن أمام مطعمه كما يصطفّ الأطفال عند الخروج من المدرسة. أمّا إن افتتح الواحد منكم فندقاً، فحتّى لو كانت الأسرة متّسخةً، والمطر يهطل داخل الغرفة، وحتّى لو حشا الأغطية بالتّبّن بدلاً من حشوها بالقطن، وحتّى لو امتلأ السّرير بالقمل والقراد، فإنّ النّزلاء سيفضّلون أن تُكسر سيقانهم على أن يتركوا الغرف».

قال: «من حقّكم ألاّ تصفّقوا لي. حين أعود برفات لينين ربّما يكون وقت التّعبير عن التقدير قد فات».

قال: «اليوم تبدأ الطّيّاء التي كان الجميع، منذ مدّة، يهّل لها

في دواخله. لذا سوف أتوقف عند هذا الحد، وأنضم إليكم لأسمع
مادريغال جبال بالو. فلتعتبروا كلامي بمثابة الخطبة الافتتاحية».

ثم صمت وقفز عن المقعد.

وأسفل المنصة كان الصمت مطلقاً. على أن الصمت لم يدم
إلا بقدر ما يدوم سقوط ورقة ميتة، فانطلق بدءاً التصفيق، ثم
خفقت الطبول وانطلق نفير الأبواق. وأتى الدور على الصنوج
والمزامير والأوتار. أخيراً بوسع الموسيقيين أن يعزفوا. ذوو
الآلات النفخية أمالوا رؤوسهم إلى الوراء لينفخوا باتجاه السماء؛
أما عازفو الكمنجات والإيقاع، فلم يكونوا يستطيعون محاكاة
رفاقهم أصحاب آلات النفخ، فنظروا باتجاه الجمهور، وبين الفينة
والأخرى كانوا يلقون بنظرة إلى السماء كأنها فيها شيئاً استثنائياً.
كانوا يعزفون لحن «الطيور تحيي الفينيق»، وهو لحن يجعل السامع
إليه يتخيل أسراب طيور تزقزق في الغابة فوق صفحة الماء التي
تتلاطم في ضوء الشمس. وكانت الشمس في تلك اللحظة تسقط
عمودياً على الجماجم. الجو مشبع بالحرارة، والجميع يتقاطر
عرقاً. وعلى مقعديهما، في الصف الأول، ما انفك رئيس الإقليم
وسكرتيه يخرجان منديليهما ويمسحان بهما. أما القرد، فإذا لم يجد
مقعداً يجلس عليه، فقد ظل واقفاً في ركنه، يتبصر في الحشد آملاً أن
يجد مروحة يهديها إلى الرئيس. لكن بصره لم يقع إلا على الصغيرة
هوايهوا، ابنة جومي، التي ظهرت كأنها بفعل السحر. كانت ترتدي
قميصاً من قطن وردي، ووجهها، المتورّد كقميصها، يرسم ابتسامة
مزهرة. في يدها مروحتان من أوراق البوط، وقد تسللت بين

الصّفوف حتّى بلغت الصّف الأوّل، فوضعت مروحةً في يد رئيس الإقليم، وأخرى في يد السكرتير. وقد ابتسم السكرتير - لاحظ القرد ابتسامته بوضوح -، لا بل وأشار إلى الصّبية بإيماءة من رأسه؛ ابتسامَةٌ وإيماءةٌ ردّتهما الصّبيّة، كأنّما بينها وبين الرّجل سابقُ لقاءٍ، ورابطٌ معرفةٌ منذ سنواتٍ خلت.

كان القرد ذاهلاً: لقد سُلبت منه وظيفته. لذا حين مرّت من أمامه هوايهوا، رمّاها بصوتٍ هامسٍ: «آيتها الشّيطانة!» لكنّها أجابته بنظرةٍ باردة: «هل تظنّ أنّ في غياب جدّي ستكون أنتِ إطارَ القرية؟» وانصرف كلّ منهما إلى حال سبيله.

بلغ لحنُ «الطّيور تحيي الفينيق» نهايته؛ بعد عشرين قطعةً نزلت في القلوب كما ينزل الماء المنعش، أتى الدّور على المسرحية، الأوبرا كما تسمّى حرفياً. وتودّيها اليوم كاوير، وهي مغنّيةٌ واسعةُ الصّيت، استُقدّمت من بعيد. ولم يكن ذاك اسمها الحقيقيّ، إنّما لقباً أُطلق عليها بعدما حازت شهرةً واسعةً أثناء تأديتها دور البطلة التي تحمل الاسم نفسه، في مسرحية «التفتّت سبع مرّات». سنّ مغنّيتنا الآن سبعةً وأربعون عاماً، قضت منها في الغناء ثلاثة وثلاثين، وكانت شهرتها في بالو أوسع من شهرة كلّ الرّؤساء الذين تعاقبوا على حكم الإقليم. وعلى شهرتها، فإنّها تظلّ مرووسةً، لذا ما كان لها إلا أن تتبع السكرتير حين سلّمها دعوة ليو يانغك.

وإن كان يحضر الطّيباء، هذا الحشد الغفير، فإنّها ذلك أيضاً بسببها.

كانت ترتدي كسوة من تلك الأزياء على الموضة القديمة، ممّا يلبس عادة على المنصّة، وقد اصطحبت معها عازف الكمنجة، رفيقها الذي لا يعزف إلا خلفها. وما إن صعدت إلى الخشبة حتى عمّ الصمت. توقّف التّصفيق، وأخذ الحضور يشربون بأعناقهم. حتّى الباعة أمام مناضدهم المنصوبة، سَمّروا أعينهم في المنصّة. واغتنم الفرصة الأطفال -الذين لم يكونوا ينتظرون إلّا الغفلة- لنشل بعض البيض بالشّاي من القدور، وبعض أسياخ جبن التّوفو النّاضجة الموضوعة على الألواح تنتظر المشتري، أو قضيباً من الزّعور المكرمل الموضوع في سلّة من قشّ الأرز. وسدى بحّ حلقُ بائع الزّعور وهو يصيح: «أمسكوا باللّص! أمسكوا باللّص!»، واضطّرّ إلى أن يقف عند حدّ الصّياح، ولم يجرؤ على أن ينطلق في إثر الأطفال الذين ركضوا ضاحكين مبتهجين بالوليمة المسروقة. ولأنّ المسرحية بدأت لتوّها، فلا أحد كان يهتمّ لخسائر البائع، وكان هو يخشى إن لاحق اللّصوص الصّغار، ألا يجد، حين عودته، أيّ قضيبٍ في انتظاره. لكنّه لم يكن ينصت إلّا بأذن واحدة، يستحيل أن يولي كامل انتباهه للمسرحية، إذ ينبغي أن ينتبه أيضاً لتجارته. مع أنّ المسرحية المعروضة هي أوبرا «التّفَت سبع مرّات»، المسماة أيضاً «الطّريق بين-بين (١٥) (البرزخ)» وتحكي قصّة معاقة اسمها كاوير: عمياء، صمّاء، خرساء، مقعدة، عانت في حياتها كلّ الآلام، ولما ماتت حقّ لها أن تصير من النّاس-تامّين، ولا تعاني بعد من الصّم أو العمى أو أيّ إعاقة أخرى. بالعكس، سيكون بمقدورها أن تعبّر وتغني على نحوٍ رائع. ماتت إذن، واتّخذت طريقها صوب

الجنة. من علمنا هذا إلى العالم الآخر، تدوم الرحلة سبعة أيام، والطريق مفروشةً بالعشب الأخضر والزهور النضيرة التي تجعلها تبدو كالديباج، ويكفي أن تتبع الصبيّة التعليمات، فتعبر الأيام السبعة من غير أن تلتفت وراءها، لتنجو من بحر الآلام. لكن، ها كاوير تتقدّم، وكلّما تقدّمت، انشغل بالها بمن تركتهم خلفها: زوجها الأعمى مثلها؛ ابنها الأصمّ الأخرس، ابنتها الشلّاء؛ أو خنزيرها، ودجاجاتها، والقطّ والكلب، والثور والحصان. في كلّ خطوة تخطوها تلتفتُ إلى الخلف. ثمّ، في نهاية اليوم السابع، لما بلغت عتبة الجنة، أخطأت الباب، والشكل الذي ينبغي أن تنبعث فيه. سوف تعود إذن إلى الأرض معاقّةً كما كانت.

كاوير الممثّلة تؤدّي دور كاوير المعاقّة، ويؤدّي أحد رفاقها دور الرّاهب المكلف بقيادتها. هي تغني في عالم البشر، ليلة السّهر على الجثمان؛ وهو يغني في عالم الأرواح، متقدّماً بلا توقّف. يتحاوران ويتحدّثان ويتناقشان بلا انقطاع.

الرّاهب:

بوذا والآلهة مصدر الخير والنعم
 بعنايتهم نجتاز بحر المعاناة والألم
 وهذا حال كاوير المشلوله الشقيّة
 التي تترك عالمنا وتحلّق كالجنّيّة
 على الطريق المزهرة ما أطيب السّير
 ستنسى الماضي إن سارت أماماً كالطّيّر

هذا أوّل أيام رحلتها السبعة
تقطع البرزخ، وتهجر الألم بلا رجعة.

كاویر:

هذا البرزخ أرض رقة وعطوّر
سماؤه شذاً وعودٌ وبخورٌ
وهناك يبكي موتي زوجي المسكين
سمائي وردٌ وأرضه وحلٌ وطنٌ
ألّكي أدخل الجنة وأتخلص من هذه الأحمال
ينبغي أن أهجر الأعمى والأطفال؟
(تلفت برأسها): آه يا زوجي!

الراهب:

أصغي إليّ: أيامُ سفرك سبعةً كالأُسبوعِ
اليوم الثاني، كغيره، يعطر الأزهار بضوْعٍ
وفيه يحرم عليك أن تستديري: الالتفاتُ ممنوعٌ.

كاویر:

سماء اليوم الثاني مشرقة صافية
قمرها فضّةٌ والشَّمْسُ ذهبٌ
عن شمالي الخوخ أحمر، وفي الدالية
عن يميني تتدلى عناقيد العنب.
طريقُ الجنة حمراء، بيضاء، أمام الأم

لكن خلفها تترك الأصم - الأخرس يتيم
كيف تطيق فراقه العلقم كالسُم
كيف تترك الطفل وحيداً يهيم؟

من يترجم له لغة الإشارات؟
من يحوّل أحاسيسه إلى كلمات؟
من يخطط ملابسه حين تبليها السنوات؟
وحين ينوي الزواج، من يختار معه بين البنات؟

(تلفت برأسها): آه يا بني!

الراهب:

على الدرب، هذا ثالثُ الأيام
على الدرب، أصغي إلى الكلام:
هذه الطريق الخضراء المزهرة
تقودك إلى باب الجنة المبهرة
أطفئي الظمأ برمانٍ مُعَصَّر
وطعاماً لك هذا الكعكُ المُعَطَّر
ثلاثة أيام تفصلك عن السعادة
فلا تتخذي الالتفات عادةً

كاویر:

على طريق البرزخ الطويل

كل يوم يومٌ جميلٌ
سماؤُ الذَّهَبِ صافيةٌ زرقاءُ
لكنَّ ابنتي مُقعدةٌ شلاءُ
من يشدُّ لها الخيطَ لترُقَعَ الثيابُ؟
من يمدُّ إليها أواني الطَّعامِ والشرابِ؟

ابكي يا صغيرتي ابكي
ابكي، وموتَ أمك اشكي!

(تلتفت برأسها): آه يا طفلي!

الراهب، قلقاً:

كاوير، يا كاوير، أصغي إلى الكلام
من أصلِ سبعة، خسرتِ ثلاثةَ أيَّامٍ!
هذا اليومُ الرَّابِعُ، وأيَّامُ رحلتك سبعةُ
التفتي، وسوف يمضي النُّور بلا رجعةُ

هناك كنتِ تسحبين ساقيك كالكسيحِ
وهنا تطيرين سريعةً كالرَّيحِ؛
هناك، لم تعرفِ عيناك غير الدَّيجورِ
وهنا، يغمُرهما صفاءٌ وضياءٌ ونورُ؛
هناك، صمَّاء لا تسمعين حتَّى دويَّ الرَّعدِ
وهنا، تلتقطين حتَّى رنينَ إبرَةٍ عن بُعدٍ؛

هناك، لا تسمعين ولا تتطمين،
وهنا، تغنين كما شئت، وتضحكين؛

تذكّري، تذكّري جيّداً
التفتي، ويصير الندمُ عليك سيّداً
مثل عشبَةٍ لا جذر لها
أو شجرة لا جذع لها
كبذرة لم يُحسن غرسها
أو ضفّة جفّ نهرها
التفتي، وعانقي الألمَ إلى الأبدِ
أو تقدّمي، للسعادة، ولا تأبهي بأحدٍ
فكّري وتعقّلي في الحين
واغنمي فرصتك في البين-بين.

كاويز:

أتقدّم، أتراجعُ، طريقي ينقطعُ، ويتواصلُ
بين شمسٍ وصحوٍ وأمطار تتهاطلُ
الورودُ هنا بساطٌ لا يُحدّ
والدموعُ هناك بحرٌ لا يُعدّ
في الجنّة أركض كنهرٍ يجوب الدّنيا بالطّول والعرضُ
وفي الدّنيا آلامي، ودموعي تفيض فتملاً الأرضُ
أتقدّم، أتراجعُ، وخطوي راجفٌ
أماماً أو وراء: قلبي واجفٌ

من يغسل ملابس زوجي المسكين؟
 من يطبخ لأولادي حساءً سخين؟
 من يُطعمُ الحيواناتِ العلفَ واللَّقَطَ
 من يحرسُ الخنازيرَ والدِّجَاجَ والبَطَّ
 من يحصدُ للثور البرسيمَ والبَقولَ
 ويقود الحصانَ إلى المرعى والحقول؟
 من سيسقي قِطَّتي ماءً
 ويعالجُ ما بالكلب من داء؟
 من يكنسُ الباحةَ أيامَ الخريف
 ويحمي البابَ ويحفظُ البيتَ نظيفاً؟

بيتي آه يا بيتي السَّعيدَ
 كيف أسعدُ وأنت عَنِّي بعيدُ
 (تلتفت برأسها): آه يا بيتي!

الراهب، قلقاً:
 في البين-بين لا بدَّ من المسيرِ،
 خمسةُ أيَّامٍ، والمطرُ حولك غزيرُ
 هذا حظك فلا تتركه يضيعُ
 التفتي، وسينغلقُ الفردوسُ البديعُ!

كاوير:

أعطرُ هذا الوردَ يخفتُ أم يشتدُّ؟

وهذه الخُضرةُ حولي، تضيقُ أم تمتدُّ؟

وأنا: هل أتقدَّم، أم أرتدُّ؟

كلّا، لا يمكنني الالتفاتُ: ضيقي يحتدُّ!

الراهب:

ها نحنُ أولاء في اليوم السادس

لم تلتفتي، فهدأت الريحُ، وسكن المطرُ

العشبُ الأخضرُ يَخْلِفُ اليابسُ

والعطرُ فواحاً ينشرُه الزَّهَرُ

بوذا والآلهة يفتحان لك الطريق

أترين البابَ مبتسماً كصديق؟

كاویر:

اليومُ السادسُ أيضاً مرّةً

على أضواء شفقهِ ينكشفُ السِّرُّ

لكنَّ عقلي حائرٌ بين كَرٍّ وفَرٍّ

أرجعُ، أم أواصل طريقِي، خيراً كان أم شَرًّا؟

الراهب:

مساءً اليوم السَّابِعُ

وأنت بين غمامِ المغيبِ

البابُ مُشرَعٌ، رائعٌ

فواصلِي سَيرَكَ المهيَبَ

خطوةً خطوةً صوبَ الأفراحِ
فلا ترتدّي إلى الآلامِ والأتراحِ

كاویر:

مساءَ اليومِ السَّابعِ
وأنا بينَ غمامِ المغيّبِ
البابُ مُشرّعٌ، رائعٌ
لكنّ قلبي مرتبكٌ غريبٌ
أواصلُ خطوةً خطوةً صوبَ الأفراحِ
أم أنقلبُ، فأرتدُّ إلى الآلامِ والأتراحِ؟
أرى بوذا وجهَ السَّعادةِ والسَّروُرِ
وهذا البابُ خلاصي من الشُّرُورِ
الطريقُ واسعةٌ، وبلاطُها ذهبٌ
وعلى الجدرانِ فضّةٌ: يا للعجبِ!
حولَ بوذا اصطفتُ الآلهةُ العظامَ
واسعةٌ أكمامُ ثوبِها والحزامُ
والوجوهُ مشرقةٌ في انسجامٍ
أرى أطفالاً بغمَازاتٍ على الخدودِ
وجنّياتٍ ضفائرهنَّ تنزلُ على القدودِ
تقدّمي، وها قد أصبتِ النِّعيمَ،
أو تراجعِي، وعودي إلى الجحيمِ
تقدّمي، وافتحي أبوابَ النِّعيمِ،
أو تراجعِي، وظلّي في الجحيمِ،

تقدّمي، في الفردوس سعادةً إلى الأبد
أو تراجعني، وأقيمي في ظلامٍ وكمَدٍ
لكن... آه! لكن...

كيف أطيقُ أن أرى زوجي المسكينَ
وحده في المطبخ، أعمى، بلا معينَ
وحده يبذر في الربيع الزرعَ
ووحده يحصد في الصيف الزرعَ
وحده يدرس في الخريف الزرعَ
فمن يشحذُ له، إن احتاج، المنجلَ
من يعينه في أعمال الحقل والمثقلَ
من ينظفُ ملابسه في المغسلَ
من يهونُ عليه وحشة المنزلَ
آه، عجزه يصيبني في مقتل!

وكيف أطيقُ أن أرى ابني الأصمَّ
وحيداً، حزيناً، في الشارع بهيمَ
لا يدري لمن يلجأ ولمن يشكو الألمَ؟
بصرٌ شاردٌ، وسمعٌ كليلٌ بهيمٌ
من يأخذ بيده، ويرشده إلى الطريقِ
وا أسفاً عليك، لا أهلَ عندك ولا صديقاً!

وكيف أطيقُ أن أرى ابنتي الشَّلَاءَ
وحيدةً، في فراشها، عاجزةً، عزلاءَ

لا تقدرُ أن تُطعم الخنازيرَ في الحظيرة،
أو ترعى الدجاجَ، وتُخرجَ الثورَ في الظهيرة
تترك الحصانَ يسهلُ حروناً غضبانَ
والكلبُ، بالبابِ ينبُحُ عطشاً جوعانَ
والقطُّ تاه عن المنزلِ كالسكرانَ

آه يا منزلي، يا منزلي العزيزَ
قروناً، دام عليَّ فراقكَ الوجيهُ
هذا الكوخُ البسيطُ مأوايَ
حنيني إليه، إلى مائي ومرعائيَ
إلى خنازيري وبطي وحصاني، مآلي ومسعائيَ
حضنُ الأعمى، والشَّلاء، والأصمَّ، بيتي ومثوايَ
كيف أنساهم، كيف أنسى أهلي، وأرضي والمنزلَ
زوجي، وطفلايَ، ماضيَّ وحاضري والمقبلَ
شقائي بقربهم عينُ النعيمِ
ودونهم كلَّ فردوسٍ أختُ الجحيمِ
هنا ينطفئُ طريقُ الذهبِ، ويخبو عن الفضة الألقُ
هنا ينتهي الحلمُ والنومُ، هنا وقتُ الاستيقاظِ والأرقِ
الآن، راضيةٌ هادئةٌ، أعودُ في سلامٍ وسكونٍ
وسط الهمومِ فقط، في حالٍ طيبةٍ سأكونُ

(بغثةٌ تقلبُ وجهها، وتصيح): إليَّ يا زوجي، ويا طفلايَ، يا ثوري، يا
حصاني، يا خنازيري، يا كلبي، يا دجاجاتي، ويا خروفي!

تعليقات

(١) - عجّين - مسطّح: اسم مؤنث، نوع من الرّافئولي. ويسمّى هكذا لأنّه مسطّح.

(٣) - مادريغال جبال بالو: هذا النّوع من الأوبرا، المنتشرة في جبال بالو، هو خليط من أوبرا منطقة خنان ومقطوعات البالاد المغنّاة. تسمح هذه الأوبرا بتأدية كتيّبات كلاسيكية كبيرة. لكنّها تركّز على الغناء أكثر من تركيزها على التمثيل، ولذلك يصعب أن تجمع العديد من الشّخوص على منصّة واحدة.

(٥) - السّدة (٥): تشير إلى الدّرجات العليا في التّنظيمات الإدارية. في طبّية، وبالو وعموم خنان، يشير اللفظ بشكل عام إلى كلّ من هم في قمّة التسلسل الهرميّ. إنّها علامة الاحترام الذي يكتّنه للسلطّات العليا سكّان السّهل المركزي.

(٧) - سياديّة، اسم مؤنث - سلّطة. هكذا يسمّى سكان طبّية الأطر القروية، وكلّ من يديرون أعمالهم.

(٩) - صنعة - يمكن أن تؤخذ هنا بمعنى «شيء»، مهارة معيّنة. يقول سكّان طبّية مثلاً «فرقة صنعة» إشارة إلى «فرقة سيرك». في هذا الإطار تشير كلمة «صناعة» إلى الموهبة التي يتصف بها أشخاص بعينهم.

(١١) - مادريغال يانغفو: هو النّوع الموسيقي الذي نشأت منه أوبرا خنان، وقد ظهر في إقليم يانغفو، في جهة كايفنغ.

(١٣) - مرقاة، اسم مؤنث: درجة، سلّم.

(١٥) - بين - بين (البرزخ)، اسم مذكّر: المنطقة بين عالم الأحياء وعالم الأرواح. حين نعبر البين - بين نكون قد دخلنا منطقة الأموات.

الفصل السابع

كاوير تنصرف،

الاهتمام يعود إلى رئيس الإقليم

كان رئيس الإقليم يحسّ باستثارة غريبة.

كانت أوبرا «التفتت سبع مرّات» قد انتهت، وقد غنّت كاوير الحقيقية حتّى بحّ صوتها، وبكت، بلّلت دموعها منديلين، وبدلاً من أن تدخل المعاقة العمياء، الصّماء الخرساء، التي كانت تؤدّي دورها، قلنا بدلاً من أن تدخل إلى الجنّة، فإنّها جنت عن التخلّي عن ثقل وجودها الأرضي. أمام أبواب الذهب والفضّة، التفتت مرّة أخرى لتلقي نظرة أخيرة على هذا العالم الأرضي: واصلت العيش في المعاناة والألم. كيف لهذه الحكاية إذن ألاّ تنتزع الدّموع من عيون سكّان بالو ومعاقبي طيّبة؟ انخرط الجمهور في البكاء، حتّى العمي والشّلّ، كانت معزوفة من نحيب. ثمّ لما بكى الجمع كفايته، أتت لحظة التذكير: كان بحراً من التّصفيق، كلب! كلب! كلب! كلب!، فرقة لا نهاية لها، مثل سقوط أوراق شجر الحور في فصل الخريف. كان هذا التّصفيق أطول من ذاك الذي أعقب خطاب رئيس الإقليم، كان أطول بمقدار حبلٍ على الأقلّ: كانت

كاوير قد غادرت المنصة، وغيّرت ملابس الغناء بملابس كلّ يوم، فاجتمعت حولها حلقة من الجمهور. وكان رئيس الإقليم قد برّم كلّ البرّم (١). كان متيقناً غاية اليقين من أنّهم لم يصفّقوا له بنفس القدر من الشدة والطول اللذين صفّقوا بهما لها. طيّب، هو ليس جباناً رعيدياً كدجاجة، لذا فقد صعد المنصة، وأعلن:

«قرويينا الأعزّاء، أجدادنا الأحباء، لقد كانت طيبة ضحيّة لكارثة طبيعية، فانتظموا صفّاً لتحصلوا على الإعانات. واحد وخمسون يوان تحصلون عليها هنا والآن».

واحد وخمسون! يعني أكثر من خمسين يوان! وفوق ذلك، يوزّعها رئيس الإقليم بنفسه هنا: قطعة من فئة خمسين يوان وأخرى من فئة يوان واحد، للجميع. أخذ أرباب الأسر يمرون واحداً في أثر آخر من أمام طاولة الرئيس. حين تكون الأسرة مؤلفة من فردين، يعطي الرئيس ورقة من فئة مائة يوان، وورقتين من فئة يوان واحد؛ وحين يكون العدد خمسة أفراد، يعطي ورقتين من فئة مائة يوان، وخمس ورقاتٍ من فئة يوان واحد. لا ينقص المقدارُ يواناً أو يزيد: دائماً واحد وخمسون يواناً لكل فرد. في السّاحة تعالى هرجٌ ومرجٌ مَرَحٌ، والناس القادمون من المناطق المجاورة، ممّن كانوا قد أتوا بصحبة عائلاتهم، انصرفوا ليأكلوا معهم في القدور الكبيرة؛ أمّا أولئك الذين أتوا فرادى، فقد اشتروا لأنفسهم وجبة خفيفة يتعلّلون بها في انتظار العروض المرتقبة بعد الغداء. وتلك عروض لا تشابه عرض الأوبرا، عروض لن

تبكيك، وإنّما ستضحك لها حتّى يتقطّع نفسك، أو تُذهلك حتّى تفقدك القدرة على الكلام. خُذ مثلاً ذاك الرّجل القادم من أقصى المدينة، لقد فقدَ عيناً، ولم يبقَ له سوى عينٍ واحدةٍ يتعرّف بها على العالم، لكن إن عرضتَ أمامه خمس إبرٍ، فإنّه ما يزال يستطيع أن يدخل فيها الخيط بضربةٍ واحدة. إن فشَل ضحك منه الحضور، وإن نجح انتزع إعجاب الحاضرات وذهولهنّ. وإليك مثلٌ آخر، هذا القرد ذو السّاق الواحدة، الذي يتبع رئيس الإقليم كظله. هذا الرّجل الذي يسمّونه القرد الوثاب، أو أبثر السّاق. إن جرّو على أن يتحدّى في الرّكض شباباً من ذوي السّاقين، فيكفيه امتلاك عكازٍ جيّد ليضمن الفوز. أو مثلاً تلك المرأةُ الشّلاء التي تستطيع أن تُطرّز على جهتيّ النّسيج نفس الأشكال: قطّ أو كلبّ أو عصفور؛ أشكالٌ متطابقة تماماً من هذه الجهة وتلك، وتلك تقنيّةٌ تسمّى «الوجه المزدوج». لا بل إنّ المرأة تستطيع أن تزيّن أوراق الأشجار الكبيرة، أوراق شجر الحور أو الخبازيّة على سبيل المثال.

إنّ صنائع أهل طيّبة معروفةٌ في المنطقة، ذائعة الصّيّة.

كان رئيس الإقليم يوزّع النّقود من غير أن يقول للنّاس - تأمين كلمةً، لكن حين تقع عينه على معاقٍ، كان يسأله: «وأنت، ما صنعتك؟».

يبتسم المعاق، كلاً ليست لديه صنعةٌ مميّزة، لكن بالمقابل:

«ألا يمكن أن تطلب من كاوير أن تغنيّ لنا مجدّداً بعد الظّهيرة؟».

يعبس وجه ليو.

أعمى، في الأربعين من عمره، قبض الورقات التي أُعطيت له، ورفعها ليتفحصها في ضوء النهار.

«ماذا تخشى؟ هل تظنُّ أنني قد أوزع عليكم نقوداً مزيفة؟».

يضحك الأعمى، ويلمّ نقوده، ثم يقول بصوت متوسل:

«إنّ لكواير صوتاً رائعاً، ألا يمكنها أن تغني مجدداً ظهر اليوم؟

- هل تفضل النقود أم الأوبرا؟

- أتنازل عن النقود عن طيب خاطرٍ إن كانت هي ستغني!».

قال الأعمى قوله ذاك ببساطةٍ، كأنها لم يعطه رئيس الإقليم نقوداً يعيل بها نفسه أثناء فصل الربيع، وإنما فقط مِرَقَ أوراقٍ جديدة شديدة الحفيف.

استلمت النّساجةُ الشلّاءُ، في مركز القرية، المعونة المخصّصة لأسرتها. وكانت الخشبة ذات العجلات التي تتحرّك فوقها، تصرّ كلّما تقدّمت.

قال لها: «ينبغي أن تشحّميها.

أجابته:

- جفّت من عينيّ الدّموع. لقد غنّت بطريقة رائعة.

- هل ستطرّزين على أوراق الشّجر ظهيرة اليوم؟

- هل تظنُّ النّاسَ يهتمّون بتطريزي، بعدما أنصتوا إليها تغني؟».

أخذت المائتين وخمسة وخمسين يوان المخصّصة لذويها، وانصرفت.
لم تشكره بكلمةٍ ولا حركة. وما كفّت عَيْنُهَا المعجبةُ لحظةً عن تأمل
كاوِير المستغرقة في طيّ زيّ التمثيل.

طفح الكيل بليو يانغك.

نادى المغنيّة: «لقد شرّفتني، غنيّت بروعة».

ثمّ مدّ إليها ورقةً من فئة مائة يوان، وأضاف: «تستطيعين العودة
إلى بيتك. ما يزال الوقت مبكراً، بإمكانك تجاوز الجبال قبل أن يحلّ
الليل».

دهشت قليلاً:

«ألم أغنيّ بما يكفي من الحماس؟

- بوسعك الانصراف».

أفردت الورقة بين أصابعها.

«إن لم يُقنعك أدائي، أستطيع أن أغنيّ في الظّهيرة أوبرا «شكوى
الفراشة»؟».

أجاب رئيس الإقليم بهدوء:

«ستنصرفين، نعم أم لا؟ إمّا أن تنصرفي أنت، أو أنصرف أنا.
سأترك لك مهمّة توزيع المعونات، وفي السّنة القادمة، حين يطالب
سكّان طيّبة بالحبوب، سوف أستدعيك لتلبية طلبهم».

كان السكرتير شيّ بالجوار، فرمت إليه بنظرة، ولما أجاها بهزّة

من رأسه، أكملت لم زيتها وانصرفت مع عازف الكمان. وفي اللحظة التي كانت تغادر فيها طيبة، كانت الشمس قد بلغت عرض الجنوب وصارت تغمر سلسلة الجبال بنور أصفر حار. فوق الساحة تراقص ذرات الغبار كالنجوم. ثم إذ انصرفت كاوير، عاد الاهتمام لينصب على رئيس الإقليم الذي استأنف توزيع الإعانات. وكلما أتى رب أسرة، سجّل القرء، الواقف بجانب الرئيس، اسمه في مفكرة صغيرة. يتبادلون كلمات، ثم يمدّ السكرتير إلى رئيسه مائة وثلاثة وخمسين يوان، فيعلق الرئيس:

«هذه مساعدة بسيطة، النفقة بسيطة من طرف السلطات. لكن مع الحبوب، تستطيعون أن تعبروا الشتاء والربيع».

يتناول الناس المال وفي أعينهم نظرات ممتنة، وأحياناً ينطقون بكلمات شكر وامتنان، ويبدو أن وجه الرئيس قد استعاد نضارته، دار الدّم فيه؛ وأحياناً حين ينحني أمامه شيخ سنيّ أو سبعينيّ، كان وجهه يصير سميكا حتى يبدو أنّه لن يستعيد قط مرونته. وجنتاه تزهران مثل ورقة كاكي في الخريف. لكن في المحصلة لم تكن البيوت في طيبة تتجاوز أربعين، وقد مرّ معظمها قبل انصراف المغنية كاوير، فسرعان ما استلمت آخر الأسر حصّتها، وسرعان ما فقد وجه رئيس الإقليم تلك الحمرة الجميلة التي علّته. وبعدها فرغ الناس من تناول غدائهم، عادوا إلى الساحة. لم تتحرك المقاعد والكراسي من مكانها، وكذلك الأحجار واللبنات التي كان يتخذها بعض الحضور مقاعد، ما تزال في مواضعها، مصفوفة في

انتظام، غير أن الواصلين أولاً كانوا يحاولون تغيير الترتيب خلصةً. من يرى نفسه جالساً في مكان منخفض جداً، سعى إلى كسب شيء من العلو؛ ومن يُقدّر أن موضعه قصيٌّ، صار يلتمس القرب من المركز. حتّى أولئك الذين لم تكن لهم عوائل يشاركونها الطعام، فتناولوا غداءهم في مكان جلوسهم، هم أيضاً صاروا يسعون إلى الاستقرار في عرض الساحة.

كانوا ينتظرون عروض أهل طيبة.

كيف لهم أن يعرفوا، وأنّى لهم أن يخمنوا أن رئيس الإقليم لم يتغدّى؟ بينما يوزّع النقود، كان القرويون قد أعدّوا له بعض الأطباق: دجاج مطبوخ بالبخار، بيض مقلي، وبصل أخضر سوتيه و-من أين أتوا بهذا؟- لحم تدرج ولحم أرنب. مائدة عامرة نصبت في المعبد القديم. وكان يفترض أن تنضمّ إليه كاوير وعازفها، لكن في نهاية المطاف جلس إلى المائدة هو والسكرتير بمفردهما. في الخارج كانت الأوراق والبراعم الفتية تذبل تحت الشمس، أمّا داخل المعبد فكان بارداً، والمكان ظليلاً. وحين مسح ليو يانغك وجهه بالماء، ووصل المرحاض في زيارة سريعة، دعاه السكرتير إلى أن يدشن الوجبة، لكنّه ظلّ ساكناً لا يتحرّك.

«هل تودّ أن أذهب، فأطالب بطعام أشهى من هذا؟»

- كلاً، كلاً، هذا يفني بالغرض.

فتح فمه، لكنّه ما يزال ساكناً لا يتحرّك. ظهره ملتصقٌ بظهر الكرسيّ، أمال رأسه إلى الخلف وشبك يديه خلف رقبته كأنّها

يخشى لفرط الانحناء أن يسقط. كأنها الرأس واليدان في صراع،
ونظرُ رئيس الإقليم مسمر على الحائط الأبيض المغطى بالجرائد،
لا يفارقه.

«لقد انتهى الأمر، لا جدوى في أن تنزعج، لقد انصرفت
كاوِير».

لا جواب.

«ظهيرة اليوم يقدمون عروضهم، ينبغي أن تتلو خطاباً آخر».
كان يبدو مستغرقاً في تأمل ذبابتين خضراوين تحلقان حوله في
طين، ثم تعرّجان على الأطباق لتذوّقانه.
طرد السكرتيرُ الحشرتين.

«أو بوسعنا أن نذهب إلى جبل الأرواح الميتة، لنرى ضريح
لينين. هناك لن ينغص عليك شيء».

التفت ليو إلى مرؤوسه: «هل تظنُّ أنّ واحداً وخمسين يوان
ليس بالمبلغ الكافي؟

- بلى. إنّه نظير قنطارٍ من الحبوب.

- حسبتهُم سيسجدون عرفاناً، لكن لم يحدث شيء».

برقت في ذهن السكرتير فكرة، فقام من مجلسه.

«إلى أين تذهب؟

- سأطلب من الطّباخين حساءً».

انطلق.

ثم عاد.

عاد حاملاً في يديه إناء حساءٍ تلمع فيه قطع بصلٍ أخضر وكزبرة. ومن الإناء يسطعُ أريج الفلفل فيدغدغ المنخارين. وفي إثره، على بعد خطواتٍ منه، يتقدّم نحو عشرة من سكّان طيّبة، رجالٌ ونساءٌ أنافوا على الأربعين. وما كادوا يضعون أقدامهم على عتبة السّاحة، حتّى قبل أن يدخلوا الغرفة، جثوا على ركبهم أمام رئيس الإقليم ومائدته العامرة. وانبرى القردُ والنّجار الأعرج -وقد تزعّما المسير وسارا في أوّل الصّفوف- إلى الكلام:

«سيّدي رئيس الإقليم، نحن لم نسجد لك شكراً صباح اليوم في السّاحة، حين وزّعت علينا المعونات، لكنّ القرية تحرص على أن تعبّر لك عن عرفانها».

ثم إن الجميع انحنوا ثلاث مرّات متتالية، ليعبّروا للرئيس عن عرفانهم.

أرخى ليو عصويّه بتأثيرٍ من الدّهول. بخدّين أحمرين وبرّاقين بريقٍ سُحب الصّباح الباكر، سارع إلى معارضتهم: «لكن، ماذا تصنعون؟ ماذا تصنعون؟» انقضّ على النّجار ليقيّمه، ثم أقام باقي القرويين ونهرهم. ثم أجبرهم على أن يجالسوه إلى المائدة. لكن كيف لهم أن يجروّوا على مشاركة رئيس إقليم طعامه؟ لذا رافقهم إلى الباحة. ثم عاد إلى الحجرة، فأغدق على سكرتيه باللّوم: ممنوعٌ إجبار النّاس على السّجود؛ تلك أساليبُ الزّمن البائد. ثم

انقضّ الرّجلان على الدّجاج والأرنب وأجنحة التّدرج بالفطر
والخضراوات.

التهم رئيس الإقليم الطّعام مثل غول؛ بلغ الشّبع في حركتين
أو ثلاث.

لاحظ عليه السّكرتير: «لقد تناولت طعامك بسرعة يا سيّدي.

- لقد عاد النّاس، وينتظرون بقيّة البرنامج، لا يمكن أن
نتركهم يتعفّنون من الانتظار».

تركا الأواني والعصيّ، وبسرعة هرعا إلى مدخل القرية. وبالفعل
كانت السّاحة غاصّة بالرّؤوس، وسكّان طيّبة ينتظرون عند عتبة
المنصّة.

وأثناء هذا العرض، ارتفعت الشّمس فوق الكثير من الأشياء،
لقد كانت بمثابة السّتار الذي يُرفع معلناً بداية العرض. وبغتّة
أشرق بال ليو يانغك بإلهام: ليس هو من أتى لنجدة أهل طيّبة،
وإنّما الثلج من أتى لنجدته هو. إنّ الثلج يسايره في خطّته، يعينه على
الحصول على رفات لينين.

تعليقات

(١) - برّم، نعت. - لهجة محلّية (في جبال بالو). لا يطبق شيئاً. ضدّ «أن
تكون في حال طيّبة».

الفصل التاسع

شجرة هائلة تنمو في ريشة

اشتمل الحفل على عروض متنوعة. العرض الكلاسيكي المؤلف: سباق الرجل ذي الساق الواحدة والناس-تامين. اتخذ القرد ذو الساق الواحدة موضعه وسط الساحة، مع شاب يدعى نيوزي، ثم صيحَ بهما «انطلاق!»، فانطلقا كالسهم صوب التل. ولا نحتاج قولاً إنّ الشاب كان يركض طائراً كأنها نمت له أجنحة، لكن القرد كان قد تزود بعصا من الصندل الأحمر برّاقة، شديدة الصلابة والمرونة. فلا يكاد طرفها يلمس الأرض، حتّى تتقوّس بطريقة لا تكاد تُلاحظ. فيريح عليها القردُ إذّاك كلّ قواه، ويجبرها على أن تنثني حتّى توشك تنكسر. يظنُّ الناظر إلى ركضه أنّ العصا ستتكسر تحت ثقله فيسقط أرضاً، لكن الحال أنّها كلّما انثنت عملت عملاً نابضاً، فقذفت به في الجو. كان يتقدّم واثباً وثباتٍ طويلةً عالية. منظرٌ لا يصدّق: سبقه الفتى في أغلب أشواط السباق، ثمّ في نهاية المطاف كان رأسه هو أوّل ما اخترق خطّ الوصول، وسط اهتاف الذي يردّد صداه الجبل.

كافأه رئيس الإقليم أمام الجميع. أعطاه مائة يوانٍ ووعدته بقنطار قمح زيادة على معونة أسرته. ثم أتى دور الأعور، ذاك الذي في السنة الماضية قد تمكّن من أن يفتل خيطه جيّداً، لدرجة أنّه استطاع أن يدخله بضربة واحدة في خمس إبر: وهذه المرة استطاع أن يدخله في ثمانى أو عشر. أمّا النساجة الشلّاء، فلم تعرف كيف تطرّز مزق أوراقٍ أو خرّقاَ بصور الخنازير أو القطط أو الكلاب فحسب، وإنّما استطاعت أيضاً أن تطرّزها بأوراق الأشجار والحيوانات من الجهتين. والأصمّ المدعو ماه، استطاع بفضل صممه أن يعلّق في أذنه مفرقات ويطلقها. ثم أتى الدّور على تونغهوا، كبرى توأمات جومي. وكانت القرية كلّها تعرفها عمياء. وعلى بلوغها سبع عشرة سنة، لم تكن الصبيّة تعلم أنّ الأشجار خضراء، والسّحب بيضاء، والصّدأ على المعاول والمجارف أحمر. كانت تجهل أنّ الضباب في الصّباح الباكر يكون مُذهّباً، ولم يسبق لها أن شاهدت المغيب يصطبغ بالحمرة ساعة الغروب. ولو أنّ فلين قالت لها: «إنّ الأحمر هو لون الدّم» لسألته: «والدّم ما لونه؟ -إنّه يَلُون ألواح الحِكم التي نعلّقها على الباب من الجهتين، بمناسبة رأس السنة. -وهذه الألواح، ما لونها؟ - لون أوراق شجر الكاكي في الشّهر التّاسع. - وهذه الأوراق، ما لونها؟ أيّتها العمياء المسكينة، إنّ أوراق شجر الكاكي، بلون أوراق شجر الكاكي».

ثمّ تنصرف الأخت الصغرى وقد أرهقتها الأسئلة العبيثة.

كانت تونغهوا تعيش وسط الظّلام، في عتمة تامّة. سدّى كانت الشّمس تلمع محتدّة في محيطها؛ إنّ البنت مُذ ولدت ما أبصرت غير

السّواد. النّهار أسود، واللّيل أسود. الشّمس سوداء، والقمر أسود. طيلة السبع عشرة سنة التي شكّلت حياتها حتّى اللحظة، كان العالم بالنّسبة إليها أسودَ وسوف يظلّ أسود. منذ أن بلغت الخامسة من عمرها وهي تتجوّل مستندة إلى عصا من خشب العنّاب، تُرَبّت بها هنا، وتضرب هناك، في الدّاخل والخارج، حتّى طرف القرية، تمضي ناقرةً بعصاها. عشر سنواتٍ، وأكثر، وهي تعيش على هذا النحو. العصا عيناها. وأثناء احتفالات الطّيباء، اعتادت أن تلوذ هي وعصاها، وجومي، بركن قصيّ. بتركيز تنصّت إلى المادريغال، سواءً كان من مادريغال بالو أو مادريغال يانغفو، ثمّ إلى الأوبرا والبالادات الشّعبية. لكن حين تبدأ عروض الصّنعَة، تختفي هي. تترك أمّها تشاهد. أمّا هي فلن ترى على أيّ حالٍ سوى الظّلّمات. غير أنّ جومي هذه السّنة ادّعت بأنّ لديها أشغال تقوم بها، ورفضت الحضور. وكانت هوايُها ويوها وفلين قد انصرفن، فظلّت هي عند عتبة الباب تتسمّع الأصوات والضوضاء القادمة من طرف القرية. ثمّ، طق-طق، طق-طق، بلغت هي وعصاها أطراف السّاحة. تابعت عروض الصّنعَة من مداها إلى مداها. أنصتت إلى هتافات الحشد المبهمة والحارقة، وضحكاته الغامضة المقهقهة، وصوت الأيادي المصفقة المظلم والأبيض مثل سحابة. الأيادي التي تضرب، وتموج، وترقصُ في هواء أذنيها. سمعت رئيس الإقليم يهتف بالقرّد: «هيا، تشجّع! إن فُزْتَ أعطيك مائة يوان!» طارت الكلمات إلى أذنيها وأمام عينيها مثل أجنحة سوداء. ثمّ أوفى ليو بوعدّه وأعطى ذا السّاق الواحدة مكافأته. وسجد له المعاقُّ

شكراً، حتى لامست جبهته الأرض مطلقاً صدىً أسود برّاقاً. ولا مس فعله قلبَ الرئيس، حتّى إنّه زاده خمسين يوان أخرى. سمعت الشلّاء تطرّزُ ورقة خبازيّة من الجهتين برسمة عصفورٍ أسود برّاق، ثمّ سمعت السّؤال الذي طرحه عليها ليو حين قصده: تسأل مكافأتها: «هل تستطيعين تزيين أوراق الحور؟»، وجوابها: «إنّها صغيرةٌ جداً، لا مكان فيها لأكثر من نملة». صافحها: «وأوراق الصّفيراء؟ - وضعها أسوء، لا تصلح إلا لرسم رؤوس الرّضع!» وكان ما يزال شاداً على يدها، فدرّس فيها مكافأةً يُجهل قدرها، وخلص إلى القول: «أصابع ماهرة، أصابع ماهرة...» قبل أن أرحل لا بدّ أن أخطّ لك اعترافاً: «إلى الأصابع الأمهر في هذا الكون». أخبرت الصبيّة كذلك أذناها أنّ حولها أناساً كُثراً، في سفح الجبل ووسط الحقول. صيحاتهم تتدافع، وضوضاء أصواتهم تختلط في ضُهاةٍ من السّواد والكثافة، كأنّها ضربت الكون زخاتٍ سوداء قويّة. ولم يكن الوابل يتوقّف إلا حين يوزّع رئيس الإقليم المكافآت، فتلك لحظات يلزم فيها الجميع الصّمت، يسود سكونٌ لدرجة أنّ إبرةً لو سقطت لاهتزّت لها أوراق الأشجار وتطايرت. لكن بعد ذلك، حين ينحني الشّخص المكافأ، أو يسجد، ينطلق تصفيقٌ عنيف، يغمّر كماءٍ أسود، الجبل والقرية والأشجار والمنازل فيغرقها كأنّها بعوضٌ لفّته ظلماتُ الليل.

كانت هذه المرّة الأولى التي تتابع فيها الصبيّة عروض الطيّاء حتّى نهايتها، وكان الأمر بالنّسبة إليها أشبه ما يكون ببياضٍ مبهر. لقد ركض القرد؛ وأطلق الأصمّ مفرقعاته؛ وأدخل الأعور الخيط

في الإبر؛ وطرّزت الشَّلَاءُ الورقة؛ وتشابك أكتعان بما تبقى من ذراعيهما المقطوعتين لينخرطا في مصارعة أذرع. ثم أتى الدور على ابن النّجّار المقيم أقصى القرية، وهو طفلٌ سقيمٌ ضئيلٌ، يُعَدُّ من السنين نحو عشرٍ، وقد خَلَفَ فيه الشَّلَل الذي أصابه في طفولته المبكّرة، رجلاً غليظةً كرأس طائرٍ، في طرف ساقٍ رقيقةٍ كعود قنب. وحين يلفّ ساقه تلك يتمكن من أن يحشرها في قنينة، ثم يتمشى بها متعللاً القنينة.

لقد فتح العرضُ أمام رئيس الإقليم آفاقاً، وسمعتة تونغهوا يصفق ما وسعه التّصفيق، يدها ما كفتا عن التّصفيق، وراحته اصطبغتاً بحمرةٍ مسودةٍ؛ سمعتة يوزّع المكافآت، يتحدث ويتمازح بصوتٍ أسود أجشّ يضيفي على كلّ كلمةٍ ينطقها رنةً خشنةً وسوداء وبرّاقةً، قدر خشونة وسواد وبريق منشارٍ نجّارٍ. وفي نهاية المطاف، وقد آذنت الشّمس بالمغيب، وأخلى القِيْظُ المكانَ للبرودة، وهم سكّانُ المناطق المجاورة بأن ينصرفوا ضاحكين مازحين، عائدين إلى قُراهم زرافاتٍ، صعد ليو يانغك إلى المنصّة وصاح بصوته الأسود: «هل ما يزال لدى أحدٍ عرضٌ يقدّمه؟ إمّا أن يقدّمه الآن، أو لن يقدّمه أبداً. غداً سنكون قد رحلنا، أنا وسكرتيري، ولن تبقى ثمة مكافآت».

ارتقت جانباً من المنصّة، ثمّ، طق-طق، طق-طق، تقدّمت بعضا العنّاب، حتّى بلغت صدر المنصّة. وقفت في المكان نفسه الذي كان قد وقف فيه من قدّموا العروض قبلها، وظلّت هناك، واقفةً

مستقيمة، بينما ذهلت أخواتها، فشققن الطريق حتى أول الصّفوف، وجعلنَ يهتفن باسمها. وكانت الشّمسُ عذبة، حمراء وسوداء، تسقطُ غربَ قَمّة الجبال. وريحٌ رُخاءٌ سوداءُ تهبُّ في خلفيّة المشهد. بلوزتها ذات الياقة القصيرة من نسيج الدّاكرون الورديّ، وسراويلها الزّرقاء، ونعلها ذات الفتحة المربّعة، كانت تبدو وسط ذاك النّسيم أشبه شيءٍ بشجيرة جذعها ساكنٌ، ولا تهتز منها غير الأوراق -ونقصد هنا بالأوراق السراويلَ والبلوزة-. كانت طفلةً، وطفلةٌ عمياءٌ على الرّغم من عينيها السّوداوين البرّاقتين اللّتين تلمعان كما تلمع حبّاتُ عنبٍ وسط الضّباب. كانت نقيّة، كانت نظيفة، حتى الغبار ما كان ليوسّخها. ثمّ، حتى وإن لم تحز حُسن هوايهوا ورقّتها البيّنين، إلّا أنّ كلّ ما فيها كان يقطر مَلاحة وظُرفاً رائعين. ولكلّ تلك الأسباب توقّفت الجلبة أسفل المنصّة، وصمت الجميع. وكذلك صمتت هوايهوا ويوهوا وفلين، فاستقرّ صمتٌ عميقٌ واستمرّ. جعل الحشدُ يترقّب ما سوف يقوله رئيس الإقليم، وبما سوف تجييه.

لم يكن العالم حقاً سوى صمت. وكان ليو يانغك يتأمّلها كأنّها يتأمّل الكونَ ينصهر في صفاءٍ سائلٍ، في تلك اللّحظة التي تغيب فيها الشّمس ويطلع القمر.

ساكنةٌ في هدوئها المبهم، ظلّت هناك، تنتظر أن يتّخذ رئيس الإقليم موضعه في صدر الخشبة، جنوباً قياساً إلى موضعها هي، والسكرتير عن شالها مترجعاً إلى الوراء قليلاً، والقرد -الذي حصّل مكافأةً سميّنة- عن يمينها. وكلّ ما على الخشبة وعند قدميها، لم يكن

سوى حُزْمٍ من أنظار سوداء تثقل عليها كأعشابٍ سوداء. كانت تسمع دهشة الناس تنهال عليها كوابلٍ من القرميد الأسود شبيهة بالأوراق المتساقطة في نهاية الخريف. وكانت تسمع نظرة أخواتها، نظرة تطير من أسفل المنصة لتنزل على وجهها كما الريح التي تتسلل من نافذة مواربة.

سألها رئيس الإقليم: «- ما اسمك؟

- تونغهوا.

- وكم سنك؟

- سبع عشرة سنة.

- ومن أبواك؟

- أمي اسمها جُومي وجدتي ماو تشي».

بهت الرئيس برهةً، ثم ما لبث أن تمالك نفسه.

«- وما صنعتك؟

- لستُ أرى لكنني أستطيع أن أسمع كل شيء.

- ماذا تسمعين؟

- أسمع ريش الدجاج حين يتساقط. صوته شبه صوت ورقة تسقط عن شجرة».

طلب ليو أن يأتوه بريشة عصفور من أطراف الساحة. فأتوه بريشة سوداء رمادية، وعند ساقها بيضاء كالثلج. أحكم عليها رئيس

الإقليم قبضته ليخفيها، ورفع يده أمام الصبية وهو يهز قبضته،
وسألها: «في يدي ريشة، فما لونها؟

- سوداء».

ثم أخرج قلماً أبيض ومرره من أمام عينيها.

- ما هذا؟

- لا شيء.

- هذا قلم. فما لونه؟

- أسود».

فبرزت إذاك ريشة العصفور من بين أصابعه، ونقلها إلى
يده الأخرى، وجعلها خلف قفاه وقال: «أنصتي، وقولي لي أين
سقطت». وسعت تونغهوا بؤبؤيها اللذين ما عادا مبهمين، وإنما
اتقدا كشعلتين، تملؤهما عاطفة وفتنة لا توصف. على الساحة بسط
ذراعيه هدوء عجيب وعميق، سكّان المناطق المجاورة استداروا
على أعقابهم، بعدما كانوا قد انخرطوا في طريق العودة. ومن لديهم
مقاعد، ارتقوها. وعاد الأطفال يتسلّقون الأشجار التي للتو نزلوا
عنها. أمّا الشلّ والعرج - وكذا العمي الذين لم يكونوا يبصرون
شيئاً - فلم يبرحوا مواضعهم. كانوا ينتظرون أن يُبلّغوا الخلاصة.
كان الصمت مطلقاً، حتّى يُسمع صوت الشمس وهي تتحرّك
غاربةً في الجهة الأخرى من الجبل. الأنظار كلّها مصوّبة إلى المنصة،
إلى يد الرئيس الذي يمسك الريشة.

فرّق أصابعه، فهوت الرّيشة، راسمةً دوائر في الهواء، ثم سقطت عند قدم تانغهاو اليُمْنى.

سألها: «أين هي؟».

من غير أن تحير جواباً، أمالت رأسها إلى الخلف، ولّمت الرّيشة من الأرض، متلمّسةً مكانها.

ذهولٌ وغمغمات بين الحضور. مال وجه يوهوا إلى حمرة الآجر، وكذلك وجه فلين. أمّا هوايهوا المذهولة، فإنّ الحسد هو ما اعترأها، فاختلطت الحمرة في وجنتيها بوهج ذهبيّ وفضيّ. ووسط جوقة الوشوشات، حدّق رئيس الإقليم في عيني تونغهاو. ثمّ استعاد الرّيشة، فحرّكها مجدداً أمام عينيها ليتأكّد من أنّ بؤبؤي عينيها الكبيرين الواسعين لا يصدران أيّ ردّ فعل، ثمّ ناول الرّيشة سكريتيرَه، مشيراً له، من غير صوتٍ، أن يسقطها عند عتبة المنصة. نفّذ الشابُّ الأمر، وتهاوت الرّيشة كزفرة مكتومة.

سألها ليو: «- أين هي؟»

- في حفرة أمامي».

طلب رئيس الإقليم من أحدهم لم الرّيشة، ثمّ تظاهر بأنّه أطلقها، وسأل الصّبيّة:

«وهذه المرّة؟».

روّت تونغهاو لحظةً، ثمّ بهيأةً يائسة هزّت رأسها: «لم أسمع شيئاً». تحرّك ليو، فوقف أمامها، وبعد برهة طويلة، دسّ في يدها

ثلاث ورقات: «لقد أصبت السَّمْعَ في المرات الثلاث، مكافأتك ثلاثمائة يوان».

ولما كانت الورقات جديدة وتخشخش، فإنَّها أخذت تجسَّها مثلما تجسَّ كلَّ شيءٍ بمرح. أضاف رئيس الإقليم وهو ما يزال واقفاً أمامها يحدِّق فيها: «- هل ما يزال ثمة شيءٌ آخرُ تسمعيه؟

أجابته وهي تطوي الورقات لتدسَّها في جيبيها: - هل ستعطيني المزيد من النقود؟

- أعطيك النقود فقط إن أريتنا صنعةً أخرى غير صنعة الإنصات.

ابتسمت: - أعرف نوع الشجرة، هل هي عنبٌ، أو صفصاف، أو صفيراء، أو دردار، أو أرز، فقط بالضرب على جذعها بواسطة عصاي».

قادها إلى طرف السَّاحة، وجعلها تضرب بعصاها شجرة دردار، وشجرة زنزلخت، ثمَّ شجرتي صفيراء عتيقتين. وبالفعل، استطاعت الصَّبية أن تخمَّن نوع كلِّ شجرة، فزادها مائة يوان. ثمَّ طلب حجراً وآجرة، وكثلة أردواز، وطلب منها أن تضرب كلَّ منها بعصاها؛ وهذه المرَّة أيضاً استطاعت أن تحدِّد تحديداً دقيقاً كلَّ حجر، فزادها مائة أخرى. وهذه المرَّة سادت الجلبة السَّاحة. إذ لما رأى الحضور تونغهوا تكسب في رمشة عينٍ خمس ورقاتٍ جديدةً مبهرة، أطلقوا العنان للتهديد والتعليق. وكانت هوايهوا أوَّل من هرع إلى المنصة، فأمسكت بيد أختها وسحبته قائلةً:

«أختاه! يا أختاه! غداً أصبحك إلى سوق البلدة، فنشتري كل ما ترغبين فيه!».

وكانت الشمس قد اختفت تماماً خلف الجبال الغربية، وغلف طيبة ما يشبه الدخان الأحمر. فات الوقت على تقديم عروض أخرى. عاد سكان المناطق المجاورة إلى منازلهم وهم يتنهدون من الرضا. والقرويون الذين نصبوا قدوراً كبيرة في الساحة، جعلوا ينادون على الذاهبين ليتناولوا لحم الخنزير بالملفوف أو حساء الأرز. وفي تلك اللحظة بالضبط أينع البرعم الصغير الذي كان قد نبت في قلب رئيس الإقليم، من غير أن ينتبه له؛ أينع بغتة، وانفجر فطلعت منه شجرة هائلة، شجرة من عملات السابك^[١]، مذهلة الصفاء واللمعان.

سوف يشكّل فرقة فنية، فرقة صنعة، تعرض في أركان العالم الأربعة، وتكسب النقود التي تنقصه للحصول على رفات لينين.

[١] عملة صينية قديمة تكون مثقوبة، فتحمل القطع الكثيرة منها في خيوط.

الكتاب الخامس

جذع

الفصل الأول

كانت فورة كبيرة، كأن تُصادف شجرة عند بابك لحظة خروجك من المنزل

كانت طيبة في حال غليان. كأنها في عزّ الليل بزغت الشمس بدلاً من القمر. لكنّها لم تبزغ بما هي نجمٌ يغمر نوره آلاف السنين، وإنّما مجرد نجمة صفراء مبهرة تلمع في الظلام. لقد تقرر أن تُكوّن فرقة تُعرض خارج منطقة جبال بالو. ومثل فنّاني العالم الكبار، سوف يرتدي القرويون أزياء عروض، يصعدون بها إلى خشبات المسارح في كلّ عواصم الدنيا... كلّ من أونس فيه خيالٌ من صنعة، وجب أن يسجّل نفسه في قوائم رئيس الإقليم. وأن يسجّل السكرتير في دفتره لائحة الأسماء، ومواهبها المميّزة.

القرد ذو السّاق الوحيدة: يركض بساقٍ واحدة.

ماء الأصمّ: مفرقات تعلّق في أذنه.

الأعور: يولج الخيط في إبر.

الشّلاء: تطرّز على أوراق الشّجر.

تونفها العمياء: رهافة الأذن.

كان ثَمَّة أيضاً الجُدُّ الرَّابِعُ، وهو أعمى يقيم عند مدخل القرية، ولفرط ما عدم البصرَ والفائدةَ في عينيه، صارَ لا يخشى أن يُقَطَّرَ فوقَها الشَّمْعُ. أو تلك الخالَةُ، المقيمة أيضاً عند مدخل القرية، التي مُذ انكسر معصمُها صارت تقطع بيدٍ واحدةٍ اللَّفَتَ والملفوفَ، بأسرع وأدقِّ وأرهفَ ممَّا كانت لتقطعه بيديها مجتمعتين. ومن أقصى طَيِّبة، رجلٌ بستَ أصابع: في يده اليسرى إبهامٌ ثانيةٌ تنبت فوق إبهامه - ويمكن القول إنَّه لم يكن يُعتبر معاقاً، وإنَّها من النَّاس - تامِّين. وكان يكره تلك الرَّائدة النَّابتة في يده، لدرجة أنَّه يقضي أيَّامه في عضِّها: حتَّى إنَّها لم تعد إلَّا ظُفراً نابتاً في كرةٍ لحمٍ قاسيةٍ، ظفراً لا يخشى الملاقط ولا الأسنان، ويمكن أن يغطسه في النَّار مثل قطعة خشب أو حديد عتيقة. أيّاً كان عُمرُك، إن كنتَ من سكَّان القرية، وكانت لديك إعاقةٌ، وبفضل تلك الإعاقة طَوَّرتَ كرامةً (١)، فسوف يسجِّلُك السَّكرتيرُ في سجلِّه، فتلفي نفسك عضواً في الفرقة.

سوف تترك طَيِّبة، ولَّى زمن الاشتغال في الحقول، سوف تستلم راتباً مهولاً كلَّ شهر. وعد رئيسُ الإقليم بأنَّ العروض التي سوف تمحصد نجاحاً كبيراً سوف تحصل على مائة يوان في كلِّ عرض. فمن يعرض مرَّةً في اليوم، سوف يعرض في تسعة وعشرين يوماً تسعةً وعشرين مرَّةً، وفي واحدٍ وثلاثين يوماً واحداً وثلاثين مرَّةً! وبالتالي: ورقةٌ ضخمةٌ كلَّ يومٍ؛ وأيُّ رزمةٍ هي في نهاية الشَّهر! لنفترض أنَّه، في القرية، كان ثَمَّة فردان من النَّاس - تامِّين، وكان الطَّقْس ملائماً

طيلة السّنة، وكانت الأرض حقولاً فردوسية (٣)، وكانت الحياة أشبه بحياة الأيام المستلقية (٥)، فإنّهما لن يكسبا من زراعتها قدر ما يكسبه فردٌ من أفراد الفرقة.

كيف لا تنقضّ على الفرصة إذن؟

طلبت أسرة القرد ذي السّاق الواحدة من النّجار صنع عصاً جديدة. وقصدت الشّلاء بيت أمّها تقرض منها النقود اللازمة لخوض مغامرتها الجديدة. وانطلق مائه الأصمّ يبحث عن أشجار سرو شديدة الصّلابة، لكي ينحت من جذوعها ألواحاً يحتمي بها من المفرعات. أمّا الصّغير بوليو - ثلاث عشرة سنة -، فقد أخذ والداه يحضّران له أمتعة السّفر.

كوّنت الفرقة في غضون ليلة. وغداً سوف تغادر القرية. وضمن أفرادها البالغ عددهم ستّة وسبعين، ثمة أحد عشر أعمى، وثلاثة صُمّ، وسبعة عشر أعرج، وثلاثة من ذوي السّاق الواحدة، وسبعة بين أكتع وقصير يد، وواحد بستّ أصابع في الكفّ، وثلاثة عور، وواحد على وجهه ندبة حرق. بالإضافة إلى بعض النّاس - تامّين، أو يكادون يكونون. وهؤلاء لن يلعبوا إلا أدواراً ثانوية، أمّا النّجوم فهم المعاقون. النّاس - تامّون لا يعانون نقصاً، وبالتالي سوف يتلخّص دورهم في القيام ببعض الأشغال في الكواليس: نقل الصّناديق، على سبيل المثال، أو القيام بأعمال التنظيف والطّبخ، أو إصلاح الإكسسوارات. وحين تبدّل الفرقة المدينة، يكون عليهم هم القيام بأشغال النقل المزعجة.

كان من البين بنفسه أن نجمة العروض ستكون هي تونغهوا. بيد أن هوايهوا قصدت السكرتير شي ما إن تناهى إليها خبر المشروع. سألتها: «وأي المواهب تملكين؟». «لا أملك أي موهبة، لكنني أعرف كيف أمشط وأصبع، وسوف أجعل من الفنانين متعة للنظر قبل أن يصعدوا خشبة المسرح». فكان أن قيدها شي في دفتره وابتسم وهو يداعب وجنتها مداعبة أبوية. ابتسامته ولمسة طيرا النوم من عينيها، فأتت في اليوم التالي مشرقة، جميلة وموردة مثل فراشة تتقافز في الطريق مخبرة الجميع بأنها صارت المسؤولة عن ماكياج الفرقة، وأنها لم تنم ليلتها لشدة الحماس. فجراً رأت حلماً: رأت نفسها تنطلق محلقة من فوق جرف.

تسأل: «هل ترى أنني كبرت يا خال؟».

تقول: «يبدو أن رؤية الطيران في المنام معناه أننا نكبر. ألا ترين أنني كبرت يا عمّة؟».

ويجب الأخوال والعمات مؤكدين أنها بالفعل قد نمت قليلاً. إنها ما انفكت تزداد جمالاً، أجمل من تونغهوا، وهوايهوا، وفلين. أخواتها زهراء مروج في فصل الربيع، لكنهن لم ينعن بعد كل الينوع، أما هي فزهرة فوانيا عشبية، وردة خطمية، زهرة برقوق حمراء في عز تفتحها. لم يعد الناظر إليها يرى فيها قزماً، وإنما مراهقة جذابة وحساسة، فراشة أو عصفوراً لافتاً للنظر. وفي المنزل، قايت نفسها بتونغهوا، وهوايهوا، فقررت أنها أطول منهما بقليل. كان يُحال إليها أنها قد بدأت تكبر منذ اللحظة التي داعب فيها السكرتير

وجنتها. لو أنه يعيدُ الكرّة! أو حتّى يقبلها، من يدري؟ ستتحول
من قزّمةٍ إلى ناس-تامة، ويكون بمقدورها تقديم العرض.

من اليّن بنفسه أنّ هذا الدّور لا يمكن أن تقوم به إلا صبيّة
جميلة.

أمّا يوهوا، فحتّى وإن لم تكن تضاهي هوايهو طويلاً، فقد عهد
إليها ببيع التذاكر. وحدها فلين، بأمر من أمّها وجدّتها -اللّتين قالتا
كلّا، وكلّا، ثمّ كلّا- بقيت في المنزل. من بين سكّان القرية البالغ
عددهم مائتين ونيف، سيغادر أكثر من النّصف. خُلّف الشيوخُ
والأطفالُ، ومن كانت إعاقتهم مفرطة، والبُله: ما داموا عاجزين
عن تطوير صنعةٍ، فالأولى لهم أن يبقوا لرعاية المنزل والعمل في
الحقول.

كان يسود القرية نفس الاضطراب الذي يسود مخزناً يُفرغ.
الشّوارع تغصّ بالنّاس الذين يلتمسون اقتراض هذا الشّيء أو
ذاك. حصل الأعور على طقم إبر جديدة، وسار بين المنازل يسأل
مبادلتها بطقم أقدم: فبغضّ النظر عن حجم الإبرة، يكفي أن تكون
قد استُخدمت، وبراها طول خياطة الملابس أو النّعال، لتصير عينيها
ناعمة، فيمرُّ منها الخيطُ بسلاسة. وجلست أمّ الصّغير بوليو عند
عتبة الباب تصنع نعلًا لقدمه اليسرى: ما دام الآن سينتعل في
اليمنى قنيّة، فينبغي أن تستند القدمُ الأخرى إلى نعل متينٍ إن أراد
الصبيّ الثبات على قدميه. وساعة الرّحيل انتبه عدد من الأسر
فجأة، إلى أنّهم لا يملكون بقعةً أو حقيبةً، ولا حتّى كيساً يضعون

فيه أمتعتهم، لأنهم لم يذهبوا قطُّ أبعد من سوق القرية. كان عليهم أن يطرقوا البيوت بيتاً بيتاً بحثاً عما يتدبرون به أمرهم، يتوسلون شرقاً، ويستعيرون غرباً...

وانخرطت الحياطات في المساعدة حتى ازدحم عليهنّ الشغل. وكذلك كانت للتجارين مشاغل كثيرة: سبعة عشر من العُرج، واثنان من ذوي الساق الواحدة، بالإضافة إلى اثني عشر أعمى، أي ما مجموعه واحدٌ وثلاثون شخصاً، ثمانية عشر منهم لا يستطيعون العيش بدون عكّاز. بعبارة أخرى: ثمانية عشر لا يستطيعون العيش بدون عكّاز، وثلاثة عشر يريدون عكاكيز جديدة! فلم يكن للتجارين بدٌّ من الانخراط في العمل. وانطلقت أصوات عملهم تتردّد في القرية: بان! بان! وأيُّ ضوضاء هي، إن أضفنا إليها صوت الناس الذين يجوبون الطّرقات بحثاً عن هذا الشيء أو ذاك، وهذا الصبيّ، نصف الأعمى، الذي رفض رئيس الإقليم وسكرتيه تسجيله في لائحتهما، لأنّه عُدِم أيّ صنعة، فأخذ يصرخ صراخاً يوشك أن يتمزّق له حلقه، ويضرب الأرض بقدميه، فيطير سُحباً من الغبار وسط الطّريق.

ذاك ما وصلت إليه مجريات الأمور.

غداً في الصّباح الباكر، سينطلق السّبعة وستون شخصاً من سكان طيّبة، الذين وقع عليهم الاختيار. أمّا جومي فلم يظهر لها أثرٌ، ولم تطأ قدمها خارج المنزل، منذ أن حلّ رئيس الإقليم وسكرتيه بالقرية، واستقرّا بغرف الضيافة في المعبد القديم.

تونغھوا، وهوایهوا، ویوهوا، يتحرّكن اهتزازاً في المنزل مثل ماءٍ متدفّق، یوضّبن أمتعتھنّ، ويحضّرن الحقائب. ثلاثھنّ سوف یغادرن مع الفرقة.

كانت الأمّ عرقانةً تجلسُ على صخرةٍ وسط الفناء الذي لا تدخله الرّیح، والذي تحوّله شمس الظّھيرة إلى فرن. وإذ انزاح ظلُّ الأشجار، فقد خلّفها وسط النّور مثل حفنةٍ من خضارٍ وسط مقلاةٍ صينيّة. كان المنزل مقسّماً إلى بنائيتين من أربع حجرات، بالإضافة إلى بناية مقسّمة إلى ثلاثة مرافق. وكانت هي تقيم في إحدى البنايتين الأوّلین، صحبةً ابتتها العمياء، تونغھوا، بينما تقيم باقي البنات، هوایهوا ویوهوا وفلین، في البناية الأخرى. ولم تكن الغرف تحوي غیر الأسرّة، إذ تضع البنات ملابسھنّ تحت وسائدھنّ، فلم تكن لديھنّ خزّانة، وحتّى لو كانت لديھنّ لما عرفن أين یضعنها. منذ عشر سنواتٍ وهنّ یعشن متكوّمات، بعضھنّ فوق بعضٍ، كأثنّ حَضنة عصافیر ترقبُ اليومَ الذي تبلغ فيه سنّ مغادرة العش.

هذه تسأل: «أین قمیصي الوردی؟ أمس كان هنا مطویاً عند رأس سریري، والیوم لا أراه». وتلك تقول قلقة: «ألم تری نعلي المخملیّة؟ لقد دسستها تحت السّریر منذ یومین».

ولم تكن الأمّ تجیبهنّ، إذ اكتفت بمراقبتھنّ، وهنّ يتحرّكن في كلّ اتّجاه. قلبها كان یغوص في الظّلمات، مثل تلك الأراضي القاحلة عند جناح الجبل، حيث كان القرویون فیما مضی یزرعون الحبوب، آیام كانت الفصول واضحةً، فكانوا یبذرون في الرّبيع، ویحصّدون

في الخريف؛ يزرعون في الخريف، فيجنون في الصيف. ثم فجأة غادر المزارعون، فبار الحقل وصار القلب عاقراً. كانت تعرف أن القرية قد شهدت في الأيام الجارية أحداثاً استثنائية بالغة الأهمية. سوف يتغير مصير طيبة على يد فرقة، مثلما تغير، فيما مضى، مصير حياتها هي على يد رجل. لقد آن أو أن القرويين. وهذا يجعل المرء يفكر في المطر في سنة جفاف، قد ينقلب المطر إلى طوفان، لكن لا أحد يستطيع أن يمنع الناس من يهرعوا إلى استقباله. كانت تقول في نفسها: فلترحلن، لا بدّ للماء من الجريان، وإنّ العصفور والغراب كليهما ينتهي بهما المطاف إلى ترك العش. فليعلن إذن كما يحلو لهنّ. ثمّ إنّها أطلقت نهيدة طويلة وقامت من صخرتها التي يغمرها نور الشمس.

خرجت.

لم تستطع أن تمنع نفسها من الذهاب إليه.

هيا إلى المعبد القديم.

كانت ساعة القيلولة هي الوقت الذي يستريح فيه الجميع بالعادة، لكن في هذا اليوم، وفي عزّ الظهيرة، كان الشارع ضاحكاً كأنها يتحضّر عرض كبير. أمس فقط كان الجميع يحضر الطيّباء، واليوم يستعدّ الممثلون للرحيل بعيداً، يتأهبون لأن يصيروا أشخاصاً آخرين، لأن يبدّلوا حياتهم. وبغضّ النظر عن طبيعتهم (عمي، أو عرج، أو ناس-تامون)، فإنّ حدودهم جميعاً مورّدة، وملاصحتهم سعيدة.

وكان أولئك الذين يلتقون بها، يهتفون: «ثلاث بناتٍ من أصل أربع، إنَّك محظوظة!».

لم تكن تجد ما تردّ به، فبتبتسم لهم ابتسامةً باهتة.

يقول لها بعضهم: «ستكسبين من المال، حتّى إنَّك لن تعرفي كيف تصرفينه. أتمنّى أن تكوني هنا، حين أحتاج اقتراض نقود».

فتواصل الابتسام ابتسامتها الباهتة، لا تدري بما تردّ.

بلغت المعبّد. كان ثمة زوجان جاثين على ركبتيهما: زوجان من الناس -تأمين أتيا يتوسّلان إلى رئيس الإقليم تسجيل طفلهما. وكان رئيس الإقليم مستلقياً على كرسيّه وسط الحجرة، يشعر، في تلك السّاعة من منتصف اليوم، بالفتور. يلتصق الخدرُ بشخصه كما يلتصق الطّين الأصفر. وكان سكرتيه قد تركه ليقضي بعض المآرب. حدّق الرئيس في الزوجين بنظرةٍ مستاءة: «قفا إن كان لديكما ما تقولانه!».

ظلاً جاثين بعنادٍ على رُكبهما.

«إن لم توافق، فإننا نفضّل الموت على أن نقف!».

لان قليلاً:

«وما الذي يحسنه طفلكما؟

- إنّه قبيح، لكنّه يستطيع أن يشمّ رائحة القمح من على مسافة ليّاتٍ كثيرة.

- أنا أيضاً أستطيع ذلك».

بدأ القلق يستولي على الزوجين.

«يستطيع، من بعيد، أن يحدّد أيّ المنازل في القرية يُطبخ فيه خبز الذُّرة بالبُخار، لا بل يستطيع أن يحدّد إذا ما كان الخبز معجوناً بالسّمسم أم بالبصل المفروم أم بالثوم».

فكّر رئيس الإقليم برهة: «حقاً؟

- سوف نأتيك به، وسوف ترى بنفسك. في هذه الحجرة سيميّز أين توجد الرطوبة، وأين يوجد السخام، وفضلات الفئران».

لكنّ الرّئيس رفض استقبال الصبيّ رغم إلحاحهما، وبحركة منه أمرهما بالانصراف: «اثنائي به بعد القيلولة، وسنجرّبه». ركعا مرّة أخرى على ركبهما وخرجا متراجعين بظهريهما. ظلّ السّروة العتيقة يغطّي أكثر من نصف الباحة حيث تنمو. الجوّ منعشٌ تحت أوراق الشّجرة، وجومي لم تعد عرقانة. أبصرت الزوجين ينصرفان. كانا السّقاف وزوجته. نظر كلّ طرفٍ إلى الآخر، متردّداً في أن يبدأ الكلام، ثمّ في النّهاية ركن الجميع إلى الصّمت: تأملتهما جومي بنظرة حزينّة، لا شكّ أنّها تعيسة لأنّ بناتها الثلاث يغادرن مع الفرقة؛ وهما كانا مستاءين لأنّ الاختيار لم يقع على طفلها، فكانا يبيديان بروداً. وقّع خطواتهما على الأرض يرنّ مثل عود خبّازي رخوٍ على بلاطة، صوتٌ أجوفٌ لكنّه رنانٌ يتردّد في البعيد.

توقّفت جومي عند عتبة الحجرة، وتفحّصتها بعينها. كان

رئيس الإقليم قد أغمض عينيه، ويتأهب ليغتم غفوة. مستنداً إلى ظهر كرسيه، شابكاً يديه كالعادة خلف رقبته، أخذ يتأرجح برفق. ولا نحتاج أن نقول إنه كان ينزلق بخفة في النوم، ينزلق بكلّيته، روحاً وجسداً. لقد أنشئت الفرقة في وقت أقل من الوقت اللازم للحديث عنها، كأنها ساعة خروج من بيته وجد شجرة من عملات السابك، وجد الأموال اللازمة للحصول على رفات لينين، طوع يديه، تساقط عليه من غير أن يضطرّ حتى إلى رفع إصبعه. كيف لا يكون، والحال هذه، مرتاحاً، وفي حال طيبة؟ لم تتغير حياة المعبد بالعموم: ثلاث حجرات، تفصل بينها حواجز غطتها جرائد قديمة رُسمت عليها رسومات تمثل تنانين وطيور فينيق وآلهة. وفي الجدار خلفه، علقت صور، تعود الثلاثة الأولى - وهي بروتريات ماركس ولينين والرئيس ماو - إلى أزمنة غابرة. ذوي الشارب غطى الغبار شاربيهما، أما الأمرد فغطى منه التجويف الفاصل بين الأنف والشفة العليا. وقد أبلى الزمن الورق وصيره أصفر وهشاً لدرجة أنه يوشك يفتت، عند أول ملامسة، ويتساقط مزقاً. ويشع البورتريه الرابع، جديداً، يصور رجلاً في سن النضج، حلق شعره على الطريقة العسكرية، ويبتسم ابتسامة عريضة. شق عليها، لوهلة، أن تكتم عواطفها. أسفت لأنها لم تمشط شعرها أو تغير ملابسها قبل أن تقصده. لكن ما إن رأت البورتريهات حتى بهت. ولم يكن البورتريه الرابع سوى بورتريه ليويانغك. كان يبدو كما لو أنه لم يعلق هناك إلا لكي يصدّمها، ويخمد فورة قلبها، وقد خدت. ظلت جامدة مثل جذع خشب عند عتبة الباب، على مسافة

لا بأس بها. سوف تلتقي أحد معارفها القدامى؛ لم يتغيّر كثيراً، لكنّها أدركت أنّها، إن كانت قد هدأت سريعاً، فإنّها مرّة ذلك أولاً إلى أنّ الشخص الذي عرفته قديماً، قد سمن، يصعب عليها أن تتذكّر قوامه النحيل فيما مضى، وهي تتأمّل الآن منحنيات جسمه؛ ثمّ إنّ هذه الصّورة المعلّقة في الحائط، بجانب الصّور الثلاث الأخرى، قد جعلتها تقف على شساعة الهوّة التي غدت الآن تفصل بينهما. بينهما مسافةٌ لا سبيل إلى قياسها، مسافةٌ تضاهي المسافة بين السّماء والأرض. لذا ظلّت هناك، واقفةً ساكنةً، متردّدة، تصبو إلى القيام بخطوةٍ، فتُعاندها قدماها، تحدّقُ فيه، وتتأمّل الجدران وأركان الحجر. ثمّ بعد مدّةٍ سعلت سعلة مكتومة.

الحال أنّه لم يكن نائماً. لكنّه كان مرهقاً بحيث لا يقوى على فتح عينيه، فقال متأرجحاً على كرسيّه:

«ألا يمكن الانتظار إلى حين الفراغ قيلولتي؟»

- أنا جُومي».

سكنت قوائم الكرسيّ المتأرجحة جميعاً، رفع جفنيه، التمس بعينه الباب، فتوقّفت نظرتة المشوّشة عليها برهةً. ثمّ أشاح عنها ليغوص ببصره في الرّواق، قال ببرود:

«- ماذا تريدن؟ أنا لم أطلبك!

- أردتُ رؤيتك.

- لقد قبلت بناتك في الفرقة. سوف يحصلن على راتب، الحياةُ

تفتح لك ذراعيها». صمت برهةً، وألقى إليها بنظرةً، ثم واصل: «حين سأجلب رُفات لينين، ويستقر به الأمرُ في جبال الأرواح، ستأتي جحافلُ من السّياح، تغمر كالسّيل طريق التّل فوق القرية. استبقي الأمر، افتحي مطعماً أو فندقاً، وسوف تعيشين كما في الجنّة. سوف تعيشين حياةً أفضل من حياتي».

كانت تودّ لو سألتَه سؤالين أو ثلاثةً، أن تقول له أمرين أو ثلاثة، لكنّ خطابه أخرسها. رفعت رأسها لتتأمّل مجدّداً البورترية المعلّق بجانب البورترية الثلاثية الأخرى، ثمّ، بعد أن ألقت نظرةً أخيرة، دارت على عقبيها قاصدةً المغادرة.

تردّد هو لحظةً، ثمّ قام عن كرسيّه، تأمّل البورترية المعلّق على الحائط، ثمّ ارتأى أن يوضّح وهو يشيّعها بنظرته:

«إنّ السكرتير هو من علّق الصورة ظناً أنّها تسرّني».

أبطأت الخطو.

لكنّه قال: «انصرفي، لن أرافقك».

غادرت المعبّد. في الشّارع كانت الشّمس صفراءَ برّاقةً، فلمّا غادرت الباحة الظّليلة المنعشة، انقضت عليها موجاتُ الحرّ فأصابتها بالدّوار. كأنّها أغطست في قدرٍ ماءٍ يغلي. لم تكن نادمةً على أنّها ذهبت لرؤيته، ولم تكن تشعر بأيّ شعورٍ مميّز، لكنّ لما انعطفت عند الطّريق المفضية إلى منزلها، فتفحّصت المكان وأدركت أنّ لا

أحد يراها، توقّفت، ففاضت الدّموع من عينيها وأغرقت وجنتيها،
حتى إنّها رفعت كفّها فهوت على وجهها بصفعة، قائلةً:
«غبيّة! غبيّة! لم ذهبتِ عنده؟ ما أحملك!».

كانت اللّطمة كافية لتكفّف دموعها، وما هي إلا لحظات
حتى كانت قد عادت إلى منزلها.

تعليقات

(١) - كرامة، اسم مؤنث. - لهجة محلية. ميزة، قُدرة. إنّ سكّان طيّبة
مضطرون إلى أن يطوروا موهبةً من المواهب، في هذا المستوى أو ذاك، لكي
يَعوّضوا أنفسهم عن إعاقتهم. يساعدهم ذلك في الحياة. وعليه، ترى العميان
أذكاء، والصمّ البكم مَهرةً في استعمال اليدين، إلخ.

(٣) - الحقوق الفردوسية - ليست الحقوق الفردوسية هنا نسبةً إلى
الفردوس، أيّ الجنّة، وإنّما هي فقط الأراضي التي، مثلها مثل الجنّة، تمنحُ
الأمل. وكما قلنا آنفاً إنّ وادي طيّبة خصبٌ وريّانٌ. منذ سنوات خلت، كان
الوادي يضمُّ أراضيً مستويةً ومسقيّةً، وحين يغمر تلك الأراضي الماء، تبقى قطع
الأراضي عند منحدر التلّ. أيّاً كانت الإعاقة التي يعاني منها الفلاحون، فلا
بدّ لهم من أن يجتثوا، هنا أو هناك، ما يكفيهم حاجتهم من الطّعام، عاماً
ويزيد. كانوا يزرعون ويحصدون أراضي شاسعةً، فليس لهم أن يخشوا الكوارث
الطبيعية. وسواءً كان الموسم مزدهراً أو ميّتاً، فإنّك تراهم دائماً في الحقول،
يزرعون بكثّة ويحصدون خليّتي البال. كانوا يعيشون في هُناءة وراحة. لكن في
سنة النّمر، الموافقة لـ ١٩٥٠، صارت الأراضي ملكاً للدولة، فأنتهى زمن الحياة
الهائئة المريحة. صارت الأيام التي كان فيها كلّ واحد يزرع حقله بلا منقّصات،
حرّاً وهانئاً، حلمًا جميلاً بعيداً، حياةً فُقدت، خيالاً تبتدّد. ولهذا ناضلت ماو

تشي، وما تزال تناضل: أحد أهدافها الأساسية، العودة إلى زراعة الحقول الفردوسية، لأنّ، بالنسبة إلى القرويين، في الحقول الفردوسية وحدها توجد كلّ آمال الحياة الرّعدة.

(٥)- الأيام المستلقية- زمنٌ ولّى. إنّ مفهوم الأيام المستلقية، وثيقُ الصّلة بمفهوم الحقول الفردوسية. تشكّل الأيام المستلقية نمط حياة خاصاً لا يمكن أن يعرفه إلا من خبّره من سكّان طيّبة. ميزة هذه الأيام: الحرّيّة، هناءة البال، الرّاحة، الهدوء وغياب أيّ جهد. يسمّيها سكّان القرية كذلك «الأيّام الضّائعة».

الفصل الثالث

ماو تشي تنهار كُزْمة عشب

حين خرجت ماو تشي من منزلها، كانت صُفرة تجاعيدها الرّصاصية تُذكر بالوحل العالق في جليد الشّتاء. عكّازها المصنوع من الألمنيوم ينتزع من الأرض أصداً رنّانة. صامتة كانت تتقدّم في طريقها، مثل عود خيزران يجرفه النّهر. وكانت الشّمس قد مالت قليلاً إلى الغرب، والشارعُ هدأ. القرويون على وشك الرّحيل، أولئك الذين يتقنون صنعةً من الصّناعات قد أنهوا على ما يبدو استعداداتهم. فمن أراد منهم صنعَ رزمةٍ، استعار شيئاً من قُماشٍ، أو مزّق ملاءة السّرير - فحصلَ رزمتين دفعةً واحدة -؛ ثمّ حُشرت في الرّزم الملابسُ وغيرها من الأغراض. النّساء اللّواتي انشغلن منذ الصباح الباكر بأشغال الخياطة، ما عدن يحركن إبرهنّ في الشّارع. والنّجارون الذين اضطرّوا إلى أن يصنعوا عصيّاً على عجلٍ، تركوا فؤوسهم ومناشيرهم، ووقفوا يقوّمون ظهورهم الموجوعة من كثرة العمل. بلى، لقد عاد الهدوء، وعادت الخنازير والدّجاج إلى التّجول على سابق عاداتها، كأنّ شيئاً لم يحدث.

كانت الأمور ماضيةً في طريقها، حين تناهى إليها خبرُ الفرقة التي أنشأها رئيس الإقليم، وعلمت أنه جند في فرقته سبعة وستين فرداً من سكّان القرية، بين أعمى وأصمّ وأعرج وبضعة من الناس - تامين. منذ عشرة أيام فقط بصقت على وجهه، لكن لما قرّر الإقامة في القرية مع سكرتيه، وجّهت القرد إلى خدمتهما، وأن يحرص على أن يُطعما من طرف سكّان القرية، بيتاً بيتاً، بالدّور. فالأسر التي لها بيوتٌ نظيفةٌ، ليس عليها إلّا أن تدعوها حين يجهز الحساء، أمّا الأسر ذوات البيوت المتسخة، فالأفضل لها أن تضع الحساء في إناءٍ، وترسله إلى المعبد مع خبز البخار والأطباق المطبوخة.

لها أن تكرهه ما شاءت، لكنّه يظلّ رئيس الإقليم، وحين يقيم في طيبة ينبغي التكلّف به. وإنّ القرد يستطيع أن يتكلّف بإقامة حوائجه وأغراضه. إنّ القرد، جارها عن شرقيّ، ذكيّ وسريع، وإنّ عدم ساقاً من ساقه، وحين يطرأ طارئٌ، فإنّه هو من يُلجأ إليه ليمرّ على بيوت القرية بيتاً بيتاً، ليُعلم السكّان، أو يقرع الجرس ويصعد على الصّخرة فيصيح صيحةً عظيمة. هو ليس شخصيّة بارزة في القرية، لكن يكفي أن يُعهد إليه بمهمّة من المهام ليصير كذلك.

وقد قالت له: «إنّ رئيس الإقليم سيقوم في المعبد، وعليك أنت أن تتكلّف بأموره».

فتكلّف.

لكن بعد عشرة أيام، أي ثلث شهر، انتبعت إلى أنّه مُدّ عهدهت إليه بأمورهما، لم يجتز عتبها ولا مرّة واحدة يسألها شيئاً، وكأنّها صار

يعتبر القضية مسؤوليته ولا حاجة في الرجوع إليها. وكأنها هو إطار قروري، إطار من أطر القرية. لم يكن يفصل بيتها عن بيته إلا جداراً، ومع ذلك جرؤ على أن يساهم في قيام مشروع بهذه الخطورة، من غير أن يخبرها بشيء. القرية توشك على الرّحيل، مخلّفة معاقين، مسنين أو أطفالاً، أو بلهاً، يُعهد إليهم بأشغال الحقل، ومع ذلك لم يخبرها بشيء.

فلين هي من اعترفت. أتت إليها تثرثر. كانت ماو تشي قد بسطت فرشة تحت الشجرة، وسط الباحة، وانهمكت في شغل كفنها: ثوبٌ من السّاتان والحريّر، أسود وأخضر، نسيجٌ خشنٌ وتبطينٌ ناعم، كانت تقصّ وتخيّط بالإبرة، عقدةً بعد عقدة، قطعةً بعد قطعة، وكلّما فرغت من قطعة، طوّتها وأودعتها دولاباً مدهوناً بالأحمر عند رأس سريريها، حتّى إنّ لا أحد كان يدري أين وصلت في شغلها، ولا كم بقي لها ليجهز الكفن، وبالتالي لا أحد يستطيع أن يقول لها يكفي ما صنعتته من قطع. كانت قد شرعت في هذا الشغل منذ ما ينيف عن عشر سنوات، أيّام كانت في التاسعة والخمسين من عمرها. منذ اثني عشر عاماً بالضبط وهي، كلّما وجدت دقيقة فراغ، ملأتها بشغل الخياطة. ولما أن صارت، في الآونة الأخيرة، تتحاشى لقاء رئيس الإقليم في الشارع، فقد لاذت بالمنزل، وكرّست وقتها كلّه لشغلها ذاك. بجانبها يستلقي قطيع الكلاب، وهي تجلس، صامتة كطفلة هادئة وشيئاً ما منعزلة؛ قضت على هذا النحو عشرة أيّام بأكملها، وفي اللّحظة التي كانت توشك فيها على أن تُتمّ خياطة حاشية ثوب أسود، دخلت عليها فلين تصيح بصوتٍ حادّ:

«جَدَّتِي، جَدَّتِي! أَسْرَعِي! أُمِّي ترفض السَّماح لأخواتي بالذهاب مع الفرقة، وهنَّ لا يقبلن عن الذهاب بديلاً، إنَّهن يتشاجرن بالأنياب والأظفار».

تركت ماو تشي إبرتها، وطرحت أسئلة عديدة حول ما جرى في الأيام الأخيرة من أحداث. وبعد مدَّة من الزَّمن تجمَّدت تجاعيد وجهها الفائرة، اتَّخذت شكل جليدٍ أصفرَ صفرةَ ماءٍ موحلٍ. خرجت.

ومن دون حاجةٍ إلى إشارةٍ أو أمرٍ، كانت الكلاب لتتبع سيِّدتها، لكن لما وقفت، تلك التي قامت منها، على الغضب الذي يتلبَّس العجوزَ، فقد عادت تستلقي في مكانها ساكنةً. صفقت خلفها بعنفٍ باب باحتها، لدرجة أنَّ فلين التي كانت تتبعها، انتفضت. الجدَّة تسير في المقدِّمة، وفي إثرها الحفيدة تتقافزُ موقنةً أنَّ وجهه جدَّتِها المنزلُ. بيد أنَّ العجوز بدلاً من ذلك قصدت بيت القرد.

«يا معدوم السَّاق! اخرج، تعالَ لتشرح لي».

كان يسكن منزلاً من التَّربة المدكوكة، بأبه يبدو موشكاً أنَّ ينقضَّ، لكنَّه ما يزالُ صامداً. وحين طرقت بابَه، كان جالساً عن مدخل الحجرة الرِّئيسة منهمكاً، يغلف بخرقَةٍ ناعمةٍ مقبضَ العصا الجديدة التي صنعها له النِّجار. بالكاد رَكَن العصا لصقَ عِصادة الباب، ووثب ليفتح لها:

«هذه أنت؟ لم تهو السَّماءُ، فلم يبدو عليك كلُّ هذا الغضب؟»

- هل صحيح أن رئيس الإقليم قد اختار ستّة وسبعين فرداً من القرية، وينوي أن يأخذهم معه ليقدموا عروضاً، طيلة النهار، في أنحاء العالم المختلفة؟

- نعم، ستّة وسبعون. يقول إن هذا يسمّى فرقة فنيّة.

نظرت إليه ماو تشي كأنها لم تره من قبل.

«وتجروؤ على أن تخفي عني الأمر؟».

أرجع إليها نظرتها بنظرة مماثلة: «لقد قال إنك لست إطاراً، وبالتالي لا حاجة إلى إخبارك بالأمر».

اختنقت:

«ربّما لستُ إطاراً، لكن سنرى هل يستطيع إبعادهم من طيبة بلا موافقة منّي!». .

القرد ضاحكاً: «وما الذي سيمنعه؟».

ماو تشي: «وأنت؟ هل ستذهب؟

- طبعاً! أنا نائب مدير الفرقة! فكيف لا أذهب؟

- فإن منعتك؟

- ماو تشي، لقد قال رئيس الإقليم إنك صرت عجوزاً طاعنة في السنّ، فما عدت تقدرين على تسيير شؤون القرية، ومن الآن عهد إليّ أنا بكلّ الأمور، من أهونها إلى أخطرها. يقول إنّه في غضون أيام، سوف يصنّف طيبة قرية إدارية، ويعيّني

رئيساً لها. إن كان لأحد أن يمنع الناس من الرحيل، فهو أنا!».

كانت تقف عند العتبة، ذاهلة تماماً. شمسُ نهاية الظهيرة الخانقة الحمراء قد صبغت شعرها الأشيب بطبقة معدنية. ذهبٌ تبدو منصهرة فيه، هيأتها متصلبة، وكذلك وجهها؛ متصلبة ومجمدة، تبدو مثل وتدٍ قد من حجرٍ وطينٍ، وتكفيه دفعة خفيفة لیسقط. وإذا رآها القردُ مصعوقة، قال لها مبتسماً ابتسامة طفل يريل: «أنت عجوزٌ يا ماو تشي، تشتغلين على ثياب كفنك. اترکيني أجرب أياماً. أوكد لك أن كل شيء سيسير على ما يرام، وسوف تعيش طيبة أياماً أجمل من أيام الحقول الفردوسية منذ ثمانمائة جيل خلت». ثم دار على عقبه، فدخل بيته، مغلقاً بابه في وجهها، وتركها هناك مثل شحاذة تتسول.

على القرية والجبل يسود هدوءٌ كأنها لا شيء يهتز.

صوت قفل الباب وهو يُغلق دوى كمتقاب في الشارع.

شاحبة من الرعب، هرعت فلين صائحة «جدتي!»، لكي تسند جدتها خشية أن تسقط مثل عود خشب نخره السوس.

بيد أن ماو تشي كانت صلبة، وظلت ثابتة كالشجرة واقفة على قدميها. تأملت دفعة الباب المصنوعة من خشب الصفصاف، ثم رفعت عكازها، وهوت عليها بالضرب حتى أحدثت فيها خرقاً، فصاحت من خلاله:

«أنت تحلم أيها القرد! كفّ عن الأوهام!».

ثمّ قلبت وجهها، واستندت إلى عكازها، وسلكت متأرجحةً الطريق إلى مركز القرية. كانت تتقدم بخطواتٍ أكبر، وصار عرجها أوضح ممّا كان عليه حينَ خروجها من منزلها، عصاها تنسحق على الأرض بصوتٍ ثقيل. كان يبدو كأنّها عرجها مجردُ خدعة، كأنّها لا تعرجُ وإنّما تتظاهر بالعرج، كأنّها تحاول أن تستغل إعاقته لتسيخ مكانتها، واعتراض سبيل كلّ من سوّلت له نفسه مغادرة طيبة. قصدت ماه الأصمّ. إنّ مشهد المفرقات الذي يقدّمه، يفترض أن يكون من الأحجار الأساس التي يقوم عليها صرْحُ العرض، فإن استطاعت ثنيّه عن الرّحيل، سوف تتقوّض دعامةٌ من دعائم الفرقة. وكان ماه، على وجه التّحديد، منخرطاً في توضيب أحذيته وجواربه، وبناطيله، وقمصانه، في حقيبة سفر. وكان اللّوح في حجم محساة، والذي يستعمله لحماية خدّه أثناء العرض، مكوناً لصق قائمة الطّاوله. دخلت، ووقفت خلفه، ثمّ صاحت: «ماه الأصمّ!».

سكنَ في مكانه.

«التفت إليّ!».

أرّخى إليها أذنه اليسرى، الأذن التي يسمع بها قليلاً.

«سوف تغادر مع الفرقة؟».

أجابها على عادته بصوتٍ عالٍ، إذ كان يخشى ألا يسمعه الآخرون:

«مقابل مئات الآلاف من الحيوانات، لا أرى سبباً لأرفض؟»

- سوف تندم.

- ما من سبب للندم. من ذا الذي قد يندم على حياةٍ أجهل من حياة الحقول الفردوسية في الأيام المستلقية؟ أولى له إذن أن يموت!

- أصغِ إليّ. لا تغادر مهما كانت المغريات.

وهذه المرّة صرخ في وجهها: «طيلة حياتي وأنا أتبعك، وما عرفتُ قطّ الحياة السعيدة! لا شيء إذن سيوقفني هذه المرّة!».

بعد ذلك قصدت ماو تشي منزل الأعور. كانت أمتعته جاهزة، وهو منهمكاً في قياس النعل الجديدة التي صنعتها له أمّه.

قالت له: «سوف تدخل الخيط في الإبر أمام الناس؟ سوف تذلل نفسك، تذلل عينك، وتفترط في ماء وجهك. ترقص لهم كالقرد.

- طيّب، لو بقيت في طيبة فلن يذلّني أحد، لكنني بلغت التاسعة والعشرين من عمري، وما وجدت لنفسني امرأة. هل ترين أنني أملك الخيار؟».

ذهبت ترى الشلاء:

«لا تقولي لي إنك ذاهبةٌ معهم؟»

- وهل تريدني أن أبقى هنا، لأموت جوعاً؟

- هل نسيت كيف خسرت ساقيك، وأتيت إلى طيبة؟

- كلا، ما زلت أذكر. وأذكر أيضاً أنني لن أرفض بعد الآن دعوةً من أحد من السُدة.

ذهبت إلى الصّغير بوليو.

قالت لوالديه: «هذا الطّفل لم يتجاوز بعد الثالثة عشرة من عمره.

فأجابها: - بعد سنواتٍ قليلة، لكن يكون بمقدوره أن يحشر قدمه في قارورة. إنّه لم يعد صغيراً، آن أو أن احتكاكه بالعالم.

- لا يمكن أن نعرض على الناس إعاقه طفل.

- ما الذي تريدن منّا أن نعرض إذن؟».

خرجت. كانت القرية تغرق في الهدوء أكثر فأكثر. والشمس الجانحةُ إلى الغرب تصبغ بالأحمر الأوراق الحديثة التي نمت في عزّ الحرارة الكبرى، وكانت الورقات تتلأأ. وكان المعبد يبدو، في غمرة هذا النور، جالساً مثل شيخ صموتٍ مرّ عليه الزمن، وكثرت عليه السنون، حتّى ما عاد يرى فائدةً في قول شيء، وصار يقنع من الحياة بالجلوس والنظر. أشجار السرو العالية تفرش بظلالها الشارع، فتصبغُ بعتمتها نصف ضيائه. خففت ماو تشي من سرعتها، لكنّها، وإن سارت بإيقاع أبطأ، فإنّ عرجها ما يزال بارزاً. الصفرة الباردة الكثيفة التي كانت، منذ وقتٍ يسير، تغرق ملامحها، قد خفت وبهتت، وأخذت تنقلبُ إلى رمادٍ عائم مرتبك. وصارت هي تعكز على عصاها سائرة بارتحاء كأنّها مُزقت أوتارها، تجر جر نفسها ببطء، وقد نزلت على جبينها خصلةٌ بيضاء. فلما بلغت مدخل المعبد، توقفت لبرهة وألقت نظرةً على الدّاخل قبل أن تحسم أمرها.

كان رئيس الإقليم يشرب الشاي، والسكرتير يطوي السراويل

والقمصان التي غسلها لرئيسه، لكي يضعها في الحقيبة. وكان ليو قد قال له: «سوف أهتم بها». لكن السكرتير أجابه: «كلاً، مستحيل! على أيّ حالٍ ملابسك نظيفة لدرجة أنها يمكن أن تستخدم لتبطين قدر البخار!» فتركه يغسلها، راضياً مرضياً. يغمره بنظرةٍ أشبه ما تكون بنظرة أبٍ يراقب ابنه الموشك على أن يكبر: بالطبع كان بإمكانه أن يساعده، كما بإمكانه أيضاً أن يكتفي بالمراقبة وإسداء النصائح، مريحاً مؤخرته على مقعده. ثم تذكر شيئاً. ألقى نظرةً إلى صورته المعلقة في الحائط، وقال لشي:

«ينبغي أن تنزع هذا، تعليقه غير صائب».

السكرتير: «لنتركه، إنه في مكانه المناسب».

رئيس الإقليم: «كما تشاء، لكن أنزله قليلاً، حتى لا أكون في مستواهم».

ارتقى السكرتير الطاولة الموضوعة أسفل صورة ليو، فأزاح البورتريه إلى الأسفل بمقدار نصف عصاً - بحيث صار رأس رئيس الإقليم عند مستوى كتف ماو تسي تونغ. قال: «هكذا أفضل». ثم أمره بعد أن راجع النظر: «ارفعها قليلاً بعد». اعتذر السكرتير، ورفع بورتريه رئيسه حتى حاذى رأسه منتصف رأس الرئيس، وثبته بدبابيس. إذّاك برزت ماو تسي في إطار الباب. لم تتحرك، ولم تنطق بكلمة، اكتفت بالنظر إليه، تزنه بعينٍ ما عاد يُقرأ فيها الازدراء الذي كانت تبديه منذ عشرة أيامٍ فوق الكثيب الثلج، ولا تلك السلطة التي تحوزها الأمّ إزاء طفلها. كانت تبدو بالأحرى مثل عجوزٍ بائسة، أتت

تسأل ابنها شيئاً، وتخشى أن يقابل سؤالها بالرّفص، أو حتّى أن يرفع ابنها يده في وجهها. متعبه، يلفّها الضيق، ويبدو للنّاظر إليها أنّها قد تسقط ما إن يُسحب منها عكازها. حدّق فيها رئيس الإقليم كما كان قد حدّق فيها خلال لقائهما الأخير، لم تكن نظرته تقطر إلّا غطرسة ونفاد صبر. جالساً، مسنداً مرفقه إلى الطاولة، وفي يده فنجان الشاي الذي ما عاد يشرب منه، لا ينطق بكلمة، ساكناً، نظرته ثابتة كأنّها لم يرها.

«تشكّل فرقةً من المعاقين؟»

- فرقةً فنيّة. سوف ننطلق غداً، نبدأ بعاصمة الإقليم، لقد ألصقت الإعلانات في كلّ مكان.

- أتسعى في خراب طيّبة؟».

ابتسم.

«عن أيّ خرابٍ تتحدّثين؟ سيبنني معاقوك منازل من قرميد، وسكون لديهم من النّقود ما لن يعرفوا وجهاً لصرفه، سيعيشون أياً ما فردوسيّة.

- تخلّ عن فكرة أخذهم، وسوف أركع لك».

ابتسم مرّة أخرى.

«لقد حصلت على ما أريد! وعلى أيّ حال، ما إن أجلب رفات لينين حتّى ينبطح أمامي كلّ من أصادفه في طريقي.

- فإن تركت سكّان القرية، علّقتُ صورتك في غرفتي الرّئيسة.

لم يسبق أن علّقت فيها أيّ صورة، ولن أضع فيها صورةً غير صورتك. وكلّ يومٍ أحرق لك البخور».

ابتسم مجدداً. لكنّ نبرته ظلّت على برودها: «كنت تريدان أن يحرقوا البخور كلّ يومٍ تكريماً لك، منذ اليوم الذي ضممتهم فيه إلى الكومونة (١). لكنك لم تعلمي، طيلة حياتك، إلا على تخيب أملهم. لم يعرفوا معك قطّ أياماً سعيدة. أمّا أنا، فلست مثلك، لست أسعى إلى أن أحصل على الشكر. لا يعني لي الصيْتُ شيئاً. يكفي أن يتذكّرني الناسُ. أعلم أنّك تستطيعين توقع الطّقس بدقّة، بواسطة قدمك. يمكنك إذن أن تقدّمي لنا فقرّةً في العرض: الأحوال الجويّة؟ تعالّ معنا وسوف أخصّك بأعلى راتب في الفرقة، سأزيدك عن راتبهم بمقدار النّصف، لا بل أعطيك الضّعف إن شئت».

لقد صار ينظر إليها الآن نظرته إلى صبيّة تحتاج النّصح، كأنها يظنّ أن كلماته ستؤثّر فيها مباشرة، وأنّه قادرٌ على جعلها تغيّر موقفها وتلتحق بصفّه. وجهه المتورّد يشعّ بالرّضا. لم تردّ عليه ماو تشي، ومن الطّريقة التي كانت تنظر بها إليه، كان يبدو كأنها قد صفعها، إذ مالت وجنتاها إلى حمرة قانية، يُستشفّ أنّها ترغب في أن تهزّ عكازها مثلما فعلت منذ عشرة أيّام، فترفعه ثمّ تضرب به، لكنّها لما عزمت على الانتقال إلى التّنفيد، خار جسدها حتّى قبل أن يفارق العكاز الأرض، وفجأةً، بغتةً، هوت مثل حزمة عشب. لم تسقط سقوط رافدةٍ تنهارُ دفعةً واحدةً، سقوطاً ثقيلاً، وإنّما سقطت سقوط حزمة عشب: هوت بوهنٍ، شبه مرفرفة. ولما صارت على الأرض، تلبّستها

التشنّجات، وأخذت تهز وجهها التقلّصات ويسيل الزّبد من جانبي شفتيها، وبدأت تبصق. وجعلت تبكي وتصرخ بصوتٍ متحشّرجٍ مطلقاً سيلاً من الشّتائم التي ما كان يفهمها غير سكّان طيّبة.

«أنا من أسأتُ إليهم! لقد ضممتهم! أنا من أسأتُ إلى أهل طيّبة! لقد ضممتهم!».

كان الأمر أشبه ما يكون بنوبة صرع. فلين التي شهدت سقوطها، أرادت في البداية أن تهرع إليها داخل الحجرة، لكن ما إن وضعت قدمها فيها حتّى تراجعَت إلى الخلف، وركضت إلى المنزل. كانت تصيح: «ماما! ماما! تعالِي بسرعة! جدّتي ليست على ما يرام! بسرعة! بسرعة! جدّتي ليست بخير!».

هرع القرويون إلى داخل المعبد. ومن جملة من هرعوا جُومي وبناتها. واهتزّت لزخم خطاهم طيّبةُ بأكملها.

الفصل الخامس

تعليقات: الضم

(١) - ضم - صيغة مختصرة، لا يستطيع فهمها إلا أهل طيبة، لأنها ترتبط بلحظة تاريخية خاصة بهم.

لنرجع بالأمور إلى مبتدأها، ونمضي إلى الوراء صُعداً، إلى بضعة عقود خلت، وتحديدًا سنة الثور، الموافقة لـ ١٩٤٩، السنة التي شهد العالم فيها أحداثاً جساماً. كانت ماو تشي آنذاك ما تزال شابةً، لا يتجاوز عمرها السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين، وعلى الرغم من أنها كانت منذ سنوات زوجة للحجّار، أي امرأة، فإنها لما لم ترزق بأطفال، فقد حافظ قوامها على رشاقتها ومرونته. والحق أنها كانت تعرج، لكن عرجها لم يكن قد بلغ بعد الدرجة التي بلغها اليوم، فإن مشّت ببطء، لا يلاحظ عرجها أحد. وقد صادفها الحجّار أثناء إحدى جولاته في جبال بالو، حيث كان يذهب لشحن حجارة المطاحن. لا أحد كان يعلم من أين أتت، ولا إلى أين تمضي، لكنها كانت تتصوّر جوعاً لدرجة أنها كانت نحيفة نحافة غُصين، ورأسها دائخ. وقد حملها على ظهره مسافة تفوق عشرين لي، وسقاها ماءً، وحساها حساءً، وبعد ذلك بيض سنوات صارت زوجته. وفي تلك الأيام كان الزواج من شابة أجنبية أمراً شائعاً، فلم يثر فعله استغراباً. ما كان مثيراً للدهشة بالمقابل، هو أنّ هذه المدعوة ماو تشي لا تشبه في شيء فلاحاً: على الرغم من أنها كانت تتشبه بالفلاحات من حيث الملبس، إلا أنها لم تكن تعرف، وهي ابنة السابعة عشرة، الخياطة ولا شغل الأرض؛

لكن بالمقابل كانت تعرف القراءة. وبما أنّ الحَجَّار كان قد أنقذ حياتها، وكان ما يزال أعزب على الرَّغم من أنّه بلغ من العمر ثلاثين سنةً وزادَ عليها سنةً، -مما يجعله تقريباً أكبر من ماو تشي بخمسة عشر عاماً-، فقد كان بإمكانه أن يتزوجها من فوره. لكنّه كان كبيراً، وهي صغيرة، فلم يرتبطا برابطة الزواج فوراً. عاشا معاً في بيته، كلّ في جهته، وافترقا في المضجع. وعلى الرَّغم من استقرارها في طيبة، كانت تُستشفُّ فيها الرَّغبةُ في الرَّحيل، في مغادرة جبال بالو. جسدها يسكن في القرية، وروحها تهيمُ في العالم الرَّحْب. وإن لم تكن قد جرّوت على الرَّحيل في نهاية المطاف، فإنّما مردّد ذلك، بحسب الرَّأي الشائع، إلى أنّ الحَجَّار كان يعاملها بإحسان. منذ طفولتها المبكرة وهي تقطع الكيلومترات والكيلومترات، بدايةً مع والدتها، ثمّ مع الجيش الأحمر بعد ذلك. أثناء المحاولة الخامسة لكسر التطويق، أتى الجنود بغتةً، ذات ليلة فاعتقلوا أمّها في المغارة حيث كانتا تنامان، ليسوقوها فجراً إلى ضفة نهر، فيرمونها بالرصاص مع محكومين آخرين. ثلاثة أيّام بعد ذلك علّمت أنّ الرّجل الذي أعدمهم هو أحد قادة التنظيم، ممّن تناديهُم هي «عمّي»، وأنّهم أعدموا بتهمة الخيانة: لقد فشل التنظيم في كسر التطويق، طيلة شهر، لأنّهم كانوا يتخابرون مع العدو. ولأنّها كانت ابنةً مُخبّرة، فقد ظلّت ثلاثة أيّام في المغارة لم تذق فيها لقمةً، لا أحد من «أعمامها» جرؤ على أن يعطيها ولو نصف إناء من الحساء. وفي اليوم الرَّابع، أخرجها رئيس الكتيبة من هناك. حمل إليها طعاماً، ثلاث بيضات مسلوقات، وأعلن أنّ أمّها لم تكن خائنة، وأنّ الخيانة صدرت عن أشخاص آخرين، كان مصيرهم أيضاً الرمي بالرصاص، وقد صارت الطّريق الآن سالكةً، تستطيع الفرقة أن تدفع العدو وتلتحق بجيش اللّجنة المركزيّة. سُمّيت أمّها، بعد وفاتها، شهيدةً ثورة، وصارت هي أصغر محاربة في الجيش الأحمر.

تبعّت الجيش حين غادر سيتشوان، وبعدها مرّ الزّمان، بين منعطفات وتقلّبات، وصارت هي كبيرة بما يكفي لتُشبه امرأة بالغّة، وقادرة على حمل بندقية، كان المقاتلون قد بلغوا الشّمال الغربيّ، وتشتّتوا بعد معركة صعبة. انطلق رفاقها، كلّ في طريقه، وفرت هي في اتّجاهٍ آخر. أثناء سنواتها تلك التي

قضتها مع فرقتها، كبرت وترعرعت وسط خوفٍ دائم؛ صوت البنادق التي قتلت أمها، ما انفك يعاودها في أحلامها. وإذا كانت تعيش في رعب لا علم لأحد به، فقد كانت تقول إنها سوف تغادر طيبة، لكنها ظلت مقيمة هناك، يوماً عن يوم، دون أن ينقطع حلمها في المغادرة. وكلما فضل لها قليل من الوقت، كانت تصعد الكتيب فتقصف بالأسئلة المارة الذين تُصادفهم فيه: كيف هو العالم في الأماكن الأخرى؟ هل ما تزال المعركة قائمة؟ هل دخل اليابانيون شانغدونغ أو خنان؟ وكان أغلب المارة عاجزين عن إجابتها، ثم انتهى بها المطاف إلى أن أدركت مدى عزلة بالو وانقطاعها عن العالم. إن بالو مثل شظية حجر منسية في قعر واد؛ مثل عشبة هيئة تثبت وسط غابة. إن المسافرين الذين يسلكون طريق الكتيب كانوا من سكان المنطقة، ويكادون يجهلون كل ما يحدث في العالم. مرت سنتان أو ثلاث على هذا النحو، كانت أخبار اليابانيين تُناقَل متضاربة، الإشاعات تتناسل، ولا شيء مؤكد؛ لا يقين. شيئاً فشيئاً فهم أهل طيبة أن ماو تشي قد زحفت مع الفرقة. طيب، لكن ذلك صار من الماضي. قلبها تملأه الجروح، وجسدها الندوب، وتعرج، وقد استقرت بينهم، وصار يشق عليها فراقهم، ولو في فكرها. إن تلك العزلة، وذاك الجهل المطبق بمصير الثورة، هما ما كان يمنحها، في آن، الرغبة بأن ترحل، والذريعة لأن تبقى. أولى لها أن تترك الزمن يمضي ويفعل فعله. في طيبة من الحقول ما يفوق الحاجة، والغذاء وافر، ومع الوقت ألفت الحياة هناك، وتعلّمت الخياطة والزراعة، صارت فلاحاً. وكانت أم الحجار، وقد سلخت من السنين ثلاثاً وسبعين، هي قيدومة القرية، الأعمى بمدخلها ومخارجها، بأصلها وفصلها، والحكايات تسيل من فمها تلقائياً. وكانت ماو تشي تقضي أيامها بقربها، وتناديها «جدتي». وحين كان يقترح عليها أهل القرية أن تنادي العجوز «أمي»، كانت العجوز تجيبهم أن الأمر لا يعنيههم، وأن الصبية أدري بما ينبغي أن تقوله. وذهب بعضهم إلى القول: «قولي لابنك أن يشاركها الفراش»، فكانت تحدق فيهم ببرود، قائلة: «إن لم تجد خيراً تقوله، فاصمت. إن شؤون القلب لا تينع في البطن».

ولم يكن القرويون يزدادون للعجوز إلا احتراماً.

ثم ذات شتاء، وقد اقتنع الجميع بأنّ ماو تشي والحجّار لن يكونا أبداً زوجاً وزوجته، ارتبطا. ولم يُعلم خبر ارتباطهما إلا لاحقاً. أثناء الشتاء المذكور، كانت الجدة قد رقدت في فراش المرض. ولما أن أحسّت بدنوّ ساعتها، فقد ضمّت الصبيّة إليها، وبكت، وحكت لها أشياء كثيرة. وكذلك بكت ماو تشي وحكت للجدة أشياء كثيرة. وحتى بعد مرور عشرات السّنوات، لم يُعرف ما قيل في تلك اللّيلة المعلومة، لكن في نهاية المطاف وافقت ماو تشي على الزّواج.

وما إن وافقت، حتّى رحلت الجدة مطمئنة.

وفي اللّيلة نفسها التي شهدت وفاة الجدة، شاركت هي الحجّار الفراش.

كانت هي في التاسعة عشرة من عمرها، وهو قد أناف على الخامسة والثلاثين.

وكذلك عاشا. حدّدا يوم الدّفن، ثم لم يعد بعدها يقصد الجبال. ظلّ في المنزل، يهتمّ بها، ليلَ نهار. يفلحان الأرض. وما زالت ماو تشي تستعلم من أخبار العالم الخارجيّ. ويوم علمت أنّ اليابانيين قد دخلوا تايودو، بهت وجهها. وحين زعموا أنّهم يغادرون المدن طلباً للطعام في القرى، وأنهم يوزعون الحلوى على الأطفال، أخذت بها الحيرة. وعلى الرّغم من أنّها واصلت بضراوة حبّ الاستطلاع والاستعلام عن أخبار الحروب والزّوايع، إلّا أنّها ما عادت البتّة تثير مسألة الرّحيل عن طيبة.

لقد صارت الآن فرداً من أفراد القرية. حين يحرث الحجّار الحقل تجرّ هي رسن الثور؛ وحين يحصد القمح، تتبعه وتلُمّ الحُزم. وحين تصيبه الحمّى، تعدّ له حساءً بالبصل والزنجبيل. كانا بالجملة يعيشان كما يعيش الآخرون الذين، وإن كانوا عُمياً أو صُمّاً، كانوا يزرعون ويحصدون، ويكثّون من الخريف إلى الصّيف. وحين ينتهي الموسم، يكونان قد حصّلا من الحبوب ما لا يدریان لإنفاقه وجهاً، ومن الخضر ما لا يقدران على استهلاكه وإن أرادا؛ كانا يعيشان في راحة وبحبوحة. لا يكثران لما يجري في أماكن أخرى، يبدو لهما كلّ ذلك بعيداً بألاف الكيلومترات. يحدث أن يأتي أحدهما أو الآخر بأخبار من البلدة

البعيدة عنهما بنحو بضع عشرات من الليّات، لكنّ طيّبة بالعموم كانت مقطوعة عن العالم.

وما زالت القرية تعيش، يوماً عن يوم، في عزلة مطبقة.

شهرأ بعد شهر، تمضي الشهور.

فصلٌ يتلو فصلاً: الربيع، والصّيف، فالخريف، ثمّ الشتاء.

بعد سنة الثور، ١٩٤٩، أتت سنة النمر، ١٩٥٠. وهو العام الثلاثون بحسب تقويم الجمهورية الصّينيّة. وكانت تلك هي السنّة التي عرفت فيها ماو تشي طريق السّوق. فلطالما كان التسوّق شغل الرّجال، خاصّة منهم النّاس-تأمّين، أولئك الذين ما كانوا يعانون عرجاً، ولا صمماً ولا عمى؛ كانوا يمضون حاملين على أكتافهم كلّ ما يرغب سكّان القرية في بيعه، ويعودون بالمشتريات المطلوبة.

لكن في فصل الخريف، والأرض قد غطّتها الأوراق الميتة، كانت ماو تشي قد قصدت الحقول تجتني ثمار الكاكي، فلمحت في البعيد رجلاً يتسلّق الجبل تابعاً الطّريق. ومن أعلى شجرة الكاكي التي كانت قد تسلّقتها، صاحت به:

«هه! ما الذي يجري في بقيّة العالم؟».

رفع الرّجل رأسه:

«ماذا تقصدين بالذي يجري؟»

- إلى أين وصل اليابانيون؟».

دهشاً أخبرها الرّجل بأنّ اليابانيّين قد عادوا إلى بلادهم منذ زمن بعيد. لقد استسلموا منذ خمس سنوات، شهر أغسطس ١٩٤٥، أي عام الديك. وقد سقطت حكومة تشانغ كاي تشيك، وانتظمت القرى والمدائر في تعاونيّات.

لم يكن الرّجل يتخيّل أنّ عباراته المبتذلة تلك يمكن أن تخلف هذا القدر من الدهشة والاضطراب الذين يراهما في وجه المرأة فوق الشّجرة، ولا كان ليخطر بباله أنّه شاهدٌ على صفحة تطوى من تاريخ قرية وفرد. استأنف المسافر

طريقه، ومن عليها تأملت المرأة العالم الشاسع الممتد إلى ما وراء الجبال. السحب البيضاء تطفو بخفة في صفحة السماء، والشمس صافية جداً، كأنما جليت، وفي نورها كانت الأرض وكائناتها العشرة آلاف، تكتسي تحولات وتلونات، ما عادت ماوتشي تميز وسطها حياة الرجل المرتدي بذلة الزعيم ماو. نزلت من الشجرة عائدة إلى منزلها.

في اليوم التالي، ما إن بدا الصبح حتى اتخذت طريق السوق. من طيبة إلى البلدة التي كانت تنسب إلى مقاطعة السرو، ما يربو عن مائة لي ذهاباً وإياباً. لذا استيقظت ما إن صاح الديك أول صيحة، ولما صاح ثانية انطلقت، فما كاد يصيح ثالثة حتى كانت قد قطعت نحو عشرة ليات وحيدة في الجبل. وعند الصيحة الرابعة نزلت.

ولما صار النهار مضياً بما يسمح لها بأن تنظر مسافة أمامها، وقع بصرها على مشهد غير متوقع. كانت ثمة قرية، وحقول، وفي قطعة عند جانب التل، مساحتها بضعة حقول، نحو عشرة رجال ونساء يزيلون الأعشاب الضارة. تقدمت في خط مستقيم، فجاوزت الحقل الأول، واخترقت الثاني. لم تستطع أن تسوعب الأمر: أي أسرة يوسعها أن تملك أرضاً بهذا الحجم، وأفراداً بهذا العدد؟ إن أكبر الحقول في طيبة، وهو الحقل الذي يملكه ماو الأصم، لا تتجاوز مساحته مائة موطناً. أما هذا فشاسع لدرجة أنه يغطي المنحدر كله! مساحته عدة موطناً على الأقل. ثم أي أسرة، مهما كثرت، يمكن أن تتوفر على عشرين فرداً في سن العمل؟ فإن أضفنا إليهم الشيوخ والأطفال، فلا بد أن تكون الأسرة عشيرة يفوق أفرادها الخمسين.

أيعقل أنهم غير متفرقين إلى أسر عديدة؟

وكيف يطبخون طعام خمسين فرداً؟

كيف يخطون ملابس خمسين فرداً؟

وكيف يأوون خمسين فرداً؟

ظلت هناك مسمرة في ضوء الشمس التي كانت تغمرها كماء.

الأرض المقلوبة حديثاً، كانت حمراء داكنةً ونديةً وناعمةً، كأنما صبَّت السماءُ عليها نَهْراً. عند حرفِ الحقل زُرعت لافِتةٌ خشبيةٌ كُتِبَ عليها: مجموعة التعاضد الثانية لقرية منحدر الصنوبر. لقد بلَّها المطرُ، وكسرتها الرياحُ، وانمحت حروفُها قليلاً، فلا بدَّ أنَّها هنا منذ سنتين على الأقلِّ. ما معنى «مجموعة تعاضد»؟ كانت تحدِّق ببلاهة في الكتابة، وإذا بشاب يخرج فجأةً من الأخدود الذي يحفُّ الحقل. سألتها: «هه! الإمَ تنظرين يا امرأة؟».

سألته عن معنى «مجموعة تعاضد».

فأصابته الدهشة: «تعرفين القراءة؟».

نظرت إليه نظرة استخفاف: «ولمَ يُفترضُ أنِّي لا أعرف؟»

- ولمَ لا تفهمين إذن ما تقرئين؟».

احمرَّت خجلاً.

«ليست لديكم في بلدكم مجموعات تعاضد، أو تعاونيات؟ مجموعة التعاضد هي المجموعة التي نضمُّ فيها الأسرَ التي تملك ثوراً مع تلك التي لا تملكه، وتلك التي تملك عمَّالاً أشدَّاء مع تلك التي أفرادها سقيمون، والأسر التي تملك أراضي كبيرة مع تلك التي لا تملك شيئاً، وتلك التي تملك المحراث مع تلك التي تملك المسلفة، فيزرع الجميع ويحصدون متعاضدين، ثمَّ نقسم الفلَّة. هكذا لا يظلُّ ثمة ملاكُ أرض ولا عمَّالُ فلاحونَ، ولن نشهد الفقراء يتاجرون في أطفالهم، كلُّ يوم جديد هو ملكٌ للمجتمع الجديد، والأرضُ أرضُ المجتمع الجديد». وبينما يتكلَّم الشابُّ، كان قد عدَّل حزام سرواله، ثمَّ حمل معزقته مجدداً، فوضعها على كتفه، وعاد إلى الحقل يقلِّبه مع الآخرين.

ظَلَّت ماو تشي هناك شاردة النَّظرة. لقد أضاعت لها تلك الكلمات أشياء كثيرة، كأنما فُتحت نافذة في غرفة مظلمة، فافتحمتها حزمة ضوء مفاجئة، فأضاعت أحلك الأركان في قلبها. تابعت الرَّجل يبتعد، وتأمَّلت أولئك النَّاس المنهمكين في العمل، يرفعون معازقهم ثمَّ يهوون بها، وأدركت بغتةً أنَّ أحداثاً

عظيمةً قد شهدها العالمُ. لكنَّ طَيِّبةَ كانت تعيش في جهلٍ من كلِّ ذلك. كأنَّما الأرضُ بأكملها تنعمُ بنور الشَّمسِ وضياء القمر، وتلك القريةُ وحدها ما تزال منذ سنينٍ وأجيالٍ غارقةً في الظَّلام، غارقةً في عزلةٍ لم يهبَّ عليها حتَّى خيالٌ من ريح. أخذت تتساءلُ لمَ لم يذكر النَّاسُ-تَامُونَ قطُّ أمرَ مجموعات التَّعاضد والتعاونيات، إثر عودتهم من السَّوق. ألم يروا شيئاً في طريقهم؟ أم تراهم رأوا، وصمتوا؟ أو علَّهم تحدَّثوا عن الأمر وسط ضجيج كبير، فلم يُنتبه لِكلامهم، أو ربَّما لم تكن هي حاضرةً في السَّاحة ساعة الغداء، حين ذكروا الأمر؟

إنَّ العالمَ مختلفٌ كثيراً.

تحت سمائه، تحرَّر النَّاسُ.

صارت بَكين عاصمةً للبلاد، ودعت السُّلطاتُ المركزيَّة الفلاحينَ في ربوع البلادِ إلى تشارك الأراضي، والعملُ فيها جماعةً. صارت الأراضي ملكاً للحكومة، وما عادت ملكاً مخصوصاً لأسرةٍ أو فردٍ، الحبوب التي تزرعونها وتحصدونها ملكٌ لكم، سوف تأكلونها، لكنَّ الأرضُ لم تعد أرضكم، لم تعد كالفراش الذي يأويكم. لقد عرف العالم انقلاباً كبيراً، وكذلك الكائن البشريُّ. رُتبت الأسرُ وفق تراتبٍ صارم: ثمة ملاك الأراضي، والفلاحون الأغنياء، والفلاحون الفقراء، والفلاحون المتوسِّطون. أمَّا في طَيِّبة، فلا أحد يعرف شيئاً من ذلك، لم يصل إلى القرية أدنى خبر.

عرف العالم أحداثاً عظيمة، وظلَّت طَيِّبة غفلاً عن كلِّ ذلك.

أكملت مسيرها بقلبٍ مثقلٍ: كانت تشعر بنفسها خارج العالم. ابتعدت عن القرية. وحين بلغت القرية التَّالية، كانت الشَّمس قد أتمت طلوعها، وفي الجوّ تطفو حرارةٌ عذبةٌ، ورأت أناساً عائدين من المنحدر خلف المنازل حاملين معاولَ وسلالاً. كانوا يسيرون باتِّجاه المساكن، وفي الاتِّجاه نفسه، على أعقابهم تقريباً، يسير فريقٌ آخرُ حاملين على أكتافهم معزقةً أو مجرقة، وسلالَ السَّماد. لا نحتاج أن نقول إنَّ الأمر يتعلَّق بمجموعة تعاضد، ذهبوا إلى العمل جماعةً، وها هم عائدون جماعةً. كانوا يبدوون مثل فرقةٍ عسكريَّة مظفِّرةٍ عائدةٍ من ساحة

الوغي، بغير تنظيم، حاملين على أكتافهم غنائمهم، ويفنون طيلة الطريق. كانوا يترنمون بلحن من أوبرا خنان. ومن غير حاجة إلى إدراك الكلام، كان واضحاً أنها أغنية مرحلة: كانت تسيل مثل الماء في هواء الصباح. من مرتفع على طريق التل تابعتهم ماو تشي، بنظرة تفيض إعجاباً، يعودون إلى منزلهم. لكن الإعجاب سرعان ما أخلى مكانه، رويداً رويداً، لإحساس آخر، إحساس منسي كان يقبع صامتاً في قلبها. وجع دفين. في قرية أخرى، شعارات عريضة كتبت بالجير الأبيض على الجدران، تمدح إنجازات التعاونيات ومجموعات التضامن. لا جديد، كانت تعرف تلك الشعارات منذ نحو عشر سنوات، لا بل وساهمت في كتابتها: شعارات تحض على الانقلاب على الطغاة المحليين، وتوزيع الأراضي، وأشياء من هذا القبيل. كانت الصباغة قد بهتت، لكن الحروف ما تزال تحتفظ بالألق الذي كان لها فيما مضى. ولمرأى تلك الشعارات رجف قلبها، كأنما هو ماء نبع أرضي حرر بفتة، فانبجس من الأرض برّاقاً مرقزقاً. نبع انفجر من طفولتها وسط صليل البنادق، وتحت المطر، في الجبال المثلجة، ومروج الشمال والجنوب، على أكتاف الرجال أو ظهور الأحصنة. كانت آنذاك يافعة، أرهقها التعب قبل الأوان، وغدت تصبو إلى الراحة؛ ولذلك حين انطلقت في مسيرها الفردي الذي قادها من المنحدرات إلى الأراضي الصفراء، من شانشي حتى غربي خنان، كانت قد اختلطت بكل جماعات المسافرين الذين صادفتهم، وهيأت نفسها لأن تتوقف عن المسير عند أول مأوى لاثق تصادفه. وهكذا، لفرط ما مشت ومشت، من قرية إلى أخرى بلغ بها المسير جبال بالو، وصادفت حجّاراً. وجدت طيبة. كانت القرية تبدو كأنما تنتظرها منذ مئات، بل آلاف السنين. ما إن رأتها القرية حتى استبقتها، كأنما هي إنما قطعت كل تلك المسافة من شانشي إلى خنان لأجل القرية؛ لقد صادفت القرية في اللحظة التي ما عادت تقوى فيها على السير أبعد.

وكان يكفيها أن تمضي بالقرية بضع سنين لتندمل جراحها. منذ اللحظة التي باحت فيها، ما طاب لها البوح، بين يدي أم الحجّار التي كانت على فراش الموت، منذ تلك اللحظة بدأت آلامها التي اعترفت بها تتلاشى. ولا أحد بعد ذلك

علمَ بما باحت به. من ذا الذي كان ليشكَّ في أنها، أيَّام كانت في الجيش، قد عرفت قائد فصيل من خوبي، كانت تعتبره بمثابة أخ أكبر لها؟ حين تلقَّت الفرقة العسكرية الأمرَ بأن تتفرَّق سرّاً، ولما كانا هما معاً من ذوي الإصابات الخفيفة، فقد سارا معاً؛ وحين صادفا العدو، اختبئا معاً في قبر. أمطرت السماءُ أيَّاماً بلا انقطاع، وكانت هي تتلظى بالحُمى، حتَّى انتهى بها المطافُ إلى فقدان الوعي. كم مضى عليها من الوقت قبل أن تصفو السماءُ، ويتوقَّف الفيضانُ، وتستعيد هي وعيها؟ الرَّجل الذي كانت تسمِّيه أخاها، لم يكن معها في القبر. لا بل إنَّ الوضع كان أبشع: حين استيقظت، انتبهت إلى أنَّ أسفل بطنها لزجٌ، وتفوحٌ منه رائحةٌ شبيهةٌ بتلك التي تفوح منه أيَّام حيضها. وكان يلزمها وقتٌ لتدرك أنَّها اهتُضَّت أثناءَ فقدانها الوعي. اغتصبها قائدُ الفصيل الذي كان يُعرِّضها. قضت يوماً بأكمله تبكي داخل القبر الفارغ، ثمَّ لما لم يرجع الرَّجلُ، ولا مرَّ أحدٌ بجانب الكتيب، فقد جرجرت جسدها التَّالفَ، حتَّى أخرجته من القبر.

سلكت طريق مسقط رأسها، وهي تعرج.

ثمَّ وقعت على الحجَّارِ، زوجها. وقعت على هذه القرية التي كانت تنتظرها منذ مئات السَّنين. فبقيت فيها، تستشفى، شيئاً فشيئاً، جراحها التي ما كانت تملك لها دموعاً.

اليوم قد اندملت جراحها، اكتمل نضجُها، وارتاحت من أوزارها. العالمُ تغيَّرَ، وينبغي أن تتحرَّك، ينبغي أن تفعل شيئاً لأجل طيِّبة، أن تحثَّ القرية على التَّحرُّك.

يفترض ألا تنسى أنَّها قد ذهبت إلى يانان. وقد عرفت هناك الثورة، وساهمت فيها بعض مساهمة. وحتَّى بعد مرور سنوات على ذلك، وحتَّى بعدما صارت زوجة حجَّار، وقرويةٌ نموذجيةٌ من قرويات طيِّبة، فإنَّها ما تزال في ركنٍ من أركان أعماقها متمرّدةٌ من متمرّدي الحمراء الرَّابعة (١) التي احتفظت بيزتها مطويةً ونظيفةً في قعر خزانة. إنَّها ما تزالُ شابةً، تفيضُ حيويّةً، فكيف لها أن تظلَّ مكتوفة اليدين؟

قالت لنفسها: سوف أقوم بالثورة، سوف أضُم طيبة إلى المجتمع.

تعليق

ضمّ يضمُّ: هو الفعل من الضمّ.

الفصل السابع

تعليقات: الحمراء الرابعة

(١)-الحمراء الرابعة- شأنها شأن عبارة «القيام بالضم»، توافق الحمراء الرابعة قطعة من القطع المؤلفة لحياة ماو تشي وقصتها. لأنها حاربت في سنواتها الأولى ضمن جيش الجبهة الرابعة، ومنذ خريف سنة الجرد، الموافقة لـ ١٩٣٦، وهي تحسّ نفسها مثل حجر تدحرج من الجبل، وغداً محكوماً بالانتظار صامتاً عند سفحه، عاجزاً إلى الأبد عن العودة إلى الأعالي. ومضى على انتظارها عشر سنين، عشر سنين انتقلت فيها من حال الصبيّة الصغيرة إلى حال المرأة المتزوجة، وصارت فرداً من سكّان طيبة، قرية المعاقين. لقد كفت، منذ أمد بعيد، عن تكون جنديّة حمراء، حتّى إنّ ذكريات تلك المرحلة قد بدأت تتلاشى عندها. على أنّها وإن صارت إلى التلاشي، فإنّها كانت ترقد مثل البذرة التي مدّت عروقها عميقاً.

سوف تقوم بالثورة. سوف تضمّ طيبة إلى عالم مجموعات التّعاوض والتعاونيات.

كان يفصل طيبة عن مقاطعة السّرو ما يفوق تسعة وستين لي، أي ما يقرب مائة وتسعة وثلاثين ذهاباً وإياباً. كلّ من خاضوا الرّحلة قبلها، كانوا ينطلقون صباحاً ويُقفلون في اليوم التّالي، بحيث يقضون اللّيلة هناك، ويرتاحون في الطّريق. أمّا ماو تشي فقد عادت في اللّيلة نفسها. وكان زوجها ينتظرها في ضوء القمر، عند مدخل القرية. وحين وصلت تقفّر كالطّيبة، استقبلها بالسّؤال

أين اختفت. إذ لما استيقظ فلم يجدها، قضى النهار يبحث عنها، وقسماً من الليل يرجو الخير. وقد لمحته هي من بعيد؛ لمحت زوجها، صاحبها الذي يكبرها بأربعة عشر عاماً. قالت له: «هل تعرف ما يفعلونه في الأماكن الأخرى، في القرى والمداشر؟ يشتركون في حقولهم، خمس أسر تشكل فريقاً، وثمان مجموعة، يتشاركون حتى الثور والمحراث، لا أسرة تملك إنشاً من أرض، ولا حتى فرد يملكه، بالمعنى الفعلي لكلمة ملكية، حين يفرغ الناس من طعامهم، يدق الناقوس فينطلقون للعمل جماعة ضاحكين متمازحين، يزرعون معاً، ويحصدون معاً. فإن كانوا في حقول نائية، يعود أحدهم إلى القرية لجلب الماء للجميع، يضيف إلى الماء أوراق البامبو وجذور القصب كي يحارب الاحترار، وحين يشرب منه المزارعون ينطلقون إلى الغناء، يغنون مادريغالات من سيانغ فو ومقاطع من أوبرا خان. قل لي، ألم تر كل ذلك في طريقك إلى السوق؟ ألم تر أو تسمع شيئاً؟».

ومن غير أن تنتظر جواباً، تقدمت إليه لتمسك يده. قالت وهي تريح عجيزتها على صخرة بجانبه، «أنا منهكة من التعب. قطعت خلال النهار أكثر من مائة لي، وقد تشققت رجلاي ودملتا. احملني. فأولى لي أن أموت على أن أمشي حتى المنزل». وكانت قد مرت مدة طويلة مُدّ بدأ يتشارك الفراش. لكن، لنصدق القول، إنها المرة الأولى التي يراها فيها على هذا الفيض من الطاقة. وحين قام عن الصخرة التي كان يجلس عليها، وحاول الإمساك بيدها ليسندها، كما تُسندُ الشلأ، انهارت عليه... حملها بين ذراعيه، وسار بها إلى المنزل تحت ضوء القمر. سخن ماءً، فغسل به قدميها، مدلكاً برفق مشطهما وأصابعهما. فقأ الدَّمامل. سألها: «هل ذهبت إلى السوق كي تراقبي الناس يعملون جماعة؟» أجابته: «لقد تغير العالم، لو تعلم. خمن من صار اليوم يحكم الكون؟» وكان يجهل الجواب، فأجابت عنه: «الحزب الشيوعي. وهل تعرف ماذا تُسمى الزراعة جماعة؟» وكان يجهل الجواب. «هل تعرف ماذا تسمى هذا النوع من العمل الأسر التي تمارسه؟» وكان يجهل الجواب أيضاً. شعرت بشيء من الخيبة؛ لكنها خيبة مُحفزة، فصاحت: «لست وحدك من تجهل ذلك. أراهنك

على أن لا أحد في طيبة يعرف! لقد صرنا اليوم أحراراً الحزب والرئيس ماو هم من يحكم. الأسر التي تتحد لتعمل جماعة تسمى مجموعات تعاضد: ويسمى اتحاد مجموعات التعاضد تعاونية». قالت: «يا حجار! أريد أن أنظمن! أقصد نحن، أهل طيبة، أن نضمنا في إطار تعاونية، أن أجعل الأسر جميعاً تزرع وتحصد جماعة، أن نتقاسم الحبوب!» سوف تعلق في الشجرة، عند مدخل القرية، نافوساً، حين تقررعه يترك القرويون أوانيهم وعصيهم، ويقصدون الحقول، وفي الزوال تصيح بهم عند حَرَف الحقل، فيوقفون العمل ليتغذوا في عين المكان. قالت: «في المدن يتوفر الناس على ماء الصنبور، يكفيهم أن يديروه ليسيل الماء من تلقاء نفسه في الرجل، أو الدلو، أو الغسالة، أما نحن فمجبرون على أن ننزل كل يوم إلى الوادي لنستسقي». قالت: «قيل لي إنهم في تجودو قد بدؤوا يتوفرون على مصابيح تضيء بلا غاز، يعلقون رباط حذاء بجانب الباب، وحين يدخل الواحد منهم يسحب الرباط فيضيء المكان، يضيء لامعاً مثلاً يحدث حين نخرج من بيوتنا في عزّ النهار». قالت: «احملني إلى السرير، سوف نفعل ما تريد، أنا امرأتك، وأنت زوجي، فافعل ما يحلو لك!» قالت: «سوف أدمج طيبة في المجتمع؛ سوف يعيش السكان أياماً فردوسية؛ سوف أنجب لك أولاداً وبناتاً، سوف تكون لنا حضنة بحق!» قالت: «يجب أن يحصل الجميع على ما يفوق حاجتهم من الطعام، وملابس أكثر من اللازم؛ ينبغي أن يستضيئوا بلا زيت، وألا يحتاجوا إلى طحن الطحين ليأكلوا، ولا أن يحملوا النير، ولا أن ينتقلوا في عربات تجرها الثيران، أريدهم أن يعيشوا خير عيشة». لم يسبق للحجار أن آسَ فيها هذا الفيض من الحماس؛ فيما قبل، لما كانت تبدي عدم الرغبة، لم يكن يجرؤ حتى على لمسها. لكنه استطاع تلك الليلة أن يدقها ويطرقها مثل أحجار المطاحن التي يشحذها؛ كان جسدها تحت جسده ليئناً طائماً كالطين الساخن. وحين صارت في حال طيبة، سألتها لاهتة تطمئن عما إذا كان هو أيضاً قد أصاب الحال الطيبة.

وقد أصابها.

قالت: «حين نتمّ الضم، سأجعلك في حال طيبة كل ليلة».

هو: «ومتى نتمّه؟».

هي: «غداً، نجتمع، ونتضام».

هو: «هل تعتقدين أنّ الكلام كافٍ لتحقيق ذلك؟ ليس في طيبة سدة. لو كان لنا حاكمٌ، فيكفي أن نجتمع، فيصيح الحاكم بالجميع، ويكون الأمر قد قُضي. لكن ما دام ليس فوقهم سدة، فكيف لنا أن نجبرهم على القبول إن أبدوا الرّفض؟».

صمتت ماو تشي.

في نهاية المطاف، ليست طيبة إلاّ مدشراً منسياً في أقاصي جبال بالو، نقطة عند تقاطع ثلاث مقاطعات، ويفصله عن أقرب قرية ما لا يقل عن عشرة ليّات. ومنذ أن تأسست على يد سلالة مينغ لم يسكنها إلاّ العميان والعرجان، والصّم البكم. ومن يولد من الأولاد غير ذا علّة، يذهب للعيش عند أسرة زوجته حين يبلغ سنّ الزّواج، وحتى الصّبايا السّليمات كنّ يتزوّجن من رجال خارج القرية. يفرّ إلى القرية المعاقون من كلّ حدب وصوب، ويفرّ منها النّاس-تأمون. مرّت قرونٌ، وما رغب أحدٌ إلى اليوم، لا إقليم ولا مقاطعة، في أن يدخلها ضمن نفوذه.

انساب الزّمان، من حكم مينغ إلى حكم كينغ، سنة في إثر سنة، جيلاً خلف جيل، حكم كانغشي، ويونغ زينغ، فتشانغ لونغ والإمبراطورة تسيشي، ثمّ أتى الدّور على الجمهورية الصّينيّة التي تأسست في أعقاب ثورة ١٩١١... ولم يسبق لطيبة قطّ أن دفعت الضريبة الإمبراطورية لأيّ بلاط، أو إقليم أو مقاطعة أو عمالة أو دائرة. من المناطق الإدارية، أو الحصون، أو القرى الكبرى الملحقة بالدوائر الحكومية الثلاث المحيطة -دايووغاوليو وشوانهواي، لم يسبق أن أتى من يجبي الضرائب.

طيبة مكانٌ مقطوعٌ عن العالم.

تلك اللّيلة ظلّت ماو تشي جالسةً للحظة على سريرها، مضطربةً.

ثم بغتة قامت فارتدت ملابسها.

سألها الحَجَّارُ: «ماذا تفعلين؟»

- أنا ذاهبة إلى غاوليو، هل ترافقني؟

- وماذا ستفعلين هناك؟

- سأرى أصحاب السُدة».

عُجن العجين. أوقدت النار. وُضعت القصديرُ على النار. ثم طُهِيت خمسة أرغفة ذرة بالزيت، وقبل أن تشرق السماءُ كانا قد انطلقا باتجاه عاصمة الإقليم.

كانت تفصل طيبة عن غاوليو ثلاثمائة وتسعة لي. نهاراً كانا يستغلان ضوء الشمس ليتقدما في المسير، ملتقطين الأخبار هنا وهناك، فلما يجن الليل كانا يرقدان ويرتاحان، يصيبهما الجوع فيأكلان، ويعطشان فيشربان، فإن مستههما الحاجة شحذ الحَجَّارُ مطحنة. إلى أن بلغا مقصدهما بعد خمسة وعشرين يوماً. لم تكن شوارع المدينة تتعدى شارعين، ينتصب عن ملتقاهما المبنى الإداري. بعدما كان يحمل اسم يامن نهاية حكم كينغ، ومحافظة زمن الجمهورية الصينية، قد صار يسمى اليوم حكومة الإقليم. جلس الحَجَّارُ على الدراجات التي تُقضي إلى الحديقة، ودخلت ماو تشي إلى الباحة الثانية، فصادت رئيس الإقليم الذي كان يتأهب للذهاب إلى البادية دافعاً سَيْكَلَهُ (١). بينت له أنها قادمة من طيبة في جبال بالو. «لقد تحرر العالم كافة، وفي كل مكان أُسست التعاونيات، لم إذن نواصل، في قريتنا نحن، العمل فرادي؟ لم لم يأت أحد ليضمنا إلى الشيوعية؟».

ذهل رئيس الإقليم، فأدخلها إلى مكتبه، وسألها شتى الأسئلة، ثم صرف وقتاً طويلاً يفتش في خريطة معلقة على الحائط. في مكان من الضواحي وجد عدداً من الأسماء التي عدّتها له ماو تشي، ولم تكن بينها طيبة. وفي نهاية المطاف خرج، وتبادل كلمات مع شخص ما في الحجرة المجاورة، ثم عاد ليعلن

عليها بعباراتٍ رسمية: «لقد أخطئتِ التقدير، فبحسب السجلِّ العقاري لا بدُّ أنكم محسوبون على دايو. هم من نسوا ضمكم، إنَّ رئيسهم لا تنقصه الوقاحة».

إلى رحلة أخرى إذن. شهراً بعد ذلك بلغا عاصمة دايو. لقد اتخذت حكومة الإقليم مقراً لها منزلاً سابقاً لأحد ملّك الأراضي؛ ورئيس الإقليم، أحد أبناء المنطقة، بالكاد يفوق رئيس غاوليو عمراً، كان يعرف بالاسم كلَّ المداشر والقرى الواقعة تحت إدارته. وأدرك ما عليه قوله حتّى قبل أن تنتهي ماو تشي من عرض قضيتها. قال: «اللّعة، أيّ صفاقة هذه التي يتّصف بها رئيسكم في شوانهواي؛ كيف له أن ينسى قريةً واقعةً ضمن حدود نفوذه! في كلّ مكان انضمّ النَّاسُ في تعاونيات، وأهملكم أنتم تشتغلون فرادى، كلّ لحسابه! لقد أهملكم، لا يدري حتّى تحت أيّ نفوذٍ إداريّ تقعون». ودون أن يكفّ عن السّباب، بسط على الطاولة خريطةً لإقليمه، كي يُري ماو تشي؛ وبعدما قاس القياسات بمسطرة، رسم نقطةً على الورقة خارج الحدود. «انظري: إنّ جبال بالوهنا، وطيبة هنا. بين قريتك وقرية الزنزلخت الأحمر، الواقعة ضمن حدودنا، خمسُ بوصاتٍ وثلاثة أعشار بوصة؛ ومن قريتك إلى قرية السّرو، الواقعة في إقليم شوانهواي ثلاث بوصاتٍ وثلاثة أعشار بوصة؛ على من ستحسبون إذن إن لم تُحسبوا على شوانهواي؟».

ثمّ وصلا أخيراً إلى شوانهواي، بعد خمسة عشر يوماً. وكان يانغ، رئيس الإقليم، غائباً لمشاركته في اجتماع حول التعاونيات ومجموعات التّعاوض، فكانا مضطّرين إلى الانتظار في طاحونةً قرب باب المبنى الإداريّ. وصل الرّئيسُ راكباً بغله، وكان الفصلُ صيفاً، والجوّ حارّاً حتّى إنّ العالم يكاد يغلي. لكنّ لما كان يانغ جندياً سابقاً، فقد عاد إلى شوانهواي على ظهر دابّته، وما إن دخل مكتبه حتّى أتاه سكرتيه - وكان شاباً ضئيل الجسم اسمه ليو-، فصبّ له الماء، وأعطاه تقريراً بما حدث في غيابه. ومن جملة ما تضمّنه التّقرير، وجود امرأة تدعى ماو تشي في الطّاحونة. المرأة تجهل أيّ مقاطعة، وأي إقليم، تخضع لهما قريتها، لكنّ النَّاسَ هناك ما يزلون يشتغلون فرادى، كلّ لحسابه، ومنذ أجيال ما دفعوا ضريبةً ولا مكساً، ويجهلون معنى مالك أرض، أو فلاح غنيّ أو عامل زراعيّ. كان

السَّكْرَتِير يعرض الأمور ببالغ الجدِّية، ورئيَّسُهُ يصفي إليه بهدوءٍ ولا مبالاة من هو على علمٍ مسبقٍ بما يقالُ له.

قال: «ادخلها عليَّ».

ودخلت عليه تقطُرُ عرقاً. كان المكتبُ مؤثثاً بطاولةٍ، وكنبةً كبيرةً عتيقةً الطراز، ومزِيناً بصورةٍ للرئيس ماو معلقةً على الحائط، وبجانبِ الصُّورة عُلِّقت بندقيَّةٌ في غمدها. وحين دخلت كان يانغ يفسل وجهه بالماء البارد، علَّق المنشفة على عارضةٍ من خشب الصَّنوبر أعدَّت لذلك الغرض، والتفت إليها: «كم عدد العميان في قريتك؟

- العميانُ تماماً؟ ليس بالكثير، خمسةٌ أو ستةٌ».

يانغ: «والعرجان».

ماو تشي: «أيضاً، ليسوا بالكثير، نحو عشرةٍ، وكلَّهم قادرٌ على أن يزرع ويحصد».

يانغ: «وعددُ الصَّمِّ البكم؟».

ماو تشي: «تسعُ أسِرٍ من الصَّمِّ، وسبعُ من البكم».

يانغ: «كلَّهم بالوراثة؟».

ماو تشي: «باستثناء أولئك الذين نزلوا علينا هروباً من المجاعة منذ بضع سنواتٍ، قالوا ما دام الجميع في طَيِّبة معاقون، فلن يضطهدوهم، وكان أن بقوا».

يانغ: «باختصارٍ، كم نسبة المعاقين بينكم؟».

ماو تشي: «لنقلُ الثلثين».

يانغ: «لقد التقيت رئيسَ إقليم غاوليو، ورئيسَ إقليم دايو في مبنى المحافظة. بحق الشَّيطان، أيُّ محتالين هم! رئيس غاوليو يدَّعي أنَّ قريتكم طَيِّبة لا يفصلها عن قريتنا السُّرو إلا مائة وثلاثة وعشرون لي، بينما تفصلها

عن قريتهم الرّززلخت الأحمر مائة وثلاثة وستون لي. لكن الواقع أنّ قريّتكم لا تبعد إلا بنحو ثلاثة وتسعين لي عن وادي الماهوجيني الواقع تحت نفوذها المسافّة إذن أقلّ بواحد وثلاثين لي! أمّا رئيس دايو، عاصمة الإقليم، فالحقّ أنّه بعيدٌ، لكن في السّنة الحادية عشرة للجمهورية، أي ١٩٢٢، سنة الكلب، حين ضرب خنان القحطُ العظيمُ، في الشهر الخامس، وكان النّاسُ يموتون جوعاً، فقد أتاكم إقليمه يطلبُ المساعدة لأنّ واديكم كان من المناطق القليلة، في جبال بالو، التي ما تزال فيها حبوب. رأيْتِ إذن: من وجهة النّظر الجغرافية فإنّ طيّبة أقرب إلى وادي الماهوجيني الواقع ضمن نطاق إقليم غاوليو، منطقياً إذن ينبغي أن تُحسبوا عليهم؛ أمّا من وجهة النّظر التّاريخية، فما دامت دايو قد سبق لها أن صادرتكم المؤنّ، فيمكن أيضاً أن تحسّبوا عليها. لكنّهما يستميتان في إلحاقكم بنا، رغم أنّ لا علاقة تجمعكم بنا».

كانت الشّمسُ قد بلغت ذروتها، وفي الباحة تحني أشجارُ الصّفيراء رؤوسها، والسكرتير يسقيها. التفت رئيس الإقليم شطر الباب لينادي عليه: «أعلمهم في المطعم بأنّ معنا شخصين إضافيّين على الغداء. لينعم ضيفانا على الأقلّ بوجبة طيّبة!».

في تلك اللّحظة تأمّلته ماو تشي مطوّلاً، ثمّ قامت بفتّة، وقالت له: «سيّدي رئيس الإقليم، أنت تعمل لحساب الثّورة وأنا كذلك. لأجلها يقوم كلانا بما يقوم به. أرغب في أن أسألك سؤالاً».

دهشاً قليلاً، هزّ رأسه.

«واذن يا سيّدي رئيس الإقليم، هل نحن في طيّبة محسوبون على الأراضي الصّينيّة أم لا؟

أجابه: طبعاً محسوبون.

- هل نحن من سكّان خنان، نعم أم لا؟

- نعم.

- ضمن القسم الذي عاصمته جيودو؟

- لا أحد يدّعي خلاف ذلك.

- لم إذن لا أحد يريدنا، لا في شوانهواي، ولا في غاوليو، ولا في داويو؟ ألا

تخشوا أن أشكوكم إلى المحافظ؟.

ذهل الرّجل: فلاّحة، تتعكّز عصاً، تحدّثه هو، على هذا النّحو؟ ألقى نظرةً إلى السّلاح الملقّ على الحائط، ثمّ كشّر وأجابها: «حسناً، اذهبي، فاشكيني عند سكرتير الخليّة يا ملعونة! أنا من كفله حين التحق بالحزب في يانان». أخذ يحدّق فيها، ببرودٍ قاتلٍ كأنّما يرغب في أن يفترسها حيّةً.

لم يثر فيها كلامه أيّ خوف؛ صمتت برهةً قبل أن تجيبه: «سيّدي رئيس الإقليم، شاركت في يانان، وأنا كذلك. ولو لم يتمّ تسريحُ نساء فرقتي خريفَ ٣٦، ما كنتَ لتراني اليومَ هنا أتوسّلُ إليك». قالت تلك الكلمات من دون أن تحيد ببصرها عنه، وكانت تبدو متأهّبةً إلى أن تدور على عقبيها وتنصرف، عند أدنى نظرةٍ برودٍ يرميها بها. لكنّه بدلاً من أن يرميها بنظرته الباردة، أخذ يمتنع. كان ينظر إليها بملامح غير مصدّقة، كأنّما يشكّ فيما سمعه، أو للتوّ عرفها. تجشّأ: «في أيّ جيش خدمت؟ هل حقاً كنت هناك؟

- لا تصدّقني، أليس كذلك؟» دارت على عقبيها، وخرجت من المكتب تتأرجح في مشيها، فقصدت الطّاخونة، وهناك طلبت من الحجّار أن يعطيها صرّتها، وعادت بها إلى الرّئيس. وضعت الصّرة على المكتب، وفكّتها، فأخرجت منها حذاءً وضعته في ركن، ثمّ رزمة قطنٍ أبيض محكمة الرّزم. فتحتها فأخرجت منها بزّة عسكرية صفراء باهتة، ونشرتها. على سترة البزّة، من جهة الكتف، قماشٌ مختلف، نسيجٌ سميك مصبوغٌ بالألّة. وتحتها سروالٌ عسكريٌّ حقيقيٌّ، مثنيٌ بعناية، وقد اصفر وبهت هو أيضاً. وكان الصّوف عند الحواف قد ثقب بعض الشّيء: كان بيتاً بنفسه أن الزيّ قد تقادم به العهد. وبعدها بسطت البزّة على الطّاولة، مع ما تبقى من محتويات رزمتها، تراجعت إلى الخلف نصفَ خطوة.

«لقد دفعت الثمن غالياً، في سنة ١٩٣٦. أتظنّ أنني كنت لأقف هنا اليوم أتوسّل إليك، لولا أنّ الحمراء الرابعة قد سُرحَت؟».

تورّد وجه رئيس الإقليم. نظر إلى البزة، ثمّ إلى ماو تشي، ثمّ البزة، ثمّ ماو تشي. ثمّ أخيراً، رفع رأسه ليصيح باتجاه الباب:

«ليوا أبلغ المطعم أنّه يلزمنا أطباق إضافية، وقتينة جيّدة!».

نهاية الشهر الخامس بحسب التقويم القمريّ، عادت ماو تشي والحجّار إلى طيّبة رفقة سكرتير رئيس الحزب، ورئيس مقاطعة السّرو، وفردين من ميليشيا^[١] المقاطعة المذكورة. كانا مسلّحين، وأطلقا طلقتين عند مدخل القرية، فاجتمع كلّ السّكان، عميّ، وصمّ وعرجّ، عند السّاحة المركزية، حيث عُقد أوّل اجتماع شعبيّ في تاريخ القرية. لقد صاروا الآن رسمياً تابعين لمقاطعة السّرو ضمن إقليم شوانهواي. ودائماً، تحت دويّ البندقية، أسّست مجموعات التّعاضد والتّعاونيات. سوف يعيش السّكان أياماً فردوسية (٣).

[١] كلمة ميليشيا هنا تتخذ معنى خاصاً، يرتبط بدول المعسكر الاشتراكي سابقاً، وهي قوات أمن غير نظامية، لكنّها تابعة للنّظام، تشتغل بالعادة اشتغالاً ظرفياً أو موسمياً، وتظلّ تحت تصرّف النّظام.

الفصل التاسع

تعليقات: الأيام الفردوسية

(١) - السَيْكَل، إسم مؤنث - درّاجة. يعود الاسم إلى زمن ظهور وسيلة النقل المذكورة، غربيّ خنان وفي سلسلة جبال بالو. تحوّل الاسم بعدها إلى بسكليّة؛ ولم يتحوّل إلى بايك إلّا زمن استئصال «البوائد الأربعة» أيّام الثورة الثقافيّة^(١). وإلى اليوم ما يزال النّاس المسنّون يسمّون الدّراجة سيكل أو بسكليّة.

(٣) - الأيام الفردوسية - هي الأيام التي تلت تأسيس مجموعة التّعاقد، خريف سنة ١٩٥٠، وخلالها اشتغل أهل طيّبة بنظام جماعيّ شديد الخصوصية. جمّعت الحقول، وصودرت، الثيران والعربات والمحارث والمعاول والمساحي. بالطّبع شرع في الاحتجاج والشّكوى كلّ من صودر منه بهيمة أو عربة أو محراث، لكن ما إن أطلقت في الهواء بضع طلقات من البنادق، حتّى هدأ الجميع، وسلّموا طائعين البهيمّة والمحراث والعربة والمسحاة.

على أيّ حال، أُسست المجموعة. بقيّ رئيس المقاطعة وفردا المليشيا ثلاثة أيّام في القرية، ثمّ انصرفوا آخذين بندقيّة وتاركين بندقيّة. تركوها لما وتشى.

[١] في إطار الثورة الثقافيّة ببلاد الصّين، كان السّعي إلى استئصال ما يعرف بـ«البوائد الأربعة» الأمور الأربعة المنتمية إلى الزّمن البائد (الأفكار البائدة/ الثقافة البائدة/ العادات البائدة/ التقاليد البائدة).

كانت هي قد خدمت في الجيش، وحاربت. وكانت تفوق خبرةً إطاراً من الأطر المحليّة، ولها تقريباً مستوى رئيس مقاطعة.

منذ طفولتها كانت ثوريّة. لذا فإنّ السّلطة حقّها.

ثمّ علّق الجرس في مركز القرية، وصار القرويون يجتمعون، كلّما قرعته ماو تشي، فيتخذون جماعة طريق الحقول. فإن قالت سنعزق الأرض في الجبل الشرقيّ، عزقوا الأرض في الجبل الشرقيّ؛ وإن أرادت أن يذرى السّماذ غرباً، ذرّ السّماذ غرباً. كان الأمر حقاً جيّداً، في ابتدائه: منذ الأزل وكلّ واحد يشغل وحيداً في ركنه، فهذا يحرث، وذاك يبذر، بعضهم عند قمة التلّ، وآخرون في قعر الوادي، ولأدنى سبب يضطرّ المرء إلى الصّراخ حتّى تتمزّق رثتاه. ثمّ، هبّ أن أعرج أراد أن يحمل سلّة إلى أصمّ: سدى سيكون الصّراخ عليه، ولا مندوحة له عن أن يصعد متأرجحاً، وينزل كذلك. أمّا وقد أسست مجموعة التّعاوض، فلا حاجة بعدُ إلى ذلك: ماو تشي تقرع الجرس، وتأمّر بأن تحمل المعاول - فيحمل كلّ واحد معوله على كتفه، وإلى الطّريق. وهذا كلّ ما في الأمر. تطلبُ منك سلّة، فتأتي حاملاً سلّتك. وهذا كلّ ما في الأمر.

لم يعد أحدٌ يعمل منعزلاً في قطعة أرضه، حتّى أقلّ أهل طيبة حبّاً للثّروة صار يعلم فائدة الأذنين.

وفي طريق العودة، سواءً كنت تفضّل مادريغال بالو أو مادريغال يانغفو، الأوبرا أو أغاني بانغزي، بوسعك أن تغني من غير أن تخشى ضياع موهبتك وحبالك الصّوتية، لانعدام المستمعين.

ثمّ انقضى الشّتاء، وحلّ الرّبيع، وكان الجرس يقرع منادياً إلى العمل الرّجال والنّساء، الشّباب والشّيب. وباستثناء العُمى والشّلّ ذهب الجميع ينقون حقول القمح من الأعشاب الضّارة. بدؤوا بالقطعة الأرضيّة الأشدّ شساعةً، شرق القرية، وهي نحو عشرة مومعلّقة بشكل مائل، مثل قطعة من السّماء ضائعة على جناح الجبل. بغضّ النّظر عن السنّ، أو الجنس، وسواءً كان الواحد أخرس أو أصمّ أو أعرج أو كانت إحدى ساقيه أطول من الأخرى، فلا بدّ له من أن

يشارك في تقية الحقل ما دام يستطيع حمل معزقة. كانوا ينفون على العشرة، يتقدمون في صفٍ مرصوص، وينزلون على الأرض بضربات قويّة يهتز لها التلّ. وكانت ماو تشي قد طلبت إلى شلاء -ممن لا يستطيعون بالطّبع أن يحملوا معزقةً أو ينقّوا حقلاً- أن ترافقهم وتغنّي لهم عند حرف الحقل. وكانت تعرف كذلك أعمى من العميان الذين ما رأوا في حياتهم لون السّماء ولا لون الأرض، لكنّهم لفرط ما يسمعون أغاني الآخرين، ينتهي بهم المطاف إلى حفظها. طلبت منه أن يردّ على الشّلاء:

الأعمى:

عندي من حزم القمح واحدة وعشرون
ويبدّر ويبتّ من الحقلٍ أرحب
بصلّ وثومّ وتينّ وزيتونّ
ووا أسفاً، ما زلتُ أعزّب!

الشّلاء:

حتّى المنخارُ الواحدُ له فتحتان
فلمّ أنا ما زلتُ عزباء؟
عندي بغلّ وعربةٌ وحصانان
لكنني وحيدةٌ، مفردةٌ، عزلاء!

الأعمى:

رجلٌ بلا امرأة، هو كالحصان بلا لجام
إلى الوحش المنبوذ هو أقرب
الشمسُ تغربُ وعلى العالم ينسدُّ الظلامُ
فمن يأوي بيته هذا الأعزّب؟

الشَّلَاءُ:

موقدي يغلي، وقد كنستُ البَاحَةَ
متعبة، مرهقة، من الكدِّ يا عزباءُ
القمر يطلع ونوره يغمر السَّاحَةَ،
وأنت وحدك تضاجعين السَّرِيرَ الخلاءُ!

الرَّيْحُ تهزُّ بابي والجرَّة والنَّافذة البيضاءُ
وأنا لا شيء يهزُّني في هذا الحبسِ
إوْزَةٌ ضائعةٌ باتت وحيدةً في الخلاءِ
هل رأيتم بؤساً أعظم من هذا البؤسِ؟

الأعمى:

الوادي يغمره نور الشمسِ
ولا حضنَ زوجةٍ ألجأ إليه!
النَّفْسُ تجولُ في فراغ النَّفسِ
ولا كتفَ زوجةٍ أتكى عليه!

من يفهمُ بؤسي، أنا العالق في منتصف الطريق!
من يدرك ألمي، أنا الوحيدُ، بلا خلٍ أو رفيق!
ازرعوا البصل يا رفاق، واتركوا لي الثوم!
هكذا حياةُ الأعزب، أنينٌ وشكوى ولوم!

ولفطر ما غنّوا وزرعوا، انتهى بهم المطافُ إلى أن بلغوا الصَّيف. وبعزمٍ

وإصرار حصدوا في نصف شهر. حين كانوا يحتاجون مطراً، كانت السماء تمطر؛ وحين يحتاجون شمساً، كانت الشمس تشرق. لم يكن أحدٌ ليصدق البتة أن سنة ١٩٥٠ هي السنة الأولى التي يشتغل فيها أهل طيبة بنظام التعاونيات؛ فقد كانت الغلة وافرة لدرجة أن سيقان السنابل في الحقول كانت توشك تنكسر تحت ثقل ما تحمله من حبوب. تقرر أن تدرس الحبوب وتوزع يوماً بيوم، لا معنى لأن تترك متراكمة في الساحة: كلهم الأمر أسبوعين. طيلة أسبوعين كان كل واحد منهم يقفل إلى منزله حاملاً على كتفيه نقالة، أو على ظهره كيساً.

وحين امتلأت الخوابي، وفاضت السلال، خزن القمح في توابيت المسنين. ومن لم يكن يملك تابوتاً، فقد وضع القمح على فرشة سريره. وفي النهاية، ظلوا يوزعون ويوزعون، حتى ما عاد ثمة من مكان صالح للتخزين إلا وامتلاً قمحاً، تكدست أكياس القمح في كل مكان، حتى المراحض ما عادت نتنة، إذ صارت تضوع بأريج القمح. وأخيراً لم يكن بد من أن يخزن القمح في الأهرام عند طرف الباحة، وأخذ السكان يرددون أن العمل في إطار تعاونيات جعل أيامهم فردوسية. للأسف، ما تلا ذلك هو آفة الحديد (١).

الفصل الحادي عشر

تعليق: آفة الحديد

(١) - آفة الحديد - يقصد بهذا الاسم الكارثة التي خلفها إنتاج الصّلب أثناء الفترة التي عُرفت بالقفزة العظيمة إلى الأمام. في جبال بالو دُرج على اختصار كل ذلك في عبارة آفة الحديد. وما يميّز هذه الآفة عن آفتي الماء والنّار، أنّ هاتين الآفتين الأخيرتين من بنات الطّبيعة. أمّا الآفة المذكورة فبنّت النشاط البشريّ. بدأ كل شيء سنة ١٩٥١. في طيبة، كما في سائر جبال بالو، كان الجو حسناً. الصيف أتى بقمح وافر، وكذلك أتى الشّتاء بالذّرة البيضاء. لدرجة أنّ الأمر كان مذهلاً. ولا نحتاج أن نقول إنّ الحياة واصلت سيرها بلا مشاكل. في ظلّ وفرة الغلّة، وإنّ الأيّام الفردوسية لم تزدد إلّا عدداً. ثمّ استدعيت ماو تشي سنة ١٩٥٢ إلى عاصمة الإقليم لحضور اجتماع دأب مدّة. ولمّا عادت، قرعت الجرس، وأخبرت القرويين بأمرين. أولهما: لقد حملت معها مَحْمَلاً مليئاً بقوارير دواء قديمة، مصنوعة من زجاج وأغطيّتها من بلاستيك، سوف تحصل كلّ أسرة على قارورة منها، لتعبئها بزيت السّمسم؛ الأمر الثّاني: ستتمّ تسمية المتطوعة من يومه جماعةً شعبية، وقد تقرّر أن تسمّى التعاونية ومجموعة المتعاضد توالياً السّريّة الأولى والسّريّة الثّانية، وبما أنّ من يقول زراعتاً، يقول إنتاجاً، فإنّه قد تقرّر التّوصيف «سريّة إنتاج». السّريّات الكبرى يرأسها رئيس سريّة، وسكرتير حزب، وقائد ميليشيا؛ أمّا الصّغرى فيرأسها فقط رئيس، بالإضافة إلى محاسب ومراقب عمل. ونظراً لعزلة طيبة، فقد كانت تعتبر في آنٍ سريّة كبيرة وصغيرة، لذا أنيطت بماو تشي المهام المذكورة.

ثم أتت سنة ١٩٥٨، وقرّرت الدّولة تسريع إرساء قواعدها على أسس الكمّ، والسّرعة، والكيف، والاقتصاد. على العالم أن ينطلق في صناعة الصّلب على أعلى مستوى.

قُطعت أشجار العالم.

وفي طيّبة أيضاً كان الخلق يسلكون مسلك العالم في كفاحه. وانتهى المطاف بماو تشي إلى أن حملت، وانتفخت بطنها. كانت البلدية تفرض، كلّ عشرة أيّام، أن تعمل كلّ قرية وكلّ مدشر على صهر كمّية من الصّلب وحملها إلى الأرض الفارغة أمام مكاتب الإدارة. وحين وصلت ماو تشي ببطنها المنتفخة، يصحبها القرويون الذين يقودون عربة التّيران، لتسليم أوّل دفعة - مكوّنة من قطع تشبه بقايا نبات فول الصّويا - كان واضحاً أنّ معاقي طيّبة، حتّى وإن كدّوا ليل نهار، لم يستطيعوا أن ينتجوا نصف ما ينتجه سكّان باقي القرى في المتوسّط. أجبرهم السكرتير على النّظر إلى صورة الرّئيس ماو طيلة مدّة التّفتيش. قال: «ماو تشي، لقد كان لك حظّ الذّهاب إلى يانان، ويقال إنك قد التقيت الرّعيم، ومع ذلك لا أراك تتحرّرين وتضربين صدرك ندماً لأنك خيّبت ظنّه؟».

قال: «ابتداءً من اليوم، إن لم تتمكّن قريتك من صهر كمّية أكبر من الصّلب، وظللتم على تهاونهم، فسوف أقصيكم، لن تُسمّوا بعد الآن جزءاً من مقاطعة السّرو».

وعند عودتها إلى القرية، حثّت ماو تشي كلّ واحد على أن يسلمها أواني الحديد التي لم يعد يستعملها. مراجل قديمة، دلاء مثقوبة، مجارف تالفة، معاول ثلثة، فؤوس عتيقة، بالإضافة إلى أحواض الحديد أو النّحاس، ومجامر المعدن والمسامير التي تعلّق بها الأشياء على الحائط، ومزالج الخزائن التي توضع طيلة السّنة عند رأس السرير. أرسلت الحصيصة إلى السّدة، فمنحت السّلطة طيّبة شهادة في إطار معدنيّ، تشهد بموجبها على أنّ طيّبة هي القرية النموذجية بين قرى المستوى الثالث في مقاطعة السّرو. ثمّ بعد خمسة عشر يوماً، أرسلت السّلطة إلى القرية رجلين ميليشيا مسلّحين، حاملين شهادة تخصّ المستوى الثاني،

وعربة ثيران عادت من القرية متخمة بالأدوات الزراعيّة. ثمّ بعد ذلك بأيّام أتى إلى القرية أربعة ناس-تامين، مسلّحين كمن سبقهم، لكن يقودون هذه المرّة عربتين، حاملين شهادة تخصّ المستوى الأوّل، ورسالة موقّعة من سكرتير البلدية شخصياً. قرأت ماو تشي الرسالة، وظلّت صامتة مدّة، ثمّ انطلقت تجوب بالزّوار القرية، تسبقها بطنّها، حيث صادروا كلّ ما كان من حديد.

قصّدوا رجلاً أعمى، وكان منهماك في إيقاد النّار ليعدّ الغداء، بجانبه ابنه مقرفصاً. سأل الأعمى: «من هناك؟»، أجابه ابنه: «ناس-تامون، يحملون بنادق». ومن شدّة خوفه، سلّمهم دونما مقاومة تذكر القدر التي كان يطبخ فيها. اغتتموا الوقت الذي كان يفرغ فيه القدر من الطّعام، ليفتّشوا الباحة، فعثروا على مسمارٍ في جدارٍ، فاقتلّموه. ثمّ لمحوا مجرّفتين في ركنٍ، فصادروهما. انتحى الأعمى بماو تشي: «إن أخذوا المراحل أيضاً، سوف أفكّ-الضمّ. أفيد لي ألا أكون عضواً». مكتبة سرّ من قرأ عجّلت بإغلاق فمه بيدها.

ثمّ قصّدوا عرجاء مولعة بالتطريز. أعطتهم قدرها، لكنّها كانت تملك طشتاً من نحاس، عفشها الوحيد الذي حملته معها حين تزوّجت في طيّبة، وكانت ترفض التخلّي عنه. فانطلق رجال الميليشيا إلى تكديس كلّ المراحل والملاعق والمغارف الموجودة في البيت، في العربة المركونة بالباب. واذ هرعت إلى أوانيها دامعة، وأرخت الطّشت من يدها، استغلّوا الفرصة لمصادرتها. باكية تعلّقت بعنق ماو تشي: «طشتي، مراحلِي، إن لم يعيدوها إليّ، فلا أريد أن أبقي محسوبة على جماعة البلدية!».

ومن النّظرة الشّراء التي رماها بها النّاس-تامون، لاذت فوراً بالصّمت، ولم تنطق شفتاها بكلمة.

أقصى القرية، بلغوا بيت أصمّ. كان رجلاً فظناً، لا يسمع، لكنّه عوّض عن وهن الأذنين بقوة العينين. وقبل أن يصل إليه رجال الميليشيا، بعربتيهم وبنادقهم، كان قد جهّز لهم قدره، وانتزع أقفال خزائنه. لا بل انتزع أمام

أعينهم مفاصل بوابته، وألقى بها إليهم. ولما سألوهم عما إذا كان ما يزال يملك شيئاً، فقد فكّر برهةً، ثم أعطاهم حلقات الحديد التي تزيّن نعله.

ابتعدت العربتان.

وما إن انصرفوا، حتّى أمسك ماو تشي من معصمها، وهمس لها همس المتآمر: «أختاه! أهذه هي الكومونة الشّعبية؟» رمقت بنظرة الرّجال وهم يبتعدون، وسارعت بوضع يدها على فمه.

حين صارت السّماء حمراء داكنة، فاضت العربتان القادمتان من مقرّ البلدية. أقفال خزائن، ومفاصل أبواب، ومعالق، وقدر، ومحاريث، ومسامير، ومجارف، قديمة وجديدة، كلّها من حديد، كانت ملكاً لسكّان طيّبة. حتّى إنّ الثورين معاً، الأصفر والأسمر، كانا يلهثان خائري القوى.

ولما رافقتهم ماو تشي قطعةً من الطّريق، وعادت تعرج نازلةً التّل، رأت القرية بأكملها: عمياناً وعرجاناً، شيباً وأطفالاً، وكثيراً من ربّات البيوت؛ كانوا جميعاً هناك، وقوفاً، جلوساً، مستلقين على الأرض، يحدّقون فيها شزراً. بعض النّظرات كانت تقطر كراهيةً، تحديداً نظرات ربّات البيوت الشّابات: كنّ واقفات هناك وسط الحشد، يعرضن على الشّفة السّفلى ويحدّقن فيها كأنّما ينتظرن أن تقترب منهنّ لينتقضن عليها، فيمزّقنها إرباً. فلاحظت إذاك أنّ الحجّار كان ينتظرها عند أحد المنازل، على مسافة من باقي القرويين. كانت سحنه كالحة، ويشير إليها بإشارات من يده. توقّفت ساكنةً للحظة، ثمّ سارت إليه. ولا نحتاج أن نصف النّظرات الباردة التي كانت تلاحقها. كانت تتقدّم ببطء بالغ، تفرّ منهم، لكن لو أنّهم بدؤوا في الصّراخ أو الشّتم وراء ظهرها، لتوقّفت لتُنصت.

لم يكن ثمّة صوت.

غاص العالم في صمتٍ من العمق حتّى إنّ النّظرات المسلّطة عليها كانت تدوّي كرياح الشّتاء التي تضرب النّوافذ. كانت الشّمس قد غربت على الجبال، ومن الجانب الآخر لتلك الجبال كانت أفران الصّلب قد أوقدت. وكذلك كان

فُرن طَيِّبة، وهو حفرةٌ شُقَّت في الجبل خلف القرية. وفي اتجاه ذاك الفرن انطلقت ماو تشي وزوجها. ولما أن اتَّسعت المسافة بينهما وبين العميان العرجان والمقعدين، ظنَّا أنَّهما قد أَفَلتا، وإذا بأولى الصَّرخات ترتفع.

«لا تنصري هكذا يا ماو تشي! الآن وقد انضممنا صرنا نطبخ في جفنة الفسيل. ألا تستطيعين فكّ-الضمّ(١)؟»

- أما نحن يا ماو تشي فنتبخ في قدرٍ من طين! أنت من ضمّنا، فلتفكي الضمّ.

- هه! أمّا عندنا نحنُ فلا جفنة ولا قدر طين، غداً سنضطرّ إلى الطبخ في حوض الخنازير. أحذرك يا ماو تشي: لا تأملي في الحياة إن لم تخرجينا من هذا المأزق!..»

وسط تلك الصَّيحات كانت تقف عزلاء وحيدة كأنما على سطح نهرٍ جارف.

تعليقات

(١)- فكّ الضمّ: جملة فعلية - ضدّ ضمّ. إن كان الاندماج في النظام الاجتماعي لمجموعات التّعااض والتّعاونيات يسمّى ضمّاً، فقد سُمي الانفصال عنها فكّ ضمّ.

(٢)- فكّ الضمّ، هو الاسم من الفعل فكّ الضمّ.

الكتاب السابع

فروع

الفصل الأول

حدث الأمر هكذا، دفعةً واحدة

أخيراً، أشرف رئيس الإقليم، والفرقة التي أسّسها، على ترك
طيبة.

تلكم كانت المرحلة الأولى قبل أن ينطلقوا إلى المدن، ليعرضوا
فيها، فيجنون المبلغ المهول الكفيل بشراء رفات لينين.

القرد ذو الساق الواحدة يركض كسهم على ساقه الوحيدة؛
الأصم يطلق مفرقاتٍ معلقةً في أذنه؛ الأعور يولج الخيط في
الإبر؛ الشلاء تطرّز أوراق الشجر؛ تونغهوا تبدي رهافةً سمعها؛
الصغير بوليو ينتعل قنينةً؛ شيخٌ أخرس يقرأ الأفكار. إن كنت
معاقاً، وتملك صنعةً، فاستعدّ لتتبع ليو يانغك. ولا ننسى هوايهوا.
لقد كانت شديدة الملاحه، والرّقة، حتّى إنّ السكرتير شي ارتأى
أنّ لها موهبةً، فوظّفها مقدّمةً للعروض. ما أنسبه من دورٍ لتكون
محطّ النّظر! لقد داعب وجهها، ولم تتركه يفعل فحسب، وإنّما بأشدّ
الابتساماتٍ إغواءً طالبتّه بقبلة.

كانت الشّاحنة الكبيرة التي أتت صبيحة اليوم نفسه من

العاصمة، تنتظر عند مدخل القرية. صمّ وعمي وعرج، وهبوا صنعة من الصناعات، يتهيّؤون ليصعدوا الشاحنة، فيرحلوا عن جبال بالو. ولم تُرسل لليو سيارة، إذ قال إنّ في الأمر تبذيراً للمال، وإنه سيكون على ما يرام في المقعد بجانب السائق، ممّا يعني أنّه هو والسكرتير سيكونان أيضاً من جملة الركاب.

وكانت الشمس قد ارتفعت بمقدار عصيّ بامبو عديدة، والقرية قد أرسلت الفطورَ وأنهات تحضيرات السفر، وحملت الأمتعة. وكانت النارُ النّازلة من السّماء حارقة، وتونغهوا وهوايهوا ويوهوا قد أخرجن رزمهنّ إلى الباحة، حين دقّ النّاقوس. ولحظةً بعد القرع تردّد صوتُ السكرتير الصّدّاح، فوق القرية:

«يا أعضاء الفرقة! اركبوا! لا تبطئوا، وإلاّ انطلقت الشاحنة من دونكم!».

كان قد صاح بأعلى صوته، وكان لصوته قرمشةُ تفّاحةٍ أو كمثرى، والحلاوة اللزجةُ لقطعة حلوى. احمرت هوايهوا لمجرد سماع صوته.

كانت يوهوا تنظر إليها بطرف خفيّ، فرمتها بالسؤال: «وإذن؟ ما الذي يزعجك؟» ولما لم تجبها أختها، فقد رمتها بنظرة باردة، وحملت رزمتهاتم اتخذت طريق الباب.

أمسكت يوهوا بيد تونغهوا. كنّ على أهبة الرّحيل، وسوف يتركن أمّهم التي استيقظت منذ الصّباح الباكر، وجلست في الباحة كالمتحجرة. في وجهها الكالح شيءٌ من اليباس والبلى.

كانت تجلس هناك كالبلهاء، محدّقةً في الشّرفة، وحين يقع بصرها على تونغهوا، ابتتها العمياء، كانت نظرتها تبدو مثل نظرة ميّنة جيء بها على كرسيّ.

قالت يوهوا: «إنّهم ينادوننا يا أمّي. ينبغي أن نذهب.

وسألتها هوايهوا: - لم أنت حزينّة يا أمّي؟ سوف تبقى معك فلين». ثمّ أضافت: «لا تقلقي، بعد شهرٍ نرسل إليك النّقود. أنا متأكّدة من أنّي سأكسب أكثر من الجميع، لا أرى غير ذلك. لن تحتاجي إلى العمل في الحقول إن لم ترغبي في ذلك».

كانت تونغهوا تعلم أنّ أمّها إنّما هي قلقةٌ عليها هي بخاصّة. جثت أمامها وأمسكت بأصابعها. وكان ذلك كافياً لتفيض دموع جومي. لكن كان القرد، في الخارج، يستعجلهنّ، كأنّما هو إطارٌ قرويّ: «تونغهوا، هوايهوا، ماذا تفعلان؟ الجميع ينتظركما!» إزاء هذا النّداء النّافذ الصبر كسوطٍ، مسحت جومي دموعها، وودّعت بنتيها بإشارة من يديها.

ذهبت البنتان.

في الباحة لم تبقَ إلا الوحدة. كانت الشّمس قد جاوزت العتبة، وغدت تبلّط الأرض بخضرة برّاقة، وتبسط نورها أسفل الجدار المقابل. كانت نهاية الشهر السادس، أي الوقت الذي تُدرس فيها، عادةً، الحبوب، وتوزّع. لكن هذه السّنة، لا يشمُّ في الأجواء حتّى خيطٌ رفيعٌ من أريج القمح، لا ينتشر في الأجواء إلا رائحة التراب ورطوبة الثلج. وحين يشرع عصفورٌ في الزقزقة على السّقف، تهتزّ

لزقزقته الأرض والسماء. غرابٌ يحملُ أعواداً وأغصاناً ليعيد بناء
عشه الذي دمره قبل مدّة قريبة سوء الطّقس. ظلّت جومي مثل
جذع عند عتبة الحجرة الرئيسيّة. حركة واحدة فقط، وانصرفت
ابتهاها. كان عليها أن ترافقهما إلى الشّاحنة، لكن خشية أن تلتقي
أحدهم فضّلت ألا تتحرّك.

كانت تخشى رؤيته، ومع ذلك كم ودّت لو رآته! فتحت
مصراعي الباب، وجلست بإزاء الفتحة المطلّة على الخارج.
يفترض أن يمرّ ضيفُ المعبد من هناك أثناء مغادرته.

لقد رأت السكرتير حاملاً أمتعة رئيسه، كيسين، صغيراً وكبيراً،
مباشرةً قبل أن يدوي الجرسُ داعياً إلى التجمّع.

لم يظهر بعدُ ليو يانغك؟

الأفكار تضطرب في رأسها مبلبلّة، تسيل كصّهارة، غامضةً
لزجة، تقول ربّما يكون الآن عند مدخل القرية، وقد يغادر طيّبة في
لحظة. لقد خفتت جلبة الخطى التي كانت تملأ الشّارع، الأمتعة،
والأواني والطّاسات، التي كانت قد تابعتها تمرّ من أمامها، قد صارت
الآن في حقائب من كلّ حجمٍ مكدّسة في مؤخّرة الشّاحنة. انتهت
صيحات الفرح والدموع التي صاحبت كلمات الوداع، وفضلاً عن
الصّمت لم يعد ثمة سوى الصّمت. ثمة أيضاً زقزقة العصافير.

وفي اللّحظة التي آيسّت فيها من مروره، وتأهّبت لتنهض،
فتوضّب الفوضى التي خلّفها بنائها، في تلك اللّحظة التي لم تدم

إلا كما يدوم برقُ خاطفٌ، لمحت قدمين آتيتين من جهة مدخلِ المعبد الرئيسيّ. كان القسم الأعلى من القدمين محشوراً في سروالٍ عسكريّ قصيرٍ، وبالأسفل، حيث البشرة عاريةً، كانتا محمّرتين، ثمّ بالأسفل أكثرَ كانتا تنتعلانِ صندلاً من الجلد، وجوارب من النيلون. وكانت الجوارب تصدر في نور الشمس بروقاً رمادية لماعةً لدرجة أنّها أبهرتها.

وما إن مرّت لحظةُ الذّهول الأولى، حتّى قامت واقفةً بقفزةٍ واحدة، وعلى الرّغم من أنّها لم تكن تنوي أن تكلمَ ذاك الشّخص -كانت تريد فقط أن تتابعه بهدوء-، إلّا أنّها لما رآته على وشك أن يختفي نادته في ضيق:

مكتبة

t.me/soramnqraa

«هه! هه!».

سكن الصندلُ الجلدُ، ثمّ استدارَ.

«ما الخطبُ؟».

فكرت برهةً، قطعاً ما كان يجدر بها أن تخرج فتكلّمه، ثمّ في شيءٍ من النّدم قالت:

«لا شيء. أعهد إليك بيناتي».

حدّق فيها بوجه منزعج.

«ينبغي أن تعهدي بهنّ إلى الفرقة، وليس إلى رئيس الإقليم».

مكثت برهةً مذهولةً، خرساءً، مندهشةً، ثمّ خفضت رأسها، وقالت: «اذهب».

دار على عقبه، وانصرف مستعجلاً كأنها يفرُّ. حشدٌ متراصٌّ يتزاحمٌ عند مخرج القرية، الجميع هناك. لقد صعد الفنانون إلى المركبة، وجلسوا على أمتعتهم المقدّسة لصق جدرانها. وفي الوسط يرتفع ركامٌ من الأشياء المتباينة، أشياءٌ مختلفةٌ، بدءاً من أواني لإقامة المطعم، إلى دقيقٍ لصناعة العجائن. ثمّ أيضاً سلال البخار لصنع خبز الذرة، وأواني لعجن العجين، وجراراً لحمل الماء، وقشاً وحبوباً. كانوا ينتظرون رئيس الإقليم. السكرتير والسائق يراقبون الأزقة، ومن كانوا، من الرّكاب، يجلسون في مواضع أعلى، استغلّوا مواضعهم ليراقبوه مشرّبين بأعناق نافرة العروق. من البيّن بنفسه أنّ الرّحلة لن تنطلق ما دام رئيس الإقليم لم يصل بعد. وبقدر ما تتأخّر الشّاحنة في الانطلاق، بقدر ما ستتوتّر أعصاب من أتوا يودّعون المغادرين: ثمة أمّهاتٌ يفارقن أطفالهنّ؛ فكان الأطفال يرغبون في الصّعود إلى الشّاحنة واللّوذ بأحضان أمّهاتهم، فيُمنعون، فينخرطون في الصّراخ؛ زوجةٌ تُغرق زوجها في طوفانٍ من النّصائح، حتّى ليخال المنصّت إليها أنّه راحلٌ بلا رجعة؛ المسنّون الذين يودّعون أبناءهم أو بناتهم، يخلصون النّصح: «احرصوا بخاصّة على تنظيف ملابسكم، وإلاّ شمت فيها رائحة الحموضة، أو لربّما تعفّنت أو تمزّقت حين تريدون ارتدائها». وينصحون الشّابة التي سوف تطبخ للفرقة، ألاّ تنسى أبداً بيكربونات الصّوديوم حين تعجن العجين؛ فبفضل البيكربونات تدبّ الحياة في العجين فوراً، ويبدأ يرتفع بمفرده، لكن من دونها يظلّ جامداً ميّناً. «حين لا يكون المرء في بيته، لا ينبغي أن يشرب الماء إلّا مغلياً، وليغليه في مرجلٍ أو غلاية، وتذكّروا: الماء

المغليّ لا يصفرّ، الماء الذي يصفرّ ليس ماء مغلياً». وفضلاً، لا تنس المطريّة؛ أمّا أولئك الذين لا يملكون مطريّةً، فيجدر بهم أن يشتروا معطفاً واقياً من المطر، ما إن يُدفع لهم نهاية الشهر، لا شيء أفضل من المعطف الواقى من المطر. إنّه عمليّ، وإن استدعت الضّرورة يمكن أن يفرش كبساطٍ أمام الباب، فتشمّس عليه الحبوب، وهنا تحديداً يكون أفضل من المطرية.

من بين ركّاب الشّاحنة، وحدها هوايهوا، لم تكن تقول شيئاً. كانت تقصف كابينة السّائق بنظراتٍ خاطفة: كان شيء هناك، وحين يغفل الجميع، كان يرسل إليها هو أيضاً نظراتٍ وابتسامات. أخيراً وصل رئيس الإقليم.

صمت الجميع في الشّاحنة، وعند قدمه.

لم يكن متأخراً إلّا لأنّ نداء المرحاض أتاها ساعة همّ بالخروج، فلمّا قرفص أحس بنفسه في حالٍ طيبة، حتّى تنمّلت قدماه واضطرّ إلى الانتظار مدّةً لتستعيدا فعاليتها. فلمّا وصل، نظر إلى الأعلى، ثمّ إلى الأسفل، وتساءلَ عَمّا إذا كان الجميع قد وصل، فطمأنه السكرتير. «لا ينقص شيء؟» سألهم السكرتير أن يفحصوا أمتعتهم فيتأكّدوا من أنّهم لم ينسوا شيئاً.

أمر السّائق: «انطلق!».

فهرع الرّجل إلى المقصورة ليدير المحرّك.

لا غمامة واحدة على مدّ البصر، كانت السّماء من الصّفاء حتّى

إنّه بالإمكان النّظر مسافةً مائة لي قُطرياً. الشّمسُ تنزل صفراء حارقة، والمسافرون يقطرون عرقاً. كانت هوايها تروّح عن نفسها بورقةً انتزعتها من شجرة، وكان الآخرون يدنون منها، حتّى أنّ رائحة عرقهم روّعتها، فمزّقت مروحتها، وألقت بالمزق أرضاً. من الحقول الواقعة خارج القرية، كان يصعد الأريجُ الأخضر لسوق الذّرة، متمايلاً كخيوط الحرير. لقد أذف الرّحيل. طيّبة مقبلةٌ على ثورة. وفي هذه اللّحظة بالضّبط، أدرك الراكبون في الشّاحنة، مثلهم مثل الباقيين في طيّبة، معنى الرّحيل، صحيحٌ أنّهم ذاهبون للمشاركة في عروض، لكنّ الفراق يظلّ فراقاً. مقبلون هم إذن على القيام بأشياء مذهلة، لذا سكت الجميع، وعمّ الصّمت. خلف هديرُ المحرك في أوراق الأشجار رعشةً لا حدّ لها، وكذلك كان الأثر في قلب النّاس.

لكنّ الهدوء خيم على المكان.

ربعاً من هذا الهدوء المفاجئ، رفعت الدّجاجات التي كانت، حتّى تلك اللّحظة، تنقر الأرض وتقوى خافضةً رأسها، أعناقها وصمتت بدورها.

حتّى الكلاب التي لاذت بأسفل الجدران كي تنام في ظلّها، رفعت رؤوسها، وأخذت تتأمّل هؤلاء الطّيّبين الموشكين على الرّحيل.

حتّى الأطفال كفّوا عن البكاء، وما عاد أحدٌ ينصحُ أحداً. خفت هدير المحرك، الشّاحنة توشك تنطلق. يفترض أن يجلس

رئيس الإقليم قرب الباب، لذا صعد السكرتير أولاً. وسُدى كانت هوايها تلقي إليه بالنظرات، لم يكن الرجل يرى إلا رئيسه، ولا يهتم إلا إليه. وقد مدّ إليه يده ليعينه على الصعود، لكنّ ليو رفض المساعدة بحركةٍ منه، وصعد إلى مقعده بوثبةٍ واحدةٍ متعلقاً بالباب.

انغلق البابُ.

انطلقت الشاحنة.

رحلت.

لكن، لكن، ما كادت تنطلق في سيرها، حتّى حدث بغتةً ذاك الحادثُ. وكأنّها بتخطيطٍ مسبقٍ، ما كادت الشاحنة تنطلق، وتمرّ بمحاذاة الجرف جهةً حيّ العميان، حتّى حدث الحادثُ. بروووم! قفزت ماو تشي على عكازها. كانت تبدو كأنّها عادت من بين الأموات: على الرّغم من أنّ الفصل صيفٌ، إلّا أنّها ارتدت طبقات ملابس كفنّها الجديدة -الطبقات الثلاث الداخلية (زِيّ الأيام الحارّة البسيط)؛ والطبقات الثلاث الوسطى (زِيّ مبطنٌ لأيّام الرّبيع والخريف)؛ والطبقات الخارجية (سراويل، وسترة، وفستان من الصّوف للبرد الشّديد). كان الفستان من حرير أسود، بكمّين وحواشي مطرّزة بالذهب، ويُجلّل ظهره غطاءً في حجم حوض الغسيل. كان الثوب يلمع في النور ببريقٍ كامدٍ، والتطريز يعكس بروقاً قرمزيّة. متلفعة بتلك الهالة، نصف-ذهب نصف-فضّة، قفزت الجدّة مثل كرة لهبٍ، من سفح الجبل، وأتت تعرجُ، لتهاوى وسط الطّريق.

تماماً أمام عجلات الشّاحنة.

صاح السّائق وهو يفرملُ بعنفٍ: «أمّاه!».

وتحلّقت القريةُ حولها. تعالت الصّيحات: «ماو تشي!» «ماو تشي!» «أمّاه! أخته!» وسرعان ما تحوّل الأمر إلى نشازٍ من الأصوات.

كانت سليمةً لم تصب بأذى، إذ بين موضع سقوطها وموضع فرملة العجلات مسافة قدمين. أجل، قدمين، لكنّها قطعت المسافة متدحرجةً، لتتشبّث بالعجلات. ولما أن انقلبت موليةً ظهرها للسماء، فإنّ الغطاء على ظهرها، كان يلمع بكلّ ما فيه من بروق، وهّاجاً كأنه شمس.

صعق الفلاحون، طيبةٌ كلّها كانت في حالٍ ذهولٍ وصدمة.

كذلك ارتسمت على وجه رئيس الإقليم الدهشة، لكن لما عرفها استعاد جموده، وعاد كامداً لا يعكس شيئاً.

غمغم السّائق: «اللّعة! هل سئمت الحياة؟

صاحت هوايهوا ويوهوا: - جدّتي! جدّتي!» وانضم لجوقة الصياح صوتُ العمياء تونغهوا: «جدّتي! ما بها جدّتي؟ أخبريني يا هوايهوا، ما بها جدّتي».

وسط الهرج والمرج، فتح السكرتير الباب وقفز إلى الأرض. يتميّز غيضاً، قصدها ليزيحها من الطّريق، لكن لما أن وقع بصره على منظر الكفن والغطاء الوهّاج على ظهرها، لزم موضعه. كان غاضباً، فصار متردّداً.

أنذرهما: «ماوتشي، اخرجني من هنا! وإن كان لديك ما تقولينه،
فقوليه!».

لا جواب. كانت تتشبّث بيديها معاً، بغطاء العجلة.

«سنّك يفرض عليك وقاراً أكبر».

لا جواب. ظلّت متشبّثة بصرامة.

«إن لم تتحرّكي، فسوف أضطرّ إلى أن أسحبك».

صمت. ظلّت تعانق إطار العجلة باستماتة.

«أنت تعرقلين سير شاحنة رئيس الإقليم، تحرقين القانون،
سوف أخرجك من هنا».

وبعدما ألقى إلى رئيسه بنظرة، همّ بأن ينقل وعيده من الكلام
إلى التنفيذ، فمال عليها ومدّ إليها يده، فأخرجت من ثوبها مقصّاً
-مقصّاً جيّداً لماعاً من ماركة وانغ مازي-، التفتت إلى السكرتير
وضغطت على رقبتة، وقالت له بصوت قويّ: «هيا! إن لمستني،
غرزت المقصّ فيك. عمري واحدٌ وسبعون عاماً، فقدت طعم
الحياة منذ مدّة بعيدة، تابوتي وكفني جاهزان».

قام السكرتير، وبنظرة توّسل إلى الرئيس والسائق اللذين ظلّا
في الكابينة. صاح السائق: «فلتغرسه إذن إن كان هذا ما تريده!» ثمّ
أضاف بصوت هامسٍ للرئيس الذي اكتفى بالسعال في بروذ: «لن
تجرؤ على ذلك، إنّما تريد فقط أن تخيفنا».

لم ينطق ليو يانغ بكلمة. روى قليلاً، ثمّ نزل.

انفتحت أمامه حلقة سَكَّان طَيِّبَة.

تسلل من بينهم.

وكانت أشعة الشمس تسقط تحديداً على تلك الجهة من الشاحنة، والكفن يلقي بروقاً وهاجّةً. والكون ليس إلا صمتاً سميكاً. سدىً كان أهل طَيِّبَة يجسّون أنفاسهم، كانت تنفّلت منهم كالصّفير. النور يتهاطل من السماء كمطرٍ من زجاج. دفع الفضول كلباً إلى التسلّل بين السيّقان، فنال ركلةً على خطمه، هديةً من أعمى، فولى هارباً يهرّ. وكان لوجه ليو يانغك لونٌ لحاء الأشجار في الرّبيع. كان يعضّ شفّته العليا بقوة، حتّى ليوشك أن يترك فيها أثار أسنانه. رافعاً يديه معاً إلى صدره، يشدّ قبضة يسراه، ويضغط بعنفٍ على مفاصل يميناه، حتّى تفرقع أصابعه في فرقةٍ شديدة. فلمّا فرقعها جميعاً، بادل اليدين، فشدّ قبضة اليمينى، وفرقع أصابع اليسرى. فلمّا فرغ من الأصابع العشرة كلّها، أرخت الأسنان الشّفة - فتركت بالفعل أثاراً في شكل هلالٍ، ينزف خيوطاً من دمٍ شبيهة بالأوردة التي تلمع في خديّه.

قرقص بجانب العجلة.

خفضت ماو تشي المقصّ.

«ما الخطب؟ تكلمى!

- أترك في طيبة أهلها.

- لست أريد لهم إلاّ خيراً.

- لا خير لهم في ترك قريتهم.
- ثقي بي! ثقي بالحكومة.
- أترك في طيبة أهلها.
- إنهم هنا برضاهم، حتى حفيداتك.
- أترك في طيبة أهلها.
- إنهم هناك في الشاحنة، كلهم هناك، لأنهم يريدون ذلك.
- لا شأن لي بذلك. ينبغي أن تتركهم في القرية. كلما ترك أهل طيبة جبال بالو، لا تنتهي الأمور بخير.
- لا غنى لي عن هذه الفرقة، إن أردت صالح سكان الإقليم البالغ عددهم ثمانمائة وعشرة آلاف؛ أحتاج الفرقة في شراء رفات لينين.
- فلتأخذهم إذن. ليس لك إلا أن تدوسني بالشاحنة.
- طيب، دعينا نرحل. ما شروطك؟
- إن أملت شروطي، فلا أظنك تجرؤ على قبولها.
- أجابها ساخراً:
- هل تشكين في أنني رئيس الإقليم.
- أعرف أنك بحاجة إلى النقود لشراء رفات لينين. وتنوي أن تجعلهم يكسبونها بدلاً منك، ولا بأس عندي في ذلك. لكن ينبغي أن تفكّ ضمّ طيبة. من الآن لن تُعدّ القرية تابعة

لشوانهواي أو مقاطعة السّرو.

- لم تتجاوزي بعدُ هذه القصّة، رغم ما مرّ عليها من سنين.

- إن فُكَّ ضَمُّ طَيِّبة، فلن يكون ثَمّة ما أطلب عنه الصّفح».

بعد برهة تفكيرٍ، قال: «هل تظنّين حقاً أنّ إقليم شوانهواي يدين بشيءٍ للقرية؟ أنّه يحرص على بضعة كيلومترات مربّعة في الجبال؟ انهضي! قبلت».

لمعت عينا ماو تشي ببريق يفوق بريق ثوبها.

«إن كُنْتَ موافقاً، فينبغي أن تحرّر موافقتك كتابةً. ما إن أحصل على الورقة، حتّى أترككم ترحلون».

تناول قلماً، وأخرج دفترًا من خَرَج السكرتير، وملاً دفعةً واحدةً نصف صفحة:

أقبل، أنّه من تاريخ فاتح السّنة المقبلة، سوف تعتبر قرية طَيِّبة مستقلّةً عن مقاطعة السّرو. وبالتالي لن يكون للمقاطعة المذكورة أيّ سلطة على القرية. كذلك ابتداءً من فاتح السّنة المقبلة لن تعتبر القرية تابعةً لإقليم شوانهواي الذي سوف يطبع، خلال السّنة نفسها، خريطةً جديدةً لا تظهر فيها طَيِّبة داخل حدود نفوذه الترابية. لكنّ كلّ فردٍ من سكّان طَيِّبة يرغبُ في الانضمام إلى فرقة فنون الإقليم لا يمكن أن يمنعه أو يزعجه أيّ فردٍ آخر من سكّان القرية.

ثمّ أرخَ الورقة ومهرها بتوقيعه.

فلما فرغ، جثا مرةً أخرى، وانتزع الورقة من الدفتر كي يقدمها لها لتقرأها، معلقاً: «مضت عشرات السنوات، وما يزال الأمر يعذبك - لن يكون الأمر باليسر الذي تتصوّرين. امنحيني مهلة ستة أشهر، أضع تقريرى، وأشرح الأمر للسّدة، والبلدية».

بعد أن تلّقت جوابه، فكّرت لوهلة، ثمّ نظرت إليه، وبغته فاضت عيناها بالدموع. كانت تحسُّ بتلك الورقة بين يديها أهمّ من أهمّ شيءٍ في العالم، كأنها هي مثقلةٌ بعبءٍ من آلاف الأبطال تحوّلت إلى سطورٍ في ورقة. لم تكن تصدّق نفسها، يدها ترجف قليلاً، وكذلك ترتجفُ الورقة، وفي خضمّ مشهد الارتجاف، كذلك ترتجف طبقات الكفن التسعة وتُحفّجُ. كانت حرّانةً لدرجة أنّ طبقةً ملابسها الداخليّة كانت تقطر عرقاً، لكنّ وجهها لم يتحرّك، كانت ما تزال هي هي، عجوزاً، شاحبةً، يابسةً، لكن لا قطرة من عرق تتلأأ في وجهها، بالكاد تلمح تحت صُفرتها الشاحبة والشائخة حمرة دموية خفيفة.

في المحصّلة، عاشت طويلاً، وجابهت، على امتداد السّنون، تجارب ومحنّاً أشدّ كثافةً من العشب على جناح الجبل، وقد تفحصت الورقة ونطقت جملةً غايةً في الأهميّة:

«ينبغي أن تضيف هنا ختم حكومة الإقليم وختم لجنة الحزب. - لن أفعل ذلك فحسب، وإنّما ما إن أرجع إلى العاصمة حتّى أعمّم مذكرةً معنونةً بالأحمر، أعلم فيها المقاطعات والدوائر والمكاتب.

- متى؟

- نهاية الشهر. تستطيعين أن تأتي لأخذها في غضون عشرة أيام.

- وماذا أفعل إن لم يتم الأمر؟

- ما عليك إلا أن تأتي عندي، مرتديةً ملابسك هذه، فتنامين في سريري بثوب القبر. اقتلي ديكاً أحمر الدّم (١)، وادفنيه أمام مقرّ الإدارة».

أحصت الأيام، وأعدت إحصاءها، لا يفصلهم عن نهاية الشهر إلا خمسة عشر يوماً، وافقت على الخروج من تحت الشّاحنة. انطلقت الشّاحنة في هديرٍ، وهوت طيبةٌ مجدّداً في العزلة.

تعليق

(١)- ديكٌ أحمر الدّم: في ناحية بالو، وضمن نطاقٍ أوسع، في مقاطعة شوانهواي وغربيّ خنان، كثيراً ما يُضخّى بالديكة قرباناً لأرواح الموتى، ومن هنا خرافة: دفنُ ديكٍ أمام باب أحدهم، يجلب له الكثير من المصائب. فإن دفنَ الديك عند مدخل مقرّ عملٍ، فهذا يعني أنّ رؤساء تلك الإدارة أو المصلحة سوف يواجهون صعوباتٍ في مسارهم وسوف يعاكسهم القدر.

الفصل الثالث

الهتاف يتعالى بملء الصوت، والخمر تتدفق

كان الليل عميقاً مثل بئر نضبت، والقمر مجمّداً في السماء كأنه قطعة جليد.

حصد أول عروض الفرقة بالإقليم، نجاحاً فاق كلّ التّوقعات.

اقترح أن تكون العروض بداية الشهر السابع بحسب التقويم القمريّ، أيّام ثلاثة، وستة، وتسعة وهي أرقام فألّ، وقطع رئيس الإقليم في الأمر، فاختار اليوم التاسع: كان ينوي أن يحقق أرباحاً مهولة، أن يجلب حضوراً أشبه بحضور احتفالات التاسع- المضاعف^[١].

أبداً لن ينسى أهل طيبة ذاك الغسق. في البدء كان المسرح شبه قفر، بالكاد بعض المتفرّجين تفرّقوا في أرجاء المسرح، يروّحون عن أنفسهم بأوراق البوط. كان الجوّ أشبه شيءٍ بجوّ الصّهد اللاّفح، صهد الظّهيرة، حتّى إنّ أسفلت الشّوارع قد ساح وتحوّل إلى زيتٍ

[١] احتفالات شعبية صينية تقام في الرابع عشر من أكتوبر.

أسود، وحين يخطو الواحد فوقه فإنّ كعب حدائه يلتصق به، وكذلك تغوص فيه عجلات السيّارات فتصرّ صرير جلدٍ يتقطّع. زعموا أنّ شخصاً أغمى عليه ساعة الظّهيرة، لكن لما بلغوا به المستشفى كان كافياً رشّه بالماء البارد ليستيقظ. قيل كذلك إنّ الرّشّ بالماء قد أحدث في الشّخص المذكور حمّى وبرودةً مات على إثرهما. فمن ذا الذي يمكن أن يأمل في أن تمتلئ قاعة عروضٍ في هذا الجوّ الملتهب؟ كان العرض مجرّد تمرينٍ، ولم يُعلن عنه للجمهور، اكتفى ليو يانغك بأن أمر سكرتيره أن يرسل بلاغاً إلى المكتب، بضرورة إعلام القطاعات المعنية - مثلاً قطاع تنمية الصناعة السياحية، ثمّ مكتب وقصر الثقافة، وهي القطاعات التي ساهمت في إقامة العرض - وكذلك مختلف موظفي الدوائر الحكومية بالإقليم ولجنة الحزب. نحو مائة متفرّج كافيةً وزيادة. على أنّ رئيس الإقليم سيّجلس في الصفّ الأوّل، وأطر الإقليم - الذين حرصوا على الحضور - سيّجلسون حوله وفق التراتبية الهرمية. وتقديراً لحضوره شُغلت المراهج، فصار الجوّ منعشاً بالمرح، حتّى إنّ الحضور بدؤوا يتقاطرون. زد على أنّ الدّخول كان بالمجان؛ فما كان للحشد المتسكّع في الشّوارع إلّا أن يغنم الفرصة ويلوذ ببرودة المسرح.

حتّى إنّ الصّالة امتلأت.

صارت سوداء من الحضور.

وكان الحضور يموج في هرج ومرج.

وكان كافياً أن يظهر رئيس الإقليم في الموعد المضبوط، حتّى

يصمت الجمهور، كأنّما لم يأتوا إلى هناك لحضور عرض أو اغتنام
 البرودة، وإنّما لانتظار الرئيس. هنا يتّخذ ليو هيئةً مغايرةً. وما إن
 برز حتّى قام النّاس من مقاعدهم وصفّقوا كما يُصفّق في مسارح
 بكين الكبرى حين تَسْتَقْبِلُ أحدَ المسؤولين. الحال أنّ ليو يانغ كان
 في إقليمه إمبراطوراً، رئيسَ دولةٍ، فلا غرابة في أن يقف له الشّعبُ
 ويهتف؛ تلك عادةٌ راسخة. دخل إذن متألّفاً وسط التّصفيق وقصد
 موضعه في المقعد رقم واحد من الصّف الثالث. ثمّ التفت، فأشار
 بيده إشارة إلى الجمهور، مفادها: تستطيعون الجلوس، ثمّ نادى
 السكرتير فهمس في أذنه بكلماتٍ. ثمّ قصد شي الكواليس يبلّغ
 تعليقات رئيسه، هناك حيث كان التوتّر قد تضاعفَ عشر مرّاتٍ،
 بل عشرين مرّةً، بل مئات المرّات. وكان يشرف على الإخراج
 عمّال سابقون في فرق مادريغال جبال بالو، عمّالٌ مُد حُلّت فرّقهم
 صاروا يكتفون بالإشراف على الأغاني والرّقصات في الأعراس
 والجنّازات. ولما أن بلغ إلى علمهم، منذ أيّام، بأنّ الإقليم قد كوّن
 فرقةً للعروض، قوامُها قرويون من طيّبة، زمرّة من المعاقين، بين
 أعمى وأعرج وأصمّ وأخرس وأشلّ ومعدوم ساقٍ، انتشلوا جميعاً
 من تلك الحفرة الضّائعة التي سمع الجميع بها ولم يزرها أحد -،
 لم يخلف فيهم الخبر أيّ أثر، وكان يلزم أن يتدخّل رئيس الإقليم
 بنفسه فيوجّههم إلى العمل جدياً على إقامة العرض وعدم إهمال
 أيّ تفصيل. كان ينبغي خلق تناغمٍ بين مختلف الأزياء، توزيعها
 بين الأسود، والأخضر، والأحمر، والبنفسجيّ. اقترح شي أن
 يُعهد بالتّقديم إلى الصبيّة هواهوا، فاستدعوها، والحقّ أنّها كانت

ضئيلةً، لكن لا ينقصها ظُرف، وقد علّموها كيف تفعل. وفي اليوم التاسع، أي يوم العرض، لم يكن منتظراً أن يحضر الجمهور فعلاً إلا ليغنم نسيم المراوح، فلم يبذل العمالُ جهدَهم، وها رئيس الإقليم يفاجئهم بحضوره! على الرغم من أنّه قد قال إنّ لن يحضر ما دام العرض ليس سوى تمرين، وزعموا أنّه مزكوم، يشقّ عليه التنفّس كأنّها انحشرت في منخاريه ريشة دجاجة. الجميع ادّعى أنّه لكثرة انشغاله منذ عودته لن يكلف نفسه عناء التنقل، وها هو ذا يقرّر الحضور رغم كلّ شيء! وفي هذه الحال سوف يحضر جميع الأطر الحكومية. صار إذن التمرين يتّخذ ملامح عرضٍ أوّل. بين السّكرتير للمدير، وهو رجلٌ يبلغ من العمر واحداً وخمسين عاماً، أنّ رئيس الإقليم قد شرب قبل حضوره مغلي الزنجبيل، لكنّ أنفه ما يزال مخنوقاً بعض الشيء، فلن يتلو أيّ خطبة. «بالمقابل سوف تجتمع اللجنة الدائمة مرّة أخرى هذا المساء، كي تناقش ورش الضّريح، فليس لنا من وقتٍ نضيّعه، فابدؤوا!».

انطلق المدير كالمنزعج، فجمع قرويين طيبة عند أحد أركان المسرح. لم يقدّم إليهم إلا ثلاثة توجيهات: أوّلاً، حين تكونون على الخشبة، احرصوا بخاصة على الهدوء، قولوا لأنفسكم إنكم في قريتكم أثناء احتفال طيباء؛ ثانياً، لا تنظروا إلى المشاهدين، وإلا ارتبكتكم، حدّقوا في الفراغ، فهذا أفضل لكم؛ ثالثاً، عند نهاية عرضكم ينبغي أن تنحنوا أمام الجمهور، وبما أنّ رئيس الإقليم يوجد منتصف الصفّ الثالث فاحرصوا دائماً أن تنحنوا باتّجاهه، كي يبدو له أنّ التحيّة موجهةٌ إليه، ويخال بقيّة الحضور أنّكم

تحيّون الصّالة بأكملها. ثمّ انتحى جانباً بهوايهوا: «هل تشعرين بالارتباك؟»

أمّنت على قوله: - قليلاً.

- لا داعي لذلك. أنت أجمل صبايا الفرقة. وما أن نضع لك الماكياج حتّى تصيري متألّقة كطاووس، سوف يبهرهم جمالك، لذا تكلمي بثقّة، وخذي كامل وقتك في الحديث: «الآن سيبدأ العرض، وهذه أوّلاً فقرة فلانٍ أو علانٍ» وكلّ شيء سوف يمرّ على أفضل ما يُرام».

هزّت رأسها علامة الموافقة، وقد احمرّت كلّ الاحرار.

داعب وجهها بيده كأنّها يقبلها، ونادى على مختصة التّجميل.

سيبدأ العرض. من كان ليتصوّر: متعلّة حذاءً بكعبٍ طويل، ومرتديّة فستاناً من حرير أزرق، بدت القزّمة مثل عصفور صُفّير بالكاد غادر العرش. وما إن اعتلت الصبيّة كعبيّ حذاءها حتّى صارت تبدو أقلّ ضالّةً، على أنّها لم تكن طويلةً بما يكفي، وما كان الناظر إليها ليخلع عليها سبعة عشر ربيعاً، فقد ظنّ الحضور أنّها في الحادية عشرة أو الثانية عشرة. عيناها تبرقان ببريق أسود عميق، وشفّتها ببريق قرمزيّ ريّانٍ، وكان أنفُها مستقيماً وحاداً مثل حدّ سكين. زد على ذلك فستانها بلون الماء الرّقراق؛ كانت بمثابة هبة نسيم وسط هذا المسرح اللاّفح. ذهل الجمهور، حتّى رئيس الإقليم نظر إليها بعين مندهشة بعض الشيء. وبما أنّها كانت ضئيلة، فلا أحد تخيل أن يصدر عنها ذاك الصّوت العذب المنعم. ولا أحد

كان ليجرؤ على تحيّل أن الصبيّة بعد درسين أو ثلاثة في التّقديم، ستخلّص من لكنة جبال بالو. كانت تتكلّم كما قد تتكلّم صبيّة من المدينة، كلمةً بعد كلمة، جملة إثر جملة، انساب الإعلان من بين شفيتها انسياً بمنهجاً.

بعدها مكثت برهةً هناك مسمّرة على الخشبة، صامتةً، تنتظر هدوء القاعة، أعلنت بنبرة عذبة: «سوف يبدأ العرض. أوّل الفقرات: فقرة القفز الطّولي يؤدّيها ذو السّاق الواحدة».

ثمّ تركت الخشبة، كأنّها يحملها النّسيم. أخذ المدير بيدها، وكان الحماس يأخذُ منه كلّ مأخذٍ، كما لو أنّ ابنته حقّقت انجازاً غير متوقّع. داعب خدّها، وربّت على كتفها، بل حتّى إنّهُ قبّلها. وما كادت تغادر المسرح حتّى انطلق التّصفيق. ومثل غيوم تنقشع، تباعدت الأستار الحمراء ببطء؛ ومثل شمسٍ تُشرق اشتعلت الأضواء الكاشفة.

لنكن صريحين، لم يكن في قفز القرد أيُّ شيءٍ مميّز: بما أنّه قد فقد ساقه في سنٍّ مبكّرة، فقد كان لزاماً عليه أن يتعلّم المشي، أن يحمل النّير على كتفيه ويتسلّق الجبل على ساقه الباقية التي بالطّبع تقوّت في خضمّ ما وقع وصارت تقذف به بعيداً وعالياً عند كلّ خطوةٍ يخطوها. لكنّ المدير كان قد أضاف إلى العرض لمسته، وتبلّله برشة ملح من عنده. لقد رُفِع السّتار عن بهلوان الفرقة السّابق، يتلاعب بثلاث قبعات كبيرة يطيرها في الهواء، ثمّ يلتقمها، قبّعةً بعد قبّعة، بحيث في كلّ لحظة تكون في الهواء قبّعةً، وفي كلّ يدٍ من يديه قبّعة، بينما رجلان ينثران حبّات البازلّاء على الأرض: بازلاء

صفراء، بازلاء خضراء، بازلاء صغيرة، في المحصلة بساطٌ ملوّنٌ تساوي مساحته مساحة ثلاثة مفارش، ويُفترض أن يجتازه ذو الساق الواحدة، وقد دخل إلى المشهد، بقفزة واحدة. أبعد قليلاً، عند الطرف الآخر ينتظره غطاءً سريرٍ ينزل فوقهما. هوايهوا هي من حمل الغطاءين. هي أيضاً ارتدت زياً للمناسبة، وصبغت بالأحمر شفيتها وخديها: لقد وُضع لها ما كياجٌ سعيّاً إلى إكسابها تلك الملامح الصافية البريئة التي يحبّها الجمهور. وحين يقابل الناظر بين القروية التي تتحرّك في كلّ اتجاه، والرّجل ذي الساق الواحدة يبدو له الأمر أشبه شيءٍ بزهرةٍ تُجاور عشبَةً يابسة. ولا نحتاج أن نقول إنّهُ إن فشل في القفز، فلن يهويَ على الغطاءين، وإنّما سينزلق ويكسر عضواً من أعضائه. في المسرح تطفو رائحةٌ بقول مزعجة. إنّ فكرة البازلاء شهيرة ذائعة، ولها ابتسم رئيس الإقليم ابتسامة غير متوقّعة. ولأنّ الرّجل الذي ظهر فوق الخشبة كان ذا ساقٍ وحيدة، فقد كانت ساقه اليسرى تطفو في الفراغ. ولأنّه كذلك لم يكن وسيماً، فقد دهنوا وجهه بكميّة من معجون بودرة الوجه حتّى ما عاد يُرى وجهه، لكن ظلّت الساقُ المفقودة بارزةً، وقد صدمت الجمهور. بخلاف ليو، لم يسبق للجمهور المذكور أن رأى القردَ يقفز، لذا أصابهم الدّهول. تقدّم شخصٌ من الفرقة، فشرح لهم أنّه سيقفزُ قفزةً يجتازُ بها البساط الذي مساحته متران على ثلاثة: إنّ فشل، سيسقط على حبّات البازلاء، رجاءً إذن من الجمهور أن ينتظروا تنمّة الأحداث. كانوا متوتّرين بدلاً منه، يتقاطرون عرقاً. كم بدا لهم ذاك الرّجل المعلوم الساق عليلاً وضئيلاً، وهو يتقدّم

في الخشبة مترنحاً على عكازه! وزعمت المقدمة أنه سوف يقفز من فوق ذلك كله، أي بعبارة أخرى سينجز قفزةً بطول ثلاثة أمتار، أي تسع أقدام! إنَّ ما يعجز عنه الكثير من النَّاس -تأمون سوف ينجزه رجلٌ معاق. لذا، تلقائياً، استبدَّ بهم القلق عليه. خاصّة وأنَّ القرد -هل لآته كان يشعر حقاً بالقلق من الثلاثة أمتار، أم فقط لخلق شيءٍ من الإثارة؟- ذهب بنفسه يتحقّق من التسعة أقدام، وكأنّما وجد المسافة أكبر بمقدار بوصة، فأزاح حبّات البازلّاء قليلاً، وقرب الغطاءين. قالت له يوهوا بصوتٍ ليس بالخفيض جداً ولا بالمرتفع أكثر من اللازم: «انتبه جيّداً!». ولما كان القلق قد أخذ منه كلّ مأخذٍ، فقد اكتفى بأن أجابها بإيماءة من رأسه. اعتصرت قلوبُ الجمهور، كانت تدقُّ قلقاً على المعاق.

وفي النّهاية، لم يكن له بدٌّ من القفز.

كانت الأضواء الكاشفة تبرق مثل شمسٍ. وحبس الجمهور أنفاسهم. وقد قام رئيس الإقليم من مقعده، ومال إلى الأمام. ثمَّ انطلقت موسيقى، وعلى صوت الصّنوج والطّبول، مثل البطل الذاهب إلى الجبهة، انقذف القردُ إلى الأمام، متعكّزاً عصاه، وكالأيّل الذي كُسرَت ساقه، طارَ كالسّهم من أقصى المنصّة إلى أقصاها. بان! بان! هوت قدمه على الخشب محدثةً صوت حجرٍ يسقط، بينما من الجانب الأيسر لم يصدر إلا صوت «بلوك» خفيف، مثل صوت حصاةٍ تسقط على بلاط. بعد ضربات ثلاث، كان جسده متأرجحاً ومتصلباً فوق خشبة العرض، وظلّ معلقاً في الهواء، متردداً في سترة

الكونغ-فو الخضراء التي كان يرتديها، والسروال الأحمر الذي يشدّ بخناق كاحليه. انغرست العصا بالضبط عند حاشية بساط البازلاء. وفي تلك اللحظة بعينها، التي ظنّ الجميع فيها أنّه ساقطٌ لا محالة، لفرط ما كان يميل مثل شجرة أُحني عُقْها؛ قلنا، في تلك اللحظة توَسَّلَ القرْدُ بمرونة عصاه، فوثب متجاوزاً العائق، ليسقط على الغطاءين في الجانب الآخر.

بدايةً انطلقت في القاعة همهمات، فأعقبها صمتٌ قبور، ثمّ أخيراً، لما نزل القافزُ انطلق دفقٌ من التّصفيق لا ينقطع. كان التّصفيق من القوّة حتّى أنّ أعمدة السّقف كادت تنهار. وقد انتصب رئيس الإقليم، بعد انحنائه، وكان هو من أعطى إشارة التّصفيق. قدّم له المثال فاحتذوه، ثمّ بدا أنّ التّصفيق لن يتوقف، فكان على يوهوا أن تعود إلى الخشبة حاملةً عارضتين أبعادهما: خمسة أقدام على ثلاثة، تملؤهما مساميرٌ طولها ستمتراتٌ عديدة، وقد زُرعت في العارضتين جنباً إلى جنب، بحيث يفصل كلّ مساميرٍ عن غيره مقدارٌ بوصةٍ. باختصارٍ، وما إن توضع العارضتان في الاتجاه الصّحيح: لوحانٍ برّاقين تملؤهما المسامير. ولم يكن الجمهور قد انتبهوا بعد إلى أنّ الصبيّة قزّمة، لكنّ لما اقتربت من الحافّة، لم يكن لهم بدٌّ من ملاحظة ذلك: كانت صغيرةً جداً، حتّى أنّ الناظر إليها قد يخالها عصفوراً. بعيونٍ دهشانةٍ راقبوها وهي تضع اللّوحين فوق حبّات البازلاء، ففهموا أنّ الرّجل المعدوم السّاق، بعدما اجتاز الحاجز البسيط، سوف ينتقل إلى درجةٍ أصعب، فيقفز هذه المرّة من فوق ألواح مسامير. سيتعيّن عليه اجتياز بحرٍ أوسع

من حقل الحبوب الذي اجتازه من قبل، بحرٍ مليءٍ بالإبر اللامعة.
مجدّداً ساد الصّمتُ.

لم يكن ثمة غير الأبصار الذّاهلة.

مجدّداً استطاع القردُ المتأرجحُ أن يجتازَ وعصاهُ العقبةَ. ثمّ انتقل
إلى عقبةٍ أصعبَ وأشدّ رعباً. كانت الفقرة الجديدة تسمّى: التّنينُ
المنفرد يجتاز أوقيانوسَ النّار. صفائح من المعدن أطول وأعرض
من لوحِي الخشب، وُضعت على المنصّة، وملئت بخرقٍ مبلّلةٍ
بالكيروسين. ثمّ عودُ ثقاب، وهوب! اندلعت النّار فأضاء لهيئها
المسرح. صعد ذو السّاق الواحدة مجدّداً إلى المنصّة، يتعكّزُ عصاه،
وقد زمّ شفّتيه، وانحنى أمام الجمهور بهيأةٍ حازمة، ثمّ متعكّزاً
عصاه، استقبل التّصفيق، وانطلق مرّةً أخرى ليقفز ويطير مثل
الأيّل. على أنّ حادثاً وقع: حين قفز من فوق النّارِ شَبَّت في رجل
سرواله الفارغة. فكانت عيناه شبه باكيتين حين نزل فوق اللّحافين.
وصاحت يوهوا وهوايها. وفي غمرة الاضطراب، قام الجمهور من
مقاعدهم. وسرعانَ ما أخذَ اللّهبُ، لكن حين ذهب لتحيّة رئيس
الإقليم والجمهور، لم يكن قد بقي في قدم سرواله الفارغ شيء،
اللّهم إلّا طرف ثوبٍ محترقة تطفو في الفراغ.

بسبب مزق الثوب المحروق، الواضح تحت الأضواء الكاشفة،
وبسبب الجدّة التي تطلُّ مثل ذراع قويّة، عبر الثقب الأسود،
والبثور الكبيرة التي تلمع لمعاناً مائياً؛ بسبب ذلك كلّ، حين تقدّم
للتحيّة، وانحنى، انطلقت عاصفةٌ من التّصفيق.

ومن فرط التصفيق احمرت أكفُّ الجمهور، وتساقط جيرُ
الحيطان.

انصرف يتأرجح عائداً إلى الكواليس، حيث كان ينتظره مديرُ
الفرقة، وقد أخذ منه الابتسَامُ والحماسُ كلَّ مأخذٍ. صاح به: هنيئاً!
يا لها من دخلةٍ! لقد حُزَتِ الشَّهْرَةُ! حتَّى رئيس الإقليم هتف لك.
أجابه القردُ: «- أين المرحاضُ؟ لقد بلت في سراويلي».

بالطَّبع أخذه المدير فوراً من ذراعه، وأراه الطَّريق، وبَيَّن له
أنَّ ما وقع له أمرٌ عاديٌّ، لا ينبغي أن يهتمَّ له، وأنَّه هو نفسه -أي
المدير- قد بلَّل سرواله، أيَّامَ شبابه، حين صعد إلى المنصَّة أوَّل مرَّة.

ومن حيثما طرفَ أُتَيْناهُ، لن نرى في عرض اليوم التَّاسع من
الشَّهر السَّابع، إلَّا نجاحاً مبهرًا. من البداية إلى النِّهاية، حتَّى اللَّحظة
التي ملأ فيها القمرُ والنَّجوم السَّماءَ، ما كَفَّت الصَّالةُ عن التَّصفيق.
من ذا الذي سمع من قبل عن فرقةٍ أعضاؤها من العميان، أو
العرجان، أو الشُّلان، أو الصَّمِّ أو البكم؟ من ذا الذي شهد من قبلُ
على خشبة العرضِ كومةً من الأعوادِ المختلفة - ما بين صفصافٍ،
وخبَّازية، وصفيراء، وزنزلخت - وعمياء، - تلك المدعوةُ توانجهوا
التي تجهلُ أنَّ الغيومَ بيضاءُ، وأنَّ الغسقَ يصبغها بالأحمر - يَكفيها
أن تضرب على العودِ منها بعصاها، لتميِّزه، فتعرف ما إذا كان عودَ
دردارٍ أو خبازيَّة، أو زنزلخت، أو ماهوجيني؟ ومن ذا الذي صادف
من قبلُ شلَّاء قادرة على أن تطرِّز على ورقة شجرةٍ طيوراً وأزهار
أقحوانٍ، وزهورَ برقوق، بغضِّ النَّظر عن نوع الورقة وحجمها،

ورقة دردار أو خبازيّة، بل وحتى ورقة شديدة الرّهافة والهشاشة نظير ورقة الصّفيراء؟ من ذا الذي رأى قطُّ صبيّاً مصاباً بشلل الأطفال، يكمّش قدمه المريضة، حتّى يدخلها في قنينة، ويلفّ في خشبة المسرح متعلّلاً تلك القنينة، ويقلب الطّريق ليقوم بلفّة في المنحى المعاكس، ثمّ يقوم بحركات بهلوانية وشقليات؟ كذلك فقرة ذاك الأعرور الذي تكفيه لحظة بارقة ليولج خيطَ حرير أحمر في سَمَامٍ عشر إبر. ثمّ نعود إلى هذه المدعوة تونغهوا، وكانت شديدة الضّالة، وعلى الرّغم من عماها مليحة؛ ووُهبَت رهاقةً في السّمع. استقبلتها الصّالة بالصّمت، واقتديت إلى وسط المنصّة، وكان يكفي أن يُسقط دبّوس لكي تحمّن أنّه دبّوسٌ من حديد، وأنّه قد سقط باتجاه الشّرق، أو تُسقط قطعة بيضاء على بساط، فتحمّن أنّها عملة بخسة سقطت على قطعة ثوب. بعض المتفرّجين لم يصدّقوا بأنّها عمياء، وأصرّوا على أنّها رأت كلّ شيء، فصعدوا إلى الخشبة. وبعدها عصبوا عينيها بعصابة سوداء، فتّوا سيجارةً ونثروها في الهواء: سمعت صوت الفتات يتساقط متماوجاً.

وكان سمعُ تونغهوا السحريّ هو ذروة السّهرة، وبلغت الذروة ذروتها حين شارك الجمهور في العرض، ثمّ توقّف العرض. أعلنت هوايهوا نهاية الفقرة: لقد تجاوزت الوقت المخصّص لها بنصف ساعةٍ كاملة، وإنّ رئيس الإقليم والفنانين يحتاجون إلى الرّاحة. هكذا انتهت الفقرة.

كان الأمر أشبه شيءٍ بأن يُقبل المرءُ على الأكل بشهية مفتوحة،

ثم يلقي نفسه أمام صحن فارغ، أو أن يبصر قعر القنينة في اللحظة التي يبدأ فيها يستطعم الخمر. لكنّ الناس كانوا مجبرين على القيام. فقد قام رئيس الإقليم، وكذلك قام الأطر الجلوس في الصفوف الأمامية. وكان الحضور يصفقون وعلى وجوههم أمارات الحماسة والرضا. من كان يظنّ أنّ ليو يانغك يكفيه سفرٌ واحدٌ إلى الريف، ليعود بهذه الفرقة المميّزة، ذات العروض الجديدة كلّ الجدة، التي بالكاد تصدّقها العين، والفنانين الذين يشقّ على من يراهم التصديق في أنّهم معاقون قدّموا من حفرة ضائعة. والأهمّ من ذلك كلّ أنّ أطر اللّجنة والحكومة قد أبصروا، أثناء العرض، شعاعَ لينين يرتفع، ووقعوا أخيراً على شجرة السّابك التي ستمدّهم بالأموال اللازمة لشراء رفاة، لقد صاروا الآن على يقينٍ من أنّهم سوف يأتون به ليستقرّ في جبل الأرواح الميّتة الذي سوف يتحوّل إلى بنك يسحبون منه الأموال بلا حدّ.

إنّ نجاح العرض التمهيدي قد حرّك الدّم في عروق رئيس الإقليم، فصعد إلى الخشبة وصافح أعضاء الفرقة واحداً واحداً، واقترح عليهم أن ينصرفوا من فورهم، وأن يتناولوا وجبةً طيّبة. ثمّ، بالنظر إلى الحرارة، نصّحهم أن يتزوّدوا في المرّة القادمة بمراوح، وأن يأتوا بفاتورة شرائها، وسوف تقضيهم الإدارة مبلغها، فتكون تلك أوّل دفعة يحصلون عليها. ثمّ إنّّه غادر المسرح يحرسه موكبُ أطر الحكومة، ويشيّعهُ التّصفيق، وكانت وجهته مركز الإيواء.

وما إن صاروا بالمركز حتّى تبادل رئيس المركز كلماتٍ مع شي

الذي، في أقلّ من الوقت الذي يتطلّبه القول، حرّر على الورقة
الملائمة طلب الحصول على التعليمات، وسلّمه إلى رئيسه.
وهاكم الطّلب حرفياً:

طلب التعليمات المتعلّق بالمأدبة المقامة احتفاءً بنجاح العرض.
سيّدي رئيس الإقليم،

احتفاءً بالنّجاح الذي أحرزته فرقة الفنّ من طيّبة، بمناسبة
عرضها التمهيدي، أقترحُ القائمة التالية، وأضعها رهن موافقتهم:
عشرة مقبّلات باردة: قلوب الملفوف الصّيني، جبن التوفو
بالبصل الصّغير، فول سوداني مغلي، فول سوداني سوتيه، بازلاء
مطبوخة في الماء، سلطة جوليين بالزّنجبيل، حبّات خيار مع صلصتها،
بصل بالصلصة الحمراء، سلطة الكرّفس، مزيج قلوب الزّنابق.

عشرة أطباق ساخنة: أرنب بصلصة الصويا، طائر تدرج
مطبوخٌ بالبخار، بطّ بالفطر، براعم الثوم سوتيه مع الأمعاء، يخنة
لحم البقر، لحم الخروف باللفت، لحم خنزير بالنّكهات الثلاث،
مفروم الدّجاج بكبد الدّواجن، جرادٌ بالعنّاب، مزيج ثعابين البحر
بالبخار.

ثلاث شرّبات: حساءٌ بالنّكهات الثلاث، شوربة حلوة وحارة،
ومرق زهرة اللّوتس بالنّكهة الحلوة.

تفحص رئيس الإقليم التقرير، وتناول قلمه، فعدّل عليه
تعديلاً أو اثنين، ثمّ صادق عليه ووقع. وما هي إلّا دقائق حتّى كان

التقرير قد عاد إلى يد المدير. وفي أقلّ ممّا يحتاج إليه القول، كانت الأطباق العشرة الباردة، ونظيرتها الساخنة على المائدة.

رُفع نخبُ النّجاح. وفي غمرة انتشائه، انساق ليو إلى الاطمئنان، وهمّ بأن يقول أشياء مذهلة، ويقوم بأشياء غير متوقّعة.

كانت الصّالة التي جمعتهم رحبةً، تحوي صفّين من المقاعد، ولما فرغوا من الطّعام والشراب، كان اللّيل حالكاً غائراً مثل بئرٍ نضبت، والطّهارة والخدم بجانب الباب يترنّحون من النّعاس، وملاً رئيس الإقليم كأسه مرّةً أخرى. قام، ومسح بنظره مرؤوسيه، ثمّ أعلن عليهم: «املأوا كؤوسكم، فما يزال عندي شيءٌ أطلبه منكم».

ملأ الأطر كؤوسهم ثمّ وقفوا.

«لنعتبر أنّا اليوم مجتمعون في اجتماع موسّع للجنة الدّائمة. وبوصفي الرّقم واحد، فإنّ لديّ سؤالاً أطرّحه عليكم. وإذا ما كنت أسألكم الرّأي، فإنّما لأنّني أرجو أنّكم ستخبرونني برأيكم صراحةً، وسوف تفصحون لي عن كلّ ما يجول بفكركم».

كانوا هناك، وقوفاً يحملون في أياديهم كؤوسهم.

«قلّ يا سيّدي رئيس الإقليم، قلّ فكلّنا جنودٌ مجنّدون خلفك.

- ما رأيكم في قراري شراء رُفات لينين. فكرةٌ لامعة أم لا؟».

أجابوه بصوتٍ واحدٍ: «- لامعة! لامعة جداً! أحكمُ قرارٍ اتّخذ في تاريخ شوانهواي. فكرةٌ ستعود بالنّفع والسّعادة، لآلاف السّنين،

على المائة ألف نسمة في الإقليم، عشرات الآلاف من الأجيال سينعمون بخيره.

- وهل ترون أنني أسعى جاهداً في إنشاء منتزه غابويّ، وبناء ضريح؟

- تبذل الكثير، الكثير من الجهد. أعيننا شاهدة!

- وفرقة طيّبة، هل هي بمثابة شجرة سابك أم لا؟

- شجرة سابك، وأكثر، يكفي أن نهزّها قليلاً وسوف تتحوّل الفرقة إلى نهرٍ من الذهب، ولن يظلّ من داعٍ إلى التعب، سوف تتدفّق الأموال، على امتداد الشهور، من تلقاء نفسها.

- والآن، هل صار بيّناً للجميع أنّ لدينا حظوظاً في الحصول على رفات لينين؟».

ابتسم الجميع صامتين. لقد تذكّروا أنهم في البداية قد سخروا جميعاً من الأمر سرّاً: رئيس الإقليم يحلم. والآن يرتسم على وجوههم شيءٌ من الندم، لقد صاروا يقدرّون رئيس الإقليم تقديراً لا حدّ له. ثمّ فجأةً عبس، واتّخذ سحنةً قاسية. واقفاً في موضعه، أمال رأسه إلى الخلف، وعبّ دفعةً واحدةً محتوى كأسه، وقال بنبرة جادة: بما أنّ الأمر هكذا، فسوف أعرض عليكم عرضاً. ولكم أن تقبلوا أو ترفضوا. فمن قبلوا منكم، سيشربون كما شربْتُ، ومن رفضوا سيضعون كؤوسهم. اليوم حضرنا العرض، وتناولنا العشاء، وهذا كلّ ما في الأمر؛ لم نعقد أيّ اجتماع».

تعلّقت به الأبصار كلّها. كانوا ينتظرون سؤاله الحارق.

بمهابة كبيرة قال: «اقترح أن نحفر في جبل الأرواح الميّتة، عن يمين ضريح لينين، ضريحاً ملحقاً في أبعادِ حجرة، علوّها نفس علوّ الحجرة الرّئيسة. ثم، بعد أن نجلب رفات لينين، سنقوم بتصويّت ديمقراطيّ سريّ نعيّن بواسطته من ممّا ساهم أكبر مساهمة في الحصول على الرّفات، وإنشاء المنتزه الغابويّ. بعبارة أخرى، سوف نعيّن من ساهم أكبر المساهمة في خلق سعادة سكّان الإقليم. ومن يقع عليه الاختيار بالتصويت، سوف يدفن، ساعة موته، مع لينين، في الضريح الملحق، على سبيل الشّكر، ولكي يتخلّد ذكره».

قال الرّئيس قوله ذاك، ثمّ نظر إليهم. ذاهلين، ظلّ الأطر صامتين لبرهة لا يدرون ما يقولون، ولا يعلمون هل هم موافقون أم لا. وفي الصّالة كان دُخانُ الأطباق ورائحة الخمر، تنافس عبير اللّيلة الصّيفيّة المنعش. القمرُ يتسلّل من النّوافذ، لكنّ أنوار المصابيح تكنس على الفور ضياءه. ومع ذلك كان يُرى، كان يصعدُ، مسمّراً في سماء شوانهواي، يرصّعها مثل قرص حرير ناعم برّاق. ورئيس الإقليم يحدّق في الجمع بكأس فارغة في يده؛ ومرؤوسه يتبادلون النّظر، وفي أيديهم كؤوسهم المترعة. وعبرَ الجوّ تيارٌ صقيعيّ، وتردّد وقع شذا الخمر يخبّ في الحجرة، كان يصفرّ مثل ريح خفيفة. وفي تلك اللّحظة، وبعد دقائق طوالٍ، طوالٍ... وكأنّها استعاد وعيه، ألقي ليو بكأسه على المائدة. شجّعت حرّكته سكرتيراً مساعداً في لجنة الإقليم، وبجدّة كبيرة سأل:

«- سيّدي أليس هذا كلامٌ سُكِّر؟

- لم أسكر قطُّ في حياتي.

- أنا موافقٌ إذن».

ثمّ إنّ السكرتير المساعد مال برأسه إلى الخلف ليعبّ كأسه دفعةً واحدة. واستفاقت على فعله المائدة كلّها، كانوا يبدون كالخارجين من حلم، وما إن استعادوا وعيهم حتّى هتفوا جميعاً موافقين: «حسنًا! حسنًا!»، وتجرعوا كؤوسهم دفعةً واحدة.

ولمّا صار اللَّيْلُ أحلكَ من بئرٍ جافّةٍ، وخرجوا متساندين يتلمّسون طريقهم في ضوء القمر، صادفوا أبناء طيّبة يغادرون المدينة، يعرجون ويترنّحون ويمرحون أنفسهم، وهم يتغنّون بهادريغالات من جبال بالو، بعدما وضّبوا المسرح، وتناولوا عشاءهم. لقد تمّ إيواؤهم في قريةٍ ناحية الغرب.

الفصل الخامس

عند الباب درّاجات في الأشجار

على هذه الأرض كائناتٌ وُلدت لتصنع المعجزات، كائناتٌ تعيش لتحقيق المعجزات. وكائناتٌ أخرى لم تأتِ إلى العالم إلا لانتظار المعجزات، كائنات تواصل الانتظار حتى آخر يوم من أيام وجودها البائس. ولنأخذ حالة ليو يانغك: لقد استطاع في لمح البصر أن يؤسّس فرقةً حصدت نجاحاً باهراً منذ عرضها الأوّل. ولنأخذ حال سكّان المدينة: لقد شهدوا تلك اللّيلة، أخيراً، حدثاً رائعاً انتظروه منذ دهور. وغداة اللّيلة المذكورة، لم تكن الأحاديث في الشّوارع والأزقة تدور إلا حول العرض المعلوم. ولفرط ما حكوا الأحداث وكرّروها، صارت قفزة القرد من فوق المسامير قفزةً بقدم واحدةٍ من فوق جبلٍ من السّكاكين، وقفزته من فوق اللّهب قفزةً من فوق بحرٍ من النّيران. والأعور الذي كان قادراً على أن يولج الخيط في سبع إبرٍ إلى تسع في أقلّ من الوقت الذي تستغرقه رشفة سيجارة، صار مع تقدّم الحكيم، لا يحتاج من الوقت إلا مقدار ما تحتاجه زفرة، لكي يولج الخيط في سبع عشرة أو تسع عشرة إبرة.

والمفرقات في أذن ماه الأصم صارت عيدان ديناميت قادرة على أن تنسف كل شيء. والجنادب والجراد التي رسمتها الشلاء على ورقة الخبازية صارت تنانين وطيور فينيق. وكذلك الشأن بالنسبة إلى تونغهوا والشيخ الأخرس، فقد انهار عليهما المديح، وكأنهما ليسا معاقين بالولادة، وإنما تعمدا إصابة نفسيهما بعاهتهما لكي يقدمتا فقرتيهما. في المحصلة، وباختصار: لقد خلف عرض قروبي طيبة أثراً هزّ العالم. ولما بدأت العروض رسمياً، تحدّدت تعريفة الدّخول، على سبيل التجربة، في خمسة يوان، وللأطفال ثلاثة يوان: وهي تعريفة لم يعرف لها إقليم شوانهواي مثيلاً إلا بالنسبة للأفلام الشهيرة جداً، الأفلام التي يغطّي صيتها المعمورة، فلم يتخيّل أحدٌ أنّ المقاعد بهذه التعريفة ستنفد في لمح البصر. وكان الجمهور في الصّف الطويل يتدافع ويتزاحم، واضطّروا إلى استدعاء الشرطة كي تفرض شيئاً من النظام، لكن لما استُعيد النظام، وُجدت عشرات من النعال مكومة أمام شباك التذاكر، حتّى أنّ بعض الجمهور اقتنى تذكرته، وانتقى لنفسه نعلاً، وانصرف مبتسماً راضياً، وغيرهم اقتنى التذكرة، من غير أن يأخذ نعلاً، وانصرف حافي القدم، لكن قرير العين باسماء. أمّا الشباب الذين فقدوا نعالهم في التدافع، ولم يتمكنوا مع ذلك من اقتناء تذكرة، فقد وقفوا، تحت الشمس، عند باب المسرح، باكين متوعدين: «- أين نعلي يا كلاب؟

- اللعنة! أي حرارة هي، ولم نحصل على تذكرة!».

وعند الغسق عادت الشرطة لتنظّم الدّخول. الشُّطار الصّغار الذين استطاعوا الحصول على عددٍ من التذاكر بثلاثة يوان، باعوها

بخمسة، ومن اقتنوها بخمسة جرؤوا على أن يطالبوا بسبعة، بل تسعة.

وفي اليوم التالي قفزت الأسعار: صارت التذكرة الآن تساوي بين تسعة وثلاثة عشر يوان.

ثم لاحقاً تضخّمت الأسعار كلّ التضخّم: خمسة عشر يوان. خمسة عشر يوان! صحيح، إنه مبلغ باهظ، لكنك لن تجد مقعداً فارغاً في الصّالة.

وبعد ثلاثة عروضٍ صارت الفرقة في مركز انشغالات لجنة الإقليم والحكومة، بحيث تغيّر محور شغلها من غير أن تنتبه. لم يُعلن عن تأسيس الفرقة فحسب، وإنما أيضاً خُصّصت بمديرٍ شرفيٍّ، ومديرٍ تنفيذيٍّ، ونائب مديرٍ محترف، ومكلّفٍ بالإعلانات، ومحاسب. كما عُيّن مخرجٌ، ومسؤولو ماكياج، وفنيو إضاءة، ومراقب، وعدد من المساعدين ليس هذا بمحلّ بسطِ وظائفهم. المدير الشرفي هو رئيس الإقليم، والمدير التنفيذي هو مدير فرقة مادريغال بالو المنحلة. أمّا من جهة الفنانين، فإن كان قرويّو طيبة قد أبدوا في أوّل عرضٍ شيئاً من القلق، فإنّهم ابتداءً من العرض الثاني صاروا أكثر انشراحاً وارتياحاً، وأثناء العرض الثالث كانوا قد تخلّصوا من كلّ أثر للارتباك أو القلق، وصاروا يتقنون عملهم. صار الواحد منهم يؤدّي فقرته كأنّها يحكي حكاية عند مدخل القرية. وكان العرض ناجحاً بما يكفي ليحصل كلّ منهم على وصالٍ بمائة يوان. وكانوا يستلمون الوصل متحدّثين ضاحكين، متقافزين راقصين. توافد بعضهم على المتاجر

يشترون ملابس لأبائهم، ومن ثم يرسلونها إليهم؛ وغيرهم اشتروا لصبيانهم لعب أطفال المدينة؛ والشباب اشتروا لأنفسهم سجائر وكحولاً؛ واقتنت هوايهاوا أحمر شفاه وكريمة للوجه، مثل امرأة من نساء المدينة. و، أوه! ذات ليلة لم تعد إلى المأوى لتنام، بل زعمت أنها أضاعت طريقها وتاهت في الطرقات، حتى صادفت السكرتير فأواها في مركز الاستقبال الخاص بحكومة الإقليم.

قالت: «إنّ المكان هناك مريح جداً ورائع، حتّى إنّ المرء ليجد الماء الساخن في كلّ وقت، بما في ذلك الأوقات التي لا يستحمّ فيها». مستقبلاً سوف تتزوّج رجلاً مثل السكرتير شي، رجلاً من الناس-تامين، وسيماً وذكياً.

سخر منها القرويون: لقد نسيت أنّها قزّمة.

استشاطت غضباً، ونعتتهم بالمحيطين. واحتجّت بأنّها ما زالت تنمو وتطول، وأنّ قامتها تجاوزت قامة أختيها. وقيست الأخوات، وبالفعل كانت هي تفوق أختيها قامّة بمقدار إصبع، فما كان للجميع إلّا أن عبّروا عن سعادتهم بعودة هوايهاوا إلى النّمو، أخذوا يردّدون أنّها لم تحتج إلّا أيّاماً معدودات خارج القرية، ليستعيد جسمها قدرته على النّمو، وأنّها إن واصلت اندفاعها المذهل، ككوز ذرة، فإنّها لا محالة، في أقل من ثلاثة أشهر، ستتحول من قزّمة إلى ناس-تامة. كانوا يتكلّمون، ويتكلّمون، لكن الحال، فلتنمو ما شاء لها أن تنمو، إنّ الفرقه بأكملها ستغادر المدينة قريباً.

وعشيّة أذن الرّحيل لم تعد، مرّةً أخرى، إلى المأوى، وأخبرتهم في اليوم التالي أنّها قضيت ليلتها عند صديقةٍ تعرّفت عليها منذ وقتٍ قريبٍ. وباستثناء هوايها التي بصقت عند قدميها، لما صارتا معاً على حدة، لم يقلّ أحدٌ شيئاً، إذ لم يجد أحدٌ شيئاً يقوله. وسرعان ما بلغت الفرقةُ المحافظةَ، جيودو.

ولهذه المناسبة، أعدّت تفاصيلُ كلّ شيء. سوف يكون العرض الأوّل مجاناً، ويُقام يومَ أحدٍ. وقد جمع رئيسُ الإقليم الذي تبع الفرقة، الأقارب والأصدقاء. وكان المطلوب توزيع أكبر قدرٍ من التذاكر المجانيّة، وجذب أهمّ الشخصيات في المنطقة. وعليه، دعا ليو ينغك سكرتيرَ المقاطعة، ودعا الآخرون أصدقاءهم من الرّاديو أو التلفزيون، أو وكالة الأنباء. وبما أنّ سكرتير شوانهواي، الذي تقدّره المحافظةُ أيّما تقدير، سيكون حاضراً، فإنّ مسؤولي مختلف الهيئات سيحضرون تقريباً بأكملهم، هم وعائلاتهم، صغاراً وكباراً. ولا نحتاج أن نصف دهشتهم، أو أن نقول إنّ التّصفيق كان عارماً. واندهش نيو حتّى أنّ كفيّهِ انتهى بهما المطافُ حراوين منتفخين، لفرط ما صفّق بهما. وأهمّ من ذلك: في اليوم التالي، خصّت الصحف المحليّة، وجريده المدينة، حيزاً مهماً للعرض! الرّاديو والتّلفزيون، وكلّ وسائل الإعلام تصدح بفراة الفقرات المقدّمة في العرض، وتقول إنّ هذه الفرقة قد زوّدت اقتصاد شوانهواي بأجنحةٍ أقوى من أجنحة النّسر، وأجمل من أجنحة الفينيق. النتيجة: أداءٌ قرويّ طيّب يرتفع إلى مصاف العبقرية، وخبرُهم ينتشر في الأزقة والشّوارع، حتّى أطفالُ الثلاثة أعوام كانوا يعلمون بأمر فرقة المعاقين التي أتت

من أقصى الدنيا، لتقف عندهم، وكانوا يصرخون وي يكون طالبين اصطحابهم إلى العرض.

في المدارس، أوقفت الدّروس حتّى تتمكّن الفصول من الحضور.

في المعامل، حصل العمال، بالتّناوب، على رخصة التغيّب.

الأبناء البرّة حملوا على ظهورهم آباءهم طريحي الفراش. وحين عودتهم من العرض أخذوا في التذمّر: «أنت أيضاً لزمّت السرير نصف حياتك، فلم لم تتعلّم التّطريز، لم ينبغي لي أن أحمل لك حتّى الطّعام إلى الفراش؟».

الآباء الذين لديهم طفلٌ أصمّ أو أخرس اصطحبوه لحضور العرض، كي يعلموه لاحقاً «إدراك النّوايا عبر ملاحظة الهيئات»، أو «إطلاق مفرّقاتٍ معلّقة في أذنه». والنتيجة: طول آذانٍ مخروقة أو ملتهبة، اضطرّت معها الجريدة إلى أن تكتب مقالاً تحذيراً للسّاكنة: بوسع الجميع أن يستمتع بعروض الفرقة، لكن لا ينبغي البتّة إجبار الشيوخ أو الأطفال على تقليدها. الآن صارت الفرقة تتمتع بصيت عظيم في جيودو. وفي اليوم الرّابع، حين بدأت عروض القرويين، كان سعر المقعد الواحد قد بلغ تسعة وأربعين يوان، وما هي إلّا ساعة حتّى نفدت التذاكر جميعها. الأمر أشبه بما وقع منذ سنواتٍ قليلة، حين سلب سكّان الإقليم أهل طيبة مؤنّهم، وجردوهم من كلّ شيء. وفي اليوم التّالي قفزت الأسعار: صار سعر المقعد الواحد تسعة وسبعين يوان.

وفي اليوم الذي يليه، حلّقت الأسعار عالياً جداً: مائة يوان!

استقرّت مدّة في مائة وخمسة وثمانين بالنسبة إلى الدّرجة الأولى، ومائة وخمسة وستين بالنسبة إلى الدّرجة الثانية، ومائة وخمسة وأربعين للدّرجة الثالثة، أي بمعدّل مائة وخمسة وستين. أمرٌ لا يصدّق. باع السّامسةُ التذاكرَ بمائتين وخمسة وثمانين. حتّى لما بلغ سعرها مائتين وخمسة يوان، استطاعوا أن يكسبوا مائتين وخمسة وستين. تضخّم رهيب. لقد جُنّ سكّان المدينة، كباراً وصغاراً أصابهم الصّرع، يكفي أن يُذكر أمامهم معاقو طيّبة، لكي يتركوا عيدان الأكل والأواني، ويسيل لُعابهم من الإثارة. يكفي أن يُذكر ذو السّاق الواحدة القادر على الطيران من فوق بحرٍ من اللّهب، حتّى ينطلق تلاميذ المدارس، وحقائبهم على ظهورهم، إلى القفز من فوق عقبات تُجبر السّائقين الغاضبين على سحق فراملهم آملين في تجنّب الاصطدام بها؛ ويكفي أن تُذكر الشّلاء «التي تعطيها ورقة شجرة، فتطرّز لك عليها طائراً أو قطّة»، حتّى تهرع الصّبايا إلى دفاترهنّ يرسمن فيها قططاً وتنانين، وطيور فينيق، وغيرها من المخلوقات الطائرة.

حقاً إنّ عرض أهل طيّبة ينشر ريحاً من الجنون في أزقة المدينة. وبتأثير من الحماسة التي تخلّفها في نفوسهم أحاديثُ جيرانهم، عن اليمين أو الشّمال، والاندفاع الذي تحدّثه فيهم حكاياتُ ذوي الخطوة، والقناعة بأنّهم إن لم يحضروا العرض فإنّ حياتهم ستكون قد مرّت سدى؛ كان حتّى العمّالُ العاطلون، أولئك الذين لم يستلموا رواتبهم منذ سنواتٍ، والذين يضطّرون في موسم الخضراوات، لكي يظلّوا على قيد الحياة، إلى أن يقصدوا الرّيف فيجمعوا الأوراق

في الحقول؛ قلنا، حتّى أولئك العمّالُ العاطلون، اضطرّوا، وأسناهم
تَصرُّ، إلى أن يُخرجوا من تحت المرتبة مدّخراتهم التي جمعوها بطول
التعب والمشقة في جمع الأزبال أو بيع الكراتين البالية أو القناني
الفارغة، كي يمنحوا أنفسهم التذاكر الأقلّ كلفة. وشوهد مرضى
ممن قضوا شهوراً عديدة راقدين في أسرّتهم، أولئك الذين بالعادة
يفاضلون بين الطبّ الصيني والطبّ الغربيّ بمعيّار التكلفة المالية،
أولئك شوهدوا يأخذون نقود أدويتهم لكي يشتروا بها تذكرة. أيّا
كانت خطورة حالتهم، وبغضّ النظر عن فعالية الأدوية الموصوفة
لهم، فإنّهم يقولون: لا شيء يضاهي بعض المتعة؛ يقولون: في شفاء
النفسِ شفاءً لكلّ الأدواء. ويقصدون المسرح غير آبهين بشيء.
حقّاً، لقد جُنّ النَّاسُ، حتّى وسائل النّقل فقدت صوابها: حتّى
حين لا يكون المسرح ضمن خطّ سيرها، فإنّ الحافلات تضطرّ
إلى أن تنحرف عن طريقها لتمرّ به. وصار باص الضّاحية يمتلأ
بالركاب، منذ أن صار يقف بالمسرح، وبالتالي سيحصل المحصّلون
على مكافآت سميّة نهاية الشهر.

السيّارات جُنّت، والدّرّاجات جُنّت. لحضور العرض، وبسبب
العرض، صارت تركنُ في أيّ مكانٍ. وحين ينعدم المكان، تُعلّق في
الأشجار. أو إلى جدارٍ. أو إلى لوحة إعلانٍ. ولم يعد لدى حراس
المواقف ما يكفي من صفائح البامبو، فقطّعوا قطعَ كرتونٍ صغيرة،
ووضعوا عليها بصمتهم أو توقيعهم، وصاروا يعطونها كتوصيلٍ
إلى الدّراجين، ثمّ بواسطة خيوطٍ يربطون في حزمٍ الدّرّاجات
المركونة أرضاً أو على الأشجار أو في الجدران.

كذلك جُنَّت أضواء الشارع. فبعد ما كان يُفترض فيها أن تنطفئ وسط الليل، فتجعل الظلام يغمر المدينة، صارت تواصل اتقادها طيلة الليل. وسرعان ما احترقت المصابيح، واستبدلت على الفور: بما أن الفرقة تقدّم يومياً عرضين، فينبغي إنارة طريق المشاهدين الذين يعودون إلى بيوتهم بعد العرض الثاني.

حقاً، لم يعد الناس يصغون إلى صوت العقل. وكان العزم في البداية ألا تعرض الفرقة في هذا المسرح أكثر من أسبوع، وإذا بها تقيم فيه خمسة عشر يوماً. ولما أظف الرحيل، ألقى مدير المسرح بكأسه وهو يصيح غاضباً:

«فيمَ خذلتكم؟ لا يحقّ لكم الرحيل هكذا!».

لكنّ العقد مع المسرح التالي كان قد وُقّع، وليس لهم إلاّ الرحيل.

لم يتخيّل أحدُ الشّجار الذي حدث بين قاعتي العرض، إذ تنازعتا الفرقة. ويُقال إنّ المديرين وصلاً حدّ العراك بالأيدي. ولما تقرّر الحسم، لم يَختر سَكّان شوانهواي القاعة ذات الهواء المكيف، وإنّما القاعة المزوّدة بالمرّاح. لأنّها كانت أكبر، وتستطيع أن تأوي ألفاً وخمسمائة وتسعة وسبعين متفرّجاً، في حين لا يفوق عدد مقاعد الأخرى ألفاً ومائتين.

صار عرضُ قرويّ طيّبة بمثابة حمّى الجنون الذي يستشري في جيودو، جنونٌ متعاطفٌ، مُدوّ، يهتّزُّ له الكون. لقد دخل المدينة مثل جذع شجرة هيّنةٍ مقطوعٍ من جبال بالو، وما هي إلاّ أيامٌ حتّى

علا وسمق وطاول السماء. كان عشباً صفراءً علية، تحتمي بظل، وكفاها أن تترك القرية لتتحول إلى نبتة قوية يانعة ذات زهور زاهية الألوان.

وضع مجنونٌ. هذيانٌ كليٌّ. وبعد أن قدّمت الفرقة عرضها الثالث والثلاثين في واحدٍ وعشرين يوماً، عاد ليو يانغك إلى مقرّه. ومن دون حتى أن يعرّج على بيته، قصد مباشرةً غرفة اجتماعات اللّجنة الدائمة الصّغيرة، واستدعى الأطر. كانت الغرفة تقع في الطابق الثاني من المبنى، وتوثّق طاولةً بيضاويّةً، ونحو عشرة من المقاعد الخشب، وتزيّنّها صور بعض الشّخصيات المهمّة، وخريطة للصّين وأخرى لإقليم شوانهواي. الجدران بيضاء متقشّرة، والأرضيّة مبلّطة بغرانيت خشن؛ إنّهُ ديكورٌ بسيطٌ وبدائيٌّ، بالكاد يتفوّق على ديكور ورش تصليح الآلات الزراعيّة التي تحفّ طرق الرّيف. وحين تحاول شمسُ الظّهيرة الحارقة، إنارة مساحة الغرفة، تبدو هذه كأنّها يحجبها الغمام. لحسن الحظّ ثمة الرّيح، ويكفي أن تفتح النّوافذ لتقتحم الغرفة، فينتعش المكانُ ويرتاح. وبما أنّ الرّئيس لم ينعم بقليلة، إذ كان شديد الاستثارة لما أحرزته الفرقة من نجاح، حتّى أنّه قطع المائدة لي مهتاج القلب، فإنّ التوتّر انتهى بأن أورثه النّعاس. نزع حذاءه، وتمدّد على الطاولة، ونام حافي القدمين، مستقبلاً النّافذة. شخيره يذكر بهدير الرّعد موسم استيقاظ الحشرات، شجرة طويلة، شجرة قصيرة، يدوي شخيره فتهتزّ له الخراط المعلقة على الحيطان.

مدّة يسيرةً بعد ذلك، أتى أعضاء اللّجنة الدائمة ووقفوا عند الباب.

كان واعياً بحضورهم، لكن ليس حضورهم ما يستطيع أن يمنع من الشخير، فلينتظروا إلى أن يُتَمَّ غفوتَه! أخيراً استيقظ، فرك عينيه، ثأب، تمطى، وحين استعاد وعيَه وضع قدمه على كرسيّ أقصى الطاولة، وأمر الجميع بالجلوس، ثم على دأبه كلما همّ بافتتاح جلسة، جعل يفرك أصابع قدميه. وليس يفعل ذلك لأنّ قدميه متسختين أو بهما حكة، وإنّما الحضور لا تتعدى منزلتهم سكرتير لجنة الإقليم المساعد، أو نائب مدير المكتب التنفيذي، لذا فإنّه يفرك قدميه ويتركهم يُطبخون على نارٍ هادئة. ليس عبثاً أن أعلى المسؤولين يتعمّدون الوصول متأخرين إلى الاجتماعات العامة. على أن ليو لم يتأخر قطّ عن اجتماع، فهو يكون دائماً أوّل الواصلين، لكنّه ينتظر حتّى يصل الجميع ويستقروا، ليبدأ في فرك أصابع قدميه. تلکم كانت طريقته في تذكيرهم بأنّهم مهما علا شأنهم وارتفعت مناصبهم، فإنّهم يظلّون مجرد تابعين له، وعليهم التّصرف أمامه بأودع ممّا تتصرّف الخراف. ولم يكن الفرك يأخذ منه وقتاً كثيراً، فقط ما يلزم من الوقت لينقع الشاي. ثمّ إنّه أخيراً، ضرب على الطاولة بيديه معاً، مثل ناس بالو الذين يكشطون معاولهم حين يفرغون من إزالة الأعشاب الضّارة، رفع قدميه عن المقعد، انتعل حذاءه، شرب رشفةً من الفنجان الذي قدّم له، وقال باسمًا: «اعذروني، لستُ نظيفاً، أتصرّف مثل جرموز في وجاره»^[١] (١). ثمّ اتخذ وجهه سحنةً جادةً، وقال بمهابة: «اخرجوا أقلامكم ودفاتركم، سأطلب منك القيام بحسبة!».

[١] الجرموز ولدُ الذّئب، والوجار ما يتّخذهُ الذّئب للسّكن وتربية صغاره.

تناولوا أقلامهم ودفاترهم وانحنوا على الطاولة متأهبين للكتابة.

«احسبوا بأنفسكم: مائتان وخمسة وخمسون يوان لتذكرة الفئة الأولى، ومائتان وخمسة وثلاثون للثانية، ومائتان وخمسة للثالثة. لنضع أدنى معدلٍ، فنقل مائتين وواحد وثلاثين. فكم نربح يومياً، في العرض الواحد، أي فيما يناهز ألفاً وخمسمائة تذكرة وتذكرة واحدة؟ هيا احسبوا بسرعة، أحتاج مساعدتكم». ثم صمت، وحدّق فيهم، فرأى أنهم جميعاً قد دوّنوا الأرقام التي تلاها عليهم، وأنهم متأهبون لبدء الحساب: كان الأمر يبدو مثل حُجرة دراسة، فيها تلاميذ ينجزون واجباتهم في صمت. ثم إنه سعل، وبصوتٍ أكثر وضوحاً قال لهم: «لا داعيَ إلى أن تتعبوا أنفسكم، إن الإجابة عندي. إن بعنا، في المتوسط، من التذاكر ألفاً وخمسمائة تذكرة في كلّ عرض، وكنا نكسبُ في كلّ تذكرة، في المتوسط دائماً، مائتين وواحد وثلاثين يوان، فإنّ مجموع أرباح العرض الواحد هو مائتان وخمسة وخمسون ألفاً، ومائتان وخمسة وخمسون يوان. ربّ الأرباب! لنوسّع الرؤية! لنسقط من المبلغ الخمسة آلاف ومائتين وخمسة وخمسين! لنضرب عنها صفحاً! سيتبقى لدينا مائتان وخمسون ألف يوان في كلّ عرض. أي، خمسمائة ألف يوان إن عرضنا مرتين في اليوم! ممّا يعني مليوناً في يومين، وخمسة ملايين في عشرة أيّام، ومائة مليون في مائتي يوم! ما كمية النقود التي تمثّلها مائة مليون يوان؟ رُصّوا الأوراق النقدية الجديدة التي يوزّعها المصرف في رزم من عشرة آلاف يوان، وستكون النتيجة عشرة آلاف رزمة. أيّ ارتفاعٍ ستبلغه الرزم إن رُصّت بعضها فوق بعض؟ سوف ترتفع الرزم

حتى تبلغ سقف البناية!» وكان قد رفع عينيه إلى السقف حين نطق كلمة «سقف»، فلما أنزلها رأى أنهم جميعاً تابعوا حركة عينيه، وأن رؤوسهم المرخية إلى الخلف كانت حمراء حمرة السماء حين تشرق عليها الشمس صباحاً، وعيونهم تلمع لمعان كُريّات الزجاج في الضوء. انتبه كذلك إلى أنه قد تكلم بسرعة وصوت مرتفع حتى إنه أغرق الطاولة بسيلٍ من رذاذه. واضطرّ نائب رئيس الإقليم، وكان أقرب الجلوس إليه، إلى أن يميل بجسده تجنباً للبلل. لم يرق الرئيس تصرف نائبه، فرمقه بنظرة خاطفة، وما كان من الرجل إلا أن قرب مقعدة بسرعة كأنها يتحرّق لأن يسقيه رئيسه. آه، أنت تخشى أن يصيبك بصاقي! ثم إنه استدار نحوه لكي يواجهه وهو يكلمه، فيسقط الرّذاذ عليه بدلاً من الطاولة. وبعد أن حرص على أن يكشف حنجرته، شدّ على ياقته كي تسمع خطابه القاعة كلها، بل يسمعه حتى البهو، وحتى الأرض والكون بأكملهما. كان يتحدث وكأنها جمهوره لا يقتصر على بضعة أناس، هم أعضاء اللجنة الدائمة، وإنما يخطب في ساكنة الإقليم أجمعين، وسط تجمع يحضره عشرات الآلاف من المستمعين! كان يطلق الكلام كالرّشاش، صوته قويٌّ، رنانٌ، والكون يهتز من زئيره.

«أخيراً سيقلع إقليم شوانهواي! فرقة تعرض مائتي يوم تستطيع أن تكسب مائة مليون، وأربعمئة يوم أكثر من مئتي مليون! بالطبع لا نستطيع أن نضمن عرضين في اليوم، فحين نغيّر المسرح ينبغي وضع الديكور، وتوضيب الأنوار، وهذا شغلٌ يتطلّب وقتاً، شغلٌ يستهلك يوماً، وفي طيّات اليوم المستهلك تضيع خمسمئة ألف

يوان. زد على ذلك الاضطراب إلى الانتقال من مدينة إلى مدينة، ومن مقاطعة إلى مقاطعة، وحتى مع اتخاذ أشد التدابير صرامة لا يمكننا إغفال ما يضيع في التنقل والطرق؛ ستضيع منا أيام، أي مئات آلاف يوان. علينا كذلك أن ننقص نصف مقعد من كل عرض، أي نحو مائة يوان بالنسبة إلى كل عرضين اثنين. فإن كان المقتطع مائة في اليوم، فالحاصل ثلاثة آلاف في الشهر: وهو مبلغ يفوق الراتب الذي أحصل عليه أنا رئيس الإقليم! حسناً، من يشتغل أكثر يكسب أكثر. وإن كانوا يكسبوننا كل يوم خمسمائة ألف يوان، فإن بوسعهم أن يأخذوا مما يكسبوه، ألفين إلى ثلاثة آلاف كل يوم، على أن تكون حساباتنا دقيقة: ثلاثة آلاف يوان للفرد الواحد هي ثلاثون ألفاً لعشرة أفراد، أي مائتي ألف وألفاً لسبعة وستين فرداً. أتمنى أن الفكرة قد وصلتكم: لا أقول إنني أرجو كسب المائة مليون في مائتي يوم، لكن ما قولكم في ثلاثمائة يوم، أو حتى سنة إن لم تكف المدة؟».

وعلى الرغم من أنه طرح سؤالاً، إلا أن الجواب كان متضمناً فيه: بلى، في سنة نستطيع أن نكسب مائة مليون. ولأن رئيس الإقليم كان شديد الاطمئنان إلى خطابه، فقد ارتقى الطاولة بغتة، وأخذ يحرك نفسه كنسر في السماء.

«لأصارحكم بالقول: منذ عودتي من تجيودو قضيت وقتي في الحساب. بما أن كل أعضاء الفرقة معاقون، لن تأخذ إدارة الضرائب منا فلساً. لا ضرائب ولا مكوس، وهذا يعني أن كل فلس نكسبه

هو بتمامه ملكٌ لنا. طيلة غيبتى التى دامت واحداً وعشرين يوماً
قدّم أهل طيّبة ثلاثةً وثلاثين عرضاً، ممّا يعنى أنّ الإدارة المالية كانت
تملك فى رصيدها سبعة ملايين وعشرة آلاف يوان. وإذن، هل ما
تزالون تشكّون فى قدرتنا على تحصيل المال اللازم لشراء رفات
لينين؟ هذا دون أن نغفل ما وعدتنا إيّاه المحافظةُ من مبلغ سمين.
وحتى وإن أخلفوا وعدهم، لن نقلق بشأن تحصيل المال».

وكان رئيس الإقليم قد رفع يديه إلى السّماء معلناً أنّه لم يعد
ثمّة ما يثير القلق، ثمّ أنزل ذراعيه بغتّة ونزل يلتقط كأس شايه،
فعبّ منه جرعةً، ثمّ قفز عن كرسيّه ليستقرّ فوق طاولة اجتماعات
اللّجنة الدّائمة. وكان وقع فعلته شديداً على أعضاء اللّجنة، فانتحوا
بمقاعدهم إلى الخلف. أمّا هو فقد كان رئيس الإقليم، ورئيس
الإقليم يفعل ما يحلو له، ولا يكثرث لشيء. منتصباً فوق الطاولة
الحمراء البرّاقة، لم يأبه حتّى لأنّ ينحني إليهم. وبما أنّ المرء بقدر ما
يرتفع، بقدر ما يبعد مجال رؤيته، فقد رأى عبر المنور أنّ البهو كان
مكتظّاً بأطر هيئات اللّجنة. المكان يعجّ بالنّاس، وقد تجمهروا عند
الباب والنّافذة، مشرّبين بأعناقهم يراقبون ما يجري فى الدّاخل.
لقد أتوا يحضرون عرضه مثلما ذهب السكّان يحضرون عرض أهل
طيّبة. كانوا ينصتون إليه. وفى الخارج كذلك، كان الفضاء أمام
البناية مكتظّاً. كيف عرف النّاس أنّ رئيس الإقليم قد عاد يحمل
أبناء سارّة؟ على أيّ حالٍ، لقد أرخوا الأذان يتسمّعون ما يقوله
الرئيس فى طابقه الثّانى. موظّفو الحكومة واللّجنة، صغاراً وكباراً،
تجمّعوا عن بكرة أبيهم فى البهو.

شمس الشّهر السّابع ما تزال قاسيةً، وقد انهالت بحرارتها خلال النّهار، بحيث كان بالإمكان قلبي بيضةً على بلاط السّاحة. ومع ذلك ظلّ القومُ هناك، وجوههم دبةً من العرق، واقفين على أطراف أقدامهم، مشرّبين بأعناقهم، وكلّ عضلاتهم مشدودةً في اتّجاه رئيس الإقليم يتابعون خطبته المبهرة.

كان يصيحُ، كان يصرخ:

«لنعلنها صراحةً: نهاية هذه السّنة، أو على أبعد تقدير، بداية السّنة القابلة، لن يظل إقليم شوانهواي على حاله! نهاية هذه السّنة، أو بداية السّنة القابلة، سوف نكون قد اشترينا رفات لينين واستقرّ به الوضع في المتنزّه الغابويّ. وسوف يتدفّق السيّاح كلّ يوم بمئات الآلاف. بمائة يوان للتذكّرة الواحدة، سوف نكسب من عشرة سيّاح ألف يوان؛ ومن مائة عشرة آلاف؛ ومن ألف مائة ألف؛ ومن عشرة آلاف مليوناً!».

وكان ما يزال واقفاً منتصباً على طاولة قاعة اجتماعات اللّجنة الدّائمة، يصيح بملء رثّيه، فيسقط صوته كعاصفة في حوضٍ، ويُغرق الحضور في الباحة وفي مرافق الحكومة، ثمّ يغمر الكوكب بأكمله. حاسباً، خاطباً، فرق أصابعه، ثمّ لما تبين الجميع هول المبلغ، وأدركوا أنّ بوسعهم شراء رفات لينين، وكسب مليون يوانٍ في اليوم، أوقف خطابه، وضّم أصابعه أمام صدره، مثل النّسر الذي يهيمن بنظرته على الأرض محلّقاً بجناحين مطويّين إلى الخلف. نظرةً إلى الأسفل: كان أعضاء اللّجنة قد حرّكوا مقاعدهم إلى

الخلق أكثر، وقد فعلوا ذلك هذه المرة لكي يتأملوا على نحو أفضل حركات جسده وأداءه التعبيري. في البهو، فتح أحدهم الباب موارباً: الوجوه تطلُّ منه في شكل شريط. أمّا المنور فلم يعد إلا قطعةً من الوجوه المستوية. الساحة الواسعة أمام البناية كانت غاصّة بالبشر، أناسٌ وقوفٌ في الباحة، وآخرون جلوسٌ على الأحجار والصخور الاصطناعية حول النافورة الواقعة في وسطها. لاحظ أن كلّ السحنات تعكس الدهشة، وأنّ العيون تلمع كالشمس والقمر. فسلك حنجرتَه ورفع صوته، صاح بحنجرةٍ مشرعةٍ مثل أبواب مدينةٍ مفتوحة، وصوتٍ مرتفعٍ ارتفاعَ الغيوم في قمة جبل، ومجدداً اتخذ حياةً نسرٍ يحلّق ناشراً جناحيه.

صاح:

«مليوناً في اليوم، عشرة ملايين في عشرة أيام، مائة مليون في ثلاثة أشهر، ثلاثمائة وسبعون مليوناً في السنة! وتلك الثلاثمائة وسبعون مليوناً لن تكون إلا المبلغ المتحصّل من بيع تذاكر المنتزه! وفي المنتزه، فضلاً عن الضريح، سيكون ثمة شلال التنانين التسعة، وغابة الألف هكتار^[١]. تخيلوا! حديقة حيواناتٍ بمساحة ألف آر. سوف نُنظّم رحلاتٍ ليتأمل الزائرُ شروق الشمس من فوق الجبل، وعند قدميه البحيرة السماوية، وصخرة الظبية المشيخة برأسها، وكهفا الثعبان الأبيض والثعبان الأزرق، وحديقة الأعشاب العطرية - سنقيم من أدوات الترفيه ما لا عدّ له، ومن سوف يأتون

[١] المساحات هنا تقريبية، فالمؤلف يحسب بوحداتٍ صينية قديمة.

إلى جبل الأرواح الميّتة لزيارة الضريح، سوف يقضون وقتهم في شراء التذاكر للاستفادة من هذا الترفيه أو ذاك، وسوف يضطرون إلى قضاء ليلة أو ليلتين. ولكي يجدوا مأوى، لكي يجدوا فندقاً يقضون فيه ليلتهم، ينبغي أن يفتحوا المحفظة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الطعام. وإن أرادوا أن يمسحوا أفواههم، فإن أصغر علبة مناديل ستكلفهم مائة يوان - ولكم أن تحسبوا: إن ترك لنا سائح واحد خمسمائة يوان على الأقل، فكم سيترك لنا عشرة آلاف سائح؟ خمسة ملايين! وماذا لو تجاوز إنفاق الواحد منهم ألف يوان، أو ألفاً وثلاثمائة، أو ألفاً وخمسمائة؟ وفي الربيع، ذروة الموسم، لن يكون العدد بالضرورة عشرة آلاف: ما المانع في أن يبلغ الزوار خمسة عشر ألفاً؟ أو خمسة وعشرين ألفاً؟ أو ثلاثين ألفاً؟».

مجدداً كنس بنظرته الباحة أمام البناية، والأطر بجانبه، وكل المستمعين. شرب جرعة أخرى من شايه، وبصوت أقل حدة، وكأنها يدنو من الخلاصة، صار يضحك وقد انحلت كل أساريه:

«لا أتخيل ما ستؤول إليه الأمور. احسبوا بأنفسكم، وقولوا لي كم ستبلغ أرباح الإقليم آنذاك. لن يظل المشكل كم نكسب، وإنما كيف ننفق ما نكسبه. بلى: هنا ستكمن الصعوبة، كيف ننفق النقود!».

ألقي نظرة أخرى على الحشد. الأساع كلها مُصيخة، والوجوه متألقة، ومرة أخرى، صاح بغتة ملء رئتيه، حنجرته أوسع من أبواب مدينة مشرعة، وصوته يرتفع أعلى من السحب:

«إنفاق نقودنا سيكون أصعب المهام في العالم! سنوسّع الطرق، ونبني المنازل، وماذا بعد؟ حتّى وإن ارتفعت مقرّات الحكومة واللجنة الجديدة وطاولت السحاب، واتخذ كلّ مكتب بناءً خاصّة به، وإن بلطنا الجدران بالذهب، وملأنا به الأرضيّة، فإنّ النقود لن تكفّ عن التدفّق في الخزائن. مثل نهر يفيض كلّ يوم بلُجج الخيرات. ما كمّيّة الطّعام التي يستطيع تناولها الفرد الواحد؟ كم يستطيع أن يُنفق؟ لن يحتاج الفلاحون إلى فلاحه الأرض، فكلّ شهر سنوزّع عليهم حصّتهم من النقود عند حرف الحقل، ولن يستطيعوا إنفاقها؛ ولأثمّ لن يحتاجوا إلى عمل، ولن يجدوا ما يفعلونه، فلا بدّ أن يصيبهم الملل، وبعد أن ينفد منهم الصّبر، سيحوّلون حقوقهم إلى حدائق، يزرعونها بالزّهور، فيصير الرّيف دائم الخضرة والزرقة، زاهياً بالبتلات الصّفراء والحمراء، الفصول الأربعة تضوع عطراً، ولأنّ الفصول الأربعة تضوع والسّنة بأكملها مزهرة طيِّبة، فإنّ عدد السيّاح سيتزايد، ومع تزايد ثروتنا وتعتدّد أكثر مهمّة إنفاق النقود... نقود نكسبها بيّسر، وننفقها بعُسْر. ما العمل؟ هكذا ستساءلون. ما العمل؟ وأصدّقكم القول: أنا نفسي، رئيس الإقليم، لا أعرف الإجابة. كلّ الذي أعرفه هو أنّنا حين سنشتري رفات لينين، وننتهي من تهيئة المنتزه الغابوي، سنحصل من النقود على ما يفوق حاجتنا؛ نقود كأوراق الخريف الميّتة التي نكنسها عبثاً. سوف تتعبون وأنتم تبحثون عن سبيل لإنفاق المال، وسيغتني الجميع، سيصير الجميع فاحشي الثراء لدرجة أنّكم ستفقدون طعم النّوم والأكل. سيشكو الجميع من عدم معرفة أين يضع نقوده.

لكنّها ليست مشكلتي أنا، وإنّما مشكلتكم أنتم، مشكلةُ كلّ فردٍ، مشكلةُ من تلك المشكلات التي تتمخّض عنها الثورةُ والبناءُ. ستحتاجون رئيس إقليم أقدرَ منّي على الإجابة، وسدّي ستبعث البلديةُ فرقَ بحثٍ ودراسةٍ، إذ ستقضي تلك الفرق أياماً وشهوراً محاولةً حلّ المعضلة...».

تعليق

(١) أن تكون مثل جرموزٍ في وِجاره: ألا تتمالكَ نفسك، مثل صغير ذئبٍ في وِجاره.

الفصل السّابع

فرقتان، والسّماء تصفو

حين جنحت الشّمس إلى الغرب، رُفع الاجتماع.

هدأت الباحة. وما إن رُفعت الجلسة، حتّى تفرّقت الجموع عن قلوب نشوانة. بالطّابق، أطفئت المكيّفات، وغُلّقت الأدراج والأبواب. الأبهاء خلت، لا يتسكّع فيها غير العامل المسؤول عن الكنس وجمع النّفايات. سائراً بصمتٍ، كأنّها يسير على بساطٍ من قطن، كان رئيس الإقليم يهّم بمغادرة مكتبه.

كان يريد أن يعود إلى منزله، يزور حجرة العبادة (١)، ثمّ ينام مع زوجته.

من زمن بعيدٍ، بعيدٍ جداً، لم يزر بيته. ولا دخل تلك الغرفة. فرقة طيّبة تحصد نجاحاً بيّناً، وقد خطب هو خطاباً مطوّلاً في أعضاء اللّجنة الدّائمة، لكنّ حماسه الآن خمد، إنّه متعبٌ وعطشان. وقد عاد إلى مكتبه، فشرّب كأس ماءٍ، وصرف السّكرتير وباقي الموظّفين. وحيداً، سيكون بمقدوره أن يتلذّذ بالحماسة التي خلّفتها فيه خطبته الطّويلة، والاستعدادات الأخيرة المتعلّقة بشراء رفات

لينين. متأرجحاً بين الحماسة والتعب، الآن يستطيع أن يرتاح مثل ستار حرير أحمر يُلمُّ بعد أن غربت الشمس.

في الخارج كانت السماء مظلمة وكثيية، والشارع هادئ تماماً. وبين الفينة والأخرى يُسمعُ أو يُرى خفاشٌ انطلق في تحليقه بعد أن غربت الشمس. تذكر أنّ منذ شهرين لم تطأ قدمه منزله، إذ في سورة غضبٍ كان قد التزم أمام زوجته بألا يعود إلى المنزل قبل ثلاثة أشهر، لكن في المحصلة لم يكن الأمر إلا وعد رجلٍ غاضب، يشعر بنفسه في حلٍّ من الالتزام به. ينبغي أن يعود إلى البيت. فبعد كل ما شهده الشهران الماضيان من أحداث، نقصد تكوين فرقة طيبة، وعرض جيودو، يحتاج إلى أن يختلي بنفسه لحظاتٍ في حجرة العبادة. بعد ذلك سيتعشى، ويشاهد التلفاز، ثم يذهب وزوجته إلى الفراش.

فجأةً انتهى ذاك الشيء الذي يجعل النساء في حالٍ طيبة.

منذ مدّة طويلة لم يفعله! كان يشعر بنفسه مثل أولئك الأطفال الذين نعطيهم الحلوى فلا يجرؤون على أكلها: يجبّئونها، وبين الفينة والفينة فقط يتذكرونها. قام عن كرسيه، والابتسامة ترتسم على شفتيه، فشرب جرعات ماء من فنجانه، وأراد أن ينطلق.

على أنّه.. على أنّه، وبمصادفةٍ كتلك التي تحدث في المسرحيات، في اللحظة التي همّ فيها بالانصراف، في اللحظة التي فتح فيها الباب، ألقى نفسه أمام أبغض شخصٍ إلى نفسه. كانت ماو تشي تقف مستندة إلى عكازها، حاملة في يدها رزمة. ظلّ لوهلة جامداً مصعوقاً. قطعاً كانت تنتظره لكي تناقش معه مسألة فكّ-الضمّ.

فمنذ شهرٍ كان قد وقَّع لها ورقةً تسمح لها بأن تأتي بعد عشرة أيَّام أو خمسة عشر يوماً لكي تنهي الشكليات المتعلقة بفكّ-الضمّ. تبخّرت رغبته في أن يعود إلى البيت وينخرط مع زوجته في حالٍ طيبة، كأنها قُذِف وجهه بدلو ماءٍ بارد. ومع ذلك ابتسم، متظاهراً بأنّه لم يتفاجأ: «ماو تشي! هذه أنت! ادخلي إذن!».

لحقت به إلى داخل المكتب. ولم يكن المكان بالغريب عنها، إذ دخلته من قبل في ١٩٥٢، سنة التّنين، مع الحجّار كي تناقش ضمّ طيّبة إلى التّعاونيات، مع السكرتير الذي خدم في الحمراء الرابعة. ومنذ ذلك الحين ظلّت خلال العقود اللاحقة، وحتى وفاة زوجها سنة ١٩٦٠، تأتي إلى هنا، على فترات منتظمة، مطالبةً رئيس الإقليم والسكرتير، بفكّ-الضمّ. منذ أكثر من ثلاثين سنةً وهي تزعجهم بهذه القصة، وأثناء ذلك صارت البناية ذات البلاط الأحمر، عديدة الطّوابق، وبدأت بالتدهور. يانغ، السكرتير الأوّل، قد نُقل إلى البلدية قبل أن يتقاعد في مكانٍ ما. وعديدون شغلوا منصب سكرتير القسم، إذ شغله شخصٌ يدعى ماو، وآخر يدعى ليو، فمدعوّ لي، ثمّ الآن نيو. إنّ هذا المبنى الذي كانت أرضيّته الخرسانيّة فيما مضى تلمع حتّى لتنعكّس عليها الأشجار، قد أبلاها الزمن وأفسدها، حتّى صارت جدرانها مصفّرةً متقشّرة. ومصباح النيون الذي كانت قد رآته فيما مضى أبيض كالثّلع، قد صار الآن يتدلّى في الفراغ وقد غطّاه نسيج العنكبوت، وصار يلمع من غير أن يشعر الناظر إليه بأنّه يصدر نوراً، طرفاه أسودان محروقان مثل قعر مرجلٍ، ولا يشتغل منه إلا جزءٌ بطول نصفٍ مدلك.

ولما دخلت إلى المكتب، جالت ببصرها في المكان، فتوقفت
نظرتها عند خارطة شوانهواي المعلقة فوق الطاولة. وضعت على
مكتب رئيس الإقليم الورقة التي كان قد حرّرها ووعد بموجبها
أن يفصل في أقرب الآجال طيبةً عن النفوذ الإقليمي لشونهواي
ومقاطعة السّرو. قالت: «مرّت خمسة عشر يوماً وأنا انتظر. يقال
إنّك قد سُقت أهل طيبة إلى المحافظة. هل مرّ الأمر على ما يرام؟»
طافت على شفتيّ رئيس الإقليم ابتسامةً.

«خمنني كم يربحون في الشّهر؟»

وضعت ماو تشي رزمتها أرضاً وجلست بإزائه.

«النّقد لا تعني لي شيئاً. إنّما أتيت أملأ الأوراق اللازمة لفكّ
الضمّ».

تناول الورقة التي كان قد خطّها على عجل، ففحصها للحظة،
قبل أن يجيب:

«ثلاثة آلاف يوان للفرد في الشّهر الواحد. تكفي ألفا يوان لبناء
منزلٍ، قريباً سيعودون إلى طيبة، فترتفع فيها العمارات».

وكانّا حاول أحدهم سرقة الرّزمة الضّخمة، سحبها إليها
ووضعتها على ركبتيها. ثمّ بنظرةٍ محتقرة قالت:

«أعفيني من هرائك. لقد أتيت لإنهاء الشّكليات وفكّ الضمّ».
تصلّب عنق ليو.

«أقسم لك، كلّ النّاس الذين حضروا العرض، جُنّوا به. الصّالة

دائماً مكتظة. أنت أيضاً إن قبلت الانضمام إلينا، ستكسبين ما بين ألفين وثلاثة آلاف يوان في الشهر».

أخذت تداعب رزمتها.

«مستحيل.

- لم؟

- حتى لو كنت لأربح عشرة آلاف يوان.

- ها تحملين في هذه الرزمة أكفانك؟

- لقد فكّرت وقرّرت، إن رفضت التوقيع على قرار فكّ الضمّ، فسوف أرتديها، وأموت عندك في بيتك، أو مكتبك».

اتّخذ الرئيس حياة صارمة:

«بخصوص طلبك، لقد اجتمعت اللّجنة الدّائمة وتدارست الأمر. الأعضاء موافقون. نهاية السّنة، أو بداية السّنة القادمة سنسمح لطبيّة بأن تنفصل عن إقليم شوانهواي ومقاطعة السّرو».

أخذت تنظر إليه كأنها يصعب عليها تصديقه. أجابته فوراً:

«والقرار غير قابل للإلغاء؟

- كلمتي واحدة، لا تتغيّر.

- لقد حلّ الليل. فهل أستطيع أن أملاً الوثائق، وأعود لأخذها غداً؟

- كنّا نتهياً لأن نرسل الملفّ الرّسميّ الذي يفترض أن يُرسل

إلى جميع الهيئات بالقرى والمقاطعات، وكذلك كل المكاتب بالإقليم. لكن اليوم أبدى بعض الأعضاء اعتراضاً.

كانت نظرة ماو تشي مبهمّة بعض الشيء، وإذا بها تتقد على الفور.

واصل: «لقد اشترطوا شرطاً. لاحظوا أن القرية تضمّ مائة وتسعة وستين معاقاً، رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً، بينما لا تضمّ الفرقة إلا سبعة وستين عضواً. يقترحون أن تشكّلوا لنا فرقة أخرى. يمكن أن نعلّم أصمّ آخر تفجير مفرقاتٍ معلّقة في أذنه. كما قد يتعلّم أبتر ساقٍ الوثب من فوق جبالٍ سكاكين وبحارٍ نيران. كما قد يُهذّب أعمى سمعه إلى أقصى حدود الرّحافة. تقول اللّجنة إنّه يكفي أن تكوني هذه الفرقة الثانية، لكي تحصيلي على استقلالك نهاية الشهر الثاني عشر. بدايةً من اليوم الأوّل من السّنة القادمة، لن تبقى طبيّة في نطاق نفوذ السّرو وشوانهواي. ستكونون أحراراً تماماً. لن يكون لأحد أن يطالبكم بشيء، ويكون بمقدوركم أن تعيشوا حياة الأيام الفردوسية التي كنتم تعيشونها فيما مضى».

ولما أنهى كلامه حدّق فيها. لم يكن يفصل بينهما إلا الطّاوله، وبضعة أقدام. كانت الشمس قد هوت غرباً، والشفق ينساب من النّافذة، وفي الخارج تُخلّق أسراب الخفافيش. وبدأت الظّلمة تغشى الحجرة، ومع ذلك كان يستطيع أن يتبيّن الرّجفة التي كانت تهزّ جانبي شفتيها والنور والارتباك الذين اتّحيا من وجهها، ليخليا مكانهما لرمادٍ ينصهر في لون الغروب.

قال: «إنّ لجنة حكومة الإقليم لا تروم إلّا مصلحتكم. إن شكّلنا فرقةً أخرى، فسوف تساهم جميعُ الأسر في العروض، وفي نهاية السّنة يحصل الجميع على رزمة نقود كافية لأن يبني بها منزلاً، في كلّ مكانٍ من القرية سترتفع الأسقف برّاقةً جديدةً!».

قال: «فكّري: في السّنة القابلة، حين يكون الضّمّ قد فُكّ، لن يعود لديكم خاتمٌ رسميٌّ ولا شهادة إقامة. ستكونون موجودين بيننا، لكن كأنّما اختفيتم. بالطبع سيكون بمقدوركم الذّهاب إلى السّوق، لكن دون ختم، لن تحصلوا على خطابات توصية، وبالتالي لن يكون بمقدوركم الذّهاب للتجارة أبعد. ولن يكون بالإمكان إرسال فرقةٍ أو فرقتين تحت علم شوانهواي».

قال: «زني الأمر جيّداً. إن وافقت، نستطيع أن نوقع العقد اللّيلة. توافقين على إنشاء فرقةٍ أخرى، وتعرض الفرقتان لحساب الإقليم مدّة سنة، وأضمن لكلّ فنانٍ أجراً شهرياً لا يقلّ عن ثلاثة آلاف يوان، ومع بداية السّنة الجديدة، أعلن عن وثيقة فكّ الضّمّ، فتصير طيّبة مستقلة عن الإقليم والمقاطعة، وفي حلّ من كلّ ما يتعلّق بهما».

قال: «منذ التحرّر تعاقب على شوانهواي، سبعة رؤساء إقليم وتسعة سكرتيرين، منذ سبعة وثلاثين عاماً وأنت تطرقين كلّ الأبواب لتسوّي هذه المسألة، وها أنا أذا في رمشة عين أقبل حلّها».

قال: «إن أردت أن أساعدك، فينبغي أن تساعدني. لكلّ مسألة خصوصياتها وعمومياتها. تقبلين بأن تكوّني فرقةً، فأقبل أنا أن يُفكّ

ضمّ طيّبة ابتداءً من السّنة القابلة. إنّها صفقة معقولة وعادلة. كلانا سينال مبتغاه».

قال: «موافقة؟ نعم أم لا؟ لقد حلّ اللّيل».

قال: «فكرى مرّة أخرى: أريد أن أخدم أهل طيّبة خدمةً أخيرة قبل أن يتمّ الفصل. حين تصيرون مستقلّين، وحين أكون أنا قد أتيت برفات لينين، وأقمته في جبل الأرواح، لن يكون على الإقليم أن يهتمّ بالحاجة إلى المال، وإنّما ستكون غاية هموم سكّانه كيف يصرفونه. أمّا أنتم، وقد انفصلتم عن الإقليم فسوف تظلّون فقراء، ولن تجدوا حتّى ما تشترون به الملح أو الخلّ. فإن ندمتم، وأردتم العودة إلى الضمّ، فسوف يكون الأوان قد فات. لذا عليك أن تكوني فرقةً أخرى! لكي يكسب أهل طيّبة النّقود فوراً. إن تصرّفت على هذا النّحو، ستعنينيني في بلوغ هدفي، وتعنين نفسك، أنت والقرويين على بلوغ هدفكم».

قال: «حسناً. سأترك تفكّرين. سوف تعطيني موافقتك غداً حين أعود إلى المكتب».

قال: «ترين، لقد اختفت الشّمس تماماً. أين تأوين؟ سوف أكلف أحداً بأن يرافقك ويحرص على أن تقيمي في أمثل الظروف».

قال: «هيا. ينبغي أن ننصرف».

ثمّ إنّّه قام. وجواباً لكلامه، تقلّص ضوء الشّمس على الجدار وتلاشى في الأرض، فبدا النيون أشدّ لمعاناً. حدّقت فيه ماو تشي.

وضعت الرّزمة التي تضمّ أكفانها بجانب مقعدها. طرفٌ من الحرير الأسود كان يخرج من أحد الجوانب، ولما كان الثوب مطرّزاً بخيوطٍ أصفرَ براقٍ، فقد كانت تزهّر فيه زهرةٌ جنازيّة ذات مدّقات مذهّبة.

تأمل رئيس الإقليم تلك الزهرة السوداء.

وكانت هي ما تزال تحدّق فيه.

«كم يلزم من شخصٍ لتقديم العروض في العالم خارجاً؟».

انزاحت نظرتّه عن الزهرة.

«بين عُمي، وصمّ، وشلّ، وعُرج، وخُرسٍ. لنقل إن ثلاثين إلى خمسين عددٌ كافٍ».

- لكنّهم لا يملكون صنعة؟».

قال ساخراً.

«سوف نكتفي بالحد الأدنى».

رفعت صوتها: «حسناً سوف أختار لك بضع عشراتٍ، لكن اليوم لن تكتفي بأن تدوّن على ورقةٍ ما قلتّه. وإنّما سوف تختمه بختم الحكومة واللّجنة، بالإضافة إلى بصمتك. سواءً استقدمت رفات لينين أم لم تفعل، ما إن تتمّ السنّة حتّى تتوقّف العروض. لا عروض بعد ذلك. في جميع الأحوال، ابتداءً من السنّة القابلة لن نكون تابعين للإقليم ولا إلى المقاطعة. وفي جميع الأحوال سوف تعطّيهم كلّ شهر راتب ثلاثة آلاف يوان».

عند هذه النقطة كان بإمكان الاتفاق أن يوقع فوراً. لم يكن لماو تشي من سبب للرّفص، وقد أبدت موافقتها جملةً. ومن جهته كان رئيس الإقليم موافقاً على كلامها.

في البناية يسود الظلام، حتّى الكنّاسُ احتفى من الأروقة. لم يكن يبدو أنّ المكان يضمّ إنساناً غيرهما، ومع ذلك لم يحتج ليو أكثر من أن يفتح الباب، ويصيح: «هل هناك أحد؟» لكي ينبثق موظّف من حيث لا ندري. كلّفه الرئيس بأن يهرع إلى زملائه، فيخبرهم أن يتركوا عشاءهم، ويأتون إليه من فورهم. هكذا وقّعت ماو تشي، تلك اللّيلة، على وجه السرعة، اتّفاقاً مع اللّجنة وحكومة الإقليم. وقّعت مع رئيس الإقليم، المسؤول عن كلّ شؤون المنطقة. وقد نُصّصت بوضوح كلّ بنود العقد، صارت كلّ كلمة وكلّ جملة مُلزمةً بقوة القانون.

عقدٌ من صفحتين، وهذا مضمونه:

الطرف الأوّل: قرية طيّبة في سلسلة جبال بالو.

الطرف الثاني: لجنة حكومة إقليم شوانهواي.

لدواعي تاريخية، تُطالب قرية طيّبة، منذ عقود، بأن يُفكّ ضمُّها إلى الإقليم، أي أن تصير مسؤولةً عن نفسها، تُدارُ إدارةً مستقلةً. وبالنظر إلى هذه الوضعية، وبعد مشاورات واتّفاقٍ بين الطرفين، قرّرت اللّجنة والحكومة ما يلي:

(١) على طيّبة أن تشكّل فرقتين، أي الفرقة رقم ١ والفرقة رقم

٢، لإقليم شوانهواي، بحيث لا يقلّ أعضاء كلّ فرقة من الفرقتين عن خمسين عضواً. وبما أنّ الفرقة الأولى قد تشكّلت، فينبغي تشكيل الثانية في أجل لا يتعدّى عشرة أيّام من تاريخه.

(٢) حقوق إدارة الفرقتين وعروضهما تعود حصراً لإقليم شوانهواي الذي يضمن بالمقابل لكل فردٍ من طيّبة راتباً شهرياً لا يقلّ عن ثلاثة آلاف يوان.

(٣) حدّد تاريخ نهاية العروض باليوم الأخير من السّنة الجارية، أي يوم ثلاثين من الشهر الثاني عشر بحسب السّنة القمرية. ومع متمّ اليوم المذكور لن يظلّ يجمع الفرقتين أيّ ارتباطٍ اقتصادي أو إداري بإقليم شوانهواي.

(٤) وابتداءً من اليوم الأخير من السّنة الجارية، لن تُعتبر طيّبة تابعة إدارياً إلى مقاطعة السّرو، أو إقليم شوانهواي. ستصير قريةً مستقلةً. لن يجمع الإقليم أو المقاطعة أيّ ارتباطٍ، كيفما كان نوعه، بأيّ فردٍ من أفرادها، أو أيّ أرض أو نبات، أو أيّ نهر، إلخ.. واقع ضمن نطاقها. ولن يحقّ لأي فردٍ من الإقليم التّدخل في شؤون طيّبة، أياً كانت تلك الشؤون. وإن تعرّضت طيّبة لكارثة، بشريّة كانت أو طبيعيّة، فلن يكون إقليم شوانهواي أو مقاطعة السّرو، مسؤولاً عن إعادتها.

(٥) أيّاماً قليلةً قبل العرض الأخير للفرقتين، ١ و٢، كما حدّد تاريخه هذا العقد، سوف يرسل الإقليمُ العقد الرّسميّ لمختلف الإدارات بالمقاطعة، وكلّ اللّجان، وكلّ مكاتب الإقليم، وكلّ لجان القرى.

بالطّبع كانت الصّفحة الأخيرة تحمل الأختام الحمراء لإدارة

ولجنة الإقليم، وتوقيع ماو تشي وليو يانغك، بصفتها ممثلين للطرفين. وليس ذلك فحسب، إنّما تحت إلهام العجوز العرجاء، اضطرّ رئيس الإقليم إلى أن يضع ختمه وبصمته. وكذلك فعلت هي. صارت الورقة البيضاء ملطّخة بالأحمر، كأنّ ثمار البرقوق نُثرت في ثلج جبال بالو.

كان كلّ شيءٍ على أمثل ما يُرام، وُضعت الترتيبات لإيواء ماو تشي في مركز الاستقبال، واتّفقوا على أن تنطلق من غدّها إلى طيّبة، حيثُ تكوّن الفرقة الثانية لإقليم شوانهواي. ممّا يعني أنّ تلك الآلة الفريدة التي تقدف الذهب، ستصير آلتين. وبالتالي، فإنّ الوقت اللازم لجمع المال لشراء رفات لينين، سيتقلّص إلى النصف. صار الآن يقيناً إمكانُ استقدامه والاستقرار به في جبال الأرواح الميّتة، في غضون سنة.

إنّه نصرٌ كبير، نجاحٌ باهر. ولم يعد بوسع ليو يانغك تأجيل زيارته إلى حجرة العبادة.

الفصل التاسع

تعليق: حجرة العبادة

١- حجرة العبادة، أو الحجرة المقدسة - لكي نشرح الغرفة المقدسة، ينبغي أن نعود إلى ١٩٦٠، ١٩٦١، وإلى المجاعة الكبرى التي كانت سبباً في أن يتبنّى معلّم المدرسة الاشتراكية ليو يانغك. وفي المدرسة كان الصبيّ قد صار طفل المؤسسة، «يتيمها». ساعة الغداء، كان يُرى في المطعم حاملاً إناءه؛ وساعة الدّرس، في حجرة الدّراسة، حاملاً مقعده، بجانب الأطر، وأعضاء الحزب. وبينما المدرّس يقرأ، جملةً جملةً الوثائق الرّسمية، ويحلّل مقالات الصّحافة والافتتاحيات، أو يشرح ويحلّل أعمال الرّعماء العظام؛ وبعض الطّلبة يدخّنون، أو حتّى يقيّلون، كان هو يتابع الدّرس لا ينزعج بانتباهه عنه. يتابع أباه بالتّبني يكتب بالطّباشير على السّبورة، بعناية ووضوح، وبخطّ جميل منظم. وبما أنّها مدرسة اشتراكية، فإنّ التعليم ينصبّ أساساً على دراسة نظريات الرّجال العظام، وتُطرّق فيها للفلسفة والعلوم السياسية والاقتصاد الماركسي-اللينيني. ولم يكن يانغك يفهم شيئاً، لكنّه استطاع، بطول المداومة، أن يفهم ويقرأ الحروف، حتّى أنّه قبل أن يبلغ سنّ العاشرة صار يستطيع قراءة الجريدة. باليسر نفسه الذي قد يجتني به ثمار الخوخ. وفي سنّ الحادية عشرة، لما تركت المدرّس زوجته، وفرت مع أحد أطر الإقليم المجاور، وانتقل الصّغير رسمياً من وضعيّة «يتيم المدرسة» إلى وضعيّة «الابن المتبنّى»، فقد استطاع بدأ دروسه النظامية. والحال أنّه، في تلك السّنة، أي ١٩٦٦، بدأت «الثورة الثقافية» الكبرى، الثورة التي تذكّرت بأنّ المدرّس الوحيد في هذه المؤسسة الواقعة عند

أطراف المدينة، هو نجلُ فلاح غنيٍّ. إنّه عدوّ كيف يُعقل إذن أن يصعد المنصّة كلّ يوم، فيقرأ على النَّاس الأعمال العظيمة! وصلت مذكرةٌ مختومةٌ بالختم الأحمر للجنة الإقليم. مذكرةٌ جرّدت ليو من لقب الأستاذيّة وجعلته بواباً وكُنّاساً في المدرسة. غرق المسكين في الوهن العصبيّ، ولم يعد يقاومُ إلّا بفضل المستحضرات الصينيّة التي كان يعبئ نفسه بها، من الصّباح إلى المساء. مدّة بعد ذلك، وقد بلغ يانفك السّادسة عشرة واخْتَه التاسعة، أصابت المدرّس: في عيده السّادس والخمسين، ذبحةٌ صدريةٌ، فلزَم الفراش. كان يرشح عرقاً. حتّى يبُلل الفراش. وكان الموسمُ في الحقول خريفاً، وتلك في المدرسة فترةٌ هادئة. الأطر عادوا إلى بيوتهم، والصّغيرة ليوشو تقضي عطلةً عند إحدى زميلاتها في المدينة، وفي المدرسة لم يبقَ غير ليو يانفك وأبوه بالتّبني. كان الجو ثقيلاً، وأوراق الأشجار تتدلّى عليلاً المظهر، وصرير الزّيزان يتردّد كضربات سياط طويلة. مقرفصاً عند رأس سريره، كان المعلّم قد أنشب أصابع يديه في قميصه القطن، ومعصماه متخشّبين لا يفارقان جذعه. إنّ هذا الوجه الذي تغطّيه السّحب البيضاء، لم يعد يسري فيه خيط دم. دخل عليه الصّبيّ صائحاً: «أبي! أبي!». كان يريد أن يحمله على ظهره إلى المستشفى.

بحركة من يده رفض المدرّس. تأمّله برهةً ثمّ قال: «يانفك، أنت في السّادسة عشرة من عمرك، وأنت أكبر منّي قامةً، إنّي أعهد إليك بأختك، فهل أنت قادرٌ على إتمام تعليمها؟».

مدرّكاً خطورة الوضع، هزّ رأسه علامة الموافقة. بيد أنّ الخطاب الذي تلا ذلك أربكه تماماً: «إن كنت موافقاً، فسوف أعهد إليك بها طيلة الحياة. إنّي أخشى أن تكبر فتشابه أمّها، وتكون خفيفة العقل متقلّبة؛ أنت كبرت في مدرسة اشتراكيّة، وفي سنّ الثالثة عشرة صرت تكتب مثلاً يكتب أطر الحزب، ورأيي أنّ لك مستقبلاً زاهراً. وكلّما ازدهر مستقبلك، خالفت هي سيرة أمّها. فإنّما هربت أمّها لأنّها كان تراني غير ذا شأن. أمّا أنت، فلا شكّ عندي في أنّك منذورٌ لمراتب عليا، فإن تزوّجتها، سوف أرحل مطمئنّ النفس. لن أكون قد لقطتك من أمام الباب سدىً. ولن يكون عبثاً ما حملته من همّكما طيلة عشر سنين». أكان

يتكلم بدافع من شدة الألم، أم أنه كان يشعر بمأساوية المصير البشري؟ تبثت نظرته. وجهه مصفر باهت، والدموع تسيل عليه كمزق الأوراق التي تطيرها الريح فوق قبر. حدّق يانفك في عينيّ المحتضر، وهزّ رأسه مرّة أخرى موافقاً، قبل أن يقول في قلق: «أيّ مستقبل ينتظرني؟».

كان يهيمن على المدرسة هدوء مطلق، ونعيب الغربان يتساقط أسود من فوق الأشجار في الباحة، وحين أبدى الصبي موافقته، أضاءت شفتي المعلم ابتسامة أشبه ببريق حشرة الحبحاب في ليلة صيفيّة. جلس عند طرف السرير، مسح العرق من جبينه، وأمسك يد الصبيّ، فوضع فيها مفتاحاً: مفتاح المستودع الواقع أقصى شرقيّ المخازن. «اذهب، وإنّ النّجاح سيأتي إليك، أو أقلّه ستعرف الطريق إليه. البقيّة لا تتعلّق إلّا بك، وبقدرك، بطالعك. لكن، اذهب إلى تلك الحجرة، وإن استطعت في هذه الحياة أن تبلغ ولو منصب مراسل كومونة شعبية، فسوف أكون قد حقّقت شيئاً. أنا الذي ناداني موظّفون طيلة حياتي بالمعلّم، سأكون قد علّمت ابني كيف يحصل على وظيفة حكوميّة».

أخذ المفتاح المبلّل بالعرق، ومثل من وجد الطريق المفضية إلى مكان مقدّس، ثمّ لم يجرؤ على طريقها، ظلّ هناك واقفاً، مسمّراً أمام السرير، في حياة وقور (١).

قال الأب: «إنّ حصاد حياتي في ذاك المستودع. اذهب. سوف تعرف كيف تضيد منه».

ماذا وجد في الحجرة؟ على الأرجح لا شيء. لكنّه ألقى، ربّما، طريقاً تقود إلى البعيد، مصباحاً يبرق بارتباك وسط الظلمات. كانت الشّمس صافية، تُفرّق المدرسة بنور مبهر يحرق العيون والأصابع. عبّر الباحة، واقترب من المستودع، من غير أن تكون لديه أدنى فكرة عمّا يوجد فيه، أو عمّا يمكن أن يقع. ولما بلغه كان قلبه يخفق بعنف. وقف، وهذا من روعه، فتح القفل، ودفع الباب، ولوهلة لم ير غير نور الشّمس الذي كان لحظة قبل ذلك ينزل عليه هو، وها هو ذا يسقط في الدّاخل متشظياً، وينتشر على الأرض كبساط. فلمّا أمعن الصبيّ النّظر، لم

ير في المخزن فارقاً عن غيره من المخازن، اللهم إلا تفصيلاً بسيطاً: في المخازن الثلاثة الأخرى كانت تتراكم أعطية عربات، وعجلات، وسلالم قديمة، وألواح سوداء عتيقة، ومصاطب، وكراسي قديمة، ومكاتب، وكذلك مراجل وأواني وعصي طعام، وصحون مما يودع هناك حين لا يكون في المدرسة أطر يتدربون لتطوير أنفسهم. أما في هذا المخزن، فلا شيء من ذلك. كانت الحجرة مليئة بالوثائق والكرّاريس المدرسية. إنها أقرب إلى أن تكون قاعة قراءة، مكتبة. الاختلاف الوحيد: لم تكن الكتب موضوعة على أرفف، وإنما مكدسة على طاولات مسندة إلى الجدران. وكانت الجدران مغطاة بجرائد قديمة، والسقف مبطن بالخوص والقصب المضفور. والجو يعيق بريح العفن الجاف. ظلّ ليو يانفك مسمّراً على الباب، أبله كأنما أخطأ الطريق. من الوهلة الأولى، لا يبدو في المكان أي شيء غريب، لم يكن يرى ذلك الشيء الذي أخبره والده بالتبني أنه سيضمن له مستقبله، ولم يستطع تحديد أين هو.

هدوء شامل يبسط يديه على المكان. وسط الصمت دخل، ودنا من الطاولة الأولى ليرى على نحو أفضل، فلاحظ أنّ الكتب لم تكن موضوعة على شاكلة ما توضع عليه الكتب في المكتبات، أو في حجرة توثيق. كانت مرتبة حسب المؤلف، وموضوعة في شكل أهرام: الطبقة الأولى تغطي نصف الطاولة، والثانية تنقص عنها في العرض بمقدار بوصتين، وبمقدار بوصتين تنقص الثالثة عن الثانية، وهكذا دواليك، حتّى نبلغ رأس الهرم الذي لم يكن فيه غير مجلّات قليلة. وبما أننا في مدرسة اشتراكية، فمن البين بنفسه أنّ الأمر لا يتعلّق بنصوص ترفيحية، لم يكن ثمة روايات، وإنما كتب تتعلّق بالسياسة أو الاقتصاد أو الفلسفة. ثمة الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز مربوطة بثوب، وكذلك مختلف الكتيّبات الشارحة لأعمالهما. ثمة أيضاً الأعمال الكاملة للنين وستالين. ثم هيجل وكانط، وفويرباخ، وسان سيمون، وفورييه، وهو شيء منه، وديميتروف، وتيتو، وكيم إل سونغ، إلخ. بعضها في أكثر من مائة نسخة: البيان الشيوعي، ورأس المال، ونظرية فائض القيمة، وأعمال لينين. وبعضها الآخر لا يتجاوز مجلّداً ونصفاً: فضح المسيحية لبول

دولباخ، أو مبادئ فلسفة المستقبل لفويرباخ، أو بحث في الفهم البشري للوك، أو مباحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم لأدم سميث. وما عدا تلك التي كان أبوه بالتبني قد استخرجها، ليضعها بيّنة في رأس الهرم، كانت النسخ الأخرى مكومة كأوراق ميّنة في غابة. هل نحتاج أن نقول إن المؤلف المعروف على أفضل نحو كان هو ماو تسي تونغ، من أعماله المؤلفة من أربعة أجزاء، إلى الكتاب الأحمر الصغير بغلافه البلاستيكي، كانت ثمة آلاف النسخ، بحيث كان يشغل لوحده ثلاثاً من أصل الطاولات الثماني الموجودة في الحجرة، وعلى الرغم من أن كل طبقة من طبقات الهرم لا تقل عن الطبقة التي تحتها إلا بمقدار بوصة، فإن الطبقة الأعلى كانت تلامس السقف تقريباً. ومن البين بنفسه أن الكتب لو كانت مكومة كما اتفق في الحجرة، وبغير أي نظام، فلن يكون بمقدور المعلم أن يدّعي أنها حصاد حياته التي قضى نصفها في التعليم. فحص يانغك الطاولات، فلاحظ أن الكومة الأولى مخصصة لأعمال ماركس، والثانية لإنجلز، والثالثة للنين، والرابعة لستالين، والخامسة لماو تسي تونغ، والسادسة لديميتروف، والسابعة لهو شي منه، والثامنة للماريشال تيتو. ثم يأتي دور هيجل، وكانط، وفويرباخ. ثم، مواصلاً في نظام الأفكار ذاك، انتبه إلى أن المجلدات العليا قد دُست فيها ورقة.

أخرج الورقة المدسوسة في مجلد هرم ماركس. وشأن نظام الكتب، كانت أسطر الورقة مكتوبة في شكل هرم.

أسفل السطور يقول:

ماركس، وُلد سنة ١٨١٨ في مدينة ترير (في مقاطعة الراين) بألمانيا.

السطر الثاني:

التحق في الحادية عشرة من عمره، سنة ١٨٢٩، بثانوية فريديريك غيوم في ترير.

السطر الثالث: بدأ سنة ١٨٣٥، وهو في السابعة عشرة من عمره، دراسة القانون بجامعة بون، حيث صار عضواً في حلقة الهيجليين اليسارية.

السّطر الرَّابِع:

كتب أوّل دراساته، ملاحظات في الرّقابة، وصار رئيس تحرير الجريدة الرّائية سنة ١٨٤٢، وكان عمره ثلاثاً وعشرين سنة. ثمّ سنة بعد ذلك تزوّج زوجته جيني.

السّطر السّابع:

سنة ١٨٤٥، في السّابعة والعشرين من عمره، أبعد من فرنسا فاستقرّ ببروكسيل.

السّطر السّابع عشر:

بدأ تحرير كتاب رأس المال وهو في الثالثة والأربعين من عمره، سنة ١٨٦١.

السّطر الثلاثون:

توفي سنة ١٨٨٣، ولم يبلغ الثالثة والسّبعين من عمره، بين موسم الأمطار وموسم استيقاظ الحشرات. كان واحداً من أعظم قادة الثورة البروليتارية العالمية.

سحب يانفك الورقة المحشورة أعلى هرم إنجلترا.

ثمّ ورقة لينين.

ثمّ ورقة ستالين.

والورقة في أعمال الرّئيس ماو.

السّطر الأسفل في ورقة إنجلترا: وُلد لأسرة رأسمالية في بارمن (راينلاند)، سنة ١٨٢٠ - سَطَرَ تحته بقلم الرّصاص.

تحت الملحوظة المخصّصة لميلاد لينين - لأسرة عمّالية، سنة ١٨٧٠ - وُضع خطُّ أحمر. وتحت الملاحظة الخامسة والثلاثين - التي تشير إلى أنّه صار سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي للاتّحاد السوفييتي سنة ١٩١٧، سنة الثعبان وثورة أكتوبر - وُضع خطّان.

أسفل صفحة ستالين، تحت السطر الذي يقول إنه سليل وسط فقير، وُلد سنة ١٨٧٩ لأسرة فلاحين فقيرة، لم يكن لها من موارد غير ما يكسبه الأب من إصلاح الأحذية، خُطَّت ثلاثة أسطر؛ وفوق السطر الأعلى، الذي يقول إنه بعد وفاة لينين سنة ١٩٢٤، أي السنة الثالثة عشرة للجمهورية الصّينية، صار بدوره سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي، مرّة أخرى خُطَّت ثلاثة أسطر؛ وتحت السطر الأوّل في هرم ماو—وُلد لأسرة فلاحين في شاوشان، سنة ١٨٩٢، سنة الثعبان—، سطران؛ وتحت السطر التاسع، الذي يوضّح أنّه في سنة ١٩٢٧، بينما تشانغ كاي شيك يقوم بانقلابه المضاد للثورة والرّعب الأبيض يستقرّ، انْتُخِبَ هو، في انتخابات جزئية، عضواً للمكتب السياسي للجنة المركزية، سطران؛ تحت السطر العاشر—انتفاضة حصاد الخريف—، ثلاثة سطور حمراء؛ تحت السطر الذي يشير إلى أنّه إبّان مؤتمر زووني، سنة ١٩٣٥، وهو في الحادية والأربعين من عمره، رسّخ مكانته كزعيم وسط اللّجنة المركزية، ثلاثة أسطر؛ تحت السطر الذي يقول إنه سنة ١٩٤٥، في عامه الحادي والأربعين، انْتُخِبَ رئيساً للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصّيني، خمسة أسطر؛ ثمّ تحت السطر الأخير الذي يشير إلى أنّه سنة ١٩٧٢ شغل مناصب رئيس الحزب، ورئيس الجمهورية، ورئيس اللّجنة العسكرية، تسعة خطوط حمراء...

ومن الكومة الأخيرة، المشكّلة من مؤلّفين مختلفين، أخرج ورقة أخرى، ورقة مكتوبة، كسابقاتها، في شكل هرم من عدّة أسطر، لكن هذه الورقة لم تكن تحيل على أيّ رجل من الرّجال العظام، ولا تطرق أيّ سيرة. الاسم فيها ظلّ أبيض، فارغاً فراغ الرّيف في نهار خريف. لمن صمّم والدّه هذا الهرم؟ كانت الطّبقات منتظمة مبتذلة، السطر الأوّل منها لا يتعدّى بضعة أحرف فاترة كالماء العادي: عامل اتّصال بالمقاطعة.

السطر الثّاني: مدرّس اشتراكي.

الثالث: إطار دولة. الرّابع: سكرتير مقاطعة. الثامن: مساعد رئيس إقليم، والتّاسع: رئيس إقليم. تحتها كانت المربّعات فارغة، لم يُكتب فيها شيء، لم يَدُونْ منصبٌ مستشار ولاية، أو حاكم محافظة. ربّما كان الأستاذ يعتبر

المنصب الأخير الذي عيّنه، أعلى المناصب التي يمكن أن يطمح إليها، كأنه إن صار رئيس إقليم سيكون في مرتبة إمبراطور، وليس له أن يذهب أبعد. ولهذا السبب قد ترك أسطراً فارغة. أحصى ليو يانغك الأسطر: الهرم يضمّ تسع عشرة طبقةً بالجملة. وإن ارتقينا الدرجات، محافظين على صرامة النظام التراتبي، فسوف نضع في أعلى الهرم المنصبَ الفخم: رئيس اللجنة المركزية، ورئيس الدولة، ورئيس لجنة الشؤون العسكرية. والحالُ أنّه لم يكن ثمة أي شيء مكتوب. فراغٌ لا غير. ومع ذلك لم يفِ المدرّس أن يسطر كلّ الطبقات بالأحمر، حتّى وإن لم يملأها جميعاً، وقد جعل السطر الأخير منها سميكاً لدرجة أنّه يبدو مثل مستطيل.

ماذا تحوي الغرفة غير ذلك؟ لا شيء. كتب، أهراماتُ كتب، أوراقٌ مدسوسة في أعلى تلك الأهرامات، وفي هذه الورقات أهرامات مربّعات، وفي أهرامات المربّعات سيرٌ ومنجزات رجالٍ خارقين. وثمة أيضاً تلك الأسطر الحمراء التي يزداد عددها كلّما كان الرّجل منحدرًا من أوساط دنيا، ويزداد عددها أكثر كلّما بلغ أعلى المناصب وتقلّد أخطر السُّلط.

هل اكتشف يانغك شيئاً غير ذلك؟ لا شيء، لا شيء بالمطلق. فقط أكوام من الكتابات، وأوراق مليئة بمربّعات خُطّت فيها سير الرّجال العظام؛ أشياءً يهياً إليه أنّه يعرفها: أنّه يعرف هؤلاء النّاس، وهاته النّصوص، أو على الأقل سمع بهم أثناء الدّروس. على أنّ ثمة أشياء تتجاوز فهمه: أبداً لم يمكن ليتصوّر أنّ شخصاً من طينة إنجلز قد يكون سليل أسرة رأسمالية. كيف يعقل أن يكرّس ابنُ الطبقة البرجوازية حياته للدّفاع عن طبقة البروليتاريا الكادحة؟ وأبداً ما كان ليتخيّل أنّ والدَي لينين من العمّال؛ أنّ رجلاً بهذه العظمة سليل أسرة تافهة، تفاهة شجرة وسط غابة. أو أنّ أسرة ستالين من الفلاحين، ووالده إسكافي؛ أنّ عيون العالم جحظت أمام ابن صانع بسيط. ولا أنّ أقوى الرّجال، القدير، الرّئيس ماو قد وُلد وسط أناس يبذرون ويحصدون. ظلّ هناك، واقفاً، هادئاً وصامتاً، بينما الشّمس تتدفّق من النّافذة والباب، وتسيل على الأرضية. تأمل مطوّلاً أهرامات الكتب والسير المسطرة بالقلم الأحمر، وبدا كأنّما قد أشرق في

ذهنه ما كان يقصده والده: «انظر، وسوف تعرف ما عليك أن تبدله من جهود لتنجح!» وفي الآن نفسه، بدا كأنّ لا شيء وقع، هبّت الرّيح عاصفة أمام عينيه، انصرف من غير أن يترك أثراً يدلّ على مروره، مع أنّه كان يمكن أن يأخذ معه شيئاً. كان يقف هناك، حازماً، وإذا صوتٌ مدوّ يخرق بغتة صمت المدرسة.

كأنّما هوت شجرة جوفاء.

أو كأنّ رزمة من قطنٍ أو حريرٍ سقطت.

ما إن تجاوز الصّدمة الأولى، حتّى ركض بملء سرعته، فترك الحجر، وعبر ساحة المدرسة طائراً. وعند باب المقصورة التي تشرف على المدرسة، تسّمّر.

لقد سقط والده بالتّبني عن السّرير.

لقد مات والده بالتّبني.

يداه ما تزالان متشنّجتين تمسكان بقميصه عند مستوى الصّدر. كان الرّجل أقدم مدرّس بالمؤسّسة. حتّى رئيس الإقليم وسكرتيه كانا من جملة من درّسهم هنا. وقد حضر الأوّل دفّنه. وقال ليانفك إنّ المدرّس قد كتب إليه ثلاثة أيّام قبل وفاته، يلتمس منه، باسم ما أمضاه من سنوات في تدريس النّظرية الماركسية-اللينينية لأعضاء الحزب وأطر الإقليم، أن يساعد ابنته في إتمام دراستها، ويمكن ولده، على وجه السرعة، من وظيفة محترمة. ويفضّل أن تكون عنده، في مقاطعة السّرو. إنّ ما يزال صغيراً، يكفي أن يُعيّن عامل مراسلة، وبعد سنتين، مدرّساً اشتراكياً، فإن أحرز نتائج جيّدة يمكن أن نفكر في تسميته إطاراً.

وقد عيّنه الإقليم عامل مراسلة بمقاطعة السّرو.

بالطبع كان قد أدرك، في تلك اللّحظة، أنّ الجدول المجهول الاسم الذي صمّمه والده، إنّما هو خطاطة حياته هو كما تخيلها المرحوم. وأدرك أنّه قد جعل فيه كلّ آماله العظام، لدرجة أنّه وازى بين حياته وحياة أعظم الرّجال: متوسّلاً

بالخطوط الحمراء، بينَ له أنَّهم هم أيضاً كانوا في ابتداء أمرهم أناساً عاديين. يكفي إذن أن يبذل المرء وسع جهوده، وأن يخلص السَّعي، ليصير لامعاً مثلهم.

وفي اليوم الذي ترك فيه المدرسة، قصد المخزن، فسحب من الأهرام الورقات التي كانت مَدسوسة فيها، وأعار كامل عنايته للورقة التي كان سطرُها الأوَّل: عامل مراسلة في مقاطعة شعبية، ثمَّ مدرَّس اشتراكية، ثمَّ في سطرها الخامس سكرتير مقاطعة، وفي التَّاسع رئيس إقليم. والأسطر العليا الباقية كانت فارغة حتَّى السَّطر التَّاسع عشر. شيءٌ ما اهتزَّ في داخله. نفحةٌ من طاقة انطلقت من قدمه، متسلِّقةً ربلتيه، حتَّى تسلَّلت إلى أحشائه، وسرت في عظامه. وفي تلك اللَّحظة، لم يعد يشعر بالفقد الذي سبَّبه له موت الأستاذ، لم يعد يرى إلَّا النُّور، كأنَّما يشهد شروق الشَّمس في نهار صافٍ. دفعةً واحدةً هُبِّي له أنَّه قد صار راشداً، في السَّادسة عشرة من عمره، ويشعر أنَّه تعدَّى السَّادسة والعشرين، لقد أفسحت وفاة والده الطَّريقَ له، وليس عليه إلَّا أن يدفع الباب ويتقدَّم على الدَّرب المفضي إلى السَّماء.

وكان أن حزم أمتعته، حاملاً فيها حزمةً من تصاميم هرمية، وقصد مقاطعة السَّرو، يوزع فيها الرِّسائل والجرائد، ويسخِّن الماء، ويكنس الباحات، وتلك مهمَّتهُ باعتبارِه عامل مراسلة.

عشر سنوات بعد ذلك، أي في اليوم الذي عُيِّن فيه رئيس مقاطعة، صادرَ، مثل إمبراطور يتحكَّم في الشَّمس والمطر، حُجرةً، وهيَّأها على نموذج المستودع الذي وضع فيه أبوه بالتَّبني الكتب. في جدارٍ منها علَّق بورتريةَ الزَّعماء العشرة - ماركس، وإنجلز، ولينين، وستالين، وماو، وتيتو، وهو شي منه، وكيم إل سونغ، إلخ -، وتحتهم بورتريةُ المارشالات العظام - تشودي، وتشن يي، وهي لونج، وليو بوشنغ، ولين بياو، وبينغ ديهوي، وي جيانيانغ، وكسو كسيانغكيان، وليو رونغهوان، وني رونغزن. وتحتهم وضع لوحات سيريَّة تشير إلى أعظم منجزاتهم. وعلى الجدار المقابل، صورةٌ مكبَّرةٌ للمدرَّس، برَّوزها في إطارٍ مرآة. ثمَّ، لصق الصُّورة، خطاطةً في شكل هرم من تسعة عشر طبقة، ومن نفس حجم الإطار، وقد كتب أسفلها بضعة أسطرٍ بحروف متلاصقة: ليو يانغك، وُلد في إقليم

شوانهواي إبّان المجاعة الكبرى، سنة ١٩٦٠، وتركه والداه في أرباض المدينة. تبنّاه مدرّس من المدرسة الاشتراكية بالإقليم، ومنذ طفولته المبكرة أبان عن فطنة كبيرة. تعلّم فكّ الحروف، وقراءة الصحف وتحرير الرّسائل من دون أن يمرّ من المدرسة الابتدائية. وسرعان ما هضم النّظرية الماركسية اللّينينية.

الطبقة الثانية لا تضمّ سوى سطرين: اضطرّ إلى أن يكسب حياته بعد وفاة أبيه بالتبني، في سنة الأرب ١٩٧٥، وكان قد بلغ هو الخامسة عشرة من عمره، التحق بالعمل الثوري، فشغل مهمّة عامل مراسلة بإقليم السّرو.

الطبقة الثالثة: في التّاسعة عشرة من عمره، سنة ١٩٧٨، سنة الحصان، صار رسمياً إطارَ دولة، وعُيّن مدرّساً اشتراكياً طليعياً.

الطبقة الخامسة: في التّاسعة والعشرين من عمره، سنة ١٩٨٨، سنة التّين، وقد تقلّد منصب سكرتير لجنة الحزب بمقاطعة الصّفصاف، فتميّز بقدرته على جذب المستثمرين ورؤوس الأموال.

ومن الطبقة السّادسة، وحَتّى القمّة، ظلّ البياض بياضاً، ينتظر أن يُملاً ذات يوم.

بورترهات الرّجال العظماء، وسيرهم، وصورة أبيه بالتّبني، ومسوّدة سيرة حياته، انتقلت معه حيثما انتقل، تابعة مسارَ صعوده، فانتقلت معه من المقاطعة إلى البلدة، ثمّ من البلدة إلى هذه الحجرة ذات الصّفوف الثلاثة، في الجناح الجنوبيّ من مأوى أعضاء الحكومة وحزب شوانهواي. طقسها مقدّس. تطبّع مهابةً، فلا عجب أن يسمّيها، بينه وبين نفسه، حجرة العبادة.

تعليق

(١)- وقور، نعت. - مبجل، مهيب.

الفصل الحادي عشر

الرجالُ العظامُ في المقدمة، وأبوه بالتبني في الخلف

لقد أحرز رئيس الإقليم نجاحاً كبيراً، طبعيُّ إذن أن يقصد حجرة العبادة. طيلة حياته، ظلَّ يشعر بضرورة أن يزور الحجرة المذكورة، كلما حقق إنجازاً.

الليل يمضي رويداً صوب قراره. ضاع ضياءُ القمر، وحتى النجوم غارت. السَّحب تَلَفُ المدينة كضباب. يبدو أنَّ الجو سيمطر، لقد غاص الكونُ في الظُّلُمات السَّميكة الدَّبقة التي تحوطه كجدار. وهنا وهناك يلتمع ضوءُ مصباح، لكنَّ أغلب المصابيح كان مطفأً، فإمَّا أنَّ المصباح احترق، أو أنَّ التِّيَّارَ قُطِع. وعلى الرَّغم من أنَّ المدينة قد تغيَّرت كثيراً تحت إدارته، - إذ كان يخصم بعضاً من النُّقود المخصَّصة للشِّرى، فيوسَّعُ بها الطَّرقات، ويهيئُ المدارات - إلاَّ أنَّها ما تزال متداعيةً متهالكة، ولا تُضاءُ مساءً إلاَّ أمامَ مقر الحكومة واللَّجنة. والحالُ أنَّه لم يكن يرغب في أن يمرَّ من هناك. الشَّارع جديدٌ، وفيه يصادفُ المرء أناساً مسنَّين وآخرين شباباً، يقصدون المكان لينعموا بشيء من البرودة، فلا بدَّ أن يتعرَّف عليه الجميع. إنَّ وضعه أشبه ما

يكون بما وقع سنة ١٩٦٦، بداية الثورة الثقافية، حين لم يبقَ إنسانٌ إلا وعرف من يكون الرئيس ماو. ومُنذ أن تقلّد صاحبنا منصبه، أقسم على أن يحوّل جبل الأرواح الميّتة إلى منتزه غابويّ، وأن يقيم به ضريح لينين بعد أن يشتري رُفاته، فصار الجميعُ، في كلّ الأزقة والشوارع، على اختلاف أعمارهم، يعرفون شكله. صدرت وثيقة موقعة بيده، تعدّ بأنه، ما إن يستقرّ بالمومياء في الجبل، حتّى تصير الكشوف الطبيّة مجانيّة بالنسبة إلى سكّان القرى؛ وسوف يذهب التلاميذ إلى المدارس من غير أن يكلفوا ذويهم شيئاً؛ وسوف يُعفى السكّان من رسوم الماء والكهرباء؛ كذلك سيُعفى الفلاحون من أداء ثمن تذاكر الحافلة التي تقلّهم إلى السوق؛ وخلال السنتين اللّتين ستليان تدشين الضريح، ستكون كلّ الأسر قد حصلت على منزل. سقطت المذكرة المكتوبة في القلوب، كما يسقط الرّذاذ في جداول، فتغلّغت فيها، وصار أصحابها ييجّلونه. وفي أقاصي الأرياف صار بعض القرويين إلى تعليق صورته جنب صورة الرئيس ماو، وإليه المنزل، وبوذا. وفي المدن، صار النّاس الذين ما يزالون يعلّقون صوراً حارسةً على أبواب بيوتهم، يعلّقون في جانب صورة المحارب غوان يو، وفي الجانب الآخر صورة رئيس الإقليم؛ أو في جانب صورة ليو يانغك وفي جانب آخر صورة الشّجاع زاو زيون.

إنّ المطعم الصّغير، المسمّى بيت الضّيوف، الذي كان قد توقّف فيه أثناء إحدى الجولات، وخصّه بإهداء مكتوب، قد غدا يزدهر، الزبائن يطرقونه بكثرة، والأرباحُ قفزت قفزةً مهولةً. وأيضاً ذاك الفندق على جانب الطّريق، حيثُ نزل القسم الأكبر من إحدى

الليالي. لقد غلّف ربُّ المقهى بثوبٍ أحمر الحوض، والمنشفة وعلبة الصّابون التي استعملهما رئيس الإقليم، لكي يحفظهما في صندوق تذكاراته (١). وبالباب علّق لافتة: في الشهر كذا، من السنة كذا، أقام هنا رئيس الإقليم ليو يانغك؛ وصار يجرو على أن يطالب بعشرين يوان أجراً لغرفة لا تستحق أكثر من عشرة. وبعد شح، صار الزبائن يقفون في صفّ، طالبين استئجار الغرفة، راغبين في أن يضطجعوا على السرير الذي نام عليه، ويجلسوا على المقعد حيث جلس. وصار سائقو الشاحنات، لا يتردّدون في أن يقطعوا مسافة مائة لي، ضاغطين على دواساتهم، لكي يغنموا فرصة الإيواء بالفندق المعلوم.

إنّ رئيس الإقليم يُعدّ في شوانهواي شخصيّة مذهلة، ملثما كان يعتبر الإمبراطور تشيان لونغ أو الإمبراطور غانغ شي في زمنيّهما، أو تزو يوانزهانغ وسونغ تايزو تحت حكمي مينغ وسونغ.

لم يكن بإمكانه التّجول في الأزقة منفرداً. إنّ النّاس على استعدادٍ لأن يبذلوا وسع جهدهم لكي يتمكّنوا من أن يبلغوه بهذا الأمر، أو يطلبوا منه تلك المسألة، وأن يتعاركوا في سبيل مصافحته أو جعله يحمل أطفالهم بين ذراعيه، حتّى يكون بوسعهم فيما بعد أن ينطلقوا بين النّاس ناشرين الخبر: في اليوم الفلاني، بالمكاني العلّاني ضمّ رئيس الحزب ولدنا إلى قلبه.

وإن كان قد حاز كلّ هذا الصّيت، فإنّما حازَه بفضل فرقة طيّبة التي تكسب من النّقود أكثر ممّا تجمع ربحُ الخريف من أوراق ميّته،

حتى غدا شراء رفات لينين أمراً ممكناً. إن لم تأتِ الأيّامُ الحلوةُ غداً، فلا ريب في أنها آتيةٌ بعد غد، لكن المؤكّد أنها آتيةٌ لا ريب. ولما أن رفع الثمانمائة ألف ساكنٍ من سكّانِ الإقليم، رئيس إقليمهم إلى مصاف الآلهة المبجّلة، لم يعد بإمكانه أن يتجوّل وحيداً. لحسن حظّه كانت الأجواء معتمّةً كفرن. وقد بلغ أحياء موظفي الحكومة عبر أزقة ملتوية لم يصادف فيها شيئاً أو شخصاً ممّن قد يجد عناءً في التخلّص منه.

كان منزله يقع شمالاً، قياساً إلى المساكن الحكومية. وبالطبع تقعُ غرفة العبادة هناك. على أنّه بخلاف مأواه الواقع أقصى الباحة، كانت هي تقع في الجناح الجنوبيّ، حيث تشغل مساحة ثلاثة امتداداتٍ، وكانت في الأصل صالة اجتماع مكتبٍ ما، اضطرّوا إلى إخلائه حتّى يستغلّه رئيس الإقليم. لقد بلغ الليل نقطته الأحلك، والناس الذين كانوا قد خرجوا طلباً للانتعاش، هم أولاء عائدون إلى بيوتهم. ولم يكن الرّجل السّتينيّ الذي يشغل وظيفة البوّاب قد نامَ بعد، فلما مرّ رئيس الإقليم لمحّه من النافذة، فهرع إليه ينحني أمامه.

«ألم تنم بعد؟»

- لقد أنصتُ إلى الخطاب الذي تلوته ظهيرة اليوم، من فوق الطاولة بطابق مبنى اللّجنة. طار النّعاسُ من عيني وأنا أفكر في الفكرة التي طرحتها: صعوبةُ إنفاق ما سنحصل عليه من مال!«.

هزّ ليو رأسه، وعلى شفّتيه ابتسامةٌ عريضة. وبعدما طمأن

السَّيِّخَ بِكَلِمَاتٍ، انعطف يمينا، باتجاه الجناح الجنوبي. كل خطوة يخطوها يتردد صداها وسط السكون. فلما بلغ الباب، تفحص المكان حوَّاليه، قبل أن يستخرج مفتاحاً من شقِّ في إطار الباب، ثم فتح القفل، ودخل، فأقفل خلفه، وأدار قابس الكهرباء.

أنارت الغرفة، دفعةً واحدة صار يغطيها بياض الثلج. مصابيح النيون الثلاثة المعلقة في السقف تغمر الامتدادات الثلاثة بنور مبهر. الجدران اكتست بلون الجير الأبيض اللامع، والنوافذ التي كانت تظل مغلقة على الدوام، لم تكن تسمح للغبار أن يتسلل بسهولة. طاولة وكرسيّ هما كل أثاث الغرفة. ومن البين بنفسه أن بورتريهات الرجال العظام كانت معلقة أمامه. على صف واحد: ماركس، ولينين، وستالين، وماو، وتيتو، وهو شي منه، وكيم إل سونغ. إلخ. عشرة في المحصلة. وفي صف آخر، ماريشالات الصين العظام. على أنهم وإن كان عشرة، إلا أن عدد الصور إحدى عشرة صورة: الصورة الأخيرة صورته هو، ليو يانغك. وفي الخلف، وراء ظهره، صورة وحيدة، صورة أبيه بالتبني، تعلوها كتابة بخط رئيس الإقليم: لننشر الماركسية اللينينية في شوانهواي. من البين بنفسه كذلك أن في الجدار المقابل، تحت صورة كل رجل من الرجال العظام سُطرت إنجازاتهم وسيّرهم. سطور تذكر في أي سن تقلدوا هذه الوظيفة أو تلك السلطة، وكانت الأحداث البارزة، كما في ورقات أبيه بالتبني، مسطراً عليها بالأحمر. مثلاً: لين بياو، صار قائد فرقة وهو بعد في الثالثة والعشرين من عمره؛ هي لونغ، صار جنرالاً في الحادية والثلاثين من عمره؛ تزو دي،

شارك سنة ١٩٢٩، سنة الثعبان، ولم يكن عمره سوى تسعة عشر سنة، في الانتفاضة الكبرى ضدّ يوان شيكاي الذي أراد أن يعلن نفسه إمبراطوراً، ثمّ سنة ١٩٣٠، سنة الحصان، أي في العشرين من عمره، ساهم في الحرب على دوان كيروي دعماً للشرعية. كلّ ذلك كان مسطّراً عليه بالأحمر. وبالتالي فإنّ بروز تلك العناصر يجعلها علاماتٍ منبّهة، وكلّما دخل ليو الحجرة، تضاعف تقديره لأولئك الرجال العظام، وشعر بنفسه مجبراً على أن يضاعف جهود كي يرتفع إلى مصافهم. خاصّة حين يقرأ أنّ لين بياو كان بالكاد يبلغ الثالثة والعشرين حين فاز بمعركة بينشينغ غوان الشهيرة - معركة دوّت أصداؤها في الصّين كما في الخارج. ينبغي أن يقرّ بأنّه هو، في الحادية والعشرين من عمره، لم يكن بعدّ سوى مدرّس اشتراكية في كومونة السّرو، مجبراً على أن يقطع، مشياً على الأقدام، كيلومتراتٍ من الطّرق الرّيفيّة، ليحثّ الفلاحين على شراء الجريدة، ودراسة النّظرية الاشتراكية. وفي موسم الإيناع كان عليه أن يشحذ منجله، وفي موسم الدّرس أن يحرث الأرض. ومع أنّه كان يحسّ بشيءٍ من المرارة، إلّا أنّ الطّاقة المنبعثة من الأرض كانت تمكّنه من أن يواجه الحياة اليومية بقلبٍ مفعم بالحماس. ولم يكن يحرص على أن يجمع محصول كلّ الفلاحين، ويخزّن قبل موسم الأمطار، وأنّ تخرّج البراعم من الأرض قبل موسم الصّقيع فحسب، وإنّما كان أيضاً يعلمهم بالاجتماعات التي انعقدت في الشّهر كذا، من السّنة كذا، بالمكان كذا في بيكين، والتعليقات التي صدرت تبعاً للاجتماع، والخطوط العريضة التي تلخّصه. وإن كان لأحدٍ منهم قريبٌ في

هونغ كونغ أو تايوان، فإنه يعينه على ربط الاتصال به، وإقناعه،
بشتى الوسائل والحيل، بأن يزور بلد أجداده. ثم ينبغي الحرص
على أن يصل المهاجر منهم وعلى شفثيه الابتسامة، وينصرف وفي
عينيه الدموع وأنفه المخاط؛ أن ينصرف والرغبة تنهشه في أن
يبدل ما جمعه من ثروة طيلة حياة بأكملها، في شق الطرق، أو مدد
الكهرباء، أو إقامة المصانع. ولما كانت، في نهاية المطاف، كل القرى
التي حطّ فيها الرّحل ليو ينغك أغنى من جاراتها، فقد انتقل من
مدرّس اشتراكية إلى سكرتير مساعد بالكومونة، وسُمّي عضواً
في لجنة الحزب، فألقى نفسه، وهو بعدُ شاباً، قادراً على أن يمارس
سلطته على أطرٍ أقدم منه بعشر سنين أو عشرين. لقد استطاع إذن
أن يسطّر تحت سنته الثالثة والعشرين خطأً أحمر.

ثم، ثلاث سنواتٍ بعد أن تغيّر مسمّى الكومونة الشعبية إلى
مسمّى مقاطعة، نُقل إلى مقاطعة الأرز. صحيحٌ أنّه كان نائب رئيسٍ،
لكن لما كان الرئيس مريضاً، وراقداً في المستشفى فقد كان هو من
يدير المنطقة. ومنذ أن تولّى الإدارة، جمع رؤساء القرى، وفرض ألا
يبقى مع النساء والشيوخ إلا عشرة رجالٍ للاهتمام بالبذر الربيعي
والحصاد الخريفي. أما البقية الباقية، الشباب، فينبغي أن يذهبوا
للبحث عن عملٍ في أماكن أخرى. ليسرقوا وينهبوا إن شاءوا،
لكن ممنوعُ البقاء في القرية لزراعة الأرض. لكل واحدٍ منهم أعطى
رسالة توصية، ثم نُقل الشباب والصّبايا، الأولاد والبنات، في
شاحنةٍ حتّى محطة المحافظة أو محطة العاصمة، وهناك أمروا بأن
ينزلوا ويتدبّروا أمرهم. ليس لهم الحقّ في أن يعودوا قبل ثلاثة

أشهرٍ أو ستّة، أيّاً كان السّببُ، حتّى لو ماتوا جوعاً. وإنّ تناهى إلى علم ليو أنّ أحدهم عاد إلى بيته من غير أن يكون أحد أفراد أسرته مريضاً، أو حلّت بهم كارثة، فإنّه يُغرّمه مائة يوان. ليس لديه نقود؟ تصادُرُ إذن الخنازيرُ والخرفانُ، حتّى يأتي الهاربُ باكياً متضرّعا، مستعداً لأن ينطلق مجدداً.

سنّة بعد ذلك، كان عددٌ من أبناء مقاطعة الصنوبر، رجالاً ونساءً، بل وحتّى أطفالاً، قد تمكّنوا من أن يجدوا لأنفسهم عملاً، حتّى وإن كان في غسل الأواني أو جمع الأزبال. وصار حتّى أصغر المداشر يملك ما يشتري به الملح وفحم الأفران. وبدأ النّاسُ يبنون منازل جديدة. وبعد أن استهلكت البنتان البكران، لأسرةٍ من الكسالى لم تكن تلد إلّا البنات؛ قلنا استهلكت البنتان أموالهما في خمسة عشر يوماً، فقرّرتا أن تتقحبا (٣) - فمكّنتا أسرتهما من أن تبني منزلاً في أقلّ من ستّة أشهر -، فاجتمع رئيس الإقليم، عندهما، بأطر الدّائرة: قدّمت الورود، وعلّقت لافتة فوق الباب، وأرسلت إلى القحيبتان، باسم المقاطعة، رسالةً تهنّئة تغرقهما بالمدح، وقد خُتمت الرّسالة بختم الإقليم. صحيحٌ أنّ ليو يانغك بصق على الأرض عند خروجه من القرية، لكنّ الشّباب والصّبايا انطلقوا بكلّ ما في وسعهم من إمكانيّات، يجوبون العالم، وعرفت القرية بعد ذلك أيّاماً زاهرة.

وحين غادر رئيس المقاطعة المستشفى، لم يستعد منصبه. لقد عُيّن ليو يانغك في مكانه.

ولمّا أن صار مُعيّناً رسمياً، صار يتصرّف على نحوٍ يراعي منصبه.
كان يتدخّل، ويقرّر، في كلّ شيء، كأنّه نصفُ إمبراطور.

كان يحدث أن تسوق الشرطة بعض القرويين.

يسأل: «ماله؟»

يُجاب: - لقد سرق. لديكم مفرخةٌ مجرمين هنا، أم ماذا؟

فيصبح وهو يلطم المذنب على وجهه: - قيّدوه! «يذهبُ رجالُ
الأمن القرويون للبحث حبلٍ يقيّدونه به، بينما يُدعى إلى المطعم
زملاؤهم من المدينة، ثم يرافقهم الرئيس حتّى مركبتهم، وما إن
يديروا ظهورهم حتّى يطلق سراح المربوط.

«ماذا سرقْتَ؟».

يُخفّض الفتى رأسه.

فيصبح به: «هل ستقول، نعم أم لا؟»

- محرّكاتٍ من مصنع.

يصيح به بأعلى صوته: انصرف! عقاباً لك، أحكم عليك بأن
تبنّي، خلال السنوات الثلاث القادمة، مصنعاً في بلدك. إن لم
تنجح، وأعادتك إلّي الشرطة، حبستك».

ينصرف الشخص. يقصد المدينة، بعد أن يسلم على أبيه وأمه.
أو يهيم جهة عاصمة الإقليم أو المناطق الجنوبيّة. وبالتأكيد، ما
يلبث أن يقيم في بلده فبركةً صغيرةً للطّحين أو الحبال أو المسامير.

كان ثمة أيضاً الصّبايا اللّواتي يهاتفن من المحافظة. لقد حدث
لهنّ مشكلة، فهل يستطيع أن يأتي لاصطحابهنّ؟ عموماً كان
يتجنّب التنقّل بنفسه. لكن حين لا يجد بُدّاً، كان يأخذُ الحافلة،
فيقصد مركز البوليس، ليجد فيه نحو عشر صبايا في السّابعة عشرة
أو الثامنة عشرة من عمرهنّ، ممّن يتقحّن في بيوت المتعة. ودائماً ما
يجدهنّ عاريات، مقرّفات جنب أكوام ملاسهنّ. وحين يصل
يسأله رجال الأمن العام: «أنت رئيس المقاطعة؟»، يجيبُ مؤكّداً.
فيرمونه بنظرة باردة، ويصقون في وجهه: «سحقاً! في ناحيتكم،
تُعطي العاهرة أكثر ممّا يُعطي القمح!» يتجمّد في مكانه، يخفض
رأسه، يمسح عن وجهه البصاق، ويعضّ على أسنانه متذمّراً، سابّاً
في قرارة نفسه، ثمّ ينتصب، وبابتسامة جذّابة يقول: «اتركوهنّ لي
أصطحبهنّ، وأعدكم أنّي ما إن أصل القرية حتّى أطوف بهؤلاء
القحاب، ليرى الجميع سوأتهنّ!».

يغادر المركز رفقة الصّبايا، وما إن يصير في الخارج حتّى يحدّق
فيهنّ: «لديكن القدرة على أن تدفعن بالرجال إلى الطّلاق، وهجران
زوجاتهم. تستطعن أن تُثرن من الفوضى ما يكفي لتشتيت شمل
عوائل بأكملها. ولديكن من المؤهّلات ما يكفي لتصرن قوّادات،
تُشغلنّ لحسابكن فتيات من مناطق أخرى. ولا بدّ من أنكن أفلسنّ
جراً إرسال النقود إلى ذويكنّ، وبناء منازل جديدة لهنّ، ومدّ القرية
بالكهرباء والماء الشّروب. أبناء بلدكم سيقيمون مسلات تحليداً
لطيب ذكراكن!» ثمّ؟ ثمّ يصق عليهنّ، واحدةً واحدة، ويدور على
عقبه، فيقصد المحطّة الطرقيّة.

وهنّ؟ هنّ، بعد لحظة حيرةٍ، ينخرطن في القهقهة، ثمّ يتفرّقن في شوارع المحافظة.

لاحقاً، كان منهنّ من بالفعل افتتحن صالونات حلاقةٍ، أو تدليك، يكنّ هنّ ربّاتِها، ويشغّلن عندهنّ فتياتٍ من مناطق أخرى، يأوينهنّ في مكانٍ واحدٍ. ومن بين الأولاد، كان ثمة من بدؤوا بجمع الأزبال، وانتهوا على رأس شركاتٍ لجمع الأشياء غير المرغوب فيها، شركاتٍ أسسوها بأنفسهم؛ وآخرون لفرط ما اشتغلوا في نقل الأجر، وحمل الرمال لحساب غيرهم، ألفوا أنفسهم على رأس فريق من تلك الفرق التي تبني مطابخ ناس المدينة، وتُقيم جدرانهم المتداعية وتصنع لهم خِمة الدجاج. هؤلاء ينتهي بهم المطاف بالعموم رؤساء على البنّائين. إن شرع ما بين الطابق الأوّل والثاني من عمارةٍ في الميل شرقاً، يُميلون ما بين الطابق الثاني والثالث، فيصير بإمكانهم إقامة بنايةٍ من خمسة طوابق أو ستّة تكاد تكون مستقيمة. بالمحصلة صاروا يعتبرون أنفسهم مقاولين، وعلى بطاقاتهم يكتبون: مدير فرقة بناء.

ثلاث سنواتٍ بعد ذلك أو أربع، كانت مقاطعة الأرز تبدي مستوىً من الرّفاه يميّزها عن جاراتها؛ فالطُّرق التي تؤدّي إلى مختلف القرى والمداشر فيها كانت مضمروبةً بالإسمنت، وعلى جنباتها ترتفع أعمدة الكهرباء، وعند أبواب البيوت الجديدة تنتصب أسودّ من حجر. صارت المقاطعة أنموذجاً يحتذى في كامل الإقليم، لدرجة أنّ سكرتير الحزب الإقليميّ تنقل بنفسه لزيارتها وتلاوة خطاب. وتمكّن ليو يانغك من أن يسطّر سطرّاً أحمرّاً آخر تحت ستّة السابعة

والعشرين، من رئيس مقاطعة صار سكرتير لجنة. حين بلغ الثالثة والثلاثين، غلظ الخطُّ حتّى ملأ مربّعاً: في تلك السّنة عُيّن مساعد رئيس إقليم. ملاحظة تشير إلى أنّ شغل هذا المنصب في هذه السّنّ يعدّ استثناءً، ويجعله حالة خاصّة في المنطقة.

واليوم سنّه سبعة وثلاثون عاماً، وسيرته متوالية من السّطور المبهرة. وأيّ هدوءٍ في حجرة العبادة هذه! كان يُسمع صوتُ الهواء وهو ينسابُ من إطارِ الباب ودقّته. لقد صار الليل الآن أحلك من إست برّ جافّة، النّاس الذين خرجوا للتبرّد عادوا للنّوم في أسرّتهم، والبوابُ المسنُّ قد أغلق منذ مدّة باب السّكن. ورئيس الإقليم، جالساً على الطاولة التي ترتّب وسط الحجرة، يتأمّل البورتريهات المعلّقة على الحائط، ويقرأ السّطور المسطرّ تحتها بالأحمر في سيرهم. وقف عندها مليّاً، قبل أن يتوقّف بصره عند الصورة التي تلي صور الماريشالات العشرة، نقصد صورته: رأسٌ مربّع، حلاقة عسكرية، وجه متورّد، حتّى حين يتسمّ يظلّ وجهه كئيماً، يُستشعر فيه ضيقٌ يصعبُ إخفاؤه. أهو الخوفُ من ألاّ ينجح؟ بذلته لا تشوبها شائبة، ربطة عنقه حمراء زاهية، لكنّ البذلة لا توحى بأنّها تلائمّه. يبدو كأنّها لم يلبسها ليلتقط الصّورة، وإنّها أضيفت إلى رأسه بعد التّصوير. ليو يانغك يتأمّل صورته، وصورته تتأمّله، لكنّ بينهما رئيس الإقليم يفيض حيويّة، هيأته المصوّرَةُ ظلت كامدةً.

اتّحى من ملامحه الحماسُ.

هذه الصورة تنوّمه.

لفرط ما فحص الأسطر التسعة تحتها، لفرط ما قلبها وقلبها، بدأ يشعر بحكة في باطن قدمه. كانت تحترق، وتلتهب، وكان هو يدري أن قوة ستنشق من الأرض، فتعبر نعل حذائه، وتنتشر في جسده. إلى اليوم، كان يكفيه، بعد أن يحصل على ترقية، أن يقف بمفرده أمام صورته، ليحس فوراً الحماس تحتاجه. فورة تنطلق من باطن قدميه، لتسري في عروقه، فتصعد مع الدم إلى الرأس. لا نحتاج أن نقول إنه كان يلزمه في تلك اللحظات القيام بشيء، إنها اللحظة التي يلزمه فيها تدوين سنّه، ومهمته الجديدة، وأن يسطر بالأحمر تحت العبارة: **ليو يانغك عُنْ في المنصب كذا، في شهر كذا، من السنة كذا.** ثم بعد ذلك يستدير، فيحرق ثلاثة أعواد بخور، إكراماً لذكرى والده، ويظل راکعاً لحظات، ثم يقوم، فيغلق الباب، وينصرف إلى منزله.

هذه المرة، ليست ترقية ما أتى به إلى هذا المكان. لقد أتى إلى هنا بباعث من النجاح الذي حصده فرقة سيرك طيبة؛ أتى لأن ماو تشي وقعت عقداً يلزمها بأن تكون فرقة ثانية؛ ولأنه نهاية السنة سيكون قد حصل من النقود ما يكفيه لشراء رفات لينين. لم يكن يتصور أن تلك الفورة ستأتيه في ظروف أمثل من هذه، تنشق من الأرض، وتنتشر في جسده - إن أثرها أشبه شيء بالأثر الذي يحدث له حين يضع قدميه بإزاء سخان في يوم شديد البرد. بغتة أحس أن يديه ميتين، يلزمه قطعاً أن يدون في الهرم ترقية جديدة، أن يسطر سطوراً أحمر. كان يعرف أنه إن لم يدون شيئاً، ويسطر، فسوف يجافيه النوم.

كان متردداً، العرق يسيل على أصابعه، شيءٌ ما يطنُّ في رأسه،
الدم يغزو صدغيه، ويجري في عروقه ركضاً كأنه سربٌ خيول.
كان يسمعه يتدفق في الجزء العلوي من جسده، حامياً، مثل نهر
خلف أذنيه.

بحزم أخرج من جيبه قلماً أسود، وصعد على كرسيٍّ ليبلغ به
لوح السيرة، عدَّ أسطر الهرم من أسفل إلى أعلى، وفي السطر العاشر،
الأبيض، دوّن بخطّ منتظم: في سنة النمر، ١٩٩٨، عُيّن نائب محافظ،
وهو في الثامنة والثلاثين من عمره.

وقد خطر له أن يكتب محافظ، لكن لما رفع قلمه تلبّسه
التواضع، فدفع بالمنصب المنشود سنةً إلى الأمام، وقنع بدرجةٍ
أقل. وذلك ما ترجمه الجملة التي دوّنها وذكرناها. فعلى أيّ حال،
لم يصل رفات لينين بعد، وينبغي انتظار سنةٍ على الأقل حتى نبلغ
اللحظة التي يصير فيها الشعب عاجزاً عن صرف نقوده، وحتى
ذلك الحين، يصعبُ عليه أن يعرف ما إذا كان سيرقى نائب
محافظ، أم تُراه سيحرقُ المراحل، تلك ليست حقيقةً بيّنةً بنفسها.
وكان رئيس الإقليم يعي جيداً عدم صواب أن يذكر المرء منصباً لم
يتحصّله بعد، حتى زوجته نفسها لا ينبغي أن تسمع بالأمر. لكن
ذلك لم يمنعه من مواصلة الكتابة، فخطَّ السطر، ورسمَ من تحته
سطراً أحمرَ سميكاً سماكةً عارضةً. وكانت الأسطر التي كتبها سابقاً
قد مرّ عليها زمنٌ لا بأس به، فبدأ حبرُها ينقلبُ إلى السواد، كأنها
تتحرقُ إلى أن تضافَ إليها أسطرٌ جديدة. فلما فرغ كان السطرُ براقاً

مبهرًا. قفز عن الكرسيّ، تراجع خطوةً إلى الوراء، وتأمل صنيعه. أشرق وجهه، وهدأ قلبه فوراً. وانسحب الدّم والقوة اللذين كانا منذ لحظةٍ في فورتها.

ينبغي أن يعود إلى بيته، لقد صار الليل حالكاً حلكة لا حدّ لها. لكن في اللّحظة التي همّ فيها بالخروج، في اللّحظة التي أدار فيها المفتاح في القفل، انتابه الانطباع بأنّ شيئاً ما ينقصه. حسب أنّه نسيّ حرق البخور لأبيه بالتّبي، فأخرج من درج مبخرةً مليئةً بالتراب، وثلاثة أعواد. أشعلها، وغرسها في دعاماتها، ثمّ حرّك الطاولة بحيث جعلها تحت البورترية، ووضع فيها قربانه مستقيماً. أخذ يتأمل الأدخنة الحلزونية التي ترتفع، وقد استقرّ في نفسه الآن أنّه، من حيث هو رئيس الإقليم، ومثله مثل إمبراطورٍ يستطيع أن يغطّي بيده السّماء، لم يعد لائقاً به أن يكرّم والدّه وهو منحنيّ على ركبتيه أو راعع أمامه، كأنّه رجلٌ من عامّة الشعب. استدار شطر الصّورة وبنظرةٍ جادّة ومهيبة، شابكاً يديه أمام صدره، انحنى ثلاث مرّات هامساً: «أبي، لا تقلق، أنا متأكّد من أنّي سأجلب السّنة القادمة رفات لينين وأقيمه في جبال الأرواح الميّتة. بعد سنتين أو ثلاث سأكون نائب المحافظ».

فلما أكمل هذه المهمّة، حسب أنّه قد فعل كلّ ما ينبغي عليه فعله، وظنّ أنّ بوسعه الانصراف مطمئناً. لكن في اللّحظة التي أشاح فيها بعينه عن الصّورة، وهمّ بالخروج، عاد إليه الانطباع بأنّه لم يُتمّ المهمّة. كأنّها بحث في نفسه عن شيئاً، فوجّده، فلما فحصه تبين

له أنّه ليس الشيء المنشود. لقد أحرق البخور، لكن ليس ذاك ما كان ينقص. ظلّ برهة صامتاً، ثمّ استدار، فتأمل صفّ البورتريهات على الحائط. تأملها واحداً واحداً، فلمّا وقع بصره على الصّورة الخامسة من الصّف الثاني، صورة لين بياو، تحرّك. لقد أدرك ما عليه أن يفعل، [أو بالأحرى] ما يرغب في أن يفعله.

من دون أدنى تردّد، انتزع صورته من موضعها في الجدار، ووضعها في موضع صورة الماريشال، ووضع صورة الماريشال مكان صورته هو.

أخيراً استعاد سلامه. كأنّها بحركة واحدة من يده، استطاع أن ينجز عمل عشرات السنين، وقد خمدت في نفسه كثيراً الغيرة التي كان يحسّها تجاه لين حين يفكر في أنّه قد صار جنرالاً في الثالثة والعشرين من عمره. كان يقف هناك في الموضع حيث كان دائماً يتأمل صورة الجنرال، على أنّه الآن صار يتأمل صورته هو. كلا، لم يكن الإطار غريباً، حتّى أنّه حسب أنّ الحزن قد انمحي من نظرتة، محلياً مكانه لجلدٍ صريح. ثمّ؟ ثمّ التهم بعينيه صورته بجانب ليو بوشنغ، وابتسم لهذا الإنجاز الهائل، فرك يديه ليتخلّص من الغبار، وغادر حجرة العبادة.

صار اللّيل عميقاً مثل بئر، لكنّ، لكن في بيته نور. النّافذة تلمع كالشمس، نظر إليها ليو يانغك مبهوراً، ثمّ سلك طريق المنزل.

تعليقات

(١) تذكار، اسم، مذكر. لهجة محلية. ذكرى.

(٣) تَقْحُبُ، لهجة محلية. على خلاف كلمة «دعارة»، لا تحوز كلمة تَقْحُبُ دلالةً قذحية.

الفصل الثالث عشر

من خرج من المنزل؟

- «ساعة وأنا أطرق الباب. كلُّ هذا الوقت لتفتحي!
- هذا أنت؟ خشيت أن يكون لصاً.
- كفى. عندي سؤال: من الشخص الذي خرج من المنزل تَوّاً؟
- لمَ تسألني ما دمتَ قد رأيته؟
- لمَ أَرِ إِلَّا هِياًةً، فمن يكون؟
- سكرتيرك.
- وما الذي يفعله هنا، في هذا اللّيل؟
- حمل إليّ أدويةً، أنا مزكومة. أنت من كلّفه بخدمتي، وأن يأتي إليّ في أيّ وقت احتجّته فيه.
- أصغي إليّ، في المرّة القادمة تجنّبي استضافته في وقت متأخّر كهذا.
- لا تصدّقني! سلّه إذن.

- كلمة مني، ويفقد وظيفته.

- اطرده.

- كلمة، وتعتقله الشرطة.

- اتصل بالشرطة!

- كلمة، وتحكم عليه المحكمة بعشر سنين، وربها بالمؤبد.

- ليتعفن في السجن!

...

- ألم تعدني بالأ تعود قبل ثلاثة أشهر؟

- هذا بيتي. أعود إليه متى ما أحببت.

- طيب، تذكر على الأقل أن لك بيتاً! وما زلت تذكر أن بوسع

المرء دخول بيته! قاوم إن كانت لديك الشجاعة، واصبر

شهرًا آخر!

- لم أعد أريد أن ألتزم بقراري. هل لديك علمٌ بعظمة ما

أنجزته في شوانهواي؟ سگان الإقليم يركعون لي، كما قد

يركعون لإمبراطور.

- أعلم أنك كوّنت فرقة سيرك، وأنتك في العام المقبل تستطيع

أن تشتري رفات لينين، وأنتك تنوي أن تصير محافظاً في

غضون سنتين أو ثلاث. لكن، هل تعرف ما فعلته ابتك

هذا الشهر، وكيف حالي أنا؟

- ابنتي؟

- إنها عند دايّتها.

- كلّ شيءٍ مرّ في غيابي على ما يرام؟

- أصابنا البرد، ارتفعت حرارتها إلى تسع وثلاثين درجة، واضطررنا إلى أن نتركها ثلاثة أيّامٍ تُحقنُ وردياً في المستشفى.

- آه! خشيتُ أن يكون الأمر خطيراً. اسمعي، لقد وقعت للتوّ عقداً مع ماو تشي، عجوزٍ طيّبة. يُلزمها العقدُ بأن تكون خلال خمسة عشر يوماً فرقةً ثانية. وبفضل مداخل العرضين ستغرق ميزانية الإقليم بالأموال الدافقة. ونهاية السّنة، سيكون عندي ما يكفي من المال لأذهب إلى روسيا، فأشتري رفات لينين. انتظري وسوف ترين؛ ما إن أُستقرَّ به في جبل الأرواح الميّتة، حتّى يصير الإقليم غنياً، سنغتني حتّى تفيض الأموال من الأبواب والنوافذ. ستوجعُ الرؤوسُ وهي تقلّبُ كيف تصرف المال. جميع السّكان سيلقحون مجّاناً ضدّ الزّكام، في أوّل الشّتاء، ولن يخشى المرض أحدٌ... هه! هل نمت؟ هل تشعرين بالنّعاس؟

- هل رأيت أيّ ساعةٍ نحن؟

- حسناً، إلى الفراش إذن، لن أتميّأ.

- نم هناك.

- وأنت؟

- أنا؟ سأنام هنا.

- ما الخطبُ؟

- أنا حائض.

- سألقنك درساً: زوجك لم يعد المدرّس الاشتراكيّ بكومونة السّرو، الذي تزوّجته. ليس إطاراً حقيراً، وإنّما رئيس إقليم! إمبراطور شوانهواي! ثمانمائة ألف فردٍ يأتّمرون بأمره، مئات الآلاف من الصّبايا، أشبُّ منك وأجمل، طوع يده إن أراد أن يضاجعهنّ.

- أنا أيضاً سألقنك درساً، أيّها المدعو ليو: لا تنسَ من أين أتيت، ولا من آواك وأطعمك. أتظنُّ أنّك أصبت المكانة التي أصبتها اليوم، بمجهودك وحده؟ إن كان سكرتير كومونة السّرو، قد أدخلك إلى لجنة الحزب، فإنّما مردُّ ذلك إلى كونه كان تلميذاً لأبي؛ وإذا ما كنت قد صرت رئيساً على مقاطعة الأرز، فإنّما لأنّ رئيسَ الهياة كان كذلك تلميذاً لأبي؛ ولما صرت أصغرَ رئيسٍ إقليم، فإنّما عُيّنَت من طرف نيو، سكرتير المحافظة، وكان هو مديراً سابقاً بالمدرسة الاشتراكية، ويعرف والدي حقَّ المعرفة... أوه! هيا، تفضّل، واصل! اكسر كلّ ما تطوله يدك. فليعلمنّ الإقليم: رئيسه قادرٌ على أن يرمي الأواني والصّحون، ويكسر المزهريات والطّشوت!

- تتكلّمين، وتتكلّمين، لكن، ليس لديّ أنا ما أخجلُ به إزاء

والدك! لقد تبّناي، لكنني صرْتُ رئيسَ إقليم، وربّما بعد
ثلاث سنواتٍ أصير محافظاً، وسوف أستمّر في حرق البخور
لذكراه!

- أين؟

- في قلبي.

- أف. هل ستذهب لتنام في هذه الحجرة أم لا؟ إن لم تذهب
أنت، سأذهب أنا.

- لن أنام في هذه، ولا في تلك. شوانهواي مملكتي، وأستطيع
أن أنام فيها حيث شئت. هل تظنّين أن رئيس الإقليم لن
يجد مكاناً يأوي إليه، إن خرج من هذا المنزل؟ وأصارحك:
أيّ مكانٍ آخر سيكون أريح لي من هذا المكان. لولا أن
أباك أجبرني قبل وفاته، ولولا أنّي وعدته بأن أعطني بك ما
حييتُ، لما أحسست بشوقٍ إليك - حتّى لو اضطررتُ إلى
أن أغيب ثلاثة أشهر، ثلاثة أشهر لا تطأ فيها قدمي البيت.

- بيّن لي أنّك تقدر على أن تصبر ثلاثة أشهر! ثلاثة أشهر دون
أن تلمسني مرّة...

- تظنّين أنّي لا أستطيع العيش بدونك؟

- ارحل! اذهب إلى جبل الأرواح الميّتة، وابنِ ضريحَ لينين؛
اذهب إلى روسيا، واشترِ رفاتَه. إن ضعفتَ، ولو لمرةً واحدة،
خلال الثلاثة أشهر القادمة، ومررت من أمام هذا البيت،

فلست رجلاً، ولا رئيس إقليم! ولا حاجة لأن تتوهم في
أنك ستصير محافظاً، فحتى إن حدث الأمر سينتهي بك
المطاف خلف القضبان!

- أوه! أنا إذن قادرٌ على جلب رفات لينين، وأكون عاجزاً عن
قضاء ثلاثة أشهر بدونك؟ عُدِّي على أصابعك: آخر مرة
أخبرتُك فيها بأنني سأغيب خمسة عشر يوماً، غبتُ شهراً
وثلاثة أيام. وهذه المرة قلتُ ثلاثة أشهر، حسناً، أقرُّ بأنني لم
أصبر إلا شهرين. لكنني الآن، أوكد لك: ليو يانغك، رئيس
الإقليم، لن تطأ قدمه هذا المنزل قبل ستة أشهر. وما دمت لم
أجلب الرفات، في ستة أشهر، أو حتى عام، فلن تري وجهي.
- حسناً. اغرب. إن استطعت حقاً أن تصبر ستة أشهر لا تجتاز
فيها عتبة هذا الباب، فسوف أفعل أي شيء تأمرني به. حتى
لو طلبت مني أن أركع لك، كما يُركع للإمبراطور، أو أن
أخرج من الغرفة وأنا أحبو متراجعةً بظهري.

- اتفقنا. فإن رفضت الركوع؟

- حق لك أن تنبش عظام والدي في المدرسة الاشتراكية.

- حسناً.

- لكنك إن لم تصبر، خلال الستة أشهر، على الرغبة في العبث
بجسدي؟

- حق لك أن تنقلي رفات والدك إلى جبل الأرواح الميتة.

- اتَّفَقْنَا. وَمَنْ لَمْ يُوْفِ بِعَهْدِهِ، أَلَا فَلْيُدْهَسَنَّ فِي الشَّارِعِ، أَوْ
يَشْرَقَنَّ بِشَرْبِ الْمَاءِ، أَوْ فَلَتَخِزْهُ شَظِيَّةٌ سَامَّةٌ، وَيَصْعَدَ السَّمُّ
إِلَى قَلْبِهِ، وَلِيَهْلِكَنَّ فِي عَرَاءِ الْبَرَارِيِّ.

- لَا حَاجَةَ بِكَ إِلَى كُلِّ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ. إِلْعِينِي، كَيْ لَا أَسْتَطِيعَ
جَلْبَ لَيْنِينَ، وَسَيَكُونُ كَافِيًا، سَيَكُونُ أَشَقَّ عَلَيَّ مِنَ الْمَوْتِ!».
ثُمَّ، بَانَ! خَرَجَ مُصَفِّقًا الْبَابَ.

الكتاب التاسع

أوراق

الفصل الأول

كل هذه الأيدي المرفوعة، تشكل غابة من الأذرع الممدودة

صارت طيبة قرية خاوية على عروشها منذ أن غادرها المعاقون. حتى ذو الأصابع الستة رحل، مع أنه لم يكن إلا ناس - تاماً له شيء ضئيل زائد عما لدى بني جلدته. لكنه بفضل إصبعه الملحقة كان قادراً على أن يتناول من الأرض كرتين بحجم أنيتين: على الخشبة كان يُقدّم بوصفه الرجل ذا الستة أصابع القادر على جمع الكرات.

حتى الشيخ الأعرج الذي سلخ من السنين واحدة وسبعين قد قبل في الفرقة. إذ كان لديه أخ يشبهه بعض شبه، فارتأى المدير المساعد أن يبدل السجل العائلي، ويمنحها بطاقتي هوية جديدتين. غير تاريخ ميلاد أكبرهما، أي صاحبنا ذا الواحد وسبعين عاماً، فلم يعد من مواليد زمن الجمهورية الصينية، عام القرد، وإنما من مواليد الشهر السابع، قرناً من قبل. مما يجعل سنّه مائة وواحداً وعشرين عاماً. مائة وواحد وعشرون عاماً، وليس أي رقم آخر من الأرقام الدائرية المقدرة، وكل ذلك لكي يكون رقماً معقولاً يمكن أن يصدّقه الناس - تامون. طيب، مائة وواحد وعشرون عاماً، فماذا عن الأخ

الأصغر؟ لقد وُلِدَ في السَّنة التَّاسعة والعشرين من زمن الجمهورية، أي ثلاث سنين بعد أخيه، فلمَّا أن أضيفت إلى عمر أخيه ستَّة عقودٍ، فقد صار يصغر عنه بثلاثة وستين عاماً، فما عاد يُعتَبَرُ بالنَّسبة إليه «أخاً أكبرَ»، وإنَّما «جَدًّا»! الأصغرُ يدفعُ بالأكبر كرسياً متحرِّكاً، ويُري المتفرَّجين الأوراق التي تشهدُ بطول عمره، مطلقاً بين الفينة والأخرى كلمة «جَدُّو!»، أمام آلاف الأشخاص؛ يومئ الأكبرُ برأسه، فتبدأ الصَّالة في الوشوشة وإطلاق تنهيدات مصدومة أمام هذا المعاق الذي جاوز المائة، وما عاد يرى إلا رؤيةً مشوشةً، أو يسمع إلا سمعاً ثقيلاً. ويبدو [مع ذلك] في سنٍّ حفيده! باستثناء ساقيه المشلولتين، وفمه الذي فقد بعضاً من أسنانه، وعجزه عن التنقل، كان كلُّ شيءٍ ما يزال في حالٍ جيِّدة. وقد أحرز العرضُ نجاحاً لا يقلُّ عما أحرزه غيره من العروض، وكان ثمة دائماً بين الجمهور من يقف، فيصرخ:

«وماذا يأكل جدُّو؟».

وكان الجدُّو يتظاهر بأنَّه لم يسمع، فينوب عنه في الجواب الحفيدُ ذو التَّاسعة والخمسين، بنبرة سكَّانِ جبالٍ بالو:

«ماذا يأكل؟ يأكل الحبوب!».

سؤال: «هل كان يمارسُ الرِّياضة؟».

جواب: «بالأكيد، ظلَّ طيلة حياته يحرث الأرض! إنَّ شغل الأرض خير تمرينٍ بدني!».

سؤال: «لم صار مشلول القدمين؟».

جواب: «سقط منذ ستة أشهر في وادٍ قصده كي يقطع الخشب!
- كيف! يقطع الخشب وهو في الحادية والعشرين بعد المائة من
عمره؟ ما يزال يشتغل؟ وأبوك، كم سنّه؟ أما يزال يشتغل؟
- سبعة وتسعون عاماً! لقد بقي في المنزل لإطعام الثور والاعتناء
بالحقل في غيابنا».

وما تزال الصّالة ماضية في الاضطراب والذهول، وما تزال
تقصفُ بالأسئلة. ثم تنال نجاحاً كاسحاً فقرّء: «احزروا سنّ
الشيخ!»، إذ يتعالى الهاتف بالأرقام.

انطلقت الفرقة الثانية إذن. ولدهشة الجميع، ما إن بدأت
عروضها في العالم الرّحب، حتّى حازت النّجاح نفسه الذي حازته
الفرقة الأولى. عددُ أفرادها تسعة وأربعون، من قرويي طيبة،
كلّهم معاقون، هذا من البيّن بنفسه، تقوّدُهم عصا ماو تشي. وفي
جملة الأعضاء، ثمانُ قزّمات، بالإضافة إلى فلين، بين الثالثة عشرة
والسابعة عشرة من أعمارهنّ، لا يتعدّى طول الواحدة منهنّ ثلاث
أقدام أو أربع، ولا واحدة منهنّ يفوق وزنها سبعة وخمسين رطلاً.
قرّر الإقليم أنّ الثلاث الأصغر بينهنّ، يمكن أن يبدین مراهقات:
ما إن تزيّن، ولبسن فساتين مزهرة، صرن يتشابهن تشابه قطرات
ماء. وشأنهنّ شأن الشيخ وأخيه، مُنحن جميعاً سجلاً عائلياً واحداً،
فصرن تلك المعجزة التي لا مثيل لها في العالم: عشيرة من تسع
توأّمات، استغرقت الأمّ ثلاثة أيّام في إنجابهنّ. وكان يكفي أن
ييقن على الخشبة، ساكنات صامتات، إذ لا يحتجن أن يفعلن أو

يقلن شيئاً، ليُثرن ذهول الجمهور. تحت عنوان «تسع فراشات» كنّ يقدّمن خاتمة عروض الفرقة رقم ٢؛ عرضٌ صُمّم لكي يقدّم تشكيلةً من الألوان الزاهية التي تدغدغ الحواس. وكانت العروض تبدأ بفقرات مماثلة لفقرات الفرقة رقم ١: الأعمى ذو السّمع المرهف، أو الأصم الذي يعلّق المفرقات ويفجّرها في أذنه، أو ذو السّاق الواحدة الذي يقفز عالياً، فيثير دهشة الحضور وذهولهم. وبعد أن يُجذب الحضور، يصير بالإمكان الانتقال إلى «صاحب البصمة السادسة»، و«أغنية من أوبرا بالو». ثمّ يواصل العرض بفقرة «خمنوا سنّ الشيخ»، فترتفع موجةٌ أشدّ دراماتيكيةً، مثل الرّيح التي تنشر رائحة القمح في قِيطِ أيّام الحصاد، مانعةً الحضور من أن يفقدوا دهشتهم. ثمّ يأتي بعد ذلك، مثلما هو الشّأن بالنسبة إلى الفرقة رقم ١، عرض «الطفّل الذي يتعلّق قنينة»، و«التّطريز على أوراق الشّجر». صحيحٌ أنّ المطرزة الجديدة عاجزةٌ عن أن تقوم بما تقوم به الأخرى، أي أن تطرّز على أوراق الشّجر طيوراً وعصافير، لكنّها تظلّ على أيّ حالٍ شلاء تطرّز أوراقاً! حتّى وإن كان لا يخرج من بين أصابعها غير صور زهور الفاونيا والأقحوان، على أوراق الحور والنّجمية، إلّا أنّ الجمهور لم يعتد رؤية نظير هذه الإنجازات في وقتٍ أقلّ ممّا يحتاجه المرء لتدخين سيجارة أو مصّ حلوى: إنّها موهبةُ امرأةٍ شلاء. وصحيحٌ أنّ «طفّل القنينة» كانت ساقه المريضةُ أسمى من ساقِ الطّفّل الآخر، فلا يستطيع أن يتعلّق إلّا برطماناتٍ، لكنّه كان يجرؤ على القيام بشقلياتٍ، وكلّما أنجز شقيلةً منها كان البرطمان ما يزال في قدمه لم يتزعزع أو ينكسر. فتتعالى في القاعة

وشوشاتُ الدّهْشَةِ والتّصْفِيقَاتُ. طيّب! صحیحٌ إذن، أن هذين العرضين أقلُّ جودةً من نظيرَيهما في الفرقة رقم ١، لكن عرض «الفراشات التسع»، خاتمة العروض، كان فريداً وغير قابلٍ للتّقليد. تاسوع مقدّس: أين يجد المرء في هذا العالم تسع توأماتٍ دفعةً واحدة؟ تسع صبايا ولدنَ في بطنٍ واحدة، كلّهن ضيّلاتٍ، لكنهن نجونَ وعشنَ. ثم إن توقّفهنّ عن النّموّ، دليلٌ يزيد من تصديق الجمهور.

صحیحٌ أنّهن قزّماّتُ، لكن الأقرام أيضاً كائناتٌ بشرية. ومن ذا الذي أمكنه أن يتخيّل وجود أخوةٍ مماثلة في مملكة الإنسان؟ قبل الفقرة تتلو المقدّمة خطاباً طويلاً مدهشاً. تسأل: «هل يوجد في الصّالة توائم؟» فيحدث أن تقوم أمّ، محرّرة من الخجل، فتصعد إلى المنصّة مع طفلها. يتأمّلها الحضور في غيرةٍ، لكن سرعان ما تضيف المقدّمة سؤالاً آخر: «هل يوجد في الصّالة ثلاثة توائم؟».

يلوي الحضور أعناقهم، ونفوسهم مفعمةٌ بالأمل. ودائماً تكون الخيبة نصيبهم.

«أربعة توائم؟».

يتلفّت بعض الحضور، أقلّ فأقلّ.

«خمسة توائم؟».

لا أحد يتلفّت. تواصل المقدّمة إغاظتهم.

«- ستة؟»

- سبعة؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

- ثمانية؟».

ثم تختم بأعلى صوتها:

«هل يوجد هنا تسعة توائم؟».

إذاك ينبثق التأسوع المقدس، راكضاً من أقصى الخشبة. يمكن بأيدي بعضهن بعضاً، مثل أطفال الحضانات في المدن، متشابهات، بنفس القد، ونفس الهيئة، متجملات مثل دمي وردية، يرتدين جميعاً سراويل قصيرة من حرير أخضر، وسترات حمراء من تلك التي لا ترتديها إلا الصبايا في سنّ العاشرة، وجميعهن قد جدلن الشعر في ضفيرة واحدة خلف رؤوسهن. كنّ منمنمات، قزمات.

تسع قزمات، اصططفن على الخشبة، كأنهن تسع فراشات ليل (عثات)، ذهلت لمنظرهنّ الصالّة. كان يُهيمن على المكان صمتٌ دينيٌّ، لا يزعجه إلا صوت أضواء الكشافات حين تُسلط على وجوه الحضور.

ثم تُقدّم المقدّمة الصبايا:

«الفراشة الكبيرة، خمسة عشر عاماً، سبعة وخمسون رطلاً؛
الفراشة الثانية، خمسة عشر عاماً، سبعة وخمسون رطلاً؛ الفراشة
الثالثة، خمسة عشر عاماً، سبعة وخمسون رطلاً وثلاث أوقيات؛ وها
هي التاسعة، الصّغيرة فلين، خمسة عشر عاماً، سبعة وخمسون رطلاً
وثلاث أوقيات أيضاً».

تفرغ من التّقديم، ويصير بإمكان الفقرة أن تبدأ.

فقرة مختلفة عن غيرها اختلاقاً بيننا: بما أتهنّ ضئيلات، فكنّ،
بعد رقصه شبيهة برقصة فراشات، يُرزن صغرهنّ. وإليكم كيف:
يدخل المنصّة رجلٌ أعرج قائلاً إنّهُ قد فقد صيصانه، فيبدأ بإمساكن
واحدةً واحدة، ويحشرهنّ في كيس، وحين يتمّ له الأمر، تكون
الحصيلة كيسين ممتلئين، يحملهما على كتفه. ويدور بهما على المنصّة.
لكن لما كان الكيسان باليين، فإنّ في قعرهما ثقبٌ بقطرِ كُرّة، وسرعان
ما تنفلت من الثقب دجاجةٌ صغيرة رقطاء، فأخرى بيضاء، ثمّ ثالثة
سوداء. وبعد أن تفرّ الصيصانُ جميعاً، السوداء والبيضاء والرّقطاء،
تبدأ الصبايا في الرّقص والغناء. تغنّين لحناً من جبال بالو، واحداً
من تلك الألحان الجبلية التي يحتاج غناؤها حنجرةً قويّة. ومن
كان ليصدّق؟ هؤلاء القزمات اللّواتي أدّين دور فراخ، الصّغيرات
مثل صيصانٍ أو فراشات ليل، يمتلكن أصواتاً حادّة مثل شفرات
مشحودة برّاقة. وحين يبدآن في الزقزقة في كورسٍ، يبدو الأمر كأنّ
تسع سكاكين انطلقت متطايرة في الصّالة؛ كان غناؤهنّ يُحدثُ جلبّةً
من العظمة لدرجة أنّ المسرح لا يكفي لاحتوائها، ومثل إعصارٍ
كان الغناء ينفلت من فجوات الأبواب والنّوافذ، والمصاييح تهتزّ،
والغبار يتطاير عن الجدران، ومن هول الصّدمة كان بعض الجمهور
مجبّرين على غلق آذانهم.

وكلّما أقفلت أذنيك، رفعت الفراشات عقائرهنّ بالبالادة

الحزينة:

يا قلبي، هجر حبيبك الجبال
وأنا أنتظره، تكبّلني الوحدة كالأغلال

أغادرُ القريةَ، فألتفتُ إلى الورا
أبدًا، في هذا المكان، لن أرى سراء

أصعدُ الجبالَ وأنزلُ الأنهار
ضاعت رُوحِي في هَذي الأغوار

خطوةً أتقدّمُ، وأتقهقرُ خطوةً
أيّ شباكٍ علقتَ، أيّ صبيّةٍ حلّوتُ؟

خطوتين إلى الأمام، وإلى الخلف خطوتين
أيّ امرأةٍ سلبتكَ، يا حبيبي، مرّتين

ثلاث خطوات إلى الأمام، وإلى الخلف ثلاث
صبيّةٌ هنا، سرقت قلبي كأثاث،

سبع خطوات إلى الأمام، وإلى الخلف سبع
أعيدُك إليّ، هذا قدرِي ورغبتِي بالطبع.

وحين يتوقفن، ينتهي العرض.

لقد حضر سگان المدينة عرضاً رائعاً، يفوق كل توقعاتهم. وبعد عودتهم إلى منازلهم، ظلّوا طيلة أيام، لا يفتحون أفواههم إلا بالحديث عن تلك العمياء القادرة على سماع صوت سقوط دبّوس فضي، وتلك الشلاء التي تطرّز على أوراق الشجر. يتحدثون عن الرجل الذي جاوز من العمر مائة وعشرين، والمرأة التي رُزقت تسع قزّمات: تسع صبايا لقوّة أصواتهنّ يمكن أن ينقضّ السقف. الإشاعة تتضاعف: هؤلاء يقولون عشرة، فيزيد أولئك مائة. والصّحافة والرّاديو أيضاً تزيد الفرقة إعلاناً: ما إن يصل أفرادها، حتّى يُقدّموا إلى الجمهور بوصفهم شيئاً خارقاً، وبالتالي، لا يبقى أحد، لا شيخ، ولا امرأة، ولا طفل، ولا مراهق أو راشد، إلّا ويقصّد المسرح لرؤيتهم. تحقّق المأمول إذن، وحازت الفرقة رقم ١. ٢ التي كوّنتها ماو تشي، النّجاح نفسه الذي حازته الفرقة رقم ١. وصار مستحيلاً أن يقتصر المسرح الواحد على أقلّ من ثلاثة عروض أو خمسة. لقد نظّم الإقليم جولة لكلّ فرقّة على حدة. بدأت الفرقة رقم ١ شرق المحافظة، والفرقة رقم ٢ غربها. فلمّا غطّيتا الجهة، زارتا بقيّة المحافظة، ثمّ واصلتا انطلاقهما: فسارت الأولى باتجاه خنان، وهوبي، وغوانغدونغ، وغوانغشي، تابعة الطّرق والسكك التي تربط بينها؛ بينما اتّخذت الثانية سبيل شانغدونغ، وآنهوي، وجيجيانغ، وشانغهاي.

المنطقة الجنوب-شرقية، تحتكر نصف ثروات العالم، لكنّ سواحل البحر تحديداً هي التي تسبح في البذخ: هناك، إن تبرز

طفل، فلم يجد أبواه ورقاً لمسح مؤخرته، فإنهم مسحونها بورقة نقدية من فئة عشرة أو عشرين. فلما بلغهم خبرُ عرضِ يقدّمه معاقون، لم يهتموا بالأمر بدايةً، ثم ما لبثت الحمى أن اجتاحتهم، فاندفعوا يشاهدونهم، ودهشوا من وجودهم.

كان يحدث أن تضطر الفرقة إلى تقديم عرضين في اليوم الواحد، بل حتى ثلاثة عروضٍ. وصارت إيرادات العروض، التي ترتفع كالماء في يوم ممطرٍ، ترفعُ منسوبَ قناة البنك، فتصبُ في مالية الإقليم. وكان المحاسبُ يذهبُ إلى شبّاك المصرف أكثر ممّا يذهب إلى المرحاض.

من جهتها عرضت الفرقة رقم ١ في خونان، فقصدت بعدها هوبي، ثم غوانغجونغ. ولا نحتاج أن نقول إنّها هي أيضاً كانت مضطّرةً إلى أن تقدّم عرضين أو ثلاثة في اليوم الواحد. وبالطبع ارتفع سعر التذاكر حتى بلغ القمم، وما تزال القاعات، على ارتفاعه، تكتظُّ بالجمهور. وقد لاحظ أعضاء الفرقة أن هوايها ما تزال تكبرُ يوماً عن يوم على امتداد المسير. لم تعد قزّمة، حتى دون كعب يفوق طولها طول الكثير من الناس -تأمين، فإن لبسته صارت شابةً طويلة القامة. خلال أشهر معدوداتٍ نمت نموّاً مذهلاً، وحتى من النواحي الأخرى تغيّرت: صارت الآن ذات جمالٍ لا يوصفُ. يقال إنّها تنامُ كلَّ ليلةٍ مع مدير الفرقة، وإنّ مضاجعتها له هي السر في وقوع هذا النموّ المحموم والحسن الباهر. يُقال إنّ السكرتير شي قد بلغه الخبر، فتنقّل بنفسه، زعماً أنّه يحملُ بريداً إلى مدير المسرح، فلما اختلى به ركّله ركلاً حتى جثا المدير أمامه. يُقال، ويُقال، ومن

يدري؟ الواقعُ أنَّ هوايهوا قد نمت حقاً، وصارت بالتأكيد شخصاً طبيعياً. ويُقال أيضاً إنَّ أختيها، تونغهوا ويوهوا، خاصمتاها، مُنذ أن صارت طويلةً حسناء. وإِتها يكفي أن تقف على المنصة، لتعلن عن الفقرات، لتُطلق الجماهير المذهولة صيحات الإعجاب. وإنَّ عددَ الذين يحضرونَ العروض لأجلها فقط، ما انفكَّ يزيد. والنتيجةُ، ما انفكتَ النقود كذلك تزيد وترتفع، فيسمَن لها رصيدُ مكتب المالية، ويتنفخ بطنُ المصارف.

فلَمَّا رحل الصَّيفُ مخلياً مكانه للخريف، كان الرِّصيدُ مبلغاً فلكياً ينتهي بأكثر من عشرة أصفار. لم يعد يكفي عداً واحداً لإنجاز الحساب، ولا حتَّى عداً اثنان، فصار لزاماً وضع خمسة عداّات أو ستّة جنباً إلى جنب لمعرفة كم تكسب الفرقتان من النقود، ومبلغ العلاوات التي يحصل عليها موظفو مختلف القطاعات.

لنقل الأمور بوضوح، لم يعد الإقليم بعيداً عن أن يكمل المبلغ اللازم لشراء الرِّفات.

نهاية السَّنة تقرب. وإن كان الشَّاء قد حلَّ في الشَّمال، فإنَّ بعض المناطق الجنوبية ما تزال تنعم بعدوبة الصَّيف. وقد حلَّت الفرقة رقم ١ بغوانغدونغ، بينما توقفت الفرقة رقم ٢ بمدينة متوسطة الحجم، في جيانغسو. مدينة من تلك المدن التَّابعة التي ترتفع فيها العمارات حتَّى تلامس السَّحب، وتكدُّس حتَّى تُشكِّل غابةً. وأناسُها أغنياء لدرجة أنَّهم يستطيعون أن يقامروا اللَّيل بأكمله، حتَّى يخسروا ثمانين ألف يوان، أو مائة ألف، ويحفنون النقود كأكوام أوراق المراحيض في

المخارئ. وكان مستحيلاً أن تتوقف ماو تشي وفرقتها بعد عروض معدودة.

لقد جُنَّ جنونُ الناس.

لم يكن أحداً ليصدق أن فرقةً يمكن أن تتشكل حصراً من العميان والطّرشان والعرجان والشّلان، وذوي السيّقان الواحدة، والقزّمات اللّواتي لا يتجاوز طولهنّ ثلاثة أقدام. ولا أحد يصدق أن كلّ أولئك المعاقين هم، فضلاً عن ذلك، ينحدرون من القرية نفسها. لا أحد يصدق أن امرأةً من تلك القرية أنجبت تسع توأمات. ولا أن فتاةً عُدّت البصر، تستطيع أن تسمع حفيفَ طيرانِ ورقة شجر أو قطعة ورقة. ولا أن أصمّ، خاصّةً وأنّه ما يزال شاباً، يستطيع أن يعلّق في أذنه متفجّراتٍ، ويطلقها، من غير حمايةٍ إلّا سِترًا من حديد يضعه على خدّه. ولا أن تسعَ قزّماتٍ يغنّين بالآلة، فيتفجّر لقوّة أصواتهنّ نصفُ البالونات المعلّقة في المسرح.

من كلّ العرض، ليس ثمة فقرّة واحدة جرؤوا على تصديقها. وكلّما قلّ تصديقهم، زادت رغبتهم في أن يشاهدوا بأعينهم. في كلّ شركةٍ أو مصنعٍ، كان الموظّفون والعَمال يطلبون إجازاتٍ ليحضرُوا العرض. ومن ثلاثمائة يوان، قفز سعر التذكرة إلى خمسمائة. واغتنى المضاربون بالتذاكر. ودخل في الممعنة تلفزيون المدينة والرّاديو والصّحافة. وما يزال الزيتُ يُصبُّ على النّار، والنّتيجة: بعد تسعة وعشرين عرضاً متتالياً، لم يكن بالإمكان ترك المدينة بعد.

على أن نهاية السنة تقترب، وبحسب بنود العقد الذي وقّعه العجوز مع إقليم شوانهواي توشك الجولة على الختام. قريباً سيفكّ ضمّ طيبة. وذات يوم أمطرت السماء حتى غرقت المدينة. تسمرت الحافلات والسيارات، حتى الدراجات النارية ما عادت تتحرّك، وشقّ على الناس مغادرة بيوتهم، فاغتنمت الفرقة الفرصة في أن تلتقط أنفاسها. وكان فنّانو طيبة يتّخذون، كلّما بلغوا مكاناً للعرض، مسكناً في الكواليس، على شاكلة ما تفعله الفرق الجوّالة القادمة من الشمال. الرّجال ينامون في جهة، والنساء في جهة أخرى، وكانوا قد افترشوا مفارشهم أرضاً، واستقرّوا فوقها منصرفين إلى شؤونهم. الشّباب يلعبون الورق، الشّلاء تطوي أزياء العروض، خمس قزمات يوضّبن جانباً الملابس التي مُنحناها لأجل الفقرة، والأكبر سنّاً انتحوا جانباً لكي يحسبوا كم كسبت أسرهم على امتداد الأشهر الخمسة الأخيرة التي تبعوا فيها جميعاً ماو تشي والفرقة رقم ٢. وكانت هي، لفرط ما صرخت وأزبدت، قد انتهت إلى تعديل بنود العقد، فلم يعد لأهل طيبة أن يحصلوا على راتب شهريّ، أدناه ثلاثة آلاف يوانٍ شهرياً، وإنّما صار العقد الآن يتضمّن بنداً واضحاً: لكلّ عضوٍ من أعضاء الفرقة الحقّ في الحصول على قيمة مقعدٍ واحدٍ في كلّ عرض. مقعد، يعني تذكرة مسرح: إن كان سعر الدّخول ثلاثمائة يوان، فسوف يحصل العضو الواحد على ثلاثمائة يوان، وإن كان سعره خمسمائة يوان، فكذلك سيحصل هو على خمسمائة. وقبل أن يبلغوا هذه المدينة التابعة الواقعة شماليّ جيانغسو، كانوا قد عرضوا في خنان، وآنهوي، وفي يانتاي وهيزي بشاندونغ، ثمّ نانكين

وسوجو ويانغتشو، وحيثما حلّوا كان سعر التذكرة الواحدة ثلاثمائة يوان في المتوسط. وكلّ شهر كانوا يعرضون، في المتوسط دائماً، خمسةً وثلاثين مرّةً. بعبارة أخرى، كان الجميع يحصل، كلّ شهر، على قيمة خمسةٍ وثلاثين مقعداً، أي ما يساوي عشرة آلاف وخمسمائة يوان. ثمّ تُخصم من المبلغ تكاليف الطّعام وغيره من المصاريف - وأيّ مصاريفَ بوسع أمثالهم أن يصرفوها؟ - مقابل تكلفة مقعدٍ واحدٍ سيأكل الواحدُ كفايته، ويزيد، من اللحم والسّمك والعجائن والأرز، وغير ذلك... بين الفينة والأخرى يشتري الرّجال سجائر، وتشتري النّساء والصّبايا موادّ تجميل، وبكربونات الصوديوم والصّابون للتنظيف وغسل الملابس. لكنّ مهما أفرط الواحد منهم في صرف النّقود، فإنّه لا يتجاوز المائة يوان في الشّهر - فيتبقّى لديه دائماً ما يفوق العشرة آلاف يوان. وهذا مبلغٌ لا بدّ أن يتقلّب له الأجدادُ في قبورهم.

ما الذي يمكن فعله بكلّ تلك الأموال؟ إنّ المبلغ المذكور يقارب المبلغ اللازم لبناء منزلٍ من ثلاث حجرات؛ فإن كان المرءُ مقدّماً على الزّواج، هو المبلغُ اللازم مهرّاً للعروس؛ وفي حال الوفاة، هو مبلغٌ كافٍ ليحصل المرحومُ على ضريحٍ إمبراطوريّ. في المرّة الأولى التي وقعت أبصارهم فيها على رواتبهم، ارتجفت أصابعهم من هبة النّقود، حتّى أنّهم دسّوا الورقات في ملابسهم وناموا من غير أن يبدّلوها. بعضهم خاط جيباً إضافياً يلامسُ جلد بدنه مباشرةً، ويضربه كحجر بناءٍ أثناء تقديمه فقرته. قطعاً لم يكن الأمر مريحاً، لكن أن يحسّوا بها كان يمنحهم شجاعةً أثناء العرض، فكانوا أخفّ

في عروضهم وأسرع، والمفرقة المعلقة على آذانهم تنفجر بصوت أعلى مرتين من المعتاد. وأثناء عرض العمياء، لم يعد، للبرهنة على عماها، يُحرقُ أمام عينيها مصباحٌ من فئة المائة وات، وإنما من فئة المائتين في البداية، ثم ختاماً من فئة الألف وات. وفي الشهر التالي، الشيء نفسه، لم يعد أحدٌ يخشى شيئاً على ساحة العرض. فحين ينهي الصّغير بوليو عرض الشّقلبات، لم يعد يسعى إلى أن يحافظ على القنينة سليمة، وإنما يتعمّد كسرها والدّوس على الشّطايا، متقدّماً لتحية الجمهور، كي يبرهن لهم أن الدّم يسيل من قدمه الضّامرة.

ترتفع التّصفيفات أكثر فأكثر.

ويخشى هو الأذى، أقلّ فأقلّ.

وكلّ شهر يكسب من النّقود أعلى فأعلى.

وكانت السّنة موشكة على الانقضاء، فقد مرّت خمسة أشهر، وكسب الجميع بضع عشراتٍ من آلاف يوان. فإن كانت العائلة تضمّ معاقين أو ثلاثة، فإنّ محصولها من النّقود يقارب مائة ألف يوان. لكنّ لما كانوا قد رحلوا، فقد تركوا القرية خاويةً على عروشها: فحتّى إن فكّروا في إرسال النّقود، ما كان ثمة أحدٌ ليستلمها. لذا صارت الوسائد مزينةً بطبقاتٍ من الأوراق النّقدية. وكذلك حُشيت بالنّقود الأغطية. وملئت الصّناديق التي كان الجميع يحرسها. ثروتهم تنمو مثل أوراق الشّجر، وباستثناء لحظات العرض، ما عادوا يجرؤون على أن يطلّوا بأنوفهم خارج الكواليس. وهذا هو السّبب في أنّه، يوم سقطت الأمطار، فاجتمع القرويون كلّهم على فُرشهم في الكواليس،

انتحى بعضهم بأنفسهم جانباً، وبدعوى وجود ثقبٍ في أغطيّتهم يستدعي الرّفق، عمدوا إلى فتح الأغطية لكي يحشروا فيها حزم النقود التي كسبوها حديثاً.

يقول أحدهم إنّ صندوقه مكسورٌ، وسوف يصلحه: يكّدس فيه الأوراق، ويدقّ فيه عشرات المسامير، ويزوّده بقفل أكبر من القفل الذي كان فيه.

وأخراً يشتكي من عدم راحة وسادته، ممّا يستلزم القيام بشيءٍ: يفرغها من قشّ القمح والنّخالة الذي أتى به من القرية، ويحشوها بسترٍ طواها طياً محكماً، بعدما حشر فيها أوراق من فئة مائة يوان، جديدة كلّ الجلّة، ومرتبّة في حزم من عشرة آلاف. ولا بأس إن فقدت الوسادة، بفقدانها حشوتها الأصلية، ليوتّتها، وصارت متصلّبة كأنّها حُشيت ألواحاً أو أحجار بناء.

كانت السّماء تمطرُ، والأموالُ تخزّنُ، فإن انتهى من التخزين أحدٌ، صاح:

«هه! هل خيط غطاؤك؟»

- تقريباً.

- فهل تلعب دور ورقٍ حين تفرغ؟

- حسناً! تعال إليّ.

- كلا! أفضل أن تأتي أنت، ليس عليك إلّا أن تحمل غطاءك معك».

ثم يهز المتحاوران الرأس، وهما يتبادلان ابتسامة يُشرق لها الوجه.

في الخارج يهطل المطر، قطراتٌ كبيرةٌ تهدير. وفي الدّاخل يركد ضبابٌ على مستوى الأرضية. المقاعد تغطيها لآلئ من ماء أحمر، حتّى السّتار يعطي الانطباع بأنّه إنّما علّق هناك لكي يجفّ بعد الغسيل. يتدلّى ثقيلاً، ساحباً تحت ثقله المعاليق والأسلاك. إنّ الأُطر والنّاس-تامين الذين جاؤوا من شوانهواي مع الفرقة، استغلّوا سوء الطّقس، لكي يخرجوا لتأمّل البضائع في الفترينات، والتسكّع بين المتاجر، فبقِيَ أهل طيّبة بمفردهم في المسرح المسمّى «محظيّة الإمبراطور»، واغتنمت ماو تشي الفرصة في أن تطرق موضوعاً يثقل على صدرها. شيءٌ انغرس في روحها عميقاً، منذ أوّل عرضٍ قدّموه في تجودو، أي منذ خمسة أشهرٍ وثلاثة أيّام، أي بحساب الأيّام: منذ مائة وثلاثة وخمسين يوماً. لقد كان للجذور ما يكفي من الوقت لكي ترسخ، ثمّ نبتت البراعم، والآن، ها أخيراً توشكُ الأزهار والثمارُ على الانبثاق. لكن ما لم تكن لتخيّله البتّة، هو أنّ الآخرين لم يذكروا شيئاً من ذلك، لم يتذكّروا القصّة إلّا حين أعادتها على مسامعهم، ولما استعادتها ذاكرتهم صُدموا. وكأنّها بعد أيّام من المسير، وقعوا على بئرٍ جافّة، أو كأنّها أشرفوا على هاويةٍ، فلمّا عزموا أن يلقوا بأنفسهم فيها، أدركوا أنّهم هم من حفروها بأيديهم.

لقد شيّدوا محبسهم بأيديهم.

سقطوا في الشّرك الذي نصبوه بأنفسهم.

بأيديهم صَبَّوْا في أوانيهم السَّمَّ الذي يَمَزُّقُ منهم الأحشاء.
سألَهم: «أَو تَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ نَحْنُ؟»
أَخَذَ الْقُرَوِيُّونَ يَحْدِّقُونَ فِيهَا.

قَالَتْ: «إِنَّهَا فِتْرَةُ الْإِنْقِلَابِ الشَّتْوِيِّ. بَعْدَ تِسْعَةِ أَيَّامٍ نَبْلُغُ الْيَوْمَ
الثَّالِثَ عَشَرَ، أَيَّ آخِرِ أَيَّامِ السَّنَةِ بِحَسَبِ التَّقْوِيمِ الْغَرْبِيِّ».

وَمَا يَزَالُ الْقُرَوِيُّونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا، غَيْرَ مُدْرِكِينَ مَقْصِدَهَا.

ابْتَسَامَتْهَا صَفَرَاءُ بَرَّاقَةٍ: «فِي هَذَا الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ، سَوْفَ يَسْتَوْفِي
عَقْدُنَا مَعَ إِقْلِيمِ شَوَاهُوَايَ أَمْدَهُ. سَوْفَ يُفَكُّ ضَمَّ طَيِّبَةٍ، وَنَصِيرُ فِي
حِلٍّ مِنَ التَّبْعِيَةِ لِلْإِقْلِيمِ أَوْ مِقَاطَعَةِ السَّرْوِ».

فَكَانَ أَنَّ اسْتِعَادَتَ ذَاكِرَاتِهِمُ الْعَقْدَ الَّذِي كُتِبَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ مِنْ
قَبْلُ، وَتَشَكَّلَتْ بِمَوْجِبِهِ فِرْقَتُهُمْ، وَكَذَلِكَ أَدْرَكُوا أَنَّ بَعْدَ تِسْعَةِ
أَيَّامٍ تَنْتَهِي جَوْلَتُهُمْ. إِنَّ النِّهَايَةَ قَدْ غَدَتْ وَشَيْكَةً، لَكِنَّهُمْ لِفِرْطِ
انْشِغَالِهِمْ فِي الْعُرُوضِ وَمِرَاكِمَةِ حُزْمِ النِّقُودِ، تَغَافَلُوا عَنْ دَنَوِّهَا
الْوَشِيكِ. فِي الْخَارِجِ تَهْدِرُ الْأَمْطَارُ، وَالسَّحَبُ السَّودَاءُ الْمُنْخَفِضَةُ
كَانَتْ سَمِيكَةً لِدَرَجَةِ أَنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَدْفَعُهَا بِيَدِهِ. أَمَّا فِي الدَّخْلِ،
فَكَانَ نُورُ الْمَصَابِيحِ أَبْيَضَ سَاطِعاً، كَانَ الْمَكَانُ مِضَاءً، وَاضِحاً،
كَأَنَّهَا الشَّمْسُ قَدْ عُلِقَتْ فِي السَّقْفِ. وَمَاوُ تَشِي، جَالِسَةٌ بِجَانِبِ
فِرْشَتِهَا، تَرْتَقِي مَلَابِسَ عَرَضٍ تَمَزَّقَتْ أَوْ احْتَرَقَتْ. وَالْأَنْظَارُ الَّتِي
اتَّجَهَتْ إِلَيْهَا طُرّاً صَارَتْ تَثْقُلُ عَلَيْهَا كَضَبَابٍ.

«- هَلْ سَتَتَوَقَّفُ الْعُرُوضُ؟ هَلْ سَتُحُلُّ الْفِرْقَةُ؟»

- إنها النهاية، ينبغي أن نرجع إلى طيبة».

والسؤال الآن قد طرحه الصبي ذو الساق المشلولة، وكان يلعب الورق، فلما حصل جواب سؤاله، علقت بغته يده ساكنة في الهواء، كأنها أدرك حدثاً جليلاً.

قال بسيماء متفكرة:

«- ما الذي سيحدث حين نفكّ الضمّ؟»

- بعد فكّ الضمّ لن يبالي لأمرنا أحد.

- والنتيجة؟

- النتيجة أنك ستكون حراً في طيبة، حريةً أرنب في المروج.

- وهل سيظل بمقدورنا أن نلعب في مسارح العالم؟

- هذا لا يسمّى لعباً، وإنما تقديم عروض».

بعنفٍ رمى الأوراق على فرشته.

«فإن كنتُ أنا موافقاً على أن أقدم عروضاً؟ إن كان فكّ الضمّ يعني حلّ الفرق، فاضربيني ما طاب لك أن تضربي، أرفض الامتثال».

صدمت ماو تشي بعض الشيء. كان الأمر أشبه شيء بأن يُقذف وجهها بطشت ماء باردٍ بينما تضحك راضية. تردّد بصرها لحظة متعلّقاً بالصبي. ثمّ أشاحت بوجهها. جال بصرها على السلاء المطرزة على الأوراق، والشيخ الأصمّ مطلق المفرعات من

أذنه، والصبيّة العمياء رهيبة السّمع، وذو الأصابع السّتّة، وغيرهم من الخُرس والعُرج. بالإضافة إلى الناس-تأمّن المكلّفين بنقل الصناديق وحمل الرُّزم. قالت: «ليرفع من لا يريد فكّ الضّمّ منكم يده، إن كان ثمة من لا يريد. إن اتّفقنا جميعاً، فلن يكون للمعترض إلّا أن يواصل جوب العالم بمفرده، منتعلاً قنيته» تأمّلتهم مجدّداً: حدّقت في القزّمات التّسع، سرب فراشات اللّيل، ثمّ بقيّة القرويين المفترشين أرضيّة الكواليس. بالنّسبة إليها، قُضي الأمر، لقد احتجّ الصّبيّ، وهنا يتوقّف الأمر. أتى لها أن تتخيّل أنّه في تلك اللّحظة، كان الأربعون قروياً ونيف، يتبادلون النّظر، ولعبة «أفّرّس فيك وتفّرّس فيّ»، كأنّها يلتمس كلّ منهم في عيون الآخر وملاحه شيئاً. وانتهى بهم المطاف إلى أن استداروا جميعاً شطر النّاس-تأمّن.

قال أحدهما، مولياً عينيه شطر هذب السّتار المخمل الأحمر، كي لا يقع بصره على بصر ماو تشي:

«ما إن يُفكّ الضّمّ، ويصير إقليم شوانهواي في حلٍّ من إدارتنا، فلن يظلّ بمقدورنا أن نقدّم عروضاً، ونكسب النّقود. ما فائدة الاستقلال، إن كان فيه الحرمان من مغادرة قريتنا، وكسب النّقود؟» ثمّ، كأنّها يختبر الوضع، رفع يده.

فلما رأى صنيعة صاحبه النّاس-تامّ، حذا حذوه، فقال:

«الجميع يعلم أنّهم قريباً سيأتون إلى شوانهواي برفات المدعو لينين، ويستقرّون به في جبل الأرواح الميّتة. ويبدو أنّ ساكنة الإقليم ستعجز، بعد ذلك، عن معرفة وجوه صرف أموالها. ويُشاع أنّ

العديد من سكّان الأقاليم المجاورة يحاولون سرّاً تقييد أنفسهم ضمن ساكنة الإقليم. ألن يكون غباءً منّا فكّ الضمّ في لحظة كهذه؟» وقد نطق بكلماته تلك، كأنّها يتوجّه بها إلى عموم القرويين، فمسح عليهم بنظرهم.

رفع الأصمّ يده.

رفع الأعمى يده.

رفعت الشّلاء يدها.

تحت الأنوار ارتفعت الأيدي كأنّها غابة.

انقلب وجه ماو تشي إلى صفرة باهتة، أياديهم المرفوعة كانت بمثابة صفعة. وكانت وجوههم جميعاً - باستثناء وجه حفيدتها فلين - حمرةً من وقع الإثارة والحماس. وتحت الأيدي الممدودة تسقط الأكمام كاشفةً عن أذرعٍ ساطعة.

في الخارج كانت الأمطارُ باردةً برودةً قاهرة.

وفي السّقف تتقدّ المصابيح مثل نارٍ بيضاء.

وعلى المشهد يهيمنُ صمتٌ ثقیلٌ لدرجة أنّ الأنفاسَ تروح تحته، ويصيرُها كثيفةً كأنّها جبالٌ قنّب، خشنةٌ، وغيرُ منتظمة، قد حُشرت في الحلوق. وإزاء غابة الأذرع البرّاقة، جفّ فم ماو تشي، وداخ رأسها. وكانت على وشك أن تشمهم، وإذا بها تنبته إلى أنّ فلين أيضاً قد رفعت ذراعها الضّئيلة اليمنى. كان الأمر أشبه شيءٍ بضربةٍ عنيفةٍ على صدرها الهزيل، حتّى لبدو كأنّه جدارٌ

طوبٍ على وشك أن ينقُصَ، وقد انفتح فيه شرخٌ حادٌّ، فانبعثت منه رائحةٌ حمضية منتنة، مثل رائحة الدَّم. وذاك الدَّم، كان لازماً بصقه الآن وهنا، علَّ الخوفَ يردع هذه الأذرع الممدودة. لكنها ظَلَّت تسعلُ سدىً، وعبثاً ظَلَّت الرائحة الكريهة تشتدُّ، إذ لم تخرج من صدرها قطرةً. مسحت بنظرها عليهم، وتوقفت عند الشيخ الأصمِّ والشَّلَاءِ، والأربعينيين الذين يحظون، بدرجة ما، بأجساد كاملة، ثم زفرت بهيأةً محتقرة، وبعين باردة وصوت قاسٍ، سألتهم:

«إنَّ الصَّغار لا يعرفون، لكن أنتم، هل نسيتمُ الكارثة الكبرى (١)، والحقول المترتبة؟».

قالت: «نسيتم كلَّ ما فعلتموه آنذاك في سبيل أن يُفكَّ الضمُّ؟ هل فقدتمُ الأفق؟ (٣)».

قالت: «أن أفكَّ ضمِّكم، هو أمرٌ أدينُ لكم به، وأدين به لأبائكم وأجدادكم. واجبٌ ينبغي أن أتمَّةَ حتَّى وإن متَّ. بعد ذلك، إن لم تكونوا موافقين، فإمكانكم أن تراجعوا. لا شيء أبسط من القيام بالضمِّ، إنَّه مثل الذهاب إلى السوق. أمَّا فكَّ الضمِّ فأصعب من الانبعاث من الموت».

كانت تتحدَّث بصوتٍ فيه شيء من انكسار، كأنَّها انحسر في حلقتها شيء. صوتها متينٌ، لكن صبغة الألم والحزن فيه لا تُخطئها الأذن. وما كادت تنهي كلامها حتَّى خفضت فَلَين ذراعها. كانت تنظر إلى جدِّتها كأنَّها تعاقدت معها على دينٍ. أمَّا الجدَّةُ فما كانت

تنظر إلى حفيدتها، ولا إلى القرويين الذين راحت أذرُعهم تتهاوى ذراعاً تلو ذراع.

قامت من مجلسها، مستندةً إلى جدار الأجر الأحمر، ونصبت بقوةِ عمودها الفقريّ الذي يحيل على شجرة قلبتها الرّيح، وسارت تعرج على امتداد الحاجز.

عبرت المسرح الخالي. ولما لم تكن تتوكأ على عصاها، فمع كلّ خطوةٍ تخطوها، كان جسدها يميل إلى اليسار، مثل غصنٍ ميّت. بعزمٍ كانت تستعيد توازنها، وتمضي هكذا متأرجحةً، رافضةً الاستسلامَ للسّقوط، حتّى عبرت الحجرة مثلاً قد تعبرُ سلسلةً من القمم والجبال. كانت تبدو مثل كبشٍ مُسنٍّ يحاول عبور نهرٍ على غصنٍ ميّت. معطيةً الانطباعَ بأنّها تسبحُ، بلغت الخارج، وظلّت هناك، واقفةً، وحيدةً تحت المطر الذي يساقط على المدينة.

الفصل الثالث

تعليقات: الكارثة الكبرى

(١) - الكارثة الكبرى: مصطلح تاريخي، ذو صلةٍ بأفة الحديد التي ذكرناها فيما سلف.

أصلُ ما وقعَ «القفزةُ الكبرى إلى الأمام» سنة ١٩٥٨. وقد هبّت على طيّبة هبوبَ الرّيح التي تزمجر طيلة السّنة في جبال بالو. لكي تُطعمَ أفرانَ صهر الفولاذ، قُطعت أشجار الجبل، وأحرقت المنحدرات العشبية وصارت عاريةً. طال الجبلُ خراباً مطلق. غير أنّ السّنة التي تلك ذلك، أي سنة ١٩٥٩، وإن أتت شديدة البرودة إلاّ أنّها لم تحمل معها ثلجاً، ثمّ بعد زخّات صغيرة، أتى الصّيف، وكانت مائة يوم من الرّمضاء، ولأسباب غامضة خلفَ الخريفُ الصّيف، ولم تسقط الأمطارُ. وكان أن جرّ هذا الجفافُ التّاريخي جيشاً من الجراد - تُسمّى هنا النّطّاطات. وتأتي من الجبل في شكل ضبابٍ متضامٍّ هائلٍ، حتّى أنّها تغطّي السّحب التي تحجب السّماء. من بُعدٍ عدّة ليّات يُسمع هديرها، ضجيجٌ يهتزّ له التّرابُ، وترتجّ الأحجار.

اختفت الشّمس. وحقول الصّويا أصابها الصّلع والعريّ.

وكذلك حال حقول السّمسم.

وما لبثت أن اختفت كلّ الزّهور الصّفراء في حقول الكانولا.

ومع الغسق، حين يرحل الجراد، ينتشر مثل حجابٍ فوق القرية، نجمٌ

أحمر حمرة جميلة رهيبة وكثيفة، لكن في الشوارع تخيم رائحة كئيبة قاتلة، رائحة هجرتهم البطيئة تسيل مثل ماء نهر.

وكانت بنت ماو تشي قد ولدت لما انطفأت الأفران، في التخوم بين الخريف والشتاء؛ ولما كان الخريف فصل إزهار الأقحوان، والشتاء فصل تفتح أزهار البرقوق، ولما كانت هي جميلة ومن الناس-تامين، فقد سميت جومي: أقحوانة وزهرة برقوق. وكانت ماو تشي تحملها بين ذراعيها حين خرجت ذاك المساء، مع غروب الشمس. ولكي تعين الأضرار، وضعتها أرضاً، وصاحت في الليل المُرخي سدوله:

«حين تحدث كارثة في الخريف، فينبغي تخزين قوت الشتاء...

بعد آفة مماثلة، ينبغي أن نحرس مؤننا بعناية، لكي نتجنب المجاعة». وبالفعل، أتت المجاعة.

ما كاد الخريف ينقضي، وما كاد الشتاء يحلّ حتّى استقرّ في الجبال بردٌ زمهيريّ، لدرجة أنّ الماء تجمّد في قعر الآبار. حتّى إنّ أشجار الصّفاصاف والخبازية التي استغلت توقّف أفران الصّهر لتنمو من جديد، أخذت أحيثها تجفّ وتتكسّر. ويحكي القرويّون العائدون من السوق أنّ «اللّعة! مأساة عظيمة. ليس فقط عندنا نحن في طيبة لم يبرعم القمح. حتّى هناك، خارج جبال بالو، لم يبرعم شيء». وبعد ذلك بأسبوعين عاد قرويّ آخر من الكومونة، وعلى وجهه يرسم الذّهل. قال: «الأمر رهيب، رهيب. ليس لدى النّاس ما تأكله، بالكاد وعاء أرز في اليوم. يبدو أنّ ثمة من بلغ به الجوع أن صار إلى لحوّ الأشجار وطبخ لحائها، ثمّ شرب حسائه. وجوههم صارت خضراء، وأقدامهم انتفخت مثل فجلٍ أسود».

تركت ماو تشي ابنتها في البيت، ونزلت من الجبل. وبعد أن قطعت نحو ثلاثين لي، صادفت أوّل موكب جنازة.

«- ممّ كان يشكو؟»

- لا شيء ، لقد قضى من الجوع».

فلما صادفت موكباً آخر ، سألت مرةً أخرى قلقةً:

«أيّ داءٍ أصابه؟

- لا داءٍ ، إنّما هو الجوع».

ولم يحظَ جُثمان الثالثِ حتّى بتابوتٍ ، وإنّما فقط لُفٌّ في مفرش.

«هذا أيضاً قضى من الجوع؟

- كلا ، لقد أصيب بإمساكٍ ، وتعذّر عليه الإخراجُ ، حتّى مات.

- وماذا أكل؟

- ترابٌ ومطبوخٌ لحاءِ الدردار».

مات كائنٌ بشريّ ، وهم يتحدثون كأنّما الميتُ دجاجة. أو بطّة أو عجلٌ أو كلب. يتحدثون ببرود كأنّما لم يكن الميت يوماً ابنَ قريتهم ، أو جاراً ، أو قريباً. الأطفال يتبعون الجنازات من غير أن يشتكوا أو يذرفوا الدّموع ، كأنّما ليس الميتُ أباهم أو أمّهم. وكان الطّقس بارداً برودةً استثنائيةً ، الرّيحُ تهبُّ كسكينٍ. وبعد أن قطعت ماو تشي مسافةً أخرى من طريقها ، توقّفت عند مدخل قريةٍ حيث دُسّنت مقبرةٌ حديثاً ، ونبتت فيها القبور كالفطر. عشراتُ اللّحود المتناثرة ، بزخارفها الورقيّة الحديثة ، تبدو مثل حقلٍ أقحوانٍ أو فوانيا بيضاء.

وبعد مدّةٍ من السّير ، دارت على عقبيها ، وعادت إلى طيّبة قبل هبوط اللّيل. عند إحدى البيوت في واجهة القرية ، ألقت أسرةً من العميان يتعشّون حول نارٍ ، يتناولون عجائن بيضاءً بياض الثلج ، تعوم في مرق البصل ، منسّمةً بقطرات من الزّيت. من الباب ، بصوتٍ قاسٍ نبّهتهم: «تجروؤن على تناول العجائن؟ إنّ الناس في الأماكن الأخرى جائعون لدرجة أنّهم ينتفخون قبل أن يسقطوا كدجاج ، وأنتم هنا هانئين تعبئون البطون!» وفي المنزل الثّاني ، لم يكن السّكان يتناولون عجائن ، وإنّما حساء ذرةً ثقيلًا لدرجة أنّ ملعقةً قد تقف فيه مستقيمة. أفرغت في قدرهم مقدار نصف جرّةٍ من الماء البارد وهي تصيح: «إنّ

المجاعة قد هوت على الكون، الناس يموتون كالبط، ألا تستطيعون الحرص؟». في الخامس، طالب صبي مدلل بفطيرة ذرة بالزيت، ومن غير أن تترك لها الفرصة لتنضج، سحبت القصدير من فوق النار وأخمدتها - بالماء البارد هذه المرة أيضاً -؛ ثم بينت لهم بصوت متهدج، أنه يجدر بهم أن يسيحوا في العالم فينظروا ماذا وقع، «إنَّ الناس تموت كالكلاب، وأنتم تجرؤون على أن تحبسوا أنفسكم هنا، لتحضروا الفطائر!» صاحت: «هل تحسبون أنَّ الزَّمن سيتوقَّف؟ هل تريدون الموت جوعاً في الشَّتاء القادم؟».

أقصى القرية، ببيت شيخ أعرج، كانت الأسرة أيضاً مجتمعةً حول الموقد، لكنَّ ما يتناولونه، كان حساءً صافياً، مضافاً إليه فطائرٌ من حبوب متنوعة، لا بيضاء ولا سوداء، وشيءٌ من الخضار بالخل.

ظلت واقفةً عند عتبة الباب.

سألها الشيخ: «ما الخطب؟»

قالت: - أيها الأعرج، إنَّ مصيبةً عظيمةً تتربَّص بنا. النَّاسُ في بقية العالم يموتون كالكلاب».

وبعد برهة تفكيرٍ اقترحَ الشَّيْخُ أن يَدْفِنَ كُلَّ فردٍ عند رأسِ سريره خائبةً أو اثنتين.

استدعت ماو تشي القرية، وطلبت من الجميع أن يحفر عند رأس سريره حفرةً ليخزَّنَ فيها مؤناً.

فلما تمَّ لها ذلك، زادت ثلاث قواعد: أولاً، ممنوع تناول العجائن؛ ثانياً: ممنوع تناول الفطائر؛ ثالثاً: ممنوع الاستيقاظ ليلاً وقضم شيءٍ من الطعام بدعوى جوع بسيط. ثم نسخت المحاذير الثلاثة على أوراق بيضاء، وفرضت عليهم أن يعلّقوها على الجدار، بجانب تمثال إله البيت. ثم شكّلت ميليشيا من بعض النَّاس - تامين، من أبناء العشرين سنةً، كلّفَتْهم بأن يجولوا على البيوت، خاصّة في وقت الوجبات. سيحملون هراوات، وحتى بنادق، ويُجبرون النَّاسَ على تناول طعامهم عند عتبات الأبواب، كما كانوا يفعلون فيما مضى من الزَّمان.

ممنوع الاختباء وراء أبواب مغلقة، فمن خالف التعليمات، صودرت منه العجائن والفطائر، وحملت إلى مدخل القرية لتوزع على من كان حساؤهم أشدّ صفاءً، وحمل حساء هؤلاء إلى أصحاب الفطائر والعجائن.

ومرّ الزّمن، وانقضت الأيام، يوماً بيوم. ثمّ أتى آخر أيام السّنة، وبعده أوّل أيام السّنة التي تليها. وبدءاً من هذا التاريخ اتّخذت الأمور إيقاعاً متسارعاً. وذات صباح مشرقٍ أتى سكرتير الكومونة، على عربةٍ يجرّها حصانٌ، يرافقه عشرون من النّاس-تامين، شباباً أشدّاء. قال بضعة جملٍ، ثمّ صادر حُزمتي قمح من عليّة البيدر. وكان قبلها قد استدعى بماو تشي إلى مدخل القرية، وسألها: «لم ليس ثمة قبورٌ حديثةٌ عندكم؟».

فأجابته السّؤال بسؤالٍ: «وهل من سوءٍ في هذا؟»

- كلاً، بل هو أمرٌ حسن. كم عدد الوجبات التي يتناولها القرويّون في اليوم الواحد؟

- ثلاث، على المعتاد.

قال: إنّ العالم قد تحوّل إلى جحيم. وحدكم ما تزالون تعيشون في الجنة. منذ ستّة أشهر ما عدنا نملك حبوباً. وعندكم، حتّى في قلب الشّتاء، ما إن يصل المرء حتّى يشمّ أريج القمح. ويكفي تتبّع الرائحة لنذكر أنّه ما يزال هناك مخزونٌ لم يُوزع بعد».

قال: «ربّ السّماء! النّاس في الأماكن الأخرى يموتون، واحداً في إثر واحد، وأنتم لديكم من القمح ما لا تستطيعون تناوله!».

ثمّ استدار شطر القرويّين وقال: «هل تسمح لكم قلوبكم بأن تروا بقيّة سكّان الإقليم يتساقطون، واحداً واحداً؟ هل ستطردون الشّحاذ الذي رمى به الجوع إلى بابكم، من دون أن تعطوه مقدار إناء من الطّعام؟ ألسنا جميعاً نعيش تحت سماءِ الحزب الشيوعي، ألسنا إخوة في الطّبقة؟».

حمّلت المؤن في العربة، وانطلق بها من غير أن يترك لهم حبّةً.

طَيِّب، لقد أخذ المؤمن، ولم يذَر شيئاً. ومع ذلك لم تكد تمضِ بضعة أيّام، حتّى عاد بضعة رجالٍ من النَّاس-تأمين حاملين سلالاً، وخطاباً من عند السُّكرتير. يقول:

ماو تشي،

مائة وثلاثة عشر فرداً من أصل مائتين وسبعة، من سكانِ لواء هوايشوغو الكبير، قد لقوا حتفهم. وفي القرية لم يعد ثمة أحيّة على الأشجار، ولا تراب قابلٌ للاستهلاك. عندما تقرئين هذا الخطاب، أريد من كلّ أسرةٍ في طيّبة أن توفّر لهم مقدار مكيالٍ من الحبوب. هذا واجب. ولا بدّ من إتمامه، بأيّ ثمن! لا تنسى أنّنا جميعاً أعضاء في العائلة الاشتراكية الكبرى، هنا أو هناك، نحن إخوة في الطّيقة. مكتبة سُر من قرأ

تقدّمت الشّباب في جولة على الأسر. فملّؤوا سلالاً عديدةً بالقمح أو الحبوب، أو طحين اليام، أو البطاطا الحلوة المجفّفة. ثمّ أيّاماً بعد ذلك، عاد الرُّسل حاملين مجدّداً خطاباً، فملّئت لهم سلّتان. ولما يكد الشّهر الأوّل ينقضي حتّى أتى آخرون، وآخرون، جميعاً حاملين سلالاً أو أكياساً، ومشفوعين بخطابات من عند السُّكرتير، مختومة بختم الكومونة. فإن لم يُعطوا شيئاً، كانوا يرفضون الرّحيل، ويجلسون عند مدخل القرية. وفي نهاية المطاف يجدون لهم مكيالاً عند العميان، أو آنيّة عند العُرجان. بدا أنّ طيّبة قد صارت جُرن الكومونة بأكملها، وما يزالُ النَّاس يقصدونها جماعات مطالبين بالحبوب، حتّى نفد المخزون وجفّت من الحبوب الجرارُ المخبوءة. سُدّى تغوُّص المغارف فيها، فلا تخرج منها إلّا بطنين القمّر. اعتصرت قلوبُ أربابِ الأسر، وطوّقهم إحساس الخراب القاهر.

ومع كل ذلك، أتى في آخر أيام الشهر شبّان. كانا من قبَل الإقليم، ولا يرتديان ملابس رُسل الكومونة، أو يسرّحان شعورهما على شاكلتهم: من جيوب بذلتيهما تطلُّ أقلامٌ من معدنٍ بَرّاق. عرفت ماوتشي أحدهما فوراً: ليو، سكرتير رئيس الإقليم يانغ، سابقاً، والآن قد صار مدرّساً في المدرسة الاشتراكية. وقد أتى هو أيضاً حاملاً خطاباً. والخطابُ يقول:

ماوتشي،

نحن معاً من الحمراء الرابعة. إنّ الثورة تمرّ اليوم بأزمة جديدة، حتّى أُطر الحكومة ولجنة الحزب يموتون جوعاً. حين تقرئين هذا الخطاب، عجّلي بأن تُعطي مبعوثي بعضاً من حبوب طيبة، استجابةً لحاجات الثورة الملحة.

كانت الرّسالة مكتوبةً على ورق قشٍّ أصفر، والأسطر تمضي في كلّ اتجاه، مبعثرة كأنّها أعشاب جافة متناثرة، لكن أسفل الخطاب كان ثمة توقيع رئيس الإقليم وختمه، وبصمة إبهامه، وبالجانب ألصق شعارُ النجوم الخمسة الذي كان يزيّن قبعة جيش الجبهة الرابعة، والذي احتفظ به بعناية - كان الشعار يبدو مثل دم يابس، قياساً إلى الحمرة الطرية البرّاقة التي تميّز سطور البصمة، وكانت حوافه التي أبلاها الزّمن قد مالت إلى لون الفولاذ الرّماديّ.

تأمّلت ماوتشي الخطاب، نزعت منه الشّعار لتتلمّسه بأصابعها، ثمّ من دون أن تنبس بكلمة، قادت المبعوثين حتّى الحُجرة الملاصقة للجرف. رفعت الأغطية عن الجرار، وقالت: «هوذا القمحُ، وهي ذي الدّرة، خذوا ما طاب لكم أن تأخذوا.

سألها المدرّس ليود هشا: - كيف لنا أن نحمله يا ماوتشي. العربية لن تصل إلّا غداً.

قالت: - تعالوا. سنقوم بجولةٍ على القرية».

وبالفعل، وصلت العربية في اليوم التالي، لا بل وصلت عربتان! اثنتان بعجلات من المطاط. ولما توقفتا في مركز القرية، شكّل الأطفال -الذين لم يروا لها من قبل مثيلاً- حلقةً صاخبةً حولها، يتلمّسون بأيديهم العجلات، ويضربونها بالعصي، ويُدنون منها الأنوف لشمّها. وكانت الرائحةُ عجيبةً، والملمسُ شبيهَ جلدِ البقر الذي لم يجفّ بعد، وحين تضربُ عليها تشعرُ بها مرنة، إذ ترتدُّ إليك العصا أو الهراوة. ثمّ أتى الجميع، حتّى العُرجُ والصمُّ الذين لم يكونوا يغادرون قطّ منازلهم، وكذلك أتت أعمى، مرخياً أذنه لينصت إلى ما يُقال. وبينما هم هناك، متكدّسين حول العجلات، يفحصونها، ويتطارحون الأسئلة، بلا نهاية، كانت ماو تشي تقود أطر الإقليم، من منزل إلى منزل، كي تجمع الحبوب.

شرقَ القرية، بيّنت للخال الثالث، وهو أعمى، أنّ الإقليم قد أرسلهم لجمع الحبوب، وأنّهم يحملون رسالةً من يد السكرتير مباشرةً. «افتح جراك، ليغرفوا منها، إذ يبدو أنّ حتّى رئيسهم نفسه قد امتلأت ساقاه بالأوذام».

وغرباً قالت: «أيتها الأختُ الرَّابعة، أليس زوجك هنا؟ إنهم أناسٌ من الإقليم، وهي المرّة الأولى التي يسألوننا فيها حبوباً منذ قرنٍ من الزّمن. افتحي جراك، وخابية الطّحين، واتركيهم يغرفون منها.

- لكن بعد هذا، هل ستكون المرّة الأخيرة؟

- أجل المرّة الأخيرة».

فتحت العرجاءُ كلّ أوعيتها، فأحصوا ما فيها جميعاً. وفي البيت التالي، كان الرّبُّ رجلاً أكّع. وكان شقيق الحجارِ زوجها، فلما رآها صاح: «أختاه! هل تحملين لنا مجدداً أناساً يأخذون من مؤننا؟

أجابته: - افتح جراك، وسوف تكون هذه المرّة الأخيرة».

أدخلهم الرّجل إلى بيته، وتركهم يغرفون ما طاب لهم. كدّست الأكياسُ،

كبيرها وصغيرها، فوق العربتين التين انطلقتا حاملتين كلَّ الحبوب التي بقيت في طَيِّبة على سطح الأرض. انتهى أوَّل الشُّهور القمريَّة، وبدأ السَّتاء في جمع أمتعته، ولم يكن الرِّبيع بعيداً، وقد وُعدوا بأن لا يأتيهم من يطالبُ بالحبوب، لا من جهة الإقليم، ولا من جهة الكومونة، لدرجة أنَّ الجميع قد أبدى سخاءً. ومع ذلك، ما كادت الشَّحنة ترحل صوب الحكومة واللَّجنة، حتَّى أتى المكتب الزراعيُّ يطالبُ بنصيبه من المؤونة، حاملاً خطاباً من عند لجنة الحزب، ثمَّ تلاه مكتب الشُّؤون العسكريَّة الذي أتى مدججاً بالبنادق فضلاً عن الخطاب والعربة.

لكن بدءاً من نهاية الشَّهر الأوَّل، بعد إرسالية الإقليم، لم يعد أحدٌ يبيد جانب الكرم، ولم يعد السائلون يُعطون أكثر من مقدار آنية. وتلك هي اللَّحظة التي بدأ فيها الشَّحاذون يتقاطرون على طَيِّبة، من مسافة قطرية تبلغ عشرات الليَّات. أناسٌ لا يظهرون في الأوقات العادية، ثمَّ فجأةً ينبثقون زرافات، ما إن تدنو ساعات الطَّعام. ساحبين أطفالهم بأيديهم، يمدّون أوانيهم على الأبواب، بل ويبلغون بها حتَّى أفواه القدور.

إبَّان تلك الأيَّام، نهاية ١٩٦٠، بداية ١٩٦١، إن كان أهل طَيِّبة قد عانوا نقص الحبوب، فإنَّ المعاناة الأكبر كانت تقع على عاتق الرِّجال. عند باب كلِّ بيت، كان يقيم أناسٌ-تأمون غرباءً عن القرية. إن كان الطَّقْسُ مشمساً تحت الظِّلَّة عند حافة الشَّارع، فتتقنَّ من أنَّك ستري عائلةً من اللاجئين جاثمةً هناك. فإن هبط الليل ناموا تحت الشَّرفات، خلف المنازل، أو في الأركان المعزولة عن الرِّيح. فإن اشتدَّ البردُ، حتَّى استعصى عليهم النَّومُ، فإنَّهم يتسكَّعون ركضاً في الطَّرقات، حتَّى إنَّ القرية تردَّد طيلة اللَّيل صدى خطواتهم. وذات يوم، إذ لمحت ماو تشي زمرةً منهم ينتزعون لحاء أشجار الدردار عند حافة القرية، واقتربت منهم لتشرح لهم أنَّ تلك الأشجار ميّنة، أوقفوا حركة فؤوسهم، وحدَّقوا فيها: أليست هي إطارَ طَيِّبة؟ فلمَّا أجابت مؤكَّدة، قال أحدهم: «عندي بنت في الخامسة عشرة من عمرها. جدي لها أسرةً في القرية، فلتتزوَّج أعمى أو أعرج أو أيّاً كان، المهم أن يعطي مقابلها مكيالاً من الحبوب». قصدت مركز القرية، فألفت أسرةً محتلقةً حول نار. سألتهم: «لَمَ ما تزالون هنا؟ نحن أيضاً لم يعد لدينا شيء».

ألقى إليها الأب بنظرة، ثم قال: «أرى أنك أنت الإطّار هنا. يزعمون أنّ المرء يكفيه أن يكون أعمى أو أعرج ليكسب حقّ الاستقرار هنا؟

أجابته موضّحة: - نعم، إنّها قريةٌ عمى، وشُلٌّ، وصُمٌّ-بكم. لن يقبل أيّ من الناس-تامين العيش في مكانٍ ضائع كهذا.

قال الرّجل: - ما دام الأمر كذلك، فإنّ جميع أفراد أسرتي غدا سيكونون قد فقدوا ذراعاً أو ساقاً، وينبغي آنذاك أن تعطينا شيئاً من القوت».

لم تجرؤ على المواصلة، فحيثما خطت كان يسقط أمامها على ركبتيه شخصٌ ليتسوّل شيئاً من الأرزّ أو القمح، وكان الناس يتمسكون بساقها، ويحسونها بأذرعهم وهم يبكون. وكان الليل بارداً جداً، والقمرُ قطعةً جليدٍ. أولئك الذين ينامون في الشّارع، حملوا سُوقَ القمح التي جمعوها من البيدر لكي يفتروشوا بها الأرض. أمّا الوسائد فقد اتخذوها من أعشاب الجرن. بعضهم استقرّ في إسطلب العجول، لأنّ الجوّ كان بارداً جداً؛ كان بوسعهم أن يلتصقوا ببطونها. فإن كانت بهائم مطيعةً، فإنّها تترك الأطفال ينامون متعلّقين بأقدامها.

كانت هناك أيضاً زريبة خنازير الأعرج السّابع، عند طرف القرية. الخنازير نصف بالغة، وزربيتها مفروشة بالفضلات الطّازجة. أطفال الأسرة التي تحتلّ الزّريبة يعانقون الحيوانات ويسرقون الطّعام من حوضها.

ولما وصلت ماو تشي عندهم، سألتهم عمّا إذا كانوا لا يخشون أن تعضّ الخنازيرُ الأطفال.

فأجابوها: «إنّ الحلايفَ خيرٌ من البشر، هي لا تعضّ»: ففي قريتهم، أكل بعضُ الناسٍ لحومَ البشر.

ما الذي يمكن أن تضيفه؟ لا شيء، لا كلمة، لا جملة، لكنّها في اليوم التّالي أصدرت تعليمات: «عند كلّ وجبة، اطبخوا مقدارَ آنيّتين إضافيّتين، واحملوهما إلى الخارج، إلى اللاجئين». فكان أن مضت الأمور من أسوأ إلى أسوأ، وتقاطرَ على طيّبة اللاجئون أكثر فأكثر؛ كأنّما تشهدُ طيّبة كلَّ يوم سوقاً. كانوا يأتون أمواجاً، كأنّهم مدُّ بحريّ، أو كأنّهم ركامٌ من غيم، فلم

يعد القرويون يتناولون طعامهم في السّاحة المركزيّة، وأنّما صاروا، أغنياؤهم وفقراؤهم، يسدّون أبوابهم بعارضات، ويغلقون على أنفسهم داخلها. ومع ذلك ما تزال ثمة مؤنّ، إذ لا أحد يرى بقريتهم قبوراً حديثة، ويكفي أن تأتي مشفوعاً بخطابٍ مختوم بختم الإقليم أو الكومونة لتطالب بنصيبٍ من المؤونة، وما يزال يسري في العالم خبر أنّ المرء يكفيه أن يأتي بآنية فارغة إلى طيّبة لتملأ له أرزاً.

من جبال بالو، وأبعدَ منها، حشدٌ بأكمله يزحفُ عبر القمم. لقد صار شعبُ المتسولين الآنَ أكبرَ بمزمارات من شعبِ السّاكنة، بعضهم يأتي من المقاطعة، وبعضهم من الإقليم، بل حتّى إنّ بعضهم يأتي من أنهوي، وشاندونغ، وخبي. إنّ طيّبة أشهرُ من نار على علم. أرسلت كلّ من دايو وغاوليو مبعوثين مشفوعين باعتمادات تؤكّد أنّه، من وجهة نظرٍ تاريخيّة أو جغرافية، قد كانتا منطقتين واقعيتين ضمن النّفوذ الإداري نفسه الذي تقع ضمنه طيّبة، وحتّى إن كانتا الآن قد صارتا مجرد جارتين للقرية، إلّا أنّهما مع ذلك تقعان ضمن نفس الإقليم، وبالتالي لا تعدمان رجاء في أن تجدا لدى جارتها شيئاً من مؤونة.

ابتداءً من أواسط الشهر القمريّ الأوّل، وبعد طول صبر واحتمال، انتهى أهل طيّبة إلى منع الصدقات والعطايا، فأيّما آنية تمدُّ إليهم، إلّا عادت فارغة كما كانت، وخائبة لم تتلّ لُقمة. وصار السّكان إلى إغلاق أبواب بيوتهم طيلة النّهار، كأنّما يترصّدهم عدوّ قاهر. يأكلون ويتغوّطون في بيوتهم، ولا يكلمون أحداً: صبح ما طاب لك الصّياح، واستنجد بالآباء والأجداد، نادراً ما قد يفتح لك أحدهم البابَ موارباً، ويمدّ إليك بعض الأرز أو نصف فطيرة.

أمّا ماو تشي فكانت إطاراً، وكان يلزمها أن تتصرّف باعتبارها كذلك. كلّ يوم، ساعة الوجبات، كانت تفتح باب بيتها وتطلب من الحجار أن يحضّر قدراً من حساء اليام. تأخذ من القدر آنية لكل فردٍ من أسرتها، ثم تُخرج البقيّة وتضعها أمام مدخل الباب. وما كادت تمضي ثلاثة أيّام حتّى اضطرّ الحجار إلى أن يقلّل من مقدار الوجبة، فاكتفى بطبخ نصف قدر، ثم، بعد ثلاثة أيّام من ذلك، زاد في التقدير، وأنقص الوجبة مرّة أخرى. فلمّا حدّقت فيه بقسوة،

تلومه على جنبه، وقدَرَ هو ظلمَ نظرتِها، فقد أجابها: «اذهبي، وانظري كم بقي في الخابية».

ولم تجد بما تردُّ.

ثم ثلاثة أيّام أخرى، ولم تعد بمنزلهم حبة. فاضطّرت إلى أن تستقرض من الجيران الطّعام، أنيةً هنا، ومغرفةً هناك، ومات المتسوّلون. دُفِنوا على امتداد طريق القمّة.

ولحقهم آخرون فدُفِنوا عند مدخل طيبة.

لقد صار للأجانب الآن قبورٌ في القرية.

وبعد ذلك بمدة، وفي عزّ الليل، وقع حادثٌ عظيمٌ الأهميّة. كأنما هو انفجارٌ، كأنما تبعثرت طيبةٌ شذراً مذكراً. كلّ عام، عند نهاية الشهر القمريّ الأوّل، كانت طيبة تعرفُ أيّاماً من البرد القاتل. ولم يشذّ هذا العام عن القاعدة، فكان اللاّجئون يحدثون جلبّةً كبيرةً وهم يمشون في الطّرقات. على أنّه، في تلك الليلة المذكورة، لم يُسمع لهم، حتّى حسيّس النيران التي يوقدونّها كما اتّفق؛ لقد أطبق على القرية صمّتٌ مطلقٌ، كأنما رحلوا جميعاً. بين الفينة والأخرى كان يصيح طفلٌ، معبراً عن جوعه، لكنّ صياحه لا يدوم أكثر من صيحتين أو ثلاث، ثمّ يعاود الهدوء المكان. كانت ماو تشي تجهل أنّ في جوف الصّمت، انفجاراً يتهيأ. كعادتها، حملت نصف قدرٍ ممّا اقترضته من طعام، إلى جماعة اللاّجئين المخيّمين أمام بيتها، ولما عادت إلى البيت، ألّفت الحجّار قد أدفاً موضعها تحت الغطاء، فخلعت ملابسها، ودنت منه قائلة: «لا فائدة في ألا تأكل حتّى الشّبع، إنّ جسمك بحاجة إلى الحرارة». ابتسم، وجلس على طرف السرير، وأجابها: «حين علّقت إزميلي، ومطرتي، وفأسي، منذ قليل، سقطت من تلقائها، بلا سبب. أخشى أنّ شيئاً خطيراً سيحدث لنا، أخشى أنّني لن أتمكن من أن أدفئ مكانك طويلاً، حتّى لو رغبت في ذلك».

ماو تشي: «نحن في المجتمع الجديد، وأنت ما تزال تؤمن بالخرافات؟

- أفصحي لي عن مكنون قلبك: هل ندمتِ على زواجك بي؟

- لم تسألني هذا السؤال؟

- أخبريني الصراحةً.

لم تُجبه ماو تشي. لزمّت الصمتَ متفكّرةً.

«تخشين مصارحتي؟

- تريد حقاً أن تعرف؟

- قللي.

- حسناً سأخبرك.

- قللي.

- لطالما أحسستُ بشيءٍ من الندم.

بهت الحجار. تأملها مذهولاً، فانتبه إلى شبابها: بالكاد بلغت الثلاثين، بينما هو كهلٌ أناف على الأربعين، ويبدو كمن أشرف على الخمسين.

«لأنّني أكبرُ منك سنّاً؟

- بل بسبب طيبة. ليس هنا إلا العمي والعرج والصم والبكم. لو لم تكن أنت هنا، لكنت قد نُقلت إلى الإقليم، بعد الضم، باعتباري رئيسة جمعية النساء. لكن ما كان كان، وقد بقيت هنا، أوجه العمل في الحقول، ولست حتى أدري ما إذا كان هذا عملاً ثورياً. إن كان الجواب كلاً، فإنّني سأندم طيلة حياتي على أنّني لم أعمل ما يكفي في سبيل تغيير العالم.

وكانا قد بلغا هذه النقطة من الحديث، حين وقع الحادث، أو بالأحرى فرّق، انفجر. بدايةً طرق الناس، فلما أعياهم الطرّق، قفزوا من فوق جدار الساحة. تساءل الحجار قلقاً: «من هناك؟» سمعا خطوات تقترب من الباب. سألت ماو تشي: «من هناك؟ أحدٌ يموت؟ سأطبخ له فوراً آنية حساء». لا جواب، لكنهم كسروا الباب، واقتحموا الغرفة، خمسة أو ستة. كلّهم أشداء،

ويحملون في أياديهم هراوةً، أو مجرفة أو معولاً. وما كادوا يدخلون حتى أحاطوا بالسّرير، ووضعوا آلاتهم على رأسي ماو تشي والحجار. قالوا: «نحنُ أسفون، لكنّ السّماء غير عادلة. مجموعةٌ من العُرج والكُتَع، والعمي، يعيشون ويقاومون، بينما نحنُ، النّاس-تأمين، نتساقطُ كالذّباب. ليس في جبانّتكُم قبرٌ واحدٌ حديث». ثم إنَّ المتحدثَ أخرجَ ورقةً مكتوبةً بالرّيشة على ورقة قشّ، ترخّصُ له بأن يطلبَ المؤنّة، وتحمل ختم اللّجنة والإقليم. ألقى بها أمام ماو تشي معلناً عليها: «لقد اطّلع على هذه الرّسالة، لكن لما لم تفعل شيئاً ليطعمنا القرويّون، فإنّنا مضطّرون إلى أن نأخذ حقناً بأيدينا. ليس هذا سطواً، إنّما نحن نأخذ ما رخصت لنا الحكومة بأخذه». ثم ألقى نظرةً إلى رفاقه، فدخل اثنان منهما إلى الجرة المجاورة بحثاً عن الطّحين في الخاوية. ثم تحوّلوا إلى المطبخ، يُفرغون القدر. ولما كان الحجار قد سقط من السّرير، واستغلّ سقطته ليتناول كيس أدواته، ويُخرج منه مطرقةً، فقد ارتفعت فوق رأسه هراوةٌ، وصاح حاملاًها: «لا تنسَ أنّك لست إلّا أعرج!» إذّاك نظر إلى ماو تشي وأوقف حرّكته. رجلٌ آخرٌ هدّدها بعصاً: «تحلّي ببعض الذّكاء! أنت ثوريّةٌ، لقد خُضت معارك، وشاركت في الحرب، ومع ذلك تعجزين عن أن تشاركي طحينك مع الشّعب السّفيل». وكانت الضّجة قد أيقظت الصّغيرة جُومي فأتت تلوذ بحضن أمّها. أخذت الأم ابنتها بين ذراعيها، واختلست النّظر إلى الرّجل الذي صار الآن يشدّها من شعرها، ففرّفته: كانت تعطيه كلّ يومٍ إناءً حساءٍ، له ولأسرته. قست نظرتها:

«كيف لك أن تتصرّف بهذا الجبن؟

أجابها: - لا خيار عندي. ينبغي أن يعيش ذويّ.

- صرت إذن تنهب؟ ألا تؤمن بالقوانين الأسمى؟

- أيّ قوانين أسمى؟ إنّ النّاس-تأمين هم أسيادُ المعاقين. عن أيّ قوانين طبيعيّة تحدّثيني حين يموت النّاسُ جوعاً؟ أنا أيضاً شاركت في الحرب، كنت جندياً في جيش الرّحف الثامن.

بعد برهةٍ، تردّدت جلبةٌ في المطبخ، كانت أواني، بالطّبع، ومراجل. فيما

يَهْمُ التَّدْقِيقَ فِي التَّصْنِيفِ، فَلنَقْلُ بِالْجُمْلَةِ، إِنَّ المَاعُونَ قَدْ كُسِرَ تَكْسِيراً. وَفِي الْحَجَرَةِ المَجاوِرَةِ أَيْضاً كَانَ الرِّجَالُ يَلْقَوْنَ بِالْجَرَارِ وَالْخَوَابِي بَحْثاً عَنِ الْمُؤْنِ. لِمَحِ الْحَجَّارِ أَحَدَهُمْ مِنْهُمْ كَأُفْرِاغِ الذَّرَةِ المَخْبُوءَةِ فِي قَعَرِ كَيْسٍ، وَكَانَ يَحْفَظُ مِنْهُ مِلءَ يَدَيْهِ، وَيَحْشَرُ الْحَبُوبَ فِي فَمِهِ. قَالَ: «حَذَارُ، لَقَدْ وَضَعْتُ فِيهِ سَمَّ الْفُئْرَانِ»، فَأَجَابَهُ: «الْأُحْرَى أَنْ نَمُوتَ بِالسَّمِّ، مَيْتَةً سَرِيعَةً، عَلَى أَنْ نَمُوتَ مِنَ الْجُوعِ، مَيْتَةً بَطِئَةً». قَالَ الْحَجَّارُ: «أَنَا جَادٌّ فِي كَلَامِي، إِنَّهُ فِي الْفَطِيرَةِ، لَا يَنْبَغِي أَنْ تَسَمَّمَ زَوْجَتَكَ وَأَطْفَالَكَ». صَوَّبَ الرَّجُلُ إِذْنَهُ مُصْبَاحَهُ عَلَى فَتْحَةِ الْكَيْسِ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ فَطِيرَةً يَابِسَةً، وَأَلْقَى بِهَا خَلْفَ الْبَابِ.

فِي الْحَجَرَةِ كَانَ الْهَرَجُ وَالْمَرْجُ قَدْ بَلَغَ كُلِّ مَبْلَغٍ. لَائِذَةٌ بِحُضْنِ أُمِّهَا، كَانَتْ جُومِي تَطْلُقُ صِيحَاتٍ حَادَّةً تَدُورُ مِثْلَ تَيَارَاتِ هَوَاءٍ. رَفَعَتْ مَاوُ تَشِي قَمِيصَهَا، وَأَلْقَمَتْ ابْنَتَهَا ثَدْيَهَا، فَكَفَّتِ الْبِنْتُ فَوْراً عَنِ الْبِكَاءِ. فَلَمْ يَعِدْ يُسْمَعُ إِلَّا صَوْتُ الْخَطَوَاتِ، وَالِدَوَالِيبِ الَّتِي تُفْتَشُّ، وَالصَّنَادِيقِ الَّتِي تُقْلَبُ. ضَجِيجٌ لَا نِهَايَةَ لَهُ! خَرَجَ مِنَ الْمَطْبَخِ رَجُلٌ مَذْهُولاً، شَاهِراً فِي وَجْهِهَا سَكِيناً. قَالَ: «لَمْ أَجِدْ شَيْئاً، لَمْ أَخُذْ شَيْئاً، طِفْلِي لَا يَتَجَاوَزُ عَمْرَهُ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ، وَهُوَ يَعْانِي الْجُوعَ وَالْبَرْدَ، أَعْطَنِي شَيْئاً لِأَجْلِهِ». تَنَاوَلَتْ سُتْرَةَ جُومِي المَصْنُوعَةَ مِنَ الْقُطْنِ الاصْطِنَاعِيِّ، وَالتِّي كَانَتْ مُلَقَاةً عَلَى السَّرِيرِ، وَسَأَلَتْهُ:

«- أَلَيْسَتْ هَذِهِ السُّتْرَةُ صَغِيرَةً عَلَيْهِ؟

- قَلِيلاً، لَكِنِّهَا سَتَفِي بِالْفَرَضِ.

- إِنَّهَا مُوَدِّلٌ بِنَاتِي.

- وَلِيَكُنْ، سَتَفِي بِالْفَرَضِ».

أَثْنَاءَ ذَلِكَ كَانَ الرِّجَالُ قَدْ اسْتَوْلَوْا عَلَى كُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُؤْكَلَ أَوْ يُلْبَسَ فِي الْمَنْزِلِ، وَعَادُوا إِلَى السَّرِيرِ. وَبَعْدَمَا تَأَمَّلَ مَاوُ تَشِي، وَالْحَجَّارُ، رَكَعَ أَكْبَرُهُمْ سَنَاءً عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَقَالَ: «أَعْتَذِرُ مِنْكَ. إِنَّ مَا فَعَلْتُهُ شَائِنٌ». ثُمَّ انْصَرَفَ، سَاحِباً خَلْفَهُ الْآخَرِينَ.

مِثْلَ عَاصِفَةٍ تَهْبُ، ثُمَّ تَرَحَّلُ.

استعاد المنزل الهدوء، أدار الحجار رأسه شطرَ الحائط، هناك حيث كانت البندقية معلقة من قبل. قال: «مؤسفٌ أننا سلّمناها إلى الميليشيا». أدارت ماو تشي بدورها الرأسَ صوبَ الجدار الفارغ، ووضعت رضيعتها على السرير، ثم تواطأ الزوجان على لبس الثياب والخروج. لكن لما أرادت دفع الباب، أدركت أنه مُقفَل من الخارج. لقد حُبسَا في بيتهما.

في الخارج صاح صوتٌ: «لقد خزّناها جميعاً عند رؤوس أسرتهم! فتشوا عند رؤوس الأسرّة!» وتناهى إليهما من بيت الجيران، ضجيجُ النَّاسِ-تأمين، يفتشون عن المعازق، والمجارف، والماعول؛ فصوتُ الأرض تُحفر وتنبش؛ ثم جلبُ المنازل التي تُتهب، أعقبها دويٌّ ملأ الكونَ كضجيج الحرب. أخذ الحجار ينظرُ إلى زوجته التي في خضمّ دُعرها من الضوضاء، جعلت تذرع الباحة في دوائر، متمتعة من بين أسنانها: «ما العمل؟ ما العمل؟ لم النَّاسِ-تأمون تعوزهم الرحمة إلى هذا الحد؟ لم هم قساة إلى هذا الحد؟» أتت بكرسيّ، ووضعتَه أسفل الجدار، فقفزت منه، ففتحت البابَ من الخارج. كان القمرُ واضحاً وضاءً، والبصرُ يقدرُ أن يرى بعيداً، لكن ليس بما يكفي لكي يميز ما تحمله زُمُرُ الأشباح السوداء التي تبتعد في الحقول هرولة. كانوا محمليّ الظهور، والأكتاف، والأذرع، بعضهم يسارع بالعودة إلى القرية، بينما الآخرُ يمضي راكضاً، فتنتج عن ذلك فوضى عارمة، وضجيج خطوات مبعثرة. بعض النَّاسِ-تأمين قد جعلوا يسحبون بهائم الحلب، وآخرون يحملون الخنازير، وتلك الصبية تنصرف بدجاجة. العالمُ يردّد أصداء قوقاة الدجاج، وقُباع الخنازير، وفرقة السيّاط على ظهور البهائم. وفي خضمّ هرولته، أسقط رجلٌ من محمله شيئاً، فتحدرج الشيء على قارعة الطريق. وضع محمله، لكي يتلمّس الأرض بحثاً عما وقع منه، فاستولى على محمله رجلٌ آخر، كان يسوق كبشاً. فوضى لا توصف، عماء شامل، صخبٌ في كلّ مكان، ومن بيوت طيبة، ترتفع صيحات مكتومة، تحلق أرجوانية في ضوء القمر، كأنها دمٌ، بين متجلط ومسفوح، يهيم فوق القرية. وكان الأعمى، الذي سلب مؤونته، واقفاً تحت الظلة، حاضناً زوجته وابنه، وهما مثله أعميان، ينتحب ويتوسّل إليهم: «اتركوا لنا ولو ما يسدّ الرّمق، أيّها الكرماء، فلا أحد

فِي بَيْتِنَا مَبْصُرٌ». وَكَانَ النَّاسُ الْكَرْمَاءُ يَقْصِدُونَ الْبَابَ، حَامِلِينَ أَكْيَاسَ حَبُوبٍ عَلَى ظُهُورِهِمْ، وَقَالُوا لَهُ: «لَمْ يَفْتَرِضْ أَنْ يَعِيشَ الْعَمِيَانُ حَيَاةً أَفْضَلَ مِنْ حَيَاةِ النَّاسِ-تَامِينَ؟ مِنْذُ مَتَى كَانَتْ حَيَاةُ الْمَعَاقِ أَوْلَى مِنْ حَيَاةِ السَّلِيمِ؟» ثُمَّ شَدَّوْا فِي التَّوْضِيحِ: «لَمْ نَأْتِ إِلَى هُنَا لِنَنْهَبَ، إِنَّمَا هِيَ الْحُكُومَةُ مِنْ أَوْصَانَا بِأَنْ نَطْلُبَ طَعَامَنَا هُنَا». أَيُّ كَلَامٍ يُقَالُ بَعْدَ هَذَا؟ مِنْ عَتَمَتِهِ كَانَ الْأَعْمَى يَرَاهُمْ يَحْمِلُونَ مَوْئِنَهُ أَسْرَتَهُ. أَمَّا الْأَصْمُ، فَكَانَ قَوِيًّا، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ الْقَادِمِينَ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ بَاحَتَهُ، فَفَقِيدُوهُ إِلَى قَائِمَةِ سَرِيرِهِ. وَكَذَلِكَ الْأَبْكُمُ لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا، لَكِنَّهُ كَانَ رَهِيْفَ الْإِحْسَاسِ، فَأَعْمَى عَلَيْهِ مِنْ ضَرْبَةِ هِرَاوَةٍ وَاحِدَةٍ. أَمَّا الْأَعْرَجُ، وَكَذَلِكَ أَبْتَرِ السَّاقِ الَّذِي أَرَادَ الْوُقُوفَ فِي وَجْهِهِ الْمَخْرَبِينَ، فَقَدْ قِيلَ لَكُلِّ مِنْهُمَا: «عِنْدَ أَوَّلِ حَرَكَةٍ، سَنَعْطِبُ قَدَمَكَ السَّلِيمَةَ». فَتَذَكَّرَ الرَّجُلُ إِعَاقَتَهُ، وَاكْتَفَى بِمِرَاقِبَتِهِمْ وَهُمْ يَفْرَغُونَ بَيْتَهُ.

سَأَلَ أَحَدُ النَّاسِ-تَامِينَ: «أَيْنَ الْمَصْبَاحُ؟

أَجَابَتْهُ الْمَرْأَةُ وَهِيَ تَرْفَعُ ذِرَاعَهَا الْوَحِيدَةَ: - عِنْدَ طَرَفِ الْمَائِدَةِ.

- أَوْقَدِيهِ».

نَفَذَتْ الْأَمْرَ، وَوَقَفَتْ تَضِيءُ لَهُمْ، وَهِيَ تَتَوَسَّلُ إِلَيْهِمْ: «الْعَالَمُ كُلُّهُ يَعْانِي الْمَجَاعَةَ، أَعْرِفُ أَنَّكُمْ جَائِعُونَ، لَكِنَّ طِفْلِي لَمْ يَتَجَاوَزْ سَنَةً مِنْ عَمْرِهِ! اتْرَكُوا لَهُ مَكْيَالًا مِنَ الطَّحِينِ. مَا رَأَيْتُمْ؟

أَجَابُوهَا: - نَحْنُ أَيْضًا مِنْ مَقَاطِعَةِ السَّرْوِ، وَقَدْ أَعْطَوْنَا رِسَالَةً تَسْمَحُ لَنَا بِأَنْ نَطْلُبَ مِنْكُمْ مَوْئِنًا. الرِّسَالَةُ تَحْمِلُ خَتَمَ الْحُكُومَةِ، وَإِنْ لَمْ تَصْدَقْنِي، يُمْكِنُنِي أَنْ أَذْهَبَ لِأَتِيكَ بِهَا». ثُمَّ: «عِنْدَكُمْ لَمْ يَمِتْ أَحَدٌ، أَمَّا عِنْدَنَا فَقَدْ مَاتَ أَرْبَعَةٌ مِنْ كُلِّ سَبْعَةٍ أَفْرَادٍ. مَا دَمْنَا نَحْمِلُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ، فَعَلَامَ اسْتَنْدَتُمْ فِي مَنَعِكُمْ إِيَّانَا الْمُؤْنُ؟ بِاسْمِ مَنْ تَرْفُضُونَ إِطَاعَةَ أَوَامِرِ السُّدَّةِ؟» فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ كَلَامِهِ، نَبَشَ عَلَى الْقَمَحِ الْمَخْبُوءِ تَحْتَ السَّرِيرِ، ثُمَّ انْصَرَفَ حَامِلًا عَلَى ظَهْرِهِ الْكَيْسَ الَّذِي مَلَأَهُ بِالطَّحِينِ حَتَّى آخِرِ ذَرَّةٍ.

وَلَمَّا بَلَغَ الْعَتَبَةَ، أَضَافَ مِنْ دُونِ حَتَّى أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهَا:

«فكري قليلاً، لم يتعين أن يعيش المعاقون حياة أفضل من الناس-تامين؟»
 كذلك نهبت كل المنازل.
 لم تعد القرية إلا نحيباً.
 على جبال بالوتخيم الضوضاء والفوضى.

ماو تشي والحجار واقفين عند عتبة بابهما. كانا يتابعان، في ضوء القمر، هؤلاء البشر الذين يأتون على كل ما في طيبة من طعام، ومن عينيها تسيل الدموع كالماء. وحين مرّت من أمامهما زمرة من أربعة أفراد أو خمسة، تسوق الثور الأصفر، قفزت هي معترضة طريقهم، وأمسكت الحيوان من خاصرته، قائلة: «اتركوه لنا، قريباً سنحتاجه في الحرث!» رموها بنظرة شزراء، ثم بضربة قوية على قدمها السليمة، فانهارت ككرسي تنقصه رجل، تحت ضوء القمر. لكنّها زحفت، وتعلقت بساق الرجل الذي يسوق البهيمة: «كلنا أفراد في مقاطعة السرو، فلا نستطيعون أن تفعلوا بنا هذا كلنا أعضاء في الكومونة نفسها». نهّرها الرجل: «باسم إي خرا كومونة، تستطيعين أن تمنعيني؟ نحن نموت جوعاً، وأنت تحدّثيني عن الكومونة!» ثم أراد أن يبتعد بالثور، سَوْقاً وسَحْباً وضرباً بالسوط، لكنّها ظلت متشبّثة بساقه، فركلها بعنف على ساقها السليمة. هرع الحجار، وجثا على ركبتيه، وانحنى انحناءً بالغة وهو يتوسّل للرجل ألا يضربها: «أرجوك، لا تضربها، إنها معاقة، ليست تملك إلا ساقاً سليمة واحدة، إن أردت أن تضرب أحداً، فلتضربني أنا، وإن أردت أن تؤدّب أحداً، فأدّبنِي أنا.

- هل هي زوجتك؟ قل لها أن تتركني».

سجد الحجار حتّى لامست جبهته الأرض: «اترك لنا الثور، ماذا سنفعل حين يأتي موعد الحرث؟».

ركل الرجل ماو تشي ركلة أخرى، فأطلقت صيحة مفزعة، لكنّها لم ترخي الخناق على قدمه. جبهة الحجار تجلّد الأرض كقطرات المطر، ويتوسّل: «اضربني أنا! اشتمني أنا! لكن اتركها هي! هي قد ذهبت إلى يانان، وشاركت في الحرب، وساهمت في تأسيس المجتمع الجديد!» التفت الناس-تام إلى ماو

تشي، وقال صاراً على أسنانه: «سُحْقاً! إِنَّ النَّاسَ مِنْ أَمْثَالِكَ هُمْ مِنْ أَوْصَلُونَا إِلَى هَذَا الْمَاخُورِ! مِنْ دُونِ الثَّوْرَةِ كَانَتْ أُسْرَتِي لِتَنْعَمَ بِقِطْعَةٍ مِنْ أَرْضٍ، وَثُورٍ، لَكِنْ كَانَ يُلْزِمُكُمْ أَنْ تَقُومُوا بِهَذِهِ الثَّوْرَةِ، وَتَصْنَفُونَا فِي خَانَةِ أَغْنِيَاءِ الْفَلَاحِينَ! لَمْ نَعِدْ نَمْلِكْ أَرْضاً وَلَا بَهَائِمَ، وَبِسَبَبِ هَذِهِ الْمَجَاعَةِ، مَاتَ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَفْوَاهِنَا الْخَمْسَةِ!» ثُمَّ وَاصَلَ ضَرْبَهَا بِالرَّكَلَاتِ قَائِلاً: «أَيُّهَا الْمَرْأَةُ، مَا كُنْتَ تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَقْرِي هَانِئَةً فِي بَيْتِكَ، كَانَ لَا بَدَّ لَكَ مِنْ أَنْ تَقُومِي بِهَذِهِ الثَّوْرَةِ، لَذَا سَوْفَ أَلْقُوكَ أَنَا دَرْساً، سَأُعَلِّمُكَ مَعْنَى الْقِيَامِ بِالثَّوْرَةِ!» ثُمَّ وَاصَلَ رَكَلَهَا بِعَنْفٍ فِي كُلِّ يَتِيهَا.

مرعوبةً، أَقْلَتَتْ سَاقَهُ.

نَخَرَ الرَّجُلُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَالثَّوْرَ، لَاحِقاً بِأَشْبَاهِهِ. لَكِنْ بَعْدَ خَطَوَاتٍ، اسْتَدَارَ لِيَشْتَمَهَا: «لَوْ أَنَّكَ لَمْ تَقُومِي بِهَذِهِ الثَّوْرَةِ الْخَرَاءِ، لَمَا عَانَيْنَا مِنْ هَذِهِ الْمَجَاعَةِ الْخَرَاءِ.» ثُمَّ غَادَرَ الْقَرْيَةَ سَاخِطاً، وَصَعَدَ بِاتِّجَاهِ الْقِمَّةِ.

اسْتَعَادَتْ طَيِّبَةُ هَدُوءَهَا شَيْئاً فَشَيْئاً.

وَكَانَ آخِرُ النَّهَابِينَ يَغَادِرُونَ الْمَكَانَ مُسْتَائِينَ وَهُمْ يَفْغَمُونَ: «اللَّعْنَةُ! أَنَا لَمْ أَحْصِلْ عَلَى شَيْءٍ!» مِنْ دُونِ أَنْ يَدْرِيَ السَّامِعُ، هَلْ يَشْتُمُونَ الْقَرْيَوِيِّينَ، أَمْ يَشْتُمُونَ رِفَاقَهُمْ فِي النَّهْبِ الَّذِينَ لَمْ يَتْرَكُوا لَهُمْ شَيْئاً يَسْلُبُونَهُ، لَا مَوْنَ وَلَا غَيْرَهَا.

أُطْلِيَ النَّهَارُ.

كَانَتْ الطَّرِيقَاتُ مَلِيئَةً بِالسَّلَالِ الْفَارِغَةِ، وَالْأَكْيَاسِ الْمَمْرُقَةِ، وَحُبُوبِ الذَّرَّةِ وَالْقَمْحِ الْمَتَنَاثِرَةِ عَلَى الْأَرْضِ. وَكَذَلِكَ رِسَائِلُ تَحْمِلِ تَوَاقِيعَ وَأَخْتَامَ رُئُوسِ الْإِقْلِيمِ وَسُكْرَتِيرِ الْكُومُونَةِ.

كَدَّ أَبْهَاهَا، أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، وَبَصْفَرَةَ مَرَحَةٍ كَانَتْ تَلْمَعُ عَلَى الْجِبَالِ وَالْقَرْيَةِ وَالْمَنَازِلِ. وَفِي رِسَائِلِ التَّوَصِيَةِ كَانَتْ الْأَخْتَامُ حُمْرَاءَ قَانِيَةٍ، زَاهِيَةً كَأَزْهَارٍ. وَمَنْ كَانَ أَوَّلَ الْخَارِجِينَ؟ كَانَ يَكْفِي أَنْ يَجْتَازَ عَتَبَةَ بَابِهِ، لِكَيْ يَتْبَعَهُ الْجَمِيعُ، عَمِياناً وَعُجْرَاجاً وَصِماً بَكْماً، وَنَاسٌ-تَامِينَ، جَمِيعُهُمْ، أَصْفَرُهُمْ وَأَسْنُهُمْ، بَرَزُوا مِنْ بِيوتِهِمْ. وَظَلُّوا هُنَاكَ، صَامَتِينَ، عَلَى الْعَتَبَاتِ، يَلْعَبُونَ لِعَبَةٍ: حَدَقَ فِيَّ وَأَحَدَقَ فِيكَ، مَنْ غَيْرِ أَنْ يَنْبَسَ أَحَدُهُمْ بِكَلِمَةٍ. لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَا يُقْرَأُ عَلَى الْوُجُوهِ، لَا حَزَنٌ،

ولا أَسَى: كانوا فقط جامدين، ينظرون إلى بعضهم بعضاً بوجوه متبلدة. وبعد مدة، علق أصمُّ، كأنما يحدثُ نفسه: «لم تعد في البيت حبة قمح، لقد أخذوا كلَّ شيءٍ حتَّى الخوابي التي دفنّاها تحت الأُسرة». ثم، نطق أعمى: «لقد قالوا إنني لست بحاجة إلى أن أستنيرَ، فأخذوا مصباح الزيت. مصباح جميل من النحاس لم تواتني نفسي في أن أتخلّى عنه أيام آفة الحديد». وهذه هي اللحظة التي تدخلت فيها ماو تشي. وصلت متّكةً على عكازها، تعرج أكثر من أي وقت مضى، ومع كل خطوة تخطوها، تبدو على وشك الانهيار. بشرتها بيضاء مصفرة، شعرها منكوش يبدو كمن لم يداعبه مشطٌ منذ ثمانية قرون، لشد ما شاخت في ليلة واحدة: التجاعيد نسجت على وجهها بيت عنكبوت، ووخط الشيب شعرها عند الصدغين. تقدّمت حتّى شجرة الصّفيراء، هناك حيث كانت فيما مضى معلقة العجلة وناقوسها، ونظرت إلى القرويين المصطفين على جانبي الطريق. تقدّموا إليها، وكعادتهم أيام الاجتماعات، فيما مضى من الزمن، تحلقوا حولها صامتين كأنهم منؤمنون.

بغته، أطلقت ابنة شيخ أعرج - في السابعة والسبعين من عمره - بالصّراخ حنجرتها. كانت تصيح بصوت متحشرج وحاد، وكالريح لا تكفّ عن الدوران، وتقفز، وترفس الأرض، وتضرب بيديها على فخذيها:

«النّجدة! أسرعوا! إنّ الأب يموت في حفرة الحبوب تحت سريره!»

- أسرعوا! إنّه يموت غيضاً في حفرة الحبوب! -

وبالفعل كان الرّجلُ يسلمُ الرّوحَ عند حافة مخزنه الأرضي، وبجانبه رسالة مطالبة تحمل أختام الكومونة الشّعبية، والسّكرتير، أخذتها ماو تشي حين وصلت مع بقية أفراد القرية. ومع آخر نفس يلفظه، قال لها:

«فكي ضمّ طيبة! ما كان يجدر بنا أن ننضمّ إلى هذا الإقليم أو هذه الكومونة!».

ثم فاضت روحه.

لما أيقنوا من موته، دفنوه.

ولما دفنوه، انقضت على القرية مجاعة عظيمة.

في الأيام الأولى، لم يجرؤ أحدٌ منهم على أن يُطلَّ بأنفه خارج المنزل. لزم الناس بيوتهم، لا يخرجون، ولا يتحركون، وهذه تدابير تقتصد الطاقة، وبالتالي تبطلُ سريان الجوع. لاحقاً، أُنْتَهَم فكرة الذهاب إلى الجبل، وقطف جذور أعشاب وخُضراً. ثم في وقت لاحق، فكروا في أن يقلدوا موتى العالم الآخر، ويتغذوا على ألحية الأشجار. فكان أن لحوا أشجار الدردار، لم يتركوا منها إلا الطبقة القائمة، الأقرب إلى القلب. وطبخوا ما لحوه، فحصلوا حساءً لزجاً. مضت الأيام، وما كاد ينقضي أسبوعان حتى كانت كل الأعشاب البرية والجذور في الجبل قد نُبِشت، وكل أشجار الدردار قد سُلخت، وصار لزماً أكل التراب خاماً.

صاروا يموتون.

يقضون جوعاً، واحداً تلو آخر.

في المقبرة برزت قبورٌ جديدة. وما هي إلا خمسة عشر يوماً حتى صار عددها يضاهي براعم البامبو في فصل الربيع، عقب موسم مطير. وما لبثت أن صارت قطعة الأرض التي تشغلها الجبانة عند مدخل القرية، رحبةً رحابة ساحة البيدر. ولما كان الشباب ممن تجاوزوا الثامنة عشرة من عمرهم ولم يتزوجوا غير مرحَّب بهم عند أسلافهم الموتى، فقد دُفِنوا أنى كان. أما الأطفال الذين تقلُّ أعمارهم عن الثالثة أو الخامسة، فلم يكن ثمة من حاجة إلى تحمّل تكاليف تابوت الخشب لأجلهم، فكان يُكتفى بأن يُلْقُوا في مئزر، ثم يوضعون في سلةٍ تحمل في اليد، ويلقى بها في الخندق الذي يجري خارج القرية، أو بجانب ركام من الحجر عند الجبل.

السماءُ شمعٌ، حتى قمم الجبال قد غرقت في صمت كثيف. ومثل حزمة عشب ملقاة على منحدر، أو خراب بين قمتين، كانت طيبة ضائعة تحت سماء الشمع. بصيحة حادة ينزل نسرٌ من السماء، ويحط بجانب سلة تضم جثمان طفل. وفي البداية لا يكون الأب أو الأم بعيدين، فيحرصان على طرد الطائر

بقصبات البامبو. لكن سرعان ما يسيطر عليهما الجوع، حتّى يعجزان عن الخروج من المنزل، فيكفّان عن حراسة ابنهما. فتُقبّل الجوارح والكلاب البريّة على الوجبة بانسراح. ثمّ أيّاماً بعد ذلك، حين يوغل الوالدان بحثاً عمّا يؤكّل، يمرّان بالسّلة، لكنّها تكون فارغة.

وما تزال السّلال المتروكة تتكاثر، وكلّها تصير فارغة. وصارت تلك الفياض حيث تترك السّلال، أراضي قفراً، هي الفردوس للثعالب والجوارح والكلاب البريّة.

لم يكن النّاس يبيكون، لكنّ أعداد القبور والسّلال ما تزال في صعود. تمّ الشّهر القمرّي الأوّل، وكذلك انقضى الثاني. وإن لم يكن الشّتاء قد انقضى، إلّا أنّ الرّبيع يُطلّ. بدأ الجوّ يعذب، وريداً رويداً صار النّاس يخرجون للتشمّس في العتبات، والحديث إلى جيرانهم. يقولون: «لقد حدث أمرٌ» يقولون: «لشدّ ما كانت الحياة جميلة من قبل في طيّبة، لشدّ ما كان العيش طيّباً. لأنّ ماو تشي قد ضمّتنا إلى التعاونية والكومونة الشّعبية، نزلت علينا هذه الكارثة التي لم نر لها مثيلاً منذ ألف عام». يقولون: «ما دامت قد ضمّتنا، فلتفكّ ضمناً، ولنعدّ إلى سابق عيشنا». يقولون: «لولم نُضمّ، لما سمع أحدٌ بهذا الوادي في قعر جبال بالو، ولا بالقرية المسماة طيّبة، ولا بسكّانها المعاقين. كنّا لنعيش أيّاماً رغداً هانئةً، لا نجوع فيها ولا نعرى. ثمّ حتّى لو أنّهم علموا بوجود القرية، فإنّها لما كانت تقع عند تقاطع حدود ثلاثة أقاليم، فإنّ كلّ إقليم سيتنصّل من تبعيتها إليه، سيقولون في شوانهواي إنّنا محسوبون على دايو، وفي دايو إنّنا نتبع غاوليو، وفي غاوليو إنّنا ضمن نفوذ شوانهواي. حتّى إنّنا في النّهاية لن نتبع أحداً، لن نتبع أيّ مقاطعة، ولا أيّ إقليم. سيكون سكّان القرية في حال طيّبة، هانئين، خليّين البال. من ذا الذي سيفكّر في القدوم مشفوعاً بخطاب، لسلبهم حبوبهم؟ من كان ليفكّر في نهب القرية؟» يقولون: «ماو تشي سبّب كلّ هذا. هي من ألحقنا بالإقليم والمقاطعة، وهي من تسبّب في هذه الكارثة المهولة».

اتفقوا جميعاً، وقصدوا بيتها.

نادوها، وفتحوا الباب، ثمّ أبصروها قادمةً تعرج: مثل وجوههم، كان

وجهها مغطى بالأوذام اللامعة ذات الانعكاسات الخضراء. عند باب المطبخ، في طشت ماء يرقد كيس الحجار، ذاك الذي كان يضع فيه مطرقة وإزميله. كان الكيس من جلد، قابلاً للاستهلاك، فرقته في الماء ليلتين. كل يوم كانت تقص منه بضع شرائط في حجم عجائن، وتضعها في ماء مملح، وتطبخه، لتملأ به بطن ابنتها. هناك، عند عتبة الباب، أمام القرية التي اختلط أفرادها وتكاتفوا حتى أقرب المقرّبين إلى الحجار، أدركت ماو تشي أن شيئاً سيحدث. انقلب وجهها من الخضرة إلى الشحوب: «ما الخطب الذي دعاكم إلى القدوم جميعاً؟».

صمت. ثم باسمهم جميعاً تقدّم القريب: «ثمة موتى في كل أسرة. وقد قلقنا عليك. قلقنا على الخال وابنة الخال، فأتينا نطمئن عليكم».

ارتسمت على شفيتها ابتسامة، وتمتمت: «شكراً، شكراً لكم جميعاً لأنكم فكّرتم فينا، في هذه الظروف الصعبة».

- ليس هذا كل شيء يا أختنا. ثمة أمر آخر، وسأتكلّم بلا مواربة. إن القرية تريد أن تعيش، كسابق عهدا، في حال طيبة! فهلاً استطعت في يوم من الأيام القليلة المقبلة، أن تشدّي الرّحال إلى الكومونة والإقليم، حتى نستعيد الزّمن الذي كنّا نعيش فيه من دون أن يحكمنا أحد؟».

منزعجة، ابتلعت ابتسامتها.

ثم أتى الدّور على الأعرج، الذي اضطرّ، بتهديد البندقيّة، إلى أن يسلم ثوره أياً شكّلت مجموعة التّعاقد: «ما المانع في أن ينجح الأمر؟ فيما مضى لم يكن يريدنا إقليماً من الأقاليم الثلاثة».

أضافت، مستعينة بالكثير من الحركات، امرأة عوراء كانوا، على الرّغم من سخطها، قد صادروا معزقتها ومحراثها: «يا ابنة العمّ، حين ضُمنّا، كنت قد قلت لنا إنك إنّما فعلت ذلك لكي ينعم أهل طيبة بكثير من الأيّام الفردوسية، حتى إنّ بعد مدّة يسيرة لن نظلّ بحاجة إلى الثور كي نحراث الأرض، أو الزيت كي نوقد المصابيح. والآن أسألك: أين الأيّام الفردوسية؟».

وعقب كلامها جعل نحو عشرة من الناس-تامين، ومعهم امرأة شلاء، يصيحون ويصرخون، وينتفضون في كل جانب: «اذهبي وانظري عند مدخل القرية يا ماو تشي، وعُدِّي الأموات في القبور، وأخبرينا كم عدد القبور التي أضيفت، وكم سلالاً بجثامين أطفال، ألقينا بها في الجبل». قالوا: «أهذه هي الفردوس التي وعدتنا؟ أهذه هي جنات عدن الكومونات الشَّعبية التي أصررت على إدخالنا إليها؟» وهكذا مضت الجمل، جملة تلو أخرى، الجميع، العميان، والعرجان، والصَّمم، جميعاً مضوا في الشَّكوى. وما تزال الأصوات ترتفع، حتَّى صارت طوفاناً من الاحتجاجات، حتَّى العميان كانوا يشيرون إليها بالبنان. من الأخضر انقلب وجهها إلى الأحمر، وسال على خديها عرق بارد. لا ربح تهبُّ، وشمسُ الشَّهر الثاني تلمع ذهبية ساطعة، والقرية ذات الأشجار المسلوخة تعوم في هذا النور الهادئ. لقد أخذ النَّاسُ العجولَ، وأخذوا الخنازير، وسرقوا الدَّجاج والبط. وصارت طيبة تبدو ميّنة، إذ باستثناء سكَّانها المحتضرين، لا تتحرَّك فيها نفسٌ حيَّة. أخذت ماو تشي تتأمَّلهم. بعضهم واقف ساكناً، وآخرون يتحرَّكون في توتّر، وهنا وهناك اقتعدت نساء الأرض، وبين أذرعهنَّ أطفالٌ أنهكهنَّ الجوع حتَّى ما عادوا يبيكون. وزنَّتْهم بعينيها. ثمَّ ألقت نظرةً إلى السَّماء السَّمعية، والأرض العارية، باتَّجاه الطَّريق، ثمَّ باتَّجاه الجبل في البعيد. تملَّكها دوارٌ عنيف، كلُّ شيءٍ حولها يدور، انزلقت على هيكل الباب، ثمَّ جثت على ركبتيها. قالت: «أصدقائي، إخوتي، أخواتي، اطمئنَّوا. إن خرجت من هذه الكارثة حيَّة، فإنَّني سأعملُ على فكِّ ضَمَّننا، مثلما عملت على ضَمَّننا». قالت أيضاً: «لقد مات والدُ جومي منذ أسبوعين، إنَّه يرقد في السَّرير. رفض أكل كيسه، إذ قضى حياته كلَّها حجاراً، ولم يخطر بباله يوماً أن كيسه سيكون أفضل ما يمكنه أن يورثنا». قالت: «ما يزال ثَمَّة نصف الكيس، سوف أقطعه، وأشاركم إيَّاهُ، لكن أرجوكم، لنجمع ما بقيَ فينا من قوَّة، ونحفر حفرةً، فندفنه عند مخرج القرية». قالت: «الطَّقس يسخن، لا بدَّ من دفنه»؛ قالت: «أنا أسألكم المغفرة، أسألكم المغفرة جميعاً. لكن هو، لقد كان رجلاً شهماً، فأكرموه بما يليق به».

قالت كلُّ ذلك وهي جاثيةٌ على ركبتيها أمامهم، وبينما تتكلَّم ضربت بجبهتها الأرض ثلاث مرَّات. صعدت الدَّموع إلى عينيها، ثمَّ سالت في لآلئ

مستديرة، ساحت في الوجه المليء بالأوذام، واتخذت في نور الشمس بروقاً كريستالية. فلما أنهت كلامها، وركوعها، قامت -مستندة دائماً إلى هيكل الباب- ورجتهم أن يدخلوا.

ذاهلين، تبادل القرويون نظرات تفيد بأنهم ما كانوا ليتخيلوا البتة شيئاً مماثلاً.

أضافت: «لقد توسلت إليكم. ثقوا بكلمتي، لقد آذيتكم شرّاً الأذى، حتى إنني منذ خمسة عشر يوماً لا أجرؤ على أن أطلّ من بيتي، مخافة أن تلتقي عيني بأعينكم، وما دام الجميع هنا، فإنني أقسم لكم القسم المقدس: إن لم أفكّ ضمّ طيبة، ألا فلاهلكنّ جوعاً وأنفجر. وليكن لكم الحق في أن تلقوا بجثتي إلى الديدان والكلاب، ولتنهشها الذئاب، وتمزقها النّسور». ثم: «إن نجوت فسوف يفكّ ضمّ طيبة مع إقليم شوانهواي، وسوف أخرجكم من مقاطعة السّرو». وأيضاً: «أتوسّل إليكم، أعينوني على إخراج حجّار القرية، ودفنه، إن جومي صغيرة جداً، وجثمانه يخيفها».

وكان ابن العمّ أوّل من اجتاز الباب، ولحق به النّاس-تامون، وبالفعل وجدوا على السّرير، تحت الغطاء، جسد الحجّار المتخشّب، وبالأسفل، عند قوائم السّرير، فرشّة ماوتشي وابنتها. وكانت الطّفلة ملفوفة في غطاءها، تمضغ شريط جلد مغلياً، فلما رأتهم ابتسمت ابتسامة شاحبة يابسة.

حملوا الرّجل. ولما فرغوا من دفنه، وشكرتهم ماوتشي، جثت على ركبتيهما مجدداً وأقسمت لهم أنّها لن تعود قطّ إلى سيرتها الثّوريّة. «إن نجوت، أنا التي عملت على ضمّ طيبة، فإنني سأفعل كلّ شيء في سبيل فكّ ضمّها».

ذلكم خبر الأحداث التي عرفتھا تلك السّنة المذكورة.

وتاريخياً تلك هي الأحداث التي يُستند إليها، في القرية، حين يأتي ذكر «الكارثة الكبرى».

تعليق

(١) - أن تفقد الأفق - لهجة محلية. أن تفقد الذاكرة. «ليس لديك أفق»
تقالُ على سبيل الشتم لمن نسي الأحداث التي لا ينبغي لأحدٍ نسيانها.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الخامس

جثوا على رُكبهم، لم يعد العالمُ إلّا دموعاً

لم تكن ماو تشي تتخيّل أنّ الأمور ستقلب هذا المنقلب، كأنّها طريقٌ وعرةٌ في جبل، طريق من تلك التي تقودك إلى غابة لا مخرج منها، أو إلى ضفّة نهرٍ ينعكس فيها القمر، أو إلى شفا جُرفٍ يمنعك من أن تمضي قدماً. كانت تلك المدينة، شماليّ جيانغسو، نسخةً شبةً مطابقةً عن جاراتها التي زاروها من قبل. في كلّ مكانٍ ترتفع العمارات عالياً، حتّى تضيع في تخوم السحاب، أغلبها بجدرانٍ بأكملها من زجاج، حتّى إنّك إن مرّرت بجانبها خلال النّهار، انتابك الانطباعُ بأنّك تحاذي النّار. تُشوي ذراعُك، وتشعر بشوأةٍ رأسك تحترق. وكانت الطّرقُ واسعةً، لدرجة أنّ النّاس قد تجفّف فيها صيفاً قمحها، وخريفاً ذُرّتها. غير أنّ تلك المساحة بأكملها لم تكن تضمّ حبةً من قمحٍ أو ذرة، وإنّما أناساً، أناساً في كلّ مكان. وسيّارات في كلّ مكان. ورائحةٌ بنزينها كانت أسوأ من روث السّائل في حظائر الخنازير أو رائحةِ الإسطبات في جبال بالو، رائحةٌ حارّة، لزجةٌ ونفاذة. في الرّيف، على الأقلّ،

تنبعث الرائحة في خيوط، أمّا هنا فاللتانة تغمر المدينة في حزمة، فكنت تصادفها في الشوارع، والأزقة، في كل مكان. لحسن الحظ أن في يومنا المعلوم كانت الانبعاثات قد خفت، وغسلتها الأمطار.

كانت المدينة تبدو جديدة، استعادت نضارتها.

وكانت ماو تشي قد خرجت بمفردها من القاعة، وتتهياً لأن تجوب الطرقات وحيدة. ما كانت لتتخيّل البتّة أن أناس طيبة قد غيّرُوا إلى هذه الدرجة، وأنّهم لم يعودوا يريدون فكّ الضمّ. أنّهم لا يريدون ترك الفرقة. ولا ظنّت أنّها عند باب المسرح، وهي ما تزال لائذةً بالإفريز تراقبُ الستار الأبيض الذي أسدلته الأمطارُ نازلاً حتّى الأرض، قلنا، ما ظنّت أنّها ستجد هناك، مدير المسرح والنّاس-تأمين واقفين تحت الأمطار، كأنّهم دجاجاتٌ سقطت في مرق. ولما تنبّهوا إلى وجودها، هاجوا، كأنّها اكتشفوا ناراً وسط البرد. من أين مقدّمهم؟ لا فكرة لديها، لكن المؤكّد أنّهم عائدون من مكانٍ ما، لقد كانوا يتجادلون تحت الأمطار، ولما طلعت عليهم، أنّهم بظهورها تردّدهم. هم الآن قادمون صوبها.

قالوا: «لقد جيئ في الوقت المناسب. نريد أن نحدّثك في أمر. لقد اتّصل بنا رئيس الإقليم: رأس المال اللازم لشراء لينين قد تحصّل بالعموم، وعقدك ينتهي آخر الشهر، وقد وافقت الحكومة. ابتداءً من السنة القادمة لن تظلّ طيبة تابعةً لنفوذ شوانهواي. لكنّه أضاف أن لا مناص من الإنصات إلى صوت الشعب، وبالتالي ينبغي، قبل

ترحيلكم، أن نستفتي سَكَانَ القرية. ينبغي أن يصوّتوا، لنعلم كم منهم يريدون البقاء ضمن نفوذ شوانهواي ومقاطعة السّرو، وكم منهم يريدون فكّ الضّم والعيش بلا تبعيّة».

كانت المطر يهطل غزيراً. وكانوا واقفين على عتبات مدخل المسرح، بعضهم لاذ بمطريّة، وبعضهم ترك الأمطار تبلّل رأسه كما يحلو لها. وجوههم بلّلتها الرّذاذ، فطمس منها الملامح، حتّى ليعسر على الناظر إليها أن يخمّن مرماهم من وراء هذا الحديث أو من النقاش الذي كانوا يخوضون فيه قبل قليل. كأنّما قد لمحوها ما إن قطع رئيس الإقليم الاتّصال، إذ كانت الكلمات تسيل من شفاههم بتلقائية شديدة. انقبض قلب ماو تشي، كأنّما ضربت مطرقة عظيمة صدرها المصنوع من الطّوب الهشّ. كان الرّجال يجهلون أن قرويّ طيبة قد رفعوا أياديهم منذ قليل في الكواليس مصوّتين، وأن أغلبهم قد ثاروا، عقب جولة الأشهر الخمسة الماضية، ضدّ فكرة فكّ الضّم. أنّهم جميعاً يفضّلون التّبعيّة إلى شوانهواي. متفاديةً إخبارهم بما حدث، اكتفت بالنّظر إليهم متسائلةً:

«- والآخرين؟»

- أي آخرين؟» وقبل أن تجيب، انطلقوا إلى هم إلى الجواب: «آه! الفرقة رقم ١! إنّهم في كانتون، وقد صوّتوا: من أصل السّبعة وستين فرداً، لا أحد صوّت لفكّ الضّم. جميعهم ضدّ فكّ الضّم، ولا أحد منهم يريد أن يُحلّ الفرقة. يفضّلون أن يواصلوا السّفر، يجوبون العالم، ويقدمون العروض».

شيء ما انحسر في حلقتها، كانت تريد أن تتكلم لكنها لا تستطيع.
وكأنها قرأ أطر الفرقة رقم ٢ ما يدور بخلدتها، فانقضوا على
الفرصة ليعلنوا عليها ثمرة نقاشهم، ويشرحون لها ما كانوا يتداول
فيه تحت المطر. قالوا لها: «ماو تشي، لتكلم بلا موارد، نعلم أنك
قضيت طيلة حياتك تحاولين تحرير القرية من التبعية الإدارية،
أن تفكّي الضمّ، مثلما تقولون في قرينكم، لكي تعيشوا أياماً حرةً
وفي حال طيبة. كما نعلم أن القرويين يكسبون الكثير من النقود
خلال هذه الجولة، وأنهم يخشون ألا يكسبوا مثلها حين يتم لهم
الاستقلال. لكن إن كنت أنت تريدين الانفصال حقاً، فنطلب منك
خدمة، وسوف يسير كل شيء كما تشتهين. إن كنت موافقةً، فيكفي
أن تخبري رئيس الإقليم بأن أعضاء الفرقة قد صوّتوا لصالح فكّ
الضمّ. حين تعودون إلى شوانهواي ستكون السنة المقبلة قد حلت،
وتكونون أنتم في حل من التبعية للإقليم أو المقاطعة. ستكونون
مستقلين تماماً وإلى الأبد».

حدّقت فيهم ماو تشي. كانت تنتظر أن يفصحوا لها عما يسألونها
الموافقة عليه.

قالوا: «لا شيء خطيراً. منذ خمسة أشهر ونحن ننظّم العروض،
نحن متعبون، ونريد أن نقسم أرباح الأيام القليلة المقبلة. وقّعي
السجل الذي سندون فيه أن الأمطار كانت غزيرة فمَنعت الفرقة
من تقديم العروض، وسيكون الأمر قد قضي».

قالوا: «لقد ناقشنا الأمر مع أطر الفرقة رقم ١، وهم ينوون

القيام بالأمر نفسه. الجميع يعلم أنّ الأمطار تهطل كثيراً في الجنوب، ولن يُفاجأ لذلك أحدٌ في الإقليم».

قالوا: «سنرفع سعر التذاكر من خمسمائة يوان إلى سبعمائة، وبما أنّ من حقّ كلّ ممثل الحصول على سعر مقعدين من كلّ عرضٍ، فإنّ الجميع سيحصل على أكثر من ألف يوان في اليوم».

قالوا: «لكن لكي يدفع الناس سبعمائة يوان، لا بدّ لهم من شيءٍ عجيب، شيءٍ يرغبون في رؤيته مهما كلّفهم».

قالوا: «اليوم نطلق إلى ويتنزو، محطّتنا المقبلة. هناك لا يسقط المطر، ويبدو أنّ الجوّ جميل». ثمّ: «إنّ الناس هناك أغنى من الناس هنا. حين يزوّجون أبناءهم، يكتبون بأوراق من فئة مائة يوان على ورقٍ أحمر، كلمةَ عرس، وعبارة سعادة مشتركة بحروف كبيرة مثل فُرُش، ويلصقونها على اللّوحات الإشهارية. وحين يموت لهم مسنٌّ، لا يحرقون له نقود الموتى المزيّفة، وإنّما نقوداً حقيقية، رزماً بأكملها!».

قالوا: «ليس التّجديد بالأمر العسير. نستعين بما لدينا، وتقدّمين لنا عرضاً جديداً، وانتهى الأمر. ستغصّ القاعة حتّى يبلغ المشاهدون قدَميك».

قالوا: «نؤخّر عرض الشيخ ذي المائة وواحد وعشرين عاماً إلى ختام العرض، وننتظر أن يمتلئ الجمهور دهشةً وإعجاباً بطول عمره، ثمّ ندخلك في كرسيّ متحرّك، ونقول إنّ سنّك أنت مائتان وواحد وأربعون عاماً، وأنّ القزّمات التسع هنّ حفيداتُ أحفادٍ

أحفادك. الجيل التاسع من نسلك، ونسمي الفقرة: «تسعة أجيال تحت سقف واحد».

قالوا: «سوف نزور بطاقة تعريفك، ودفتر العائلة. لكن إن لم ترغبي في المشاركة، فلا بأس، يكفي أن توقعي السجل، وتقرّي بأنّ العروض ألغيت بسبب الأمطار. وحتى إن لم تفعلي ذلك. فنحن في الحقيقة لا نأبه بكسب بعض المال من العروض الأخيرة. إنّ ما يهمنا حقاً هو فكّ ضمك».

قالوا: «فكّري ملياً. إن وافقت، انطلقنا اليوم إلى وينزهو. وإن شئت أعطيناك قيمة أربعة مقاعد».

بعد برهة تفكير، فتحت أخيراً فاهها.

قالت: «لا أريد نقوداً؟

- وماذا تريدان؟

- مهلة للتفكير.

- عجلي إذن، إنّ المسار سيأخذ منّا القسم الأكبر من الليل، الطرق صارت زلقة بسبب هذا المطر».

انصرفوا. دخلوا إلى المسرح. أمّا هي فمضت متأرجحة، لكن بخطى سديدة، موعلة في الشارع. لم تكن تنظر في أيّ اتجاه، لا يميناً ولا يساراً، مكتفية بأن تلقي، بين الفينة والأخرى، بنظرة إلى السيّارات التي تتجاوزها بسرعة، والماء المتطاير. بسبب الأمطار، لم يغادر سكّان المدينة بيوتهم، الشوارع فارغة، أفرغ من ممّرات مقبرة.

الماء المتراكم على الأرض يتدفق في قرقرة داخل المجاري، مخلفاً عند حواف الرّصيف دوّامات فضيّة. مثلما تنشر أشجار الحور في جبال بالو النّسيم صيفاً، كانت العمارات هنا تعكس الصّدَى الواضح للوابل الذي يهطل، والريّح التي تعوي. وأبعد، إلى الأمام، تختلط المنازل الغارقة في الضّباب في كتلة ملتبسة، رمادية مائلة إلى السّود، كأنّها سُلت أمام صفحة الماء الذي تنبعث منه أبخرةٌ كثيفة. لبرهة، خالت ماو تشي أنّها بإزاء بركة هائلة، لكن لما أمعنت ودققت النّظر أدركت أنّها ليست سوى الانعكاس المبهم الذي ينتزعه المطر من الإسفلت والخرسانة. عند مدارٍ طرفيّ تصادمت سيّارتان. تبادل السّائقان كلماتٍ، ثمّ استأنف كلّ منهما مسيره، واختفيا. وواصلت هي في اتّجاه مكان الحادث. فلما بلغته، ألقت على الأرض شظايا زجاج متناثرة، حجمُ الشّظيّة الواحدة منها كحجم حبة البازلاء، ووسط ذاك الحطام، تحت الوابل، كلبٌ صغيرٌ فروه متعدّد الألوان، صدمته سيّارةٌ، ودمه يسيل ببطءٍ، غامقاً، ثمّ شاحباً. بدايةً أحمر مسودّاً، ثمّ أحمر زاهٍ، ثمّ شيئاً فشيئاً ينحلّ في برك الماء.

القطرات تضرب تلك البركة الدّموية في صدّى صقيل. فينبعث منها زبدٌ قرمزيٌّ يذكرّ بالمظلات الورقيّة القرمزيّة التي تتفتّح في شوارع هذه المدينة أيّام الطّقس الصّحو. كانت الفقاعات تحدث، تقريباً، الصّوت نفسه الذي تحدّثه المظلات الورقيّة حين تنغلق: مع فارق أنّ صوت المظلات يكون طويلاً، أمّا صوت الفقاعات فكان خاطفاً وساطعاً. ومع كلّ فرقة يصعد خيطٌ نثنٌ، لا شكل له، ويرتفع وسط الهواء، قبل أن يعود إلى الأرض منسحقاً. وماو

تشي واقفة هناك، وسط حطام الزجاج، فوق تلك الروائح النتنة،
تحدّق في الكلب الذي يبدو أنّه يتوسّل مساعدتها.

خطرت ببالها الكلاب اللقيطة المعاقة التي تبنتها.

قرصت أمامه، مداعبةً رأسه، وقائمتيه الخلفيتين التين كانتا
تتدليّان على الأرض نازفتين. قالت لنفسها، إن كان مكسب
المقعد الواحد سبعمائة يوان، فإنّ مكسب عشرة مقاعد سبعة
آلاف؛ ومائة، سبعون ألفاً؛ وألف، سبعمائة ألف. والحال أنّهم في
أثناء الشهرين الماضيين ندّر أن يبيعوا أقلّ من ألفٍ وثلاثمائة تذكرةٍ
في كلّ عرض. وسعر ألفٍ وثلاثمائة مقعد هو تسعمائة وعشرة
آلاف يوان. وبعد أن تُخصم من تلك التسعمائة وعشرة آلاف
يوان، قيمة المقاعد المخصّصة لأهل طيبة، سيتبقى ما لا يقلّ عن
ثمانمائة وخمسين ألف يوان، يتقاسمها أطر الإقليم، بالإضافة إلى
المحاسب، وأمين الصندوق، وبائع التذاكر، وأيضاً أمين المخزن
- أي الخمسة عشر فرداً من الناس - تأمين الذين تضمّمهم الفرقة
فضلاً عن المعاقين.

بعبارة أخرى، سيتحصّل أولئك الرّجال الخمسة عشر، مع كلّ
عرض، مبلغ ثمانمائة وخمسين ألف يوان.

بعبارة أخرى، بينما يواصل أهل طيبة تقديم عروضهم مقابل
مقعدين لكلّ عرض، فإنّ كلّاً من هؤلاء الرّجال سيكسب يومياً
خمسين ألف يوان على الأقلّ.

بعبارة أخرى، يكفي ألاّ أوقع على تأشير «بسبب الأمطار

عُلِّقَت العَروضُ»، يكفي أَلَا أضع بصمتي، لكي أحرّمهم من تلك الأموال.

بعبارة أخرى، كل شيء، حتّى اللّحظة يتوقّف عليّ.

المطر يهطل، أقوى فأقوى، وهي تشعر بشيء من برد، لفرط ما بقيت تحت الوابلِ مقرّفةً بجانب الكلب. كأنّها لا ترتدي شيئاً. لكنّها في الآن نفسه تشعر بالحرارة: لما انتبهت إلى أنّه يكفيها أَلَا توقّع، لتحرم النّاس -تأمين من ملء جيوبهم بالنّقد، فقد شعت فيها موجةً حرّى، وعبرت جسمها من أسفلها إلى أعلاه، صاعدةً حتّى الرّأس، منتشرةً في كامل بدنها، مبدّدةً على الفور إحساس البرودة.

داعبت رأس الكلب مرّةً أخيرةً، ثمّ مسحت ماء المطر كما تمسح الدّموع عن وجه طفلٍ، ثمّ حملته برفقٍ، ووضعتّه على الرّصيف، في مكانٍ آمنٍ. ثمّ بعد برهة ترّدّد دارت على عقبيها. كان يبدو عليها أنّها قد حسمت أمرها، وانطلقت حثيثاً، بخطوٍ أخفّ من خطوها حين كانت قادمة، تسيرُ بقدم ثقيلةٍ (القدم السّليمة)، وقدمٍ خفيفةٍ (القدم العلية)، فتنزّل الثّقيلة على الأرض نزولاً أقوى من نزول الخفيفة، فيصيّبها البلل أكثر. وكذلك سراويلها ما لبثت أن تبلّلت بالكامل.

الشّارع قفرٌ، ليس فيه خيالٌ قطّ.

كانت تسير وحيدةً، تضرب الماء في طريق عودتها، مثل فلاحٍ عجوزٍ زارت المدينة. لكن ما لبثت أن سمعت خلف ظهرها أنّهُ واهنةٌ، كأنّه صوتُ طفلٍ ينادي أمّه.

التفتت. كان الجرو قد تبعها، صاحباً قائمته، وحين استدارت إليه، تصرّف كالطفل الذي خيل إليه أنه قد لمح أمّه. زحف إليها بحماسة أكبر، ورفع إليها عينين متوسلتين.

إنّه لقيطٌ يهيم في هذه المدينة. وبعد برهة تردّد، عادت إليه بخطوٍ أعرج، ورفعته بذراعيها. كانت تمسك به ككيس طحينٍ مبلّل، وكان هو يرتجف برداً وعرفاناً. لكن في اللّحظة التي كانت تتأهب فيها إلى أن تكمل طريقها، مع حملها المصاب، اكتشفت -ومن أين خرجت في أزقة هذه المدينة؟- فرقةً من أربعة كلاب ماستيف أو خمسة، تحلّقت حولها. كانت الكلابُ بين أبيضّ وأسودّ، لكن جميعها مسنّة وبشعة، تقطر ماءً وترتجف، وقد التصقت أوبارها بجلودها. وبالإمكان أن تُعدّ أضلاعها جميعاً، حتّى إنّها ذكّرتها بأولئك الناس الذين كانوا يموتون جوعاً أثناء الكارثة الكبرى، إذ كانت أجسادهم قد بلغت من الهزالِ مبلغاً تكادُ له العظامُ أن تشقّ الجلد.

سكنت من فورها.

كانت الكلاب تنظر إليها نظرة الشّحاذين الذين يبصرون طعاماً ماراً في الشارع، ويوافق حامله على إعطائهم صدقةً منه. قالت لهم: «لا تستطيعون أن تتبعوا عجوزاً مسكينةً، مثلي». من غير أن تصدر الكلابُ صوتاً، واصلت التوسّل بعينها. «حتّى إن تبعتموني، لن تجدوا لديّ ما تأكلونه».

واصلت الكلاب تحدّق فيها.

لما استأنفت المسير، سارت في إثرها.

ولما توقفت، توقفت الكلابُ خلفها.

ركلت أقربها إليها، وهو كلبٌ أسودُّ، فأطلق صيحةً، وتراجعت باقي الكلاب، لكن ما كادت ماو تشي تستأنفُ مسيرها حتّى تبعتها من جديد مثل ركب.

فيمَ همّها أن تتبعها الكلاب أو لا تفعل؟ المهمّ أن تواصل هي طريقها. لكن حين بلغت باب المسرح والتفتت، لم يكن في إثرها بضعة كلاب، وإنّما ما يفوق عشرةً، سربٌ من اللّقطاء، كلّها شائهةٌ، وبشعة، ومتّسخةٌ، تخلّى عنها سكّان المدينة. مثلها مثل أهل طيبة. بعضها كُسرت قدمه اليمنى، وبعضها الآخر تنقصه قائمةٌ من قوامه الخلفيّة. واقفةٌ على قوائمها الثلاث الباقيات، كانت الكلابُ تبدو مثل معاقٍ متكى على عكازه. بعضها، لفرط ما حام أمام المطاعم طمعاً في لقمةٍ، انتهى المطافُ برّب أحد المطاعم إلى أن صبَّ على رأسه وظهره حساءً مغلياً. فصار لحمه، المحكوم أبداً بالتحلّل والإنتان، فردوسَ ملذّاتٍ، وإقامةً دائمةً، للذّباب والناموس.

خفتت شدّة الأمطار. في السّماء يطفو بياض برّاق.

خلف ماو تشي، وأمامها، ومن كلّ جانبٍ حولها، كانت رائحة النّانة كثيفةً؛ رائحة الكلاب، مزيجاً من القذارة والصّديد. وكانت توشك أن تتركهم أمام المسرح بعد أن حدّرتهم، وإذا

بأقربهم إليها، وهو مسنٌ أعرج لم يعد يتحرك إلا مترنحاً، يقف
 قبالتها مباشرةً، ويجثو على ركبتيه. عبرت ساقها المريضة رجفةً،
 كأنها لوى أحد بعنف عضلات باطن قدمها. حدقت في الكلب.
 حين جثا أمامها، أحدث نفس الصوت الذي كان ليحدثه لو أنه
 انتفض ورش الماء في كل اتجاه. وإمعاناً في إبراز شدة انبطاحه،
 ألصق قائمته الخلفيتين بالأرض، وتركهما كذلك، حتى أن قناته
 تقوّست تقوّساً عجيبيّاً، وصار عظمُ عجزه منتصباً صوب السماء.
 ولما كان رأسه ما يزال مرفوعاً شطرها، فإن هيأته زادت غرابةً
 على غرابة.

سألته: «ماذا تريد؟».

تعلّق بصره بحملها: «هل هو ابنك؟ هل عليّ أن أعيده؟».
 وضعت الجرو أرضاً. لكن ما إن أرخته حتى نظر إليها الكلب
 المسنّ، ورغم قائمته المكسورة تعلّق بساقها.
 حملت الجرو مجدداً.

ولعظيم دهشتها، استدار أسنُّ الكلاب نحو رفاقه، ونبح كأنها
 يقول لهم شيئاً، فحذت الكلابُ حذوه وجثت جميعاً على ركبها.
 كانت عيون الحيوانات تنظر إليها، وتنظر إلى الصّغير بين ذراعيها.
 كلّها تتوسّل، كلّها تغبط الجرو، كلّها تحلم بأن تكون في مكانه، أن
 تحملها العجوز كما حملته. كان يبدو أن الكلاب تعرف بأن المرأة
 لن تتخلّى عنها، أنّها ستصطحبها معها إلى طيّبة، تلك القرية في
 جبال بالو، حيث لا يعيش إلا المعاقون، وحيث تأوي هي عدداً

من الكلاب من أمثالها. كأنها عثرت الكلاب على سيّدها، على أمّها، على جدّتها. الكلاب جائئة أمام العجوز، شاخصة بأبصارها، وعيونها مبلّلة بالدموع.

تطفو في الجوّ رائحةٌ مالحة.

الرائحة تغزو بمرارتها الكونَ. وبكاء الحيوانات يصاحبه توسّل، أنينٌ غريب يصعد من الحلق، أنين يبدو أنّه يحاكي معاناة فظيعة، وجعاً هائلاً في القلب. كأنها بلغت الكلاب قصارى جهدها، وما عاد لها إلّا أن تركع وتتوسّل. وكان أنينها يتردّد في أذني ماو تشي مثل صراخ أطفال. كانت ترى تلك الشكوى سحاباً يطفو من حولها، مثلما كانت تشمّ رائحة دموعها المالحة، كأنها حساء أفرط في تبيله. كانت تعرف لما تتوسّل إليها. قلبها الذي كان في البداية صحراء لا يرويها إلّا خيط ماءٍ رفيع، جفّ وصعد إلى حلقها.

كانت تحدّق مذهولة في قطيع الكلاب المعاقة.

توقّفت الأمطار أخيراً، السّماء اتّخذت لمعناً حليبيّاً. مثل بركة صفراء موحلة تنتشر حول ماو تشي التوسّلات المثيرة للشفقة التي يطلقها اللّقطاء المعاقون الجاثمون في الماء. عاجزة، وضعت الجرو أرضاً. ربّما إن لم تُدخله إلى المسرح، إن لم تُطعمه، إن لم تضمّد قدمه المصابة، فسوف يكفّ الآخرون عن التوسّل إليها. لكن الحيوان زحف مجدّداً بقائمتيه الأماميتين حتّى إليها، وجعل يبكي، ينّ والدموع تسيل من عينيه مثل ماء نبع، تنزل كبيرةً كحبات بطيخ، على امتداد خديّه، وفي فمه.

لم تعرف ما العمل؟

أطّر الإقليم، وباقي الناس-تأمين من أعضاء الفرقة، كانوا ينتظرونها عند المدخل. أو ربّما يكونون قد دخلوا ثم خرجوا من جديد لاستقبالها. ملابسهم جميعاً جافّة. وبيننا هي ما تزال في تردّدها، رأتهم ينزلون الدّرجات. أخذوا يتأمّلون الحيوانات في شيء من الدهشة، وينظرون إليها هي وسط السّرب.

سألوها: «هل فكّرتِ؟ لقد أمرناهم في الكواليس بأن يتحضّروا للسّفر هذه اللّيلة».

قالوا: «نحنُ قد فكّرنا. يمكننا أن نعطي كلّ فردٍ من الفرقة قيمة خمسة مقاعد من كلّ عرض. أي ما يقارب أربعة آلاف يوان».

قالوا: «وأنت، ستحصلين على عشرة. عشرة مقاعد، أي سبعة آلاف يوان!» قالوا: «طبعاً ليس هذا هو الأهمّ. لكن فكّري أنّه يكفينّا أن نتصل برئيس الإقليم ونكتب تقريراً. أن نقول له إنّ جميع أهل طيبة موافقون على فكّ الضمّ، والخروج من النّفوذ الإداريّ لشوانهواي. ما إن نعود، تستلمين العقد الرّسميّ، وتصيرين في حلّ من التّبعية إلى الإقليم، ولا إلى مقاطعة السّرو. لن يكون من حقّ أحد التّدخل في شؤونكم، وإن قرّرتم أن تعرضوا مرّة أخرى، فإنّ الأرباح كلّها ستكون لكم».

قالوا: «تكلّمي يا ماو تشي. إنّ فكّ الضمّ يتوقّف على كلمة منك».

قالوا: «قولي شيئاً! هل أصابك الخرس؟».

مسحت بنظرها أولئك الأطر، وأولئك الناس-تأمين الذين
أتوا من الإقليم لإدارة الفرقة، ثم استقرت على أكثرهم جرأة:
«بوسعكم أن تتصلوا بليو يانغك وأن تقولوا له إن لا أحد من
أهل طيبة يعارض فكّ الضمّ».
أطلقوا تنهيدة ارتياح.
«حسناً».

لكنّها أضافت: «ثمّة شيء آخر. أهل طيبة لن يحصلوا على
خمسّة مقاعد، وإنّما عشرة، عن كلّ عرض. أمّا أنا فلا أريد منكم
شيئاً، لا أريد فلساً. خذوا كلّ ما تبقى، لكن بشرط: أن تُخلوا إحدى
الشّاحنات، فننقلوا فيها هذه الكلاب، وترسلوها اللّيلة، بلا إبطاء،
إلى طيبة».

ذهلوا لوهلة، لكنّهم ما لبثوا أن قبلوا باسمين، وانصرف
كلّ منهم إلى أداء مهمّته؛ فواحدٌ ذهب يتّصل بالفرقة رقم ١
لكي يكتب أعضاؤها أيضاً تقريراً يقول إنّ فكّ الضمّ قد تقرّر
بالإجماع؛ وآخر ذهب يكتري العربّة التي ستنقل الكلاب؛ وآخر
ذهب يجوب المحلّات بحثاً عن الملابس والإكسسوارات التي قد
تحتاجها ماو تشي في تقديم عرضها. إن كانت ستؤدّي دور امرأةٍ
تبلغ من العمر مائتين وواحداً وأربعين عاماً، فلا بدّ من تغيير بطاقة
هويّتها، وشهادة إقامتها، وهذا سيتطلّب وقتاً. وكذلك سيحتاج
تجهيزُ زيّها يوماً وليلةً. منذ مائتين وواحد وأربعين عاماً كان الحكم
بيد الإمبراطور غاوزونغ، وكانت السّنة الحادية والعشرين من

عهد كيانلونغ، أي أُنْهَا، بعبارة أخرى، قد عاشت تحت حكم سلالة المانشو، في أوج قوّتها، وشهدت تدهورَها، ثمّ غزوَ الجيوش الأجنبية، وديكتاتورية يوان شي كاي، وثورة ١٩١١، والجمهورية الصّينية، وحرب المقاومة ضدّ اليابان، والحكومة الجديدة بعد التحرّر. وإذا ما كانت ما تزال حيّة، فلا بدّ أنّ لها وصفاً خاصّة. إن كانت قد بلغت هذا العمر المتقدّم، فليس مردّ ذلك فقط إلى كونها تبعت نظاماً نباتياً وظلت تعمل في الحقول، كلاً، إنّما استطاعت ذلك لأنّها بخاصّة: في العام السّابع من حكم داوغوانغ، وكان عمرها آنذاك واحداً وثمانين عاماً، قد مرضت، وارتدت أكفانها، وانتظرت الموت. بديهيّ أنّ من ينبعث، يكون قد مات، ولما كان ذلك ما حدث لما وتشى، أي أنّها ماتت وانبعثت ونجت، فلم يعد لها أن تخشى الموت. صارت تقضي أيام السّنة، المائة وخمسة وستين يوماً، لابسة ما يلبسه كلّ النّاس، لكن كلّما جنّ الليل، كانت لا تأوي إلى فراشها إلّا وقد ارتدت أثواب الموتى التقليديّة. متأهبة على الدّوام لآلا تستيقظ، لكن كلّما حلّ الصّباح فتحت عينيها. ولما بلغت عامها الحادي والعشرين بعد المائة، أي ثلاثة سنوات عهد غوانغسو، مرضت مجدّداً مرضاً شديداً، ومجدّداً، بعد غيبوبة دامت ثلاثة أيّام، عادت إلى الحياة، مستعدّة لأن تموت في أيّ وقت، فما عادت تنضو عن نفسها أثواب القبر، سواءً في ساعات الأكل، أو في ساعات الشّغل، ثمّ بخاصّة ساعات خلودها للنّوم حين يجنّ الليل الأسود.

سنة تلو سنة، شهراً بعد شهر، على امتداد الأيّام ظلّت ترتدي

أثواب كنفها، متأهبة لأن تغادر الكون في أي لحظة، حتى عبرت المائتين وإحدى وأربعين سنة التي قادتها من كيانلونغ إلى أيامنا هذه. فعاشت عصوراً، وشهدت أحداثاً، إذ أدركت عهود جيانكينغ، وداوغوانغ، وكزيانفنج، وتونغزهي، وغوانكسو، وكسوانتونغ، والجمهورية الصينيّة. مائتان وإحدى وأربعون سنة، تسعة عهود وسلالات! وكانت السنة السابعة عشرة من حكم داوغوانغ هي السنة التي ارتدت فيها ثوبها الجنائزيّ أوّل مرّة، والسنة الثالثة من عصر غوانغسو السنة التي قرّرت فيها ألاّ تبدّل الأثواب أبداً، لا ليلاً ولا نهاراً. كم ثوباً أبلت بطول ما عاشته من أعوام؟ لكي تستطيع ماو تشي تأدية دورها على أكمل وجه، كان يلزم تجهيز ما لا يقلّ عن ثمانية أثواب أو عشرة، لكي يطلع عليها الجمهور. وبالتالي ينبغي لزماً أن يبدو على الأثواب التقادّم والبلى، بل وأن تكون مزقاً، حتى إذا ما رآها الحضور، ظنّ أنّ صاحبها تجرّ من السنين ما لا قبل لهم به.

لكل ذلك كان الناس -تأمّون يركضون في كلّ جانبٍ. ولم يتركوا المدينة إلّا في النصف الثاني من الليل. تواصلت الجولة، وصدحت العروض بالنجاح في المرحلة التالية.

الفصل السّابع

ضريح لينين، يُدشّن في أبهة كبيرة

استُدعي رئيس الإقليم على وجه السرعة إلى البلدية، ومنها إلى عاصمة المحافظة. فما كادت ماو تشي، ومعاقوها، يتمّون رحلةً استقلّوا فيها القطار والسّاحنة، عائدين من الجنوب الشرقي، وبالكاد اسرتاحوا ليلةً في طيّبة، أعادوا فيها ربط الأواصر بالأطفال، والمنازل، والأشجار، والشارع الكبير، والأزقة، وكذلك الدّجاج، والخنازير، والكلاب، والبطّ، والخرفان، والثيران، وباقي الدّواجن التي كانت فيما مضى أليفةً عندهم، وصارت الآن غريبةً؛ قلنا بالكاد استراحوا ليلتهم، حتّى استحثّوا على الذهاب من فورهم إلى جبل الأرواح الميّتة لتقديم آخر عروضهم الرّسمية.

لقد تمّت أشغال ضريح لينين، حتّى المراحيض على جنبات الطّريق أنجزت: جفّت الحروف المكتوبة بالطلاء الأحمر على الأبواب: رجال، نساء. كلّ شيء جاهز، رياح الثورة تهبّ.

والفريق المكلف بجلب الرّفات قد غادر شوانهواي منذ سبعة أيّامٍ أو ثمانية، ويُشاع أنّه قد أتمّ كلّ الشّكليات التي تسمح له بأن

يغادر الصّين نحو روسيا. ما هو إلّا يوم ونصف يوم في بكين، ثمّ يصعد المندوبون إلى الطّائرة، ويحلّقون شمالاً قصد البدء في المفاوضات. سينا قشون أساساً السّعر، ينبغي أن يساوموا، أن يقولوا: «نعطيكم مائة مليون على الأقلّ»، فيجيبونهم: «بأقلّ من ألف مليون، لن نبيع»؛ فيقترح أصحابنا مائة مليون وخمسمائة ألف، فيرفض الآخرون قائلين: «بأقلّ من ألف مليون، لا تتعبوا أنفسكم بالكلام». فيقول أصحابنا: «فمائي مليون؟»، فيردّ الروس: إن كنتم تريدون حقّاً الشّراء، فاقترحوا سعراً واقعياً.

رئيس بعثتنا سيقطّب الحُجبان (١)، ويتكّمش (٣) جبينه النّاعم، كأنّها المشكل كبير. لنعرّف: إنّ المهمّة حقّاً بمثابة صداع في الرّأس. إن كان السّعر المقدّم مبدئياً بخساً جداً، فإنّ العرض يمكن أن يُرفض من البداية، دون نقاش. لكن إن كان عالياً جداً، فإنّهم قد يخسرون، دفعةً واحدة، خمسين، أو مائة، أو حتّى ألف، مليون يوان، خسارةً يمكن تجنبها بالتّفاوض. الحقّ أنّ الفرقتين قد أكسبتا الإقليم أرباحاً مهولة، والمحافظة من جهتها أضافت إلى المبلغ مساهمةً عظيمة. غير أنّ هذا المال هو في نهاية المطاف ليس نبعاً جارياً، وإنّما هو بالكاد بركة راکدة. حين سيَجفُّ، سيَجفُّ إلى الأبد. وينبغي أن نضع بالحسبان أنّه، خلال السّنوات الثلاث القادمة، سيَجفُّ دعمُ السّدّة، سيصير مثل طبق بلا لحم، لن ينال منه إقليم شوانهواي شيئاً. أمّا العقد مع أهل طيّبة، فقد بلغ أمدّه، واضطرّ ليو يانغك إلى انتهاج سياسة العصا والجزرة مع ماو تشي حتّى يُقنعها بأن تقبل تقديم سبعة عروضٍ أخرى بمناسبة تدشين الضّريح. وبعد أيّام

العروض السبعة، لن تقدّم القرية أيّ عرضٍ لحساب الإقليم الذي
لن تعود محسوبة عليه، على أيّ حالٍ. ستختفي القرية من الخريطة.
ينبغي العودة بالرفات مهما كلف الأمر.

وينبغي التّوفير ما أمكن أثناء المفاوضات. وكان ليو قد فكّر
في البداية، أن يترأسّ الوفدَ بنفسه. لكنّ الاجتماعات الطّائرة ما
انفكّت في الآونة الأخيرة تتكاثر، على مستوى المحافظة والعمل،
ولم يكن لرؤساء الأقاليم وسكرتيروهم بدٌّ من المشاركة فيها. لأنّ
الرّهان يتعلّق بنظام المحاصصة لاختيار العمداء والحاكم. ونتيجةً
لذلك تقرّر أن يحضر كلّ الأطر العليا، بصفتهم ممثّلين للشّعب،
حتّى وإن كانوا مرضى راقدين في المستشفى، لا يستثنى من ذلك إلّا
مرضى السّرطان. بل حتّى المصابون بالسّرطان يستحسن أن يأتوا
إن لم يكونوا قد بلغوا المرحلة الأخيرة.

فلم يكن لرئيس الإقليم إلّا أن يفوّض ترأسّ الوفد إلى أكثر
من يثق فيه بين مساعديه، ويرسله للتفاوض. ولنفصح هنا بسرّ،
لقد كان الرّجل قريباً لرئيس الإقليم، يمحصه كبير ثقة: ألم يعلّق
في صالونه صورةً مكبّرةً لليو؟ زد على ذلك أنّه كان مسؤولاً عن
صناعة التّرفيه، ويعرف كيف يتحدّث. حتّى أنّه ذات مرّة، أثناء
عشاءٍ وحديثٍ جمعهما برجل أعمالٍ من تايوان، لم يكن إلّا ماراً
بشوانهواي في طريقه إلى عاصمة المحافظة، حيث ينوي أن يستثمر
أمواله. ألم يكونا يحملان الاسم العائليّ نفسه؟ على العموم، ذلك
ما قرّره صاحبنا! وما دمنا نحمل الاسم العائليّ نفسه، فهذا يعني

أنا أقرباءً بدرجةٍ أو بأخرى. أصولنا تعود إلى الأسلاف أنفسهم الرّاقدين في القبور نفسها، نحنُ إذن أقرباء ويمكننا أن نتحدّث بأريحيّة في شؤون الماضي والحاضر واليوميّ. وكان الرّجل بارعاً في الحديث حتّى أنّه انتزع الدّمع من عينيّ التايواني، فقرّر هذا أن يترك في الإقليم الأموال التي كان ينوي استثمارها في عاصمة العمل، ف تبرّع بها لبناء مُولّد كهربائيّ في شوانهواي. ومنذ ذلك الحين صارت كلّ المنازل تستفيد من الإنارة بالكهرباء، وجعل منه ليو نائبه: ولما صار عضواً في اللّجنة الدّائمة، فقد صار من حقّه حضور كلّ الاجتماعات، أيّاً كان مستواها، وكان لصوته قيمةٌ حاسمة. وحين يتعلّق الأمر بالحديث والمرافعة، فإنّه يعدّ اختياراً رائعاً. خاصّة أن ترجمانه، الذي يحصل على راتبٍ بقيمة الذهب، كان قد درس سنواتٍ طوال في روسيا ويعرف البلد كما يعرف جيبَ سرواله. فلم يكن رئيس الإقليم مهموماً في شأن الوفد، إذ فُحصت الخطوط العريضة، كما التّفاصيل الصّغيرة، وتقرّر أن يُقترح مبلغٌ معقولٌ ومنطقيّ. لا مجال لترك النّائب يتقدّم بمبلغٍ كيفما اتّفق. بعد أن قاموا بعشرات، بل مئات، بل آلاف الحسابات الدّقيقة، تحدّد المبلغ. ثمّة سقفٌ لا يمكن بأيّ حالٍ تجاوزه. لكن في الوقت نفسه ينبغي، في كلّ الأحوال، إتمام الصّفقة. ينبغي أن ينتهي المطاف برفات لينين معروضاً في جبل الأرواح الميّتة ببالو. الأمل إذن كلّهُ معقود على الوفد، وعلى مهارة رئيسه. ربّما تتمّ المفاوضات في الصّالة المتاخمة للرّفات، صالة الاستقبال غربيّ التابوت الكريستالي. وهي لن تبلغ البتّة رحابة الصّالون في قصر شوانهواي! والقبو بجدرانه المطليّة

فيه بعض الشبه من قبر صينيّ. في جانب من السّاحة الحمراء، انطلاّقاً من منصّة، نزل في حفرة مربّعة عميقة بمقدار قامتين، فنلّفي أنفسنا داخل حجرة أبعادها امتدادان أو ثلاثة، جدرانها مبلّطة بأحجار تحفظها باردة صيفاً، ودافئة شتاءً. وهناك يرقد التّابوت الكريستاليّ. أليس هذا العار بعينه! إنّ ضريح لينين أصغر من المقابر التي يتّخذها مواطنون بسطاء في وينزهو حين يملكون المال! الاختلاف الوحيد أنّه أعلى سقفاً: وهذا طبيعيّ، فالروس أطول منّا قامّة، وبالتالي مبانيهم أعلى من مبانينا سقفاً، ولا معنى لأن يكون ضريح لينين استثناءً! الجدران مدهونةً بالجير الأبيض المقاوم للرطوبة والعفونة، لكنّ عمر التابوت يفوق خمساً وسبعين سنةً، ولم يُغيّر قطّ، ولم تصبغ الحجرة إلّا نادراً. وحتىّ إن كان بعض الموظفين المتّقين على الفرّازة، يمسحون الغبار، على امتداد النّهار، متوسّلين بمنافض من ريش الدّجاج، وخرق من المخمل، فإنّ الكريستال لم يعد برّاقاً كما كان منذ ثلاثة أرباع القرن. وكذلك لينين لم يُعتنَ بزيّته منذ عقود. والصّالون لا تكاد مساحته تتجاوز بضعة أمتارٍ مربّعة، والنساء المسؤولات عن تنظيفه يومياً كنّ يصعدن مرةً في الشّهر على الكراسي أو ظهور الأرائك ليمسحن الغبار ونسيج العنكبوت، لكن بالعموم، كانت الجدران قديمةً، والجير الأبيض لم يعد قادراً على إخفاء الصّفرة الغامقة التي تنزّ منه، تلك الصّفرة التي تصير في بعض المواضع غامقةً مثل أوراق النّقد الصّفراء التي يحرقها سكّانُ بالو وشوانهواي وغربيّ خنان، على القبور احتفالاً بعيد النّور الصّافي. وداخل هذا الصّالون الضّئيل الذي يفصله عن

الرّفات جدارٌ بسيطٌ، أوّل ما يقع عليه البصر ما إن نجتاز الباب ذا الإطار المنحوت، تحت لوحة زيتيّة تصوّر أشجار باتولا فضيّة، هو أريكةٌ عتيقةٌ من خشبٍ غريبٍ ما انفكّ يزداد نضارةً بتقادم العهد. على أنّ جلدها لم يقاوم اعتداء الزّمن، فابيضّ وتخرّق. ومن ثقب مساند الذّراعين تنفّلت خيوطٌ بنيّة. وعلى الأرجح - بالتأكيد - على هذه الأريكة، في تلك الغرفة، يستعدّ نائبُ رئيس الإقليم إلى أن يتفاوض تفاوضاً متحضّراً وعقلانيّاً. يلزمه نهاريّ، نصف - يوم، لينتهي إلى قرار. سيقول إنّه، مهما كان الظّرف، لن يتجاوز مبلغاً معيّنًا، فيردّون عليه بأنّهم، مهما كان الظّرف، لن يبيعوا بأقلّ من سعرٍ معيّن.

«لا تنسوا أنّ باستثنائنا ليس لديكم مشترون.

- هل أنت متأكّد؟

- تماماً. قد تفكّر في الأمر بعض البلدان الأخرى، لكن أترى حال فقرهم؟ من أين لهم بمبلغٍ مماثل؟

- طيّب، لا بأس. لن نبيع إذن!

- حسناً، لكنّكم لا تملكون حتّى تكاليف الصّيانة. ليس لديكم ما ترمّمون به المتحف، أو ما تدفعون به أجر الموظّفين». ثمّ: «إن لم تبيعوا فسوف تشهدون بأنّ أعينكم الرّفات يتحلّل يوماً بعد يوم، سيتشوّه لينين، وينتهي المطاف بموميائه إلى أن تفقد صلة الشّبه به».

وفي تلك الحجرة الجانبية من المتحف، سينتهي إلى التّأثير فيهم،

ويتم الاتفاق على سعر -أقل مبلغ ممكن بالنسبة لنا، وأكثر مبلغ ممكن بالنسبة لهم-. وحين يُتفق على السعر، لن يبقى إلا تجهيز العقد. ومن الضروري بالطبع القيام بمجموعة من الشكليات قبل التوقيع. سترسل إدارة الضريح تقريراً إلى الدرجة الأعلى منها، وهذه بدورها سترسل تقريراً إلى الأعلى منها، وهكذا دواليك، حتى نصل إلى الدوائر العليا للدولة، وهناك يُحلّل الموضوع ويشرح مجدداً. ومن دون أن يفصحوا مباشرة عن آرائهم، سينتهي القادة المشاركون في المداولات، لغاية يتواطؤون عليها، إلى تأييد القرار: سيوافقون على نقل رفات لينين إلى إقليم شوانهواي الصيني. لأنه في الصين، سيكون في بلده. طيب، لربما حفظاً لماء وجههم أمام العالم قد يقترحون بيعاً لا يتجاوز أمده ثلاثين سنة أو خمسين، أو ربّما عشرة أو عشرين. أو يدعون أنهم يوماً ما، حين يحتاجونه، ينبغي إعادته إليهم، في حال جيدة. وهذه القيود المضافة أيضاً لم يغفلها ليو، فاتفق مع نائبه: ما دام الثقل سيتم في موعد قريب، فينبغي الموافقة على شروطهم كلّها، حتى أشدها قسوة.

قال: «يوم نربحه في عملية النقل، هو يوم نربحه في ميزانية شوانهواي».

لا ينبغي أن نقلق، مهما كلّفنا الثمن، سنشتري لينين. لقد وضعنا كلّ الاحتمالات بالحسبان، ووضعنا لها حلولاً. قريباً تنتهي سنة النمر، وتبدأ سنة الأرنب، وحتى إن كنا في التقويم القديم ما نزال في السنة الماضية، فإن في التقويم الجديد قد أخلت سنة ١٩٩٨ مكانها إلى سنة ١٩٩٩. بناء الضريح قد تم، وقرويو

طَيِّبَةٌ قَدْ عَادُوا مِنْ جَوْلَتِهِمْ فِي الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ، فَعَادُوا عَذُوبَةً
الْجَنُوبِ إِلَى قَسَاوَةِ شِتَاءِ السَّلَاسِلِ الْجَبَلِيَّةِ. وَمِنْذُ أُسْبُوعٍ مَا عَادُوا
مَحْسُوبِينَ عَلَى النِّفُوزِ الْإِدَارِيِّ لَشَوَانِهَوَايَ. وَيَفْتَرِضُ الْمَنْطِقُ أَنَّ
رَئِيسَ الْإِقْلِيمِ قَدْ عَمَّمَ مَذْكِرَةً فَكَّ الضَّمِّ عَلَى مُخْتَلَفِ اللَّجَانِ
وَالْمَكَاتِبِ وَالْمَقَاطِعَاتِ وَالْقُرَى؛ وَكَانَ يَفْتَرِضُ أَنَّ يَسْلَمُهَا مَا وَتَشِي
يَدًا بِيدًا، لَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ. كَانَ يَحْتَاجُ مِنْهَا خِدْمَةً آخِرَةً. أَثْنَاءَ وَجِبَةِ
الْإِسْتِقْبَالِ الَّتِي خَصَّصَهُمْ بِهَا فِي الْعَاصِمَةِ، رَفَعَ كَأْسَهُ بِهَيَاةٍ مُتَوَسِّلَةٍ،
وَفِي شَفْتِيهِ ابْتِسَامَةٌ نَدَّرَ أَنْ يَرْسُمَ مِثْلَهَا، ابْتِسَامَةٌ شَحَازٍ، وَقَالَ:
«لَقَدْ انْفَصَلَتْ طَيِّبَةٌ انْفِصَالًا نَهَائِيًّا عَنْ شَوَانِهَوَايَ. وَلَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ
أَبَدًا. لَقَدْ طَبَعْنَا الْوُثِيقَةَ، وَعَلَى مَكْتَبِي تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَسْخَةً مِنْهَا،
وَعَلَى كُلِّ نَسْخَةٍ مِنْهَا خَتَمُ الْحُكُومَةِ وَاللَّجْنَةِ. لَكِنْ قَبْلَ أَنْ يَفَكَّ
ضَمِّكُمْ نَهَائِيًّا، وَتَصِيرُونَ إِلَى الْأَبَدِ مُسْتَقْلِلِينَ عَنْ إِقْلِيمِ شَوَانِهَوَايَ
وَمَقَاطِعَةِ السَّرَوِ، وَأَيِّ إِقْلِيمٍ أَوْ مَقَاطِعَةٍ غَيْرِهِمَا، لِي عِنْدَكَ خِدْمَةٌ
آخِرَةٌ، أَتَمَنَّى أَنْ تَتَفَضَّلِي بِهَا عَلَيَّ».

جَرَى الْمَشْهَدُ فِي قَلْبِ مَطْعَمِ مَرْكَزِ الْإِيوَاءِ، وَكَانَتْ هِيَ تَتَأَمَّلُهُ.
قَالَ: «لَمْ يَسْبِقْ لِي قَطُّ أَنْ تَوْسَّلْتَ إِلَى أَحَدٍ. هَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ أَفْعَلُ».
قَالَ: «لَقَدْ تَمَّ بِنَاءُ الضَّرِيحِ، وَحَتَّى التَّابُوتِ وَصَلَ. حَانَ وَقْتُ
التَّدْشِينِ، وَأَتَمَنَّى أَنْ تَشَارِكُوا فِي حَفْلِ الْإِفْتِتَاحِ، أَتَمَنَّى أَنْ تَعْرُضَ
الْفَرْقَتَانِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ».

قَالَ: «بَعْدَ مِائَاتٍ، بَلْ آلَافِ اللَّيَالِي الَّتِي جَبْتُمُوهَا، أَحْسَبُ
أَنْكُمْ لَنْ تَمَانَعُوا فِي الْقِيَامِ بِبُضْعِ خَطَوَاتٍ إِضَافِيَةٍ. وَإِنْ كَانَتْ سَبْعَةٌ

أيام تبدو لك كثيرةً، لنجعلها ثلاثة. ونهاية اليوم الثالث، سأصعد إلى الخشبة، وبصفتي رئيس الإقليم، سأقرأ قرار استقلالكم عن نفوذنا الإداري».

قال: «قريباً سيكون لينين هنا، لكنني أريد أن أُطلق منتجع الأرواح الميتة قبل وصوله، وبدونك سيعوزني الزخم اللازم لإطلاقه».

ثم: «لا أطلب منكم أن تعرضوا مجاناً، فالتناس الراغبون في زيارة الضريح ومشاهدة العروض ينبغي أن يدفعوا ثمن تذاكرهم. سواء كانوا من الإقليم أو من خارجه، سنأخذ منهم خمسة يوان للفرد. ثلث الأرباح لكم، وثلثه لمكتب السياحة المكلف بالجل، والثلث لحكومة الإقليم».

قال: «اتفقنا إذن. قبل العرض الأول سأقصّ الشريط. وبعده سيكون لي اجتماع في العمل، لكن الأمر لن يستغرق أكثر من يوم، ومساء اليوم الثالث سأقرأ على المنصة قرار فكّ الضم. ساكنة المنطقة بأكملها ستعرف أنكم قد صرتم مستقلين، وأنكم أبدأ لن تُحسبوا ضمن نفوذنا أو نفوذ أيّ مقاطعة أو إقليم في العالم».

بعد أخذ وردّ، تقرّر ما سبق، وفي اليوم التالي، ساعة بدأت معالم النهار تتضح، صعدت ماو تشي والقرويون إلى الشاحنة التي لم يجدوا الوقت لإفراغها. انطلقوا صوب جبال الأرواح الميتة، حيث سيعرضون بمناسبة تدشين الضريح.

تعليقات

(١) حُجبان، لهجة محلية: حواجب أو حاجبين.

(٢) تكمّش، لهجة محلية: تفضن وقطب.

الفصل التاسع

عددٌ لا يُعدُّ من الحِيل، وقدْرٌ لا يحدُّ من العناية الإلهية

تمّ الاتفاق على أن يعود رئيس الإقليم بعد العرض الثالث، وأن يقرأ على المنصة عقد فكّ الضمّ. لكن ما كاد يمضي يومٌ، ومن دون أن يجد الوقت لقصّ شريط الدِّياج الأحمر، حتّى اضطرّ إلى مغادرة المكان، وانقطع خبره.

وكان الطّقس يعطي الانطباع بأننا قد دخلنا في الشهر الثاني عشر. تسلّل خلسةً، قافزاً على نهاية الشهر الذي يسبقه. وإذا ما كان العالم جنوباً عذباً ودافئاً، والأشجار خضراء زاهية، والعشب والأزهار حمراء قانية، فهنا في أرض الشمال قد فرض الشتاء قوانينه، خطوةً خطوة. إنّه فصل البرد الكبير الذي يبلغ في بعض المناطق قسوةً لا تُحتمل. لم يسقط الثلج، كلاً، لكن صباحاً تختفي الحقول والجبال تحت طبقةٍ من صقيع وحشيّ، طبقة رقيقة من جليد صافٍ. فإن تركنا ليلاً خابية ماءٍ مملوءةً إلى النّصف، فستكون الحصى صباحاً خابيةً مملوءةً إلى النّصف بالجليد الميت. وبالمثل، الدّلّو المنسيّ مبلولاً يتقاطر أمام باب المطبخ، يلتصق بالأرض، ولا سبيل إلى

فصله عنها، فمن أراد استعماله وجب أن يضربه بالطوب؛ أو، إن خشّي أن يكسره، فليُشعل ناراً ويسخنه.

الأشجارُ يبست، أوراقُها تتساقطُ، مثل أوراق باقي النّبات، قبل بداية هذا الشّهر الثاني عشر. في الجبال، والقرى التي كان فيها كلّ شيء عارياً، لم تعد عصافير الدّوري تجد أيّ شجرة تحتمي بها، فإن بدأت صياحها، يكفي أن ترفع رأسك لتطردّها من على الأغصان، أو أن ترميها بحجر، فتُهشّم جسمها الصّغير الذي قسّاهُ البرد.

في جبال بالو، لم يعد للأرانب، وطيور التدرج، وبنات عرس -وبعض الثعالب النّادرة- من مكانٍ تحتمي به، إلّا جحورها ووُجُرُها. فإن دحرجتَ من القمّة حجراً مستديراً، فربّما لن يتحرّك الثُّعلبانُ الماكِرُ من وجاره، أمّا البقيّة فسوف تتراكض فرعةً. ثمّ بعد برهةٍ، تدوّي بندقيّة الصّياد.

إنّك تُصادف أولئك الصّيادين، ناصبي الفخاخ الذين استبقاهم الفصلُ في الحقول، أيّامَ الشّتاء، في أوقات الظّهيرة، أو ساعة تجنّح الشّمس إلى المغيب. فخورين، ينزلون صوب القرية، على أكتافهم البندقيّة، عقبها إلى ظهورهم، وفوهتها بين أيديهم، وقد علّقوا على فوهتها الطّويلة المستقيمة ككوز دُرّة، بعض طيور التدرج، فإن لم تكن، فأرنين أو ثلاثة.

أو بنات عرس.

وأحياناً ثعلباً.

على أن في شتائنا المذكور، شتاء عام الأرنب، لن يشهد مثل تلك المناظر. فقد ذهب الجميع لحضور عرض أهل طيبة في جبل الأرواح الميتة، والجميع يريد أن يرى تلك الأعجوبة المسماة ضريح لينين. في الطرقات، على الجبال، يتقدم الخلق زرافاتٍ وفي شفاههم ابتسامة من يقصدُ معرضاً في معبد. الكبارُ يحملون الأطفال على ظهورهم، والشباب يجرون بالشيوخ العربات، وحين تكون الطريق طويلة لا يتزود السائرون بالفطائر المشوية وخبز الذرة فحسب، وإنما أيضاً يجرون عربات يدويةً حملوها بالأغطية والقذور والمراجل، مما يمكنهم من النوم والتغذي في الطريق. كان ضجيج الأحاديث يختلط بضجيج العجلات والخطى التي ما انفكت تزداد يوماً عن يوم، مُطيرةً على دروب الغيم غباراً يُرشُّ كالماء. مع دفء الظهيرة تتحرك طيور الدَّوري، طائرةً من شجرةٍ إلى أخرى، تشيع الموكب بزقزقتها، كأنها تنتهياً للهجرة. والأرنب، فزعةً تلوذ بقعر الوديان، لكن إذ لا تدوي أيّ بندقيّة، فإنها تنتهي إلى إلقاء ثوب الحذر والعودة إلى جحورها، ومنها تتابع هؤلاء القرويين الذين يجوبون الجبل، والمدنيين القادمين من بعيد.

في جبال بالو صارت القرى قفراً.

وكذلك خارج السلسلة الجبلية.

أما سكان المدن، فأخذوا عطلاً وانطلقوا بالباص.

في البداية أتى سكان المقاطعات المجاورة: السرو، والزّنزلخت، والصّفصاف الصّغير، والصّفصاف الكبير، ومخيم أزهار المشمش؛

ثمّ سكان المدن الصّغيرة الأقرب، ضمن إقليم غاوليو، ثمّ مدن أقاليم العنّاب، والخنوخ، والصّفيراء، وليلك الهند، وشانغيو. ثمّ جميع قرى ومقاطعات الأقاليم الثلاثة؛ الجميع يأتي لحضور العرض، وزيارة الضّريح، والتمتّع بمناظر الطّبيعة. إنّ الشّتاء في القرى فصلُ بطالة، والإنسان المتبطّل يبحث عمّا يرفّه به عن نفسه، وحفل الافتتاح قد وافق الفصل! في وقت البطالة بالضّبط سيقدّم أهل طيّبة عرضهم!

يقول النّاس العائدون من هناك، متعجّبين: «يا للعجب! إنّ الأشجار هناك تبرعم، الصّرح أجمل من قاعة عرش، وهناك صبيّة تدعى هوايهوا، أجمل من الضّريح نفسه!» كيف يبدو كلّ ذلك؟ ليس ضرورياً أن يكونوا قد شاهدوا بأمّ أعينهم، المهمّ أنّهم قد عرفوا أنّ في الشّمال يحدث أن تخضّر الأشجار والعشب حتّى في فصل الشّتاء. وهذه السّنة، الطّقس مختلف! زعموا أنّ جنيّة قد ظهرت في طيّبة.

النّاس يقولون: «أسرعوا بالذهاب! الفصل هناك ربيع. التّابوت قد وصل إلى الضّريح. وهناك تلك الصبيّة، تلك المدعوّة هوايهوا، وهي صافيةٌ قدر صفائه! ليس ثمة ما يُقال! الكريستال يلمع أشدّ من الزّجاج، وهو مثل النظارات، يكفي أن تضع عليها إصبعك لتترك فيها أثراً. سمكه بوصتان، وعلى اللّوح الباطنيّ نستطيع أن نرى الغبار. أدنى ذرّة فيه تلمع».

لم يروا بالضرورة ذاك الغبار، ولا لمسوا بالضرورة الكريستال. لكن يكفي أن يقولوا ذلك لكي يبرهنوا على أنّهم لم يزوروا الضّريح فحسب، وإنّما تأمّلوا التّابوت المهيّأ للينين.

المستون، رجالاً أو نساءً، ممن اصطحبهم أبناءؤهم، كانوا يصيحون في من يصادفونهم على الطريق: «هيا، هيا. إن شهدنا ذلك، علمنا أننا لن نموت سدى. إن لينين عظيم لدرجة أنه ما إن وصل حتى انقلب الشتاء ربيعاً!».

وإذ يبدي أحدهم عجبه: «حقاً؟»، فإنه يزيد إلحاحاً: «صالة العرش ترتفع أعلى من السحاب! كيف نقوا كل تلك الأحجار واللبنات؟»، وإذ يصحح له ذلك: «ليست قاعة عرش، وإنما صرحاً تذكاريّاً»، يردُّ عليه: «سيان!» ثم يضيف: «التابوت الكريستاليّ أبيض شفاف، كأنما صنع من حجر اليشم. لو أنهم يعرضونه للبيع، لما كفت أموال الإقليم كلها لشرائه!

فيردّون على مبالغته: - بل يكفي أن نرسل أهل طيبة يعرضون بضعة أيام في العالم!».

وما إن يأتي الذكّر على العرض حتى ينبري للتنهيد أحدهم: «آه سحقاً، لم لم يولد الواحد منا معاقاً! لو أنني كنت أصمّ، لجرؤت أنا أيضاً على أن أعلّق في أذني مفرقات!».

تضيف امرأته المحمولة في العربة:

«ومؤكّد أنني لو كنت عمياء، لاستطعت أن أطرّز على الورق وعلى أوراق الشجر!».

ويزيدُ شيخُ مارّ:

«لا أدري، لكنني، وقد بلغت الثالثة والخمسين، تشوّش بصري،

وما عاد في فمي سنٌّ! بينما تلك العجوز ذات الساق المكسورة والمائة
وسبعة أعوام، ما تزال تعصّ في خبز الذرة وتولج الخيط في الإبر!».
تردّ عليه الصبيّة ذات الشعر الكثيف التي ترافقه: «أبي، إنّها
تأكل وتنام مرتديّة ثوب القبر! أحذرك من أن تتحرّك في المنزل
بثوبٍ مماثل!».

وفي تلك اللحظة تتدفّق كتيبة أطفالٍ، متحمّسين كالقمل،
عائدين تحت بصر أقاربهم. وإذ يبصرون كلّ أولئك الناس الصّاعدين
من القرى أو الجبل، فإنّهم لا يجدون ما يقولونه، فيكتفون بالقول
إنّهم يرغبون في العودة إلى هناك.

لماذا؟ لا يستطيعون الشّرح. لكنّ صيحاتهم تفضحهم، صيحاتهم
تصعد حتّى السّحاب فوق القمم. ينتهي بهم المطاف إلى تلقّي
صفعة، فيبتلع الوديعون منهم دموعهم، أمّا العنيدون فينجحون في
إيصال أقربائهم أو جيرانهم الذين يرافقونهم، إلى فورة الغضب.

فاض الجبل بالسيّاح، حتّى شارف الكارثة، هياجٌ مطلقٌ يسود
المكان. مسافة العشرة ليّاتٍ، الرّحبة المضيئة، التي تصعد حتّى
قمّته، صارت سوداء من رؤوس البشر. من الصّباح إلى المساء،
كأنّها هي هجرة نمل. وبعدها كان الإسفلت يبرق من النظافة،
صار الآن ممتلئاً بأوراق، وخرق بالية، وفتات خبز الذرة، وخصل
العشب الأرجوانيّ، وعلب سجائر، وأحذية، وجوارب، وقبّعات،
فوضى عارمة، كأنّها طريقُ العودة من معرض. كذلك قد تُصادف
عصيّ طعام، أو أواني مكسورة، أو خضراً خضراء، أو لفتاً، أو

كؤوساً، أو رؤوس ثوم، أو بصلاً، أو قشر بيض، أو فطائر بطاطا حلوة. في كل مكان، كل مكان، كأنها هي ساحة عقب احتفال. وعلى جانبي الطريق تنتصب مواقد نُصبت على عجل: ثلاثة أحجار أثافي أو ثلاث لبنات ترصُّ بغير عناية، ويكون الأمر قد قُضي. تُنزع الأغصان من الأشجار، وتُضرم النار، فيُطبخ الحساء، ويسخن الخبز. لكنّ اللّبنات والأحجار تصير سوداء سواد القار، والأرض بجانبها مرصّعة بالخطب الذي لم يُستهلك، وبقايا الحساء، والأحجار التي زُحزحت من مواضعها لتتخذ مقاعد، وشرار النيران التي لم تُطفأ كما ينبغي، وكذا القدّاحات وأعواد الثّقاب المنسية، والسترات التي نزعها الأطفال ونسوها إهمالاً، والمراجل التي، لسبب أو لآخر، لم يحرص أصحابها على أخذها معهم، ثمّ الكتب، والجرائد، والمجلّات التي لنفس الأسباب لم يعد أصحابها يرغبون فيها، أو اللّعب، أو الغلايين، أو بنادق الخشب، أو طائرات الورق، أو المحافظ، أو سلاسل الألمنيوم، أو أساور الخرز الزّجاج... بالعشرات، بالعشرات تتكوّم الأشياء... الأشياء اجتاحت الطّبيعة، أغرقت الكون.

الطّريق غاصّة بالخلق.

تملؤها أوانٍ متنوّعة.

وتنتشر فيها بقايا المواقد المرتجلة. من هنا، بين الشّجيرات، أو من هناك وسط حزم العشب، تتصاعد الأدخنة، حطبٌ يحترق، والجبل يبدو كأنها تغزوه الحرائق. على الرّغم من كثرة اللافتات على

الطَّرِيق «احذروا حرائق الغابة»، إلّا أنّ النَّاس كانت تضرم النَّار في كلِّ مكان، ناشرةً اللَّهب كالنَّجوم.

كان الفصل شتاءً، وخارج سلسلة الجبال كثيراً ما سقطت الثلوج بغزارة. في بعض المداشر نفقت الخرافُ من البرد، كما نفقت الخنازير وثيران الحرث. الزَّوارُ من غاوليو وشانغيو يقولون إنّ الوضع عندهم أَلْعَنُ: لم يسقط الثلج فحسب، وإنّما سقط بكمياتٍ مهولةٍ، سدّت الأبوابَ، فلم يعد بإمكان الواحد فتح باب الباحة حين يغادر فراشه صباحاً. ومع ذلك، على بعد بضعة عشرات، أو مئاتٍ من اللَّيَّات، حين بلغوا جبال بالو بعد انعطافٍ قَمَّةٍ، كفّ الشتاء عن التَّشابه. وإذا ما كانت المنحدرات ما تزال عاريةً، فتحت الأشجار، أزهارُ اللَّبلاب، والعشبُ الأبيض، والعشبُ البري، ونباتُ ذيل الثعلب، قد غدت تنضو عن نفسها معطف الأيام الباردة، غمضةً عينٍ وينتهي الأمر، تحت الطَّبقة الرَّهيفة لِلحاء اليابس القديم، تبرز براعمٌ جديدة، وتُغطّي أشجارَ الحور والصُّيفراء خضرةً جديدة. أمّا أشجار الصَّنوبر والسَّرو التي لم تكن قد فقدت حقاً ألوانها، فقد تحلّت بالزَّمرد.

حتّى الحقول المزروعة اتَّخذت لطائف من الخزف الأخضر.

لينين قادمٌ، والرَّبيع قد عَجَلَ باستقباله. حقاً هي إرادة السَّماء، السَّماء أرادت أن يتَّخذ الشتاء لحفل التَّدشين ثياب الرَّبيع أو الخريف. ثياب بشائر الصَّيف. الشَّمس تقف على رؤوس القمم صفراء برّاقة. دفءٌ ينتشر على سطح الأرض، والسَّحب تتمطّى رهيبةً ونادرةً

كخيوط الحرير، والنّاس يتدفّقون كماء شلالٍ صوب قمّة الجبل،
تصحّبهم صيحاتٌ ونداءاتٌ تتقاطرُ كماءٍ ينهمر على السّفوح.

الجوّ يعبق بالرائحة الخانقة، رائحة أيّام الرّمضاء.

الأصوات تهتزّ بالطقطقة والبهجة الطّافحة التي تميّز أيّام العيد.

يبرز الضّريح وسط جلبة البشر، وكومة الأشياء المتنافرة. كان
يُرى من بعيدٍ، وما أن يبلغ الحشدُ الباحث عن العجب منتصفَ
السّفح، حتّى يضيقّ العيونُ سعيّاً إلى الإحاطة بهيأته. قرميذه المطليّ
بالأصفر، وأفاريزه وأركانُ سقفه تلمع في هذا الشّتاء بأشدّ ممّا
كانت لتلمع في الخريف أو الربيع، تبرق ببريقٍ بلوريّ. بالفعل،
إنّ الضّريح يشعُّ ببهاءٍ قاعات عروش الأساطير. في الأفق تموج
الجبال في دعةٍ كأنّها ظهور ثيرانٍ أو جمالٍ، أو تجري على مهلٍ كقافلة.
الأشجار خضراء صافية، وكذلك سلسلة الجبال وقعر الوادي،
العالمُ ينكشفُ في لطائف الأخضر جميعها. كونٌ من الزمرد، ينبثق
فيه فجأةً الضّريح، ينتصب دفعةً واحدةً مثل قصرٍ جدرانه من ذهب
وظلاله من فضّة. وصارت العيون تبرق لفرط ما أبهرتها العجائب.
لمعان القرميدِ ذهبٌ خالص، ذهبٌ برّاق وهّاج؛ ولمعانُ جدرانِ
الرّخام معدنٌ ثَقِيلٌ؛ وبديهيّ كلّ البداة أنّ الدرايزين المصنوع من
حجر اليشم الصّافي، والممتدّ على طول الدّرجات الأربع والخمسين
التي تؤلّف طريق كوتو (١)، كان يومض ببريق النّحاس. ذهب،
نحاس، يشم... ثمّ ذاك البرونز الذي تحلعه الشّمس على درجات
السّلم، والذي يبدو في لمعانه أشبه شيءٍ بنحاسٍ مُذاب. كان عميقاً،

متيناً، مثل شريط ديباج أبيض نُشر في الهواء. كأنها ذاك النفس الأرجواني الغامض، ذاك العراف الإلهي الذي تذكره الأساطير، قد لمع في السماء. من يلمح القصر، يطلق صيحات الإعجاب. ومن يكتشف نفس العراف الطيب، تزداد صيحاته.

فهذا يصيح: «رب السماء! ما أروعه من مقر!». .

وذاك يضيف: «رب السماء! يا له من فانغ شوي^[١] رائع!». .

ويزيد ثالث: «رب الأرباب! إنه مقر مثالي لإمبراطور عظيم!». .

وكل تلك الـ«آه!» و الـ«أوه!» تهوّن السير وتخفف الخطو.

وما إن يبلغوا عتبة الضريح، حتّى ينتبهوا إلى نقش يزينة، شبيه بما كُتب على ضريح ماو تسي تونغ. فعلى ضريح الزعيم الصيني تقرأ بالبنط العريض: لزعيمنا العظيم، الرئيس الخالد ماو؛ وهنا: إلى زعيم الشعوب العظيم، الخالد لينين. القصر الشاخص أمامهم، في قمة الجبل، رحبٌ رحابة حقل قمح، ويُفترض أن يكون المنتزه ضعف مساحته. والمنتزه مبلّط بأكمله بالخرسانة، حتّى إنّ بالإمكان أن تُنشر فيه لتجفّ كل حبوب القرية، من قمح ودخن وذرة. محصول سنة بأكملها. وكما هو الشأن في جميع المواقع السياحية، كانت تصطف على الجانبين، سلسلة من الأكواخ التي تبيع منتجات محلية - فطر آذان يهوذا، أو نوى الجنكة، أو إبر الديباج، أو الفطر - وكلّ تلك المصنوعات التي

[١] تناغم وانسجام.

يؤتى بها من أماكن أخرى، شأن أحجار اليشم المنخفضة الجودة، والتي تُشتري بثمان بخسٍ من نايانغ، ثم تباع هنا بأعلى سعرٍ ممكن. أساور من يشم، قلائد من يشم، أحصنة من يشم، خراف من يشم، سكاكين من يشم، سيوف من يشم، حيوانات الأبراج الاثنا عشر، باغودات^[١]، مباخر، إلخ. كل شيء جديد، وكل شيء مألوف. حين تكون قادماً من بعيد، فإنك تكون على بينة من أن لا شيء في تلك الخردة يملك قيمة فعلية، وإن قدم إليك أحد الباعة أسداً مصنوعاً من مادةٍ ما، وطلب منك مائة يوانٍ نظيره، ولكنك أصرت، إصرار الجرذ الذي يقضم شيئاً، على ألا تدفع أكثر من عشرة يوان، فإنك ستحصل عليه في نهاية المطاف، مقابل عشرة يوان، ومع تلك العشرة يوان سيكون البائع قد ضمن ربحه. يقول الآخرون، أولئك الذين ما تزال تلك المقتنيات تمثل بالنسبة إليهم أموراً نادرة، أولئك الذين لا معرفة لديهم ولا خبرة، لأنهم لم يغادروا قطّ أحياءهم على الرغم من ثرائهم: عشرة يوان مقابل عقدٍ، إنها صفقة مربحة! ولكي يبينوا أنهم لا يعيشون في ضيق، ويملكون من المال ما يقدرّون على صرفه، فإنهم يشترون. على أنهم هم أيضاً كانوا يحاولون المساومة. يقول الواحد منهم: «ما رأيك في تسعة يوان؟» فيتظاهر البائع بالتفكير برهة، ثم يقول كأنها رغماً عن نفسه: «اتفقنا! هذا حفل تدشين ضريح لينين، ولم آتِ إلى هنا طلباً للمال، وإنما للسّعد».

[١] جمع باغودا، وهو معبد البوذيين.

فترى عدداً من السيّاح يسرون حاملين في أيديهم حلياً. يتحدثون عن فلاديمير إيليش، مستذكّرين موته صغيراً، إذ لم يكن يتجاوز الرابعة والخمسين من عمره حين ترك هذا العالم. ويلاحظون أنّ الدّرجات التي يصعدونها إلى الصّريح، هي أيضاً عددها أربعة وخمسون. أمّا أعمدة الدرابزين، فعددها سبعة وعشرون من كلّ جانب، فإنّ جمعنا حصيلة الجانبين كانت النتيجة سبعة وعشرين في اثنين، أي أربعة وخمسين أيضاً. الجميع، شيباً وشباناً، رجالاً ونساءً، كانوا يصعدون الدّرجات وهم يتمتمون، يحصونها، كأنهم أطفال في مدرسة ما يزالون يتعلّمون القراءة: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، حتّى أربعة وخمسين، أو نصفها، ولما كان الحساب مضبوطاً، فإنّ الوجود تشرق سعادةً لأنّها ألفت في كلّ ذلك معنى. ثمّ يبلغون الباب. بعضهم يقتحم المكان بقفزة أو قفزتين، أمّا أولئك الذين يملكون شيئاً من عمق، أو أولئك الذين جالوا وشاهدوا أماكن أخرى، - خاصّة منهم من زاروا بيكين وشاهدوا ضريح الزعيم ماو - فكانوا يترثّون قبل الدّخول. كانوا حريصين على أن يتأمّلوا أدنى التّفاصيل، فيستخرجوا منها التّشابهات والاختلافات. التّشابهات بين الصّريحين، قد لاحظوها طبعاً من بعيد: كلاهما كبير، عالٍ، جذرانه من حجر، سقفه مستوٍ ومربّع، تحوطه أفاريز، ويغطّيه قرميدٌ مطليٌّ بالأصفر، من النّظرة الأولى قد نقول إنّ الصّرحين متطابقين. الجميع يعلم أنّه حين تقرّر بناء هذا الصّريح، ذهب رئيس الإقليم مع فرقة من الحرفيّين إلى بيكين فقصوا سحابة يومهم يتفحصون ضريح ماو تسي تونغ تفحصاً شاملاً ودقيقاً.

دخلوا، وخرجوا، فدخلوا مرّة أخرى، ثم خرجوا مجدّداً، سبعة أشواط، ذهاباً وإياباً، لم يستثنى منهم أحد، حتّى أحاطوا بالمكان، وحفظوا تخطيطه وتصميمه، سواء من الدّاخل أو الخارج. زد على ذلك أنّهم بمكرٍ، وحتّى لا تكشفهم الشرطّة، عمدوا إلى قياس الأبعاد بأقدامهم وعيونهم، والتقطوا من الصّور ما استطاعوا أن يلتقطوا. كيف إذن للضّريحين أن يتباينا، بعد أن قدّر أصحابنا كلّ الأبعاد والفواصل؟

التباينات: ضريح الرّئيس ماو مقرّه بيكين، عاصمة الصّين. ضريح لينين مقرّه شوانهواي، شماليّ البلاد. الأوّل يقع في ساحة تيان آن من، والثّاني في جبل الأرواح الميّتة، في عمق جبال بالو.

هل من اختلافٍ آخر؟ كلّاً. لكن متى ما أمعنا التّفكير، لاحظنا أنّه بالإضافة إلى طريق كوتو المذكورة، ذات الأربعة وخمسين درجةً، ودرازينها الذي تعادل أعمدّته الدّرجات عدداً، والتي توافق جميعاً السنّ التي ترك فيها لينين عالمنا هذا، فإنّ محيط ضريح ماو يشمل أربعة أعمدة في أربعة، أي ستّة عشر عموداً، أمّا هنا فالأعمدة المحيطة بالضّريح أربعة في المقدّمة، وعشرة في الخلف، ولا عمود عند الجناحين. أي أنّ مجموع الأعمدة المحيطة بضريح لينين أربعة عشر، وبالتّالي هي أقلّ من أعمدة ماو بعمودين. لماذا؟ أيّما طالب درّس في، أو حتّى خالط، مدرسة اشتراكية، وانتبه إلى دروسه، سيكون بمقدوره أن يجيبكم: إنّ الأعمدة الأربعة في المقدّمة، والعشرة في الخلف توافق تاريخ ميلاد لينين، فقد وُلد الزّعيم قرنين قبل تاريخنا هذا، إبّان سنة الحصان، في اليوم العاشر من

الشَّهر الرَّابِع، وفق التَّقْوِيم القديم، أربعة، زائد عشرة، يعني أَنَّهُ سِيَحْطَى هُنَا بِحَيَاةٍ مُتَجَدِّدَةٍ وَلَنْ يَشِيخَ أَبَدًا. وَنَدْرُكُ كَذَلِكَ لَمْ كَانَتْ الْجُدْرَانُ الْجَانِبِيَّةَ عَارِيَّةً. بَيْنَمَا تَحْفَهَا عَنْ شِمَالٍ اثْنَتَا عَشْرَةَ شَجَرَةً مِنْ أَشْجَارِ التَّنُوبِ مُتَوَسِّطَةِ الْعُمْرِ، عَرِيضَةِ الْجَذُوعِ كِبْرَامِيلٍ؛ وَعَنْ يَمِينٍ سِتَّ عَشْرَةَ شَجَرَةً مِنْ أَشْجَارِ السَّرُوحِ، يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهَا بَضْعَ قَامَاتٍ، وَسُمْكُهَا سُمْكُ أَوَانٍ، وَقَمَمُهَا تَحْجُبُ السَّمَاءَ، وَتَمْنَعُ أَشْعَةَ الشَّمْسِ. اثْنَتَا عَشْرَةَ شِمَالًا، وَسِتَّ عَشْرَةَ يَمِينًا، تَلْكُمُ سَنٌ لَيْنِينَ حِينَ تَوَفَّى! فَارْقُنَا مِنْذُ قَرْنٍ، فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ الثَّانِي عَشَرَ، أَثْنَاءَ سَنَةِ الْجُرْذِ. بِالطَّبْعِ تَرْمِزُ الْأَشْجَارُ إِلَى حَيَاةِ الْخُلُودِ. لَكِنْ لَمْ لَمْ تُزْرَعِ بَرَاعُمُ فَتِيَّةٍ؟ أَوْ حَتَّى بَرَاعِمِ شَائِخَةٍ؟ كَانَتْ أَغْصَانُهَا لَتَرْتَفِعَ فِي الْأَفْقِ، وَتَمْنَعُ أَوْرَاقُهَا الضُّوْءَ، وَتَعْطِي الانْطِبَاعَ بِأَنَّهَا كَانَتْ هُنَاكَ مِنْذُ آلَافِ السِّنِينَ. وَهُنَا تَحْدِيدًا تَكْمُنُ الْحِيلَةُ. إِنْ خَالَطْتَ مَسْئُولِي الضَّرِيحِ، فَسَوْفَ يَقْصُونَ عَلَيْكَ حِكَايَةً بِالْغَةِ الشَّاعِرِيَّةِ. بَنْبَرَةٌ مِنْ يَسَرِّ إِلَيْكَ بِسَرٍّ حَمِيمٍ، سَوْفَ يُخْبِرُونَكَ بِأَنَّ كُلَّ تِلْكَ الْأَشْجَارِ، مِنْ سَرُوحٍ وَتَنُوبٍ، فِي الرَّابِعَةِ وَالْخَمْسِينَ مِنْ عُمْرِهَا، أَيَّ جَمِيعًا تَنَاضِرُ لَيْنِينَ سَنًا سَاعَةً وَفَاتِهِ. حِينَ أَقْدَمَ الْمَسْئُولُونَ عَلَى اقْتِلَاعِهَا، طَلَبُوا مِنْ مَخْتَصِّينَ انْتِزَاعَ عَيْنَةٍ مِنْ جَذُوعِهَا لَا يَتَجَاوِزُ حَجْمُهَا حَجْمَ شَوْبَكٍ، تَمَكَّنَ مِنْ تَحْدِيدِ أَعْمَارِهَا. إِنْ كَانَتْ الْجَذُوعُ مُؤَلَّفَةً مِنْ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ حَلَقَةً، فَيَعْنِي أَنَّ الْأَشْجَارَ تَبْلُغُ أَرْبَعَةً وَخَمْسِينَ عَامًا. فَكَانَتْ تَزْرَعُ مِنْ جَدِيدٍ. أَمَّا تِلْكَ الَّتِي يَخَالَفُ عُمْرُهَا الْأَرْبَعَةَ وَالْخَمْسِينَ، وَلَوْ بِزِيَادَةِ سَنَةٍ أَوْ نُقْصَانِهَا، فَإِنَّهَا وَإِنْ حَقَّقْتَ الْمَطْلُوبَ مِنْ حَيْثُ الْجَمَالَ وَالْإِسْتِقَامَةَ، وَشِدَّةَ الظِّلِّ، وَالْحِمَايَةَ مِنَ الشَّمْسِ،

إِلَّا أَتَاهَا لَا تُقْبَلُ، وَيُتَخَلَّصُ مِنْهَا. وَلِلْعُثُورِ عَلَى تِلْكَ الْاِثْنَتَيْ عَشْرَةَ
تَنْوِبَةً، وَالسَّتَّ عَشْرَةَ سُرُوءً، تَجْنَدُ مَزَارِعُو الْغَابَاتِ وَحَرَاسُهَا طِيلَةَ
سِتَّةِ أَشْهُرٍ. كَانَ يَنْبَغِي فَحَصَ خَمْسِينَ شَجَرَةً لِلْحَصُولِ عَلَى وَاحِدَةٍ
مُنَاسِبَةٍ. وَلِنَفْتَرِضَ أَنَّ عَلَى مَنْحَدِرِ مِائَةِ شَجَرَةٍ، كَيْفَ نَخْمَنُ أَيَّهَا فِي
سَنٍّ مُتَوَسِّطَةٍ؟ وَإِنْ عَثَرْنَا عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْ ضَمَنِهَا، فَكَمْ هِيَ حَظُوظُ
أَنْ يَكُونَ عَمْرُهَا أَرْبَعَةً وَخَمْسِينَ عَاماً بِالضَّبْطِ؟

كَانَ لَزَاماً الْبَحْثَ عَلَى كُلِّ سَفُوحِ الْجَبَلِ، وَشَقِّ خَنَادِقٍ، وَنَبَشِ
نِصْفِ الْإِقْلِيمِ، لِكَيْ نَجْمَعَ تِلْكَ الْأَشْجَارَ الثَّمَانِي وَالْعَشْرِينَ: اثْنَتَا
عَشْرَةَ تَنْوِبَةً، وَسِتَّ عَشْرَةَ سُرُوءً.

بِالطَّبْعِ عُمِدَتِ الْأَشْجَارَ بِاسْمِ «تَنْوِبَاتِ لَيْنِينَ» وَ«سُرُوءَاتِ
لَيْنِينَ»، وَمَا إِنْ زُرْعَتْ بِجَانِبِ الضَّرِيحِ حَتَّى صَارَتْ بِمِثَابَةِ ذُرُوتِهِ
الشَّعْرِيَّةِ. وَقَدْ سُدَّتْ تِلْكَ الثَّقُوبُ الَّتِي أَحْدَثَتْ فِيهَا لِتَحْدِيدِ أَعْمَارِهَا،
بِالْأَسْمَنْتِ، وَحَوْلَهَا تَسِيلُ عَصَارَةٍ خَشْنَةٍ، مُصْفَرَّةٌ مِثْلَ الصَّمْغِ.

وَيَفُوحُ مِنْهَا عَطَرٌ قَوِيٌّ مِنْ عَطُورِ الزَّيْتِ الْأَسَاسِيَّةِ.

مَنْ الْبَيِّنُ بِنَفْسِهِ أَنَّ هَذَا الصَّنْفَ مِنَ الدَّقَائِقِ لَا يَحْدُثُ فَرْقاً.
لَكِنَّكَ إِنْ تَأَمَّلْتَ الْأَشْجَارَ جَيِّدًا، ثُمَّ وَلَجْتَ بَعْدَ ذَلِكَ الضَّرِيحِ،
فَإِنَّكَ سَتَكْتَشِفُ تَفَاصِيلَ أُخْرَى أَشَدَّ غَمُوضاً: أَعْمَدَةُ الْبَهْوِ
وَأَرْكَانُهُ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ. كَانَتْ ثَلَاثَةُ عَشَرَ، مُخْتَلِفَةً الْأَحْجَامَ، لَمْ؟
لَأَنَّ لَيْنِينَ اسْمُهُ فَلَادِيمِيرِ إِيْلِتَشِ أُولِيَانُوفِ، أَيْ بِالضَّبْطِ ثَلَاثَةُ عَشَرَ
حَرْفًا صِينِيًّا. الْأَعْمَدَةُ الثَّلَاثَةُ عَشَرَ تَرْمِزُ إِلَى اسْمِ مَعْمُودِيَّتِهِ! كَلَّمَا
عَرَفْتَ أَشْيَاءَ إِلَّا وَرَغِبْتَ فِي الْاطَّلَاعِ عَلَى الْمَزِيدِ، سَوْفَ تَرُغِبُ فِي

فهم تلك الدقائق، ولكي تفهمها ليس لديك إلا حلٌ وحيد: أن تزورَ وتكرّر الزيارة.

تحت السّقف العالي يتّسع داخلُ الصّريح بمقدار امتدادين، ويعطي انطباعاً بالشّدة. ضوءٌ ناعمٌ، نعمة الحليب، يتدفّق من المصابيح المغروسة في الجدران، غامراً الحشد الذي يتقدّم متّبِعاً حبلاً. وعلى الرّغم من أنّ الصّالة الرّئيسة كانت رحبةً رحابة نصفِ حقلِ قمح، أو منزلِ أسرةٍ مترفة، فإنّ الفضاء الذي كان مسموحاً للزوّار أن يتحرّكوا فيه لم يكن يتجاوز عرض زُقاقٍ ضيّق. بالطّبع لم يكن لينين قد وصل بعد، لكنّ تابوت الكريستال ينتظره جديداً برّاقاً في صدر الصّالة. وكانت تغطّي على المجموع مهابةً وجلالةً تمنع الزوّار من الاستسلام إلى أيّ ثرثرة أو تعليق.

الطفّل الذي يبكي يُخرج من المكان فوراً. وكذلك يُفعل بمن يدخّن أو يلتقط صوراً. يطرد فوراً إلى الخارج، حيث يُوبّخ ويُغرّم.

النّاس يسرون في صفٍّ، واحداً في إثر واحدٍ، كأنّما يسرون على جسر، يلجونه بوجوههم، ويغادرونه بظهورهم. إنّ البطء الذي يتقدّمون به، والذي ينتابهم خلاله الانطباعُ بأنّهم يقطعون معبراً أو زقاقاً ضيّقاً، يسمح لهم بأن يغنموا شيئاً من البرودة المنعشة المحيطة بالمكان. حتّى إنّ الواحد منهم ليخال أنّه بجانب بحيرةٍ في قعر وادٍ. صغاراً وكباراً، جميعاً يجلسون أنفاسهم. لأنّهم، وسط مسيرهم، يقعون على التابوت الكريستالي وقاعدته -قاعدة من رخامٍ مستطيلة، بمساحةٍ بساطٍ، يبدو التابوت فوقها من زجاجٍ

لازوردي شفاف، حجرٌ يشم كحليب شفاف. غير أن حبل النايلون الذي يعمل حاجزاً، على بعد خمس أقدام أو ست عند الأركان الأربعة، يمنعك من أن تلمسه، فليس لك إلا أن تكتفي بالنظر. وتلك الاستحالة تزيد السحر سحراً: ينبغي أن تلاحظ بطريقة أشدّ تدقيقاً، لكنك كلما ركزت النظر، قلّ فهمك. إن هذا التابوت تابوت كسائر التوابيت، لا يختلف عنها في شيء، أوسع من جهة الرأس، وأضيق من جهة القدمين، طوله قدمان وسبع بوصات، وعرضه، في الوسط، قدمان وسبع بوصات، ولا شيء مميز فيه. غير أن رأسه يبدو أعرض من القياسات المتعارف عليها في توابيت المنطقة، وكذلك قدمه أضيق. ثم، أليس أكبر بنصف قدم من ناحية العرض؟

الأبعاد المتعارف عليها لم تُحترم. لكنه كان من كريستال، وقريباً سيصير مرقداً لرجل عظيم. رجل هو فضلاً عن ذلك، أجنبي! شخصيةٌ يحترمها نصف الكوكب! لذا لست تجرؤ على طرح الأسئلة، وعلى أي حال ليس لك إلا أن تتبع السيل المناسب ببطء، في صمت، كأنها يركب جذع شجرة. وحين تبلغ مستوى التابوت، حين تستطيع أخيراً أن تلتهمه بعينيك، ربّما قد تميز في قعر الصندوق الشفاف الفارغ بعض الشعيرات الرمادية. وإذاك، كأنها لفتك لفحة صقيع، بكامل بدنك ترتجف.

تتنفض.

الصالة الهائلة صامتة بالمطلق. خطوات الناس تهوي كأوراق الخريف. أنفاسهم تنتشر كخيوط الحرير البيضاء، والهواء يتحرك

في النور الحليبي، كما يتحرك الضباب حين يستقرّ على التلال شتاءً. فإن لم يعد أحدهم يطيق صبراً، فعمد إلى تسليك حنجرتة بعدما سدّ بكفه فمه، فإن سعلته ترنّ في المكان رنين حجرٍ هوى من السماء إلى الأرض، رنيناً يتشظى في ضجيج ينتفض له الآخرون، فتزعج الأنظار عن التابوت باحثة عن مصدر الضجيج.

وعلى الفور ينخفض المذنب رأسه، كأنها ضُبطت متلبساً بارتكاب جرمٍ عظيم.

على أن كلّ الحوادث لا تمنع تقدّم السير، فيواصل الجميع، كباراً وصغاراً، سعيهم متابعين الحبل. وإذ يتنبّه الواحد منهم من غفلته، فيريد العودة إلى ما كان يتأمّله قبل الحادث، يكون الأوان قد فات، والركب قد جاوز الموضع المعلوم.

لم تكن قد أخذت كفايتك من الفحص، لكن الآخرين خلفك يدفعونك دفعاً، حتّى يلقون بك إلى المخرج.

ثمّ، سيّان إن رأيتَ بما يكفي أم لم تر. الجميع يجد نفسه على الدرجات التي تفضي إلى الباب الأقصى، ببصرٍ خالي الوفاض. تترك المكان، وفي نفسك الانطباع بأنك كنتَ كالباحث عن ظلّه، وأنك لم تستنقذ من المكان شيئاً. يتتابك الانطباع بأنك كمن قطع آلاف الليّات قاصداً سوقاً، فلمّا بلغه أدرك أنّه قد أتى إليه يوم الإقفال، أو كمن سار ليلاً ونهاراً كي يحضر حفلاً، فلمّا وصل ألغى الحفل.

النور صافٍ، الهواء عذب، الناس مذهولون بعض الشيء،

وأنتَ، أنتَ تقف هناك، عليك أمارات الارتباك، تنصت إلى الآخرين يقولون إنهم آسفون على أنهم أتوا، أو يتساءلون عما إذا كان الأمر يستحقَّ تعب الزيارة. وفي تلك اللحظة تنتبه إلى أنهم قد تحلقوا حول أربعينيَّ أشيب الشعر، ربّما هو موظّف في الضريح. يقول إنّه هو بنفسه من وضع التابوت. وأشرف شخصياً على بناء المرقد. يقول: «هل تعلمون هذا؟ لماذا ثمة ثلاثة مرافق بجانب الصّالة الرّئيسة؟ لم ليس عددها اثنان أو أربعة أو ستّة؟ لأنّ رئيس الإقليم زارَ مقرّ لينين القديم، وكان في مرقده صالة رئيسة وثلاثة مرافق صغيرة!».

يقول: «أتدرون لم طول التابوت ليس سبع أقدام، وإنّما سبع أقدام وخمس بوصات؟ لم علوّه وعرضه عند الرّأس قدّمان فاصلة تسعة، وليس قدمين فاصلة سبعة كما هو معتاد؟ لماذا؟ نعم؟ هل يعرف أحد؟».

يقول: «أنا على يقين من أنّكم لا تعرفون. سأخبركم إذن: إن كانت أبعاده سبع أقدام فاصلة خمسة، على قدمين فاصلة تسعة عند الرّأس، وقدم فاصلة خمسة عند القدمين، فإنّنا لأنّ رئيس الإقليم قد ذهب إلى روسيا لقياس القبر الذي يرقد فيه الآن لينين، وصمّم هذا التابوت بحيث يكون عُشرَ أبعادِ القبر. يقال إنّ طول قبره اثنتان وعشرون خطوةً، إلى ثلاثٍ وعشرين ونصف الخطوة، أي -بما أنّ ثلاث خطواتٍ من خطوات رئيس الإقليم تساوي قامّة- سبع قاماتٍ ونصف في اتّجاهه، فإنّ حسبنا عُشرها كان الحاصل سبع أقدام ونصف، وقامتان فاصلة تسعة في الاتّجاه الآخر، أي بعبارةٍ أخرى

قدمان وتسع بوصات. وبما أنه قدّر ارتفاع القبر بقامة ونصف، فإن ارتفاع التابوت قدّم ونصف!».

يقول: «إنّ في هذا الضريح من الحيل ما يكفي لتأليف كتاب! » يقول: «أتدرون لم ارتفاع التمثال عند المدخل خمس أقدام وبوصة؟ ولم عرّض القاعدة قدمان فاصلة واحد، وطولها ثلاث أقدام فاصلة ثمانية، وارتفاعها ست بوصات؟ ذاك، لأنّ رئيس الإقليم قد تربّى في مدرسة اشتراكية ويعرف متن لينين عن ظهر قلب! ارتفاع التمثال خمس أقدام وبوصة لأنّ في مقاييس الغرب تساوي تلك المسافة بالضبط متراً وسبعين سنتمراً، وأعمال لينين الكاملة تضمّ سبعة عشر مجلداً. وطول القاعدة قدمان فاصلة عشرة، لأنّه، دائماً وفق القياسات الغربيّة، يساوي سبعين سنتمراً، وأعمال لينين المختارة - أي المنتخب من أفضل نصوصه - سبعة أجزاء. الأقدام الثلاث فاصلة ثمانين توافق الطّبعات الثمانية والثلاثين التي صدرت عندنا، والبوصات الست هي ارتفاع مجلّد واحدٍ إن أوقفناه في وضع عموديّ».

مستمراً عند مخرج الضريح كان الرّجل يتحدّث من غير انقطاع، وفق كلامه يسيل بلا توقّف، وحلقه المستمعين حوله ما انفكّت تتّسع. وكلّما زادوا عدداً، بدا أنّ له المزيد من الأسرار ليفصح عنه، ومن الأشياء ليبينّه، وكأنّها لكلّ لبنّة من لبنات الضريح قصّة، لها ما يفسّرها، لكلّ حجرٍ رابطة بحياة لينين. كان يقول: «على الأرجح أنّكم لم تنتبهوا ساعة دخولكم، لكن بلاطات الأرضية مزينة بنصف دائرة فيها رسّمت نملٍ وجراد. وهذا لأنّ في منزل لينين القديم كانت ثمّة حديقة صغيرة في شكل نصف دائرة، وكان يحبّ

اللّعب فيها، وإقامة مبارزات بين تلك الحشرات: أردنا أن نعطيه الانطباع بأنّه يدخل منزله، يعود إلى بلاد طفولته. كلّ الرّجال العظام يرتدّون إلى الطّفولة في سنّي شيخوختهم، لأنّ الارتداد إلى الطّفولة أشبه باستعادة الحياة على بدء». يقول إنّ من بين أعمدة البهو الستّة الكبيرة، ثلاثة مزيّنة بطيور الفينيق والتّنانين، بالإضافة إلى شعارنا الوطنيّ، وخفافيش، وباب السّلام السّماويّ، ومناظر مختلفة على ساحة تيان آن من؛ والأعمدة الثلاثة الأخرى مزيّنة بصور كنائس وصروح من بلاده، وشعار الحركة العماليّة، ومقاطع من كتابته، إلخ. وثمة أيضاً منجلنا وفأسنا، وأعمال الرّئيس ماو، وكونولوجيا الأحداث الثورية؛ ثمّ صوراً من ثورة أكتوبر، والانتفاضات ضدّ القيصّر، ونداءات الشّعب إلى هزم هتلر أثناء الحرب العالميّة الثّانية..

الشمسُ تتهيأ للغروب، وحلّق الرّجل قد جفّ لفرط ما تكلم. وما يزال يقول إنّ الضّريح موسوعةٌ فعليّة وإنّه يفيض بالإحالات والإلماعات. ثمّ ختم بهذه الكلمات: «حين ترون كلّ هذه الأشياء، فلن تكونوا قد فعلتم مثلاً قد يفعل أيّ شخصٍ آخر، وإنّما قد رأيتم ما ينبغي رؤيته» و: «ينبغي أن تستغلّوا كون الشمس ما تزال مرتفعةً، كي تعودوا إلى هناك، فتلقوا نظرةً أخرى، وإلاّ لكانت زيارتكم هدرًا، وفيما بعد، حين يأتي لينين سيكون عليكم أن تدفعوا حقّ التذكّرة».

بعد تلك الكلمات انسحب الرّجل مخفياً أقصى الضّريح، ثمّ انتبه أخيراً أحدهم من غفلته: رئيس مقاطعة السّرو! لشدّ ما كان أبله فيما

مضى، من كان يتصوّر أنّه يكفي بناء ضريح لكي يتحوّل الرّجل إلى علامة! وكان النّاس ما تزال تعتملهم الأسئلة، فنادى أحدهم الرّجل لكنّه كان قد انصرف، وتسمّر هناك القرويون الذين كانوا يشعرون بأنّهم زاروا المكان ولم يزوروه، يتابعون الرّجل بأعينهم، مثنين على سعة علمه واستنارة عقله، متحسّرين على جهلهم وقلة علمهم.

في كلّ ما مكانٍ فوق الجبل اصطبغت السّماء بالأحمر. الشّمس توشك تنقل إلى الجنوب فتغرب. وفي كنف هذا الشّفق القرمزيّ الدّافئ، اتّخذ الضّريح سيّما هدوء ودعة. ولما كانت الشّمس قد بدأت في الغروب، سارع البعض إلى اللفّ مرّة أخرى، كي يغنم زيارةً أخرى، بينما تذكّر آخرون بأنّ اللّيل لن يتأخّر في الحلول، وأنّ الجبل عامراً بمواقع لم يتسنّ لهم بعد أن يتفقّدوها.

حتّوا الخطى لزيارة ما تبقى من أماكن.

وأهمّ من كلّ ذلك: لم يحضروا بعد أيّ فقرّة من عروض فرقة الصّناعة. فإنّ لم يحضروا عروضهم، فإنّ مجيئهم إلى بالو سيكون هذراً (٣)، وهذراً سيكونون قد صعدوا إلى الأرواح الميّتة.

تعليقات

(١) طريق كوتو، درج. لأنّ الأدراج كانت فيما مضى توجد أساساً في المعابد وكان النّاس يصعدونها وهم يضربون على جباههم عند كلّ درجة.

(٣) هذراً، لهجة محليّة. سدى، بلا فائدة.

الفصل الحادي عشر

الجوّ ما انفكّ يزداد حرارةً، والشتاء يجنح إلى الرّمضاء

لم يكن أهل طيّبة جميعاً في نفس المكان. منذ اليوم الأوّل، الذي كان ينوي ليو يانغك أن يقطع فيه الشّريط، والذي قدّموا فيه عرضاً شكلياً على المنصّة، تفرّقوا إلى مختلف المواقع: فاصطحب القرّد الصبيّ بوليو، متعلّ القناني، إلى بركة التّنين الأسود، وانطلق ماه الأصمّ، بمفرقاته معلّقة على أذنه، رفقة بعض العارضين إلى ركنٍ تنمو فيه باقةٌ من أشجار الجنكة، أمّا الشّلاء فاستقرّت، تطرّزُ الأوراق، على ضفّة النّهر، تحت صخرة «الظّبيّة المشيحة برأسها»، تصاحبها تونغهوا، العمياء رهيفة السّمع. وماو تشي، مع قزماتها التّسع، تعرّض في ركنٍ آخر من الجبل، على منحدرٍ تستطيع منه أن تتأمّل شروق الشّمس وغروبها.

حين تفرغ من زيارة الضّريح، لا بدّ لك من أن تذهب لرؤية شلال التنانين التّسعة، وتتأمّل الجرف المنحوت، وغابة المسلات، ومغارتيّ الثعبان الأبيض والثعبان الأزرق، وكذلك بحيرة التّنين الأسود التي ترعم أسطورةً، زورها حديثاً علماء شوانهواي، أنّ

ثعبانٌ بيثون هائلاً قد ظهر فيها ظهوراً خاطفاً. لقد وُزعت فقرات الترفيه بحيث تتبع ماء جدولٍ نازل، وتقام على ضفتيه. فإن لم يؤثّر فيك المنظر الطبيعيّ بجذّته، فلا بدّ أن تدهشك فرادة العروض، فتقصدها للمشاهدة.

كان الجميع على علم أنّ الفرقتين هما من كان لهما الفضل الأكبر في جمع المال اللازم لشراء رفات لينين. في الجنوب كان الناس يدفعون ألف يوان لمشاهدة العروض. ألف يوان! وفي هذه الجبال، حيث لا يتعدّى الدخل السنويّ لأسرةٍ ثمانمائة يوان، كان يُقال إنّهُ ما دام أولئك الناس قد صرفوا مبالغ بتلك الضخامة لمشاهدة عُميّ وعورٍ وصمّ وبُكمٍ وشُلٍّ - بكلمة واحدة: معاقين - فلا بدّ أنّه ليس أيّ عرض، ولا بدّ أنّ لأهل طيّبة صناعاتٍ لا يستطيع، أو يجروء، الناس - تامون إليها سبيلاً.

الشمس تنزل على الجبل حيث يسود الهدوء الذي يسبق الغروب. وفي البعيد غرقت الوديان والقمم في صمّ عميقٍ حتّى ليخيّل للمرء أنّ الكون قد هوى في بئر جافة.

إنّ الزوّار الذين كانوا، منذ لحظةٍ، يسرون بأيدي فارغة، قد تجمّعوا في السّاحة منتظرين عرض المساء، وهم يتناولون شيئاً. خبز ذرة أبيض بياض الثلج، فول سوداني، فول أخضر، فطائر محمّرة، بسكويت اشتروه من هذا الدّكان أو ذاك، وبيضاً من ذاك المسلوق في الشّاي الذي يباع في كلّ مكانٍ هنا.. في كلّ مكانٍ تشتغل الفكوكُ، في كلّ مكانٍ تطحنُ الأسنانُ، في كلّ مكانٍ تبلع الحلوقُ.

إنّ الفلاحين الذين كانوا قد أقاموا أكشاك في قمة الجبل، لبيعوا فيها بعض الأطعمة، قد كسبوا في الأيام الأخيرة ذهباً، حتّى الطّحين الأسود السيئ الذي كان يحتفظ به سنواتٍ في المنزل، كان الزوّار يتخاطفونه ما إن يتحوّل إلى خبز مطبّوخ بالبخار. ومن لم يجد طعاماً يبيعه، كان يغلي الماء في قدر هائلة، ثمّ يقتل خنزيراً ويرميّه فيه، وما إن يصعد بطبخته إلى القمة حتّى تصير حساءً من أثنى ما يكون الحساء.

وعلى الرّغم من أنّ الفصل شتاء، فإنّ وقت الغروب هنا يكون الطّقس جميلاً، كما لو في فصل الصّيف: جوّ الجبال يكون دائماً لطيفاً، وهذه القمة تحديداً لا تعوزها اللّطافة. لكن إذا ما كانت لطافة الجوّ في الفصل الجميل تلطّف الرّمضاء، فإنّها تتخذ في فصل الشّتاء طعم الحرارة وسط البرودة المحيطة. كان الجميع هناك، قرويين ومدنيين، شباباً وشيباً، رجالاً ونساءً. كم كان عددهم؟ مئات، آلاف؟ لا سبيل إلى العدّ. يتزاحمون في المنتزه، ويتدافعون على الدّرجات الأربع والخمسين التي يتشكّل منها طريق كوتو الذي تحوّل، كأبسط ما يكون، إلى منصّة، حتّى أنّ درابزينه بدا كأنّها وُضع ليأخذ الشّباب مقاعداً!

وكانت المنصّة قد نُصبت عند حافة المنتزه، مقابل الضّريح. وفُرش فوقها الفرش الأصفر، الحديد كلّ الجدّة، فغطّاها من ثلاث جهات، فرش تغطي عليه رائحة ورنيش قويّة، قوّة رائحة القمح في يوم من أيّام الشّهر السّادس، رائحة تحرّك الأمعاء. وصار مدير فرقة المادريغال سابقاً، ومساعدوه، يخدمون الآن أهل طيّبة متفانين في

خدمتهم. ولفرط ما حاولوا استنساخ رئيس الإقليم، في حركاتهم وسكناتهم، انتهى بهم المطاف إلى أن صاروا أشدّ حماسةً منه: كانوا خير من يعلم ما يمكن أن يجلبه عرض إضافيٍّ من خير لشوانهواي، ومن منفعةٍ لهم.

وقد قال ليو: «هل نسيتم أنّ طيّبة لن تعود تابعة لنفوذنا الإداري؟».

رئيس الفرقة: «يا ماو تشي، أثناء النهار، تفرّقوا، لكن في المساء، ينبغي أن تعرضوا مجتمعين. تلزمنا عروض إضافية مهما كلّفنا الثمن».

ماو تشي: «حسنًا، اتّفقنا، وأثناء العرض الأخير ستقرأ العقد على المنصة؟».

رئيس الإقليم: «إليك ما قرّرناه: اجعلوهم يعرضون بلا انقطاع، وسوف يجذبون العالم إلى جبل الأرواح الميّتة. سنحصّد نجاحاً يطبق الآفاق، ويتجاوز السّماء والأرض!».

ماو تشي: «لقد وعدنا رئيس الإقليم بأن ننال ثلث الإيرادات».

القرّد: «يقولون في الإقليم، إنّنا سنتحاسب بعد الفراغ من كلّ شيء».

المدير: «هيا، هيا، استعجلوا ماو تشي والفرقة، إن نقد صبر الناس فسوف يكسرون كلّ شيء».

ينطلق العرض متأخراً بنصف ساعة.

وكان ذاك العرض الأخير، العرض الذي وعد ليو يانغك بأن يعود ليحضره، ويقرأ أثنائه على المنصة قرار فكّ الضمّ. لكن ها قد بدأ العرض، والرئيس لم يظهر له أثر في الجبل. «هل يمكن ألا يأتي؟» تتساءل ماو تشي. فيطمئنّها رجال الإقليم: «حين يقول مدير الإقليم إنّه سيقوم بأمرٍ، فإنّه يقوم به» يقولون: «حين يعد مثلاً بحضور اجتماع، فإنّ الناس ينتظرونه، وينتظرونه، وإذا لا يأتي، يبدؤون من دونه، كما هو متّفق عليه، وينهون الاجتماع من دونه، وفي اللحظة التي يستقرّ في نفوسهم اليقين بأنّه لن يأتي، ويتهيّؤون لرفع الجلسة، يظهر الرئيس!».

يقولون: «مستحيل ألا يأتي».

بدأ إذن العرض. وإذا كان البرنامج هو نفسه البرنامج الذي قدّموه مئات، بل آلاف، المرات، في العالم البرّانيّ، فقد صاروا يعرفون من يقومون به، معرفة القرويّة كيف تطبخ الأرز، وتذلك عجينة، أو ترقع نعل نسيج. الاختلاف هو أنّهم، في العالم البرّانيّ كانوا يعرضون منقسمين إلى فرقتين، بينما هنا، في بالو، اجتمعوا في فرقة واحدة، حتّى أنّهم اضطرّوا إلى حذف الفقرات المكرّرة وإعادة ترتيب العرض.

وكان رئيس الإقليم قد قال: «تفانوا في العرض! تفنّوا فيه كما لم تفعلوا من قبل. من يقدّم منكم أفضل فقرّة، فسوف يحصل على زيادة ألفي يوان!

وقالت ماو تشي: «هيا! إنّّه على أيّ حالٍ آخر عروضنا».

مقارنةً بالعروض السابقة ينبغي أن يتميَّز هذا العرض بأصالة وفرادة كبيرتين. ومنذ البداية كان مختلفاً. هوايهوا، مقدّمة العرض، فاضت جمالاً. من كان ليصدّق أنّه يكفيها أن تطمح في أن تزداد طولاً، لكي تزداد بالفعل طولاً في ستّة أشهر؟ لقد صارت الآن تُحسب على الناس-تأمين، بل صارت تُحسب بينهم أميرة. طويلة، ورشيقة، ذات وجه بيضاويّ تمّ استدارة، وبشرة بيضاء ناعمة كأنّها قضت أجيالاً تستحمّ من رأسها إلى قدميها في الحليب. حين تقف في مقدّمة الخشبة كي تعلن عن الفقرات، فإنّ الناظر إليها يحسبها بدرّاً تدلّي من غصن صفصافة. شعرها أسود لدرجة أنّه يعكس أضواء المصابيح؛ شفاتها حمراوان كثار نضجت خريفاً على أشجار الكاكي؛ أسنانها بيضاء كأحجار اليشم. والجميع يعلم أنّها حين غادرت طيّبة كانت قرمّة لا تفوق أخواتها، تونغهوا ويوهوا وفلين، طولاً. لكنّها نمت في ستّة أشهر حتّى انعدم كلّ شبه بينها وبين أخواتها. وكان أفراد الفرقة رقم ١ قد وقفوا بأنفسهم على تحوّها، وتأملوها يوماً بيوم، لذا تراهم اليوم، وإن أقروا بزيادة جمالها، لا يرون في الأمر معجزة، فهل رأيتم من قبل أبوين يندهشان لأنّ أبناءهما يكبرون؟ أمّا أعضاء الفرقة ٢ فقد جحظت عيونهم دهشة حين التقوا بها مجدّداً في شوانهواي. فغروا أفواههم مذهولين. وقد تمّ اللقاء بمسرح المادريغال في الإقليم. فلما وقعت أبصارهم عليها، تعالت صيحات الدهشة. فمن كان منهم يلمّ أزياءه توقّف عن ذلك، ومن كان يحمل الصناديق تسرّ في موضعه، ومن كان جاثياً على ركبتيه ينجز مهمّة من المهام، وثب واقفاً على قدميه. جميعاً

ظلوا منبهرين، مشلولين، يصيحون قائلين إنها قد صارت ناس -
تامة، جميلة كجنينة، وفي الآن نفسه كانوا منزعين بعض انزعاج،
كأنها خاب أملهم.

فلما زال أول الذهول، وثبت الشلاء، كأنها تريد أن تقف
وتحضرها. فلم يكن بد من أن تسقط لتصيح: بحق كل الآلهة! لشد
ما نموت يا هوايهوا!». .

أما ماو تشي، فتسمرت في البداية مرتبكة ذاهلة. ثم ابتسمت
لحفيدتها قائلة: «كانت الجولة إذن تستحق أن نخوضها!» كأنها لم
تجب الفرقة العالم ستة أشهر لكي تتمكن طيبة من أن تفك ضمها،
وإنما فقط لكي تتحول هوايهوا إلى صبية طويلة وجميلة، وقد حصلت
الفرقة ما أرادت، وبلغت مرادها».

أما فلين، فمرعوبة ومعجبة، انتحت بأختها جانباً، لتسألها:
«كيف فعلت؟ اشرح لي!».

سحبت هوايهوا أختها إلى مكان أبعد، ونظرت حوالها، ثم
أجابت هامسة:

«فلين، إن أخبرتك، لن تنبذني أليس كذلك؟

- ماذا تقصدين؟

- تونغهوا وهوايهوا ما عادتا تكلمانني، كأنها بنموي قد سرت
منها شيئاً.

- أخبريني بكل شيء، لست مثلها.

- أنت الآن في السابعة عشرة من عمرك، يجب أن تحالطي الرجال. لكن ليس أيّ رجالٍ، رجالاً-تامين، ينبغي أن تضاجعي رجالاً-تامين».

أخذت عينا فلين تزدان دهشةً، أكثر فأكثر، وتأهّبت لأن تقول شيئاً، وإذا بشخصٍ ثالث يفتحهم المكان: إنه شي، سكرتير رئيس الإقليم، وقد أرسله رئيسه لمتابعة الفرقة رقم ١، لأنّه سيتأخّر عن مواعده المفترض بيوم. وما إن لمحته هوايها حتّى أهملت أختها الصّغرى، واستقبلته باسمه.

وعلى الفور ادّعت بأنّ عليهما أن يعالجا بعض الأمور في مقرّ حكومة الإقليم، وانصرفت معه، ولم تظهر بعد ذلك، حتّى كانت الشّاحنات التي يفترض أن تنقلهم إلى جبل الأرواح الميّتة على أهبة الانطلاق.

بزغ القمر في موعده. وكذلك بزغت النّجوم المعلّقة في قبة السّماء. وعلى بعد عشر ليّاتٍ، أو مائة، محيطة بالجبل، كان الشّتاء قاسياً لدرجة أنّ الماء يتجمّد، أمّا هنا، في بالو، فالطقس عذبٌ عذوبة لا نظير لها. السّماء تبدو سماءً صيف، زرقاء لدرجة أنّها تبدو غير حقيقية، مرسومةً ومصبوغةً بالنّيليّ؛ اللّيل سكينةٌ مطلقة: لا ريح تهبّ، والأجواء صافيةٌ صفاءً حليبيّاً ينسكب كماءٍ على المنحدراتِ والوديانِ المحيطة ومختلفِ المواقع. ولم يبقَ في كنف هذا المحيط الوديع إلّا الأضواء والأنوار الصّاعدة من الضّريح. قد يخال المرء أنّ البشريّة انقرضت، ولم ينبج منها إلّا هؤلاء المتجمهرين

في الضَّريح، يحتفلون بنجاتهم مرحين. صعدت هوايها بخطى هادئة إلى مقدّمة المنصّة. فستانها بلون الماء الصّافي، يُبرز جمال وجهها في الظلّ، مثلما قد تُبرز شجرة صفصافٍ كوكب الليل. الكثير من الجمال، الكثير من البراءة: حبس المتفرّجون أسفل المنصّة أنفاسهم، دفعة واحدة سكتوا جميعاً، كأنّهم عصافير دوري في حضرة طائر فينيق، كالمنوّمين لا يستطيعون أن يحيدوا بأبصارهم عنها. كانوا ينتظرونها أن تنطق، أن تتكلّم، أن تقدّم العرض، وهي واقفةً هناك، صامتةً ومبتسمة. ولما بدأت تبدو عليهم ملامح نفاد الصّبر، تكلّمت بصوتٍ عذب:

«أيّها الرّفاق، أيّها الأصدقاء، أيّها الأجداد، ويا إخوتنا المواطنين! احتفاءً بتدشين ضريح لينين، وبانتقال رفاته الوشيك إلى جبل الأرواح الميّتة، تقترح عليكم فرقتا طيّبة رقم ١ ورقم ٢، عرضاً مميّزاً... - الجميع سمع عن عروضنا، ولا أحد يجرؤ على تصديقها. حتّى أولئك الذين شاهدوها! أترك الحكم لكم. لكن إن كان ما بلغنا بالسّمع يظلّ محطّ جدالٍ، فإنّ ما نراه بأعيننا واقعٌ وحقيقيّ. سيبدأ الآن العرض، وأوّل فقرة تسمّى: المفرّقات في الأذن!».

من كان ليتخيّل أنّ قزّمة طيّبة الصّغيرة ستتحوّل إلى ناس - تامة؟ وزيادة على ذلك يتخذ صوّتها نبرةً حلوةً، كنبرة النّاس الذين يتكلّمون في الرّاديو. لدهشة الجميع، وضدّاً على كلّ ما يمكن أن نتصوّر، فإنّ مجرّد مشاهدتها والإنصات إليها يعتبر في حدّ ذاته عرضاً. وأسفاً، كأنّها هي لم توافق على الكلام إلّا قهراً، كانت تنبس

بكلمات قليلة وتنحني، فتراجع خطوتين إلى الوراء، ثم تنسحب من الخشبة على عجل. تختفي السنونوة، فتفرغ عيون المشاهدين وقلوبهم، ويتابعهم الإحساس بأنهم قد فقدوا كنزاً.

لحسن الحظ يبدأ العرض.

لم تعد الفقرة الأولى فقرة القرد الذي يقفز بساقه الوحيدة من فوق جبال من الأنصال وبحارٍ من اللهب، وإنما فقرة الأصم الذي يطلق المفرقات من أذنه: إن العروض تُقدّم هنا، في الجبال، في الهواء الطلق، فكان لزاماً تغيير ترتيب الفقرات حتى يُفرض على هذا الجمهور الضاح أن يدهش ويعجب من الوهلة الأولى، أن يلقي به بدفعة واحدة في حفرة الدّھول. فصار يعهد الآن إلى ماه الأصم بشرف الافتتاح. وكان ينجح دائماً في أن يثير الدّهشة، في أن يُجرس الحشود، ويصدمهم. وقد أتى في اليوم المذكور لابساً، على طريقة فنّائي الأكروبات، بذلة من الحرير الأبيض، ولا شيء فيه يذكر بذاك المعاق الذي كان فيما مضى يرتجف بكامل بدنه حين يصعد الخشبة. لقد صار اليوم فنّاناً ممتازاً. شأنه شأن جميع معاقي طيبة. تقدّم بهدوء ولا مبالاة، فضمّ ذراعيه تحيةً للجمهور، ثم علّق على أذنه سلسلة من المفرقات المدوّية. وكان بإمكان الجميع أن يلاحظ: لفرط ما فرقع المفرقات مُعلّقة في أذنه، تدبّع جلده، وانقلب لونه إلى حمرة وسوادٍ شبيهين بحمرة حجر الصوّان وسواده.

هدأ الجمهور، وأخذوا ينظرون إليه كما قد ينظرون إلى رجل يوشك أن يلقي بنفسه متحرراً من أعلى جرف، أو من فوق سطح

بيت. فلما استقرَّ الصَّمْتُ، بزغت هوايها من أحد الأركان، وقالت، معتنية كلَّ العناية بالنطق، توضّح للجمهور أنّ الرّجل قد بلغ لتوّه الثالثة والأربعين من عمره. منذ نعومة أظافره وهو مولع بالمفرقات، وقد مرّن أذنيه على أن تقاوما ذبذباتها. لم تذكر بالطّبع أنّه، أيضاً، منذ نعومة أظافره وهو أصمّ مثل مزهرية، وإنّما شدّدت على أنّه قد بدأ التمرّن في سنّ السّابعة، حتّى صار اليوم لا يابه لأشدّ الانفجارات وأقواها وأقربها إلى طبله أذنه. ثمّ أخذت زياً عازلاً من النسيج السّميك، وطلبت منه أن يرتديه حمايةً لبذلته البيضاء، ثمّ تقدّمت به إلى صدر المنصّة، فوضعت لوح حديد رقيقاً بين وجهه وسلسلة المفرقات.

وبيدها أشعلت المفرقات.

بدأت المفرقات الملفوفة بورق أحمر تطلق دخاناً، ثمّ انطلقت مفرقةً عند خدّه الأيسر. تجمّد الحضور من الرّعب، شجبت وجههم، كباراً وأطفالاً، شحوب الصّقيع، كأنّما تبخّرت منها أدنى قطرة دم. ولكي يبيّن لهم ماه بأنّ كلّ تلك الانفجارات لا تهزّ فيه شعرةً، فإنّه أوّلاهم وجهه، كي يغنموا الصّدَى: وهذه المرّة، خمد كلّ أثرٍ للفوضى، بسط يديه على المكان صمتٌ مطلق، لا صوت يقطعه مهما صغر شأنه.

فلما صمتت المفرقات، انتزع الأصمّ بهدوءٍ لوح الحديد، وأخذ يضرب عليه تحيةً للجمهور، كأنّما يضرب على آلة إيقاعية. ثمّ التقط من الأرض مفرقة لم تنفجر مع أخواتها، فوضعها على اللّوح

وأشعلها، فانفجرت محدثةً رنيناً أشبه بما كانت لتحدثه لو وُضعت على آلة جونج. ثم أولى الجمهور جانب وجهه الأيسر، الذي صار أسود مثل القار لفرط ما علقت به الأدخنة الحارة، لكي يتيقنوا من أن السخام قد غطاه بالكامل، والهدوء لم يبارحه بالمطلق. وأخيراً ابتسم لهم، ابتسامةً بلهاء راضية.

وإذاً خرجوا من ذهولهم وانخرطوا في تصفيق لا ينقطع، صائحين كالبحر المزجر. فتداعى لتصفيقهم الجبل النائم. واختلطت بالتصفيق الأبيض صيحات قرمزية ارتفعت محلقةً فوق المنصة. كان بدءاً طينياً صافياً صادراً عن الضريح، ثم مضى يرتفع اهتزازاتٍ في قعر الوادي. ثم موجةً بعد موجة، مستغلاً الصمت الليلي، كان الضجيج يشتدُّ محلقةً في البعيد، مُغرقةً في الفوضى كوناً يردد في كل موضع منه صدى التصفيق الأحمر والهتاف البنفسجي. لقد انتزع الليل الهادي من فراشه وأحلامه، وغدت أركان العالم الأربعة تهتزُّ بصيحات الفرح.

لحظةً بعد ذلك كانت ضوضاء الليل هي التي تهيج الجمهور! الناس تصيح وتصرخ وتصفق وترفع القبضات صوب القاعة صائحة:

«علق مفرقةً على وجهك!

علق مفرقةً على وجهك!».

كيف لهم أن يعرفوا أن الأصم، من غادر بطن أمه، لم يعرف طيلة حياته معنى ضجيج عالٍ، أو فرقة، أو دوي رعد؟ حدث

كثيراً أن شهد بروقاً، لكنّه لم يسمع قطّ دويّ عاصفةٍ. وبالفعل علّق على أذنه آلة جونج صغيرة من نحاس، في حجم غطاء رجل، وفجّر فيها مفرقةً كبيرةً، ثمّ أردف بمفرقتين أخريين مضاعفتي القوّة. شيءٌ لا يصدّق، أمام الحشد المزجر ألقى بآلة الجونج، وابتسم بهيأة بلهاء، ثمّ ضرب ضرباتٍ على وجهه الجامد كحجر، وبعد ذلك استلقى على جانبه فوق القماش المشمّع الذي يغطّي المنصّة، وأخرج من جيبه شمعةً بطول نصف حبة لفت، وطلب من أحد الجمهور أن يصعد إلى المنصّة فيشعلها.

صمتٌ قاتل. لا أحد يصرخ، لا أحد يهتف، لقد انغلق العالم في خزنة من عزلة. حتّى أنّ صوت النور كان يسمع متساقطاً من الكشافات، وصار المشاهدون يرون نظراتهم الشخصية هائمةً يجذبها المشهد، كما يجذب النور فراشةً.

وما يزال الأصمُّ باسطاً ذراعه يُنادي.

برزت هوايهوا باسمّة، وقالت: «أصدقائي، أيّها الشّباب، تعالوا تشعلون المفرقة. هذا عرضٌ غير مسبوق، حتّى أولئك الذين دفعوا في الجنوب ألف يوان، لم يكن لهم حظٌّ مشاهدته. لقد أعددناه خصيصاً لهذا المساء، أعدناه على شرف بلدنا وأسلافنا».

وثب إلى المنصّة شابٌ قصير.

حكّ عود ثقابٍ ليوقد به سيجارةً، ثمّ جثا على ركبتيه وأشعل الفتيل.

انفجرت المفرقة الهائلة.

أحدث ضوضاء اهتزت لها السماء والأرض، وأطلقت شرارة طارت في الفضاء. ولو أنّ فوق الرؤوس أباجوراتٍ لأخذت في التآرجح بلا انقطاع. لكنّ الأصمّ كان ما يزال على تبلّده ولا مبالاة، ثمّ إنّ نهض، فنفض عن نفسه الرماد وتلمّس وجهه: كان ينزف قليلاً، وعلى خده قليلٌ من البودرة سوداء. مدّت إليه هوايهوا منديلاً أبيض، فمسح به الدّم الغامق الذي نزفه، ثمّ انحنى باحترامٍ وغادر المنصة، تشيّعهُ هتافات الإعجاب.

وإذا ما كان الجمهور قد التزم صمتاً شعائرياً في لحظة الذروة التي بلغها العرض، فإنّ الهتافات تدوي الآن كعاصفة. وكانت ماو تشي تنتظر على مقربةٍ من ساحة العرض.

قال لها وهو يجلس: «تظنين أنّ رئيس الإقليم سيمنحني المكافأة؟».

لم يمهّلها المدير الفرصة لتردّ عليه، إذ تدخل فوراً، وأجاب الأصمّ: «على ضمانتي! طبعاً سوف تُمنح ألف يوان!». ذهب الأصمّ باسمّاً كي يعصب جرحه.

الفقرة الثانية على وشك أن تبدأ. وإن كان العرض السابق قد وأد ضجّة الجمهور وهي بعدُ جنيئٌ في البيضة، فإنّ هذا العرض يُفترض أن يغرق الحضور في ذهولٍ آخرس: لقد بُرّجت فقرَةُ الأعور الذي يولج الخيط في الإبر. وكان حتّى اللّحظة يكتفي بثماني عشرة إبرةً من تلك التي نستعملها في ترقيع النّعال. يعمد إليها، فيثبتها بين

إبهام يده اليسرى وسبّابتها، ثم يمسك الخيط بيمنه، فيفتله، ويسدّد، حريصاً على أن تكون سهام الإبر جميعاً منتظمة مترابطة، فيولج فيها بسرعة الخيط كما قد يعبرُ سهمٌ زقاقاً. أمّا اليوم فالأمور اختلفت. لقد غاص بيده في علبة من كارتون، فأخرج حفنة من إبر التطريز، فقسّم نحو مئة منها إلى أربع أكوام بين أصابع يده اليسرى، أدار راحة يده إلى الأسفل، ثم ضرب ضرباً خفيفاً على لوح من خشب. فلما انتظمت رؤوس الإبر بعضها لصق بعض، أدار يده مرّة أخرى صوب السماء، ووقف هو مواجهاً النور، مشرعاً عينه الوحيدة. ثم ربت بعد قليل، بإبهام يده اليمنى وسبّابتها، على صفوف الإبر الأربعة كي تصير السهام متقابلة تمام التقابل، حتّى صارت تعكس ضوء المصابيح الأبيض فوق رأسه. ثم بضربة خاطفة، عبر الخيط الذي كان قد فتله حتّى صيرَه أقى من سلك نحاس، صفّ الإبر الأوّل، وعاد من فوره. وفي رمش العين كانت الإبر كلّها معلّقة في الخيط الأحمر. هو الذي كان يحتاج في البداية الوقت اللازم لابتلاع جرعة ماء، كي يستطيع إيلاج الخيط في ثماني أبر إلى عشر؛ والوقت اللازم لمضغ لقمة خبز، كي يولجه في سبع وأربعين إلى سبعين، في حال ما إذا كانت إبراً كبيرة؛ قلنا، هو الذي كان يلزمه كلّ ذلك الوقت، قد استطاع اليوم أن يولج الخيط، بحركة واحدة، في مائة وسبع وعشرين إبرة تطريز. ولم يحتاج أكثر ممّا يلزم لابتلاع لقمة خبز، كي يعيد الكرة ثلاث مرّات، فكانت الحصيلة مائتين وسبعة وتسعين إبرة معلّقة في الخيط.

سأل المدير: «تظنُّ أنّي قد أحصل على المكافأة؟»

فأجابه: - تستطيع! بالتأكيد تستطيع!..

أما التطريز على الأوراق وورق الشجر، فلم يشذ عن الاختلاف، وقدّم بدوره في حلّة مغايرة تماماً. لم تبدِ الشّلاء فقط قدرةً على خلق أعشاب، وزهور، ونمال، وفراشات على أوراق رهيبة هشة، وإنّما طرّزت كذلك فراشةً ضئيلةً على هيكل حشرة زيزٍ كانت قد قضت السّماء معلقةً في شجرة. ولتلوينه، لم تعتمد إلى بكرة خيط حمراء، على معتادها، وإنّما وخزت ظهر يدها، ما إن أتمّت التطريز، وأسالت قطرةً من دمها، فطارت الحشرة ذات الجناحين الأحمرين.

كذلك قدّم الصبيّ بوليو عرضاً فريداً. بعدما لفّ محيط المنصّة متعلّاقينته؛ ثلاث لفّاتٍ في هذا الاتجاه، وثلاثاً في الاتجاه المقابل، توقّف، وأخذ يرمق الجمهور بوقاحة، ثمّ ضرب على الأرض بعنفٍ كي يهشّم القنينة. بعد ذلك رفع قدمه، فأمكن الجمهور أن يلاحظوا أنّ ربله ساقه والأصابع الثلاثة المتدلّية من ساقه الشائثة كانت مرصّعةً بشظايا الزّجاج. كان زجاجاً أبيض، برّاقاً، بجانبه يسيل الدّم أحمر طازجاً.

على أنّ العرض كان قد تقدّم، وأوغل المشاهدون في المتابعة، بحيث ما كان ثمة من داع للصياح لأنّ أحد سكّان طيّبة قد أصيب. فكان الجميع يتأمّلون السّاق الممدودة صوبهم، والدّم يسيل منها غزيراً، يروي بساط خشبة العرش الجديد. بشرة الصبيّ شاحبة، شمعيّة، كأنّه قطعة ورقة شفّافة.

صاح من المجمع صوتٌ: «- هل يؤلمك؟

أجاب: - ألم محتمل».

سأله آخر: «هل ستقف، وتقوم بجولةٍ أخرى على الخشبة؟».

وبالفعل، استقام الصبيّ في وقفته. جبينه يسيل عرقاً، وعلى فمه ابتسامةٌ قاهرة، صفراء، مثيرة للشفقة. وضع قدمه أرضاً. وانحنى، نازلاً بكامل ثقله على قدمه المريضة. ثم لفّ ثلاث لفّاتٍ في هذا الاتجاه، وثلاثاً أخرى في الاتجاه الآخر، ساحباً خلفه خيط دم.

اشتدّت حلكة الليل، واشتدّ هدوؤه، كأنها هوى الزّمن في بئرٍ سحيقة. وكان رئيس الإقليم قد وعد بأن يعود اليوم ليُعلن عن فكّ ضمّ طيّبة أثناء هذا العرض الأخير: كان يفترض أن يقرأ العقد أمام الحشد. لكنّ العرض يكاد ينتهي، والرّجل لم يظهر له بعد أثر. وماو تشي مهمومة تذرّع المكان خلف المنصة. لا ضوء عربية يضيء الطريق بالأسفل، ولا صوت محرّك يتناهى إليها. سألت: «تظنّ أنّه لن يأتي؟»، فأجابها الأطر: «مستحيل!» قالوا: «ربّما تعطلت سيّارته؟ وربّما أخره طارئٌ؟» قالوا: «حسناً، أصغ، لنفعل ما يلي: تقدّمي أنت أيضاً. سوف نمطّط العرض، نطوّله حتّى يأتي. لا يمكن ألاّ يأتي. سوف يأتي. لا بدّ أن يأتي. هو من سيقراً العقد».

فقبلت أن تلعب الأشواط الإضافيّة.

وقبل أن يغادر الصبيّ بوليو المنصة، أمرته همساً: «قم ببضع لفّاتٍ أخرى إن كنت ترى نفسك قادراً».

وكان القمر، وهو في ربعه الأخير، قد بلغ قمّة الجبل تماماً،

فصار فوق القمة التي منها سيشرف الناس على شروق الشمس، يبدو مثل مغرفة معلقة على غصن شجرة. النجوم عزيزة، والجو الآن باردٌ، مثل جو النصف الثاني من ليلة صيفية. مهما كان الجو بديعاً، إلا أن الحقيقة أننا في الشتاء، وبالتالي فإن باطن الطقس يظل البرد. فترى الجمهور الذين كانوا قد ألقوا عن ظهورهم معاطفهم المبطنة، قد عادوا يلقونها على أكتافهم، وغدوا يرتدون السترات أو الكنزات التي كانوا قد نزعوها وتأبطوها. وبينما، في الأيام التي سبقت العرض، كانوا في هذه الساعة يغوصون في الأحلام، فإن لا أحد منهم الليلة قد هجع. الناس يتابعون العرض بأعين جاحظة. والصبي قد عاد يلف فوق خشبة العرض، مجرّراً قدمه العليلة المجروحة المرصعة بشظايا الزجاج. يعرج، يتمشى، يركض، يركض ويتمشى، ثلاث لفات في هذا الاتجاه، وثلاث لفات في الاتجاه الآخر. المنصة التي يؤدي فوقها، تشرب دمه مثل مجرى مائي، والبساط الجديد يتخضب ببقع داكنة ولزجة، بقع ما تلبث أن تنتقل من القرمزي إلى البني الأرجواني، ثم إلى الأسود الرمادي. هذا الصبي يفرض التقدير، جباه الناس تنفصد بقطرات عرق تلمع كلالى ماء، وما يزال هو يبتسم، ابتسامة حلوة، مشعة، كأنها انتصر على نفسه. فينتابهم الانطباع أنهم هم أنفسهم يستطيعون أن ينتعلوا قنينة، وأن يذرعوا الخشبة بقدم نازفة. لقد تجاوزتهم اللحظة. ولما اتم اللفة السادسة، تقدّم لحَيّ الجمهور، وأراهم باطن قدمه الشائهة، فلم يكن ثمة ما يرى تحت مشطها، لقد انغرزت الشظايا في اللحم، وغدا يسيل منها سائل عكر؛ كأنها هو لم يرفع قدمه، وإنما أدار صنبوراً

من تلك الصّنابير المنتشرة في المدينة، والتي يكفي أن يديرها المرء كي يسيل منها الماء، الفرق أنّ ما يسيل هنا دمٌ وليس ماء.

الختم يقترب. ستصعد المنصّة ماو تشي وفليّاناتها^[١] التّسع. انتقل القمر إلى هذا الجانب من الجبل، وفوق السلسلة الجبلية يسود صمّت عميقٌ رطبٌ، أطبق على السّماء والأرض. بين هتافٍ بشريٍّ وآخر، يتناهى صوت أغصان الأشجار تتأرجح في الرّيح، طائر يغرد في غابةٍ أو جرف، وخفقٌ أجنحة تلك التي يجفلها الهتاف والتّصفيق. المصابيح تقذف بحزمها الضّوئية كأسهم صوب السّماء أو صوب وديان أخرى. وفي الجوّ تختلط برودة أماسي الشّتاء بانتعاشٍ ليليٍّ مبهج.

وكانت ماو تشي قد قالت: «لا تنس أن تمرّ على العاصمة في طريقك، فتأتي بالعقد.

فأجابها رئيس الإقليم: - لن أغيب سوى ثلاثة أيّام. عند نهاية اليوم الثالث سأعود لأتلو الإعلان.

واستحثّها المنظّمون قائلين: - هيّا يا ماو تشي، ينبغي أن تصعدي. لقد سمعنا ضجيجاً عند سفح الجبل».

صعدت. عرضها هو ختام الأمسية. ما إن تظهر، كاشفةً عن صنعتها، حتّى تقفز قلوب الجمهور. لكن قبل أن تظهر في حلّتها التي صمّمها لها مدير فرقة المادريغال، كانت حفيدتها، التي غدت

[١] نسبة إلى اسم حفيدتها فلين.

الآن ناس-تامة، قد قصفت الحضور بالأسئلة: «هل في بيتكم أو قريتكم من يبلغ التسعين؟ هل في مدينتكم من بلغ المائة؟ وكيف هي أسنانه؟ وبصره؟ وهل ما يزال يأكل الفول والجوز والفول السوداني؟ أما يزال قادراً على رُقْع النعال؟».

بعد مقدّمتها الاستفهامية تلك، أدخلت ماو تشي مدفوعة في كرسيّ متحرّك، وأُعلن أنّ سنّها تسعة أعوام بعد المائة. والحال أنّها، في سترتها القطنية الزرقاء الثقيلة التي تشبه تلك التي كانت ترتديها نساء الشّمال زمن الجمهورية، وسراويلها الواسعة الأطراف، كانت صورةً حيّة نابضة للإنسان الذي عبر قرناً من الزّمن. بظهرها المقوّس كالمقسوم نصفين، وشعرها الأبيض، كانت تبدو كمن انتزع من التابوت، وهذا كافٍ لكي يغرق المشاهدون في الذّهول. وبما أنّها قد بلغت من الكبر عتياً، وقيل إنّها عرجت طيلة حياتها، فلا بدّ من أن يرافقها أحد النّاس-تامّين، ويدفع بها الكرسيّ. وقد عُهد بالمهمّة إلى الرّجل الذي كان قد ادّعى أثناء جولة الجنوب أنّ عمره مائة وواحد وعشرون عاماً، والذي صار، بحسب الاتفاق الجديد، ابناً للمرأة المئويّة. صار يناديها «أمّاه».

مقترح أن تعطى ماو تشي من السنين مائة وتسعاً، وليس مائتين وواحدة وأربعين، كما حدث في الجنوب، هو ثمرة تفكير عميق اضطلع به النّاس-تامّون. فما دام جميع سكّان بالو قد سمعوا بقرية طيّبة، فلا مجال للمبالغة في الادّعاء. يكفيهم أن يصدّقوا بأنّها جاوزت القرن من الزّمن. صحيح أنّ المئويين نادرين في المنطقة،

لكنهم موجودون. مائة وتسعة أعوام، هو رقمٌ حتى سكان القرى المجاورة يصدّقونه. فلتتفق: من الناحية الجغرافية كانوا متجاورين وقريبين بعضهم من بعض، لكن سكان طيبة هم بالعموم معاقون، وبالتالي فإنّ العلاقات الاجتماعية مع باقي القرى تكاد تكون منعدمة، ولا أحد يهتمّ لأمرهم. فلا بدّ أن يجهل الناس ما إذا كانت القرية تضمّ امرأة تبلغ من السنين مائة وتسعاً.

وكالعادة أفاد «الابن» الذي يدفع بها الكرسيّ، كلّ الإفادة من ملامح الفلاح الشّهم التي تميّزه. بيّن للحضور أنّ أمّه قد وُلدت منذ مائة وتسع سنين، أي سنة الأرنب من القرن الماضي، وبالتالي عاصرت حكم كينغ والجمهورية الصّينيّة. وزيادة في التأكيد، أجال بين الجمهور بطاقة تعريفه، وسجلّه الأسريّ، ورفع عالياً شهادة «المعمر» ممهورةً بتوقيع ليو يانغك وختمه. توقيع رئيس الإقليم، وختمه! من ليشكّك بعد هذا في أنّ عمر ماو تشي مائة وتسع سنين؟ ثمّ أضاف قائلاً إنّ سنّها ليس من الغرابة والفرادة في شيء، المهمّ أنّها لم تفقد السّمع ولا البصر، وما تزال تحتفظ بأسنانها. فقط تعرّج عرجاً خفيفاً. ولكي يبرهن عن أنّ أسنانها ما تزال قويّة، فقد ناوها حبّتي جوز، فاكهتين قاسيتين، فألقتهما في فمهما وطحنتهما بوضع حركاتٍ من فكّيها القويّين؛ وبرهنةً على جودة بصرها، مدّ إليها إبرةً من نحاس وخيطاً أسود. أطفئ نور المصباح الأقوى، فغرقت المنصّة في شبه عتمةٍ، شبيهة بالنور الذي يضيء منازل القرى من مصباح الزيت، وفي ظلّ ذاك الشّعاع الشّحيح، استطاعت هي أن تمرّر الخيط في سمّ الإبرة، من غير أن تخطئ مرّةً.

كانت تولج الخيوط في الإبر، وتأكل الجوز والفاصوليا المطبوخة: النَّاس مدهولون. في الحياة المألوفة، من له أب أو قريب يشارف المائة عام؟ من ذا الذي يستطيع أن ينيف على مائة وتسع سنين من غير أن يفقد السَّمع والبصر والأسنان؟ وبينما يُطبخ المتفرّجون على مهل في مرق ذهولهم، مثلما تُطبخ دجاجة على نار هادئة فيتصاعد قُتارُها على مهل، كان الابن المزعوم يشرح لهم سرّ ثوبها الجنائزيّ الذي يعينها في البقاء بصحّة جيّدة. مُزاوجاً بين الكلام والفعل، نزع عنها سراويل القماش وسترة القطن على طراز الجمهورية، ليكشف بغتةً عن ثوب ديباج أسود برّاق.

أطلق الجمهور صيحات «آه!» تعبيراً حضارياً منهم عن مشهّد همجيّ. لم يعد كلامهم إلّا همهمةً وصيحات، ثمّ ما لبثت الأنظار التي زاغت لوهلة، أن اتّجهت جميعاً صوب شخص ماو تشي. كانت عجوزاً، لكنّها كانت شخصاً حيّاً، ومنذ وهلة كسرت حبّات جوز، وأولجت خيوطاً في أبر، وقالت ضاحكة: «ما زلت أنقص من عمري السنين، حتّى ما عدت أستطيع!» ثمّ هي ذي، في رمش العين، قد تلبّستها هيئة الأموات، واتّخذت ثوب الكفن.

ثوب كفنٍ رفيع الجودة، من الحرير الأسود، مرصّعاً بورود صغيرة برّاقة، تلمع في ضوء الكشّافات الشّديد. أطراف التّورة موشاةً بشريط مذهب مطرّزٍ بصفيرةٍ من الخيوط البيضاء والصّفراء تلمع ببريق مختلف عن ذاك الذي يشعّ به سواد الحرير. فهذا يبرق بياض الفضة، وذاك يلمع بصفرة الذهب الخالص. كأنّه نور الشّمس حين تبدأ في البزوغ شرقاً، فيثقب شعاعها العيون بلا رحمة.

كذلك السترة ذات الأكمام الواسعة لم تكن تنقصها الأصالة. ليست فحسب مرصعة بحجر التوباز عند الأكمام والياقة، وإنما وجهها أيضاً مزيناً بتطريزين رهيفين. فعن شمال طرُزُ تنين يمضي متلوياً ملتفاً على نفسه مثل أفعى بايتون. تنين يبدو أنه لو تمطّط لغطى قماش نسيج بأكمله، لكنّه في التفافه وتلويّه يمضي مرتفعاً من أسفل اللباس إلى كتفه. وكانت كلّ رجل من أرجله، وكلّ قشرة من درعه مطروزة بعناية ورهافة حتّى لبدو أنه سيقفز من السترة إلى الخشبة. وعن يمين، رسمه فينيق، تنطوي على كلّ لطائف اللون الأحمر: الأرجواني، القرمزي، العقيقي، الأحمر الخفيف، الوردى الشاحب، كأنّها أتى الطائر مباشرة من أتون اللهب ليحطّ على السترة، وهو ما يزال يضطرم بألوان الحريق. وفي ظلّ هذا التباين بين الأحمر والذهبي يتوهج البريق الأبيض المنبعث من الحرير الأسود، ويكتسي الأحمر تلاوين قرمزية، ويصطبغ الأصفر بانعكاسات ذهبية عميقة. إزاء تلك الألف ومضةٍ ومضةٍ، إزاء ذاك الثوب الجنائزيّ، تسمّر آلاف المتفرّجين مصعوقين، كأنّها امتصّت المنصّة أنظارهم. ولما كانوا ما يزالون تحت تأثير الصدمة، ومن غير أن تترك لهم الفرصة لالتقاط أنفاسهم، أدار الرّجل الذي يؤدّي دور الابن الكرسيّ نحوهم ليريهـم «قربان الموتى» الكبير الذي يتلأأ بكامل ألقه في ظهرها. بدلاً من احترام الشّكل التقليدي الذي تُصمّم به القرايين عادةً، أي الشّكل المربّع، صمّم الرسّام هنا دائرة من الحرير بلون البلاتين. وعلى الرّغم من أنّ قطر الدّائرة قدّم إلى أنّ المسافة بين الخطوط بالكاد تبلغ طول عود بخور. كأنّها هي شمس ساعة طلوعها أو غروبها. زد على

ذلك أنّ الحلقتين اللّتين تحوطانها كانتا مشغولتين بحروفٍ برونزيّة، ملتصقةٍ بعضها إلى بعض، وتكتب عبارة طول العمر، ممّا يزيد من حدّة المظهر الجنائزيّ والمفجع والكئيب. بلغت الفقرة ذروتها، والعرصُ قمّته، مثل متسلّقي الجبال حين يدركون قمّة جبل. ليس ثمة ما يقال: إنّ النّاس -تامين أشدّ ذكاءً من المعاقين، لكنّ معاقي هذه الفرقة تحديداً قد رأوا أشياء أكثر، وكسبوا معارف أوسع، فكانوا يدركون أنّ كلّ فقرةٍ لا بدّ أن تدهش المتفرّجين وتلقي بهم في وشوشات لا حدّ لها، حتّى أن لا حاجة، في لحظة الذّروة، إلى انتزاع الهتافات منهم. لا حاجة إلى جعلهم يصفّقون حتّى تحمّر أكفّهم. لقد فقدوا أصواتهم، وكلّت أياديهم، وبعضهم يتساقطون من النّوم، حتّى أن فقرّة لا تصدم بحيث تُسقط من يتابعها أرضاً، ما كانت لتثير فيهم الشهية للمتابعة. كان فنّانو طبّية يضبطون تمام الضّبط مبدأ: الفعلُ يستدعي الفعلَ، والسّكونُ السّكونَ. يفهمون جيّداً أهميّة أن يعرف المرء الانتقال من الهدوء إلى العاصفة، ثمّ من الحركة إلى السّكون. الأصمُّ أدمى وجهه بالمفرقعات؛ والأعور، في رمش العين، أولج الخيط في نحو ثلاثمائة إبرة؛ وذو السّاق الواحدة ترك النّار عمداً تشبّ في قميصه؛ والعمياء تمكّنت من أن تميّز وبرّة من وبر خنزير عن خصلةٍ من شعر حصانٍ، بمجرد أن سمعت الصّوت الذي أحدثه سقوط كلّ منهما على البلاط. وبالطّبع لم يعد ممكناً صبُّ الزيت على النّار، وإنّما بالعكس، تلزم فقرةٌ تكون بمثابة الوابل الذي يسقط على أتون النّار، بحيث يهوي هؤلاء المتفرّجون من علياء الحمّى في مسبح من الماء البارد، حتّى تعيا ألسنتهم الكلام

لفرط ما أَلجمَهَا الافتتانُ؛ ينبغي أن يصير العالمُ بأكمله صمتاً، أن تُخرسه الدهشةُ.

وبالفعل هوى بهم عرض ماو تشي، بملابسها الجنائزية، من قممهم المحمومة، فظلّوا صامتين، يطوّقهم إحساسٌ حادٌّ بعدم الفهم: كيف لكائن حيٍّ أن يقضيَ أيّامه يتجول في ملابس الموتى؟ الليل صار عميقاً، عميقاً مثل بئر جافة. العالم غاص في الأحلام، والكونُ والبشر وقوف عند الحدود بين الحياة والموت. أطلت عليهم امرأة، مرحةٌ في الثياب التي يفترض أن تُدفنَ فيها، فاكتست وجوههم صبغةً قمريةً، شحبوا، كأنها تصفّت أجسامهم من دمائها، كأنهم عائدون من مملكة الموتى، أو كأنهم يشدون إليها الرّحال. أطبق الصّمت حتّى إنّ المرء قد يخال أن الجمهور أخلف الموعد ولم يحضر العرض. ومن فوق المنصة يمكن للواقف أن يسمع صوت شخير رضيع نام بين ذراعي أمّه، أن يسمعه يصرخ في حلمه. إذّاك، أمّام هؤلاء النّاس -تأقّمين، وجواباً على أسئلتهن، تلا الابن المزعوم، الذي يدّعي أنّ عمره واحد وتسعون عاماً، وهو في الواقع ابن الحادية والسّبعين، قلنا تلا خطاباً من التّفاهة بحيث لا يمكن إلّا أن نصدّقه. قال: «منذ سنواتٍ لم تنزع أمّنا عن جلدها ثياب قبرها. في هذا الثوب نامت وأكلت نصفَ حياتها». ثمّ فصل القول، فقال إنّها في سنة من السّنون، وتحديداً سنة الجرذ، الموافقة لسنة ١٩٤٨، أثناء شتاء السنة السّابعة والثلاثين من عمر الجمهورية، كانت العجوز قد سقطت في وادٍ، بينما تجمع الخطب لإضرام النّار، فانكسرت ساقها، وهول الصدمة مرضت مرضاً

شديداً. غابت عن الوعي سبعة أيام وسبع ليالٍ، حتّى اضطرّوا إلى أن يلبسوها ثوب القبر لتصعد به إلى السّماء. لكن، في اللّحظة التي كادت فيها أن تعبر إلى الجهة الأخرى، عادت! ولما أن استفاقت، فقد غيّرُوا ملابسها. وكان يكفي أن ينزعوا عنها ملابس القبر ليعاودها المرض. ومجدّداً غاصت في الغيبوبة. فألبسوها الثوب مرّة أخرى، فاستعادت العافية والوعي. وبعد محاولات عديدة، انتهوا إلى قرار عدم نزع ثوبها عنها. لا بل إنهم قد جهّزوا لها أثواباً عديدة، تتناوب على لبسها، ومنذ ذلك الحين، في اللّيل كما في النّهار، شهراً في إثر شهر، سنة تلو سنة، صارت تتناول الطّعام، وتعزق الأرض، وتبذر السّماذ، وتقلّب الحقل، وتنام بملابس قبرها. تعيش مرتديّة زيّها ذاك.

قال إنّها منذ واحد وخمسين عاماً ترتدي زيّاً جنائزياً.

وطيلة تلك السّنوات الإحدى والخمسين، ما عرفت مرضاً، ولا عرض لها حادثٌ.

ذلك ما يؤكّده حكماء الطبّ التقليديّ ببالو، ويوافقهم فيه أطباء المدن الذين التقوهم أثناء جولتهم في الجنوب: إذا لم تكن طيلة واحد وخمسين عاماً قد مرضت أو أصيبت بحادث، فإنّها مردّة ذلك تحديداً إلى أنّها تعيش مرتدية ثياب الحداد. إنّ الناس تخاف من المرض عظيم الخوف، لدرجة أنّ قلقهم ذاك يفاقم أدواءهم الخفيفة، ويجعل أمراضهم الخطيرة قاتلة. والحال أنّه يكفي ألا يخشى المرء منجل الحصاد المسمى موتاً، أن يستضيفه، بلا نيّات خفيّة، أن

يشاركه الفراش ويستقبله في أحلامه لكي يشفى من كلّ سوداوية، تُفرغ من الكآبة عظامه ودمه، حتّى أنّ الدم يصير حرّاً، يجول كيف شاء في العروق، دفاقاً لا يعترضه شيءٌ، يسري شهراً بعد شهر، سنة بعد سنة، عشر سنين، عشرين، خمسين، أو واحدة وخمسين، نصف قرن لا يطرق فيها المرض الباب. والحال أنّ المرء حين لا يصيبه مرضٌ، فبديهيّ أن يطول به العمر، يعيش حياةً طبيعيّة، ومن يعيش حياةً طبيعيّة فإنّه يظلّ بصحّة جيّدة.

وهل يعرفون تحديداً إلى أيّ حدّ صحّتها جيّدة؟ لقد سلخت من السنين تسعاً بعد المائة، وما تزال قادرة، ليس على رفو الأغطية، ورتق النعال، والطّبخ والغسيل لأبنائها وأحفادها، فحسب؛ وإنّما هي ما تزال أيضاً قادرة على أن تحصد القمح في موسم حصاده، وأن تدرّي البازلّاء والسّمسم في الهواء مع سكّان القرية. بل ادّعى الابن أنّها ما تزال، إلى اليوم، تستطيع أن تحمل سلال الكتفين من وزن مائة رطل، بل وحتّى مائتين، وإن توكّأت على عصاها فإنّها قد ترفع في الهواء تسعة أشخاص!

وعند تلك النّقطة خرج من الكواليس أربعة صناديد، حاملين كيسين من القنب متنفخين، فوضعوا كلّ كيس منهما في كفّة من كفّتي سلة الكتفين، ومن المحاولة الأولى، استطاعت ماو تشي رفع السّلة.

ثمّ وضعت السّلة أرضاً، فخرجت من الكيسين تسع صبايا مفعماتٍ بالحويّة.

تسع فليّنات، تسعة كائناتٍ شبيهة بالفراشات.

قيل إنّهن قد وُلدنَ في آنيّ واحد، وقد رقصن، وغنّين، ورفرفنَ
هنا وهناك، رفرقة الحشرات اللواتي شبّهناهنّ بها.

الكتاب الحادي عشر

زهور

الفصل الأول

كرة من قطن الحشو غير المبيّض، وكوكبة من البقع الحمراء

انتهى العرض. ما لم يكن بالحسبان هو أن ألا يعود رئيس الإقليم في ذلك المساء. ولا كان بالحسبان الزلزال الذي حدث حين انصرف أهل طيبة إلى النوم.

وكانوا قد أُؤوا في المرافق الملحقة بالضريح، وكما فعلوا أثناء جولتهم طيلة الستة أشهر الماضية خارج بالو، فقد بسطوا فرشهم محولين المكان إلى غرفة مشتركة، الرجال في جهة، والنساء في جهة. لكن في تلك الليلة المعلومّة، من الشهر الأخير، من سنة النمر، بعد أن للموا على عجل أزياء العرض، وقصدوا مهاجمهم للنوم، اكتشفوا أن لا الغطاء الذي تركوه مطوياً عند رأس السرير، ولا الوسادة، كانا حيث تركوهما. بُسط الأرض تمزقت ألف مزقة، والملابس أخرجت من الحقائق ورُميت شذراً مذكراً.

اختفت الأموال التي كسبوها من عروض ستة أشهر، لا وجود لها في المفارش، ولا في الوسائد، ولا في الصناديق.

لقد سُرقوا.

نهبهم النَّاس - تاقون ولم يتركوا لهم فلساً.

ألوف المتفرجين الذين أتوا يحضرون عرضهم، انصرفوا، متفرقين في كلِّ اتجاه. خمد ضجيج خطاهم الملتبس. وكان العالمُ في عزِّ الشتاء، لكن هنا لم يترك الرَّبيعُ الشَّتاءَ يُتمُّ فترته، وبدأت الأشجار تبرعم. المنحدرات المعشوشبة اخضرت، وفي الهواء الدافئ تطفو أخلاطُ عطورٍ مشعَّةٍ خفيفة. الجوّ شديد العذوبة. وتستطيع أن تقضي ليلتك حيث شئت: في كنف ظلَّة، أو في قعر وادٍ، أو تحت شجرة، أو خلف صخرةٍ تمنعُ دونك الرِّيح.

في رمش العين تفرَّق النَّاس، وما عاد يُرى لهم أثر. وكان بوسع سكَّان القرى والمدائر المحيطة أن يطلبوا تلك اللَّيلة يوانين اثنين مقابل فرش، وأربعةً مقابل غطاء. من درجات طريق كوتو، أمام الضريح الهادئ، كان صوتهم يرتفع بالصَّياح: «فرش على سبيل الإعارة (١)! يوانين! أغطية! خمسة يوان للسَّير!».

وليرفعوا عقائرهم بالصَّياح ما طاب لهم، إنَّ صراخَ أهل طيبة يغطِّي على أصواتهم. كأنَّها قطراتُ عاصفةٍ وليدةٍ فوقَ نسيمٍ يهبُّ. كانت الصَّيحات، وهذا ما ينبغي تأكيده، تتدفَّق من مرافق الضَّريح الملحقة، كأنَّها انفجار، وتختلط في صهارة حارقة تغمر الكون.

«ربِّ السَّماء! أين ذهبت نقودي؟

- ربِّ السَّماء! لحافي، وسادتي! لقد صارت مزقاً!

- ربِّ السَّماء! لقد سُرقت! لقد نُهبنا! ما العمل الآن؟».

وكان القردُ أوّل الواصلين إلى المكان، إذ كان يتحرّك بسرعة، ولم يكن ملزماً بحمل أيّ ثيابٍ أو ماعون. وصل إلى الصّريح، فتوجّه إلى بابٍ بإزاء التابوت الكريستال، فدفعه، وأنار المكان، فانكشفت له بدهةُ الكارثة. كان المرفق مكوّناً من نحو عشر غرف صغيرة مجمّعة في بضعة أجنحة، والمدخل موجوداً على مستوى الجناح الثالث، وهو يقيم في مقدّمة الجناح الثاني. وما كاد يجتاز العتبة حتّى وقع على الفتى الذي كان قد تركه يحرس المكان، وجدّه مدمى الوجه، مقيداً كأنّه رزمةٌ من لحم، وقد حُشر في فمه طرف بنطالٍ، وألقي به ككرةٍ في أحد الأركان. بقفزةٍ واحدة كان وحيدُ السّاق في الغرفة: الغطاء الذي كان قد طواه مربّعاً ووضعهُ أسفل الجدار كان مبقوراً، والملابس التي طواها وخبأها في غشاء وسادته صارت ملقاةً على الأرض، متناثرةً في كلّ مكانٍ على البلاط. وكان ماه الأصمّ، وكذا الأعور، والتّجار ذو السّاق المشلولة، والأخرس، والرّجل ذو الأصابع الستّ، كانوا جميعاً يشاركونه البساط نفسه. وهم أيضاً انتهت صناديقهم وبقجاتهم وفرشهم. قُرب المدخل كرةٌ من قطن الحشو غير المبيّض، أُخرجت من بعض الأغطية وألقي بها هناك. تَبانُ أحمر، هو المفضّل عند الأصمّ، رُمي على دعامة النّافذة. وإذا أدرك عِظَم الكارثة، فقد ألقى بعكّازه، وواصل السّير وثباً على ساقه الوحيدة، قاطعاً المكان بتلك القفزات التي كانت تمكّنه، على خشبة العرض، من أن يقطع بحراً من اللّهب. فراشه! لقد قُصّ الغطاء الذي يتّخذهُ لنومه، بالمقصّ من أركانه الأربعة. واختفت النّقود التي كان يخيّط عليها بعد أن يجعلها في حزمٍ من عشرة آلاف.

بسرعة فحصى عن أمر فرشته القطنية: هي أيضاً قد بُقِرت وصارت
تحمل حفرةً واسعةً تحملقُ في السماء.

هوى على ركبته مطلقاً صيحةً فظيعةً:

«نقودي! أين نقودي؟».

ثمّ اختلطت صيحاته بصيحاتٍ أخرى وتردّد صداها في
الجبال والأروقة. سريعاً انطلق إلى الصّراخ والنّحيب كلّ من
الشّلاء والنّجار ذي السّاق المشلولة، والأعمى، والرّجل ذي
الأصابع الستّ، والكسيح، وتونغهوا، وفلين، وهوايهوا، ويوهوا،
والطّباخين-تأمين، بالجملة ما يربو عن مائةٍ من أهل طيّبة. بعضهم
استند إلى هيكل الباب وجعل يضرب الأرض بقدمه، وبعضهم
جلس ضامّاً إلى قلبه صرّةً وأخذ يقرّع نفسه ويُسبّعها ضرباً. من
دسّ نقوده في غطاءٍ، فقد مُزّق الغطاء؛ ومن أخفاها في وسادةٍ، فإنّ
الوسادة ما عادت تحوي غير القشّ والريح؛ ومن خبأها في فرشة
سرير، فإنّ الفرشة تمزّقت وتناثرت أحشاؤها أرضاً؛ ومن أودعها
صندوقاً، فإنّ الصندوق كُسِر قفله، أو هُشِمَ تهشيماً. وكانت هوايهوا
قد اشترت حقيبةً من جلدٍ فاخر، شبيهةٍ تلك الحقائب التي يتّخذها
ناس المدينة، كي تخبئ فيها نقودها ونقود أخواتها، وأشياءهنّ
الثمينة، والنتيجة: حتّى الحقيبة اختفت، لقد سرقوها.

بعض المسنّين كانوا يعمدون إلى ثرواتهم فيضعونها في سطل
حديد، وحيثما عرضوا عروضهم، كانوا يحفرون حفرةً، فيضعون
فيها السّطل، ثمّ يغطّونها بالفرشة والوسادة، ولم يحدث أن علم

أحدٌ من قبل بأمر سطلهم وحفرتهم. وها ذي الأوعية اليوم، ها
ذي السطول الآن خاويةٌ قد ألقى بها بجانب تابوت لينين.

لنقلها بلا مواربة: لقد كان أهل طيبة ضحايا لنهبٍ من أرعب
ما يكون النهب.

سواء في الصالة الرئيسة، أو بجانب التابوت، أو في المرافق
الملحقة، ترى العميان، والعرجان، والصمّ، والبكم، قد انهاروا
بين جالسٍ ومستلقٍ. رجالاً ونساءً، شيباً وشباناً، جميعاً يكون
مطلقين شتائم تفرقع كضربات سكّين على ساق بامبو. يطلقون
صيحاحٍ حادة، صحيانٍ جشّاء، موحّدة، كأنها بوحدتهم يرومون
دكّ الصّريح.

هرع إليهم النَّاس -تأمّن الذين بقوا للنوم في الأرجاء. فلما
رأوهم ينتحبون ويتفجّعون من غير أن يكلّفوا أنفسهم مسح
دموعهم، فقد حاولوا أن يواسوهم، فجعلوا يقولون:

«لا تبكوا. النّقود تستطيعون كسبها متى شئتم.

يقولون: - ما دام الجبل، فلا قلق من ناحية الخطب.

يقولون: - النَّاس يأكلهم الحسدُ لأنّ معاقين يكسبون النّقود
بهذا القدر».

وإذ يطلقون تلك العبارات اللّطيفة، ولما كانوا يترنّحون من
النّعاس، فإنّهم يعودون إلى الموضع الذي اصطفوه لقضاء ليلتهم.

في الضّوء الأبيض اتّخذَ التّابوت بروقاً كلمعان حجر الزّفير،

حتّى أن الناظر إليه ليخاله لم يُصنع من كريستال، وإنّما من يشم بارد وناعم. فلمّا بكوا كفايتهم، وصاحوا وُسّع جهدهم، كفّوا عن البكاء والصّياح في لحظة ما. لم يعد ثمة أحدٌ في المرافق الجانبية، الجميع اجتمعوا في الصّالة الرّئيسة. كانوا قد جلسوا في شكل عناقيد، لكنّهم كانوا أشبه شيءٍ بكتلة سوداء كأنّها جناحُ غرابٍ ولّى وجهه شطرَ ما و تشي.

وجّهها قد اختفى تحت طبقة سميكة من غبار، رماذٌ يبرز من خلفه، مبهمًا، اللّون الأرجواني لقناع موت. بلا مبالاة، كانت تقفُ عند رأس التّابوت، وقد أسندت إليه عكّازها، ووضعت فوقه رزمة القطن التي تحوي أكفانها الحرير السّوداء. كانت الأكفان تبدو كأنّها قد وجدت مكانها المناسب تمامًا، كأنّها الإبرة والخيطُ في علبة خياطٍ، أو الشّمعة في شمعدان: وكان الكريستال يلمع في النّور ببريق أزرق يوحى بزرقة البحر الصّافية، والحرير الكامدُ يلمع ببروق كالزّجاج الأسود. كلاهما يلمع ببريق لا مثيل له؛ كلاهما يفيض بصمّةٍ مهيب. حين وضّبت أغراضها، وقبل أن تسلك طريق الصّريح، كانت قد قامت بجولةٍ أخيرةٍ خلف المنصّة، كي تلقي بنظرةٍ أخيرةٍ على سفح الجبل. فلمّا أيقنت أنّ رئيس الإقليم لن يأتي وسط اللّيل، فقد تنهّدت في خاطرها تنهيدةً حرّى، ثمّ انطلقت تعرج.

وكان المساء قد تقدّم في سيره، حتّى أنّ القمر بدأ يهوي، والنّجوم غارت. وكان الصّريح يرتفع في القمّة، كأنّها ترفعه الجبالُ في الهواء، والريّح تُداعب إفريزه، وهي تسرّ إليه بلواعجها. ومن داخل المبنى

تناهت إليها صيحاتُ، كأنّها صهيل خيول. هرعت، متأرجحةً في مشيها، إلى الجناح الذي كانت تتشاركه وحفيداتها، فوقعت على يوهوا، جالسةً أرضاً، ضامّةً إلى صدرها غطاءها، فقالت البنت لجذتها منتحبةً: «وأنا التي بخلت على نفسي حتّى بقطعة ملابس واحدة! لم أشتري ولا قطعة!» وكذلك كانت فلين جالسةً كالمشلولة، تضمّ إليها وسادتها، تتفجّع: «كان ما يزال هنا ساعةَ العشاء! لقد داعبته قبل العرض!» أمّا تونغهوا وهوايهوا، فظلتا واقفتين، كلّ واحدة جنب فرشتها؛ لكن بينما هذه تحدّق صامتةً في السّواد أمامها، كأنّها كانت تتوقّع منذ الأزل هذه الغارة، فإنّ تلك كانت تبكي، فإن لم تبك، فإنّها تضرب الأرض بقدمها، في غيظٍ، وتصيح: «حسناً! رائع! هذه المرّة لا أحد يستطيع أن يلومني على تذكيري، وأن اشتريت قميصاً بقيمة مساحة مو من القمح!».

وكان يكفي ماو تشي أن تلقى عليهم بنظرة واحدة، كي تدرك سبب التفجّع. ثمّ توجّهت، وهي ما تزال تعرج، إلى الغرفة الثانية. ثمّ الثالثة.

ثمّ الرابعة.

فلما بلغت الغرفة الثامنة، دارت على عقبيها قائلةً إنّها ينبغي أن تبحث عن النّاس -تامّين، عن مسؤولٍ تتحدّث إليه. لكن حين دخلت، ركضاً، إلى الجناح الكبير خلف التّابوت، الجناح الذي كان يقيم فيه المسؤولون، اكتشفت أنّ كلّ شيءٍ اختفى، لا أثر لملابسهم أو متاعهم أو فرشهم.

لا أثر لأدنى شيء.

تجمّد قلبُها، كأنّها تهشّمت على صدرها رحي جليديّة. قصدت السّاحة التي كانوا قد قدّموا فيها عرضهم، وهناك اكتشفت أنّ حتّى الشّاحنتين اللّتين كانوا قد سافروا عليهما طيلة ستّة أشهر قد تبخّرتا. لم يبقَ في موضعهما غير آثار عجلاّت، وعشب أرجوانيّ.

واقفةً عند مدخل الضّريح، وضعت يدها على باب الخشب البارد والنّاعم، وانزلت متهاويةً ببطء.

لم تبك، ولم تصرخ. وهناك ظلّت، على البلاط، مذهولةً، مدّةً طويلة. ولم تقف إلّا حين بدأ يحتكّ بها النّاس - تامّون الذين أتوا يستطلعون الأخبار، ثمّ انصرفوا. مستعيّنةً بدعامة الباب، أتت تقفُ بجانب التّابوت في الصّالة الكبرى. ثمّ، من مكانها ذاك، طلبت من الطّيّين أن يخرجوا من المرفق، واستدعت بالفتى الذي كان يفترض فيه أن يحرس المتاع.

وكان بالإمكان اعتباره ناس - تامّاً قياساً إلى أولئك الذين يعرضون فوق الخشبة. فهو ليس بالأعمى، ولا بالأصمّ، ولا بالأعرج، ولا عيب فيه غير أنّ يده اليسرى كان متلاصقة الأصابع، جميع أصابعها متلاحمة كأنّها قدم دجاجة. كذلك كان قد وُلد، وكذلك ما يزال، وإن مضت على ولادته بضع عشرات من السّنوات. ذهب يبحّثو أمام ماو تشي، وقد تلبّست وجهه هيئَةُ الموتى، كأنّه المسؤول الوحيد عن الكارثة. وقد أشبع ضرباً حتّى ما عاد يُدرك من ملامحه غير نصف وجهه، أمّا النّصف الآخر فقد كان منتفخاً متورّماً، تملؤه

الانتفاخات التي اعوجّ لها فمه وأنفه. أولئك الذين ربطوه، قد أحكموا زمّ وثاقه حتى احمرّت يدها وتورّمتا، وحتى صارت يُسراه، تلك اليد العليلة الضئيلة، تضاهي اليد اليمنى السليمة كبراً. نظر إلى ماو تشي، وألقى بنظرة على أهل طيّبة، ثم خفض رأسه منسحقاً تحت جسامه خطئه. دموعه تسيل ضاحجة كصليل حصي، وتنهمر على بلاط الرّخام.

سألته ماو تشي: «من كانوا؟»

- تَلَّة (٣) من الناس.

- لكن من هم تحديدًا؟

- لا شيء غير أناسٍ من السدّة. ناس-تاقون ممّن رافقونا في جولتنا. فوضى عارمة، كانوا نحو عشرة، لا بل عشرين.

- لمّ لمّ تنادي علينا؟

- لقد قيّدوني ما إن وصلوا. أحدهم كان يعسّس (٥) بالباب، وآخرون تكلّفوا بنبش الأغطية أو كسر أقفال الصّناديق. كانوا يعرفون حقّ المعرفة أين خبأ كلّ واحدٍ نقوده. حتّى أنّ النّاظر إليهم وهم يستولون على النقود كان ليحسبهم يأخذون من مالهم!

- لكن لمّ لمّ تنادي؟

- كانوا جميعهم ناس-تاقين. قالوا لي إن صرخت، ذبحناك. وقد كمّموا فمي.

- وماذا قالوا؟

- لا شيء. فقط إنّ العالم قد انقلب رأساً على عقب، هذا زمن العميان والعرجان.

- وماذا أيضاً؟».

سكت برهةً يفكّر: «قالوا إنّ بوسعنا أن ننتظر ما طاب لنا، بوسعنا أن ننتظر حتّى الموت، وأبداً لن يأتي رئيس الإقليم».

ثمّ سكت كلّ سؤال، وكلّ جواب. عمّ الصّمت المكان حتّى ليتمكن الظنُّ أنّ القاعة حول التابوت فارغة. استدارت الأنظار صوب ماو تشي من غير أن تنبس الأفواه بكلمة. وهنا، ذروة الدّهول: تلاشى الأسى الذي كان ينطبع على وجهها، واختفت من بشرتها تلك الصّبغة الأرجوانية الدّاكنة الترابية، شأنَ الجليد في الشّتاء حين يعود ماءً، كان يفيض منها انطباع بالدّفء ونفحة حياة. مدفوعةً بزخم اللّحظة، كان يبدو عليها أنّها قد أدركت شيئاً ما، قد فهمت حقيقةً بديهيّة، وأنها تتهيأ لأن تفصح عنها.

وقد قالتها.

قالت: «حسناً. أنتم الآن تعرفون كيف هم النّاس-تأمّون. هل لي أن أطرح عليكم سؤالاً؟ هل أنتم الآن موافقون على فكّ الضّم؟ هل تريدون أن تستعيدوا حياتكم السّابقة في طيّبة؟» وهذه المرّة لم يكن يبدو عليها أنّها تسألهم جواباً، فقد استدارت، وفتحت الرّزمة الموضوعّة على الصّريح. وبأسنانها مزّقت قطعة من البطانة النقيّة،

وبضربة هنا، وضربة هناك، حوّلتها إلى مربع، على شاكلة تلك الأنسجة التي تزيّن ورق الطّبخ بالبخار، كأنّها قطعة ورق بيضاء كبيرة. بسطت القطعة على الثّابوت، وذهبت تلتمس مقصاً في الغرفة المجاورة، وأمام الجميع غرزت الآلة في إبهام يدها اليسرى. تقاطر الدّم على الكريستال كعملات نحاسيّة، ضمّخت به سبّابتها اليمنى، ثمّ طبعت بها على الثّوب بصمة حمراء كزهرة برقوق. ثمّ أخيراً، استدارت نحوهم شبه دائخة، وقالت:

«الآن وقد علمتم حقيقة الناس-تامين، فليطبع الموافقون منكم على فكّ الضّم، بصمتهم بالدّم على هذا الثوب. أما البقيّة، فما لكم إلّا أن تجلسوا هنا في انتظار أن تسقط على رؤوسكم الجرائم السوداء (٧)، والمآسي الحمراء (٩)».

لم تكن تتحدّث بصوت مرتفع، لكنّ نبرة صوتها كان فيها الكثير من القوّة. ولما قالت قولها، جعلت تحدّق فيهم. جميعاً تتلبّسُهم بعض حيرة، وبعض تردّد، عاجزين، تحت نور المصابيح، عن أن يتفوّهوا بأدنى كلمة أو سؤال. هم ما يزالون لم يستفيقوا من هول النّهب الذي تعرّضوا له، وهي تحدّثهم عن فكّ الضّم. كانوا يشعرون بأنفسهم محشورين، لا يستطيعون العودة إلى الوراء، كمثّل الخيول التي لا تستطيع أن تدور على أعقابها لضيق الزّقاق الذي تسلكه. فظلّوا هناك، صامتين يترقبون، والوقت يسيل بطيئاً كنسغ الشّجر. من جهة، هم ساخطون لأنّهم نُهبوا، ولذكرى العقاب الأسود (١١) والأحمر (١٣)، شحّب كبارهم سنّاً. كانوا بالأحرى قد شرعوا في

تقلب أمر آخر، كانوا يفكرون فيما إذا كان يجدر بهم القبول أم لا؟ هم الآن وحيدون في الضريح الذي اختفى حتى موظفوه. ربما ذهبوا مع أصحاب السدة، وربما يتقلبون الآن في أسرّتهم. كل شيء هنا، الجدران، الأرضية، كل ما تحت هذا السقف العالي ليس سوى رخام متلألئ حول تمثال لينين وحول التابوت الكريستالي. وهم قد جاؤوا من طيبة، عمياناً، أو عرجاناً، أو صُمّاً أو بكماً، يعانون شتى أنواع العجز وأشكاله. بعضهم جلوس، وبعضهم واقفون، عند هيكل الباب، أو متكئين على جدارٍ باردٍ كالجليد. في الغرفة يسود صمتٌ مطلق. ولم تزل خطورة المشهد تزداد إلا وضوحاً: ليس الأمر بالهين. أن يضع الواحد منهم بصمته على الثوب أو لا يضعها، تلك مسألة حياةٍ أو موت.

العيون ترأب بعضها بعضاً، الجميع يترقب.

سأل القرد: «هل سيكون بمقدورنا مواصلة تقديم العروض والقيام بجولات، إن نحن فككنا الضم؟».

لم تجبه ماو تشي، لكنّها رمته بنظرة صاعقة.

ثم نهض الشاب الذي كان مسؤولاً عن رعاية أمتعة أهل طيبة. قال «تباً! حتى لو اضطررت إلى الموت، لن أحطّ من قدر نفسي! في العالم، أقضي وقتي خائفاً من الناس. أفضل الموت على العيش في رعب».

وكان المبادر إلى غمس إصبعه في دم ماو تشي، وترك بصمته على الثوب الأبيض.

ثم أتى الدور على الشتاء، مطرزة أوراق الشجر، فسحبت نفسها وجرجرتها. قالت: «الهلاك أهون من القيام بجولة أخرى. سأعطي أي شيء مقابل أن أستعيد سابق عيشي». ثم إنها زحفت حتى التابوت، فلما بلغته انتزعت دبوساً من شعرها، وشكت سبابة يدها اليمنى وطبعت بدمها على النسيج.

وبعد أن حذا حذوها عددٌ من القرويين المسنين، غدت قطعة الحرير الأبيض مرصعة بالبقع الحمراء. ثم لم يتحرك أحد بعد ذلك، لم يوقع أحد بإصبعه. جثم على الغرفة هواءٌ ثقیل. بدلاً من أن تدلهم ماو تشي على ما ينبغي القيام به إثر تعرضهم للسرقة، فإنها طلبت منهم اتخاذ قرار؛ رداً على الكارثة اقترحت فكّ الضمّ. بدا أنها لم تختار الوقت المناسب. كما لو أنّ شخصاً سقط في بئر، فغنمت فرصة كونه في القاع، لتسأله، هل يفضل هذا أم ذاك. ولم يتحرك أي من الشباب. لم يزح أحدٌ منهم نظرته عن القرد، حتى الفراشات الأربع، حفيدات ماو تشي. واقفات خلف جدتهنّ، لم تقرّ ولا واحدةٌ منهنّ التحرك. وشأن أخواتها، كانت هوايهوا تحديق في ذي الساق الواحدة، لكنّ تحديقها فيه كان مختلفاً، تحديقاً يطوي في طياته شيئاً من وقاحة، كما لو أنها بنظرتها تلك تمنعه من التقدّم: إن وضع بصمته على الثوب، فإنها، والجميع، سيضطرون إلى الحذو حذوه، وإلا فلن تندّ عن أيّ منهم أدنى حركة.

لقد ألفى نفسه قائداً للمتمردين.

تركزت عليه نظرة ماو تشي. أشاح بوجهه.

قال «إن فككنا الضمّ لن يعود لدينا بعدها تشكيلٌ (١٥). كيف لنا أن نقوم بجولة؟ والحال أننا مضطرون إلى أن نعيد الأمور على بدء، ما داموا قد سرقوا أموالنا». وقد عبّر القردُ عن رأيه بصوت عالٍ، فكان رأيه يحمل ملامح التفسير، لكنّه يحتمل أيضاً معنى الوعيد. وقد تكلم، ثمّ قصد غرفته متأرجحاً في مشيه.

وبعد أن ألقت هوايهوا نظرةً على جدتها، تبعت القردَ.

ثمّ انصرف الشباب جميعاً إلى مهاجعهم، واحداً في إثر واحد. واحداً تلو آخر، في خطوات حثيثة عجلى، كما يحدث بالعادة عقب انفضاض اجتماع ليلي في القرية.

كم كان عددهم، نقصد أولئك الذين بقوا إلى جانب ماو تشي؟ عشرة، عشرون، معظمهم في الأربعين أو الخمسين من عمرهم. دون أن ينبسوا بكلمة، تبادلوا النظر، ثمّ التفتوا إليها. قالت بصوت خالٍ من أيّ نبرة: «هيا إلى الفراش. غداً، مع الفجر نشدّ الرّحال إلى طيبة». وإثر كلماتها تلك، ذهبت تجر نفسها ببطء على عكازها، فدخلت غرفتها. في حركاتها أقصى درجات اللامبالاة، وخطواتها عائمةً، وربما كان يكفيها أن تسرع الخطى لتنهار.

الفصل الثالث

تعليقات: الجريمة السوداء، الشقاء الأحمر، العقاب الأسود والأحمر

(١) - إعاره: تعني الإعاره هنا، إيجاراً. الناس في بالو غالباً ما يقولون إنهم يقرضون بدلاً من القول إنهم يؤجرون، والعلاقة بين المصطلحين وثيقة.

(٣) - تَلَّة: اسم مذكر. كانت الكلمة تعني في البداية، كومة من التراب. ثم صارت تشير إلى الكثرة من الناس.

(٥) - يعسُس: فعل، والفاعل منه عَسَّاسٌ. أن تعسُس معناه أن تقوم بالحراسة، أن تراقب.

(٧) - الجرائم السوداء، ٩- المآسي الحمراء، ١١- العقاب الأسود، ١٣- والعقاب الأحمر: الجريمة أو الآلام السوداء، الشقاء الأحمر أو العقاب الأحمر، هي مصطلحات مترادفة. وهذه التعبيرات لا يفهمها إلا سكان طيبة، ولا يفهمها منهم تحديداً إلا من جاوز الأربعين.

ليس «العقاب الأسود والعقاب الأحمر» عبارات كلاسيكية، لكن حملتها ودلالاتها عميقة جداً. بدأ كل شيء منذ أكثر من عشرين عاماً، تحديداً عام ١٩٦٦، عام الحصان، أيام كانت العاصفة الثورية تجتاح العالم، من بحر الشمال إلى سماوات الجنوب، غامرة الجبال، وما وراء الجبال، والمدن والأرياف. لم يكن الكون حينئذٍ يهتم إلا بتدمير القديم في سبيل إقامة الجديد، وتقريع الناس، والطوف بهم في الشوارع، وحثهم على انتزاع صور الرب واهب طول العمر،

وصور إله البيت، وإله الحرب، وطاردي الشياطين، وبوذا والبوديساتفا، لكي يحلّوا محلّها صورة الرئيس ماو، فيعلّقونها على الحائط أو على أجسادهم. وبعد ذلك بعام، شرع في التهجّم على الأفراد. وتلبيةً لاحتياجات الثورة التي كان لا بد من إطعامها كما يُطعمُ جائع، أقامت البلدية دوريات، وألزمته جميعاً، بأن تأتي، بالدور، كلّ أسبوعين، بمالك أراضٍ، أو فلاح غنيّ، أو مناهض للثورة، أو نذل لقيط، أو يميني. فإن ظفروا به أخرجوه، فانهألوا عليه بالتقريع، ثمّ ألبسوه قُبعةً من ورقٍ، وأرسلوه لكنس الشوارع، وكلّ ذلك في سبيل تجميل المناخ والمشهد السياسي للمجتمع. لا بل أكثر من ذلك، إمعاناً في التأكّد من أنّ النّاس بالفعل في حال طيّبة، دُعيت الدّوريات، في أيام الأعياد، إلى أن تتّظمّ اجتماعات للفضح والوشاية، شيئاً أشبه ما يكون إلى حفلات الأوبرا التي تُقام مطلع السنة الجديدة. ولفرط تفاني الدّوريات في تحقيق المطلوب، سرعان ما تبَيّنت أنه لم يعد ثمة ما يكفي من ملاك الأراضي والفلاحين الأغنياء لضمان سير المهمّة المتناوب عليها. وإذّاك تذكّرت الكومونة أنّ سنة الحصان قد مرت، وخلفتها سنة الديك، ثلاث سنوات إذن مرّت، من دون أن ينتبه القائمون على الشّغل أنّ على أراضيهم، في الجهة السفلى من جبال بالو، قرية تسمى طيّبة. وأنّه طيلة تلك السنوات الثلاث المنصرمة من عمر الأتون الثوريّ، لم يُقرّع أيّ مالك أرض أو فلاح غنيّ من القرية المذكورة. فكان أن راسلوا ماو تشي يعلمونها أنّها مطالبةٌ أن ترسلّ إلى البلدية، مطلع الشهر التالي، مالك أرضٍ أو فلاحاً غنياً، خدمةً للثورة.

أجابت بأنّه لا يوجد مالك أرض في القرية.

الثورة: «فلاح غنيّ؟».

ماو تشي: «ولا فلاح غنيّ».

الثورة: «فلاح متوسط من الطبقة العليا».

ماو تشي: «ليس بيننا فلاح متوسط من الطبقة العليا، ولا فلاح متوسط من الطبقة الدّنيا، ولا فلاح فقير، ولا عامل زراعي، جميع سكّان القرية هم عناصر ثورية».

الثورة: «بؤرة العفن، كيف تجربئين على أن تلقي بهذه الترهات في وجه الثورة!».

ماو تشي: «لم تلتحق طيبة بنفوذ الكومونة والإقليم إلا منذ نهاية عهد التعاونيات. لذلك نحن لم نصنّف أبداً، ولا أحد في القرية يعرف إلى أي فئة ينتمي».

أطلقت الثورة صيحات طائر كاسر، ثم من هول الصدمة ففرت فاهها، وجحظت بعينيها. ولما أدركت في نهاية المطاف أنّ هذه القرية قد انسابت من خلال شقوق التاريخ، قررت أنّ من الضروري والمُلح أن ترجع إلى تلك الصفحات التي تعدّ الأهمّ بين صفحات حولياتها، فتعيد تشكيلها بحيث تمنحها صورةً جديدة. تقرّر إيفاد بعثة عمل وفرقة مسح، تتكفل بفرز الأهالي، فتميّز فيهم ملاك الأراضي والفلاحين الأغنياء، عن الفلاحين الفقراء والفقراء المتوسطين، وكلّ ذلك ينبغي أن يتمّ قبل حلول منتصف الخريف.

ماو تشي: «لن يفيد ذلك في شيء، لقد تقدّمت طيبة بطلب فكّ ضمّها».

الثورة: «نحن على علم بأنك كنت تعرفين سكرتير لجنة الإقليم وأنكما خدمتما معاً في يانان. ولكن يانغ اختار السبيل المناهض للثورة، وشنق نفسه هرباً من العقاب. أولى لك أن تبحثي عن خائن آخر يجيز طلبك!».

ماو تشي: «فإن وجهته إليك؟».

الثورة: «ربّ الأرباب! أ الموت ما تطلبين؟».

ماو تشي: «لم تشهد طيبة قطّ مالك أرض أو فلاحاً غنياً. فإن كنت ترغب في تصنيفنا في فئات، فما عليك إلا أن تضعنا جميعاً في خانة الفلاحين الفقراء أو الفقراء المتوسطين».

الثورة: «إن لم يكن بينكم مالك أرض ولا فلاح غنيّ، فأنت من سيذهب كل يوم إلى البلدية ليخضع للتقريع، ثمّ تكنسين الشوارع وعلى رأسك قبعة حمار».

اختنقت ماو تشي، وانحبس فيها الكلامُ.

ولما نمت براعم الذرة حتّى طاولت عيدانَ الطعام، وصار أريج الحبوب والنباتات اللازوردية يركض في أنحاء الجبل كلّها، وصل الفريق إلى طيّبة. فكان أول ما حرصت عليه ماو تشي، هو أن تنظّم اجتماعاً، فطلبت من كل أسرة أن تقرّ بنفسها بما كان لديها من أملاك قبل عام الثور، عام التحرير: مساحة الأراضي التي تحوزها، وعدد الرّؤوس لديها من الماشية والخيول، ومقادير الدخن والقمح والذرة وفول الصويا التي تحصدها كل عام. وهل يأكل أفرادها في الكثير من الأحيان، قشر الدخن، ونخالة القمح، والدقيق الأسود والخضروات البرية؟ وفي أزمّة المجاعة هل كانوا يتسوّلون، أم أنّهم أجروا أنفسهم خدماً زراعيين أو موسمين؟ وهل اضطروا إلى أن يدلّكوا الظهور، ويفركوا الكلى، ويفسّلوا الأطباق، ويتغذوا على قشر الدخن والخضروات في منازل الإقطاعيين أو الطغاة؟ هل وخز الرئيس أيديهم أو وجوههم بمنغاز الخ. وقد نصحت ماو تشي القرويين بقول الحقيقة، إذا كانت أسرهم تمتلك قدراً من الأرض، فبذلك القدر ينبغي أن يصرّحوا. لا أقلّ ولا أكثر. فإن صرّحوا بأكثر: فسوف يعتبرون ملاك أراضي. وإن صرّحوا بأقلّ، فسوف يصنّفون في خانة الفلاحين الفقراء، والشّيء بالشّيء يتحدّد، ستلصق بالآخرين تهمة امتلاك الأراضي. «كلّنا هنا عميان أو عرجان، فكيف نقبل على أنفسنا أن يكون بيننا أغنياء وفقراء؟ ضميرك لن يتركك ترتاح» أقام أعضاء الفرقة طاولة كبيرة في مركز القرية، وانطلقوا يقيّدون في سجلّاتهم الأملاك والأراضي التي يصرّح المزارعون بأنّهم كانوا يمتلكونها قبل التحرير. أخذ ممثّلو الأسر يمرّون من أمام الطاولة، واحداً واحداً، لكي يفصحوا عن طريقة عيشهم وما كانوا يمتلكونه قبل عشرين عاماً. يتكلّم الواحد منهم، فتسارع اللّجنة إلى كتابة ما يقول. ولما تمّ لهم التقييد، ذهل الموظّفون إذ انتبهوا إلى أنّ جميع الأسر كانت، قبل سنة ١٩٤٩، تملك أراضي تقدّر مساحاتها بعشرات مو، وكانت تغدق عليهم من الغلة بأكثر ممّا يقدرّون على استهلاكه. من لم يكن منهم يملك ثوراً، فإنّه يأتي بالمحراث أو المجرفة أو العربة ذات عجلات الحديد.

يسألون أعمى: «هل كان لدى أسرتك ما يكفي من طعام؟».

الأعمى: لم نكن قادرين على إنهائه!».

سؤال: «وبمناسبة العام الجديد، أكنتم تأكلون خبز الطحين الأبيض، أم نصف وعاء من قشر الحبوب؟».

الأعمى: «تلك الأطعمة كنّا نأكلها طوال الوقت! لم سنختصّ بها إذن يوماً مميزاً؟».

سؤال: «كيف تزرع الأرض ما دمت أعمى؟»

الأعمى: «أصنع أيضاً السّلال، فأساعد من الناس من يحتاج سلة، لذلك تراهم في مواسم الحرث أو الزرع يحرثون أو يزرعون بدلاً منّي...».

ويسألون أعرج: «كم مساحة الأرض التي كانت تمتلكها عائلتك؟

- نحو عشرة مو.

- وكيف كنت تتدبّر أمورك، مع رجلك المشلول؟

- كان لي ثور! يستعيره منّي الآخرون، وبالمقابل يساعدونني.

- هل كنت تعيش حياةً طيّبة؟

- خير من حياتي اليوم.

- وكيف ذلك؟

- كان عندي مؤن من الحبوب والخضروات، ما لا سبيل عندي لاستهلاكه».

ثمّ سألوا بصوت عالٍ رجلاً أصمّ: «لم يكن لديكم عامل زراعيّ، رغم كلّ ما كنتم تملكون من أرض؟»

الأصمّ: «لا.

- فكيف كنت تتدبّرون أموركم إذن؟

الأصمّ: لم يكن عندنا ثمر، لكنّنا كنّا نملك عربة. نعيدها للجيران، وبالمقابل يساعدوننا».

وفي نهاية المطاف، كان من المستحيل الفصل بين ملاك الأراضي أو الفلاحين الأغنياء أو الفقراء: كان لدى الجميع من أرض ما يفوق طاقته على الزراعة، ومن الطعام ما يفوق حاجته إليه، الجميع طلب المساعدة من الجميع، والجميع مد يد العون للجميع. العُرج يتوسلون بأرجل المكفوفين، والعمي بعيون العُرج. والصم بأذان البكم، والبكم بشفاة الصم. كان القرويون عائلة كبيرة، يعيشون في رغد وسعادة، بسيطين وصادقين، لا يعرفون مشاحنات أو مشاجرات. وفي الختام تلقى الجميع دفتر ملاحظات أسود صغيراً في حجم كف اليد، على الغلاف اسم صاحبه، وفي الدّاخل صفحتان: أولى الصّفحتين تحمل قبساً ممّا قاله الرئيس ماو، وفي الثانية توصيات تحثُ على مراعاة القانون والعمل في سبيل خدمة الشعب. ثم أنهت البعثة مهمّتها، غير أنها قبل أن تنصرف، وجّهت أمراً إلى القرية بأكملها، من المنزل الأول إلى الأخير، لم تستثن من المنازل منزلاً، ولا الأفراد فرداً، وخلاصة الأمر أن على الجميع، عُرجاً، أو صُمّاً، أو عُميّاً أو خُرساً، أن يرسلوا كل أسبوعين شخصاً ما إلى مقر البلدية مع كتيّبه الأسود الصّغير. ولا يُخشى على المُرسَل شيء. إنّما ينتظره أمرٌ هيّن: توضع على رأسه قبعة، ويُطافُ به في الشّوارع، ثمّ يتعرّض للتقريع على الملأ أثناء الاجتماعات.

يقال للواحد منهم: «أنت سليل عائلة من ملاك الأراضي».

جواب: «لا».

مكتبة

t.me/soramnqraa

سؤال: «فالفلاحين الأغنياء إذن؟».

جواب: «ولا هذا».

فيُقال له: «فلماذا تحمل كتيّباً أسود إذن؟».

ويبدأ الصّفع، والركل في الكلى، صفع وركل مبرّحين حتّى أنّ المصفوع المركول يسقط على ركبتيه، ويبكي أمام مئات، بل آلاف الناس.

سؤال: «ماذا سرقت؟».

جواب: «لم أسرق شيئاً! لا لصوص في طيّبة».

سؤال: «حتى حين لم تجد ما تأكله، لم تسرق الذرة أو البطاطا الحلوة؟»

جواب: «عندنا دوماً ما يكفي حاجتنا من الطعام ويزيد، هذا إن استثنينا فترة قصيرة، من بضع سنوات، أيامَ هجم علينا النَّاسُ-تأمون من المنطقة، ونهبونا. للنَّاس مؤنٌ تكفيهم عشر سنوات على الأقل».

وبان، بان، بان... ينهال وابل الضربات مجدداً. يُقال: «إنه مشلول، وإن؟ الأوغاد يظلون أوغاداً، فكر في كل تلك المؤن التي أخفتها عائلته! وعندما أراد الناس استعادة ما يخصهم، يقول إنَّ الناس نهبوهم» وهذه المرة، اشتدَّ الضرب وازداد قسوةً. انهالت القبضاتُ على أنفه، على فمه، على عينيه، والعصيّ على رأسه وساقيه. نزف أنفه، وكُسرت أسنانه، واسودَّت عيناه من الكدمات. من شدَّة الضرب على السَّاقين، كان السَّليْمُ يصير أعرج، والأعرجُ معدوم السَّاقين. وبعد أسبوعين يعود المنحوسُ إلى القرية ليعالج جروحه، ويسلم المشعل إلى منحوسٍ غيره، لكي يذهب حاملاً كتيبه الأسود، ويدوق نصيبه من الشَّقاء الأسود والعقوبة السوداء. وإذ يلتقي العائدُ إلى القرية بماو تشي، فإنَّه يرميها بنظرةٍ شذراء. فإن صادف خنوصها ركله في غيظ، وقصف دواجنها بالحجارة، وانتزع القراع (١) والفاصوليا النَّابتة خلف بيتها، وألقى بها أرضاً، ثم داسها حتَّى يصيرها عصيدةً لا تصلح إلا لإطعام الخنازير والخراف.

ثم في أحد الأيام، عندما استيقظت في الصباح الباكر، وجدت خنزيرها ميتاً، مسمماً في حظيرة الخنازير. وكذلك كانت متناثرة في الفناء جثث الدجاجات التي شربت من حوضه. مذهولة دفعت الباب، فألفت نفسها تواجه رجال القرية ونساءها. جميعهم هناك، من ذهبوا ليأخذوا نصيبهم من التَّقرع في الكومونة، وكنسوا الشوارع، ومن ما يزالون ينتظرون دورهم؛ جميعهم هناك، حاملين في أيديهم كتيباتهم السوداء. في البداية لم تعدوا المواجهة نظرات باردة، ثم فجأةً بصق أحدهم في وجهها ورمأها بكتيبه: «أنت من نصحنأ بأن نقول الحقيقة للسَّدة. وقد قلناها، قلنا الحقيقة، وكلنا ملاك أراضٍ وفلاحون أغنياء. على الجميع أن يذهبوا إلى هناك، فيُطاف بهم في الشوارع ويضربوا». قال: «هيا، إنَّه دورك أنت! بالأمس قُتل لين الأعمى. سألوهُ عما إذا كان مالكا أو غنياً،

فأجاب بأنه لا هذا ولا ذاك. فهووا على أم رأسه بهراوة. هلك على المنصة، قبل أن يجد الوقت للتعبير عن غضبه.»

قصدت من فورها منزل الأعمى عند مدخل القرية. بالفعل كان الرجل ميتاً. كان مسجىً على دقة باب، وحوله تحلقت عائلته تبكي محاولةً بعثه. لم يكن ثمة ما يُقال بعد ذلك.

عادت إلى المنزل، لمت الكتيبات السوداء المتناثرة على الأرض أمام بابها، وتناولت عكازها، ثم شددت الرحال إلى كومونة السّرو. وكان الظلام قد صار حالكاً حين وصلت أمام أولئك الذين وزعوا الكتيبات. وما إن ألقت نفسها أمامهم حتى جثت على ركبتيها: «أنى لطيفة ألا يسكنها غير ملاك أراضٍ؟ قرية بأكملها من ملاك الأراضي! هل رأيتُم شيئاً مثل هذا من قبل؟».

الثورة: كذلك لم نر قرية ليس فيها مالك أراضٍ واحد.

ماو تشي: «سأخبركم الحقيقة. قبل التحرير، كان لدى عائلتي عشرات القطع الأرضية، وكانت تستخدم مزارعين وعمالاً موسمين. كان كافياً أن يرفع الواحد منا ذراعيه ليلبس ملابسه، أو يفتح فمه ليقع فيه الطعام. فامنحونا تسمية ملاك أراضٍ».

فرح ممثّلو الثورة بكلامها، بقدر ما دهشوا له. وقد تأملوها برهة قبل أن تنهال عليها الأسئلة. استعادوا الكتيبات السوداء التي أحضرتها مها، ودخلوا المكتب، وهناك تناولوا حزمة من الكتيبات الحمراء. كانت الكتيبات الجديدة في نفس حجم القديمة. وعلى الغلاف أيضاً اسم صاحب الكتاب، وفي الصفحة الأولى قبس من كلام الرئيس ماو، لكن على الصفحة التالية أسطر تبين خطّ الدولة والمبادئ الأساسية والتدابير السياسية. قالوا لها، وهم يناولونها الكتيبات: «يمكنك الانصراف. نحن لم نظلم سكّان طيبة. وفقاً للإحصاءات والخبرة المترتبة عن الإصلاح الزراعي، وبالنظر إلى توزيع الأراضي والإطاحة بالطغاة المحليين، فينبغي أن تضمّ طيبة على الأقل عائلة واحدة من ملاك الأراضي، وعائلة واحدة من الفلاحين الأغنياء. الآن عثرنا عليك أنت باعتبارك

من مَلَاك الأَرْضِي، وحسبنا ذلك. فاذهبي من فورك. لكن ينبغي أن تعودِي غداً حاملةً معك فراشك. نتوقع أن يحضر بعد غد أكثر من عشرة آلاف شخص، ومن الضروري أن نقرّعك أثناء الاجتماع على أخطائك».

وافت ماو تشي قريتها في الليلة نفسها، وهناك قدّمت للسكان الكتيّبات الحمراء، وبيّنت لهم أنّهم صاروا الآن جميعاً عناصر ثورية، وأنّها جعلتهم من فقراء الفلاحين الفقراء-المتوسّطين. لم يعد في طيّبة من مالِك أرض غيرها هي. فإن احتاجوا، لسبب أو لآخر، إلى رجل غنيّ أو مستغلّ، فليس لأحد أن يقلق غيرها. فلمّا أتمّت توزيع الكتيّبات، أعدت أمتعتها وفراشها، كما أعدت وعاءً من الأرز لجومي الصغيرة التي بلغت عامها الحادي عشر، وأيضاً سلةً من الخبز المطبوخ على البخار. وبعد أن أطعمت ابنتها، ونوّمتها في عناق، تناولت الكتيّب الأسود الوحيد المتبقي في القرية، وشدّت الرّحال إلى البلدية لتأخذ نصيبها من العقاب.

كانت الذّرة قد نضجت، ورائحتها الحلوة تغزو الجبل. وكان ضوء القمر يتدفق كالماء على القرية، وقد أصرّ القرويون على مرافقتها قطعةً من الطريق. قالوا لها: «سنعتني بجومي. أصحاب الثّورة طيّبون. قولي لهم ما يرغبون في سماعه، ولن يؤذوك كثيراً».

قالت: «-عودوا إلى دياركم. إن لم أرجع وقت حصاد الدخن، فأنتم تعرفون ما ينبغي القيام به. بعد ذلك احرقوا الأرض، وبعد الحرث ازرعوا القمح».

ثمّ انصرفت.

وكان من المقرر أن يُعقد الاجتماع الكبير شرقيّ البلدة، على ضفة نهر كان فيما مضى دقاقاً، لكن قبل بضعة أيام حوّل مساره حتى يُستعمل قعره الرمليّ المليء بالحصى مُدرّجاً. وكان الغرض من الاجتماع هو المحاكمة العلنية لأحد مؤيدي الثّورة المضادة: معلّم قدّم دروساً لثلاثة أيام، وفي أثناء تلك الأيام الثلاثة استطاع أن يحوّل «يحيّا الرّئيس ماو» المكتوبة على السبورة، إلى «يحيّا شي جينغشان». وجينغشان هو اسمه الرّسميّ. وكان اسمه من قبل «هايدو»، لم

يُعرف إلّا به. لكن منذ أن عُيِّنَ أستاذًا، قدَّرَ أنَّ «فول الصويا الأسود» هذا لم يعد لائقًا به، فعَمَدَ نفسه باسم «جينغشان» إشارةً إلى جبل جينغ غانغ الذي كان الأرض الخصبة المقدَّسة للثورة. ورغبةً في شرح ذلك لطلابه كان قد كتب الجملة المذكورة في السِّبُورة.

وغنيَّ عن القول أنَّ عقاب أمثال تلك الجريمة هو الموت، لا شيء يمكن أن يمنع عنه الموت. وعندما أُلقت القبض عليه الثورة، اعترف بجريمته بلا لفٍ أو دوران.

سألته الثورة: «هل تعرف ما هو خطأك؟».

هو: «نعم، أعرف».

الثورة: «ما هو؟».

هو: «لقد كتبت على السِّبُورة يحيا شي جينغشان».

صاحت الثورة وهي تضرب على الطاولة: «أمنعك من نطق هذه الجملة! كلما كرَّرتها، زدت من خطورة جريمتك».

هو: «ما العمل إذن؟».

الثورة: «اعترف بصدق، قل ما ينبغي قوله».

أطرق يفكّر.

كرَّرت الثورة السؤال: «هل تعرف ما هو خطأك؟».

هو: «نعم، أعرف».

الثورة: «وما هو؟».

له: «كتبت خمسة حروفٍ على السِّبُورة».

الثورة: «ماذا كتبت؟».

هو رافعاً رأسه: «كتبت يحيا شي جينغشان».

انتابت الثورة سورة غضب، حتّى أنّها جعلت ترتجف في كلّ موضع، بالمحبرة والسجّل الذي كانت تُسجّل فيه الاستنطاق.

«إن نطقت هذه الكلمات مرّةً أخرى، سترمى بالرصاص فوراً».

- ماذا أقول إذن؟

- فكّر!

مجدّداً خفض رأسه وغطس في أفكاره.

كرّرت الثورة السؤال: «هل تعرف ما هو خطأك؟».

هو: «نعم، أعرف».

الثورة: «وما هو؟».

له: «كتبت شيئاً على السّبورة».

الثورة: «ماذا كتبت؟».

رماهم بنظرة، ثمّ من غير أن ينبس بكلمة، كتب الكلمات المشؤومة على دفتر الملاحظات الملقى على الأرض. وهذه المرة، انقلب وجه الثورة إلى الخضرة، وتلبّسها الغضب، وجعلت تهزّها الرّجفة. صاحت به: «يا خراء، يا ملعون! أنت تعمّق خطأك، أسوأ فأسوأ! تستمتع بإغراق نفسك!».

وما كان لهذا المسار الذي يمضي مرتفعاً، درجةً درجة، من مخرج إلاّ واحد: الإعدام. وسيُعلن عن الحكم في محاكمة علنية يحضرها عشرة آلاف شخص. لكن يُفترض أن يحاكم شخص آخر، في الوقت نفسه الذي يحاكم فيه مدرّسنا. ولما كان الفصل خريفاً، قبل الحصاد مباشرة، وكان اليوم يومَ السّوق، فقد أتى النّاس من مسافة لا تقلّ عن خمسين ألف قدم، وتراكموا على شطّ النهر، محتلين مساحةً عرضها لي واحد، وطولها ليّين أثنين، فكان منظرهم أشبه شيء ببول صويا أسود نُشر في ساحة. وجميعهم ألصق ب صدره الكتيّب الأحمر الذي يشهد على رفعة مكانته. وكانت شمس الخريف قد اتّخذت صفرةً

مشرقةً في السماء، وصارت تدفئ بحرارتها مثل لهب متقد، كأنها تتماوج. وكان المتفرجون فلاحين من القرى والمدامر المحيطة، على نطاق عشرة أو عشرين أو حتى عشرات الليّات. قدموا ليشهدوا السّوق والاجتماع على حد سواء، وقد اجتمعوا مترّاصين، حتّى أنّ الماء نفسه ما كان يستطيع التسلّل من بينهم. وكانت البقع الحمراء على صدورهم تبدو مثل بحر من النار، وكان المشهد هائجاً مائجاً لدرجة أنّه كان يتعيّن انتظار ثلاثين عاماً، وبالضبط اليوم الذي عرض فيه قرويو طيبة في جبال الأرواح الميتة، لكي يُشهد له مثل. وبين يوم المحاكمة هذا، ويوم العرض الذي تلاه بعد ثلاثين سنة، لم يشهد أحد جمعاً مماثلاً لهذا. إنّ هذا الحشد، المتكاثف، كان من الاستثارة والهيّاج، حتّى أنّ المرء ليخال أنّ عشرة ألف من الخيل قد انطلقت تصهل في انسجام. تلکم كانت الملابس التي لم يسبق لها مثيل، ولم يُعرف لها، بعدها، نظير، والتي جُرّت فيها ماو تشي مكبّلة ومقيّدة إلى المنصة. كانت امرأة، عرجاء، ولما كانوا قد صادروا عكازها، فقد كانت، على الرّغم من الصّنديدين اللذين يسحبانها، تتقدّم متأرجحة، قافزة على الألواح مثل جرادة بثلاثة أرجل. ونتيجة لذلك كان الورق المقوى الذي علّق في جيدها، يتأرجح هو أيضاً في كلّ اتجاه، فيفرك الخيط على رقبتها تاركاً عليها علامة حمراء. كانت للتوّ قد بلغت الأربعين، وما يزال شعرها أسود كريشة غراب. على سترتها القطنية الكحلّية، كانت خصلاتها المبعثرة تتناثر كحزمة أعشاب على سطح الماء. وبحروف كبيرة يُعلنُ المصقُ على ثيابها: **مناضلة ضدّ الثورة، مالكة أرض، ودعماً للاتهام، ألصق بها الكتيّب الأسود الذي وُجّه إليها توّاً.**

بمجرد أن ظهرت، هدأت الجماهير كأنما هوت عليها ضربة مطرقة.

لم يتخيلوا أنّهم سيحضرون محاكمة امرأة، وامرأة عرجاء فضلاً عن ذلك.

بدأ الاستنطاق.

أُجبرت على الركوع عند حافة المنصة. في وجهها الشّاحب الذي تلبّسته

هياة الموتى، بدت شفتاها، المتردّتان بين الأرجواني والأسود، مثل خطّين خطّا بالفحم على ورقة بيضاء. ثمّ بدأت الأسئلة تتدفّق عبر مكبرات الصوت، في تيار متّصل، على الريف وضفّة النهر.

سؤال: إلى أيّ طبقة تنتمي؟

جواب: «كبار ملاك الأراضي».

سؤال: وما جريمتك؟

جواب: «أنا مناهضة للثورة».

سؤال: «بيّني لنا الوقائع».

وحكت لهم: «أنا لست مقاتلة في الجيش الأحمر، لكنني ادّعت أنني شاركت في يانان، معقل الثورة المقدّس. أنا لست من أصل ثوري ولكنني ادّعت أن والديّ قد شاركوا في الإضراب الكبير الذي خاضه عمال السكك الحديدية إبّان عام الأربعين. أنا لست عضواً في الحزب، لكنني ادّعت الحصول على عضوية الحزب أيّام كنت مع الجيش الأحمر. قلت إنني خدمت في الجيش، مع أنني لا أملك أيّ حجة على ذلك، كما لا أملك أيّ حجة على انتمائي للحزب. الحقّ أنني مناهضة للثورة، ابنة مالك أرض كان قد اختبأ في أغوار جبال بالو. قبل التحرير، كانت عائلتي تملك عشرات القطع الأرضيّة، وكان لدينا ثيران وعربة خيول كبيرة، وكنا نستخدم المزارعين والعمّال المياومين. كان كافياً أن يرفع الواحد منا ذراعيه ليلبس ملابسه، أو يفتح فمه ليقع فيه الطعام». قالت: «أيّها الثوّار، يا رفاق! أيّها الفلاحون الفقراء والفقراء المتوسطون، ألا فانظروا! إنّ جرائمنا تستحق الموت ألف مرّة، ينبغي أن ترموني بالرصاص مع شي جينغشان».

سألوها بعد ذلك: ما كان طعام عائلتك قبل الثورة؟

- لا شيء غير الطيّبات من الطّعام. وحين نعجز عن التهام كلّ ما لدينا من خبز أو عجّين-مسطح كُنّا نلقي به للخنازير، أبداً لا نعطي منه الخدم والعمال.

- وماذا كنتم تلبسون؟

- الحرير والديباج. حتّى ستارة مأوى الحصان لم تكن مصنوعة من سوق الذرة الرفيعة، وإنّما من ثوب الساتان الأسود.

- وماذا فعلت منذ التحرير؟

- ظللت ليلاً ونهاراً أحلمُ بأن أقلب السماء رأساً على عقب، بحيث أستعيد الزّمن الماضي، زمنَ لم أكن أهتم لأمر الطعام أو اللّباس.

هنا توقّف الاستطلاع.

التفتت الهيئة إلى الحشد، إلى تلك الآلاف المؤلّفة من الناس الذين تراصّوا عند سفح المنصة، وسألتهن: «إلى الجماهير أعضاء الكومونة، أن تقرّر في أمر هذه المناهضة للثورة، مالكة الأراضي. ماذا نصنع بها؟» وارتفعت غابة من الأذرع، وانطلقت الحناجر إلى الصباح ملء الرّثتين: «أرموها بالرّصاص! أرموها بالرّصاص!».

صيحات غاضبة كانت تقرّر سبيلَ حياتها (٢). وحين صدر الحكم في حقّ المدرس، الذي لم يدم في منصبه أكثر من ثلاثة أيام، ذاك المدعو شي هيدو، والمدعو أيضاً شي جينغشان، فسُحبَ إلى طرف الشطّ ليُعدم، سُحبت هي أيضاً معه. أجبرت على الركوع بجانبه عند حافة الحفرة التي أحدثت مسبقاً لذاك الغرض، وغُرس خلفهما اللوحُ الخشبيّ الذي يوضع للمدانين. كانت الشمس واضحة وضوحاً مبهرًا، تغمر الشاطئ بنور البياض. وفي السماء الزرقاء، زرقّة مطلقّة، لم يكن يطفو أدنى خيط صافٍ أو ندفة من غيم. وكان قد آن أوان حصد الذرة التي كانت تنمو بجوار حاجر الرّمْل: شعورها، الحمراء والسوداء، تبرز يانعة فوق سوقها. رائحتها الحلوة تطفو في الهواء، صفراء زاهية، فتختلط برائحة عرق الحشد المهتاج والمتراص والصاخب. لقد حان الوقت، الثورة ستضغط على الزّناد. المعلم، ذو الاثنين وعشرين ربيعاً، كان خائفاً لدرجة أنّه انهار مثل كومة من الطين عند حافة الحفرة. ينزُّ برائحة البول والبراز. أمّا هي، وإن سلخت من السّنين أربعين، فقد استعاد وجهها ألوانه المعتادة: أمّحى

من خديها الشُّحوب، وتبددت من شفيتها الزَّرقة. ظلت هناك راکعة في هدوء، كما لو أن الطريق قد أعيتها، وتحاول أن تلتقط أنفاسها.

سألت الثورة الشابَّ قبل أن تطلق عليه الرصاص: «هل ما يزال لديك ما تعترف به؟».

أجاب راجفاً «نعم».

- حسناً، قل.

قال: «زوجتي ستلد قريباً، رجاءً أبلغوها بهذه الرسالة. قولوا لها أن تسعى إلى أن يكون الطفلُ أصمَّ أو أعرج. أن تغادر بالطفل المعاق إلى أقاصي بالو: يقال إن هناك قرية لا يسكنها إلا المعاقون، وبالتالي فإنَّ لا أحد رغب في ضمِّها إلى نفوذه: لا إدارة، ولا إقليم ولا مقاطعة. لا أحد يسيِّر النَّاس هناك، يزرعون حقولهم بأنفسهم، ويطعمون أنفسهم بأنفسهم. انهم يعيشون في حال طيبة، هائنين، كأنهم في الفردوس. أريد أن أرسل زوجتي وطفلي إلى هناك».

تهكمت الثورة من كلامه.

نظرت ماو تشي إليه، كانت تود أن تقول شيئاً، لكنهم كانوا قد صاروا خلفها، وسألوها ما إذا كان لديها ما تضيفه.

أجابت: «نعم. بعد وفاتي، رجاءً اذهبوا إلى معاقي طيبة، في أقاصي الجبال. أخبروهم بموتي، وقولوا لهم إنَّ ثمَّة شيئاً واحداً لا ينبغي أن ينسوه إلى الأبد: يجب أن يفكَّوا الضمَّ، ويعودوا إلى سالف أيَّامهم، أيَّام لم تكن تابعين إلى أيِّ نفوذ إداري».

حرق فيها الشابَّ بعينين مذهولتين، وبدا كأنه يريد أن يسألها سؤالاً، ولكن الطَّلقة انطلقت. مثل كيس مكسَّ بالبذور هوى في الحفرة، راشأً بلألئ الدم وجه ماو تشي والرمال من حولهما.

بالطبع هي نجت. كانوا قد سحبوها إلى جانبه، لمرافقته، وفي اللحظة التي انطلقت فيها الطَّلقة، انتابها الانطباع بأنَّها قد تلقت لطمَةً في ظهرها،

وخالت أنها على وشك الوقوع في الحفرة، لكنهم لم يدفعوها بقوة، لذا ترنّحت، ثم استعادت توازنها.

قضت بعد ذلك أسبوعين تكنس الشارع عند مدخل الكومونة، وعندما سُمح لها بالعودة إلى القرية، وجدت عدد السكّان قد زادَ فرداً: امرأة شابة، أنجبت قبل بضعة أيام، طفلاً، ناس-تاماً، واستطاعت، لا أحد يدري كيف، أن تجعله معافاً. كانت المرأة تقول وتكرّر، إنّها تريد الاستقرار في طيبة. تقول إنّها تعرف كيف تطرز، تعرف كيف تولّد الزهور في ورق التغليف. تقول إنّه يجب أن تبقى، وأنّها ستطرز كل ما يُطلب منها.

وكان أن بقيا، وأعطتها ماو تشي كتيباً أحمر، ظلّت تعلقه في جيدها كطلسم. وهذا الكتيب الأحمر، سيكون أيضاً مصدراً للشقاء. على أنّ الآلام التي سيسببها ستكون مختلفة بالتأكيد، ولن يقبل القرويون أبداً استبدالها بتلك التي سببها لهم الكتيب الأسود... انصرمت الأيام، يوماً في إثر يوم. وما تزال ماو تشي تكنس الشارع الرئيسي في مقاطعة السرو، وتتعرّض للتّقرع، ولكنها ما تزال هي أيضاً من ينظّم العمل في القرية، وهي من يوزّع الحبوب. بالمقابل، حين تعود إلى القرية، تُقابل باحترام كبير. الجميع، سواء منهم جيرانها عن يمين أو شمال، وسواء منهم الصمّ أو العمي، البكم أو البُهم، الجميع يأتي لتحيّتها حاملاً إليها شهيّ الأطباق. كستناء، أو خوخ أسود أو جوز-التراب (٥)، ممّا كان قد احتُفظ به استعداداً للبذر. الأطفال يحملون تلك الأشياء في أواني، والنساء في تضاعيف ستراتهنّ. المهمّ أنّ الجميع يحمل، بشكلٍ أو بآخر، شيئاً.

تلقائياً قرّرت أن تتحمّل وحدها وزر الجريمة السوداء والعقوبة المترتبة عنها. وقد أسعد قرارها القرويين، فصاروا يعتبرونها، أكثر فأكثر، أبرز شخصية في القرية.

سنتين أو ثلاثاً بعد ذلك، شرع العالم في تهيئة «الحقول المترابطة» (٧) وجمعت البلدية أصحاب الكتيّبات الحمراء على قمة جبل خارج بالو. وزّعت قطع أراضٍ على مختلف القرى، وبالطبع نال أهل طيبة نصيبهم من الوزيفة. هل أنت

معاق؟ الثورة لا تأبه بذلك، المهم أن تكون من أصحاب الكتيبات الحمراء. إن كنت تحمل كتيباً أحمر، فهذا يعني أن دونك فصل الشتاء لتهيئ مساحة اثنتين مو من الحقول. والحال أن تسعاً وثلاثين أسرة في القرية، كانت تملك الكتيب الأحمر. لذلك فرض عليها أن تهيء ما لا يقل عن سبعة وسبعين مو. وهكذا كانت بداية عهد العمل القسري: عهد العقاب والشقاء الأحمرين. كان يخيل إلى الناظر أن جوانب الجبال كلها أهلة بالفلاحين، في كل ما مكان نظرت، لن ترى إلا الأعلام واللافتات الحمراء. كان الكون أحمر، كما لو أن النيران التهمت، لقد اشتعل، وصار يتقد ساطعاً بالأسنة اللهب، وفي كل موضع منه يتردد صدى صوت المعاول تحفر الأرض، والمعازق تكشطها، وقرقعة الحدادين وهم يطرقون الآلات في أفرنتهم.

وغني عن القول أن سكان طيبة قد ساروا مسرى الناس-تامين، وأنهم مثلهم كانوا يطعمون وينامون على المنحدر غير المزروع. وبما أن مساحة الأرض التي يتوجب عليك أن تستصلحها قد نص عليها، وسطرت في كل كتيب، والكتيبات قد وزعت على كل أسرة، فليس يهم مدى العجز الذي تعاني منه. لا يهم إن كان من أصل خمسة أفواه يلزم إطعامها، ثمة ثلاثة عمى؛ أو إن كانت أسرة مؤلفة من سبعة أشخاص تضم بينها خمسة عرج؛ أو حتى إن كان بين أفراد منزل يأوي ثلاثة أشخاص، واحد ناس-تام، لا يتعدى عمره بضعة سنوات. حتى إن كانت الأسرة مؤلفة من فردين لا غير، زوجين: رجل أعمى وامرأة شلاء، وكانت المرأة تعتمد في الحركة على ساق زوجها الذي يسحب بها العربة، ويعتمد هو على عينيها في تحديد اتجاه سيره، فلن يعفيهما وضعهما من العمل: لا بد لهما من تهيئة حصتهما من الأرض، إذ لا بد من أن تتحول الأراضي إلى حقول متراتبة قبل انقضاء فصل الشتاء. ولا بد لهما من تدبر أمرهما وإيجاد سبيل إلى ذلك.

أي سبيل؟ حين يكاد عمل التهيئة يبلغ مقدار الثلثين، كان والد أسرة من المكفوفين، وقد أعياه طول الحفر في جو مثليج صعب، يريح معوله بجانبه. يمسح بكفه على وجه ابنه ذي الأربعة عشر ربيعاً، الذي يعاني بدوره من العمى، ثم

يشدّ بيده على أصابع زوجته التي - وإن حُرمت القدرة على المشي إلا أنها وهبت
قوّة البصر-، ويقول إنّه ينبغي أن يذهب إلى المرحاض. وبالتالي يقصد الوادي
الذي يحد الأرض، وبينما تصيح به زوجته بملء الصّوت أن انعطف يساراً
يساراً فإنّه يواصل بعناد سيره إلى اليمين، ثمّ من يلبث أن يهوي في قهر الوادي،
وبعد ذلك بزمن يسير يُعثر على جثته وقد تخلّعت.

تشطب الثورة على المساحة التي كان يفترض من الأسرة أن تهيتها، ويُسمح
لهم بأن يذهبوا لدفن والدهم في أقاصي جبال بالو.

وفي أسرة أخرى من الشّل، صعد الأب ذات يوم ليطرق معوله عند الحدّاد،
وأخطأ بدوره السّبيل. وهذه المرّة أيضاً أذنت الثورة لعائلته بأن تنصرف حاملةً
جثمانه.

ولا ننسىّ تلك الأسرة الأخرى التي كان جميع أفرادها من النّاس-تامين،
ولكن ليس فيهم ذكرٌ واحد: الأم وابنتاها، البالغان من العمر ثلاثة عشر وأربعة
عشر عاماً. لقد ظلّن يعملن ويعملن حتّى اليوم الذي سألت فيه الأم بنتيها: «هل
تريدان أن تعودا إلى القرية، وترتاحان فيها؟

أجابت البنّتان: - نعم.

- حضّرا نفسيكما إذن، غداً تطلقان إلى القرية».

حسبت البنّتان أنّه مجرد كلام ألقى على عواهنه، وكالعادة رقدتا ونامتا
في حقل معزول عن الرياح، ولكن في الصّباح عندما استيقظتا، ألفيتا أمهما قد
ماتت تحت لحافها، بأن ابتلعت سمّ فئران. رمتهما الثورة ببعض الشّتائم، لكن
تركتهما في نهاية المطاف تتصرفان مع الجثمان.

تسع وثلاثون أسرة من طيّبة اتّخذت في ذلك الشّتاء طريق الحقول
المتراتبة، حاملةً كتيّبا الأحمر، وهناك توفي من أرباب الأسر ثلاثة عشر. وعند
هذه النّقطة طفق الكيل بالثورة فصرفت جميع المعاقين إلى ديارهم. وصدر
الأمر بأن يُمنع من المغادرة من كان سليماً معافىً. لكن ما إن جرى التّفقّد وتمّ
العدّ، وأحصي المكفوفون والصّمّ والشّل، حتّى أدركت الثورة أنّه ليس في طيّبة

بأكملها أسرة واحدة تَمَّ أفرادها أبداناً وصحةً. فلم يبقَ لها مناصٌّ من أن تُفعلَ الإنسانية الثورية، فتسمح لهم بالعودة إلى قريتهم في أقاصي الجبل.

ذلكم خبرُ العقوبات السوداء والآلام الحمراء التي ولّدتها الكتيبات التي تحمل لونها نفسه. لكن الزمن مضى والذكريات انطوت، ووحدهم من بلغوا من العمر قدراً يستطيعون أن يدركوا ما تعنيه ماو تشي. ولذلك كان ينبغي للمتواجد في الضريح أن يزيد عمره بضع سنواتٍ آخر، وأن يتمتع بذاكرة قوية، حتّى يبادر إلى النسيج فيضع عليه بصمته، ويقبل بـ فكّ الضمّ...

١٥- تشكيل، اسم مؤنث. لهجة محلية. خيال بشر، هياة. ويعني المصطلح هنا أنّ الناس، بعد فكّ الضمّ، سيعيشون بلا أوراق ثبوتية أو شهادات: لن يكون لديهم أيّ دليل اجتماعي على وجودهم.

تعليقات

(١)- القراع، اسم مؤنث. لهجة محلية. قرع، يقطين.

(٣)- سبيل الحياة، اسم مؤنث. لهجة محلية. المصير.

(٥)- جوز التراب: اسم مؤنث. لهجة محلية. فول سودانيّ.

(٧)- حقول مترتبة: ليست الحقول المترتبة تعبيراً محلياً، وإنّما مصطلحاً تاريخياً. والتعبير وإن كان يشير إلى الحقول المسطحة التي بنيت في شكل مدرجات، فإنّه يشير أيضاً إلى نمط اشتغال خاصّ بالرّيف - «اتّخاذ نموذج دازهاي في الفلاحة» - وخصائصه الأساسية هي التطوُّع والعمل الجماعيّ.

الفصل الخامس

الصيف يقفز من فوق الشتاء والربيع

وإن لم يكن أحد يتوقع أن ليو ينغك لن يعود في تلك الليلة، وأن القرويين سيتعرضون للنهب، فإن الأحداث المثيرة التي سوف تحدث بعد ذلك، خلال الأيام الأخيرة من عام الأرنب، كانت أقل قابلية للتصور.

منطقيًا، كان الفصل شتاء. ومع ذلك هو ذا الصيف قد قفز على الربيع وبسط يديه على جبال بالو. لا بد أن الطقس قد أصابه مسٌّ، جُنَّ جنونه. الحال أنه منذ أسبوعين والطقس في سلسلة الجبال عذب معتدل، لكن إنما هي تلك العذوبة التي هي رحمةٌ يتفضّل بها فصل الشتاء. ثم ها، بين ليلة وضحاها، تنضو الشمس عن نفسها ثوب الصُفرة الشّفيف، وتتلّفع بالأبيض النّاريّ اللاهب. إنّ الغابة التي غنمت، منذ مدة، من ارتفاع درجات الحرارة لكي تكتسي باللون الأخضر، قد صارت تبرعم في كلّ موضع، العشب يتّخذ مظهر الزمرد، ومن بين الأغصان يتناهى صوت التّغريد، والعصافير ترقزق مستثارةً، كحالتها حين يهيجها الصّهد. من

الجل، بين القمم البعيدة نسبياً، يرتفع الضباب الأبيض. لقد حلّ الصيفُ.

حلّ خلسةً، بلا ضجيجٍ يذكر، ولكن أحدث في الآن نفسه جلبةً هائلةً. وكان أول من استيقظ من أهل طيبة، الصّغير بوليو. وكان عشيّة ذلك قد أخرج من صفحة قدمه المشلولة شظايا الزجاج، ومسح الدم، وضمد الجرح. لكن، آآي! لقد ألمه الجرح طيلة اللّيل، ولم يغرق في أحلامه إلّا حين أنهك تماماً. ولم يكديفتح عينيه حتّى أحسّ بفمه جافاً، وشفتيه كالرمل في فصل الصيف، والحقّ أنّ ذلك ما أيقظه.

في الغرفة شيء يطنّ طنيناً مزعجاً: إنّه البعوض، قد حلّ كما تقتضي الحرارة.

فرك الصبيّ جفنيه، وخزته قدمه المشوّهة كما لو أنّ دبوراً لسعها، ثمّ ما لبث الألم أن انقلبَ خدراً، وعاد تقريباً كلّ شيء إلى حاله الطبيعية. كان عطشانَ جداً، وكان يلزمه أن يشرب. وعندما أبعد يده عن عينيه، لاحظ أن الشمس التي كانت تفتح ملتهبةً المكانَ عبر النافذة العالية، تبدو كأنّها أضربت النارَ في الغرفة. كأنّها انبعث دخانٌ ناعمٌ وشاحبٌ من جير الجدران الأبيض، وملاً المكانَ غبارٌ مذهب، من ذاك الغبار الذي لا نرى له نظيراً إلّا في نور الصيف. وكانت ثمّة أيضاً، واهنةً وضاعطةً، رائحةُ حرق هي أيضاً ممّا يميّز الصيف. كان الصبيّ في حيرة من أمره: أمس فقط كان أهل طيبة قد أووا إلى غرفهم بعيون ذاهلة، يرثون لحاهم

ويتأوهون، سيكون ما لهم المنهوب، ويشتمون السدة، والناس -
 تأمين ممن كانوا يرافقونهم، ويصرخون قائلين إنهم بمجرد أن
 يغادروا المبنى، سيذهبون ليشتكوا إلى رئيس الإقليم ويحتجون
 عنده. كان يحسب أنهم لن يغمض لهم جفن، لفرط ما يشعرون
 به من ألم. ثم هو ذا يستيقظ صباحاً، فيجدهم عراة يغطّون في نوم
 عميق. إنّ الشمس قد ارتفعت كلّ الارتفاع، وهم يشخرون كما
 لو انحشر في حلقومهم حجرٌ. زد على أنهم قد أراحوا عن أنفسهم
 اللّحف، وبرزت الأجساد، لا يغطيها أحياناً إلا إزارٌ رقيقٌ،
 وأحياناً قميص بسيط على البطن، كما لو أنّ ذلك كافياً لتغطيتها
 وسترها.

نحن حقاً في الصّيف! وكان هو عطشان لدرجة أن الدّخان
 ينبعث من حنجرته. ولما نهض، وقصد الصنبور يشرب منه، أداره
 حتّى حدّه الأقصى، من غير أن تسقط منه قطرة واحدة.

أعاد الكرّة مع صنبور غيره، فحصل النتيجة نفسها.

ولما غادر المهجع ليشرب في الخارج، ألقى الباب الكبير مغلقاً.
 بالعادة يغلق هذا الباب من الداخل، ويكفي سحب خيطه لكي
 تنفجر دفتاه الحمراءوان. لكنّه سدّى ظلّ يسحب ويسحب. كان
 طفلاً، فأتى له أن يدرك أنّ العالم قد انقلب رأساً على عقب! لقد
 تبخّر الشتاء، والصيفُ قفز على الربيع، ليحلّ بالجليل، وكما لو أنّ
 ذلك لم يكن كافياً، فانقلب الكون انقلاباً جذرياً، كأنّها غير سلالة
 حكّامه. انتاب الولد بعضُ حنقٍ، فهزّ الباب بقوة صائحاً:

«افتحوا! أنا عطشان!

- افتحوا أنا أموت عطشاً!». .

أجابته ركلةً على الباب. ثم صوتٌ خشنٌ من حنجرة ناس -
تام: «استيقظتم إذن؟

قال الطفل: أنا أموت عطشاً!

- والآخرين؟ هل استيقظوا هم أيضاً؟

- ليس بعد، لكن افتح، أريد أن أشرب!

واصل الآخر استجوابه:

- هل أنت عطشان فقط؟ ألسـت جائعاً؟

- كلا، عطشان فقط».

ضحك الرجل، ببرود، وسخر من الصبيّ بصوتٍ أجش
وقح. اعتماداً على الأذن قد نقول إنّ الرجل الضخم الذي كان يقود
شاحنة الإكسسوارات. إنّ هذا الرجل جبلٌ من لحم، سمينٌ من
جزئه الأسفل، عريض الكتفين، واسع الصدر كُشُرفة. قادرٌ على
أن يرفع عجلةً بيد واحدة، وأن يرسل بركلةٍ واحدة صندوقاً ممتلئاً،
من طرف الحاوية إلى طرفها الآخر. وإذ تيقّن الصبيّ من تعرّفه على
الرّجل، فقد ألحّ في الطلب: «أنا عطشان يا عمّو. افتح لي.

- تريد أن تشرب؟ نادي ماو تشي».

قصد الطفلُ غرفة النوم الثانية، مقابل التابوت، يفتح بابها.

نهضت العجوز من فورها. وفي الغرفة كانت تنام أيضا حفيداتها الأربع والشّلاء. ومثلهنّ مثل الرجال، كانت النّساء يغططن في نعاسٍ عميق، ومثلهم كنّ قد دفعن عن أنفسهنّ البطانيات، وبتنّ شبه عرايا. كانت ماو تشي تبدو مثل حزمة من الخشب الجاف توشك أن تتصدّع ما إن تهوي عليها أوّل ضربة، والشّلاء مثل حزمة كبيرة من العشب. أمّا الصبايا، تونغهوا، ويوهوا، وفلين، فقد بدبن، في رقدتهنّ صفّاً واحداً، ضئيلاتٍ جداً، لكنّ حلوى البريوش بالحليب (١) النابتة على أقفاصهنّ الصدريّة كانت منتفخة، وليّنة، وطريّة، كأنّها خرجت لتوّها من موقد بخار. أدرك الصبيّ لم كانت تلك الحلويات تسمّى كذلك، ولم يزدد فمه إلّا جفافاً، كان عطشان، والآن زاد على العطش الجوع. وما كان ليُمانع أن يتقدّم إليهنّ فيشرب من عندهنّ بضع رشقات! خاصّة أنّ الغرفة كانت تضمّ أيضاً هوايهوا، وإن انتحت بنفسها جانباً، كأنّها تخشى من وجود شخص قريباً جداً منها. كانت ممدّدة، في النّور المنهمر من النافذة، على شرشف أحمر زاهٍ، لا ترتدي غير تبنّ صغير، وواحداً من تلك الألبسة المستديرة المدبّبة التي تغطّي بها نساء المدينة أثداءهنّ. ولا شيء غير ذلك. أمّا البقية فكانت عارية تماماً، مكشوفة، وواضحة مثل سمكة أو ثعبان أبيض. كانت تضوع بأريج الصفصاف الأخضر، وساقاها وبطنها في بياض حجر اليشم والقمر، ورقّة عصفور الصّفير الذي غادر للتوّ عشّه. لشدّ ما ودّ أن يجثو بجانب هذا الجسد الطاهر، أن يستلقي ويعانقه. كان ليتحدّث إليها، كان ليأخذ بين أصابعه الأصابع التي تسند رأسها... لكنّ ماو تشي كانت قد استيقظت، وأخذت تبحث عند

رأس سريرها عن قميص صيفي، وهي تتمتم: «أيّ طقس هذا! أيّ طقس!» ثمّ، لما وجدت قميصها ألفته على كتفها، ولاحظت أخيراً الصبيّ عند فتحة الباب: - لم تعد قدمك تؤلمك؟

- أنا عطشان.

- طيّب، اشرب.

- الباب الكبير مغلق من الخارج، وشخص ما يطلبك. السائق يقف ناظوراً في الخارج.

اصغت إليه ماو تشي بهيأة مدهوشة بعض الشيء. ثمّ تفحصته وهي تضيقّ عينها، كما لو أنها تذكرت شيئاً أو تيقّنت من شيء. اصطبغ سواد خديها الياّس بالأبيض، وبوثبة واحدة قامت واقفة. سارت في إثر الصبيّ عبر الغرفة التي تحوي التابوت الكريستال، وضربت بعنف، عدة ضربات، على الباب المصبوغ بالأحمر الداكن. وقد أصبح وجهها الآن شاحباً كركامٍ من غيوم.

صاحت: «أوه! هل هناك أحد؟ افتح الباب إن كان لديك ما تقوله!».

لا جواب. ومجدّداً نادت: «افتحوا، أنا ماو تشي!».

وتمكّنوا أخيراً من أن يسمعوها شيئاً. تناهت إليهم بداية خطوات، أشخاص عديدون يصعدون طريق كوتو. ثم ساد الصمت مجدّداً، صمت ثقيل وقاتل، يُستشعر فيه أنّ الصّاعدين قد توقّفوا عند الجانب الآخر من الباب. ثمّ أخيراً انطلق، بالفعل صوت الرّجل.

قال: «ماو تشي. هل تعلمين من أكون؟ إنَّ الرَّجْلَ الحَيَّرَ لا يتحرَّك في الخفاء، أنا سائق الشاحنة الذي تبعكم أثناء جولتكم طيلة ستة أشهر. والبقية هم موظفو الضريح. سأصارحك بالقول: لقد حبسناكم لنطالبكم بالمال. أعلم أنَّكم قد سُرقتم. وذلك مِن فعل الأوغاد أطر السدة، واللّقطاء موظفي الفرقة. لقد نفّذوا العملية في أثناء الفقرة ما قبل الأخيرة، ثم استغلّوا الفوضى التي أعقبت نهاية العرض، عندما تفرق الجمهور، فطلبوا مِنِّي أن أقودهم إلى سفح الجبل. لقد حسبوني غافلاً، لا أدري ما صنعوه، فتقاسموا المسروق من دون أن يعطوني فلساً واحداً. أقسم لك يا ماو تشي أنني لم أحصل على شيء. غير أنني، حين وصلنا منتصف الطريق، تظاهرتُ بأن الشاحنة قد أصابها عطب، وما إن ابتعدوا حتّى عدتُ من حيث أتيت! نحن سنكون أقلّ جشعاً، يكفينّا أن يحصل كلّ منا على ثمانية إلى عشرة آلاف. لم أقد الشاحنة طيلة ستة أشهر لكي تكون مكافأتي في النهاية حبات خوخ، وكذلك رفاقي هؤلاء الذين فُرض عليهم هذه الأيام القيام بحراسة متواصلة، بسبب عروضكم. حتّى الأكل، كانوا يأكلون بالدّور!».

في الداخل، استيقظ شخص ما، لكنّه لم يكن سوى ماه الأصمّ، ذاك الذي يعلّق المفرقات النارية في أذنه. وإذا لم يكن يسمع ما يجري، فقد قصد المرحاض، وأراح مثانته، ثم بعد ذلك ألقي نظرة، وعاد إلى غرفته. ربما لم تكن الشمس قد بلغت بعد تمام الجنوب، ربما لم نبلغ بعد نهاية النّهار، لكن المؤكّد أنّ الظّهيرة تقترب. الضوء المندفع من النافذة كان أحمر داكناً، يتراكم كثيران

بركانٍ. وحتى وإن كان الفصل صيفاً، فالمفروض أنّ في غرفةٍ غاية في الوساعة، كغرفتنا هذه، ينبغي أن يظلّ الجوُّ لطيفاً: لكن الفصل قد وُلد للأسف في نهاية فصل الشتاء، فكانت النوافذُ بالتّالي مغلقةً، والجوُّ خانقاً. كان المرء فيها ليحسب نفسه في خزانةٍ أو في قِدرٍ مختومةٍ بإحكام. التفتت ماو تشي تتفحص المناور: كانت جميعاً، من الدّاخِل، تقع على ارتفاع امتدادٍ كامل، ولا نحتاج أن نقول إنّه، ما دام الضّريح قد بُني على سفح التّل، فإنّ ما أن يوجد، في الدّاخِل، بارتفاع قامتين من مستوى إنسانٍ، يُفترض أن يكون في الخارج، بارتفاع ثلاث، أو أربع، أو خمس قامات. أي ما يكاد يعادل طابقين أو ثلاثة طوابق! طالما البابُ مغلقٌ، يستحيل الخروج. سواء كنت من معاقي طيّبة، أو كنت من النّاس -تأمين، وُهبّت كمال السّاقين والذّراعين، فما إن تصعد إلى فوق حتّى تقع في المعضلة: كيف النزول؟

أشاحت ببصرها.

في الخارج، يتحرّق الرّجال صبراً. وبعد أن انهالوا على الباب بيضع ركلات، عادوا إلى الصّراخ: «وإذن؟ هل فكّرتِ في الأمر؟ نحن لا نطلب الكثير يا ماو تشي. عددنا لا يتجاوز ثمانية، فليس كثيراً أن تعطي كلّاً منّا عشرة آلاف، أو حتّى ثمانية إن كانت تعوزك النقود.

- لم تعد لدينا نقود. لقد سُرقنا. صدّقني، لا أحد هنا يملك فلساً».

مجدّداً ركلاتٌ على الباب: «كما تشائين إذن. إن وجدتِ شيئاً، نادينا. وإن لم يجيبك أحداً ما عليك إلّا أن تدقّي الباب ثلاث مرّات».

ثم انصرفوا. سمعتهم وهم ينزلون طريق كوتو، ويواصلون الابتعاد. لم يعد الضريح إلّا صمتاً، لكنّها حين استدارت، ألقت القرية كلّها مستيقظةً، كانوا واقفين خلفها، مكتملي العدد، مصطفىين في انتظام كما لو أنّهم سيحضرون اجتماعاً. وكان الجوّ حارّاً حتّى أنّ من الرجال من كان يقف بلا قميص، ومنهم من اكتفى بإلقاء قميصٍ على كتفيه. بالطبع لم تفعل النساء فعلَ الرجال، لكنهنّ أخرجنّ بلوزات الصيف. لحسن حظّهم أنّهم غادروا طيّبة في الفصل المعتدل. ولحسن حظّهم أيضاً أنّهم لم يجدوا الوقت لزيارة منازلهم قبل الصعود مرّةً أخرى إلى الشّاحنة، لذا ما يزال لدى كلّ منهم لباسٌ خفيفٌ في أمتعته. كانوا على علم بما يجري، كانوا يعرفون أنّ الرّجال يطالبون بمبلغ بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف يوان لكلّ واحدٍ منهم، وأنّ عددهم ثمانية في المحصّلة، ممّا يعني أنّ المطلوب لن ينزل عن ستين ألف يوان. لكن أنّى لهم بتلك الستين ألف يوان؟ كانوا جميعاً هناك، عددهم كثيرٌ لدرجة أنّهم احتلّوا أكثر من نصف الغرفة، وجعلوا يتبادلون لعبة التحديق: حدّق فيّ، أحدّق فيك، وحولنا صمّتٌ ثقيلٌ كالموت. العجيب أنّهم، في هذه اللّحظة لا يشعرون بمثل ذلك الغضب، ولا ذاك الانكسار، الذي جعلهم في الليلة الماضية يذرفون كلّ ما في أجسادهم من دموع حين أدركوا أنّهم سُرقوا. كأنّما كانوا على علم مسبق بأنّ شيئاً من هذا القبيل سيحدث اليوم. لا أحد منهم ينطق بكلمة. ظلّوا واقفين مسمّرين

خلف الباب أو متكئين على الأعمدة. ورأت النساء الرجال جالسين القرفصاء يدخلون كأن شيئا لم يقع. وكعادتها، كانت هوايها قد ارتدت ثوباً بلون الماء الصافي، وشأنها شأن الآخرين لم تجد ما يكفي من الوقت للعناية بزيبتها، لكنها مع ذلك كانت ما تزال جميلة، فاتنة الجسم والوجه. وكانت تراقب القرَدَ. والقرَدُ قد أشبك ذراعيه أمام صدره، يكتفي بأن يمسح بشفته العليا على أسنان فكه الأسفل، والعكس بالعكس. وكأنها لم يجدَ جديدًا، أصدر من أنفه صوتاً ضعيفاً، وأشاح بعينه.

الصمت مستمرٌّ لا ينقطع. يبدو أن لا حدَّ له.

كذلك كانت ماو تشي تحدِّق في ذي الساق الواحدة. كان يبدو أنها تريد أن تضعه على المحك. سألته بأصدق ما يكون السؤال: «ما العمل؟».

أجابها وهو يشيح بنظرته عنها: «كما لو كنت أدري ما العمل! لو كنت أملك المال، لأخرجته!». انتقلت إلى الأصم.

كان واقفاً، لكنه جلس بغتةً، ليصبح بصوت عال: «لم يبق عندي شيء، أخذوا مني كل شيء».

ثم توجهت إلى ناس-تأمين، شخصين يتمتعان بذراعيهما وقدميهما. قالوا: «لم نربح قدر ما ربحتم أنتم. عندما كنتم تعرضون، كان يحق لكم الحصول على قيمة مقعدين، أما نحن فلم يكن لنا

الحق حتّى في قائمة مقعد. ثمّ إنّنا أخفينا كلّ أموالنا في وسادة، وبالتالي ما عدنا نملك فلساً».

لم يكن ثمة ما يُضاف. فكّرت لوهلة، ثمّ قصدت غرفتها، وعادت برزمة نقود، -من أين أتت بها؟ ذاك لغزٌ- حزمةٌ سميكة مثل لبننة، وليست تضمّ إلاّ أوراقاً حمراء جميلة من فئة المائة يوان. ذهلت حفيداتها. وكانت قد اتخذت طريقها صوب الباب، فإذا بالدمّ يصرّج فجأةً وجتّي هوايهوا التي كانت حتّى تلك اللحظة تقف في ركنها غير مبالية. وحين مرت جدتها من أمامها، وثبت عليها، محاولةً انتزاع النقود من يدها، حتّى أنّ العجوز ترنّحت وكادت تسقط أرضاً.

لحسن الحظ، استطاعت ماو تشي أن تحافظ على توازنها. نظرت إليها في دهشة، ثمّ صفعتها على وجهها. كانت امرأة عجوزاً -في ليلة واحدة تضاعفت سنّها- ولم تكن الصفعة قوية، ولكنها تظّل صفة. انقلب وجه هوايهوا إلى اللون الأرجواني.

صاحت: «إنّها نقودي! أنا لم أشتري أيّ فستان!».

أجابت الجدّة: - لقد صرفت من النقود ما يكفي. وبعد أن رمت بنظرة غاضبة حفيدتها التي كانت تصكّ وجهها، قصدت الباب المعدنيّ تطرقه، وعلى الفور انطلقت صيحات الفرح في الجهة الأخرى. قال الرّجل: «طيّب، طيّب! جميعكم يا أهل طيبة تملكون صنعة، وكلّما عرضتم كسبتم حزمةً من النقود، ما أيسر ذلك!» وفي الآن نفسه جعل يصرخ في اتّجاه طريق كوتو: «تعالوا! هيا! أسرعو!».

ثم أضاف موجّها كلامه إلى الباب: «ادفعني النقود عبر الشقّ وسوف نفتح لكم».

دفعت ماو تشي المال من تحت الباب، فاستلّ من الجانب الآخر.

ارتفعت الصّيحات مجدّداً: «هيا! البقية! أسرع!

- لا يوجد غير هذه الثمانية آلاف يوان. كلّ ما عداها سُرق منّا ليلة أمس».

في الخارج لم يبدو عليهم أنّهم سعدوا بالعطيّة: «احتفظي بهذا الهراء للأشباح أو الخنازير، نحن لسنا هؤلاء ولا أولئك، لن نخدعنا». ثمّ: «حسناً، هذه حزمة من ثمانية آلاف، ما زالت تنقص سبع حزم أخرى مثلها. إما أن تدفعي بها أو تهلكي هناك جوعاً وعطشاً».

بعد لحظات من الصمت الثقيل، تناهى إليهم صوت السائق يتمتم بكلماتٍ إلى معاونيه وهو يسحبهم نحو الدرج، فصرخت ماو تشي صوبَ الخطوات المبتعدة:

«يا هذا! لقد أخبرتك الحقيقة. ليس لدينا المزيد من المال! لقد جمعنا كلّ ما لدينا من نقود، فكانت الحصيلة تلك الرّزمة.

- وفري لعابك، حتّى لا نقع في مصيبة!».

صاحت مرة أخرى: «افتحوا وفتّشونا، إن لم تصدقوني!

- إلى الجحيم يا عصبة المعاقين! عصابة من الناس العجزة! سنرى من يضحك في النّهاية!».

إِذَاكَ قَالَتْ: «أَلَا تَخْشَى شَرِيعَةَ السَّمَاءِ؟».

تَهَكِّمُ: «لَا شَرِيعَةَ تَحْكُمُكُمْ أَنْتَ سِوَى النَّاسِ - تَأْمِينُ!».

أَلَحَتْ: «أَلَا تَخْشَى رَئِيسَ الْإِقْلِيمِ؟».

قَهَقَهُوا بِمَلءِ الصَّوْتِ: «لَأُصَدِّقَكَ الْقَوْلَ، إِنَّ رَئِيسَ الْإِقْلِيمِ
قَدْ ارْتَكَبَ مَصِيبَةً كَبِيرَةً. أَتُحْسِبِينَ أَنَّ أَوْلَئِكَ الْأَزْبَالَ كَانُوا لِيَجْرُؤُوا
عَلَى نَهَبِكُمْ لَوْ لَا أَنَّ رَئِيسَهُمْ وَاقِعٌ فِي مَآزِقٍ خَطِيرٍ؟ وَهَلْ كُنَّا نَحْنُ
لَنُجْبِسُكُمْ فِي الضَّرِيحِ؟».

أُصِيبَتْ مَاوُ تَشِي بِالْخَرَسِ. انْصَرَفَ الرِّجَالُ سَالِكِينَ طَرِيقَ
السَّلَمِ، يَتَجَادَلُونَ بَيْنَهُمْ، وَمَا لَبِثَ أَنْ خَمَدَ كُلُّ صَوْتٍ عَدَا وَقَعَ
خَطَوَاتُهُمُ الَّتِي كَانَتْ تَبْدُو أَشْبَهَ شَيْءٍ بِضُرْبَاتِ مَطْرَقَةٍ تَهْوِي عَلَى
دَرَجَاتِ السَّلَمِ قَبْلَ أَنْ يَتَرَدَّدَ صَدَاهَا عَلَى جُدْرَانِ الضَّرِيحِ وَأَجْسَادِ
قُرُوبِي طَيِّبَةٍ.

صَارَ الْجَوُ الْآنَ حَارًّا لَدَرَجَةٍ أَنَّهُ صَارَ يَشَقُّ عَلَيْهِمُ التَّنَفُّسَ.
مَذْعُورِينَ، يَنْزَوْنَ بِالْعَرَقِ، وَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْهُمْ الْفُؤْمُ وَالْحَنْجَرَةُ، وَبَدَأُوا
بِالْفِعْلِ يَشْعُرُونَ بِالْجُوعِ وَالْعَطَشِ. أَمَّا الطِّفْلُ الَّذِي كَانَ قَدْ نَهَضَ
لِشُرْبِ، فَعَلِمَ قَبْلَ الْجَمِيعِ أَنَّ الْبَابَ مَغْلُوقَ، فَقَدْ بَلَغَ بِهِ الْعَطَشُ مَبْلَغَ
أَنْ صَارَ عَاجِزًا عَنْ نَظْقِ كَلِمَةٍ يَعْبُرُ بِهَا عَنْ عَطَشِهِ. صَاحَ أَصَمُّ: «أَيُّ
خَرَاءِ هَذَا، أَيْنَ يُمْكِنُ أَنْ نَجِدَ مَاءً؟» وَأَشَارَ أَخْرَسُ إِلَى حَنْجَرَتِهِ وَهُوَ
يَضْرِبُ الْأَرْضَ بِقَدَمِهِ. وَلَمْ يَكُنْ يَسْلُ مِنَ الصَّنَابِيرِ شَيْءً، وَمَعَ ذَلِكَ
تَرَى كُلَّ خَمْسِ دَقَائِقٍ أَحَدَهُمْ يَقْصِدُهَا لِيَفْتَحَهَا. تَذَكَّرْتُ مَاوُ تَشِي
الصَّغِيرَ الْمَصَابَ بِشَلَلِ الْأَطْفَالِ، فَالْتَمَسْتُهُ: وَجَدْتُهُ فِي رَكْنٍ وَقَدْ

تكوّر على نفسه بين ذراعَي خاله. كان يعانقه كما يعانق رضيع أمّه. وكان الخال المذكور في الثالثة والستين من عمره، وقد سار مع الفرقة باعتباره طباحاً، وهو ذا الآن يعانق الصبيّ من خصره ويداعب شعره. وما إن لح ماو تشي تقرب حتّى أطلق الحنجرتة العنان:

«إنّ الولد محموم، جدي له ماء».

- الولد محموم، يحتاج أن يشرب».

وضعت يدها على جبينه: كانت حامية ككرة من نار، أبعدتها بسرعة، ثمّ عاودت وضعها، وقصّدت الباب مجدداً تطرقه.

من الخارج: «ادفعني بالنقود».

ماو تشي: «الطفل يغلي من الحمى، كوب ماء، أتوسل إليكم».

من الخارج، في اتجاه آخر: «إنهم يطلبون ماء!».

ردّ السائق: «ليشتروه إذن!».

من الخارج، في اتجاه ماو تشي: «تريدون ماء؟ ادفعي ثمنه!».

ذهلت لحظة، ثمّ سألته قلقة: «أليس لديك قلب؟».

من الخارج: «اعتبري أنّ الكلاب أكلته!».

روّت برهةً ثمّ: «بكم؟».

الآخر بصوت عالٍ: «مائة يوان».

مذهولة: «كم؟»

- مائة.

- ليس لديك قلب!
- قلت لك إنّ الكلاب أكلته.
- الطفل يغلي من الحمى.
- عجّلي إذن بدفع المال من تحت الباب».
- وهذا كل شيء.

أخذ القرويون يحدّقون في ماو تشي التي كانت تنظر بلا حولٍ ولا قوة إلى خال الطفل، وقد أحنى رأسه في غمرة ذعره. وما زالوا يغرقون في صمتهم أعمق فأعمق، كأنّما هَوّوا في قبر. ثمّ فجأة انبرى القرْدُ واتّجه إلى الباب يصيح من ورائه:

«كيف يعقل أن يساوي كوب ماء مائة يوان؟

- وفيم ستنفّعك الأموال إن كنتَ ستهلك على أي حال؟

- يوان واحد؟

- تلحس طيزي.

- عشرة؟

- تلحس طيزي.

- عشرون؟

- تلحس طيزي. حتّى لو قلتَ خمسون، سيظلّ الجواب هو: لا».

صمتَ. وحينئذ أبصروا ماو تشي تقصد المهاجع وتعود منها

حاملةً بضعة ورقاتٍ من فئة عشرة يوان، وحفنةً من العملات الصغيرة. وبدورها دنت من الباب لتسأل:

«وثمانون، ألن تكفي؟»

- مائة يوان، كأس ماء مُصادٍ (٣). مائتان، وعاء حساءٍ من الطحين الأبيض. خمسمائة، خبز. إن أعجبك فاطلبي، فإن لم يعجبك فذاك شأنك».

من دون أن تزيد كلمةً، دفعت بالمائة يوان من تحت الباب. وبعد برهةٍ انطلق ضجيجٌ خليط من الأصوات، فحسب الأسرى أنَّ الباب يوشك أن يُفتح، فتمرَّ عبره الكأس. غير أنَّ السَّجانين وضعوا سلماً على الباب، وتسلقوه، فطرقوا زجاج منورٍ ليفتح لهم الأسرى، وعبر تلك الفتحة سلّموهم كأس الماء. ارتقى ذو السَّاق الواحدة على كتفيٍّ أخرسٍ ليتسلَّم الماء، فألقى نفسه وجهاً لوجهٍ مع شابٍ عشرينيٍّ، شعره حليق على الطَّريقة العسكرية، ووجهه محمَّرٌ، فأسرَّ إليه: «ألف يوان، إن تركت السِّلَمَ هنا الليلة». شحب الشابُّ، وأجاب: «أنا حريص على حياتي»، قبل أن ينزل مستعجلاً، ويزيح السِّلَمَ.

كان الوقتُ منتصف النَّهار بالضَّبط، والشمس الحارقة والسَّامة، والعنيفة والمتوهجة، قد استوت في صدر السماء، والحرارة ارتفعت حتَّى أنَّ المرء قد يموت فيها مشوياً. عاد أهل طيبةٍ إلى الغرف، وورقدوا مثل أعشاب ذابلة. ولكن بعد أن حصلوا على الماء، فقد تشجَّع القرد، وبضعة قرويين آخرين، فانطلقوا يستكشفون

أركانَ الغرفِ والرّدهاتِ وأرجاءها، فعثروا على صندوقين فارغين، وبعض الطّاولات القديمة، فلمّا كدّسوا كلّ ذلك، بعضه فوق بعضٍ، بلغوا مستوى النوافذ. وبأشدّ ما يكون الصمت، تسلق وتفقد الجبل الصامت القفر. أين ذهب السيّاح الذين اجتاحوه في الليلة الماضية؟ لم لا نرى منهم اليوم أحداً؟ كانت الشاحنة التي نقلت اكسسواراتهم طيلة الأشهر الستة الماضية مركونة تحت شجرة كبيرة أمام الضريح، وكان النّاس -تأمّون- وهم بالفعل سبعة أو ثمانية - قد ركنوا إلى الظل بجوارها. وعلى الأرض تناثرت الأطباق وعيدان الطعام: لقد فرغوا من تناول الغداء. بعضهم يلعب الورق، وآخرون اتّخذوا فرشة من عشب وغنموا قيلولةً. وغني عن القول أنّ السائق الضّخم كان هو زعيمهم: كان ينام في سرير على مقربةٍ منهم، وقد تخلّص من ملابسه عدا سروال داخلي. لا يبدو أنّه قلقٌ من إبطاء أهل طيّبة في الدّفع بالنّقود. لا بدّ أنّه قد حسب حساب أدقّ التفاصيل. تحت النّور الصافي الذي تسكبه الشمس، ومن الطريق الواسعة النازلة صوب الوادي، ينبعث دخانٌ أبيض، مشع ونقي. لكن لا ظلّ يبرز في المكان. ربما بباعثٍ من شدّة الحرّ، عادَ النّاس الذين صعدوا أمس، إلى ديارهم، ولن يأتي اليوم أحد؛ أو ربما طردهم الموظفون متعلّلين بخزعبلات، ثمّ سدّوا الطريق في وجه كلّ من ينوي الصّعود اليوم، يكفي أن يكذبوا عليه كذبةً ليعود أدراجه من حيث أتى. سواء هذا أم ذاك، فالنتيجة واحدة: إنّ الجبل هادئٌ هدوءاً مريباً، خالٍ تماماً لا يعمره إلّا هذه الزمرة الصغيرة من النّاس -تأمّين.

ومع الحرارة اكتست أشجار الصنوبر والسرو في الجوار، وأشجار الكستناء والصّفيراء عند حافة الجرف، ببراعم حديثة، وغطّت الخضرة كلّ شيء. الزيزان تطلّ إطلالاتها الخاطفة، وتنسل من بين الأغصان مثل الماء الرّقراق. وعلى المنحدرات، كانت الأعشاب البرية والشجيرات قد مدّت، في رمش العين، بساطاً من الخضرة اليانعة، يرفرف فوقه العديد من الصراصير وغيرها من الحشرات الطنّانة. أكتسى الجبل نضارة الغطاء النباتي المتجدّد.

كلما أحتدّ لهيبُ الشمس، زادت حمياً اللون الأخضر، وكلما زادت فتنة الأخضر، بدا أشدّ اتساعاً ولانهاية. وبالمثل: كلما زاد الإحساس بالضيق من السّجن في هذا الضريح، تعمّق لدى المرء الإحساس بأنّه في قفص. وبعد أن تأمل القرد برهةً من تلك النافذة، أزاح الكراسي والصناديق لينظر من نافذة أخرى، فتأكّد له على نحوٍ أشدّ وضوحاً، بأنّهم محبوسون في صندوق، لا بل أكثر: محبوسون في صندوقٍ معلقٍ في الهواء. حتى إن تمكّنوا من المرور عبر النافذة، يستحيل أن يقفزوا. أتى وليت الوجه، لن ترى إلّا شفير هاوية مؤكّدة، بين النافذة وبين الأرض عدّة امتدادات. كانت النافذة الأمامية أقل ارتفاعاً من الخلفية بقليل، لكنّ الوضع في الخارج هو هو. بالطبع، كان من الممكن أن يتسلّق الواحد منهم على أكتاف غيره، فيمر من فوق الباب، عبر المنور المطلّ على طريق كوتو. ولكن هناك، على وجه التحديد، أقام شابان يراقبان الوضع، وقد تسلّحا بهراوات طولها ثلاثة أقدام، لا يفلتانها من أيديهما، تحسباً لأيّ طارئ، ومستعدّين لأن يهشّما بها الرّؤوس في أيّ لحظة.

مستحيل الهروب عبر النوافذ. والأمر أعقد بالنسبة لأهل طيبة: حتى شخصٌ ناس-تام لم يكن ليجرؤ على القفز، فما بالك بقرويين جلّهم من المعاقين؟ ثمّ إن خرجوا، كيف يغادرون الجبل وهم تحت أبصار سجانهم وأسماعهم؟

لما نزل القرد، التفتت إليه الأبصارُ جميعاً. وجهه قد تلبّسته صفرة الموت، كأنها اصطدم بجدار.

مكتبة

t.me/soramnqraa

سأله: «وإذن؟»

- ولا حتّى خيالٍ من أملٍ.

تبخّر كلّ أملٍ في الهرب. ولكن على الأقلّ النوافذ الآن مفتوحة، والهواء يدور، وروائح الجبل تصلهم، وبإمكانهم أن يُزجوا الوقت في هدوء جالسين أو مستلقين في غرفهم. كان يبدو أنّ الساعات تمضي مثل حوافر حصان على العشب: بدون ضجيج، وبدون نفس، بطيئةٌ معذبةٌ. ولما استوت الشمس جنوباً تمام الاستواء، نودي عليهم من الخارج:

«هه! ألا تشعرون بالجوع؟»

- هه! ألا تشعرون بالعطش؟

- مهلا! أنت لست عطشان؟

- في حال كنتم جوعى أو عطاشاً، ادفعوا بالنقود وسوف نقدم إليكم الحساء والأرز من النافذة».

كانت الصيحات تمرّ من تحت الباب، ثمّ يتردّد صداها عالياً

وواضحاً في الغرفة. لم يندّ عن أهل طيبة ردّ فعل. ذابوا، كما لو أنّ الرياح حملتهم بعيداً. ولكن حين تبددوا، أيقظهم الجوع. انتزعهم من نومهم قطعانُ الثيران والأغنام التي راحت تتراكم وتقفز في بطونهم. ولفرط ما مرّ النهارُ أوشك على الانقضاء، قريباً يحلّ الغسق. بغتةً، سمعوا ضوضاء. نهض شخص وذهب لينظر ما يجري، وحين عاد أعلن ببرود، كما لو أنّ الجميع كان على علم مسبقٍ بالأمر، أنّهم يسمرون النوافذ. على أي حال هم ليسوا إلاّ معاقين، فما كان لأحد منهم القدرة على الخروج، ليسمّروا النوافذ إذن أو ليركوها مشرعة. واصلوا مقاومة الجوع والعطش، متسلّحين بالصمت، متكئين في كسل على جدار أو نائمين على فرشتهم. على أنّ المقاومة كانت أشبه بأن ترسل بعوضة لتتصدّى لحريقٍ ما انفكّ يزداد اقتراباً واضطراباً.

كانت ضربات المطرقة في أمعائهم الفارغة تدوّي مثل عاصفة رعدية في عزّ موسم استيقاظ الحشرات. وكلّما هوت الضربات، ارتفعت المعدات في ضجة. ووسط تلك الجلبة الهائلة كان عليهم أن يقطعوا مسافة المائة لي من الزمكان اللامتناهي، المسافة التي تقطعها الشمس في رحلتها وهي تغادر حافة الأفق لتلج في الغسق.

وفي الوقت الذي اعتادوا أن يتناولوا فيه العشاء، عاد الجوع والعطش ليهاجمهم. استيقظ النائم منهم. وآخرون لم يستيقظوا لأنّهم كانوا قد فقدوا الوعي. من الأبيض الحارق، انقلب النور إلى الأصفر البراق، ثم إلى الأحمر الدمويّ. كان قد دخل في البداية من الأمام، ثمّ انتقل إلى تمثال لينين والتابوت الكريستال، ليعود الآن

من النافذة الخلفية، فيرسم على الزجاج ما يشبه أقمشة من الحرير الأحمر. وكانت رؤوس المسامير التي تمنعه تبدو من الداخل مثل قبعات صغيرة. إنّ الأشخاص المتواجدين في الخارج كانوا بحقّ ناس -تأمّن، فحتى وإن جثموا على ارتفاع عدة امتدادات، وتحتهم هاويةٌ ووادٍ، إلّا أنّهم بدوا مرتاحين. ولم تكن ماو تشي قد أوت إلى الفراش، فقد أمضت بعض الوقت جالسة، تنظر بعين زائغة إلى الباب. وخلّل الفرجة الواقعة أمامها مباشرةً، كانت ترى التابوت الكريستال منتصباً وسطَ الغرفة الرئيسية، وقطعة القماش الملطّخة بآثار البصمات التي وقّع عليها نحو عشرة أشخاصٍ مطّالين بفكّ الضمّ. لا أحد يدري ما جال بخاطرها. في اللحظة التي غربت فيها الشمس، تنحّى بصرها عن الموضع الذي كانت تحدّق فيه، وأتى يسقط على حفيداتها، تونغهوا، ويوهوا، وهوايهوا وفلين، ثم على الشّلاء المستلقية بالجانب الآخر. كان يبدو أنّها تريد أن تسأل سؤالاً، وفي الآن نفسه كانت توحى بأنّها تتحدث إلى نفسها.

سألت: «هل تشعرن بالجوع؟».

استدارت الرؤوس صوبها.

«اشتري منهم شيئاً إن كان ما يزال لديك بعض المال. لا ينبغي للمرء أن يترك نفسه يموت جوعاً».

أجابت المطرّزة: «لقد هبط اللّيل. ربما يفتحون لنا غداً».

انتقلت ماو تشي الى الغرفة المجاورة وحدقت في القرويين المضطّجين، وكرّرت:

«اشترُوا منهم شيئاً إن كان ما يزال لديكم بعض المال. لا ينبغي للمرء أن يترك نفسه يموت جوعاً».

صمتٌ. اكتفوا بأن حوّلوا رؤوسهم صوب النافذة، والنور، والشمس الغاربة.

انتقلت إلى غرفة أخرى:

«رأبي، إن لم يكن لنا بدٌ من الدّفع، فلندفع. لا يجدر بنا أن نترك أنفسنا نموت جوعاً».

ظَلَّت تتنقّل من غرفة إلى غرفة دون أن تتمكّن من إقناع أي شخص بأن يشتري لنفسه كوب ماء أو رغيف خبز. فهذا يقول: «لم يعد لدي فلسٌ واحد»، وذاك يقول: «لقد سلّبتني أولئك الأوغاد كلّ شيء». كانوا يحتجّون، يتحجّجون بأنّهم ما عادوا يملكون قرشاً، ولا بأس إن ماتوا.

كذلك ولجوا إلى الغسق، ثمّ منه دخلوا في الليل. وبُعِيد ذلك عاد الناس-تأمّون ينادون عليهم، ويزعجونهم: «هل تشعرون بالجوع؟ هل تشعرون بالعطش! ابسطوا المال!» وانتهى المطاف بأحد الأسارى إلى أن دفع بخمسين يوان من تحت الباب، وتلقّى مقابلها نصف كوب ماء، لكن عداه لم يأبه أحدٌ بالعرض، إذ لم يكن أحدٌ يملك شجاعة أن يبذّر مئتي يوان في سبيل الحصول على وعاء من الحساء، بله خمسمائة يوان مقابل شيءٍ من خبز.

انقضت ليلةٌ بتمامها.

وأعقبها نهاراً بأكمله.

وفي ثالث الأيام بلغ بهم الجوع حدّاً أنّ دما مل ضخمة تدّلت من تحت أعينهم، وبدأ أنّ إنسانَ عيونهم يوشك أن يغادر محجره. وصاروا لا يتحركون إلّا مستندين إلى الجدران، وما تزال الشمس تنفث سمّها: كانت تخرق النوافذ وتندفع بأشعتها الحامية كقضبان حديد حمراء. وأخذت شفاههم المتصدعة في النزيف. مقاومةً للاجتفاف، غادروا المهاجع واستقروا في الغرفة الرئيسية أو في المراحيض التي تحوي صنادير كانت فيما مضى تعمل. هناك المكان أكثر رطوبةً، لكنّه يفوح برائحة البول والخرء. كان الغرباء راسخين في قرارهم: ستركُونهم يُشَوونَ هناك. ولم يزدد أهل طيّبة إلّا يقيناً بذلك. وما كان لهم في نهاية المطاف إلّا أن يُخرجوا أموالهم من تلقاء أنفسهم ويدفعون بها إليهم. وباستثناء سؤالهم، ساعة الوجبات، عمّا إذا كانوا جائعين أو عطاشاً، لم يكن السجّانون يفعلون شيئاً غير الانتظار، إذ لا يحتاج الأمر إساءة معاملتهم.

وبالفعل، انتهى الأمر بالأسرى إلى الاستسلام.

عند ظهر اليوم الثالث، أتى الناس -تأمون مجدداً إلى الباب يعرضون بضائعهم:

«هه! هل تريدون ماء؟ مائة يوان للكوب الواحد!

- هه! حساء؟ شربةٌ لذيذة بالبيض والدقيق؟ مئتان! إنّ الوعاء

ممتلئٌ حتّى أنّه يفيض. يفيض حساء؟

- هه! تريدون بعض الخبز؟ خبزةٌ طيّبةٌ، مطبوخةٌ على البخار،

ضخمة كرأس رضيع. أو لعلكم تشتهون حلوى بريوش بالحبّيب؟ أو ربّما تفضّلون فطائر بالبصل؟ فطائر صفراء كالذهب، وعطرة كالكمك؟».

كانوا يصيحون بلا كلّ أو ملل. أحياناً يرتقون السلم، فيبرز وجه مبتسم، ويردد زجاج النوافذ الصرخات، ثماني أو تسع أو عشر مرات، مثل مكبرات الصوت في جهاز الراديو. يمدّون كوب ماء من النافذة: «من يريد؟ هل من مشترٍ؟ لا، حسناً سأهرقه.» وبالفعل كانوا يهرقون الماء. مثل لآلئ من فضّة بيضاء، كانت القطرات تلتصق في الهواء لوهلة، ثمّ تتحطّم صانعةً بركاً صغيرةً على بلاطات الرخام، حيث تختلط بالغبار فتشكّل طيناً رطباً. كذلك يُخرجون لهم أرغفة الخبز: «هل تريد؟ هل تريد؟» كرات بيضاء كبيرة، يفتّونها في الخارج متظاهرين بإطعام الطيور، فلا يبقى منها في الغرفة إلّا رائحةٌ تذكّر بروائح القمح الواهنة التي تجلبها الرياح أحياناً في أزمّة المجاعة. خطاباتهم، والطريقة التي يعبثون بها بالخبز، وفكرة هرق الماء على الأرض، كلّ ذلك كان يجذب أهل طيبة كالذبّاب، فيلتصقون بالباب لمشاهدة الماء يُهرق والفتات يساقط كحبات الرّمل.

شمس منتصف النهار بلغت ذروة العنف. منذ مائة عام لم يبلغ الحرّ هذا المستوى. لا نفس يتحرك داخل الصندوق المُصمّت المسمّى ضريحاً. كأنّها شُفط منه الهواء. وكان التعرّق ليريجهم، لكنّ أجسادهم جفّت من السّوائل فما عاد بإمكانها أن ترشح بالعرق. إنّ لم تنخفض درجة الحرارة، فإنّ الدّم هو ما سيسيل من مسامّهم.

ولمّا لم يكن بإمكانهم سحب سيفون المرحاض، فإنّ المواد التي أخرجوها من أمعائهم أمس، أو أوّل من أمس، ظلّت تتخمّر في المرحاض، فتنبعث منها رائحةٌ ما انفكّت تزداد نتانةً، وتنتشر في الغرفة وتحاصرهم مثل البخار.

وحين أوقف النَّاس -تأمون لهوهم، وتركوا النوافذ لينعموا بقليلة، غرق الكون مجدّداً في الصّمت. كان المكان خائفاً كأنّه قعر قبر أو قبو. وأهل طيبة قد سُلبوا، وأعدّمهم الجوعُ والعطشُ الحركة، فصاروا يتهاوون في كلّ مكانٍ، كمُقعدين.

شفاهم البيضاء اليابسة صارت تبدو مثل صوّان تصدّع.

ولا يُسمع في الخارج غير أصوات أولئك الرجال القلائل. وبعبارة أخرى، طيلة تلك الأيام الثلاثة، لم يصعد أحد. لا أحد يدري خبراً عن الأحداث التي تهزّ قمّة الجبل. لا أحد يدري أنّ قرويي طيبة محبوسون في ضريح لينين، ولم ينزل بطونهم شيء، لا ماء ولا أرز، طيلة تلك الأيام الثلاثة. لا أحد يدري أنّ الصّغير بوليو لم يشرب، على الرغم من الحمى المتقدّة في جسده، سوى نصف كوب من الماء في اليوم، وكلُّ نصف كوب منها كان ثمنه خمسون يوان دُفع بها من تحت الباب.

صار الوضع فوق الاحتمال. وقد أغشي على خال الطفل، من الجوع، بجانب أحد الأعمدة.

منذ يومٍ وليلة، وماء الأصمّ ساجدٌ أسفل حائط، لكن يبدو أنّ بؤبؤيه ما عادا يتحركان.

لم تعد طبّاخةٌ عرجاءُ قادرةٌ على تحمّل العطش، فبالت في وعاء،
وشربت بولها، فأصابها غثيان جاف.

وعند هذه النقطة، وقد بلغت الحرارةُ ذروتها ظهيرة اليوم
الثالث، خرجت ماو تشي من غرفتها تتوكأ الحائط وعكازها.
صار وجهها شاحباً شحوب الموتى، رمادياً جافاً فحّمه الطّقس.
شعرها الأبيض المشعث كان يشابه حزمةً من الأعشاب الشاحبة،
وسترة القماش الزرقاء التي كانت تناسب قياس خصرها، صارت
الآن تطفو على جسدها، مثل قميصٍ نُشر على قصبة بامبو. انبثقت
من دون أن ينتبه إليها القرويون، وكان المرء ليخال أنّها فعلت مثلاً
فعل الجميع، أي بقيت ثلاثة أيام مستلقية في ركنٍ من أركان الغرفة.
ولكن حين فتحت فمها، لم يمكن بمقدورهم الامتناع عن النّظر
إليها والإصغاء إلى كلّ كلمة تفوّهت بها. لم تكن هناك عندما أهرق
الناس-تأمون الماء وفتّوا الخبز، ومع ذلك كانت على علمٍ بكلّ
شيء. متسمّرةً عند زاوية، مستندة بيدها اليمنى إلى عمودٍ، وبيدها
اليسرى إلى عصاها، سألتهم: مكتبة سُر من قرأ

«هل كفّوا عن إهدار الطعام؟».

اكتفوا برفع رؤوسهم إليها.

واصلت: «أعرف أنّه ما يزال لديكم شيء من مال، وأعرف أين
أخفيتموه. ألا تصدقونني؟ حسناً اخلعوا ملابسكم، ولنفتّشكم، ثمّ
لنرفع الطّوب تحت الحصر». وأضافت: «لا ينبغي للكائن الحيّ أن
يسلّم نفسه للهلاك. مائة يوان لكوب الماء، مائتان للحساء، خمسمائة

لرغيف الخبز، إن دفعتم عشتُم، وإن رفضتم فليس لكم إلا الموت.
ما قولكم؟».

وختاماً:

«لا جدوى من ترك المال محبباً. ليشتَرِ كلُّ ما يحتاجه. ثقوا بي:
حتى لو كان ثمّة من سيموت عطشاً أو جوعاً لأنه يملك لشراء
شيء، فلن ننفق عليه فلساً من أموالكم».

كان الصمت من العمق بحيث يمكن سماع أعينهم وقد أشاحوا
بنظرهم إلى ركن الجدار. لقد كشفت سرّهم، بجملة واحدة كشفت
ضعفهم المخزي الذي ظنوها تجهله. كرهها بعضهم، وبعضهم شعر
بالحرج، لكن كان ثمّة أيضاً من شعر نحوها بالامتنان: أخيراً اخترقت
طبقة الورق التي كانت تعزلهم. وماذا بعد؟ ظلّوا في مكانهم جامدين،
يتبادلون لعبة: أنظر إليّ وأنظر إليك، كما لو أنّ كلامها لا يقصد إلاّ
الآخرين. كما لو أنّ هؤلاء الآخرين، إن اشترّوا لأنفسهم ماءً، فلن
يخلّوا عليهم برشفة منه. وكما لو أنّهم إن بادروا إلى جيوبهم واشتروا
رغيف خبز، فإنهم هم من سيضطرّ إلى اقتسامه مع الآخرين. وأكثر
ما كان يقلقهم، أكثر ما كانوا يخشونه، هو أن يكونوا أوّل من يُخرج
أمواله. ربما ينهال عليهم الضرب؟ يلعنون، ويُلعن أسلافهم على
امتداد ثمانية أجيال: «تبّاً لك، كانت تملك هذه النقود، وتركنا، ثلاثة
أيام وثلاث ليالٍ، نموت من الجوع والعطش». بعد ذلك سينتزعون
من نقودك، ويشترون بها الماء والخبز والحساء. فكان أن ظلّوا جلوساً،
مثل جذوع. صامتين صمتاً يوحى بأنّ الغرفة كانت خالية.

وما يزال الجوّ يزداد وباءً.

ما يزال يركد ويثقل، كأنّه بالوعةٌ تصلّدت.

ولو أنّ ورقة شجرة أو ريشة طائر قد سقطت، في غمرة صمتٍ ماثِلٍ، لأحدثت في الأرض حفرة، ولو أنّها في طريقها لامست الأعمدة لصدّعتها، ولو أنّها في تحليقها حطّت على تابوت الكريستال، لحطمت غطاءه شظايا.

حقاً، لقد كان الصمت في ذروته، ولا يمكنه أن يبلغ قراراً أعمق من قراره ذاك. وبالمثل، ما كان ذاك الشعور الذي يحاولون كتمه، ليبلغ درجةً أسوأ من تلك التي بلغها.

ولفرط ما حدّقوا في ماو تشي، وأنعموا فيها النّظر، صارت أعينهم، بلا سبب ظاهر، تعكّس شيئاً من فزع. وبلا سبب ظاهر، أشاحوا عنها، وعادوا يقتعدون الأرض أسفل الحوائط.

وظلّ الزّمن يمرّ ضاعطاً مضطهداً، ثانيةً في إثر ثانية، كأنّها يُحصى شعرات رأس. لعلّه يقطع بضع مئات من اللّيات، لعلّه وجد ما يكفي من الوقت لإحصاء بعض الخُصلات. ما حدث بعد ذلك هو أنّ بصر ماو تشي وقع على الصغير بوليو.

كان يجلس مولياً ظهره إلى الجدار، في الرّكن الأقرب إلى الباب، وكان قد أصابه رذاذ الماء الذي أهرق من النافذة، أصابه عند قدميه، وكاد يفتح فمه لاستقباله، لولا أن منعه الخوف من أن يخطئ استقبال الهدف. ولا نحتاج قولاً إنّ وجهه هو أيضاً قد تلبّسته هيأة

الموتى. ازرقَّ من الجوع والعطش الشديد، وقد تورَّم وصار جلده لامعاً بعض لمعانٍ، كأنه تفاحة أو خوخة فاسدة. شفتاه: ملأتهما البثور، وتصدَّعتا، وصارتا دامتيتن... نظرت إليه ماو تشي، ونظر إليها، فخال أنه رأى شخصاً يشبه أمه، وبدا كالمتردد بين الرغبة في أن يطلق صيحة امتنانٍ، وبين الخوف من أن يكون مخطئاً، لذا فضَّل مواصلة التحديق بعين زائغة. كما لو أنه يريد للنَّاظر إليه أن يدركه، أن يعلم أنه موجود.

وبعد برهةٍ نادته: «أيها الطفل!».

غمغم بشيء.

«هل أنت جائع؟».

أوماً برأسه. وأضاف: «أنا عطشان جداً».

- أعطني بعضاً من المال الذي خطته في جيب سروالك.
سأشتري لك شيئاً».

نزع سرواله أمام أنظار الجميع. إلى سرواله القطني الزهري كان قد خاط جيباً من القماش الأبيض، جيباً سميكاً ومنتفخاً تُغلِّقه خياطةٌ متينةٌ. خفض رأسه، وفكَّ الخياطةَ بأسنانه، وسحب حزمة كبيرة من الأوراق من فئة المائة يوان، وسلمَ العجوزَ مرتجفاً بعضاً منها. أخذت النقودَ، عدَّت منها ستَّ ورقاتٍ، فأعادت إليه الباقي، ثم قصدت الباب تدقُّه، ودفعت من تحته بالنقود مطالبةً بكوب ماءٍ ورغيف خبز.

وفي أقلِّ ممَّا تحتاجه رَفَّةٌ رمشٍ، مُدَّتِ البضاعةُ من النافذة. تحرَّكَ الطفلُ جهةَ البابِ ليستلمَ مشترياته، وعلى الفور انقضَّ عليها، ينهشُ الرِّغيفَ نهشاً ويجمعُ الماءَ جرْعاً. كان مجرَّدَ طفلٍ، فلم ينزعج لفعله أحد، لكن صوت بلعه بدا مثل نهرٍ يسري وسط الغرفة، وصوت مضغه أثار ذكرى المقلبات المذهبة والمقرمشة التي كان الفلاحون يصنعونها تحسیناً لطعامهم المعتاد.

أمَّا هو، فكان كالذَّئبِ يلتهمُ الطَّعامَ من غير أن يعبأ بشيء.

انتشرت رائحة الخبز مثل زوبعة في الضريح. وصدى فكيه المنهمكين في شغلها كان يتدفق كالماء. ولم يكن كبير السنّ. بالكاد نحو عشر سنوات، وساقه اليمنى يابسة مثل خوص قنّب، وهو هزيلٌ مثل ساق نبتة. ولكن مهما بلغت درجة يباسه وشحوبه، فقد كان، هو الذي يعجز عادةً عن يتلع بيضةً دفعةً واحدة، قلنا كان، يفتح فمه مشرعاً كوعاءٍ، وفي ثلاث قضبات كان قد أتى على ثلثي رغيفه، مع أن الرِّغيف كان كبيراً، في حجم رأس أرنب.

كان القرويون يبدون كالمنومين.

لا أحد ينطق بكلمة.

كانوا يتأملونه يلتهم الطَّعامَ، وأعينهم تأكله؛ ينصتون إليه يأكل، وأذانهم تلتهمه. مرَّ القردُ لسانه على شفثيه اللّتين تؤلمانه لفرط ما أصابهما من يباس وتشقّق. وضع ماہ الأصم -وليفهم من يستطيعُ لم- يده أمام فمه. فقط يوهوا، وهوايهوا، وتونغهوا وفلين لم يكن يراقبته: كنّ يحدّقن في جدتهنّ كأنّما بمقدورها أن تُخرج من

العدم حزمة نقودٍ، فتشتري لكلِّ واحدةٍ منهنَّ كوبَ ماءٍ ورغيفَ خبز.

تقدّمت الظّهيرة قطعاً. فبينما يمزغُ، كان قد طيّرَ في الأجواء آلافاً من شظايا الوقت والهواء في الغرفة.

وبغتة فكّ ماه سرواله، وهو يغمغم: «ما نفعُ المال إن مُتّنا؟». أخرج من سرواله الداخلي ألفاً ومائتي يوان، وصاح بصوت عالٍ عند الباب: «رغيفان وكوبان من الماء!»، بينما يدفع بالمال من الشقّ.

برز من النافذة وجهُ رجلٍ ثلاثينيٍّ، وجهه يشع بابتسامةٍ، ومدّ الزّبون بالخبز والماء.

ثمّ أتى الدّور على أبكم. بعد أن أصدر بعض الأصوات كالقرقرة، وهو يضرب على الأرض بقدمه، قام فجأةً، فقصد غرفته، وهناك بدأ في عدّ بلاطات الأرض، بين الجدار وفرشته. فلمّا بلغ البلاطة الخامسة، نبش عن أكياس بلاستيكية مملوءةٍ بحزم نقود متراصّةٍ، انتزع منها حزمةً، وتوجّه إلى ماو تشي، فأعطاه الحزمة وهو يرسم علامة بأصابع ثلاثة. تناولت منه المال، وقالت تشرّح للوجه المبتسم عند النافذة: «ثلاثة أرغفة وثلاثة أكواب ماء». ثمّ دسّت النّقود بين أصابعه، قائلةً: «إنّها ألفٌ وثمانمائة يوان، عدّها إن شئت».

استولى الرجل على النّقود، ومن دون أن يكلف نفسه عناء التحقق استدّار ليصرخ: «ثلاثة أرغفة وثلاثة مياه! بسرعة!».

تلكم كانت الكيفيّة التي بدأت بها الأمور، أي بدأت بغير نظام. لم يعد أحدٌ يختبئ من أحد. وكما قالت ماو تشي، فإنّ على الرغم من السّطو الذي كانوا ضحيّته، فقد بقيت لهم جميعاً بقيّةٌ من مال. فكت بعض النساء أزرار بلوزاتهن أمام الجميع، ليستخرجن منها الكُرز المَخِيطَ بداخلها، حيث أخفين مدخراتهن؛ بينما اضطرت أخريات -أولئك اللّواتي لم يَخْطُن شيئا- إلى الهرع إلى المرحاض، والتّواري عن أعين الحشد، وثمّ العودة بيدين عامرتين.

ومن غير أن يتحرّك خال الصغير بوليو من مكانه، مزّق ساق سرواله، فتساقطت منه مئات الورقات.

أمّا الشّيخ الأعرج الذي كان يدّعي أثناء الجولة أنّ سنّه مائة وواحدٌ وعشرون عاماً، فلم يكن بحاجة إلى أن يخلع ملابسه أو يقصد المهاجع. إذ اكتفى بأن حبا على أربع، وجعل يفتش تحت تابوت لينين، فأخرج حافظةً من أمثال تلك التي يتّخذها سكّان المدن، حافظةٌ ممتلئة البطن، مزدحمةٌ بشتّى الأوراق النّقديّة من فئة المائة يوان، وكلّها برّاقةٌ مبهرة. ناهيك عمّا أخرجه من أوراق حين جعل يخلّل لحيتّه. «اللّعنة على هذا الخرا، ما نفع المال إن هلكنا؟» ولم يُطلب هو خبزاً ولا ماءً، وإنّما ثلاث فطائر بالزّيّت، وثلاثة أوعية حساء. وبالفعل كانت الفطائر صفراء، ومقرمشة، وعطرة. والحساء متماسكاً ويعد بأن يكون طيباً في الفم. ثلاث فطائر، وثلاثة أوعية حساء. بعد أن استلم الطّلبة، وضع وعاءين على الأرض، وذهب يضع البقية -وعاء حساء في اليد اليسرى،

والفطائر في اليمنى - على التابوت، ثم عاد ليأخذ البقية. كان الغطاء اللامع والبراق يبدو تحت الأطباق الموضوعة، مثل مائدة إمبراطور صُنعت من يشم؛ وكان هو يبدو كأنها لا يأكل إطفاء لجوعه، وإنما لكي يقول للآخرين: ما نفع المال؟ ما الذي يجعله ثميناً إلى حدّ الحد؟ إنما الطّعام هو أعظم كنوز الدّنيا! مضغ فطائره كما يجترّ الطّعام الثورُ المعلّف، وشرب حساءه بقدرٍ من الضّجيج مماثلٍ لذلك الذي كان ليحدثه مسيل ماءٍ على تربةٍ رملية. يزدرد الفطائر ازدرداءً، ويعبُّ من الحساء عبّاً، غير آبه بشيءٍ أو أحد. وحتى لو لم يكن يتابعه متفرّجٌ، كان ليعطي الانطباع بأنّه يؤدّي على خشبة المسرح دور جائعٍ ملهوف.

والحال أنّه كان يأكل أمام متفرّجين. متفرّجين عمد كثيرٌ منهم إلى محاكاة الممثل، فأخرجوا مدخراتهم، وأنفقوها بغير حساب، صائحين ساعة الدّفع بها: «سُحقاً! إن كان لا بدّ لنا جميعاً من أن نفعل ذلك، فلنفعله على أمثل نحوٍ. إلينا بطيّب الطّعام، وبشرايه أيضاً!».

وكان ذو السّاق الواحدة قد بقي حتى تلك اللّحظة منزوياً في ركنه، مكتفياً بمتابعة الآخرين، يخرجون فجأةً إلى أموالهم، ويرتمون على الطّعام. لكن، عندما أبصر الشّيخ المُسنّ - وأعوامه المائة وواحداً وعشرين المزعومة - مائلاً على التابوت يملأ بطنه، ملقياً بين الفينة والأخرى بنظرةٍ إلى الموضع الذي كان قد أخرج منه، منذ لحظات، حافظة النّقود؛ قلنا، حين أبصر القرْدُ كلّ ذلك، أينعت في نفسه بذرة

الشكّ. صاح «تبّاً لك!»، من غير أن يدري أحدٌ هل وجّه الشّتيمة إلى الأعرج أم وجّهها إلى نفسه. نزع عن قدمه النّعل السميكة القاع التي كان قد صنعها لنفسه ليقفز بها فوق جبال السكاكين وبحار النيران، ومن فرشّة نعله الثّثنة أخرج نحو عشرة من أوراق المائة، اقتنى بها ما يسدُّ به جوعته.

على أنّه حتى وهو يأكل ويشرب، ما انفكّ يحيل البصر حوله، وما انفكّ بصره ينجذبُ إلى الأعرج الذي ما انفكّ بدوره يراقب رزمة المال تحت التابوت.

في الغرفة، عمّت الفوضى. ومن كلّ موضع كانت تتعالى الصّيحات: أطلبُ رغيفين هنا، وأريدُ كوبَ ماء هناك. واحتشد القرويون خلف الباب، معتكزين عصياً، أو مترنّحين، مقتبسين عبارة الشّيخ: «صحيح، اللّعة على هذا الخرا، ما نفع المال إن هلك المرء جوعاً!».

يقولون: «لنأكل، لنشرب، أولى لنا أن نموت بعسر الهضم، على أن نموت جوعاً!».

يقولون، «مائة يوان للكوب؟ فليكن! حتّى لو طلبوا فيه ألفاً، فسيان! ما عدتُ أطيق!».

امتلأت الغرفة بأصوات مضغهم وبلعهم.

امتلأت بالأذرع والأيدي الممدودة لتدفع.

الشمس صفراء، حارقة وضاغطة. وبعضهم، إذ ابتلع ماءه في

رشفة واحدة، فقد مدّ من فوره الكأس فارغة، هاتفاً بملء الصّوت:
«هاتِ كوباً آخر».

ومنهم من لم يكد يقضم من رغيفه قضمَةً واحدة، حتّى رفع
عقيرته بالنّداء: «واحدٌ آخر بعد! هات رغيفاً، وأيضاً فطيرة!».

وفي تلك اللحظة، فتحت النوافذ الأربع، الكبيرة والصغيرة،
دفعَةً واحدة. فبرزت منها وجوه أربعة ناس-تامّين. كلّها تبتسم في
رضاً، عدا وجه السائق الذي كان يتوسّطها. حشر رأسه في الداخل
وصرخ صرخة تكاد تتمزّق لها رثاه:

«ألم يكن بمقدوركم أن تقرّروا في أمركم مبكراً، بدلاً من
تتركوا أنفسكم تموتون جوعاً!».

ثم: «آسف، لقد ارتفع سعر الخبز. صار الآن بثمانمائة يوان
للرّغيف الواحد، وكذلك ارتفع سعر الماء إلى مائتين للكوب».

في تلك اللحظة صمت القرويّون، ما عاد يُسمع لهم نفس، كأنّما
بكلامه قد صبّ دلوّاً من الماء على النار. وثنى بعضهم الذراع التي
كان قد مدّها لشراء الخبز أو الماء، لكنّ امرأة منهم ظلت مصعوقةً
متحجرة، فاغتتم الناس-تامّون الفرصة في انتزاع الورقات التي
كانت تمسكها بين أصابعها. سدىّ ظلّت تصرخ: «نقودي! لقد
سرقوا نقودي!»، فلم تنل من صراخها إلّا عاصفةً من الضحك:
«أتحسّين أنّنا كنا لنتظر ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ لولا أنّ في نيّتنا أن
نسرقكم؟» صمتت وابتعدت، شادةً بيدها على بلوزتها، في الموضع
حيث كان الكرّز قد خيط. لاحظ القرّد أنّ، في موضعٍ أبعد، كان

السَّيِّخُ الْأَعْرَجُ قَدْ دَنَا غَرِيزِيًّا مِنَ التَّابُوتِ، وَجَعَلَ يَخْتَلِسُ إِلَيْهِ النَّظَرَ.
وَفِي الصَّمْتِ الَّذِي اسْتَقَرَّ، تَحَوَّلَتِ الْأَنْظَارُ إِلَى مَا وَتَشِي.

طَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتُ كَانَتْ قَدْ ظَلَّتْ مَسْمَرَةً إِلَى جَوَارِ عَمُودِ
فِي وَسْطِ الْغُرْفَةِ، قَرِيبًا مِنْ هَوَايِهَا الَّتِي تَسَلَّلَتْ إِلَى ذَلِكَ الْمَوْضِعِ
كَيْ تَتَلَذَّذَ بِنَصْفِ كُوبٍ مِنَ الْمَاءِ وَنَصْفِ الرَّغِيفِ اللَّذِينَ حَصَلَتْ
عَلَيْهِمَا. كَانَتْ تَأْكُلُ مِنْ أَنْ دُونَ تَحْدِثِ ضَجِيجًا وَكَانَ لَذِيذًا. لَا أَحَدٌ
يَدْرِي مَتَى اسْتَلَّتِ الْمَالَ، وَلَا مِنْ أَيْنَ أَخْرَجَتْهَا، الْمَهْمُ أَنَّهَا اللَّحْظَةُ
مَنْزُويَّةٌ فِي غُرْفَتِهَا تَتَلَمَّظُ بِحَلَاوَةِ الْأَكْلِ، وَتَرَاقِبُ بَعَيْنَيْهَا اللَّتَيْنِ
لَمْ تَفْقِدَا شَيْئًا مِنْ حَيَوِيَّتِهِمَا، جَدَّتَهَا، وَشَقِيقَتَهَا الْعَمِيَاءَ وَالْقَرْمَاتِ.
وَكَانَتْ الشَّمْسُ مَا تَزَالُ تَقْتَحِمُ الْمَكَانَ مِنَ النَّافِذَةِ بِنَفْسِ الضَّرَاوَةِ،
وَقَدْ اخْتَلَطَتْ رَائِحَةُ النَّتَانَةِ بِعَبْقِ الْخُبْزِ وَرَطُوبَةِ الْمِيَاهِ الَّتِي أَهْرَقَتْ
مِنْهَا قَطْرَاتٌ فِي غَمْرَةِ الدَّعْرِ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَفْرَغُوا مِنَ الْأَكْلِ،
كَانُوا مَا يَزَالُونَ مَاضِينَ فِي الْمَضْغِ، وَالشَّرْبِ، وَإِنْ انْخَفَضَتْ
الْأَصْوَاتُ الْمَلَاذِمَةُ لَدَيْنِكَ النَّشَاطِينَ إِلَى حَدِّهَا الْأَدْنَى. كَأَنَّ
أُولَئِكَ الْقُرُوبِيِّينَ - عَلَى غَرَارِ جَمْعٍ مِنَ الْجُرْذَانِ أَوْ عَصْفُورٍ يَطِيرُ -
كَانُوا يَخْشَوْنَ أَنْ يُسْمَعَ لَهُمْ صَوْتٌ. أَمَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَتَسَنَّ لَهُمْ
أَنْ يَطْلُبُوا شَيْئًا، فَقَدْ أَخَذُوا يَنْظُرُونَ إِلَى مَا وَتَشِي فِي هَيْئَاتِ يَائِسَةٍ،
كَمَا لَوْ أَنَّ بِإِمْكَانِهِمْ أَنْ يَطْعَمُوا فُورًا. وَغَدَتْ وَجُوهُهُمْ تَصْطَبِغُ
بِصُفْرَةِ الْأَسْفِ. إِنَّهُمْ يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ قَدْ أَضَاعُوا فُرْصَتَهُمْ وَأَنَّهُمْ
مُحْكُومُونَ بِالْمَوْتِ فُورًا جُوعًا وَعَطْشًا. انْهَارُوا أَسْفَلَ الْحَائِطِ،
وَبَعْدَمَا حَدَّقُوا فِيهَا بَرَهَةً، حَوَّلُوا أَبْصَارَهُمْ إِلَى النَّاسِ - تَامِينَ، ثُمَّ
خَفَضُوا رُؤُوسَهُمْ.

لقد انقلب الوضعُ رأساً على عقب. الوجوه في النوافذ ترسمُ ابتسامات وقحة. والشمس الصفراء الملتهبة، تلامسهما قبل أن تنهال بالحرق على عيون القرويين. معلقةٌ فوق رؤوس أولئك الناس - تامين كانت تجعلهم يرشحون بالعرق. ولما كانوا قد نزعوا قمصانهم وستراتهم، فقد صارت أكتافهم العارية تتوهج باللون الأحمر، كأنها طُليت بالزيت الملوّن. وواصل زعيمهم، السائق، الكلام، واقفاً على السلم، بهدوءٍ وصوتٍ قويّ:

«أعرف أنّ كثيراً منكم ما يزال لديهم مبالغ مهمّة. أتساءل ما محصّلة سعر مقعدٍ أو مقعدين عن كلّ عرضٍ؟ لم يسرق منكم الآخرون إلّا الثلث، أو الثلثين كأقصى حدّ. لذا أقولها لكم صراحةً، حين أحصل على نصيبي، وهو بين ثمانين إلى مائة ألف، فلن أطالبكم بعدها بشيء. إلى ذلك الحين، أنا باقٍ هنا، أبيعكم الخبزَ والماء. بالمناسبة، لقد ارتفع السّعر مجدداً: كوب الماء الآن بثلاثمائة، والرّغيف بألف. وإن اشتهيتم خضراً مملّحةً، فإنّ لدينا منها في قائمة الطّعام. ولن تكلفكم الشيء الكثير: يمكنكم الحصول عليها مقابل مائتي يوان».

أضاف: «لا تريدون؟ حسناً هذا هو السّعر، لكن حذار، فقد يرتفع غداً».

ثم أضاف مُلتفتاً جهة ماو تشي: «في الخارج، أنا من يحكم الناس - تامين، وفي الدّاخل هنا، أنت من يحكم فرقة المعاقين. أعرف أنّك امرأة محنّكة مجرّبة، وأنك عبرت جسوراً أكثر مما قطعتُ

أنا من كيلومترات. ولكن هنا الأمر مختلفٌ، حذار: لا فائدة في أن تطيلوا البقاء حتّى تتعفنوا في هذه الغرفة، وأنا أعلم أنّي لم أحصل على كل المال بعد».

ثمّ حدّق فيها:

«لقد قلتُ السَّعرَ. فهل تريدون خبزي ومائي؟

وما يزال يحدّق فيها: «جوابك: نعم أم لا؟» المعذرة يا ماو تشي، لكنّك إن رفضت السَّعرَ، فسوف أرفعه مرةً أخرى. ألف ومئتا يوانٍ للرَّغيف، وكذلك يرتفع سعر الماء إلى الكأس خمسمائة للكوّب. ثلاثمائة للخضر المطبوخة. إن أصررتم على الموت جوعاً، فلن أحول بينكم وبين ذلك. سأُنزل لأغنم مناماً (٥)، حين تقرّرون ناديني».

هوى الصّريح مجدّداً في الصّمت. أولئك الذين لم يفرغوا من مائهم أو حسائهم جاهدوا لابتلاعه في بضع رشقات، لا يضع الواحد منهم الوعاء عند قدميه حتّى يكون قد أتى عليه؛ أولئك الذين كانوا ما يزالون يملكون رغيفاً أو فطيرة كانوا يتساءلون هل يجدر بهم أن يأكلوه أو يخفوه. على أيّ، قد هوى أهل طيّبة في الصّمت. واستعادت النوافذ مظهرها الاعتيادي. بعد إعلانه عن الزيادة الجديدة، ضحك زعيم اللصوص، وأمر رجاله بالنّزول. وكان قد قال: «هه، هزّيهم قليلاً يا ماو تشي، استحيّهم، إن لم يبادروا فسيموتون، وإن غضبتُ فسأرفع الأسعار مرة أخرى.

ثم اختفى.

واستعادت الغرفة هدوءها. واحداً في إثر آخر انسحب القرويون إلى المهاجع. الجميع جلس أو تمدد، كأنها ينتظر الموت. أو ينتظرون أن يقرر الناس - تامون فجأةً فتح الأبواب، وتركهم يخرجون أحياء، حاملين أموالهم معهم.

على أن تلك لم تكن حال القرد. فقد أبصر الشيخ الأعرج يتلمس مرةً أخيرةً، تحت التابوت، قبل أن يبتعد - من غير أن يعرف أحد ما إذا كان يأخذ من هناك شيئاً أو يضع شيئاً. عازماً على أن يذهب فيفتش هناك، اتجه هو أيضاً في البداية إلى المرحاض، وبقي فيه مدةً كافية للتبول. فلما عاد كانت الغرفة خالية، لقد انصرف الجميع إلى غرفهم، بما فيهم ماوتشي التي كانت قد استندت بذراعٍ إلى تونغهوا وبالأخرى إلى فلين. وقد استقررن معاً على سرير، رؤوسهنّ إلى الحائط وعيونهنّ مغلقة.

كل شيء كان هادئاً، غارقاً في حالٍ من الصمت حتى أن بوسع المرء أن يسمع صوت الغبار المتطاير في الغرفة.

بتكتم شديد، ذهب يمرّ يده بين قطع الرخام الذي يستريح عليه التابوت. لم يكن ثمة إلا الغبار. من البين بنفسه أن الشيخ قد انتشل المال الذي كان يخبئه هناك. شعر القرد بالحيرة، لام نفسه على إمعان المراقبة، فلا بد أن الآخر قد انتبه إلى ذلك.

سحب يده ومسحها على الغطاء. وعلى ما أصابه من فتور، إلا أنه لم يفقد كلّ أمل: بعدما ألقى نظرة على أبواب الغرف، حبا على أربع وجعل يتفحص تحت التابوت. لم ير الآثار المستطيلة الثلاثة

الشاهدة على المواقع التي احتلتها محافظُ النقود توالياً، فحسب،
وإنما أبصر أيضاً، على مقربة من رخامات القاعدة، في الوسط تماماً،
حفرة سوداء - كبيرة في حجم نصف كتاب - كأنها نسوا وضع قطعة
رخام أثناء البناء. بجهدٍ بسيط ذراعه في ذلك الاتجاه. من يدري ماذا
لمس، وعلامَ ضغط؛ النتيجةُ أنّ البلاطات التي كان جاثياً عليها
أخذت في التحرك فجأةً. وبعد لحظةٍ، وقبل حتى أن يفهم ما يجري،
كانت قد غاصت بمقدار بوصاتٍ ومالت قليلاً إلى الجانب.

عند قدميه ظهرت حفرة، سوداء غائرة.

تملكه الخوف حتى هوى فيها جالساً.

قبالته، تحت التابوت، تجويفٌ بطول قدمين وعرض قدم.
كان الأمر واضحاً: حين مرّ يده في الحفرة شغل ميكانيزماً. لا
أحد في الغرفة. لا أحد عند مدخل المهاجع. لا أحد عند النوافذ.
كفاه متعرّقتان، وجهه باهت. من التابوت ينبثق شعاع مكثّ من
أن يتفحص، على أفضل نحوٍ، المخبأ الذي انفتح أمامه: بديهيّ كلّ
البداهة، ولعظيم دهشته، ثمة سرداب تحت تابوت لينين. سردابٌ
أصغر بقليل من القاعدة التي تشرف عليه، سردابٌ يبلغ نحو
خمسة أقدام عرضاً، وثمانية إلى تسعة طولاً وثلاثة عمقاً. وكانت
جدرانها مزينة بالرخام الأبيض، أبيض حليبيّ لدرجة أن الناظر إليه
قد يخاله مغطى بثوب الساتان. وفي وسط السرداب تابوت آخر،
مصنوع أيضاً من الكريستال، وربما يكبر قليلاً هنا أو يصغر قليلاً
هناك، لكن في المحصلة كان نسخةً مطابقةً من تمثال لينين. صدمه

هذا الاكتشاف لدرجة أنّ وجهه تعرّق، وخارت ساقاه: كان يشعر
بهما متجمّدتين، شلّتا كأنّهما أصابهما تشنّج، وأخذتهما رجفة. ودّ لو
يسحبهما من فوره، فيخرجهما من ذلك المكان، ولكن يبدو أن شيئاً
ما قد تشبّث بربلته وأخذ يسحبه بكلّ ما فيه من قوّة. خفض رأسه
ليرى على نحوٍ أفضل. خلفه لا يهتّز شيء، ما عدا الشمس الغاربة
التي راحت تُرسل من خلال النافذة أشعّة حمراء دمويّة، تسقط على
تابوت الكريستال، فتطبع عليه انعكاسات شاحبة تبدو كأنّها عقيق
ورديّ. ولما بلغ ذاك الضوء الناعم التابوت الآخر، الموجود بالأسفل
اتخذ لون يشم أسود، مشرق، مع أومضة عميقة ومختلطة، كأنّها سقط
الحجر في الماء. وانتبه القردُ إذّاك إلى أنّ على غطاء التابوت نقشاً:
حروف في حجم وعاء، صفراء كامدة، لكنّها واضحة ومشعّة،
حروفٌ تبدأ من رأس التابوت ولا يفصل بين الحرف والحرف
إلا مسافة أصابع. حروف بخطّ منتظم، أميل إلى الطول منها إلى
العرض، تبرز في سُمْكِ يضاهي سمك لحاء شجرة.

تسعة أحرف مرصّعة، قرأها القرد ببطء، من أوّلها إلى آخرها،
كأنّه يجمع حَبّات بازلاء. كانت الكتابة تقول:

إلى الخالد، الرفيق ليو يانغك

مكث للحظة مذهولاً، ثمّ لما هضم الوضع، استأنف شغلّه.
لكنّه لم يجد وسيلة إلى أن ينتزع، ولو نصف حرفٍ. لذا لم يُطل
التّفكير، وسارع بالقفز إلى خارج الحفرة. وبلا إبطاء أعمل يده

بين الرّخامات داخل الحفرة. وكان يجهل أيّ آليّة كان قد شغلّها، لكن في الموضع حيث كان قد سقط صادفت يده شيئاً يشبه غضن شجرة. بجهد ضغط، دفع إلى اليمين، وسحب إلى اليسار، حتى انغلق لوحا الرّخام في طقطقة خفيفة.

ظنّ نفسه قد انضغط. ما بين فخديه تبلّل، وشيئ ما يشبه الرمل الرطب يحتكّ بجلدّهما.

وإذ لاحظ أن القاعة الكبرى ما تزال على هدوئها، فقد هرع، في خطوات خفيفاتٍ إلى المراحيض، وهناك فكّ حزامه: لم يتبول إلّا قطرات. منذ ثلاثة أيام ما شربَ من الماء إلّا نصف كوب، وقد دفعه الفزع إلى التبول، لكن لم يكن ثمّة ما يمكن أن يبوله: القدر القليل من السائل الذي كان داخل جسده، قد أخرجه في سرواله الداخليّ حين كان ساقطاً في الحفرة. وقد أسعدته القطرات القليلة التي أخرجها، ما دام قد طرد بها البول المتراكم في متانته منذ أيام. إنّهُ في حالٍ طيّبة! وإذّاك، وهو ما يزال داخل المرحاض، فرد عمودَه الفقري، وأمال كتفيه إلى الخلف، ورفع ذراعيه إلى السماء. ولكن في تلك اللحظة، نودي من النافذة فوق الباب. شخصٌ ما كان يصيح:

«هه. يا أهل طيّبة! تعالوا! لنجتمع، لدي ما أخبركم به».

والظاهر أنّ أحداً أتى يستطلع النّداء، إذ سمع القرّد الصّوت يضيف: «اذهب، فاستدعي ماو تشي والآخرين، يجب أن نتشاور، فإن أطعتموني، أطلقت سراحكم».

برهةً بعد ذلك ترددت ضوضاءٌ من الخطوات. غادر المرحاض، فصادف القرويين يخرجون من المهاجع. كان المكان مزدحماً في الغرفة، ولكن لا أحد نظر جهة التابوت، ولا حتى الشيخ الأعرج. برزت في النوافذ مرة أخرى رؤوس الناس -تأمين-. وإذا كان أحد تلك الوجوه يرسم ابتسامة ازدراء، فإنّ وجهاً آخر كان كالحأ عابساً كالحديد. أمّا وجه السائق -الذي يسمّيه معاونوه «الرئيس»-، فقد كان يبدو هادئاً. ومثل المرّة السابقة، كان يحتلّ النافذة الوسطى، وبعد أن مسح الغرفة بنظرته باحثاً عن ماو تشي، بادر إلى الهجوم:

«يا أهل طيبة، ويا ماو تشي! اسمعوني، أصغوا إليّ جيّداً، سوف أتكلّم بصراحة: لقد سئمنا الانتظار. الجو حار، ونحن نفضل العودة إلى ديارنا. ولا تدّعوا أنكم لستم أكثر منّا رغبة في العودة إلى دياركم. وما دام الجميع يتحرّق إلى الدّهاب، فلنكن صادقين: أنتم معاقون، فلستم بحاجة إلى الكثير لتعيشوا في حالٍ طيبة! حتى وإنّ حسبنا الملح والفحم، فإنّكم لن تنفقوا الكثير في شهر واحد. ثمّ إنني لم أعد أطيق أن أراكم هنا، تموتون من الجوع والعطش، داخل هذا الشّيء. ربّما تعوز الواحد منكم ذراعٌ، أو ساقٌ، ربّما يكون قد حُرِم القدرة على النّطق، أو البصر، أو السّمع. الحياة ليست ورديّة. لذا فكرنا، نحن الناس -تأمين-، بدلاً منكم. لقد فحصنا الأمر، وخلصنا إلى أنّكم جميعاً، ما يزال لديكم مال مخبوء في مكان ما. وقد قمنا بالحسابات: كنتم تحصلون، في المعدّل، على قيمة مقعد ونصف من كلّ عرض. لذا على الرغم من أنني لا أعرف بالضبط كم هي حصيلة ستّة أشهر، إلّا أن الآخرين لم يسرقوا منكم أكثر من النّصف

أو الثالث. ما تزال لديكم البقية. والآن -أقصد حالاً-، ما ستفعلونه هو أن تخرجوا تلك البقية، فتسلّمونها إليّ. بعد ذلك، أعيد إليكم ثلاثة آلاف لكل فردٍ، أي ما يعادل مكسب ستة أشهر من العمل نظيرَ خمسمائة يوان في الشهر الواحد منها. خمسمائة يوان يعتبر راتباً جيداً حتّى بالنسبة إلى سكّان المدن. في العاصمة شوانهواي، ثلاثة أرباع العمال لم يتلقوا، منذ عام، أي فلس، وأنا أعطيكُم هبةً. زد على ذلك أنّكم حصلتم على الغذاء، والمأوى، والملابس، من دون أن تدفعوا فلساً. وإذ حسبنا قيمة ذلك كلّه، سيكون عليكم دفع ما بين تسعمائة وألف يوان».

وعند تلك النقطة توقّف. أشعة الشمس النازلة جهة الغرب، كانت تنعكس مباشرةً على شخصه، فتغطّيه بآلئ من عرق. مسح وجهه، وتأمّل الغرفة، فلاحظ أنّ شيئاً من الدم قد تدفّق إلى حدود القرويين، وأنّهم يتبادلون النظرات. بعبارة أخرى، كانوا يزنون الأمر، يفحصون عن إيجابياته وسلبياته، يتشاورون. وحين أشبعوا بعضهم بعضاً تحديقاً، التفتوا إلى ماو تشي. كان يبدو عليهم أنّهم ينتظرون قرارها: ماذا ستقول؟ بمّ ستشير عليهم؟ لكنّها ظلّت هناك، صامتةً، نصف متكئة على عمودٍ في مقدّمة الغرفة، مكتفيةً بالتحديق في الرّجال الواقفين في النّوافذ، يحدّقون في شفّتي السائق. كانت باهتة، بشرتها اصطبغت برماديّ غائم، كأنّها هطل عليها وابلّ من مئآتٍ، بل آلاف الصّفعات واللّكّات، وما يزال يهطل.

وبعدما مسح جبهته، عاد السائق إلى الحديث: «هه! يا أهل

طَيِّبَةٌ! يا ماو تشي! هل فهمت؟ دعونا نسوي حساباتنا مرة واحدة وإلى الأبد: إما أن تعطوني المال، فتعودون إلى دياركم، مع الثلاثة آلاف يوان التي سأمنحكم إيّاها، وهناك تعيشون في حالٍ طَيِّبَةٍ؛ وإما أن تظلّوا سجناء في الضريح، تبدّدون أموالكم، تدفعون خمسمائة يوان مقابل كوب من الماء، وألفاً مقابل رغيف خبز، وثلاثمائة مقابل ملعقة من الخضروات المملحة».

قال: «والا، بالطبع، تستطيعون الاحتفاظ بأموالكم، وألاً تشتروا شيئاً، فتموتون. ربّما ليس الأمر بالسوء الذي نتصوّره. ثمة أصلاً تابوت في الغرفة، وأول من يسلم منكم الرّوح يمكن أن يستعمله».

قال: «فكروا: هل تفضلون الموت والرّقاد في ذلك التابوت، أم تفضّلون إعطائي المال، والعيش في هناءٍ مع ثلاثة آلاف يوان التي سأمنحكم إيّاها؟».

لم يزد كلمة، لقد انتهى الاجتماع، لكنّه وإن أنهى الكلام، فقد واصل التّحديق فيهم، كأنّها ينتظر منهم أن يخضعوا قرارهم إلى التصويت.

ظلّ أهل طَيِّبَةٍ غائصين في صمتهم، وما يزالون يحدّقون في ماو تشي. القبط في الغرفة وصل إلى ذروته، حتّى غدوا يشعرون بألف رطلٍ من الهواء يرخي بثقله على جماجمهم. وهي؟ في تلك اللحظة بالضبط أزاحت كتفها قليلاً عن العمود، وانزاحت بعينيها المتعبتين عن النافذة، وبيّطت أدارت رأسها إليهم، ثم بعد برهة، كما لو أنّها

قد حسمت في أمرها، عادت للنظر باتجاه النافذة، وسألت: «كيف تنوي أن تحصل على نقودك حين تفتح لنا الباب؟».

لم يكن بحاجة إلى النّش كثيراً في رأسه. بنفس الثقة التي يتصرّف بها في الحياة اليومية، حين يجد من النظرة الأولى الموضع الذي يركن فيه شاحنته، قال: هل فكرتم في الأمر؟ إن كنتم قد فكرتم، أصغوا إليّ: حسناً، سوف تصطفّون في الجانب الجنوبيّ من الغرفة، وسوف تبسطون ملاءة، ثمّ واحداً واحداً، بالدّور، سوف تضعون النّقود في الملاءة، وكلّ من وضع نقودَه ينتقل إلى الجانب الشماليّ.» فلما أتمّ كلامه بدأ يتفحّص وجه ماو تشي كأنها يريد أن يقرأ فيه شيئاً. ولم يجد فيه ما يُقرأ. لم تلمس ملاءة، وإنّما خلعت سترتها القماشية الزرقاء، وبسطتها في منتصف الغرفة، ثم بادرت إلى الانتقال إلى الجانب الجنوبيّ، صحبة تونغهوا وفلين.

لقد انقلبت الأمور تماماً. سواء منهم أولئك الذين أكلوا وشربوا، فأطفأوا جوعهم أو عطشهم، أو أولئك الذين لم يذوقوا لقمةً، وما زالوا يصيحون من الجوع؛ جميعهم، في تبلّدٍ ولا مبالاةٍ، لما رأوا ماو تشي تعبر إلى الجانب الآخر من الغرفة، وتأمّلوا وجوه النّاس -تأمّن في النوافذ؛ جميعهم، جميع القرويين، واحداً تلو واحدٍ، انضمّوا إلى عميدتهم.

وكذلك فعل القرد وفعلت هوايهوا.

في الهواء الحارق، بدأت تتكاثفُ شبهةٌ من نضارة.

الأنظار في النوافذ كانت سوداء وبيضاء، كالجليد.

لا أحد في الغرفة يهمس بكلمة. في الصف الأول، جلوساً أو وقوفاً: ماو تشي، الشلاء، الصّغير بوليو، ماه الأصمّ، تونغهوا العمياء، القزمتان يوهوا وفلين. وإلى الورااء قليلاً، بعضهما لصق بعضٍ: الشيخ الأعرج وخالُ الطفل. وفي الصفّ الأخير، وسط آخريْن غيرهما: القردُ وهوايهوا، متقاربين جداً، لدرجة أنّه استطاع أن يهمس لها، من فوق كتفها، في نبرة مازحة: «ما رأيك، عندما نعود إلى طيّبة، سوف أكون غنياً بما فيه الكفاية لكي نتزوَّج».

نظرت إليه بعين متهكّمة، وهي تنفخ لتبدي له قلة اهتمامها به. أضاف باسمًا: «قد تكونين ناس-تامة، طويلةً وجميلةً، لكن بذهبي سوف أشتريك».

نفخت نفخةً أخرى، في بروِد. ابتعدت في هدوء.

دنا منها، وابتسم لها مرة أخرى واستأنف الكلام، بنفس النبرة المنخفضة ولكن بغطرسة: «إن لم تتزوجني، أعدك بأنك ستتحسّرين على ذلك طوال حياتك». ثم أشاح بنظرته، وكذلك تجاهلته هي، ولزّما الصّمت. أمام السّرة الزرقاء كان الصّمت مطلقاً. مدّة من الزّمن، لم يتحدث أحد، ولا تحرك أحد. إلى أن انفصلت ماو تشي عن المجموعة، وذهبت شمال السّرة، لكي تبين لحفيدتها:

«تونغهوا، أبدأ لن تعرفي ما لون النّقود، فما حاجتك بها؟ أين ما خطته؟ أخرجيه، نريد أن نعود إلى بيتنا».

رجفت العمياء بكامل جسدها. وكما لو أنها كانت قادرة على

رؤية جدتها، على رؤية وجهها الذي يختفي تحت هدوئه الكبير، تحولت إلى الجهة التي منها يأتي الصوت. لكن لم تندّ عنها حركة. كانت توحى بالانطباع بأنها، في آنٍ، راغبةٌ في أن تُخرج مدخراتها من مخبئها، وغير قادرة على القيام بذلك. حتّى أنّها ظلت هناك صامتة مترددة، كأنّها سُلت. ولدهشة الجميع، ابتعد القرد عن هوايهوا وتقدّم. سار يعرج أمام أنظار الحشد المذهولة حتى بلغ السترة الزرقاء، فخلع حذائه الأيسر ليُخرج منه عدة آلاف من الأوراق الجديدة، وأخرج من بين فخديه حزمةً أخرى تضمّ على الأقل عدة مئات يوان، ثمّ انحنى ليضعها على السترة.

قال للآخرين: «هذا كل ما لديّ. كأنّها للمال قيمة! ربّ الأرباب! ما من قيمةٍ إلّا لشيء واحد: أن يكون الإنسان في بيته، وفي حالٍ طيّبة!» ثم التفت إلى السائق عند نافذته، وأضاف: «لا حاجة لي بالثلاثة آلاف يوان التي تريد إعطاءنا إيّاها، افتح الباب ودعنا نخرج، وهذا يكفيني لأكون سعيداً. لا شيء سيسعدني أكثر من العودة إلى منزلي.» وكرجلٍ شجاعٍ، انتقل إلى الجانب الشمالي واستقرّ بجانب ماو تشي.

من عليائه رمقه السائقُ بعين راضية، وأوماً إليه إيماءة صغيرة. لقد قلب الوضع. كأنّها فتح الباب، والآن بعد أن اتخذ الخطوة الأولى، بإمكان الجميع أن يحدو حدوه. تبعته تونغهوا. أحنت عمودها الفقري من دون أن تنبس بكلمة، ونزعت قميصها المنقوش، ومزّقت بطانته، فسحبت منها رزماً كانت تخفيها هناك،

ثم تلمّست السترة الزرقاء، فوضعت عليها كلّ المال. وذهبت تتخذ موضعها في السّمال.

قالت ماو تشي: «فلين، أطيعي جدتك»،

فكت فلين شريط المخمل الأحمر السميك الذي كانت تربط به شعرها، وأخرجت منه عدّة لفائف، فتخلّت عنها، ثمّ انضمت إليهم.

فتّش الصغير يوليو في حافظته، ليُخرج منها النقود.

ومن قعر علبة إبرها، انتشلت الشلّاء ألفَ يوان بتمامها.

توارى ماه الأصمّ عن الأنظار ليستخرج ثلاث لفائف من ساق سرواله.

وما يزال بعضهم في ترددٍ، عاجزين عن أن يحسموا في أمرهم. ومثّل ذلك الأكتعُ الذي طوى من العقود خمس، والذي كان يستطيع بيدٍ واحدةٍ أن يفصل الثوم والبصل، ويقطّع الخيار والجزر إلى شرائح رقيقة رقة الورق، ويفعل كلّ ذلك بأسرع ممّا يفعله أمهرُ الطّهاة الناس -تامين. هو أيضا كان قد كسبَ عظيمَ مكسبٍ، لكن لا أحد يعرف أين يخفي ثروته. وقد هاجرت القريةُ بأكملها تقريباً من جنوب الغرفة إلى شمالها، فأُفردَ تقريباً. نظر إلى الوجوه الأربعة في النوافذ الأربع، ونظر إلى القرويين في الجانب الآخر من الغرفة، ثم انصرف إلى المهاجع. ومن هناك عاد، حاملاً معه قبعة شايكا من الصّوف، ففكّ منها إحدى أذنيها، واستخرج حفنة كبيرة من

النَّقود، فوضعها على السَّترَة. ولكن عندما أراد الانتقال إلى الجانب الآخر، أتاه من النَّافذة صوتٌ أمر: «القُبَّعة أيضاً!».

واصل السَّير من غير أن يتخلَّى عن قُبَّعته.

صاح به السَّائق: «أنت تهزأ بي، أليس كذلك؟ يجدر بك الانتباه إلى أنَّك لا تملك غير ذراع واحدة!» فكان أن تخلَّى الأكتع عن قُبَّعته، وكانت أذنها الثانية متصلِّبةً، كما لو أنَّها حُشيتَ لوحاً، بديهيٌّ إذن أنَّها هي أيضاً مليئةٌ بالنَّقود.

صار أهل طَيِّبة الآن جميعاً في الجانب الآخر. من لديه منهم شيءٌ وضعه على السَّترَة، ومن لم يكن لديه اعتذر: «لم يتبقَّ عندي شيءٌ»، لقد وُضعت النَّقود كلُّها مجمَّعةً، فسلبني اللَّصوصُ كلَّ شيءٍ»، وحتى المعتذرون انتقلوا إلى الجهة الثانية. النَّقود ترتفع في حجم جبل صغير، متراكمة كالطُّوب أو مثل حُزم من الملفوف. والشمس السَّاقطة عليها تماماً، قد جعلتها وهَّاجةً، وجعلت رسومها تشرق بألف انعكاسٍ. نصف النَّقود كان ما يزال جديداً كلَّ الجِدَّة، وما يزال يفوح برائحة الحبر الطازج، معطراً المكان كأنَّه قَدْرُ زيتٍ نُصبت في وسط الغرفة. لقد ترك كلُّ منهم هناك عدَّة آلاف من الحيوانات، لا بل منهم من ترك أكثر من عشرة آلاف، بل ثَمَّة من ترك - رغماً عنه - عشرات الآلاف. فلمَّا تراكم كلَّ ذلك، كان الحاصلُ ما وصفناه. كان ثَمَّة من المال الكثير، الكثير لدرجة تصيبُ بالدَّوخة: إنَّها كومة من الدَّهب، جبل من الفضة. ذهل القرويون عن الرِّجال عند النوافذ، ونسوا ما كان مطلوباً منهم

القيام به، وظلّوا هناك، وقوفاً، عاجزين عن أن يحيدوا بأبصارهم عن تلك الكومة التي كانوا يتأملونها كأنّها طفلهم الرضيع الذي يريدون أن يأخذوه بين ذراعيهم. باستثناء الشلاوئين، كانوا جميعاً واقفين، في الجهة الشماليّة من الغرفة، في كتلة واحدة سوداء ومتراسة.

استأنف السائق الكلام: «ماو تشي! أقبلي!» ثمّ أضاف بنبرة صارمة: «الآخرون، لا تتحرّكوا. أمّا أنت، فاجمعي كلّ ذلك في رزمة واحدة، من غير أن يسقط منك فلس، ثمّ ادفعي به إليّ بواسطة عصاك».

صمتٌ مطلق. تحوّلت الأنظار كلّها شطرَ ماو تشي، كأنّها تحاول أن تمنعها من التحرك. وبعد برهةٍ صغيرة، برهةٍ ضئيلةٍ جداً، فعلت ما طُلب منها. جمعت زوايا السترة وياقتها، وعقدت كلّ ذلك بالأكمام، ثمّ تفحصت متانة الرزمة التي صنعتها. وبعد ذلك علّقت الحصيلة في طرف عكازها، وقالت وهي تحدّق في السائق بنظرةٍ لا يشوبها أثر من خوف: «أنا في الحادية والسبعين من عمري يا فتى. وأنا من جرّ القرويين إلى السياحة في العالم، والآن أعطيك المال، فافتح، ودعني أعيدّهم إلى ديارهم». صوتها كانت تعوزه القوّة، كانت تبدو كالمريض الذي بلغه به الداء مبلغاً خطيراً، فوقف أمام الطبيب يتوسّل إليه أن يمنّ عليه بعلاج فعّال. أمّا دكتورنا الماهر -نقصد السائق- فقد لانت نبرته، ولم تعد بشرته سوداء كامدةً، وإنّما حمراء سرى فيها الدّم. قال واعدّاً وهو يُخرج من جيبه سلسلة مفاتيح

«سأفتح ما إن أحصل على المال» ثم هزّ المفاتيح لترنّ، وأضاف:
«اصعدي، أنا لا أخلف وعدي».

إذّاك، وبجهدٍ جهيدٍ، رفعت ماو تشي الرّزمة لتناوله إيّاها.
بهدوء أمسكها.

تمتّ علمية النّقل بسلاسة. توالى الأفعال والأقوال، في وقتٍ أقلّ مما يتطلبه ابتلاع لقمةٍ من خبز، أو رشفة من ماء حين يكون المرء عطشاناً. لم تستغرق العمليّة أكثر من ضربة إبرة. بدّلت النّقودُ المُلّاك. محتفظاً بهدوئه، شدّ الرّجلُ عقدةً لم تكن محكمة الشدّ، ومرّر الحزمة إلى أحد رجاله: «هاك». ثم عاد ينظر داخل الضريح، ومن عليائه تأمل ماو تشي، وبنفس النبرة اللّينة قال لها:
«كل شيء هنا؟»

- نعم.

- هل أنت متأكدة من أن لا أحد أخفى شيئاً؟

- لقد رأيتهم بأّم عينيك».

بدلاً من أن يجيب أخرج لسانه قليلاً، وضغط على طرفه بين شفتيه، فأدخله، وأخرجه مرّةً أخرى، ثمّ أدخله، وهلم جرا، حتى اصطبغت شفتاه الرطبتان بلون الدم. ثم عضّ عليهما متفكّراً قبل أن يسأل مرّةً أخرى في برود:

«القزّمات الثلاث والمدعوّة هوايوا التي كانت تقدّم العرض، هل هنّ حفيداتك؟».

أَلَقْتُ مَاو تْشِي نَظْرَةً عَلَى هَوَايْهَوَا وَيُوْهَوَا وَتُونْغَهَوَا وَفَلِين وَسُط
الْجَمْع. لَمْ هَذَا السَّوَالُ؟ ثُمَّ هَزَّتْ رَأْسَهَا.

«كَمْ عَمْرَهْنَ؟»

- سبعة عشر عاماً.

- حسناً، إذن، بعضكم لديه ذراعان، وساقان، وهم ناس -
تاقون. وقد أكلوا وشربوا، يعني أنهم شدّوا أودهم. لكي
نضمن أنهم لن يهجموا علينا عندما نفتح الباب، سوف
تخريجينهنّ من النافذة» قال: «متى صرنَ تحت يدي، سيكون
بإمكاننا أن نفتح الباب من غير أن يحاول ماء البئر مواجهة
النهر. الجميع سيقوم بما عليه القيام به، وكلّ واحد سينصرف
في طريقه».

ها قد بدأ مسار الأحداث يتطوّر. وكان اللون الأحمر قد
غادر وجنتيّ السائق، إذ غطّت الغيومُ الشمسَ في غمضة عين.
بعد تفكير يبدو استدلاله متأسكاً، إنّه ما يفرضه الحسّ السليم.
في لحظة ما، من خلف ماو تْشِي، تقدم القرويون إلى وسط الغرفة.
كانت الشمس قد مرت فوق السطح، وعادت من خلف. وفي
لحظة ما، كان النور قد ترك بدوره النافذة الرئيسية ليعود متوهّجاً
عبر النافذة الواقعة في أقصى الغرفة. وكان نوراً لطيفاً وأحمر. بدأت
حرارة اليوم تخفت، وبدأ الشعور بالنضارة ينتشر، ومع انتشاره
بدأ الناس يستعيدون رشدهم. تقدم أكبرهم سنّاً ليقفوا بجانب
ماو تْشِي ويبدوا احتجاجهم: «هل تأملتَنا جيداً؟ نحن بين أعمى،

وأعرج، وأصم، وأبله، وأشل، وأكع ومعدوم ساق! قلائل بيننا ناس-تامون، وكلّهم قد طوّوا السّتين وجاوزوها، أنّى لنا إذن أن نسبّب لك الفوضى؟ إن سمحت لنا بالخروج والعودة إلى طيّبة، فإننا سنركع على ركبتينا شكراً لك!

أدار السائق رأسه إلى السماء: «كفّوا عن الهذر، هل سترسلونهنّ؟ نعم أم لا؟».

لم يكن ثمة ما يمكن أن يُضاف، تحوّلت الأبصار صوب هوايهوا والقرّمات. صوب ماو تشي. لم تعد بشرتها إلّا رماداً أبيض سميكا، وعند زاويتي شفّتيها أخذت التجاعيد ترتجف، فتشتدّ وترنخي لارتجافها الشقوق التي تعمر وجهها، حتّى ليُخيّل للنّاظر إليها أنّها نسيج عنكبوت هزّته عاصفة ريح. لم تكن تدري ما إذا كان عليها أن تسمح لحفيداتها بالخروج، ناهيك عما إذا كنّ هنّ سيوافقن. مرة أخرى، لم يعد يُسمع أدنى نفس في الغرفة. الشمس الغاربة مرت عبر النافذة صارّة صريراً ضاجاً مثل صرير الزّيزان حين تنطلق في الغناء ساعة الغسق. أزيز، أزيز يطنّ في كلّ الآذان. وفي غمرة الصمت العميق كبئر، تقدمت هوايهوا فجأة، وقالت: «سوف أخرج. حتّى إن متّ في الخارج سأكون في حالٍ طيّبة، المهمّ ألا أختنق هنا في الدّاخل».

ثمّ دفعت بمفردها الطاولة، حتّى جعلتها تحت النافذة، ووضعت فوقها الكرسيّ، موليةً إلى الجدار جانبه الذي يفتقد إلى القائمة، ثمّ صعدت إلى الطاولة، وارتقت الكرسي، فمدّت ذراعها

بحيث يسحبها الناس - تامون إلى الخارج.

ثم حذت حذوها يوهوا

ثم أتى الدور على فلين.

بقيت تونغهوا وحدها بجوار ماو تشي.

قالت الجدة: «إنها عمياء.

أجابها: - عمياء أم لا، لا بدّ لها من الخروج. أنا متأكد من أنها أعزّهنَّ إليك، بسبب عماها.

قرّرت تونغهوا: أنا لا أرى شيئاً يا جدّتي، وليس عندي ما أخشاه»، ثم تقدّمت إلى الأمام. تحرّكت صوب النافذة، وساعدتها ماو تشي في أن تعثر على الطاولة وتتسلّقها، فترقي الكرسي، ثم عبرت إلى الجانب الآخر مثل دجاجة صغيرة.

لقد فعلوا ما كان ينبغي عليهم فعله، أعطوا ما كان ينبغي عليهم إعطاءه، قالوا ما كان ينبغي عليهم قوله. وهم أولاء ينتظرون أن يُفتح الباب. وفي تلك اللَّحظة فقط طافت ابتسامةٌ خفيفةٌ بشفتي السائق. ابتسامة صفراء زاهية مثل زهور الكانولا في الصيف. ابتسامةٌ تتقدّ زهواً وغطرسةً. ثم بغتةً شرع في الصّراخ: «اللّعة! أتعقدون أنّ بوسعكم خداع الناس - تامين؟ أتعقدون أنني لا أعرف، هه؟ أنّ الحيلة انطلت عليّ، وصدّقت أنّكم أخرجتم كلّ ما لديكم؟ كثيرون منكم ما يزالون يحتفظون بأموال، لقد رأيت ذلك بأمّ عيني! تحت البلاطات أسفل أسرّتكم، في شقوق جدار المراحيض، تحت التابوت

الكريستال، في الزوايا... ما تزال ثمة أموال في كل مكان! لذا سأخبركم بأمر...» كان يصرخ بصوت عالٍ، حتّى أنّ فكّه يكاد يتخلّع إذ كان يفتحه أوسع من مدخل المدينة: «أقول لكم، إن لم تدفعوا بتلك الأموال من تحت الباب، الليلة سوف يلهو الجميع بالحسنة هوايهوا، وقبل أن تغرب الشمس سنكون قد أخرجنا من القزّمات الثلاث أجساد الناس- تامّات الكامنة فيها!».

وإذ نطق كلماته تلك، نزل عن السّلم، كان أشبه برجلٍ يغرق، في ثانيةٍ اختفى.

وكحال الأيام السابقة كانت الشّمس تتقاطرُ حمراء من النافذة أقصى الغرفة، فتسقط على وجوه قرويّ طيبة وأجسادهم.

تعليقات

(١)- حلوى البريوش بالحليب: النّهدان.

(٣)- ماء مُصاد: ماء مستخرج للتوّ من البئر.

(٥)- غنم مناماً: غنم قيلولة.

الفصل السابع

الباب يُفتح، الباب انفتح!

أظلمت السماء كلّ الإظلام.

رويداً رويداً مرّت الأوراق النقدية من تحت الباب إلى الجانب الآخر. لم يتبقّ عند أحدٍ قرشٌ، لا في المبنى ولا داخل ملابسه. وكانت الشلّاء المبادرة إلى الدّفع بالنّقود التي كسبتها في الأيام الأخيرة، وكانت قد خاطتها في طرفي كمّيها. ثم أتى الدور على ماه الأصمّ، فأخرج المال من بين ألواح الحديد. وأخيراً، الأبكم الذي نبش المال المدفون تحت البلاطة أسفل سريره. الجميع سلّم ما لديه. وكانت الشمس قد غربت، لم تعد تقطُر ولا لؤلؤة حمراء من النافذة في أقصى الغرفة. وبينما كانوا ينتظرون أن يُفتح الباب، اكتفى الرّجل المسؤول عن قبض النّقود بأن أشار إلى أنّ اليوم قد أظلم: «ستغادرون غداً، ما هي إلّا ليلة أخرى تقضونها في صحبة التابوت الكريستال، وسوف تحصلون على رواتب ستة أشهر بالتّمام والكمال!».

وهوى مجدّداً كل شيء في الصمت.

هبط الليلُ كسائر الأيام، وتسَلَّلت الرطوبة إلى مرافق النَّصب التذكارِيّ. يقولون: «لقد أظلم الكون، لنتنظر طلوع النهار كي ننظر في أمر خروجنا». الحقّ أنّ لا أحد كان يقوى على أن يقول شيئاً أو يفكر في شيء، لدرجة أنّ الناظر إليهم يتتابه الانطباع بأنّه حتّى لو أنّ الباب كان مفتوحاً، لما همّتهم مسألة ما إذا كانوا سيغادرون أم لا.

عادوا إلى المهاجع وتمددوا محدّقين بأعينهم إلى السقف. تسلَّل القمر كالماء من النوافذ. وفي نوره اتخذ بياضُ القبة الثلجيّ تلونات خضراء شاحبة مثل وجوههم. لا أحد يتكلّم، لا أحد يسأل. لقد استنزفوا، فما عاد لديهم من رغبة إلّا هذه: الاستلقاء، الراحة، ولذلك لزموا الهدوء وتركوا الأمور تأخذ مجراها، موقنين بأنّ الليل سوف يمرّ على ذلك النّحو. لكن بُعيد موعد وجبة المساء، تناهت إليهم، من نقطة بعيدة جداً عن الضريح، أصوات تونغهوا، يوهوا وفلين: كانت الصّبايا يطلقن صرخات موجعة، صرخات دموية ترتفع من الجانب الآخر من الجبل أو من قاع الوادي، صرخات باردة ويائسة، تموت ثم تحيا، موتاً وحياةً متقطّعين، كحال قطع الجليد التي تتصادم في مجرى النهر، في عزّ فصل الشتاء. ومن وقت إلى آخر تُسمع أيضاً أصوات النَّاس-تامين يعوون من المتعة: «حان دورك! إنّ ثقبهنّ مثلهنّ، صغيراتٌ جداً! ضيّقة! فيها تشعر حقاً بأنك في حالٍ طيّبة! استمتع بالثقب، وإلا سوف تأسف على ذلك بقيّة حياتك! ثمّ ترتفع مرة أخرى الصرخات الأرجوانية، الصّرخات السوداء، صرخاتُ القزّماتِ الصّغيراتِ التي ما تنفكّ تزداد حِدّةً وإفجاعاً. في البداية

أصابت أهل طيبة الدهشة، فاستقاموا في فُرُشهم وأرخوا السَّمْع. ثمَّ
هرعوا جميعاً إلى غرفة ماو تشي. وجدوها راکعةً في زاويةٍ تحت ضوءِ
المصباح الأبيض. تصغي إلى شكاوى حفيداتها وتصفع نفسها، ألياً،
كما لو أنها تصفع شخصاً آخر، وتشتم بصوتها الأجش:

«اهلكي...»

اهلكي...

اهلكي...

ألن تهلكي!

ألا فلتهلكي!».

وكان صوت الصَّفْع والشتَم يغطّي صرخات الصغيرات كما
تغطّي الأمطار المتساقطة النداءات القادمة من وراء الباب. كانت
في الحادية والسبعين من عمرها، قد بلغت من العمر عتياً، وتهالك
بدنها، فلا تُطاق رؤيتها في تلك الحالة. حاولوا تهدئتها.

دنت منها الشَّلَاء التي كانت تشاركها الغرفة، لتأخذ بيدها:

«أختاه، لا أحد يلومك...

أختاه، حقاً، لا أحد قال إنه خطؤك».

تحلّقوا حولها، وحاولوا إقناعها بأنّ عليها أن تهدأ. وعندما
استعادت رباطة جأشها كانت الصرخات قد صمتت. كان العالم
كالمتّ، لا يُسمعُ غير القمر والنجوم في حركتها، تتدفق مثل خيوط
عبر شقوق النوافذ.

وكذلك مرّت تلك الليلة.

ليلةٌ نام فيها أهل طيّبة من غير أن يناموا. لا أحد منهم ينطق، لا أحد يقول شيئاً، لا أحد يتحرّك، الجميع يترقّبُ الغد. أن يأتي الغد بأسرع ما يمكن. وحده القرد أنفقَ ليلته يتقلّبُ على الجمر. قال: «ربّ الأرباب! شرب ماء الناس-تأمين حولني إلى خزان خراء». ومرّاتٍ غادر الغرفة ركضاً. ثم، بشيء من الإصرار، متوسّلاً بمسامير، استطاع أن ينتزع الحروف التسعة المصنوعة من الذهب الخالص، والمزروعة على نعش الكريستال الذي خُصّصَ لرئيس الإقليم في الحفرة تحت نعش لينين. الآن هو أغنى سكان طيّبة، الآن سيعيش حياة الأمراء، وسيكون شخصية رائعة.

ظلّوا يغفلون في مرق قلقهم حتّى الصّباح. ولم يكن الصّبح قد بزغ بعد، حتّى استفاق، لسبب ما، الصّغير بوليو. ومن مدخل الضريح سمع صوته يصرخ:

«الباب مفتوح! الباب مفتوح!»

الباب مفتوح! الباب مفتوح!..

تحرّكت القرية من السّرير. أعمى، أعرج، أصمّ.. هرع الجميع، تزاحموا، تراكضوا. سقطت امرأةٌ عرجاء، ونزفت جبهة أخرى لأنّها اصطدمت بجدار. لم يسمع ماها الأصمّ شيئاً، ولكن حين رأى الآخرين يركضون إلى الباب، خرج عارياً من غرفته وركض مثل ركضهم. وبالفعل، كانت دفنّا الباب المطليّتان باللّون الأحمر مفتوحتين على مصراعيهما. رياح الصّباح الباكر تفتحم الغرفة كما

لو كانت تقتحم بوابات المدينة. السماء ما تزال بيضاء بياضاً مبهماً. وإن كانت تلمع على الحجارة السوداء في طريق كوتو بقع ضوءٍ بَرّاقَةٍ كالماء، فإنّ أشجار التّوب والسّرو ما تزال متداخلةً في كتل مبهمة. كأنّما خرج أهل طيّبة من كهف أو سجن، كانوا يفركون أعينهم على العتبة، وبعضهم يمد ذراعيه ويتمطّط كأنّما يريد أن يحضن السماء. وفي تلك اللحظة فكّر شخص ما في القزّمات وهوايهوا، ينبغي إيجادهنّ.

التهمت الفرقة الدّرجات.

وقد عثروا عليهنّ: كنّ في تلك الغرف الفارغة، التي يفترض أن تصير بازارات لبيع التحف المزيّفة. على أرض الغرف تناثرت عيدان الطعام والأطباق والملابس التي تركها النّاس -تأمون، وبقايا متعفنة، وهُنّ. وقد جُرّدن من ملابسهنّ. عارياتٍ تماماً، وكلّ واحدةٍ منهنّ مقيدة، في غرفة معزولة. تونغهوا وهوايهوا على سرير، يوهوا وفلين في أريكة. لقد افتطّلت القزّمات الثلاث، وبما أنّهنّ كنّ صغيراتٍ، فقد مزّقتهنّ آلات الرّجال، وبين أرجلها، تحت الفخذين، بركة كبيرة من الدم كريحه الرائحة، قرمزيّ اللّون، لزج المظهر. ولمنعهنّ من الصراخ، حُشرت في أفواههنّ سراويلهنّ الدّاخليّة أو قمصانهنّ. التّبان، بالنّسبة إلى فلين. وحين عثر عليهنّ القرويون، كان النّهار قد أشرق، وتحوّل النّور المبهم الباهت إلى ضوءٍ صافٍ شفاف، فاستطاعوا أن يميّزوا بوضوح أجسادهنّ الواهنة والرّقيقة والمشرقة، وفد غطّتها كدمات، سوداء، أرجوانيّة،

يختلط فيها الأبيض المزرق مع الخزي الذي لحقهنَّ. وحدَّها هوايهوا
لم تكن بيضاء ولا سوداء ولا أرجوانية: على وجنتيها لون قرمزيٌّ
بليِّل وعذب.

تذكَّروا أنهم لم يسمعوا صراخها في الليلة الماضية. وتذكَّروا
كذلك أنَّ ماوتشي لم تخرج من الضريح. هرعوا عائدين إلى المهاجع،
فألفوها هناك، وقد ارتدت تلك الملابس الجنائزية التي لم تكن
ترتديها حتى تلك اللَّحظة سوى على خشبة العرض، وكان السَّتان
الأسود والحرير المتلألئ، يشعان في الغرفة بألف بريق. وهي جالسةٌ،
لامباليةٌ، كما لو أنَّها كانت تعرف ما وقع في الخارج، كما لو أنَّها كانت
تعرف ذلك منذ الأزل.

قالوا لها: «هه، إنَّ الباب مفتوح.

- عودوا إلى القرية، أنا لم تُعدَّ بي رغبة في العيش بعد الآن.
- لقد هرب النَّاس - تامَّون وسط اللَّيل. أختاه، أنت من أخرجنا
من طيبة، وأنت من يجب أن يعيدنا إليها.
- يجب أن يعود الجميع بسرعة إلى الدَّيار.
- هوايهوا، والقزَّمات ... لقد اغتصبوهنَّ».

ظَلَّت صامتةً لبرهةٍ، وقبل أن تجيب فكَّرت: «بمعنى من المعاني،
في ذلك خير. على الأقلَّ، ستتعلم القرية بأكملها الآن أنَّ عليها أن
تخاف من النَّاس - تامَّين، ولن يرغب أحدٌ في القيام بجولةٍ أو أيِّ
شيء من ذاك القبيل. سيدرك الجميعُ فوائد البقاء في دياره».

حين طلعت الشمس على الجبل، كان الجو ما يزال حاراً كما هو الحال في أيام الرّمضاء. مرتديّة ملابس القبر، ترأّست ماو تشي قرويّ طيبة، حاملين، ساحبين، دافعين أمتعتهم وفرشهم، نازلين من جبال الأرواح الميتة، قاصدين قريتهم. جوهرياً، كان الفصل ما يزال شتاءً: وخارج بالو كان الثلج والجليد قد غطّى كلّ مكان. في السلسلة الجبلية وحدها، حلّ الصيفُ قافزاً من فوق الربيع. وهناك، لم تبرعمُ الأشجار، وتنمو الأوراق فحسب، بل حتّى المروجُ على المنحدرات ازدانت ببسطٍ خضراء وترصّعت التلال بالزّمرد.

في زُمرٍ صغيرة، مجموعات صغيرة، ساروا. ساروا وساروا، وفي الطريق رأوا أشياء كثيرة. كان ناس-تامون، أبصارهم سليمةٌ معافاة، قد أمسكوا بأيديهم عصيّاً، وعصبوا أعينهم، وأخذوا يتمرّنون، ضاربين بها متلمّسين عند حروف الحقول، متنصّتين كالمكفوفين. وآخرون، سدّوا آذانهم بالقطن أو قشّ الدُّرة، وبعد أن وقوا وجوههم بلوح خشب أو قطعة متينة من الورق المقوّى القوي، مضوا يتمرّنون عند مداخل القرى على إطلاق المفرقات من آذانهم.

نساء وصبايا جلسن في الشمس يطرّزن عقدةً عقدةً على أوراق أو ورق شجر. رجالٌ في الأربعين أو الخمسين من أعمارهم، يحصدون القمح، أو ينثرون السّباد، مرتدين أثواب القبر. الناس-تامون يرتدون أثواب القبر، وفي كلّ مكانٍ تراهم: عشرات، بل مائةٌ ربما على بعض المنحدرات حيث تجمعوا يجرفون ما بين براعم. جميعهم ارتدوا

الحرير والساتان الأسود، ثوبَ ساعتهم الأخيرة، وجميعهم قد زيّنوا ظهورهم بحروف كبيرة مثل إناءٍ، مطرّزة بالذهب تقول: توضحية أو قربان أو خلود. كانوا يتحدّثون ويتمازحون، رافعين مجارفهم، ثمّ نازلين بها على الأرض. الجبل كلّه يدوي بحفيف القماش، في كل مكانٍ تحت الشمس لا ترى إلّا ثياب الموت المتلألئة.

وفي قرية أخرى، كان الوضع أسوأ: حتى الأطفال، والأولاد والفتيات، كانوا يذهبون إلى المدرسة مرتدين تلك الملابس. حتّى الرضّع بين ذراعي أمّهاتهم كانت على ظهورهم، متلألئة، كلمات: التوضحية، أو القربان أو الخلود.

لقد اجتاحت العالم.

لم يعد العالم إلّا تلك الكلمات الثلاث.

الكتاب الثالث عشر

ثمار

الفصل الأول

الغسق يقترب،

رئيس الإقليم عاد إلى شوانهواي

في الساعة التي أطلّ فيها الغسق، عاد رئيس الإقليم إلى شوانهواي. عاد أيضاً الفريق المكلف بالذهاب الى بكين بدايةً، ثم منها إلى روسيا لشراء رفات لينين. كانوا قد وصلوا خلال الصّباح، وأنزلهم ليو في مدخل المدينة، وطلب إليهم أن يعودوا إلى ديارهم. ثم واصل هو الطّريق بالسيارة، حتّى بلغ جبل الأرواح الميّتة، في أعماق جبال بالو، وهناك تفحص الضريح فحصاً دقيقاً.

ثم غادر الجبل واستأنف مسيره إلى شوانهواي، وبلغ بوابتها بينما يوشك الغسق أن يُطلّ. ولم يدخل من فوره. صرف السائق، وانفرد بنفسه، وظلّ يذرع المكان أسفل الجدار، جيئةً وذهاباً، بهيأة منزعجة، لا يلوي على شيءٍ، متكوّماً على نفسه كأنها هو خائفٌ من شخص؛ كان روحاً معذباً يهيم عند عتبة مدينته.

كان يفضل الانتظار حتى يطبق الظلام، ليدخل.

وكان اليوم رسمياً، اليوم الأول من فترة التدابير القاسية، من

سنة التنين، الموافقة لعام ٢٠٠٠. والحق، لم يكن الجو شديد البرودة. بالكاد ترى بضع شظايا من الجليد الأبيض على حافة النهر، أما في وسطه، فتتدفق المياه في غرغرة، كشریط رشيق وصافٍ. وفي بالو كان المرء ليحسب نفسه في ذروة الصيف، لقد اخضرت الأشجار، ونما العشب، وحول الضريح مَدَّ بساطٌ من الأزرق الغامق، والزمرد البراق. على أيِّ حالٍ، لقد اقتصرت الظاهرة الغريبة على سلسلة الجبال المذكورة، أما في بقية العالم، فقد كانت الأشياء، والطقس، تتبع مسارها المعتاد. فأيام الشتاء شابهت أيام الشتاء. الأشجار صلعاء وعارية، ومنحدرات الجبال اتخذت لون الرماد الأسود. في الحقول، ترقد براعم القمح في سباتٍ، محترقة وشاحبة، تغطي الأرض كوعيدٍ. وكانت المنازل والقرى معدومة الحركة، حتى لتبدو مثل حظائر توابيت. وكانت تهبُّ ريح خفيفة، ريحٌ شمالية باردة تعصفُ مثل نصلٍ حادة تحت الأفاريز، وفي الأزقة، وعلى الطرق، وبين القمم.

لا شمس في الأفق.

تحت السماء الرمادية، ومع دنوّ الليل، بدأت سحبٌ تتحرك. كان بالإمكان القول إنها ضباب، فقد كانت في الواقع باردةً وسميكةً وقاسيةً، ركدت على الأرض، وعند سفوح الجبل، وفي أغوار الوديان بين التلال. كان العالم مُغرقاً في الصمت، خاملاً ومحبطاً، مثل رجل غادر سريريه من دون أن يأخذ كفايته من النوم. وإن رفعت رأسك، يمكنك أن تستشِفَّ خلف الغيوم والضباب، نجماً موحلاً، يبدو مثل فطيرة ذرة خلف صحيفة معدنية: كان لزاماً

عليك انتظار أن تتحرك الصفيحة المعدنية، حتى تلمح النجم، ولن يدوم لك النظر إلا كما يدوم برق.

كان المفروض أن يتساقط الثلج في ذلك اليوم. لكن الشتاء كان جافاً؛ الجو شديد البرودة، وليس ثمة ما يكفي من الرطوبة. سكان العالم مزكومون ومحمومون، تسمعهم طيلة النهار والليل يسعلون، والأدوية المضادة لنزلات البرد، تُباع كما الحبوب في عام مجاعة. إن الحيوانات لا تخشى الإصابة بنزلات البرد، ومع ذلك اختبأت الحنازير في أغوار الزرائب، تُمضي وقتها في النوم، ولا تستيقظ إلا لتطعم، وحين تشبع تعود إلى مخابئها عاطسةً بصوت عالٍ.

والخرفان؟ نهاراً ترعى العشب الجاف على جناح الجبل، وما إن يحلّ الظلام حتى تعود إلى حضائرها لتقضي الليل.

أما الدجاجات، فكانت تنقر الأرض، طالما الشمس مشرقة، بالعةً في طريقها بضع حبات رمل صفراء، تريح بها معدتها وتقوي حوصلتها، وما إن تحتفي الشمس، أو تشتد الرياح، حتى تحتشد، وقايةً لنفسها، أسفل الجدران الصخرية، أو في منعطفات الأزقة.

كان يوماً بتلك البرودة، اليوم الذي صرف فيه رئيس الإقليم فريقه -باصٌ يحمل ستة أشخاص أو سبعة- إلى شوانهواي. كانوا جميعاً مبهوتين؛ فاجأتهن الأحداث، كأنها ركبوا الطائرة إلى بكين، فلما هبطوا وجدوا أنفسهم في نانجينغ. وقبل أسبوعين، كان ليو قد ذهب إلى الأرواح الميتة، وكان الشريط الذي يفترض أن يقصّه في حفل التدشين، قد سُري، والزهور الكبيرة التي يفترض أن تزيّنه

قد حُزِمَتْ، وَحَتَّى المَقْصُ ذو المَقْبُضِ الأَحْمَرِ كان جاهزاً: لقد جَرَّبَهُ في كِتَاب، فَقَصَّ رَكْناً مِنْهُ بِسُرْعَةِ الرِّيحِ. وَبَعْدَ أَنْ تَابَعَ قُرُوءِي طَيِّبَةً يُؤَدِّونَ فَقَرَاتِهِمْ في مَوَاقِعَ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَلْفَاهُمْ عَلَى أَكْمَلِ مَا يَرَامُ، وَقَالَ لِنَفْسِهِ إِنَّ يَوْمَ الْإِفْتِتَاحِ سَيَحْضُرُ حَشْدٌ عَزَّ نَظِيرُهُ. وَسَيَكُونُ لَزَاماً عَلَيْهِمْ شَدُّ انْتِبَاهٍ، وَإِثَارَةٌ حِمَاسَةٍ، عَشْرَاتُ الْآلَافِ مِنَ النَّاسِ - التَّامِينَ الَّذِينَ سَيَتَدَفَّقُونَ عَلَى الْمَكَانِ. وَقَدْ اتَّخَذَ قَرَارَهُ: كَلَّا، لَنْ يَقْصُ الشَّرِيطُ قَبْلَ الْعَرْضِ، بَلْ سَيَنْتَظِرُ حَتَّى تَبْلُغَ الْمَشَاهِدَةُ ذُرُوتَهَا، وَعِنْدَئِذٍ فَقَطْ، سَوْفَ يَرْتَقِي خَشْبَةُ الْعَرْضِ، وَيَبْدَأُ مَرَامِسِيمَ التَّدْشِينَ، وَيَعْلَنُ عَنِ الْإِفْتِتَاحِ الضَّرِيحِ رَسْمِيًّا، وَيَقُولُ إِنَّ الْفَرِيقَ الْمَكْلَّفَ بِالْحَصُولِ عَلَى الرِّفَاتِ عَادَ إِلَى بَكِينَ، وَأَفْرَادُهُ الْآنَ مِنْهُمْ كَوْنٌ فِي إِتْمَامِ الشَّكْلِيَّاتِ الَّتِي سَتَمَكَّنُهُ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى رُوسِيَا. فِي خَمْسِ ثَوَانٍ كُلِّ شَيْءٍ سَيَتَمُّ، وَفِي غُضُونِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ إِلَى خَمْسَةِ عَشْرِ يَوْمًا، أَوْ عَشْرِينَ عَلَى أَقْصَى تَقْدِيرٍ، سَيَكُونُ بِمَقْدُورِهِ جَلْبُ لِنِينَ، وَالِاسْتِقْرَارُ بِهِ هُنَا، فِي تَابُوتِ الْكْرِيسْتَالِ وَسَطِ جَبَلِ الْأَرْوَاحِ الْمَيِّتَةِ. وَدَائِمًا، فِي الْإِسْتِرَاحَةِ وَسَطِ الْعَرْضِ سَيَخَاطَبُ بِصَوْتِهِ الرَّنَانَ تِلْكَ الْجُمُوعَ، تِلْكَ الْآلَافَ الْمُؤَلَّفَةَ مِنَ النَّاسِ الْبَسْطَاءِ: «قَرِيبًا يَكُونُ لِنِينَ بَيْنَنَا، وَفِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ سَتَتَغَيَّرُ حِسَابَاتُ شَوَانِهَوَايِ الْمَصْرَفِيَّةِ، سَتَخْرُجُ مِنَ الْخَانَةِ الْحَمْرَاءِ، سَيَكُونُ لَدَيْنَا اِحْتِيَاطِي خَمْسَمِائَةِ مَلْيُونِ يَوَانٍ، وَفِي غُضُونِ عَامَيْنِ سَيَقْفُزَ الْمَبْلَغُ إِلَى مَلْيَارٍ، وَإِلَى مَلْيَارَيْنِ فِي ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ!» وَفِي غُضُونِ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ، سَيَمْتَلِكُ جَمِيعُ سُكَّانِ الْإِقْلِيمِ فَيَلًا بِسَقْفٍ مَدْبَبٍ وَأَرْبَعِ زَوَايَا مَعْلَقَةٍ؛ وَمِنْذَ الْيَوْمِ الَّذِي سَيَسْتَقَرُّ فِيهِ لِنِينَ بِالضَّرِيحِ، سَيُعْفَى الْفَلَاحُونَ مِنْ أَدَاءِ أَيِّ ضَرِيْبَةٍ أَوْ مَكْسٍ؛ كُلُّ الضَّرَائِبِ سَتَحَوَّلُهَا

حكومة الإقليم إلى حساب الدولة، من صندوق خاص بذلك. وابتداءً من الشهر الثاني، سيشرّب الجميع، في فطورهم، حليب البقر مع السكر الأبيض؛ إنّ الحليب غنيّ بالكالسيوم، لذا فإنّ أولئك الذين سيرفضون شرّبه، لن يحقّ لهم الحصول على ثلاثة وتلفازٍ ملوّن؛ فإن كانوا قد حصلوا عليها أصلاً، فسوف يصادran منها. ومن يرفضون، في وجبة الظهر، تناول حصّتهم من لحم ضلع الخنزير والبيض، فسوف يعضّون على أصابعهم ندماً حين نوزّع، في نهاية الشهر، الدجاج الأسود ونبات الجنكة، كمكمّلات غذائية. بالجملة، وباختصارٍ، بعد ستة أشهر من وضع الرّفات في جبل الأرواح الميتة، ستقلب حياة السكّان رأساً على عقب، سيتغيّر أسُّ الكون. وسيتقاضى جميع الفلاحين الذين يعملون في الحقول راتباً، لا يرتبطُ مقداره بمهاراتهم كمزارعين، بل بعدد وحجم الزهور التي سوف يزرعونها في الحقول على طول الطريق. هكذا ستحصل الأسر التي تتمكّن من تغطية نصف مو من الأرض بالزهور، على بضعة آلاف يوان، فضلاً عن مكافأة لا تقل عن عشرة آلاف يوان؛ أمّا من يستطيع أن يحافظ على زهوره يانعةً على امتداد الفصول الأربعة، فسوف يحصل على أكثر من عشرة آلاف شهرياً، فضلاً عن عشرات الآلاف مكافأة. لأنه عندما يستقرّ لينين في الأرواح، فإنّ عاصمة الإقليم، لن تظلّ مجرد عاصمة للإقليم، وإنّما ستصير مدينةً جديدة، مزدهرة، ومفعمة بالحياة. مدينةٌ تسيل المياه في شوارها بلا انقطاع، ولا ترى فيها حبة من غبار، وأرصفتها ليست مصنوعة من الطوب، بل من الرخام أو الصوّان. وعند

النقاط الاستراتيجية - مفترق الطُّرق أمام مقرّ اللجنة والمباني الحكومية على سبيل المثال - ستُصنع الأرصفة من حجر اليشم المستقَدَم من جبل فونيو! صحيحٌ أنّه ليس أجمل الأحجار، ولكن لتبليط أرضيّة، فإنّه يفي بالغرض. لنُعَد إلى خرافنا: إنّ امتلاك الكثير من المال ليس أمراً جيداً. إنّ المال قد يغيّر الإنسان. وهذه النّقطة، قد أشبعها رئيس الإقليم تفكيراً. سوف يفاجأ النّاس عندما يلقي عليهم هذا الخطاب، لكنّه سيقول لهم، إلى فلاحيّ السبعمئة وثلاثين ألفاً، وسوف يحذّرهم، يحذر السّبعين ألفاً ونيف، ساكنة شوانهواي: آنذاك، سواء كانوا من سكان العاصمة، أو من سكان أبعد حفرة ضائعة في بالو، فإنّ المشاكل التي سوف تحدّ من أفقهم، لن تكون مشاكل الطّعام والملبس والسكن - ولا ضعف وسائل النقل -. وإنّما سيعاني أفقهم من مشكلة المال. سيصير المال مشكلةً لأنّ مشاكل المال ستعُدم. سوف يحذّر المائة وتسعين ألف بيت الواقعة في نطاق نفوذه الإداريّ: لا ينبغي للأطفال أن يتوقّفوا عن الدّراسة، وللسكّان أن يقضوا أيامهم، لا يفتحون صحيفةً، مكتفين بالسيّاحة في العالم على متن السيارة، وتناول الطّيّبات من الطّعام، واللّذائذ من الأشربة، وتقليب الدّهب كما تقلّب الأرض، والتمتّع بما كسبوه. ممنوع اتّخاذ خادِمات من المناطق المجاورة، تُشغلن في كلّ الأمور، وتُرَهقن بالأشغال كما لو أنّهنّ لسنّ بشراً؛ وحتى في أقصى الأماكن، من المرجح أن تنتشر العادات الشّنيعة والمروعة - من قبيل القمار أو تدخين الأفيون -. لذا سيحتاج إقليم شوانهواي أن يضيف بعض المواد إلى قوانينه:

(١) - الفلاحون الذين لم يزرعوا ما لا يقلّ عن اثنين مو من الزهور أمام منازلهم، وخلفها، سوف تنخفض مكافأتهم بنسبة خمسين في المئة (الحد الأدنى: خمسون ألف يوان).

(٢) - سيتوقف دفع المكافآت والمرتبات مدّة ثلاث سنوات للأسر التي لا يُتمّ أطفالها دراساتهم الجامعية؛ بينما سيحصل الآخرون على مكافأة مضاعفة (الحد الأدنى: مائتا ألف يوان).

(٣) - وسيسدّد الإقليم ضعف التكاليف المتكبّدة، للأسر التي تستخدم الأموال التي لم تنفقها، في إنجاز أشياء مفيدة؛ على سبيل المثال: شراء طاوولات بريدج جديدة لدور المسنّين، ورصف وتبليط الطريق المؤدية إلى الحدائق عند مخرج القرية. أما من ينفقون فائض أموالهم في القمار أو تدخين الأفيون، فسوف يرخلّون جميعاً، بلا استثناء، إلى أفقر محلّ ضمن المناطق المجاورة، حيث يتعيّن عليهم العمل في الأرض والعيش مجدّداً في فقر؛ وأمّا مئات الآلاف من الحيوانات التي كان يُفترض أن تخصّص لهم في شكل أجور ومكافآت، فسوف توهب بالكامل إلى قرية أو مدرسة فقيرة في الإقليم الذي رُحلوا إليه. ولن يسمح لهم بالعودة إلى شوانهواي إلّا حين يكفّرون عن سوء سلوكهم.

منعاً لأن يؤدّي الإثراء المفاجئ إلى جنون مرؤوسيه، وأن تؤدّي الظّاهرة إلى تلطيخ صورته هو، فقد دوّن ليو في دفتر ملاحظاته اثني عشر مشروعَ قواعد ونصوص قوانين. كان يعرف حقّ المعرفة أنّ الذروة الفعلية ليوم تدشين الضّريح، لن تكون هي عروض

القرويين، بل خطابه: سوف يُغرقُ النفوس. كما يعرف أنّه ما أن يفرغ من الكلام، حتّى يبدأ الناس في القفز والوثب كالممسوسين. يخشى أن يهتفوا باسمه كما هتفوا باسم الرّئيس ماو عام ١٩٦٨، لا ريب في أنّ صورته ستعلّق في كلّ منزل، في صدر جدار الغرفة الرّئيسية، ربّما يُكرّم في البيوت كما كُرّم لينين في الضريح. لكلّ تلك الفكر، أرقّ صاحبنا، الدّم يجري في عروقه كالماء المغلي؛ من اللحظة التي انطلق فيها الفريق المكلف باستقدام الرّفات، حتّى اللحظة التي بدأ فيها القرويون عروضهم بجبل الأرواح، ما نام دقيقةً. ثلاثة أيام وثلاث ليال، ما غمض له جفنٌ، ومع ذلك ما تزال أفكاره واضحةً، كما لو أنّه استراح كفايته، وخرج لتوّه من تحت ماء الدّوش.

كلما اقربت ساعة الافتتاح، زادت شبهاً ببركةٍ يرجوها عطشانٌ. لكن، بقدر ما يشتدّ جفاف حلقه، تطول الرحلة؛ سوف يستغرق وصوله ساعات. ولأنّه رئيس الإقليم، فإنّه وإن استهلك نفسه في القلق، إلّا أنّه ينبغي أن يظلّ هادئاً كالبحيرة. لذا، بعد إرسال الفريق المكلف بشراء لينين، وبعد المشاركة في بعض الاجتماعات بالمحافظة وعاصمة العمل، اختفى وسكرتيره في ركنٍ قصيٍّ جنوبيّ الإقليم، ركنٍ أبعد من جبال بالو. لكي ينبعث الصّفاء في قلبه القلق، كان بحاجة إلى تلك الجبال الجنوبيّة، حيث لا يوجد حتى الهاتف. هناك، ولم يُجر أيّ تحقيق، ولم يتفقّد الفقراء، واكتفى بقضاء وقته، في حالٍ طيّبة، عند حافة حوضٍ مائيٍّ هادئ. وكان قد انتظر حتى عشية يوم الاحتفال، أي عندما عادت الفرقتان من جولتيهما، لكي يعود إلى العاصمة، فيصعد إلى جبل الأرواح الميّتة، فيستعيد

من جديد ذاك الهياج السعيد الذي يهزّ روحه. لكن، ما كاد يصعد إلى هناك رفقة قروّبي طيّبة، وما كاد يدخل الضريح، وحتى قبل أن يجد الوقت لإراحة مؤخرته على كرسيّ، حتى استدعته حالة طارئة. استدعته طارئة الطوّاري. كما يحدث، في أصفى حالات الجوّ، حين يدوي الرّعدُ فينتزع الحشرات من سباتها، وتختفي السّماء خلف الغيوم، وتساقط الأمطار، ولا يلوح في الأفق شعاعٌ من الشمس أو القمر.

«يريد سكرتير المحافظة، نيو، مقابلتك على وجه السّرعة.

- متى؟

- اليوم. حالاً. فوراً.

- سأفتح النّصب التذكارى غداً!

- قال إنّ عليك أن تنطلق اللّيلة.

- ألا يمكن للأمر أن ينتظر؟

- يريدك أن تكون في منزله اللّيلة.

- هل الأمر مستعجل إلى هذه الدّرجة؟ هل طلبني بمفردي؟

- لا أعتقد، يا سيّدي رئيس المقاطعة، أنّ سيّدي الرّئيس قد يدعو الكثير من الناس إلى منزله».

وكان السكرتير المساعد الذي أبلغه بالنّباء، قد تلقّى اتّصالاً من لجنة المحافظة، وإذ لم يتمكّن من الاتّصال بليو، فقط اضطرّ إلى

أن يقفز في سيارته ويصعد المرتفع. وخرج على ليو من غير أن يجد الوقت لينفض عن نفسه غبار الرحلة ويمسح العرق المتجمّع كلالى من طين على جبهته.

وقال رئيس الإقليم: «تبّا! لم يغب عن حفل التدشين فحسب، وإنّما يصّر على إزعاجي في لحظة بهذه الأهميّة».

وقال السكرتير المساعد، نافذ الصبر: «اذهب من فورك. حتى وإن كنت متعباً قليلاً. غداً سوف تعود، ولن يتأخر الحفل».

فكان أن انطلق، دون أن يرافقه أحد. فركب السيّارة ونزل الجبل بأقصى سرعة، وهرع من فوره إلى المحافظة. وكان في الطريق، حين وجد هاتفاً، فاتّصل بنيو. وقال له: «ما الخطب؟ شيء أهمّ بألف مرّة، بل بعشرات الآلاف من المرات من أي شيء آخر غيره! سترى بنفسك حين تأتي». وأغلق الخطّ. وكان صوت إغلاق الخطّ أشبه شيء بتكسر غصن شجرة. حتّى أن ليو قد طلب من السائق الإسراع، فانطلق السائق بسرعة الرّيح، كما لو كان يجلد خيولاً. كانت أمامهما أكثر من خمسمائة ليّ يقطعونها، فلمّا وصلا إلى جيودو كان الغسق قد حلّ، وقد ذهبا مباشرة إلى مقر إقامة السكرتير.

في الخارج كان القمر جليدياً، ينبعث منه حفيف، والأرض تبدو كأنّها علّتها طبقة من صقيع. أمّا في الداخل، نقصد داخل المنزل التقليدي الذي يسكنه سكرتير المحافظة، فقد كان الجوّ عذبا، كذاك الجوّ الذي يسود في قمة الجبل أثناء الفاصل الصّيفيّ الغريب. وبالعادة حين يزور رئيس الإقليم سكرتير المحافظة، فإنّه يشعر بنفسه كما لو

كان في بيته، إذ يدخل غرفة المعيشة ويريح مؤخرته على الأريكة. لكن هذه المرة، قد وجد نيو في إطار الباب، يقف بهيأة صارمة، وقد أطفأ التلفاز وألقى صحيفته على الطاولة الخفيفة كما يُلقى بخرقة.

آخذاً أريحته، كعادته كلما دخل هذا البيت، صاح ليو بأنه يتضور جوعاً.

«فلتُمت جوعاً. لقد حدث أمرٌ خطير.

- أياً كانت الخطورة، فإنها لن تمنعني من تناول قطعة!

- لم أستطع ابتلاع أي شيء، طيلة النهار، وأنت تكلمني عن الأكل!».

كانت نبرة السكرتير غير معتادة، لا بدّ أنّ ما حدث خطير. ظلّ رئيس الإقليم مسمّراً في مكانه، يحدّق في السكرتير بعين مذهولة: «هل لي الحقّ على الأقلّ في رشفة ماء؟».

قام نيو عن مقعده: «لا وقت لديك. المحافظُ يطلبُك في مكتبه غداً، مع الفجر».

كان ليو يتابع بعينه كلّ حركة من حركات السكرتير. «ماذا وقع؟».

مدّ إليه رئيسه كوب ماء.

«إنّ الفريق المكلف بالحصول على الرفات، قد أوقفَ في بكين».

لم يتناول الكأس الممدودة إليه. تجمّد وجهه، وابتضّ من الذّهل.

«ماذا تعني؟ لقد حصّلنا جميع الأوراق اللازمة، وانطلقوا مصحوبين بحزمةٍ من خطابات التوصية البيضاء التي يستطيعون ملأها بأنفسهم.

قال نيو، وهو يرفع كأسه: «ماذا أعني؟ ستعرف بنفسك حين تقابل المحافظ.

- لكنني لم أقابله قطّ».

أسند السكرتير نفسه إلى الطاولة، وهي قطعة أثرية مصنوعة من خشب الصندل.

«حسناً، ها قد حصلت على فرصة مقابله رأساً لرأس».

كان رئيس الإقليم قد انقضّ على الكأس، فكرع محتواها دفعةً واحدةً، وبصوتٍ عالٍ، ثم مسح فمه.

«حسناً، لنذهب. إنّ، لينين في نهاية المطاف ليس هو ماو تسي دونغ.

جوابٌ، بعد نظري: «امضي إذن. من ليلتك. اذهب. لكن ضع في الحسبان أنّك حين تعود، قد لا نطلُّ أنا وأنت، لا رئيس الإقليم ولا سكرتير المحافظة».

تجمّد ليو في مكانه، وارتفعت نبرة صوته درجةً:

«لا تقلق يا سيّدي، أيّا كانت المشكلة، فأنا على استعداد لأن أتحمّل المسؤولية كاملةً».

أتت ابتسامة صغيرة تطفو ببطء على شفطي الآخر:

«ماذا عساي أخشى؟ على أي حال، أنا سأتقاعدُ نهاية العام».

كان رئيس الإقليم قد بادر إلى خدمة نفسه بكوب ماء: لا بدّ من أن الماء كان ساخناً بعض سخونة، إذ كانت الكأس في يده تهتزّ. «اشرب وانطلق. لا تقلق، لا يوجد نهرٌ لا يمكن أن نقطعه، أو جسرٌ لا يمكن أن نعبره. عندما أرى المحافظ، سأشرح له كلّ الفائدة التي سيجنيها إقليم شوانهواي من شراء الرّفات، وكذلك الفوائد الهائلة التي ستغنمها المحافظة والعمل».

كان السكرتير ما يزال يبتسم، وجهه شاحبٌ مثل هالةٍ من دخانٍ حول فطيرةٍ محمّصة. ولم يزد على ما قاله شيئاً، واكتفى بأن تناول الكأس من يد ليو ليملاًها له مرّة أخرى، ولما شرب رئيس الإقليم، حتّه على الانطلاق من فوره. وكانت الأشغال قائمةً على الطريق بين جيودو والعاصمة، ممّا يعني أن الرّحلة تكون صعبةً، ولا يملك أن يُبطئ دقيقة.

فانطلق في الظلام بأقصى سرعة. حتّى وإن اشتكى السائق من التعب أو تورم كاحله لفرط ما ضغط على الدّواسة، أو ادّعى أن الإطارات كانت تسحق ضوء القمر على الأسفلت، فترجّفه، وتُجفل الطيور الليلية من مجاثمها في الأشجار على جانبي الطريق؛ عندما بدأت السّماء تتّضح، كانا قد بلغا أخيراً المدينة الكبيرة وغابة عماراتها.

منذ أن عاد إلى الإقليم، ولفرط ما فكّر، لم تعد لديه سوى رغبة واحدة: أن يجثو على ركبتيه، ويسجد لصورته الشّخصيّة؛ لا بدّ من

أن يحرق البخور ويذرف بعض الدموع على مصيره. لحسن حظّه أنّه كان رئيس شوانهواي، وثمّة ثمانمائة ألف شخصٍ مستعدّون لأن يركعوا له، ويقوموا بحركات كاوتاو. هنا، في الصباح الباكر، قد وصل بعد رحلةٍ انطلق فيها بأقصى سرعته، ولم يكرم بطنه ولو بوعاء من جبن الصويا مجمّد، لفرط ما كان يخشى تضييع الوقت. بمعدة فارغة إذن، هرع إلى المقر الإداري لحكومة العمل. وبعد أن قدّم نفسه، وشرح أسبابه، وقيدَ اسمه، تمكّن أخيراً من أن يجتاز حاجز الرّخام البُنّي، فلمّا صار أسفل البناية ذات الطّوابق العشرة تقريباً، اضطرّ مرّة أخرى إلى إخراج بطاقته، بطاقة رئيس الإقليم، ووقف منتظراً لحظات. لحظات! بل قل، ردحاً لا بأس به من الوقت! بدا له الوقت الذي مكث أثناءه منتظراً، أطول بعشر مرّاتٍ من شارع شوانهواي الكبير. كان الوقت تقريباً منتصف النهار، وقد أخذ منه البرم كلّ مأخذٍ، فإذا باتّصالٍ يطلب منه أن يصعدَ إلى الطّابق السادس. أبداً ما كان ليتخيّل أنّ المقابلة لن تستمرّ إلّا بقدر طول نصف عصا طعام. لم يستغرق اللقاء من الوقت إلّا نظير ما قد تستغرقه قطرة ماء لتسقط من سقف.

قال له المحافظ: «اجلس» وأضاف: «لم أطلب مقابلتك لأمرٍ مخصوص. فقط استدعيتك لأعرف كيف تبدو. لم أحسب بأنّي سأرأس رئيس إقليم لديه الجرأة لأن يجمع الأموال، ويقصد روسيا لشراء رفات لينين. ألا تريد الجلوس؟ حسناً، يمكنك الانصراف. أرى أنّك إنسان عظيم. هيّا انصرف، واستقرّ في مكانٍ يكون لك أريح من الكرملين. لقد أمرتُ باستدعاء الفريق الذي أرسلته

إلى موسكو، سيكونون هنا في غضون يومين أو ثلاثة، وهم أيضا أحرص على مقابلتهم. على كثرة مشاغلي، فإنني حريص على أن أتعرف على جميع قادة شوانهواي. بعد أن أنعم إليهم النظر، سوف تعيدهم جميعاً إلى الديار، وتستعدّون لتسليم السُلط).

الأجل سماع مثل تلك الأقاويل، كان قد هرول في منتصف الليل إلى عاصمة العمل؟ لم يتحدث المحافظ بصوت عالٍ جداً - يمكن القول إنّ صوته كان أشبه بالريح التي تنزلق في فصل الشتاء من خلال فجوات باب محكم الإغلاق - ولكن ذلك كان كافياً ليُفرغ دماغه. تحت جمجمته لم تعد تطفو إلا قطع منفلتة من ضباب أسود وغيوم بيضاء. زد على أن ليو كان قد فوّت ثلاث وجبات على التوالي، وما نزل بطنه، طيلة تلك المدّة، غير كأسين من الماء شربهما أمس في بيت نيو، سكرتير المحافظ؛ لذا استولت عليه رجفة محمومة، عدمته كلّ قوّه، حتّى ظنّ أنّه على وشك أن ينهار على المكتب. ساقاه صارتا ليتّين، كفروع الصفصاف في فصل الربيع، أو العجائن التي يطبخها له سكان شوانهواي. ولا نحتاج قولاً إنّ انهياره كان غير وارد. فهو رئيس إقليم، تأتمر بأمره ثمانمائة ألف نفس، ثمانمائة ألف شخص يتحرّقون، كلّما قابلوه، إلى أن يجثوا على ركبهم، ويعظّموه. لا مجال إذن لأن ينهار أمام محافظ. وفي الخارج كانت الشمس قد استقرّت، صفراء ومشرقة، في قمّة المبنى، وضوؤها يسيل من نافذة المكتب، لكنّ نظره هو كان غائماً ورأسه دائخاً. كان يتتابه الانطباع بأنّه ينظر إلى المحافظ، على النّحو نفسه الذي نظر به إليه السّجناء، قبل عامين، حين زار سجن شوانهواي لغرضٍ ما. وكان ليجلس

بكل سرور، فالمقعدُ موجودٌ خلفه مباشرةً، لكنّه لم يغتنم الفرصة في الجلوس حين دُعِيَ إليه؛ والآن، وقد أُمر بالانصراف، ما عاد يجرؤ على ذلك. كذلك كان يستولي عليه عطشٌ فظيع، وكان يحلم بقطرة ماء تروي حلقة اليابس. وبالمناسبة، كان ثمّة موزع ماءٍ في المكتب، خلف كرسيّ المحافظ، وعاءٌ كبيرٌ من ماء الغابات المعدنيّ، ماء يستقدم خصيصاً من الجبل، وعلى الوعاء صنوران اثنان، صنوبر أحمر للمياه الساخنة، وصنوبر أخضر إن كُنت تفضّل الماء بارداً على طبيعته. وكان قد ألقى نظرة على وعاء الماء، ورآه الحاكم ينظر، لكنّ لم يكتفِ بالألّا يعرض عليه كأس الماء التي من شأنها أن تُبرّد نارَ حلقة، وإنّما زاد بأن تناول ملفاً مغلفاً بالأسود، كان موضوعاً على الطاولة، فجعله تحت مرفقه.

لقد دُفع إلى الخارج دفعاً، طُرد كما قد تُطردُ ذبابة.

كان عليه أن ينصرف. لكن، قبل مغادرته، وبرغم كلّ ما حدث، فقد تمهّل حتّى تفحص المكان بعناية. إنّها المرّة الأولى التي يدخل فيها إلى مكتب المحافظ، وواضحٌ أنّها ستكون أيضاً الأخيرة. وبصراحة، هل كان بوسعه إلّا أن يحيط النّظر بكلّ زاوية وركن في المكتب؟ فالمكان لم يكن بالكبر والفخامة اللّتين كان يتصوّرهما. مساحة ثلاثة امتدادات؛ والأثاث يقتصر على طاولة كبيرة، ومقعد جلديّ، وصف من الرفوف العالية، بالإضافة إلى نحو عشر مزهريات، والأريكة الجلدية خلفه، وعلى المكتب، ثلاثة هواتف أو أربعة. عدا ذلك، لم يدقّق ليو النّظر، أو لا يتذكّر. لكنّه، بالمقابل، يتذكّر بوضوحٍ شخص المحافظ، مثلما يتذكّر بالمليمتر قياسات

التابوت الكريستال. جلده الكامد، بانعكاساته القرمزية اللامعة،
يوحى بأنّه يرطب بانتظام، بمُغلى نبتة الجنسُغ؛ ووجهه الدائريّ،
بجبهته الضيقة تحت شعره الأبيض، يوحى بأنّه يعبر الزمن متحدّياً:
تفاحة نفاذة الأريج، جعدتها السنون، من غير أن تطفئ فيها يناعة
الثمرة. كان يرتدي بلوفر من الكشمير الأصفر الشاحب، وسترة
رمادية من قماش فاخر، ومعطفاً صوفاً بلون القمر الداكن. ويتعل
حذاءً من الجلد الأسود، دائريّ الرأس، وبنطاله من نسيج أزرق
داكن. مجمل القول، لم يكن لباسه استثنائياً، إنّهُ من اللباس الذي
نراه، في الشارع، على كبار السن، ممّن يتمتعون بوضع معتبر. كلّ
ما فيه كان عادياً، لدرجة أنّه لم يجد ما يقوله فيه. لكنّ ما أحدث
الفارق، هو نبرة صوته: عذوبة كبيرة، ولكن تحتها برودة صارمة.
إنّه محافظٌ. بوسعه أن يتحدّث عن أشياء ينقلب لها العالم، بالنبرة التي
يتحدّث بها عن المطر أو الرّيح - وليس هذا بالمدّهِش في حدّ ذاته،
لأنّ مع مثل ذلك الصّوت تكسب قوى الطّقس قوّة هدم البيوت،
واقتلاع الأشجار من جذورها. وبالمقابل، يستطيع أيضاً أن يحكي
لك أموراً تُجمّد منك الدّم، بنبرة أتونٍ يضطرم. الحقّ، إنّ في أغوار
تلك النيران، ترقّد ثلوجٌ أبدية.

أجل، ذاك هو، يتحدّث عن أخطر الأحداث، وأشدّها إذهالاً،
فترها كأزهار صفصاف تتمايل في الرّيح. وعن أشدّها إثارة للفرع،
فترها حبات سمس تسقط في أثر حافر ثور. في تلك اللّحظة، لم يكن
ليو يدرك بأنّه يعبرُ بفنٍّ أعمق من المحيط. وإنّما قال لنفسه فقط: أنا
لم أقضِ الليلة كلّها في السيّارة، وانتظرت كلّ هذا الوقت، لتقابلني

بتلك الجُمْل القليلة. حتّى لو أنّي ارتكبتُ أسوأ الجرائم، فمن حقّي أن أردّ - حتّى لو كان ردّي بضع كلماتٍ لا غير، حتّى لو لم يكن أطول من عود ثقابٍ أو بذرة صويا. لكنّ الحاكم كان مصمماً على الخروج، وملفه الأسود تحت إبطه، ولم يكن لرئيس الإقليم مناصٌّ من مغادرة المكتب.

ذلك كان كلّ نصيبه. بضع جمل بالكاد. لحظات قليلةٌ عابرة، برهةٌ لا تتجاوز نصف عصا طعام، وقتٌ أقلّ ممّا تستغرقه بضع قطرات لتسقط من السطح. لم يمهل الفرصة حتّى ليستلّ خيطاً من بياض دماغه. غادر رئيس الإقليم المكتب يرتجف على ساقيه الناعمتين، ولما تمالك نفسه أخيراً، كانت المقابلة قد انتهت. لقد رآه المحافظ، وقال له ما كان يريد قوله. وكما يُرمى بكيس من السماد من أعلى الجبل إلى قاع الهاوية، أو كما سيقط المطر في ذروة الرّمضاء، ألقي إلى الرّيح بمجهود حياته. مثل زهيرات صفصاف أو زهور حور، في غمضة عينٍ كانت جهوده قد طارت مع الرّيح، لم يبقَ منها شيءٌ، ولا يعرف حتّى أين ستقع. لقد دخل ليوينغك على المحافظ، وخرج من عنده، من غير أن ينطقَ جملةً.

ثمّ مَرَضَ. أصيب بنزلة برد، أزمَ، في غرفة فندقه الصغير ظلّ يغلي من الحمّى. في شوانهواي، كان سكرتيه ليتصل بالمستشفى، فيطلب أفضل الأدوية، أمّا هنا في عاصمة المحافظة، فقد اضطر إلى الاكتفاء بالنوم ثلاثة أيام متتالية، وبيتلع، شبه فاقد الوعي، من الحبوب حفنًا، كما قد بيتلع بازلاء مقلية، وقد ترسّخ عنده اليقين بأنّ درجة حرارته لن تنخفض أبداً، وأنه لن يتوقف أبداً عن السعال

وأن رثيته ستتضرّران. ولكن بعدما عاد من بكين الفريقُ المكلفُ بالحصول على رفات لينين، واستقبلتهم لجنة المحافظة التي كُلفت بذلك، ومنحهم الحاكم أيضاً بضع دقائق من وقته. قلنا، لما حدث كلّ ذلك، فجأةً تحسنت حالته، وانخفضت الحمى، كأنّها مرضه ذاك لم يلمّ به إلّا لكي يمنحه فرصةً للنوم وانتظار ما سوف يخبرونه به.

«ماذا قال المحافظ؟

- لم يقل شيء الكثير. كان يريد أن يطمئنّ أنّنا في كامل قوانا العقلية، ولو تأكّدت شكوكه فسيطلب من مستشفى المجانين في المحافظة، أن تفتح قسماً للعلاج النفسيّ في شوانهواي.

- قسم ماذا؟

- شيء يعالجون فيه المجانين. قال إنه يخشى أن نكون حمقى سياسياً.

- نيك أمّه! وماذا قال أيضاً؟

- قال أيضاً أنّه قد سمح لنا بالعودة إلى الإقليم، وأن نواصل أداء مهامنا بضعة أيام أخرى، وإنّنا ما نزال في مناصبنا، لكن قريباً سنعود إليه ليخلّصنا من أعبائنا.

- نيك أمّه! نيك أمّه وأمّ أمّه!».

سدى ظلّ يشتم، فليس بيده إلّا أن يعيد الفرقة إلى الإقليم. كانوا مجبرين على الإقرار بأنهم -على غرار الطّلاب الذين، بعد سنوات وسنوات من العمل الشاق، مُنعوا من الدّخول إلى قاعة الامتحان-

قد بذلوا كل ذلك الزمن وكل تلك الجهود هباءً. لقد طار شغلهم كالدخان، تبدد كغيوم بيضاء! خابت آمال حياتهم طرّاً. ولما غادروا العاصمة، كانت السماء ملبدة بالغيوم، وقد نقلهم قطار في البداية إلى المحافظة، ثم منها واصلوا على متن الحافلة التي أرسلها إليهم الإقليم. وطوال الرحلة، لم يفتح أحد منهم فمه، لا رئيس الإقليم، ولا واحد من رفاقه الذين تناثروا في كل مقعد. طوال الطريق اتخذ وجهه ليو لون الكاكي الأخضر، كان يبدو كالمحتضر، منظرٌ مروّع. طوال مسافة البضع مائتي من الليّات التي قطعوها، لم ينطق بكلمة، ولا تحرّك من مكانه في الصف الأمامي. لقد قاموا، قبل الذهاب إلى بكين، بملء جميع أنواع الاستشارات ليحصلوا على إذن بالسفر إلى موسكو، واقتنوا تذاكرهم، وكانوا على وشك أن يطيروا، وعلى استعداد للتفاوض على الرفات المدفون في الساحة الحمراء، وإذا هم يضطّرون إلى ختم من طرف بعض مصالح الدولة، على التصريح الذي زوّدهم به الإقليم. لم يكن ينقصهم إلّا ذلك الختم: دائرة حمراء بسيطة، بداخلها أقل من عشرة أحرف. لكن حين أتوا يسألون الختم، قيل لهم: «تفضّلوا، اجلسوا. ستضطّرون إلى الانتظار قليلاً، فاشربوا شيئاً في أثناء الانتظار، ولا تقلقوا». وبعد أن قدّم إليهم كأس ماء، غادر الشخص الذي رحّب بهم. وبعد ذلك بمدة يسيرة، ظهر شخص آخر، سألهم شتى أنواع الأسئلة: هل يملكون الأموال اللازمة للحصول على الرفات؟ أين يقع الضريح الذي سيضم لينين؟ وما حجمه؟ وهل اتُّخذت جميع الاحتياطات التّقنيّة للحفاظ على الجثة؟ وكم سيكلّف دخول المنتزه الغابويّ؟ وكيف ينوي الإقليم

استثمار أمواله، ما إن يراكم ثروة...؟ في المحصلة، طُرحت عليهم شتى أنواع الأسئلة التي قد تُطرح، وقَدّموا لهم جميعَ الإجابات التي يمكن أن تُقدّم. وفي نهاية المطاف، كرّر عليهم الشَّخصُ المذكور، أن لا خوف عليهم ولا داعي للقلق. «إنَّ المسؤول عن الختم قد خرج في رحلة إلى سور الصَّين العظيم، ولكنَّا اتصلنا به وطلبنا إليه التعجيل بالعودة، ما عليكم إذن إلا الانتظار والصَّبر، وحين يحين موعد الغداء، سوف نقدّم لكم طعاماً». فكان أن صبروا وانتظروا، حتى أتى أطر المحافظة المكلفون بإعادتهم إلى ديارهم.

قُضي الأمر. بعد حفل أوبرا، وبعد أن يكون الجميع قد غنّوا بمرح، يأتي وقت تنظيف المسرح ولمَّ الإكسسوارات. لا أحد يعرف فيما كان يفكر ليو ينغك أثناء الرحلة، لم يخطر ببال أحدٍ أنَّه سيذهب لإلقاء نظرة في الأرواح الميّتة. على أيِّ حالٍ، منذ أن عادَ، منذ وقفَ، والوقتُ غسَّقُ، عند البوابة الشرقيّة للمدينة، كان وجهه، في ضوء النّهار الغارب يشبه، أكثر من أي وقت مضى، وجهَ جثة. مثل ثمرة كاكي فاسدة، رماديّة داكنة، برونزية مخضّرة، ثمرة عفنة، عدوانيّة الرّائحة. هل أبيض شعره منذ لقائه بالمحافظ، أم منذ زيارته للضريح؟ الحال أن شعره الآن أبيض، أبيض مثل عشب طائرٍ أبيض. لقد شاخ رئيس الإقليم بغتةً.

إنّه رجلٌ مُسنٌّ هذا الدّاخل الآن إلى شوانهواي سيراً على قدميه. وتحت خطواته يحسّ الأرض لينّةً، وإن لم يحاذر، فسوف يسقط.

بحساب كلّ شيءٍ، وحتى إن وسّعنا المزولة إلى مداها (١)،

فإنّ بضعة أيّام فقط مرّت، منذ فارق ماو تشي والفرقتين، قبل العرض الأول في جبل الأرواح الميتة، ومع ذلك يشعر أنّه قد غاب سنواتٍ، بل عقوداً، بل نصفَ حياته. ينتابه الانطباع بأنّ السكّان لن يتعرّفوا عليه بعد الآن. هذا الشارع الذي يبدأ من عند الجدار القديم، كان يسير عليه، سواء حين يقصد الرّيف في جولةٍ، أو حين يحضر اجتماعاً في العمل، لقد سار عليه ما لا يحصى من المرات. لكنّه كان يفعل ذلك وهو في السيارة، فتمرّ المناظر الطبيعية عبر النافذة بسرعة الرّيح. مرّ، ومرّ، ولم يبقَ في ذاكرته شيء. وعندما كان ينزل من سيارته لأيّ سببٍ من الأسباب، فإنّ النّاس كانت تتعرّف عليه، ومن فورها تنشُبُ الفوضى. فورة يتخلّلها الهتاف من كلّ جانب: «سيّدي رئيس الإقليم!»، «سيّدي رئيس الإقليم!» يتحلّقون حوله، فهذا يدعوه إلى الغداء في منزله، وذاك يأتيه بمقعد ويحشره تحت مؤخرته، وآخر يسأله أن يجلس للحظةٍ على عتبة بابهِ، وغيره يدفع برضيعٍ بين ذراعيه، لكي يحمله قليلاً، ويتوسّل إليه أن ينعم عليه بشيءٍ من حسن الطّالع -ليجعلهُ القدرُ موظّفاً حكومياً- وأن يختار له اسماً؛ بعضهم يطلب إليه أن يكتب له بخطّه الأخرق عبارةً من العباراتِ، يعلّقها على واجهة متجره؛ وبعض طلّاب المدارس يطلبون منه توقيعاً على كتبهم أو دفاترهم. لقد كان في هذه المدينة إمبراطوراً، محلٌّ فيدخل النّاس في حال جذبٍ من الفرح، لدرجة أنّه لم يجد يوماً الفرصة للاهتمام بالمناظر الطبيعية أو الأرضفة. ولكن اليوم، وفي هذا الشفق البارد والجافّ، كان السابلة قلائل، وأبوابُ المتاجر أغلقت. ولا قِطّ يظهر، لا في الأزقة ولا في الشارع الطويل.

إنّ الهدوء مطبّق، حتّى أنّ المرء قد يحسب نفسه يتوغّل في الصّحراء،
ليس ثمة سوى بضع دجاجات ما تزال تطلّ بمناقيرها.

إنّ الخوف من لقاء النّاس، هو ما دفعه إلى أن ينزل من السيّارة
عند باب المدينة، ويتسلّل عبر الأزقة. لكنّ الأزقة كانت فارغة، فلم
ينتبه إلى وجوده أحد، ولم يتعرف عليه من أوّل نظرة أحد، على دأب
ما كان يحدث في الماضي. وكم كان يغلي، كم كان يحترق الآن، وهو
شاهد على حاله! إنّ هذه العاصمة كانت له! وهذا الإقليم، إقليم
شوانهواي.

لا أحد هنا يعرف من يكون. ليو يمشي على قدميه في الشوارع:
لو تعرّفوا عليه لصدموا. أجل، لكنّهم كانوا هنا أكثر من مشغولين،
وإذا رأى أحدهم بالصدفة هيأة، فإنّه يعجل بالدخول إلى منزله،
مستعجلاً بضراوة الاحتماء من البرد. ولن يخطر بباله أن يدير رأسه
صوب رئيس الإقليم! خرجت امرأتان من بيتيهما ووقفتا لبرهة
عند عتبة الباب، فوق بصرهما عليه، لكن لما كانتا لم ترياها من قبل،
فلم تتعرّفا عليه؛ ونادت كلّ منهما طفلها لتناول العشاء، ثمّ دخلتا
إلى المنزل وأغلقتا الباب. إنّ المدينة القديمة لا يمكن أن تُقارن
بالحديثة؛ فمنازلها متهالكة، وليس فيها من منشآت حديثة غير
تلك المباني المستطيلة النّادرة، المبنية بالطوب العاري، والتي يذكّر
منظرها بتوايت من خشب الصّنوبر لم يُعتنى بطلائها. ولفرط ما
سار ليو ينغك وسار، بمفرده، يجر جر خطواته، فقد كان يشعر كأنّه
سائر وسط مقبرة، كأنّه نهض من بين الأموات، ولهذا السّبب لا
يجرّو النّاس على النظر إليه. قصّده رجلان حاملين محامل فاكهة.

بديهيُّ أنَّهما كانا ينويان بيعها في سوق المدينة الجديدة. وبديهيُّ أيضاً أنَّهما كانا من ناس الإقليم، من أبناء الحيِّ القديم، قطعاً.

قال في نفسه، قاطعاً وعداً: إن تعرّفا عليّ، إن توقّفا لتحيّتي، فغداً يكون أحدهما نائبَ رئيسِ مكتبِ الشؤون التجارية، والآخر نائبَ رئيسِ مكتبِ شؤون التجارة الخارجية. كان ما يزال هو الحاكم في شوانهواي، ويستطيع أن يعيّن من يريد، حيثُ يريد. حتى مدير مكتب! فمساعد! كان يكفيهما أن يتعرّفا عليه، وأن يضععا عن أكتافهما المحمل، وينحنيان أمامه، أن يحيّياه بصدق، ويقولان له كما كان يقول له أيّ شخصٍ في الزّمن الذي مضى: «مرحباً، سيدي رئيس الإقليم!».

توقّف في مكانه، ينتظر أن يتعرّفا عليه، فيستوقفانه.

ألقي إليه الرّجلان بنظرة، ومرّا من أمامه، حتّى لامسأه، وأكملّا طريقهما. تحرك صوتُ المحملين ماضياً إلى البعيد، وما يزال يضعف ويتضاءل ويدوب، حتّى تلاشى في الصّمت.

مذهولاً تابعهما رئيس المنطقة يضيعان في ظلام الغسق. لم يتعرّفا عليه. أحس في قلبه، لذلك، مثل لدغة ثعبانٍ أو لسعة دبور. ومع ذلك ابتسم: فقد خسر هذان الاثنان للتو هدرأً (٣) فرصةً لا تعوّض، ليصبح كلّ منهما رئيس مكتب أو نائباً في حكومة الإقليم. وما زال في وحدته سائراً، حتّى خرج من المدينة القديمة، ودخل في الجديدة. وكلّما قابل شخصاً، توقّف على أمل أن يتعرّف عليه الشخص؛ إنّ من يتعرّف عليه سيكون ابتداءً من غد، واحداً

من المديرين التنفيذيين. لكنّ أحداً لم يتقدّم إليه، بعدما رصده من بعيد؛ أحداً لم يهرع إليه متهللاً مشرق الوجه، فيومئ إليه برأسه، وينحني له، ويهتف في مودة «سيّدي رئيس الإقليم». وها قد أطبق الظلام على الأجواء. هوت شوارع المدينة في نفس الليل الذي تهوي فيه أزقة قرية من القرى، ولم تضيء أضواء الشوارع خلفه حتى وصل إلى مقر إقامة المسؤولين. أبداً لم يشعر بمثل الرغبة التي شعر بها اليوم في أن يتعرّف عليه أحد، وينادي عليه. من كان يتوقّع أنّه، وهو الذي انتظر حلول الظلام ليدخل إلى المدينة، خشية أن يتعرّف عليه أحد؛ من كان يتوقّع، بعد كلّ ذلك أنّه سيعبر المدينة من غير أن يحفل به أحد! أو لعلّ أولئك الذين صادفوه، لم يتعرّفوا عليه لأنّ الظلام كان دامساً. كان قلبه فارغاً، مثل الجرن الذي سطا عليه اللصوص، فلم يغادروا فيه حبةً من قمح: مثل كوخ مهجور كبير. سوف يتعرّف عليه بواب السكن من أوّل نظرة، وسيسارع لتحيّته، هذا بيّن بنفسه. لكن عندما بلغ مستوى البوابة، لم يبصر في الأفق أيّ رجل مسنّ. ومع أنّه رأى النور ساطعاً في مقصورة البواب، إلّا أنّه حين بلغها لم يجد غير الصّمت، كانت قبراً بحقّ.

أين ذهب؟ كان الباب مفتوحاً، ولكن لا أحد هناك.

مسح قدميه قبل دخول الحيّ.

ينبغي أن يدخل إلى المنزل.

لا يتذكر متى زار بيته آخر مرّة. لقد مرّ وقتٌ طويل جداً، على

ما يبدو. تحدّثه زوجته أن يصبر على البيت ثلاثة أشهر، هدّدها بأنّه سيغيّب أكثر من ذلك، وغاب ستة أشهر!

لا بدّ من أنّها ستّة أشهر، ما دام قد انصرف في بداية الربيع، والموسم الآن منتصف فصل الشتاء.

على ما يبدو، لفرط جولاته في الأرياف، وإقامته في موقع بناء الضريح، لم تطأ قدماه المنزل منذ ستّة أشهر، بل منذ سنوات. وحين كان يعرض له أن يمرّ من المدينة، كان يصرّ على النّوم في المكتب، حتّى أنّه الآن، في هذه اللحظة، وهو يلج فناء الحيّ، لم يكن متيقّناً من قدرته على استحضر شكل زوجته. هل كانت سميّة، أم نحيفة؛ وبشرتها صافية أم كامدة؛ وأيّ الملابس ترتدي؟ كانت السماء قد تلفّعت بسوادٍ كهفيّ، لا قمر فيه ولا نجوم. وفي عرضها، تحجبها الغيوم مثل ضبابٍ داكن. وفي غمرة ذاك الظلام الكثيف، وبعد جهدٍ في التركيز، تذكّر أنّ زوجته كانت شخصاً بين الثالثة والثلاثين والخامسة والثلاثين من عمرها، صغيرة القدّ، وجهها شفاف البشرة، وشعرها أسود مثل جناح الغراب، وكانت تحبّ أن تتركه ينسدل حرّاً على كتفيها. وتذكّر أيضاً أنّ في وجهها نكتة - تلك التي اسمها الشائع «خال» - كستنائية اللون، ولكن سديّ حاول أن يحدّد مكانها، هل كانت على الخدّ الأيمن، أم الأيسر؟

قال لنفسه إنّهُ سيتفحص الأمر، ما إن يدخل الشقّة. هذه المرة يجب أن أنقش الخال في ذاكرتي. وما إن عبر البوابة، ورفع رأسه نحو

نوافذ بيته، حتّى برزت هيأتها مثل طائرٍ على الشّرفة التي كانا قد
حوّلاها إلى مطبخ. لقد مرّت فقط، لكنّ مرورها كان كافياً ليُدْفئ
قلبه، فحثّ الخطى.

كان يريد أن يعود إلى بيته.

ومع ذلك، ما كاد يخطو بضع خطوات، حتّى مال إلى اليسار،
كان يشعر بأنّ عليه أن يعرّج على حجرة العبادة. مرّت ستة أشهر،
وربما سنوات، منذ آخر مرّة وطأت فيها قدماه هناك، ماذا يا ترى
قد حلّ بالمكان؟

فلتكن إذن زيارة أولى إلى حجرة العبادة. فتحّ الباب، بإغلاقه،
ثمّ إيقاد المصباح. وعندما أثار المصباح، بوب! أضواء المكان، فألقى
نفسه في مواجهة الصور على الحائط، وشعر بنفسه في حالٍ غير
طيّبة. ماركس، إنجلز، لينين، ستالين، الرئيس ماو، أنور خوجة،
تيتو، هو شيه منه، كيم إيل سونغ، وفيدل كاسترو، لم يتحرّك أحدٌ
منهم من موضعه، كما لم يتحرّك أحدٌ من المارشات العشرة. ولكنّ
صورته هو، صورة ليو ينغك، لم تعد الثالثة في الصف الثاني - أي
في الموضع الذي كان في الأصل موضع لين بياو -، وإنّما صارت في
الصفّ الأوّل، خلف ماركس وإنجلز ولينين وستالين وماو.

وبعد وقت، لا حدّ له، تركه يمرّ، وهو مسرّ في وسط الغرفة،
قرّر أخيراً أن يتحرّك، فينتزع صورته من موضعها، ويعلّقها أمام
الآخرين، في المقام الأول من الصفّ الأوّل. ثمّ ملأ واحداً تلو
الآخر جميع الخانات البيضاء في ورقة سيرته الذاتية، وسطر عليها

بخطوط حمراء، لكي يضيف في النهاية بقلمه، وبعد تردد دام بضع
ثوانٍ، هذين السطرين:

أعظم زعيم فلاحى في العالم

أبرز ثوري ضمن بروليتاريا العالم الثالث.

ثم سطر على ذلك تسع مراتٍ، باللون الأحمر، تسعة أسطرٍ
ثقيلة وسميكة مثل تنينٍ براق يجذب الأنظار، ويحرق العينين. وبعد
أن تأمل صنيعة برهه، جثا على ركبتيه وضرب بجبهته الأرض،
وسجد ثلاث مراتٍ أمام صورته الشخصية. ثم استدار، وتأمل
صورة والده بالتبني، وأحرق له ثلاثة عيدان بخور، وغادر الحجرة.
في الخارج، في هدأة الليل، سمع محرك سيارة. كان الضجيج
مألوفاً عنده بشكل مبهم: كأنها سيّارته. ربّما علم سكرتيره بعودته،
فهبّ لزيارته.

أطفأ النور وخرج. وبالفعل كانت سيّارته الليموزين السوداء
مركونة أسفل المبنى، وبالفعل كان السكرتير في بيته. لقد عيّن ليو
سكرتيره شي، ما إن تعيّن هو نفسه في منصبه الحالي؛ فإن كان العالم
بأسره قد رفض تحيته، فالمنطقيّ أنّه هو سيفعل، سيحييه ويبيدي
له التقدير اللازم. سيهتف له بواحدة من تلك «يا سيّدي رئيس
الإقليم»؛ تريدُ واحدةً، هاكها إذن.

تعليقات

- (١) - وسّعنا المزولة إلى مداها: أي أن نوّسع الحسبة إلى أقصى درجة ممكنة، نسرف في الحساب. ولا علاقة للمزولة هنا بالأداة الرياضية.
- (٣) - هدراً: سدى، بلا فائدة. وينطوي التعبير على بعدٍ من أبعاد الظلم.

الفصل الثالث

سجدا عند قدمي رئيس الإقليم

«آسف يا سيدي رئيس الإقليم، أنا نادماً يا سيدي رئيس الإقليم.

- ابن قحبة! لعين! سأقطعك بفأس، أقتلك ببندقية! ولن يُشفى غليلي!

- سيدي رئيس الإقليم، اعتذر منك صادقاً يا سيدي رئيس الإقليم!

- على ركبتكما، معاً على ركبتكما!

- إنها ليست غلطته! لا تلمه، أنا الجانية!

- اغربي! ساقان-مفتوحتان-لكلّ-ريح، حلّوفة، كلبة، قحبة!

- لا تضربها، يا سيدي رئيس الإقليم، إن كان لابدّ من الضرب، فلتضربني أنا! انظر، لقد أدميت وجهها! إن واصلت، فسوف تقتلها. أنا المسؤول عن هذه الكارثة، كلّ ما حدث، هو خطأي.

- تُفضّل أن أضربك بدلاً منها، هاه؟ لا تظنّ نفسك قد أفلتت!

- آي! أوتش! أوتش!

- أنت مفصول. وعندما تخرج من السجن، لن تجد بانتظارك إلا دياركم، والعمل في الحقول.

- اضرب، يا سيدي رئيس الإقليم، اقتلني لكماً وركلاً. حولني إلى عسيمة إن شئت!

- سوف أنيك أسلافك حتى الجد الثامن، والآن سأتصل بالشرطة ليلقوا بك في الحفرة. كلمة مني وتطحن عائلتك طحناً، سوف تفقدون مصداقيتكم تماماً، سوف تركضون في الشوارع مثل الجرذان، لن تنعموا ببرهة طمأنينة في شوانهواي. حتى التسول، لن تستطيعوا إليه سبيلاً!

- أتوسل إليك، كفّ عن ضربه. انظر، لقد أغمي عليه. ليو، أقصد، سيدي رئيس الإقليم، اضربني أنا بدلاً منه...

- مومس، ننته! أخبريني: اليوم، عندما تجتازين هذا الباب، تجتازينه بصفتك حرم رئيس الإقليم، الجميع يعرف ذلك، والجميع يناديك سيديتي... فهل تدركين معنى ذلك؟

- أدركه. لكنني لا أريد أن أكون سيّدة مرموقة. أفضل أن أكون زوجة رجل عادي، أطبخ، وأنظف قليلاً عند عودتي من العمل. زوجي يقرأ الصحيفة على الأريكة، بينما أعدّ أنا العشاء. وعندما أنتهي، يضعها، ويأتي لتناول العشاء معاً. ثم يأتي عليّ الدور لأستمع بالأريكة والصحيفة، بينما يغسل

هو الأطباق. بعد ذلك نشاهد التلفاز، ونحدّث قليلاً، ثمّ نخلد للنوم.

- أعنّا على تحقيق أمنيّتنا يا سيّدي رئيس الإقليم! إن لم تعنّا، فسنبقى حتى الفجر ساجدين أمامك!

- ماء، ماء! ألا يوجد حتى كوب من الماء في هذا المنزل؟

- لم يعد ثمة ماء... لكنني سأغلي لك ماءً على الفور، وأقدّمه لك على الفور.

- ابن زنا! لقيط! عندما اتّخذتك سكرتيراً، لم أكن أتخيّل أنّك ستحطّم قلبي، ما فعلته بي أسوأ من فشلي في شراء لينين!

- سيّدي رئيس الإقليم، اعتذر منك صادقاً يا سيّدي رئيس الإقليم!

- يكفي، حسبك تذلّلاً! حتّى لو أدميت جبهتك من فرض السجود وضربها على الأرض، لن أسأحك! أبداً!

- أنا لا أتوسل مغفرتك، لا بدّ لنا من أن ندفع ثمن خطيئتنا!

- آه! الماء... لا يزال ساخناً، دعيه يبرد قليلاً.

- هل تريد شاياً؟

- أسود أم أخضر؟

- كما شئت.

- الأخضر. إنه يهدئ النار... انهض. أخبرني ما عسانا نصنع.

- أوه! يا سيدي رئيس الإقليم، أبداً لن أقوم، ما لم أسمع منك كلمةً تغفر لنا بها.

- حسناً، ابقَ على ركبتك، وأخبرني.

- أتوسل إليك، لبيّ رغبتنا.

- لبيّها، وإلا ظللت راکعةً بجانبه حتى الموت.

- وماذا ينبغي أن أفعل كي أحققها؟

- دعنا نتزوج. وإن كنت تخشى أن يضرّ ذلك بصورتك في شوانهواي، فافئنا. أرسلنا إلى أيّ مكانٍ تشاء، في الشمال، في الجنوب، في أيّ مكان.

- سيدي رئيس الإقليم، لن ننسى أبداً عظمة طيبتك. لقد كنتُ سكرتيرتك لسنوات عديدة، خدمتُك لدرجة أن لا أحد، يستطيع أن يخمّن، أفضل مني، رغباتك. لبّ رغبتنا، وأعدك بأنّ المدينة كلّها سوف تركع لك. أعلم أنّه قد تعذّر استقدام رفات لينين، ولكن حتى ضمن هذه الملابس، أقسم لك: حين تطلع على السكّان، سيسجدون لك حتّى تضرب جبهتهم الأرض. ألا تصدقني؟ حاول! أقسم لك أنّ من تقابلهم غداً في الشارع سيبحثون لك على ركبهم. سواء سكّان المدينة القديمة أو الجديدة، جميع من في العاصمة سيعلق صورتك في غرفة معيشته!

- هممم... هل تحسب نفسك ساحراً؟ سأقول لك شيئاً:

حتى إله السماء لن يستطيع القيام بها تدعي.

- ليس عندي إلا كلمة واحدة يا سيدي رئيس الإقليم.

- اغرب عن وجهي! اغربا عن وجهي معاً! ابتعدا عن هذا المنزل ما أمكنكما الابتعاد...

- لقد مرّت ستّة أشهر منذ أن زرت المنزل آخر مرّة. أودّ لو... أقضي ليلةً أخيرةً في الحديث معك...

- لم يعد لديّ ما يُقال. احملني معك أيّ شيء تريدين.

- لا أريد شيئاً سوى صورة والدي.

- خُذها إذن. أقول لك إنّ لديك الحقّ في أن تأخذي ما تريدين.

- حسناً، نحن راحلان.

- ارحلا. بأسرع ما تستطيعان. لا أريد أن أرى وجهيكما بعد الآن، لا أنت ولا هو.

- شكراً يا سيدي رئيس الإقليم... لا بدّ لكلّ حسنةٍ من جزاء، وأنا لن أنسى أبداً طيبتك وأفضالك. غداً سوف تركع المدينة كلّها أمامك، سوف تبجّلك كما يبجّل إله.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الخامس

العالم بأسره يركع

كان رئيس الإقليم في حالٍ طيّبةٍ للغاية، لدرجة أنّ دموعه كانت تسيل حتّى تبلغ الأرض.

لدهشته، حين غادر بيته في اليوم التالي، كان العالم كلّه يركع عند قدميه.

عندما استيقظ كانت الشمس قد جاوزت عزّ الجنوب، وفات موعّد الغداء منذ وقتٍ طويل. لم يكن ليتصوّر البتّة أنّ أحداثاً بهذا العدد والخطورة يمكن أن تحدث في غضون أيام قليلة. وكان قد انتهى به المطاف في الليلة الماضي إلى أن انهار على سريره، غارقاً في سبات عميق، لم يُخرجه منه حتّى رنين الهاتف.

كان متعباً، يحتاج النّوم، وقد نام عميقاً نوم.

سأله نيو: «لم لا تجيب بما أنك في المنزل؟

- آسف، كنت بحاجة إلى النوم.

- لقد اتصل بي المحافظ. وأمام لجنة المحافظة ثلاثة أيّام تختار فيها

سكرتيراً جديداً لرئيس الإقليم، وترسله إلى شوانهواي».

بعد إقفال الخطّ، لن يخرج ليو من المكالمات الهاتفية إلا بضباب أبيض في رأسه. هل أرسل واثق إلى روسيا؟ طبعاً! وهل له أن يفعل غير ذلك؟ خاصة حين يتعلّق الأمر بمسألة في هذا المستوى من الأهمية! «أرسلنا طلب شراء، مع واثق ذات صلة، وكلّ ذلك في نسختين. روسيا ليست في البيت المجاور، لا يمكن إذن أن نناقشها رأساً لرأس، ينبغي أن يكون الطلب خطياً».

صاح السكرتير: - أحق! لقد بعثوا إلى بكين بخطابك مع رسالة رفضهم. كاد مسؤولو العمل ينفجرون من الغضب. كانوا يغلون غيظاً حتّى أنّ أحشاءهم كادت تخرج من بطونهم!».

صار ليو على بيّنة: إنّ مساره كرئيس للإقليم وسكرتير للجنة قد بلغ جداراً، ولم يعد بمقدوره أن يتقدّم أبعد. سأل: «ما العمل؟». أجابه نيو: «لقد وجدت لك منصباً لائقاً. لقد بنت المحافظة للتوّ متحفاً مخصصاً للمقابر القديمة، حيث ستنقل، لغرض السّياحة، كلّ وزراء وأفراد الأسر الإمبراطورية، على امتداد السلالات الحاكمة، المدفونين في جيودو. وحدة العمل سيكون لها مستوى القسم، وسوف تكون أنت المدير».

ثم أغلق الخطّ من دون أن يمنحه الفرصة للإجابة. تلکم هي النّقطة التي كان قد بلغها مسار الأحداث: لقد نُزّل في مساره مرحلتين، أو ثلاثاً. حركاتٌ، ألغيت. ولا شكّ في أنّ عقوبات أخرى تنظره، ولكن ينبغي التريث، لأنّ القرار سيُتخذ على مستوى

العمل. حسنا، الواقع أنه طُرد، إنه مطرود. لا شك في أن تدابير أخرى ستتخذ ضده. لكن ثمة ما هو أسوأ: لقد أقفل نيو الخط في وجهه، في اللحظة التي كان ينوي فيها أن يفتح فمه، كأنها يفر من وباء، لم يسمح له بالحديث. أقفل الخط في ضجيج بارد، مثل ذاك الذي تحدثه قطعة جليد، حين تسقط على الثلج فتنفجر شظايا. ظل مدة طويلة متبلداً على حافة سرير، ثم ما لبث أن تذكر أنه ما زال لم يرتد ملابسه، فرمى بسماعة الهاتف كخرقة قديمة على الطاولة، ثم ارتدى سترته المحشوة بريش البط، وليس في رأسه، فضلاً عن ضباب مبهم، إلا التوايت والهاكل العظمية، مواد متحفه المستقبل. ولكن، لفرط ما تأمل الغرفة الفارغة، تبدد إحساسه بالمحنة، لم يعد قلبه ثقيلاً كحجر أو خشب عتيق. لا شيء يبدو له حقيقياً، كأنه لم يستيقظ، وما هذه الحكايات إلا من أضغاث أحلامه. وقد تردد في أن يقرص فخذَه أو ظاهر يده، أو أي موضع من جسده، فالألم قد يكون دليلاً على صحة واقعه. إلا أنه جبن في اللحظة الأخيرة، خشي أن يؤذي نفسه: خاف من أن تتأكد له صحة الوقائع المدهشة والمذهلة والمزعجة، أن يُجبر على قبولها كحقائق لا جدال فيها. بقيت يده هناك متهاوية، مدة غير يسيرة، ثم ببطء، ومثل نسيم يهب فينقشع لهبوه الضباب، بدأ شيء ما يتحرك في مخيخه. وفي سعيه لفهم ما يحدث، وإدراك كنه ذاك الشيء الذي بدأ يتحرك، ثبت نظره على الجدار المقابل، وجعل يستنفر خلايا دماغه. لا بد أن للأمر علاقة بقصة تلك القرية المسمة طيبة؛ لم يتم التصوير بعد على فك الضم. مندهشاً، وقف على أن تذكر هذا التفصيل وحده

كان كافياً: الرّيح خرقت الضّباب محدثةً فيه صدعاً مضيئاً، والباب انفتح، والطريق أشرقت بألف نور.

خرج.

ذهب من فوره يستدعي أعضاء اللجنة الدائمة. أراد أن يغتنم الفرصة قبل مجيء رئيس الإقليم الجديد وسكرتيه، لكي يعقد اجتماعاً أخيراً.

لكن، ما كاد يطلع على النّاس، حتّى بدأت المدينة بأسرها، بل العالم بأكمله، في الانحناء والرّكوع. وكان أوّل من تقدّم إليه، بابتسامة عريضة، الشّيخ المسؤول عن التّنظيف وتفريغ صناديق القمامة، وهو رجل في الخمسينات من عمره، يعمل في الحيّ منذ ما لا يقلّ عن عقد من الزّمن. كان الرّجل سعيداً كأنّها عثر لتوّه، في القمامة، على ذهبٍ أو فضة، وبعد أن انحنى انحناءً بالغاً من غير أن ينبس بكلمة، قام، مثل غصن شجرة يرتفع، وفتح فمه الأدرد الذي تلعب فيه الرّيح، ناطقاً بهذه الكلمات: «شكراً لك يا سيّدي رئيس الإقليم. يقال إنّه اعتباراً من نهاية العام سوف أتلقى ألف يوان، وربما عدة آلاف من اليوانات شهرياً، لمجرد أن أكنس السّاحة».

ثم حمل من جديد سلّته وذهب يُفرغها في حاوية الزّبل، مخلفاً ليو ينغك في حيرة، عاجزاً عن استيعاب ما يحدث له. ولما بلغ البوابة، ترك البواب أطباقه التي كان منهمكاً في غسلها، وأتى يستقبله بيديه المبلولتين، وينحني أمامه، قائلاً: «سيّدي رئيس الإقليم، المفروض أن أسجد لك، لكنني طاعنٌ في السن، حتّى

أَنِّي لَا أُسْتَطِيعُ ذَلِكَ. وبوصفي شخصاً حُرِّمَ الذريةَ، فلا ولد عندي ولا بنت، لم أكن لآمل في أكثر من أن تبني لنا دار رعاية للمسنين، وأن يُوافق بناؤها موعدَ تقاعدي. يقال إنَّ جميع من فاقوا الستين من العمر، سيحظون بشقّة، وإنّا سنحصل على ضعف رواتبنا الحاليّة!» ثم صفّرت الغلاية التي كان قد وضعها على النّار، فهرع إلى داخل مقصورته.

ثمّ خرج ليو إلى الشارع. وهناك، ذهولٌ تامّ، رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، جميع تجار الشّوارع، أولئك الذين يبيعون طيلة الشتاء بذورَ عبّاد الشمس والبطاطا الحلوة أو التفاح على الأرصفة؛ جميعاً أخذوا يبتسمون له في تفانٍ، ووجههم تفيض بالامتنان والتقدير، ويحيّونه برأسهم قائلين: «شكراً لك، يا سيّدي رئيس الإقليم. بفضلِكَ انطلقت شواذهاوي وارتفعت، قريباً سأستغني عن تجارة البذور» أو «شكراً لك، يا سيّدي رئيس الإقليم. لقد قضيت نصف عمري أبيع التفّاح، ولم أظنّ يوماً أنّي لن أضطر إلى العمل لكي أكسب قوتي حين أصير مسنّاً».

دون أن يغفل تلك المرأة الثلاثينيّة، امرأة فلاحه نزلت المدينة، لتبيع نعال رُضِعَ على أشكالٍ نمورٍ، في ركنٍ مشمسٍ، معزول عن الرّيح. بخجلٍ دنت منه، قبل أن تسجد فجأة وتضرب جبهتها على الأرض، باسمه باكية في آنٍ:

«سيّدي رئيس الإقليم، يقال إنّهُ ما إن يتّهي العام، حتّى نستغني عن العمل في الأرض. وإنّا سوف نستلم كلّ شهر حبوباً

وخضروات ولحوماً. وإنّ السيّاح سوف يشترون التّعال من عندي بعشرات الحيوانات، كي يعلّقوها في منازلهم».

إذاً أدرك ليو ينغك أنّ تحوّلاً كبيراً قد حدث أثناء الليل. ليس فقط كلّ من التقى بهم كانوا ينحنون له أو يسجدون أمامه معربين عن امتنانهم، ولكن كلّ الوجوه كانت تبتسم مشرقة ابتسامة من أحاطوا بسرّ الأسرار. كأنّها نزل بوذا إلى المدينة. بالأمس كان العالم ضباباً لا يُسبر غوره، واليوم صفت السّماء على نطاق عشرة آلاف لي، الشمس صفراء ومتألّقة فوق الرّؤوس. الأفق أزرق زرقّة شديدة الكثافة، ونظيف جداً، كأنّها غُسل، فقط هنا أو هناك، تظهر سحابة صغيرة كأنّها خيط من الحرير أو الساتان الأبيض. الطّقس عذب. جوّ لطيف كجوّ الشّهر الثالث من فصل الرّبيع. إذا استمر هذا الوضع، ثلاثة أيام إلى خمسةٍ أُخر، فإنّ الصّفاف والخور ستخضّر وتبرعم، والزّهور في الحقول تفتّح وتينع، على غرار ما وقع منذ أسبوعين في جبل الأرواح الميته من سلسلة جال بالو. ربما تحمل هذه الحرارة في طيّها شيئاً.

وقد سار رئيس الإقليم مسافة الشّارع الواصل حيّ الموظّفين بمقرّ الحكومة، يحفّه صفّان من النّاس الذين يريدون التعبير عن امتنانهم له، والشّيوخ الذين يجثون على ركبهم أمامه أو يسجدون له. وبعد أقلّ من مسافة لي، أصبح الحشد كثيفاً لدرجة أنّه صار يكافح ليستطيع مواصلة المسير. وكان يصغي إلى الشكر الذي يقدمه له هذا أو ذاك، والذي يستتبع من الشّاكر الانحناء له مطوياً

على اثنين، أو ثنيّ كليتيه أُمَامَه. كانوا يحوطون به كما لو كان إله، أو كائنًا خارقاً ظهر فجأة في هذا العالم.

إليكُم ما حدث: في وقتٍ مبكّر من صباح اليوم، سرت شائعةٌ ومضى يتناقلها النَّاسُ؛ ومفادُها أنّ خبر الفشل في شراء رفات لينين، عارٍ من الصّحّة، وما هو ببساطة إلّا نتيجة نزاع بين المحافظة والعمل؛ فكلاهما أراد أن يعرضه أولاً، لبضعة أيّام، ممّا جعل إقليم شوانهواي في موقفٍ صعبٍ، وأُخرج ليوينغك. والآن عادت الأمور إلى نصابها، وحُلّت المشكلة. وعلى أي حال بكيّن تدعّم الإقليم وزعيمه، وقريباً جداً سيكون بمقدور شوانهواي نقل الرّفات إلى الأرواح الميّتة. يقال أيضاً إنّ ليو قد شيع مبعوثين إلى ألمانيا لدراسة إمكانية اقتناء أشياء كانت تخصّ ماركس وإنجلز، وأن الرّد كان إيجابياً: لم يقبلوا منحه بيجامة ماركس المحوكة فحسب، وإنّما أيضاً، اعتباراً للتّقدير الكبير يحمله سكّان الإقليم لرئيسهم، فسوف يهبونه القلم والكرسيّ والمكتب، الأدوات التي كان يستخدمها في كتابة أعماله. أمّا ورثة إنجلز فقد وافقوا على أن يتبرّعوا «ببذل الدّيل» التي كان سلفهم يرتديها، وهم على استعداد، حالما يُخرجون رسمياً أمتعته الشخصية من قبوهم، أن يحضروا بأنفسهم الحفل؛ وقد رفضوا أن يُدفع لهم حقّ تذكرة الطائرة. كذلك في فيتنام، يقال إنّ ورثة هو شيه منه أبدوا انفتاحاً كبيراً على إمكانية تقاسم آثاره. أمّا ألبانيا ويوغوسلافيا، وهما وطننا خوجة وتيتو، فقد كانتا أكثر كرمًا: وافقتا على أن ترسلا إلى شوانهواي، بكلّ ما تبقى من الزعيمين، كلّ شيء، بما في ذلك الرّماد، سيرسلُ هديةً إلى رئيس الإقليم، من

دون أيّ مقابل. وبالنسبة إلى كوبا، يُقال إنّ الرئيس كاسترو -الذي ما يزال في منصبه- قد أبدى استعداداً أفضل: المهمّ أن يبقى هو في وطنه الأمّ، أمّا الباقي فكلّه تحت تصرفهم. لم تكن ثمة مشاكل إلاّ مع كوريا الشمالية وآثار كيم إيل سونغ. زعموا أنّ ابنه كيم جونغ ايل -الزعيم الحالي- يطالب بما بين مائة وعشرة آلاف، ومائة وخمسين ألف يوان، لأدنى فرشاة أو زرٍّ ممّا خلفه أبوه، ويُقال إنّ طالب بتسعين مليوناً مقابل البندقية التي تثير اهتمام ليو يانغك.

وعلى الرغم من هول المبلغ، وافق رئيس الإقليم.

لن يدشّن ضريحٌ لينين قريباً فحسب، بل فضلاً عنه سيكون بالإمكان، في موعدٍ مبكر من العام المقبل، افتتاحُ عُرفٍ مخصصة لرفات وملابس وآثار كل أولئك الحكّام. ستصبح قممُ الأرواح الميّتة العشرُ أضرحةً لعشرة رجالٍ من عظماء هذا الكوكب، وسيكون عدد السياح الذين يرغبون في زيارتهم ثلاثة إلى خمسة أضعاف ما كان متوقّعاً سابقاً -وهو أصلاً رقمٌ مذهل- لضريح لينين وحده. سيأتون من المناطق المجاورة، من المحافظة، من العمل، من سائر البلاد، من كلّ دول العالم. وإذا كان لابدّ لأيّ زائر أجنبيّ يمرّ عبر الصّين من أن يزور بكين، فسوف يكون من المستحيل كذاك عدم زيارة شوانهواي. وربما، في بعض الحالات، لن يكون من غرضٍ للرحلة غير زيارة الإقليم، حتّى أنّ ثَمَّ من لن يرغب في زيارة العاصمة نفسها! وأيّ مكاسب ضخمة ستترتب عن ذلك! يُقال إنّ ليو يانغك قد بدأ التّخطيط بالفعل لإقامة السكّة الحديد وبناء مطار. ويُقال إنّ الإقليم مضطّرّ إلى الاستئجار

في مطبعة جديدة، أكبر بثلاث إلى خمس مرات من المطبعة الحالية، وذلك فقط لطبع تذاكر الدخول التي قيمة الواحدة منها مائة يوان، وإنّ الآلات لن ترتاح أبداً. ويُقال إن جميع بنوك الصين تستعد لتفتح أكبر فروع لها، في شوانغهوإي، بحيث تكون أوّل ما يلجأ إليه الناس لإيداع أموالهم عندما يعجزون عن صرفها. وإنّ تلك الأبنك، لكي تنال نصيباً من الدخل اليومي الضخم في غضون سنوات قليلة، فإنّها تُقاتل في سبيل تقديم الديون اللازمة لبناء الطريق السريعة التي ستوصل إلى الأرواح الميتة وكذا الفنادق التي ستقام على امتدادها.

ما بين عشية وضحاها، انقلبت حياة سكّان شوانهوإي، رأساً على عقب. إنّ الأيام الفردوسية تطلُّ برأسها، وستحلُّ غداً، أو على أبعد تقدير، بعد غدٍ. كيف لا نشكر إذن رئيس الإقليم ونبجله؟ من ذا الذي يجهل الجهد الذي بذله للحصول على هذا الرّفات، والمتاعب التي واجهها لتنظيم جولة قرويّ طيبة؟ لكن من جهة أخرى، لم يكن أحد ليتصوّر أنّه، في الوقت الذي كان يضع فيه اللمسات الأخيرة على عملية الشراء، كان يخطط كذلك لإضافة آثار أو بقايا تلك الشخصيات الأخرى ذات الصّيت الكونيّ. لم يكن أحد ليتصور أن مثل هذه المهام الشاقّة يمكن أن تنجز بهذه السرعة، في غمضة عين. أمس فقط، كانوا يردّدون في الشوارع والأزقة أنّه فشل، وأنّه مجرّد مدّع! والآن، الجميع على علم: إنّ الحصول على رفات لينين والآثار الأخرى أمرٌ واقع، والصفقة ناجزة، و قريباً جداً يرون كلّ ذلك في شوانهوإي.

سألهم ليو يانغك باسمًا: من أين أتيتم بهذه الأخبار؟

أجابوه: - من سكرتيرتك! ما دام هو من قالها، فلا يمكن أن تكون كذباً!

لوهلة تردّد قلبه، لكنّ تردّده غرق من فوره في الحشد المحيط به. وكان الحشد ما بين ساجد له، أو منحني، أو شاقّ إليه طريقاً ليقول له بضع جمل، أو مصافح أو متأمل في أن يداعب الرئيس رأس الرضيع الذي يحمله بين ذراعيه. كان الازدحام حوله من الشدة بحيث أنّه واجه صعوبة في البقاء متوازناً على ساقيه. ولو أنّ شخصاً أراد اقتحام الدائرة، فلا بدّ أولاً أن يغادرها شخص آخر. في أقلّ من الوقت الذي قد يستغرقه قول الأمر، صار الحشد أشبه ما يكون بالبركة التي لا يمكن أن يتدفق ماؤها. لم يعد الباعة المتجولون يجدون موضعاً لعرض بضائعهم. في كلّ ركن ترى جسداً ساجداً: «كفّوا عن دوس بُذوري! لقد أسقطت الحقائق!».

وفي موضع أبعد قلب الناس عارضة باب مغطاة بالفرقات وزينة العام الجديد، وآلهة البيت، والشموع الرومانية، فتارت ثائرة صاحبها، وسارع إلى إقامتها في صراخ: «حذار! حذار! سوف تنفجر!».

لم يكن ثمة من سبب على الإطلاق لكلّ هذا الاضطراب، اللهم إلّا السعي بإجماع إلى الانحناء أو السجود أمام رئيس الإقليم، وشكره، وتهنئته. في المحلات التجارية، كان الزبائن يتركون مشترياتهم، وفي المطاعم ينبذ الزبائن الكؤوس وعيدان الطعام

ليهرعوا إلى الشارع. وبعد أن ينحنوا، ويعربوا له عن امتنانهم، كما قد يشكرون الإله الذي حقق لهم أمانهم، لا يفوتهم أن يستخبروا منه الأمر: «صحيح أننا، لاحقاً، سنحصل على أكثر من خمسة آلاف يوان شهرياً، حتى وإن لم نشتغل؟» أو: «قيل لي: مستقبلاً كلما اشتهينا أكل شيء، فإن الإقليم سيأتينا به؟» أو «هل صحيح أن كل أسرة ستحصل على فيلاً؟»، بينما أعرب آخرون عن قلقهم: «ما الذي يمكن فعله حتى لا يصير الناس كسالى؟» «ماذا لو لم يعد الأطفال يريدون الدراسة؟» كل هذا كان واقعاً وأصيلاً. هؤلاء الناس أمامه كانوا أحياءً ومعافين. في النور طفت رائحة عرق الحشد المتزاحم الصّارخ، ورائحة الغبار الذي أدفأه الدّوس، والروائح الدبقة المنبعثة من قبعات الفلاحين -سنواتٍ وهم يرتدونها من غير أن يغسلوها يوماً- وعطر السترات المحشوة وأوشحة السكّان الجديدة. وفي خضم هذه الكتلة البشرية، المضغوطة من كلّ جانبٍ -وأصافح فلان، وأجيبُ علّان - كان هو، رئيس المنطقة، في حالٍ طيبة! كانت سعادته حقيقةً، حقيقة البرد حين لا تكون مغطى بما فيه الكفاية، أو الألم حين تجرح نفسك. وما يزال الناس يتوافدون، في جحافل، للسجود، أو الانحناء، أو الشّكر، وحين ينسحب هؤلاء، يصعد أولئك. وكانت الشمس تلمع ببريق الذهب، وفي الشارع يطفو دفءٌ، كما تطفو رؤوس القرع في حقل. وسواء كان الرّجال يعتمرون قبعة من نسيج، أو مجرد قبعة قش، أو لا يضعون فوق رؤوسهم شيئاً البتّة، فإنّ شعورهم جميعاً كانت سوداء أو بيضاء، أو خليطاً من الملح والفلفل الأسود. أمّا النّساء، آه! النّساء

كُنَّ مختلفاتٍ تمام الاختلاف، معظمهنّ يضعنّ أوشحة. طويلة، في كثير من الأحيان، صوفية بالنسبة لنساء المدينة، حمراء أو صفراء أو خضراء أو زرقاء، بحسب العمر والمنزعة (١). عندما يكون الجو بارداً، يلففن الوشاح حول رؤوسهنّ، وما إن يتلطف الطقس، حتى يضعنه حول الرقبة أو الكتفين مثل إكسسوار موضة. نساء الأرياف والقرى يتبعن الصّرعة حين يكنّ ما يزلن في مقبّل العمر: يتلفعن بأوشحة طويلة مشغولة باليد. ولكن في معظم الأحيان يظلّ الوشاح الأثير لدهنّ، هو ثوبٌ مربّع من نسيج رديء، وغالبا يشترينه رخيصاً، ولكن من حيث الألوان، يا له من إشعاع وألق! كان الشارع مشكالاً متموجاً من الألوان الأشد تنوعاً. وكانت كلّ تلك السّجّادات والانحناءات ترقّص لطائف قوس قزح.

العالم بأسره يجيئ رئيس الإقليم.

العالم لم يعد سوى دفيّ بشريّ يتدافع في كلّ اتجاه.

وقد قرّر ليو أن يتلمّظ حلاوة ذلك الفرح حتى آخر نقطة. وهو الذي كان يظنّ أن مثل هذا المشهد لا يمكن أن يحدث -ربما- إلّا لحظة افتتاح الضريح، أو أثناء مراسم تنصيب الرّفات، حين يكون لينين قد وصل بالفعل. أو ربما حين يجني الإقليم من المال قدر ما في الأشجار من أوراق، حين يصير السّكان حقاً في غنى عن العمل في الحقول، والقرى والمدامر، عندما يصير الغذاء والمأوى والشراب يوزّع تلقائياً - تحتاج شيئاً؟ تفضّل خذه. ستبلغ السّاكنة الموظّفين باحتياجاتها، فتحصل عليها. أجل، ربما كان لزاماً انتظار حتى تبلغ

الأمور ذلك المبلغ. لكن، هو ذا المأمول قد تحقق! كان الفلاحون في كثير من الأحيان يحملون في أيديهم الأوراق الحمراء والمفرقات النارية والملصقات اللازمة لاحتفالات نهاية العام، لكنّه لاحظ أنّه، فضلاً عن تماثيل إله البيت، كانت ثمة صورة أخرى مطبوعة على ورق لامع. وقد عرفها من الوهلة الأولى، كانت صورته، تُباع في الشوارع، مقاس قدمين على ثلاثة! لا بل إنّهُ قد ملح عليها شريطاً أحمر، في حال ما إذا أراد الواحدُ تثبيتها على الجدران. وقد سألهم على سبيل التحقق: «أليست الألواح والمفرقات النارية مكلفة هذا العام؟».

أتاه الجواب قاطعاً: «لا، إنّها تُباع بنصف السّعر في كل مكانٍ تُباع فيه صورتك».

قال محتجّاً: هذا غير لائق، أولى لكم أن تعلقوا على جدرانكم صورةَ الرّبّ واهب طول العمر، أو طارد الشّياطين!

- منذ الأزل ونحن نعلّق صورهم، وما أفادونا بشيء. أمّا أنت يا سيدي رئيس الإقليم، فقد جلبت لنا كلّ السّعادة.

غارقاً في شعورٍ من النّعيم الهائل، والنشوة التي نبعت من النّخاع لتغمر بمرح قلبه، لم يستطع رئيس الإقليم أن يمنع نفسه من الإحساس بمودّة فيّاضةٍ تجاه سكرتيه شي. لينقلب الكون كما يشاء، وليكّر الزّمان، وليحمل معه أشياءه المؤلمة وأحداثه المفجعة؛ فطالما قد عاش هو هذه اللّحظة، حيث مئات الآلاف من الناس يسجدون له وينحنون أمامه، فإنّ الحياة استحقّت أن تُعاش.

مشعاً بتجلٍ مبهرٍ، واصل التقدُّم ببطء، وكم بدا له الشارع قصيراً، حين دخلَ مقرَّ حكومة الإقليم! ندم. ندم لأنَّه سار بسرعة كبيرة، وأسفَ لأنَّ الشارع ليس بطول ثمانِي إلى عشر لِيَّاتٍ، على غرار شارع السلام الطويل في بكين. لحسن الحظ، عند مفترق الطرق الكبير - ليس كبيراً بما يكفي ليكون ساحةً، ولكنه كبير على أيِّ حالٍ - وقف حشدٌ متراصٌّ، جميعُ أفرادِه يحملون في أيديهم صورته ملفوفةً ومعقودةً بخيطٍ أحمر، نظير البخور الذي تُكرم به الآلهة. لقد تجمَّعوا هنا، على ما يبدو لانتظاره، وكانوا يمدِّون أعناقهم، ويقفون على أصابع أقدامهم، ويتطلَّعون إليه بشغفٍ. كما لو أنَّهم قضوا قرناً، أو ألفية، يرجون ظهوره، وهو ذا قد طلع عليهم أخيراً. وجوههم في حالٍ طيِّبة، تفيض بالامتنان، وتنضح بالفرح والسعادة. ولما بلغ مدخل المبنى، هوى عشراتٌ من مسنِّي المدينة والريف، وكانوا في طليعة الصِّفوف؛ قلنا هووا على ركبهم في حركةٍ واحدةٍ في عرض الشارع. ثم جميعاً، وكانها تنفيذاً لأمر قضائيٍّ، سجدوا وصرخوا تقريباً في تآنٍ: «صباح الخير، سيدي رئيس الإقليم. شكراً لك يا سيدي رئيس الإقليم، لقد جلبت لنا سعادةً سماويةً...

- ليعش رئيس الإقليم مائة عام، أو عشرة آلاف سنة.

- ليعش إلى الأبد!

- سيدي رئيس الإقليم، إنَّ ساكنة شوانهواي تنحني لك وتشكرُك».

كانت أصواتهم تصدح في انسجامٍ تام. ثم، مجدداً كما لو أنَّهم

اتفقوا اتفاقاً، جثا آلاف الناس المتجمهرون هناك، على ركبهم، وضربوا بجباههم الأرض. كل تلك الرؤوس، سوداء أو بيضاء، أو متعددة الألوان، كانت تنحني ثم تنتصب، وما تزال في انحناء وانتصاب كالسنابل في حقل. وما كادوا ينحنون، ما كادوا ينخرطون في حركات الكوتو، حتى صمّت العالم. كان الصمت مطلقاً حتى أن الأنفاس بدت أضجّ من الريح. كم كان كبيراً، قديراً، مهيباً! كان المرء ليظنّ نفسه في العصور الخوالي، زمن كان ينزل إله أو إمبراطور إلى شوانهواي، فيحتشد أمامه عشرات الآلاف من الساكنة. وكانت السماء بيضاء، والشمس مشرقة، وهنا وهناك تبرز بعض الغيوم. وتلك هي اللحظة بالضبط، عندما تردّد صوت الجباه تضرب بركة الشارع السوداء، وترنّ كخفق الطبول تضربها العصي؛ تلك هي اللحظة بالضبط التي بدأت فيها الدموع تتدفّق من عينيّ رئيس الإقليم.

فكر في أن يرفع المسنين الساجدين في الصفّ الأوّل ولكن من جهة أخرى، لم لا يتركهم يمضون في طقوسهم حتى نهايتها؟ أيّا كان، هو يعلم أن حركات الكوتو ينبغي أن تُقام ثلاث مرّات، وإلا فإنّ المراسم تعتبر غير تامة. وبينما هو متردّد، يواجه تلك المئات، بل الآلاف من أجساد الساجدة، رأى من فوق رؤوسهم وأظهرهم المنحنية، أطرّ اللّجنة والحكومة واقفين عند مدخل مكاتبهم. ومن جملة الواقفين كان ثمة النائب الذي أرسله للحصول على الرفات فعاد خالي الوفاض؛ وأيضا شي، السكرتير الذي بعد أن عمل معه لسنوات عديدة تركه في الليلة الماضية ليرحل مع زوجته.

كان واضحاً على الوجوه سوء فهم كبير، باستثناء وجه الشاب الذي كان مبتهجاً، وعلى شفثيه بالطبع ابتسامة.

مسح رئيس الإقليم دموعه، وتقدّم صوبهم.

قال للسكرتير بنبرة خفيضة: «اجتماع». ولنوابه، المرعوبين، أضاف كأنها يشرح: «استدعوا فوراً أعضاء اللجنة الدائمة، لدينا ما نفعله».

ثم التفت مجدداً إلى الشارع الكبير، وكتلة الناس البسطاء المتزاحمين فيه. لم يرفع سگان شوانهواي رؤوسهم من السجود. ما يزالون على ركبهم، بعدما ضربوا بجباههم الأرض ثلاث مرّات، لم يتحرّكوا، كما لو أنّنا ما نزال في غابر الأزمان، أيام لم يكن الشعب يجرؤ على الوقوف قبل أن يفتح الإمبراطور فمه ويتكلّم. على أنّهم من جهة أخرى، كانوا قد أداروا رؤوسهم، وبدأ أنّهم يمدّون أعناقهم ليصروا شيئاً. خطأ خطوة. كانت الأرضية خالية من الزهور - فالفصل شتاء - ولفرط ما لعب الأطفال، سوّوا الأرضية بالأرض، ولكن ما يزال يحدها جدارٌ منخفض لا يتجاوز ارتفاعه متراً واحداً. ارتقى الجدار، وفعل مثل فعلهم، أي نظر في الاتجاه نفسه: ظهر مئات الآلاف من الفلاحين، زاحفين من القرى المجاورة. هم أيضاً يحملون في أيديهم صورة رئيس الإقليم الرسمية، وقد لقّوها مثل حزمة من عصي اللّبان. على أنّ عددهم كان من الكثرة بحيث أنّهم لم يستطيعوا حتّى الاقتراب منه، فكان أن ركعوا، متكاتفين، في الجهة الأخرى من الشارع. كأنّهم في الجانب الآخر من العالم.

ففهم الأمر! إنّ الشيوخ السجودَ في الصفوف الأولى لم يرفعوا
أجسادهم، حتى لا تحجب النظر عن الواصلين متأخرين. لقد ظلوا
ساجدين حتى يتمكن الآخرون من رؤية رئيس الإقليم، ولو من
بعيد؛ وهم أيضاً، حين حدّدوا مكانه، انحنوا في ركوع وسجود.

حشدّ من الناس، جحافل من عامة الشعب. بال عشرات، بالمئات،
تدفقوا من الرّيف، اجتاحوا الطريق المؤدّية إلى مقرّ الحكومة واللجنة
الدائمة، ليُلقوا، من على بعد نصف لي أو حتّى لي كاملاً، نظرةً على
رئيس المنطقة ويحيّوه.

كنّا في عزّ الظّهيرة، والشمس مالت شطر المغيب، والناسُ جبالاً
ومحيطاتٌ، والمدينة مشبعة بالهيئات المثنيّة إلى اثنين، العالم يفيض
بالراكعين. وكانت ابتسامة ليو صفاءً صامتاً، والدموع المنهمرة على
وجنتيه في أسمى درجات الحال الطيّبة.

تعليق

١- مَنزعة: اسم مؤنث، لهجة محلية. تفضيل، ذائقة، نزوع.

الفصل السّابع

فليرفع الموافقون على فكّ الضّمّ أيديهم

وما يزال النَّاسُ يتوافدون، يأتون ليركعوا في سيلٍ لا ينقطع ويُحَدُّ. ابتعد رئيس المنطقة عن الحشد السّاجد، ودخل المكاتب ليرأس ما سيكون، بالنّسبة إليه، الاجتماع الأخير للجنة الدائمة.

قال: «لكم أن تظنّوا بي ما شئتم: لقد قرّرت الاستقرار في طيّبة. اعتباراً من اليوم، أنا من سكّان طيّبة. ولكي يكون للمرء الحقّ في ذلك، ينبغي بالطّبع أن يستوفي معايير معيّنة: على سبيل المثال، لا ينبغي أن يكون ناس-تاماً، أي شخصاً تامّ البدن، كامل الأطراف. لا يمكن للنّاس-تامين أن ينتموا إلى القرية».

قال: «أطلب منكم الآن أن تسمحوا لطيّبة بفكّ-الضمّ. بعبارة أخرى، ألا تظّل القرية محسوبةً على النّفوذ الإقليميّ لإقليم شوانهواي أو مقاطعة السّرو. فليرفع الموافقون أيديهم اليمنى».

صمتٌ كصمت الموتى. باستثناءه لم يرفع أحدٌ يده. فلمّا رأى ذلك، أنزل يده، واستأنف الكلام: «حسناً، الآن، أمامي، أطلب من أولئك الذين يعارضون فكّ الضّمّ أن يرفعوا أيديهم اليمنى».

نفس الصمت، لم ترتفع أيّ يد.

قال: «إن لم يرفع أحدٌ يده، فهذا يعني أن المقترح قد أُقرباً بالإجماع». ثم أضاف: «استدعوا السائق والسيارة».

وعادت نظرتة تكنُس وجوه أعضاء اللجنة، سألهم: «لا أحد منكم يريد أن يتبعني إلى طيبة؟ في هذه الحالة، رُفع الاجتماع، يمنكم الانصراف». وبعد أن رفع الجلسة، غادر القاعة قبل الجميع. ظنّوا أنّه قلقٌ بشأن آلاف الأشخاص الراكعين أمام مقرّ الحكومة، ولكنه ما كاد يبلغ الطابق السفليّ، وقبل حتّى أن يمضي من الوقت مقدار نصف عود، حتى ارتفعت صرخات مرعبةٌ من تحت المبنى.

«بسرعة! وقع حادث! لقد سحقت السيارةُ رئيس الإقليم! ليهرع إلينا شخصٌ ما، بسرعة! السيارةُ كسرت ساقَي رئيس الإقليم كليهما».

صيحَاتُ قرمزية، تساقطُ كوابل من الدم في فناء مقرّ حكومة ولجنة الإقليم. صيحَاتُ تغزو الكون.

الكتاب الخامس عشر

بذُورٌ

الفصل الأول

ليحدث ما يحدث

توافّت (١) ماو تشي.

حدث ذلك في أعقاب العام الجديد، وكانت درجات الحرارة قد بدأت في الانخفاض. الصّفافُ والخور والأعشاب البرية تميّزت بالخضرة، وبدأت تبرعم. كان الرّبيعُ مقبلاً قبل أوانه، وقد أعلن عن نفسه صراحةً منتصفَ الشهر الأول، وغدت جبالُ بالو تفوح عبقةً بروائح الأعشاب الزنخة أو العطريّة. وفي يوم جميلٍ ومعتدلٍ من ذاك الشتاء المحتضر، ظهر رجلٌ، من مقاطعة السّرو. كان في زيارةٍ إلى أقاربه في قعر الجبل، ولما مرّ بطريق التلّ، نادى بأعلى صوته:

«هه! يا أهل طيّبة! يا من بالقرية! هل تسمعونني؟ إنّ عندي بريدًا لكم، رسالة رسمية!».

وعلى أنّ الجوّ كان طيّبًا، إلى أنّ باطنه بردٌ، لذا تجمع السكّانُ في السّاحة المركزيّة حول شجيرة الصّفيراء العتيقة ينعمون بأشعة الشمس. وقد بلغت ماو تشي الآن من الكبر عتياً، حتّى ما عدتَ

ترى في رأسها خصلةً سوداء أو رمادية، فقد ابيض منها الشعر حتى صارت كل شعراتها بيضاء واهنة، كأنها حُزْم سيقانٍ باهتة وجافة. ومنذ أن عادت من الأرواح الميتة، وأعدت فرقتها إلى الديار، ظلت ترتدي ملابس القبر، لا تُفارقُها. سواء في النهار، حين تطهو الطعام، وتأكل، وتشمس، أو في الليل حين تخلد إلى النوم؛ ما عادت تنزع ثوبَ قبرها.

وصار من النادر أن تتحدث، كأنها شفتاها قد خيطتا، أو ماتتا، وإن صدف أن فتحتها، فإنما تفتحها لتقول دائماً الشيء نفسه:

«قريباً أتوافي. لا بأس. لكنّ الجثة شيءٌ قاسٍ، وأنا لم أنجح في فكّ الضمّ، لقد أسأت إلى أهل طيبة. لكن لا ينبغي أن يستغلوا ذلك، إن أرادوا أن يغيروا ملابسي. حتى لو كُسر ذراعي وساقَي لن أغادر هذا الزيّ، لن أمنحهم الفرصة لكسر أطرافي».

هكذا إذن كانت تقضي سحابة يومها، مُقبلةً مُدبرةً في تلك الملابس لا تغيّرُها طوال اليوم؛ وسواء في المنزل وفي الشارع، وأينما تحرّكت ترى في إثرها سرب الستّة عشر أو سبعة عشر كلباً، ما بين أعمى وأعرج، ونصف أشلّ.

ماه، الأصمّ الذي كان يُطلق المفرقات من أذنه، صار نصف وجهه لا يشبه شيئاً. أيام كان يؤدّي على خشبة المسرح، لم يكن يعاني مشكلةً، ولكن منذ أن ارتاح، أصابه التهابٌ طوال فصل الشتاء، لم يترك له دقيقة راحةٍ، لدرجة أنّه صار كلّما فرغ لحظةً استغلّها في الذهاب إلى السّاحة وتعريض خدّه للشمس.

السَّلاءُ، لم تعد تطرّز، لا على ورقٍ ولا على أوراق الأشجار. تقضي يومها في التلذذ بعدوبة الطّقس، وترقيع نعال أطفالها، ممازحة إياهم: لا بدّ أنّ لأقدامهم أسناناً، وإلا لماذا تُثقب هذه النعال في بضعة أيّام؟

القردُ، كان قد عاد إلى القرية مفلساً، ولكن جيوبه مثقلة بالذهب، حتّى ليحسب أنّه سيمضي ما تبقى من حياته يعرف جوعاً أو حاجة. وصار يقول إنّه سيبنى منازلاً فوق التلّ، ويفتح بازاراً، ومطعماً. قريباً يصير ربّ أعمالٍ، مالكاً لمشاريع مزدهرة قبل أن يبلغ الثلاثين. أمّا في الوقت الراهن، فقد اكتفى بأن يستعير من النّجارين أدواتهم، لينشئ بها رفوف متاجرهِ المستقبلية. وصارت القرية والمنحدرات تردّد صوت ضربات مطرقتهِ.

هوايهوا، كانت حاملاً. ما تنفكّ بطنُها تنمو يوماً عن يوم. وكانت البطنُ البارزة على عودها الرّقيق، المحشورة في البلوفر الأحمر الذي تستमित في ارتدائه، تبدو مثل سلّة حمراء معلّقة على غصن صفصافة. وبسبب هذا الحمل - وخاصةً لأنّه لقيط تشكّل في جبل الأرواح الميتة - لم تعد والدتها تجرّو على الظّهور في الأماكن العامة، فلا تغادر منزلها. كذلك ما عادت تونغهوا ويوهوا وفلين تغادرن المنزل، أو إلّا قليلاً: فحالُ أختهنّ تذكرهنّ بأنّ النّاس - نائمين قد مرّوا على أجسدهنّ هنّ أيضاً.

أما هوايهوا فما كانت تلقي بالاً لأحد. قيل لها إنّ الحامل ينبغي أن تتحرّك، فصارت تذرّع الشارع، جيئةً وذهاباً، على شاكلة الكرة

المتدحرجة، وعلى شفيتها ابتسامة مشرقة، وطيلة الوقت تقضم شيئاً.
وتمضي متمايلةً، يمنة ويسرة، كأنها هي فخورة بالطفل الذي تحمله.

يسألونها: كم شهراً بلغ حملك؟

تجيب وهي تطحن بأضراسها بذور البطيخ: ليس كثيراً.

- متى موعد الولادة؟

- لا يزال الوقت مبكراً.

- هل هو صبيٌّ أم بنت؟

- لا أدري، كلّ الذي أعرفه أنّه سيكون ناس - تاماً.

الصغير بوليو، وقد قرّر تعلّم النجارة، صار مُلازماً للقرد الذي يرسله في كلّ اتجاه.

لا أحد يعرف ما صنع الأعور، مُدخِل الخيوط في الإبر، أثناء شتائه. عندما كان القرويّون يتسكعون في الشارع، لم يكن يظهر له أثر، وما إن يغادروا الشارع حتّى يخرج هو ليتّيه فيه. يتساءل: «لكن أين هم؟ إلى أين ذهبوا؟ هل انطلقوا في جولة من وراء ظهري؟».

كان كلُّ شيءٍ يوحي بأنّ الأمور قد عادت إلى سابق عهدها. قد يظنّ المرء أنّ بعض الأشياء تغيّرت، لكن، في الواقع، كان الوضع يشبه تمام الشبه ما كان عليه في العام السّابق، أي قبل مغادرتهم. في ذلك اليوم، إذن، كانت ماو تشي قد استقرّت تحت شجرة خروب العسل، تنعم بالشمس وقد ارتدت ملابس قبرها، وبجانبها تمدّدت، الستّة عشر أو السبعة عشر كلباً، المعاقة، كأنّها أحفادها. وأبعد قليلاً

إلى الغرب جلست الشَّلَاء على مقعدٍ خشبيٍّ تغرّز نعالها؛ أمّا ماه الأصمّ، فبعد ما ثبتت مصراع بابٍ في الموضع الأشدّ عرضةً للشمس، والأقلّ تعرّضاً للرياح، استلقى عليه، ووجّه إلى أشعة الشمس خدّه المتقرّح. وآخرون كانوا يلعبون الورق أو الشطرنج: يمضون وقتهم في الخمول الشّتويّ. وإذاك سُمع، من ناحية طريق التلّ، صوت شخصٍ يصرخ بملء رئتيه:

«هيه! يا أهل القرية! هل تسمعونني؟ عندي لكم وثيقة رسمية، من المقاطعة!».

كان الصّغير بوليو حينئذ على المنحدر، منهمكاً في قطع شجرة صفيراء ميّنة، يعتزم القرد جعلها هيكلأً لأحد رفوفه، فاستلم البريد. ثم صعد يعرج، حاملاً على كتفه الغصن القطريّ، وخلفه تتدلّى الأغصان الميّنة. وبقدر ما كان يتقدّم، كانت ترتفع خلفه طريقٌ من الغبار، وتُغطي الأرض رسومٌ مزرکشة. فلما بلغ مركز القرية، قصد ماو تشي.

«إنّها لك يا جدتي».

مفاجأة.

«يقول الرّجل إنّهُ خطابٌ رسميٌّ مرسلٌ من الإقليم».

وهنا أخلت المفاجأة مكانها للحيرة.

حفحف حريرٌ كمّيها، حين حاولت الإمساك بالظّرف، ولكن ما إن صار في يدها، حتّى أخذت أصابعها ترتجف، لدرجة أنها اضطرت

إلى تمزيقه ألف مزقة، لتتمكن من أن تستخرج منه ورقة كبيرة مطوية إلى أربع. أفردت الورقة، وجاست بعينها النص المطبوع بأحرف سوداء، وأبصرت في أسفل الصفحة الأختام القرمزية، الطازجة والمشرقة لحكومة شوانهواي ولجنة الحزب؛ وفجأة انطلقت تبكي في شهقات. ثم وثبت على ساقها. كانت الدموع الرمادية تتدفق مثل اللآلئ على امتداد خديها اليابسين الذابلين.

كانت الشمس ناعمة وطيبة. الظهيرة تقترب، والسلام، كما نور الشمس، يغمر القرية. ومن أبصر ماوشي تهب واقفة، كان ليحسبها عجوزاً ميتة نهضت من قبرها لتخيف الأحياء. وكانت أصوات الـ«آه!» والـ«أوه!» تخرج من بين شفتيها مثل طقطقة الحطب الذي يحترق في الموقد؛ وأخذ السرب الممدد بقربها يتأملها في حيرة.

تراجع الصغير بوليو خطوة إلى الوراء.

وغرزت الشلاء في إصبعها الخياط الذي كانت ترقع به النعال. استدار نحوها ماه الأصم، وجلس على مصراع بابه فسال على رقبته القيح الذي كان قد عرض له للشمس كي يجف.

تجمدت أرواق اللاعبين في الهواء، كما لو كانوا ما يزالون على قيد الحياة، ولكن أيديهم ماتت للتو، وظلت معلقة هناك.

ومع أول شهقة أطلقتها الجدّة، هرعت إليها هوايها، التي كانت تنزه حملها عند طرف القرية؛ هرعت راکضة، وهي تسند بطنها بيديها. وما كادت تصل إلى شجرة خروب العسل، حتى كانت صيحائها قد سبقتها:

«جَدِّقِي! جدِّقِي! ما بك؟

جَدِّقِي! جدِّقِي! ما الخطب؟».

في صوت واحد ردّد صيححتها لاعبو الورق، والشّلاء، وماء الأصمّ: «ما الخطب؟ - ما هذا؟».

صمتت ماو تشي.

كانت دموعها لا تزال تنهمر، ولكن تحت الدّموع كان خدّاهما قد احمرّا من الحماسة. نظرت إلى القرويين الحائرين، وانحنت لتمسك بمقعدها، وجرّته حتّى النّاقوس تحت شجرة الصّفيراء، وهي تتممّ بصوتها المبحوح:

«فككنا الضمّ! لقد فككنا الضمّ!

أخيراً، لم نعد محسوبيين على أحد! صدر القرار منذ شهر! لا بدّ أنّه قد أرسل إلى السّرو نهاية العام، ولم يأتوا به إلينا إلّا الآن!».

كانت تتلعثم، تتقدّم إلى الأمام في خطّ مستقيم، من غير أن تنظر إلى أحد، مكتفيةً بوضع قدم أمام الأخرى، كما لو كانت وحدها في الكون. وأخيراً، وهي ما تزال غارقةً في مناجاة نفسها، بلغت الشجرة، فوضعت مقعدها تحتها، وتناولت حجراً مستديراً، وارتقت الكرسيّين ثمّ بالحجر على الجرس: دينغ دينغ، دينغ دونغ.. جعلت تضربُ بكلّ ما فيها من قوّة. في ذلك اليوم، من نهاية الشهر القمرّي الأوّل، من عام الأرنب، اهتزّت القرية بأكملها على وقع تلك الضّربات الواضحة المدويّة، التي طارت، وقد علاها شيءٌ

من الصّدأ، إلى المنحدرات، قبل أن تنتشر، حمراء قانئة، في سلسلة الجبال بأكملها. الكون كله يردّد صدى الرنين.

أطلّ القرويون. شباباً وشيباً، رجالاً ونساءً، عمياناً وعرجاناً، صُمّاً وبُلهأ، أولئك الذين عدموا ذراعاً، وأولئك الذين كُسرت منهم ساق؛ لقد أخرجهم الجرسُ جميعاً من بيوتهم. هرع القرد، لافاً حول كليتيه مئزرَ النّجارة من قماش سميك، وفي يده المسحج. وخرجت جومي من مطبخها، والطّحين ما يزال ملتصقاً بأصابعها. تونغهوا ويوهوا وفلين -ماذا كنّ يفعلن؟- برزن في الصّف الأمامي. اجتمع الجميع تحت شجرة الصّفيراء، وغدت السّاحة غاصّة بالخلق:

«ماذا نفعل هنا؟»

- لا أعرف

- لماذا دُقّ الجرس؟».

امتلاً المكان بجلبة عظيمة. ورصدت ماو تشي ذا السّاق الواحدة في الصّف الأمامي، فتقدمت إليه، وسلمته الرسالة طالبةً منه أن يقرأها: «ولكن انتبه، اقرأها بصوت عال وواضح!» وإذ أبدى دهشته، وسألها عن فحوى ما سيقروءه، أجابته: «انظر وسوف تعرف!» فلمّا تناول الورقة، وفردها، واطّلع على فحواها، صُدم بدوره. تلبّسه الرّعْبُ لوهلة، ثمّ ما لبث أن زايله الخوف، وانفرجت أساريه وأبدى نفس الفرح والإثارة اللّذين أبدتهما ماو تشي. متأرجحاً سار صوب ركام الحجر تحت الشجرة، وبقفزة

واحدةٍ كان فوقه، وسعل لكي يوضّح صوته، ولوح بيده، ومثل واحدٍ من عظماء هذا العالم، كشطَ حنجرته ليصرح على نحوٍ أفضل: «صمتاً! صمتاً! اصمتوا جميعاً! تباً وسحقاً، لقد وصل قرار فكّ الضمّ! سوف اقرأ لكم هذه الوثيقة اللّعينة! سأعلنُ فكّ الضمّ!». لم يعد يُسمع في السّاحة صوتٌ، كأنّها هي قفر.

جائثاً على ركام الحجر، وبصوت قد ينكسر له قصب البامبو، قرأ عليهم القرار الصادر باشتراك عن الحكومة ولجنة الحزب في إقليم شوانهواي.

إلى لجان الحزب في جميع المكاتب والإدارات، والبلدات والمقاطعات: استجابةً للطلب الذي تقدّمت به، عدّة مراتٍ في العقود الأخيرة، قرية طيّبة الواقعة ضمن نطاق جبال بالو، شمال غربيّ إقليمنا، والتي عبّرت بموجبه عن رغبتها في «فكّ الضمّ»، أي بعبارةٍ أخرى: تطلب القرية ألاّ تعود محسوبةً على النّفوذ الإداريّ لمقاطعة السّرو، وإقليم شوانهواي. قرّرت لجنة الحزب وحكومة الإقليم المذكور، بعد دراسة دقيقة وصارمة، ما يأتي:

أولاً: اعتباراً من تاريخ هذا القرار، لم تعد قرية طيّبة، الواقعة أقصى جبال بالو، محسوبةً على النّفوذ الإداري والقانوني لإقليم شوانهواي أو مقاطعة السّرو؛ وبالتالي لم يعد الإقليم والمقاطعة المذكوران أعلاه يتمتعان بأي سلطة إدارية أو قانونية على القرية؛ كما لم يعودا ملزمين بأيّ شيءٍ تجاه قرية طيّبة.

ثانياً: في غضون شهر واحد، من تاريخ نشر وإذاعة هذه الوثيقة، ستشرع مقاطعة السّرو في رفع وإلغاء شهادات الإقامة وبطاقات الهوية لسكان طيّبة؛ واعتباراً من تاريخه، يُعدّ كلّ مقيم في طيّبة يستخدم بطاقة الهوية أو شهادة الإقامة الصادرة عن المقاطعة المذكورة، في حكم من يستخدم وثيقة مزوّرة، ويقع تحت طائلة القانون.

ثالثاً: الخرائط التي سيطبعها إقليم شوانهواي، لمناطقه، لن تشمل بعد الآن الحيّز من جبال بالو حيث تقع قرية طيّبة، ولا القرية نفسها التي كانت حتّى اللحظة توضع ضمن حدود الإقليم؛ سوف تُزال طيّبة من النطاق الترابي والإداري للإقليم.

رابعاً: اعتباراً من اليوم، تُعتبر قرية طيّبة حرّة وذات سيادة، لا يمكن أن يتدخّل في شؤونها لا إقليم شوانهواي ولا مقاطعة السّرو، فيما يخصّ الحقوق المدنية أو الأراضي أو العقارات، وما إلى ذلك؛ وبالمقابل لا يلتزم الإقليم أو المقاطعة بأيّ شيء تُجاه طيّبة، بما في ذلك المساعدات الطبيّة أو الدّعم في حالات الكوارث. وعلى الرّغم من ذلك، لا يحقّ للإقليم والمقاطعة المذكورين أعلاه التدخّل في التبادلات الاجتماعية بين قرية طيّبة ومختلف المناطق بالمقاطعة والإقليم.

ثمّ في ذيل الورقة الختم الرسمي والتوقيع الرسمي للحكومة ولجنة الحزب في إقليم شوانهواي، وكذا تاريخ إصدار الوثيقة. فلمّا أنهى القرّد القراءة، طوى الورقة وأعادها في الظرف.

كانت الشمس قد تربّعت فوق قمم الأشجار، وغدت تسقي القرية برحمة ماءٍ دافئ. وأتت حمائم قُمرية وعصبة من العصافير

تجثم على شجرة الصّفيراء، وبدت زقزقاتها كأنها تنهمر من السّماء، وتسقط رذاذاً من مطر على أهل طيّبة. وهؤلاء، وإن أنصتوا إلى الخطاب كاملاً، إلّا أنهم ظلّوا مسّمرين في أماكنهم، يحدّقون في يد القرد، كما لو أنّه لم يُنه القراءة بعد، كما لو أنّه حذف ألمع المقاطع، وما تزال ثمة نقاط تنتظر التّوضيح. كانت الوجوه جامدة، متحجرة. ينتابهم الانطباع بأنّهم كانوا دوماً على بيّنة من فحوى الرّسالة، وأنّ لا سبب يدعو إلى الدهشة؛ وفي الآن نفسه ينتابهم الانطباع بأنّ ما وقع هو حدث جللّ، ولا يكفي أن يُقال ليصير نافذاً. ورقة، ختمان، ويُفكّ ضمّ طيّبة؟ أيّ عقل ذلك؟ لم يجرؤوا على التّصديق: إنّ الوثيقة تفوح برائحة التّزوير. لذا بقوا هناك، جامدين جهوداً يتأخّم اللامبالاة، في حالٍ قريبة من الحلم اليقظان. وكان القرد قد لمّ الرّسالة، وقفز عن ركام الحجر، ثمّ تذكر شيئاً، فقال بصوتٍ قويّ: «حسناً، الآن، إن أنشأنا فرقة، ممّن ينبغي أن نطلب الخطابات والتّصاريح؟» ثمّ أضاف: «كيف لنا أن ننطلق في جولة ونكسب المال من دون أوراق رسمية؟».

كان كلامه موجهّاً، على وجه التّخصيص، إلى ماو تشي. ولكن عندما التفت إليها، ألفاها على مقعد الخيزران، جامدة لا تتحرّك، كما لو أنها غفت متكئة على شجرة خرّوب العسل. أشعة الشّمس تسقط على ملابس قبرها التي ما تزال تحتفظ بألق الجِدّة، كما كانت فيما مضى تسقط عليها الأضواء، أحياناً، فوق خشبة المسرح. ظلّت هناك، متكئة على الشجرة، وقد تدلّى رأسها جانباً، وعلى وجهها المتألق القرمزيّ، نفس تلك الابتسامة الهادئة، والابتسامة في حالٍ

طَيِّبَةً، التي ترسم على شفتي طفل يرى حلماً عذباً. كرّر سؤاله، ولما لم تُجِبْهُ فقد عزم على أن يكرّره مرّةً ثالثة، وإذا بغصّة تسدُّ حلقة وهو يقف على أمرٍ.

هرع إليها مرعوباً: «ماو تشي! ماو تشي!».

وركضت إليها جومي صائحة: «أمي! أمي!».

وعلى نهج أمهنّ ركضت كلّ من هوايهوا والقزّمات الثلاث، مخترقات الحشد: «جدتي! جدتي! ما الخطب؟ لم لا تردّين؟».

دوى الجمع؛ القرية، والجبلُ بأكمله، ينادي ماو تشي بكلّ الأسماء الممكنة.

لكنّ ماو تشي، على الرّغم من كلّ الصّياح والنّداءات، لا تصدر حركةً أو كلمة.

لقد توافّت. رحلت هائنةً، باسمّة. رحلت في حالٍ طَيِّبَةٍ، مرتاحة النفس، لدرجة أنّ الرّضا ينعكس على أساريها بنفسٍ دفع وقوة أشعة الشمس.

لم يكن موئها كارثةً، فهي قد أنافت على الحادية والسّبعين؛ لذا كان القرويون يبدون أسفهم علانيةً، ولكن بينهم وبين أنفسهم كانوا يقولون إنّها ميتة جميلة: ليس بوسع أيّ كان أن يبدي مثل هذا الصّفاء لحظة تسليمٍ روحه.

وبعد ثلاثة أيام دُفنت. لم يكونوا بحاجة إلى خياطة ملابسٍ قبرها على عجلٍ، فهي قد خاطتها بنفسها؛ وكذلك كانت قد اتخذت

ترتيبات التّابوت. كلّ شيء تمّ بهدوءٍ، من دون حاجة إلى العجلة. على أنّه، لما حان وقت حمل النّعش إلى القبر، على بعد عدّة ليّات أقصى الجبل، حدث شيءٌ لم يكن لأحد أن يتخيّله. فألاً يُسمح لهوايهوا، الحامل، بأن تشيّع جدتها، تلك قاعدة مقرّرة منذ قرون. وألاً يكون في سلالة ماو تشي ذكرٌ، إذ إنّ جومي وتونغهوا ويوهوا وفلين جميعهم من الإناث، فذاك يعني حاجتها إلى من يضطلع بدور الابن أثناء الجنازة. ولما كان القرويون كلّهم، بغضّ النظر عن أعمارهم وطبيعة إعاقاتهم، أصغر منها سنّاً، فقد كان من الطبيعي أن يشعروا نحوها بنوع من التقدير، ومن المنطقيّ أن يشيّعوا التابوت. لكن، ما لم يتوقعه أحد هو أن يسير في إثرهم الستّة عشر أو السّبعة عشر كلباً، العمي والعرج. عندما غادر الموكب القرية، وفقاً للطقوس، شُهد سربُ تلك الحيوانات يتبعه في هيئةٍ مثيرةٍ للشفقة. لم تكن الكلاب تنادي باسم ماو تشي منتحبةً، كما يفعل البشر، ولكن تحت مُقلها كان يسيل خطّان من الدّموع، مليئة بالطين والأوساخ والغبار. كانت تسير ببطء، وتبكي في صمتٍ، على عاداتها أيّام كانت تتبع صاحبها أينما حلّت وارتحلت.

ولما بلغوا طريق التّل، على بعد نصف لي من مخرج القرية، لم يعد عددها ستّة عشر أو سبعة عشر، وإنّما كانت عشرين أو ثلاثين. من أين خرجت؟ ربما من القرى المحيطة، ربما من خارج السلسلة. كان ثمة من كلّ لون وشكل؛ سودّ، بيضّ، رماديّة، عرجاء، قدرة، مهزولة... وما زالت تتقدّم في سيرها وتتجمّع حتّى أنافت على المائة، بين أعمى وأعرج، وجاوزت عدد القرويين.

وحين أتت لحظة مواراة ماو تشي التراب، لم يعد الجبل سوى حيوانات تبكي. قطط، وكلاب، بريّة أو مستأنسة، أغلبها أعور أو أعرج، ومن لا تنقصه أذن، فقد عدم الذيل؛ جميعها في المحصلة معطوبة. انتشرت في زُمر حول القبر وعلى المنحدرات، مثل حُزم قشّ في حقل حُبوب، فصلّ الخريف؛ ومن دون صوت، من دون حركة، ظلّت هناك، مستلقيةً بهدوء، تراقب ماو تشي وهي تُوارى التراب طلباً للسكينة.

وهناك ظلّت الحيوانات، زُمرّاً، حين غادر أهل طيبة.

يقول قرويٌّ: «ثمة الكثير منها. إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها هذا القدر منها.

فيعلّق آخر: - وجميعها معاقة».

وفجأة، ارتفع خلفهم البكاء والأنين. السرب، ذاك الحشد من الكلاب المعاقة، كان يصرخُ بحزنه. لم تكن تحتاج، على غرار البشر كلمات، وإنّما كان رثاؤها شكوى رتيبة ارتفعت من أعماق الحلق، في صوتٍ يذكّر بريح الخريف حين تنفخ بين الأزقة. وحين التفت القرويون، والأهل، وجميع أولئك الذين حضروا دفن ماو تشي، وكانوا عائدين على طريق التلّ، أبصروا الحيوانات التي كانت حتّى تلك اللحظة متناثرة على المنحدرات، قد تجمعت أمام الأكمة، في الحقل الشاسع حيث كانت السنابل قد بدأت ترفع رؤوسها خضراء زاهية، حتّى أنّ العين لتعلّق بها في وسط الأرض الحمراء. راقدة بين تلك البراعم الزمرديّة، مديرة رؤوسها إلى القبر، كانت

تلك الحيوانات تبدو كحصى، من كل حجم ولون، برزت على سطح الماء. كانت تصرخ، كانت تبكي، عشرة، عشرات ربّما، قد ارتقت الأكمة، وأخذت تنبشها، مطيرة التراب، كأنها تطلب إخراج الجثمان.

من على طريق التّل كان بعضهم يصيح بها: «ماذا تفعلون؟ ما الفائدة، ما دامت هي قد ماتت؟».

وآخرون: «تعالوا! ماو تشي رحلت، لكنّ طيبة ستظلّ دياركم!». ببطء، كفّ السرب الهائل عن نبش الأرض، لكنه واصل الصراخ والبكاء. لم يعد العالم سوى ريح شتوية، حين تهبّ بين الأزقة وتجلّد القرى.

بعد أن تحدّثوا إلى الكلاب طويلاً، واصل العمي والعرج -أنا أسنّدك وأنت تحملني- طريقهم إلى القرية. وكانوا قد بلغوا التّل المشرف عليها، حين أبصروا زمراً من الناس، مهاجرين على ما يبدو، يسلكون في صفوف متراصة الطريق إلى أقاصي بالو. كانوا جميعاً مثلهم، عجرة، أو عمياناً، أو عرجاناً، أو صمّاً، أو بُكمّاً، أو مقعدين. بالإضافة إلى عددٍ من الكُتّع، أو من ذوي ستّة أصابع، على العموم، لم يكن بينهم إلّا قليلٌ من الناس -تامين. كانوا يسرون متكئين بعضهم على بعض، أو حاملين بعضهم بعضاً، يسرون أسراً، كلّ منهم يجرّ عربةً أو يحملُ محملاً، حيث وضع الفراش أو الطّعام؛ أو الملابس وأواني الطّهي والأطباق والملاعق وعيدان الطّعام والجرار ومختلف الماعون؛ حتى الطّاولات والصّناديق والكراسي

وخشب الأسرّة والأسلاك الكهربائية والحبال، وربما أيضاً دجاجاً وبطاً وقططاً وخنايص وخرفاناً... من كل شيء ولا شيء... أي شيء. الكلاب تركض لاهثة خلف الناس الذين يسحبون الثيران بالحبل، والماعز تهروّل بشدّة. بخطى هادئة كانوا يتوغّلون في الجبل. مكفوفون يسحبون عربات تحمل مشلولين يبيتون لهم الطريق؛ صمّ وبكمّ وضعوا على أكتافهم محامل، يتواصلون بجهد، متوسّلين بالصّرخات والإيماءات؛ عُرج يسوقون أبقاراً أو أغناماً، وكلّما توقّفت استحثّوها بضربات من غصن. وحدهم النّاس - تامّون، ما كانوا يحملون في عرباتهم اليدويّة شيئاً من تلك الخرداوات، وإنّما وضعوا عليها المسنّن أو الأطفال، وربما كان بعض أولئك الأطفال عمياً أو بُكماً. فإن سأل أعمى أبكم، فإنّ الأبكم يجيب بإيماءات لا يراها الأعمى بالطّبع، ولذلك يحسبهما النّاظر إليهما يتشاجران، لكنّ الموكب واصل سيره ببطء حتّى بلغ طريق التّل عند مدخل طيّبة.

مذهولين، أراد القرويّون أن يعرفوا إلى أين يسير المهاجرون.

سألوهم: «هل أنتم من طيّبة؟». فأجابوهم: «لقد جننا من منطقة بعيدة، منطقة خارج الجبل. لقد قررت الحكومة بناء خزان كبير. ورُحّل جميع السّكان. أعطونا المال وقالوا لنا: أنتم أحرار؛ إمّا أن تُهجّروا إلى حيث هُجّر الآخرون، أو تأخذوا تعويضاً، وتبحثوا بأنفسكم عن مكان جديد تستقرون فيه». ويبدو أنّهم قد عثروا على بقعة الحياة فيها أطيب من الحياة في طيّبة نفسها: «لا أحد يأبه

لقريبتكم لأنها واقعةٌ عند حدود ثلاثة أقاليم؛ أمّا الوادي الذي
نقصده فيقع على حدود ستّة! إنّها أرض خصيبة، جيّدة الماء، ولكن
لا أحد يهتم لأمرها، لا أحد يديرها، لذلك اتّفقنا، نحنُ المعاقين،
على أن نستقرّ بها. سنقصدها في مائة أسيرة. نزرعُ الأرض ونعيشُ
في حالٍ طيّبة. لا تهتمّوا لأمرنا. سنعيش أفضل منكم!

- أين يقع بالضبط الوادي الذي عثرتم عليه؟

- هناك، في بالو، على الجانب الآخر من جبلٍ يدعى الأرواح
الميتة؟».

بعد أخذٍ وردٍّ، بين سؤالٍ وجوابٍ، هوب! من يجرّ عربةً،
جرّها، ومن يحملُ محملاً، حمّله، واستأنفوا المسير. ودّعوا أهل طيّبة
وتوغّلوا في الجبل. كان موكباً طويلاً على طريق التّل. وإلى أن اختفت
ظلالهم وأشباحهم، ظل القرويون هناك، يتابعون بأنظارهم أولئك
العجزة، والعُمي والعُرج والصمّ والبكم القادمين من عالم الناس -
تأمين. إذّاك، مذهولين كمن أضاع شيئاً، انعطفوا إلى الطريق التي
قادتهم إلى ديارهم. فلما مرّوا بجانب منحدر زهرة (٣)، وأبصروا
تلك الأرض الخصبة التي لا يزرعها أحدٌ، وحيث ينمو الأقحوان
البريُّ، وزهور بياض - القمر والزهور - الصّيف المورقة، تساءل
أحدهم:

«هل سنفلح الآن الحقول المتناثرة (٥) بعدما فككنا الضمّ؟

أجابه آخرٌ: - طبعاً. وهل لنا أن نفعل غير ذلك، مادّنا سنعيش
دون تشابكات (٧)؟

- في هذه الحال، ما مصير أعياد التين (٩)، وطائر الفينيق (١١) والأسلاف (١٣)؟

- لا تسألني. ماو تشي لم تعد هنا؛ ابحث عن شيخ واسأله.

- كيف سنغني مادريغال (١٥) طيبة؟

- أخشى أن لا أحد يتذكر كلماته، بعد أن توافت ماو تشي.

- وماذا عن السيادية؟

- وما حاجتك إلى سيادي؟ لا حاجة إلى أن يحشر أحد أنفه في شؤون الآخرين!.

ثم أكملوا مسيرهم، واثين، متأرجحين، حتى بلغوا طيبة. عند مدخل القرية كانت تنتظرهم هوايهوا، تسبقها بطنها. كانت هائجة مائجة. من بعيد لمحتهم، فأخذت تصيح عليهم بملء رئيتها:

«أصغوا إليّ! إن رئيس الإقليم تعرّض لحادث سيارة، ففقد ساقه، ولم يعد رئيس إقليم! لقد أتى ليستقر معنا! حالياً هو في حجرة المعبد ويقول إنه سيبقى، ويعيش، فيها».

سمّرتهم المفاجأة في أماكنهم. وبدت تونغهوا ويوهوا وفلين كطيور صغيرة دفعت بها الدهشة إلى أن تحطّ وسط حشد من الناس. أمّا أمهنّ، فمن هول الصدمة كانت شاحبة كأنها عالجتها صفة أو قُبلة.

تبادل الآخرون النظّر حائرين. وحده القرّد بدا مبتهجاً.

بعد ستة أشهر أنجبت هوايهوا. وضعت صبيّة نحيفة وهشّة.

صحيحٌ أنّها لم تكن إلاّ بتّاء، لكنّها بدايةُ جيلٍ جديدٍ. أمّا ما حدث
بعد ذلك... فقد حدث بعد ذلك.

الفصل الثالث

تعليقات: منحدر زهرة، والأعياد، ومادريغال طيبة

(١) - توافى، فعل: توفّى، مات، لكن الصيغة تنطوي على بُعد احترام وتقدير. فهي لا تستخدم في بالو إلا للشخصيات التي تمتعت في حياتها بمكانة اعتبارية مقدّرة.

(٣) - منحدر زهرة: منحدر زهرة اسم مكان، ولكن زهرة كانت في الأصل إنساناً. وأسطورتها شائعة، يعرفها جميع أهل طيبة. يعود تاريخ القصة إلى أربع دورات خلت، في سنة ما من سنوات الجرد، منذ أكثر من مائتين وأربعين عاماً. كانت زهرة في السابعة عشرة من عمرها. ولدت لأب أصمّ وأمّ خرساء، ومع أنّها حُببت رهافةً سمع وجمال صوت، إلّا أنّها كانت تعاني من مشكلة طفيفة في ساقها، إعاقة لم تمنعها من أن تكون رشيقة ومنطلقة، كما وهبت بشرة بيضاء كقطن الفيوم في يوم صحو، زادهما جمالاً أحمرّ زاه، وورديّ كأزهار اللّوتس المائية. عاشت مع والديها في كوخ من القش على بعد بضعة امتدادات، نواحي طيبة. كان لديهم بئر، وثور وأغنام، ودجاج وبط، وكانت حقولهم خصبة لدرجة أنّ قطعة خبز لو ألقيت فيها لبرعمت ونبتت. وكانوا يعيشون في سلام، وهناءة. وفي السابعة عشرة من عمرها، صارت ذات جمال عزّ نظيره. في ذلك العام كان حُكم سلالة تشينغ قد بلغ ذروة عظمتها، الدولة مزدهرة، والشعب آمن. وغادر شابّ شيان إلى شوانهواي، على الجانب الآخر من جبل فونيو، حيث عُيّن حاكماً فرعياً. كانت الرّحلة طويلة، فبحث عن طريق مختصرة، فعبر جبال بالو، ووجد

نفسه في طيبة، وقد جفَّ حلقه. كان عطشان، فتوسَّل ماءً من منزل زهرة وتعرَّف عليها. من باب المنزل كانت الحقول تمتدُّ على مدِّ البصر، وتبدو مثمرة ليس لوفرتها مثل: القمح فيها نما وثقل بالحبِّ، ويكفي حصاد هذه السنة، لتوفير غلة تغطِّي ثلاث سنوات؛ وفي مكان أقرب، تحت الإفريز، كانت عرائيس الذرة معلقة في حزم مترابطة تكفي عقداً من الزمن وتزيد؛ أما محيط المنزل المباشر، فكان مزروعاً بالخضروات وعباد الشمس ومختلف الزهور. وكان الموسم موسم أزهار الوردية المعمرة، وزهرة الصيف-الخضراء، والغيردية البرية، والزنابق الجبلية، وزهور بياض القمر، وزهور الظل والشفق البرية؛ فتراها كلها يانعة زاهية. وكان ثمة أيضاً وستارية معمرة، ونبات جولق، وكرمة عذراء تسلق الجدار. كان كلُّ شيء أحمر حمرة الزهور، وأخضر خضرة الصفصاف؛ كلُّ شيء في العالم شجيرات وعطور. أمام ذلك المشهد، قرر المحافظ المستقبلي، من الدرجة السابعة، عدم الذهاب إلى شوانهواي لتولِّي منصبه، والاستقرار في طيبة، يزرع تلك الأفدنة القليلة، ويتزوَّج زهرة.

بالطبع، اعترضت عائلة الفتاة. رفضوا رفضاً قاطعاً مصاهرة رئيس إقليم. قالوا: «نحن فلاحون، فكيف نزوِّج ابنتنا موظفاً حكومياً؟».

تناول الخطاب الإمبراطوري، والختم الإمبراطوري، الكتب القليلة التي حملها معه ليدرس في الطريق، ورمى بها في قعر الوادي.

قالوا «نحن معاقون، فكيف نصاهر ناس-تاماً؟».

ذهب إلى المطبخ، يضع قدحاً كان قد شرب فيها للتو؛ وهناك عمد إلى سكِّين فقطع بها يده اليسرى من المعصم.

ما عاد ثمة من سبب يحول دون زواجه من زهرة.

لم يستلم الوالي الفرعي منصبه، وبقي في منحدر زهرة، وأصبح زوجاً لزهرة. ولما كان قد عاش منذ طفولته المبكرة، وسط الكتب، فقد اضطرَّ والدا زوجته إلى تعليمه كيفية التعامل مع مجرفة بيد واحدة، واستخدام المعاول، والجز، وتطويع المنجل، وكلِّ ذلك بيد واحدة. وعلمته زهرة فنَّ زراعة

الخضروات والزهور. وتلك كانت بداية الأيام المثالية. ولما توافى والدا زوجته، كان قد تعلّم كيف يبذر الحبوب والبازلاء والدخن؛ وكيف يزرع القمح ويدرسه، ويفرز البذور. في كلّ صيف كان المنحدر يختفي تحت القمح، وفي كلّ خريف يحصدون عرانيس ذرة ضخمة مثل قَرَب. وحين يينع القطن، تبدو حقوله كأنّها سقطت عليها الغيوم من السماء، في الربيع تتلألأ حقول الصفراء ساطعة كأنّها ضمختها الشمس التي نزلت إلى الحقل.

لم يستلم الوالي الفرعي منصبه، وبقي في منحدر زهرة، وأصبح زوجاً لزهرة. طيلة الفصول الأربعة كانا ينعمان بخضروات الموسم، وزهور الموسم، وعند الحرف يرعى الدجاج والبط، في قوقاة وبطبطة. ولم تكن زهرة خارقة الجمال فحسب، بل أيضاً مولعة بالنبت، شغفت بزرعه منذ كانت طفلة، فزرعت حديقته، وسائر أنحاء المنزل، بشتى صنوف الأزهار من الوردية المعمرة، والغيردية البرية، إلى الزنابق الجبلية، إلى زهور بياض القمر. في فصل الربيع يضع المنحدرُ بعطر زهرة الوستارية، وفي الصيف، نهراً وليلاً بالعطر الأخضر والأحمر لزهور بياض القمر، وزهور الظل والشفق البرية، وفي الخريف تملؤه روائح زهرة الغيردية البرية، والبازلاء المعلقة. فإن حلّ فصل الشتاء، في الدفء عند رأس سريرها، أنبتت وروداً بيضاء شاحبة. حتى في ذروة البرد كانت تعرف كيف تزهر نبات الأيام الرمادية، تلك الورود التي تذبل في الشمس ولا تينع إلا تحت سماء ملبّدة، ولكنها وإن نمت في الظل فإنّ بتلاتها تكون أرجوانية مشرقة كالورد الصيني أو الفاوانيا العشبية. على مدار السنة لم يكن الربيع يفادر منزلهما، طيلة الفصول الأربعة يضع المكان بعطر الزهور. من حيثما أقبلت، وأياً كان الشهر، بمجرد دخولك إلى بالو، حتّى لو كنت ما تزال بعيداً عن المنحدر، فإنّك تشمّ عطر الزهور.

كان مكاناً طيباً، مكاناً فردوسياً. نهراً كان، ذاك الذي كان يمكنه أن يكون رئيس إقليم، يزرع أرضه، بينما زهرة تخطط الملابس أو تحيكها أو تفصلها. أحدهما في الحقول، والآخر عند باب المزرعة، ورغم بعد المسافة بينهما لا يكفان عن الحديث.

سؤال: «لماذا قطعت يدك؟»

جواب: هل كنت ستتزوجني لو لم أكن معطوباً؟

جواب: بالتأكيد لا.

جواب: تعرفين الجواب إذن..»

في بعض الأحيان، عندما يعزق أو يحفر في حقل بعيد، لا يسمح لهما بالحديث، فإنّها تنقل مغلّتها المصنوع من خشب الصفصاف إلى حرف الحقل. هو يحرق الأرض، وهي تحلج القطن الأبيض أو ترقع نعالاً، أو تخطط ملابس.

يقول: «هذه الأرض خصبة حقاً، سمينة جداً».

فتجيب: «كان أجدر بك أن تستلم وظيفتك، لا شيء أرفع من ذلك بالنسبة إلى رجل».

قال: «سأصدقك القول: عندما كنت في السابعة من عمري، رأيتُ حلماً، قيل لي فيه إنني إن درستُ، فسوف أعيش أياماً فردوسية. كان علي أن أصبح موظفاً، وفي طريق المناصب التي سأقلّدها، ستكون السعادة تنتظرني. فعملت بجد، ثلاثة عشر عاماً، واجتزت امتحاناتي بنجاح، ولكن عندما مررت ببابك راودني الحلم القديم، الحلم الذي مرّ عليه ثلاثة عشر عاماً. أبصرتك، أبصرتُ المنزل، القمح، الزهور، النباتات: كل شيء كان هو نفسه، تماماً كما في الحلم. تذكرتُ تسع دجاجات، وكان لديكم تسع دجاجات. في الحلم رأيت ست بطات أو سبعة، وكان لديك ست أو سبع؛ في حلمي كانت الصبية تصفّرني بثلاث سنوات، وفي الحقيقة كنتُ في العشرين وأنت في السابعة عشرة من عمرك؛ في حلمي انكشفت لي جبال من الحبوب، ومنحدرات مغطاة بالزهور، وفي منزلكم كانت جبال من الحبوب ومنحدرات مغطاة بالزهور».

قال: برأيك، أكان يجدرُ بي أن أوصل طريقي؟

في الليل، بالطبع يتعانقان، ويخبرها أيضاً بتلك الأشياء التي تمتلئ بها

بطون الكتب، وتحكي له هي قصص الجبل التي لا تنضب. تدفقت الأيام كالماء، كالزهور، تماماً مثل رائحة الحبوب، سنة في إثر سنة.

وذات مساء قالت له: «أريد أن أمنحك طفلاً».

فأجاب بأنه يخشى أن يكون الطفل ناس-تاماً.

قالت: «أمل أن يكون ناس-تاماً».

قال: «إن كان ناس-تاماً، فلن يستوعب العالم هنا، ووداعاً للأيام الفردوسية، سيخرج إلى العالم، ولأنه سيكون مندفعاً متهوراً، ولا يقوم إلا بالأفعال الخرقاء، فلن يكون سعيداً، سوف يعاني».

فكرت للحظة، لكنها لم تجب. ورغم ذلك حملت. وخلال فترة حملها، قدمت المحافظة تقريرها إلى البلاط، بعد أن علمت أن متعلماً أرسل إلى شوانهواي، قد فضل، بدلاً من تولي منصبه، أن يتوقف في الطريق ويعطب نفسه. أصاب التقرير البلاط بالسخط: «ماذا؟ هذا الرجل يحتقر نعمة الناس-تامين! يجروء على الادعاء بأنه في حال طيبة، بعدما أصيب بإعاقة!» في حمى غضبه، رأى البلاط أن الرجل، إن عدم يدا؛ ويبد واحدة لا يمكن للمرء أن يقاتل، إلا أن ذلك لا يمنعه من إيقاد النار والطبخ. فكان أن أرسلت أشخاصاً لتجنيد قسراً في الجيش. ولما كان القتال مستعراً في منطقة دياندي في يانان في ذلك الوقت، فقد أرسل إلى هناك باعتباره طباًخاً للفيالق. فلما أزع الرحيل، تشبثت زهرة بساقيه وهي تبكي. قال لها: «كان يجدر بي أن أقطع كلتي يدي. لو فعلت لما وقع شيء مما يحدث الآن» وقال أيضاً إن السنوات القليلة التي قضاها في حال طيبة، أكدت له أن الحياة تستحق أن تعاش. شيء واحد فقط يقلقه: «عندما يولد الطفل، أخشى أنك لن تملكي الشجاعة لعطيه. ولكن تذكرني: أولاً عليك أن تنتظرنني، فسوف أعود. ثانياً: عندما يولد الصغير تدبري أمرك لتجعليه على الأقل أعرج. وهذا أمر غاية في الأهمية. يكفي أن يعاني صعوبة في المشي ليحسب معاقاً».

ثم اقتاده الجند.

وكان الطفل الذي وُلِدَ على المنحدر ناس-تاماً ومعافى، وابتهجت لولادته نساء طيبة اللواتي كن يخشين ولادة متعسرة، فأقمنا حارسات بجانب سريرها. ففكروا: لقد كانت أم الطفل، فكيف تطيق عطبه؟ هي التي كانت، لمجرد أن تجرح يدها، تتألم حتى تبكي... فظلت على المنحدر، تنتظر مع الطفل عودة رجلها. انتظرت وانتظرت، ثم في أحد الأيام، وقد بلغ ابنها السابعة عشرة من عمره، أخبرها بأنه سيفادر، وانطلق يبحث عن والده. سيكون السعي طويلاً وشاقاً، لكنه غادر الجبال ذات صباح.

هو أيضاً لم يعد.

استعجالاً لعودتها، كفت زهرة عن زرع الحبوب. غطت منحدرها بالزهور والأعشاب. من كل أنواع الأقحوان البري، وزهر الشفق-الحارق، وزهور الظل، وبشائر الربيع، ووردية الخريف، وأرجوانية الشتاء، وزنابق الجبل؛ كلها كانت تنمو هناك، على حافة المنحدر، وعلى طول الطريق، وتحمل الرياح أريجها. بعضها يعطر الخريف، وبعضها يزين الشتاء، على امتداد عشرة ليّات، أو مائة، وعلى مدار السنة، كانت أدنى هبة نسيم تتشر شذاها.

كانت تأمل أن يشمها رجلاها، سيجدان طريق العودة إلى بالو. على المنحدر تينع الزهور، وهي هناك واقفة تتقصى العالم. تراقب الطريق بعينين مليئتين بالدموع، وتنتظر بقلب عامر بالرجاء. واستمرت كذلك حتى عام مذكور، عام غزا فيه عطر الزهور سلسلة الجبال بأكملها. وكانت قد بلغت الستين من عمرها، وما عادت تبصر، ولضرب ما راقبت الأفق، ماتت على المنحدر.

لا زوجها عاد ولا ابنها. ولم يزرع أهل طيبة الحبوب، بعدها في تلك الأرض الخصبة؛ جيلاً بعد جيل تركوها للزهور والأعشاب. وأطلقوا عليها اسم: منحدر زهرة.

(٥)- الحقول المتناثرة: لا يتعلق الأمر فقط بالحقول التي تزرعها كل عائلة لنفسها. بل يشير المصطلح أيضاً إلى نمط الحياة التقليدية والفلاحة في طيبة، في مقابل تجميع الأراضي والعمل المشترك.

(٧) - أن تعيش دون تشابكات: أن تقضي أيامك لا تحمل همًّا، ولا يعوق حياتك عائقٌ، وهو نمطٌ قديمٌ من الوجود يرتبط بالحقول المتناثرة.

(٩) - عيد التَّين، عيد الفينيق، وعيد الأسلاف - عيد الرجال، عيد النساء، عيد المسنين - اليوم الذي يكرَّم فيه طول العمر والحكمة - وهي أعيادٌ لم يعد يُحتفل بها في طيبة منذ عقود. كان عيد التين هو عيد الرجال، ويُحتفل به في اليوم السادس من الشهر السادس حسب التقويم التقليدي. أمَّا الفينيق، فعيد النساء، ويُقام في اليوم السابع، من الشهر السابع؛ أمَّا عيد الأسلاف، والمقصود بهم كبار السن، فموعدُه اليوم التاسع من الشهر التاسع. ويرجعُ تاريخ الأعياد إلى ما بعد الهجرة العظيمة، في عصر مينغ. وكانت طيبة قد تأسست، لكنَّ سكانها الذكور، ومعظمهم من المكفوفين أو الصمِّ أو البكم أو المعاقين، وجدوا لعجزهم مشقَّة في زراعة الأرض.

عاجزين عن الحصاد، كانوا يعيشون وجوداً هادئاً، لكن كثيباً، فيستولي عليهم إحساسٌ عميقٌ بعدم الرضا. ثم أتى شيخٌ إلى القرية. قال لهم إنهم إن ساروا في اتجاه الجنوب الشرقي، ففي مرحلة ما من مسيرهم، سيستعيد المكفوفون البصرَ، والصُّمُّ السَّمْعَ، وستصير خطوة العُرج راسخةً، كما لو كانوا يطبِّرون، ولن يكون للبكم إلَّا أن يفتحوا أفواههم لبيدؤوا في الحديث والغناء. حتَّى النَّاسُ - تامون بوسعهم أن يغنموا فائدة: فإن كان قبيحاً، فقد يكسب الجاذبية والحضور. وكان أن انطلقوا في يوم من الأيام، من دون أن يُخبروا زوجاتهم؛ اختفوا، غادروا في اتجاه الجنوب الشرقي. ساروا وساروا. وكانوا إذا جاعوا، توقفوا فأعانوا الفلاحين على شغل في الأرض، أو قاموا بأعمال بسيطة، أو تسوَّلوا؛ وإذا عطشوا، استسَقَوْا من حوافِ البرك. وفي رحلتهم، عانوا كلَّ الآلام، وكلَّ المشاق. بعد عام ونصف من مسيرهم، صادفوا على جانب الطريق شيخاً أبيض الشعر، فضيَّ الصَّدغين، يموت من الجوع والعطش. توسَّل إليهم، وأوشكوا على إطعامه، فانتبهوا إلى أنَّه أعمى وأعرج وأصم. اعتنوا به، فلمَّا أكل وشرب وشبع، صرخوا بملء أصواتهم مستنكرين: «نحن معاقون، لكننا شبَّانٌ، وإعاقاتنا طفيفة. بعضنا أعمى، وبعضنا أعرج، وبعضنا أصمُّ أو أبكم؛ أما أنت،

فقد جاوزت الثمانين عاماً، وجمعت تلك الإعاقات، وزدت عليها بذراع مقطوعة. فلم غادرت بيتك؟».

أجاب الشيخ بأنه ما زال يمشي منذ واحد وستين عاماً، أي أكثر من دورة: «في عيد ميلادي التاسع عشر، وبعد أن حاولت مرّات إنهاء حياتي بسبب عجزِي، أراني ربّ السماء رؤيةً. ألهمني بأن أسير إلى الشمال-الغربيّ، في اتجاه بالو، إلى قرية تسمى طيّبة. هناك، تحت شجرة خرّوب عسل كبيرة، دُفنت الوصفة السريّة التي تعيد البصرَ إلى المكفوفين، والسّمع إلى الصّم، والنطق إلى البكم، وإلى العُرج سلامة الأقدام». قال: «وانطلقت على الفور، ولكن لما كنتُ آتياً من أقصى الجنوب-الشرقيّ، فقد مرّ عليّ أكثر من ستّة عقود وأنا أمشي. غادرت ديارِي، حين كنت في التاسعة عشرة من عمري، وقريباً سأبلغ الحادية والثمانين.» قال: «أعرف أنّي إن واصلت السّير عاماً آخر ونصف عام، سأصل إلى هديّ. لكن للأسف أنا طاعنٌ في السن، أخشى أنّي لن أصل».

أجهش.

فكان أن تناوبَ على حمله رجالٌ طيّبة، بين ذراعيهم أو على ظهورهم، وارتفقوا به واعتنوا، وداروا على أعقابهم عائدين إلى بالو. وعلى ما أولوه من عناية، وما أطعموه وسقوه، فقد قضى الرّجل، بعد ثلاثة أيام، موتاً طبيعياً. قال لهم قبيل أن يسلم الرّوح: «عشت واحداً وثمانين عاماً، مشيت دورةً بأكملها، وفي الأيام الثلاثة الماضية عرفتُ السعادة: كان الأمر يستحق كلّ هذا العناء». ثم نام، وفي الصباح لم يستيقظ.

وبعد أن اختاروا مكان دفنه، ودفنوه، سار رجال طيّبة ثمانية عشر شهراً أخرى. فلما بلغوا قريّتهم، سارعوا جميعاً إلى منازلهم، فأتى كل واحد منهم بمعول، أو مجرفة، وبدأوا في الحفر تحت شجرة خرّوب العسل العتيقة. وبالفعل، استخرجوا من تحتها جرة خزف كبيرة، وبداخلها كان ثمة صندوق من خشب الورد. لكن عنق الجرة كان ضيقاً، فلم يكن بوسعهم أن يخرجوا منها الصندوق. لا بدّ من كسرها. وكان الصندوق فارغاً، لا يحوي نتفةً من وصفة سرّيّة، ولا حتّى ذرّةً من تراب.

ألقوا به، تدمروا، وشتموا الشيخ، ثم انصرفوا إلى منازلهم يرتاحون. لقد ساروا سنة ونصف إلى الجنوب-الشرقي، ثم سنة ونصف أخرى للعودة إلى بالو؛ ثلاث سنوات وأرجلهم تحملهم بلا انقطاع، كانوا منهكين. لم يعد أحد بعدها إلى التفكير في مغادرة طيبة؛ واستأنفت النساء، والجميع، بهدوء شغل الأرض وحياتهم. ولكن في الموسم، عندما كان لازماً قطع القمح أو زرع الذرة، أدرك الكُتْع أن تلك السنوات الثلاث من الألم والمعاناة، قد علمتهم الجزَّ وحفر الأرض بذرًا واحدة؛ صاروا قادرين على أن يفعلوا بيد واحدة، ما يحتاج غيرهم إلى يدين لفعله؛ كذلك العُرج، بعد سنوات السير الثلاث، صاروا يسيرون بنفس سرعة وقوة سير النَّاس-تَامِينَ؛ ولفِط ما سافر العمي، متلمسين الأرض، ضاربين عليها بعصيهم، فقد تعلموا استخدامها كما تُستخدم العيون؛ ولكثرة ما لاحظ الصمَّ شفاه من كانوا يتحدثون إليهم، فقد كسبوا ملكة تخمين ما يُقال لهم؛ ولأنَّ البكم كانوا مجبرين طيلة الطريق على التعبير عن أنفسهم بأيديهم، فقد اخترعوا لغتهم الخاصة، لغة إيماءات.

كانوا قادرين على العيش والزراعة في طيبة، مثل ناس-تَامِينَ. وتكريماً لذكرى الشيخ الطيب، قرروا الاحتفال بالمستنين في اليوم التاسع من الشهر التاسع؛ وقررت النساء، احتفالاً بعودة رجالهم، فضلاً عن تعلّمهم فن وتقنيات الحياة التي كانت تنقصهم، إعلان عيد الرجال، يوم السادس من الشهر السادس-تاريخ عودتهم-، وأطلقوا عليه عيد التنتين؛ وكذلك الرجال، شكراً لنسائهنّ، على الصبر والعمل، ثلاث سنوات، في المنزل وفي الحقول، ورعاية الأطفال والحرث، فقد جعلوا من اليوم السابع من الشهر السابع عيداً لهنّ، عيد الفينيق. خلال عيد الأسلاف، يلزم الأجيال الشابة أن تنحني أمام كبار السنّ، وتقدم لهم وجبة طيبة، وتعرض عليهم الملابس، الخفيفة أو الثقيلة، التي صنعتها لهم طوال الفصول الأربعة؛ تُقام مسابقة، ثم تُعطاهم الملابس. وفي اليوم السادس من الشهر السادس، وهو يومٌ يحلّ في عزّ الموسم الزراعيّ، ولكن بما أنه عيد التنتين، فإنّ الرجال لا يفعلون فيه شيئاً، طيلة اليوم. النساء يعتنين بكلّ شيء، من طعام وشراب وأشغال، بينما يرتاح الرجال في المنزل. ثم يكون

على الرّجال بعدها أن يضاعفوا جهودهم. فحين يحلّ اليوم السابع من الشهر السابع، ويكون الموسم قد انتهى، واستنفدت النساء الجُهدَ، يأتي دورهنّ في الحصول على شيء من الرّاحة: في هذا اليوم، يطبخ الرّجال ويقدمون للنساء بأيديهم، ألذّ الأطباق.

بالطبع، في كل مناسبة من تلك المناسبات، يقطع أهل طيّبة عشرات اللّيات، طلباً لمغني مادريغال، وناس-تامّين يدفعون لهم الكثير ليؤدّوا رقصة الأسد. وبالطّبع، كان الأطفال يُطلقون المفرقات النّارية، ويرتدي الجميع ملابس جديدة: تماماً مثل الاحتفالات بالعام الجديد.

(١٥)- مادريغال طيّبة: شكل قديم جداً من مادريغال بالو، وسابق عليه. يعتمد هذا الشّكل الغنائي أساساً صيغة تجاوب، لذا ندر أن يُستدعى فيه مغنّون منفردون. وطرائقه عديدة ومتنوعة: منها مونولوج الرّجل المتعب من الكدّ في الحقول، الذي يعاني من الوحدة في جيله؛ ودويتو الغناء المتجاوب، من جبل إلى آخر، بين جوقات من مجموعات صغيرة، تقضي وقتها عند مدخل القرية. اللحن ثابتٌ مُدوّنٌ، أمّا الكلمات فتختلف وفقاً للعصر والملابس.

إليكم الأغنية المتجاوبة التي كانت الأشهر منذ بضعة أجيال مضت:

يه- آه، آه، آه...

أنصت يا أصمّ على المنحدن،

جنيّة تغني لك في السّماء،

إن سمعتها فانت العريسُ المنتظر،

لا وحيداً تظلّ في هذا الخلاء

يه- آه، آه، آه...

انظر يا أعمى على الجبل،

أرنبٌ من ذهبٍ يركضُ في هذه الربوع،
أمسك به، ولا تسَلْ ما العملُ،
لا ؟ حزيناً تبقى إذن في بُوسٍ وجوع.

يه - آه، آه، آه...
اسمع يا أعرجُ في الوادي،
سابقِ الرَّائِحَ والغادي،
إن بلغتِ القمّةَ، ناس - تاماً تصيرُ،
لا ؟ تقبلِ إذن هذا المصيرُ.

يه - آه، آه، آه...
في السّماءِ جنيّةٌ وحيدةٌ،
وأنتِ على التّلِّ يا مُقعّدُ،
مدّ يدك واقطفِ الحياة السّعيدةُ،
لا ؟ ابقِ إذن وحيداً مُبعدُ.

فائدة الغناء المنفرد أساساً هي تسليّة القلب، حين يشعر المرء بالوحدة، وهو في الحقول على الجبال. وعلى الرّغم من أنّ اللّحن لا يختلف كثيراً عن لحن الغناء المتجاوب، إلّا أنّه غالباً ما يكون أشدّ حزناً وأكثر غنائية. ورغم كلّ السّنوات التي قضيتها في طيّبة لكتابة هذه الرواية، إلّا أنّني لم أتمكن من جمع سوى أنموذجين:

الأول:

الأرض طيبة، بالزيت تفيضُ
والقمحُ ثَقِيلٌ كالفأسُ
أحضرُ منه ما في الحقل يفيضُ
وبه أفلق منك الرأسُ

الثاني:

أنا أعمى وأنت كسيحُ
فاجلس في العربة، وأنا أسحبُ
بقدمي على الأرض تسيحُ
وأنا بعينيك أرى الكوكب.

مكتبة

t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

كان الخريف مشرفاً على نهايته، وقمرٌ ضئيلٌ شحيحٌ قد ارتفع عند حواشي الحقول المحصودة التي ينبعث منها أريجٌ يجتاح العالم، خليطٌ من عطر الحبوب الدافئ، ورائحة التراب النفاذة. هناك مكث جالساً مبهوتاً، حتى وقت متأخر من الليل. وفي النهاية، كأنها حرص على أن يعتذر اعتذارات عميقة كبر، قرص فخذها ولطمها بوحشية عدة مرات، قبل أن يجثو على ركبتيه، ويركع ثلاث ركعات شطر ما يفترض أنه اتجاه روسيا، مسقط رأس الرجل العظيم، مردداً في قرارة نفسه شدة أسفه: "سامعني، غداً تصدر مذكرة في شأن الجهود التي ينبغي بذلها في إقليم شوانهواي لجمع الموارد اللازمة للحصول على رفات لينين" ومن ثمّ تُعتم على كل لجنة، وكل مكتب وكل مقاطعة.

غالباً ما يشتغل الخيال السردّي معاكساً السياسة. فالسردُّ يسعى إلى أن يعكس واقع تجربتنا في العالم، ويمنحها التماسك والمعقولة؛ بينما تقترح السياسة نسخاً من هذا الواقع، لا تعكس حقيقته، بقدر ما تشوّهها. ويصف الروائي يان ليانكه السياسة، كما تمارس اليوم، بأنها "استراتيجيات فقدان الذاكرة الجماعية" التي من خلال الوثائق التاريخية المزورة، والكتب المدرسية المضللة، والرشاوى، والرقابة القوية، تمجّد فوائد النسيان.

جريدة الباييس الإسبانية

قبيلات لينين رواية متعة ودراما، رواية فضلاً عن بنائها العبقري الذي يمزج بين كمّ من السجلات والنبرات، هي توليفة أدبية ذات كثافة مذهلة. باختصار، هذه الرواية "إنجاز".

جريدة لوموند الفرنسية

يان ليانكه
قبيلات لينين



9 789921 723557

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

